

السيرة النبوية

في ضوء القرآن والسنة

«دراسة محررة، جمعت بين أصالة القديم وجدة الحديث»

الدكتور

محمد بن محمد أبو شبة

الجزء الثاني

دار الفاء
دمشق

طبعة دار القلم الثانية
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع

رئيسة - حلب - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره
على الدين كله ولو كره المشركون﴾ .
(قرآن كريم)

«والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من
صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على
غنمه» .
(حديث نبوي صحيح)

﴿رَبَّنَا وابعث فيهم رسولاً منهم، يتلوا عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم﴾.

[قرآن كريم]

«في علم السيرة علم الدنيا والآخرة».

[الإمام الزهري]

«كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا ويقول: يا بني هذه شرف آبائكم فلا تضيّعوا ذكرها».

[إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص]

مقدمة الطبعة الثانية

المحمود الله جلّ جلاله، والمصلّى والمسلّم عليه سيدنا محمد وآله.

أما بعد:

فقد طبع هذا القسم الثاني من السيرة النبوية منذ بضع سنين، وقد لقي - والله الحمد والمنة - رواجاً وقبولاً عند قارئيه، وقد نفذت طبعته الأولى بعد صدورها بزمان غير بعيد، وقد شُغلت عن إعادة طبعه باهتمامي بإبراز القسم الأول، وقد ظهر - والحمد لله - وأشرف على النفاذ.

وقد رغب إليّ الكثيرون ممن حرصوا على اقتناء القسم الأول من هذه السيرة العطرة أن أعيد طبع القسم الثاني حتى يستكملوا السيرة بقسميها، وقد جاءت هذه الطبعة - كما هي سنة الله في التطور والارتقاء - مزينة بزيادات قيّمة ومحقّقة غاية التحقيق، فقد استدركت فيها أموراً فاتت، وزدت بعض مباحث مهمة، وتعليقات وتحقيقات مفيدة، استفدتها من ملازمة البحث والدرس.

ولا أكتمك - يا قارئ الكريم - أني كتبت هذه السيرة بعقلي وقلبي ووجداني، فلا عجب أن أرضت العقل والقلب والوجدان، كما أقر بذلك المنصفون.

وأني عنيت فيها بالتعليق والتحليل لمواقف الرسول والصحابة، والموازنة والمقارنة والاستنتاج، وبذلك جمعت بين أصالة القديم وجدة الحديث.

كما عنيت فيها برد أباطيل المستشرقين والمبشرين ومن تابعهم من الكتاب

المعاصرين، بالنصفة واتباع قواعد البحث العلمي الصحيح، مع العفة في القول، والقصد في التسفيه (وما راء كمن سمعا).

فإليك يا سيدي يا رسول الله أقدم سيرتك الفذة العطرة، مشرقة مجلوة كمروس في ليلة عرس، راجياً شفاعته لي ولوالدي يوم تُنشر الكتب ويكون الحساب.

المحب لله ولرسوله
محمد بن محمد أبو شهبه

* * *

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي أرسل رسوله محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره الكافرون، والصلاة والسلام على رسولنا محمد إمام المتقين، وسيد المجاهدين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، جاءنا بالشرعية السمحة التي ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وعلى آله وصحابه الذين آمنوا به، وعزروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو القسم الثاني من قسمي السيرة النبوية، من بعد الهجرة إلى الوفاة النبوية، وقد كانت الهجرة للإسلام والمسلمين قوة وعزة ونصراً وفتحاً، ولذلك لهما وضعوا التاريخ في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لم يجدوا حدثاً أحق أن يبدأوا به من الهجرة^(١).

(١) أما في الجاهلية فقد كانوا يؤرخون بالأحداث العظيمة، كحادث الفيل، وقد جاء الإسلام وهم على هذا، ثم في صدر الإسلام أرخوا بشهر المبعث وهو شهر ربيع الأول الذي فيه نبيء النبي ﷺ، ثم لما هاجر المسلمون إلى المدينة اتخذوا منها مبدأ التاريخ، وتناسوا ما قبلها، إلا أنهم سمو كل سنة أتت عليهم باسم حادثة وقعت فيها، كسنة القدوم، وسنة الإذن، وسنة الأمر، وسنة الابتلاء.

واستمر الأمر على هذا المنوال إلى خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه، فيقال إن أبا موسى الأشعري كتب إليه: إنه يأتينا من أمير المؤمنين كتب لا ندري بأنها نعمل؟ وقد قرأنا صكاً محله شعبان فلم ندر: أي الشعبانين الماضي، أم الآتي، وقيل إنه - رضي الله عنه - رفع إليه صك محله شعبان، فقال: أي شعبان هو؟ ثم قال: إن الأموال كثرت فينا، وما قسمناه غير موقت، فكيف التوصل إلى ضبطه؟ ثم قال: ضعوا للناس تاريخاً يتعاملون عليه، ويضبط أوقاتهم، فتشاوروا في الأمر حتى ارتضوا الهجرة مبدأ للتاريخ على السنين، لا على الأحداث. (روح المعاني، ج ١٠ ص ٩٠).

وفي هذا الدور من الدعوة أذن الله للمسلمين في الجهاد، وكانت أولى الوقائع المشهورة غزوة بدر الكبرى التي كانت نقطة تحول في تاريخ الإسلام، وما زال النصر يتتابع ويتوالى حتى كان فتح الفتوح، وهو فتح مكة، وبه دخل البلد الحرام الذي هو أحب البلاد إلى الله في حظيرة الإسلام، ودخل الناس فيه أفواجا من كل فج، وعمَّ الإيمان والأمان في الجزيرة، وصدقت نبوءة الرسول: «والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه». رواه البخاري.

ولم يجاور الرسول الرفيق الأعلى حتى كانت الجزيرة كلها على قلب رجل واحد، مؤمنة موحدة، ثم حمل أصحابه الأبطال المغاوير الأمانة من بعده، وساروا على هديه ونهجه، وجاهدوا ورابطوا، وكان لهم في الجهاد بطولات نادرة، وتضحيات غالية، حتى ركعت الدولتان العاتيتان آئذاً - فارس والروم - على ركبتيهما، وثُلَّتْ عروش، وأديلت دول، وشرَّق الإسلام وغرَّب.

ولم يكد يمضي قرن من الزمان حتى بلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار، وامتدت دولة الإسلام من بلاد المغرب غرباً إلى بلاد الصين شرقاً، وتحقق وعد الله لعباده الصالحين:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ
كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ
ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١).

أبو السادات
محمد بن محمد أبو شبة

(١) سورة النور: الآية ٥٥.

بين عهدين : العهد المكي والعهد المدني

لقد مكث النبي صلوات الله وسلامه عليه يدعو إلى الله على بصيرة ثلاثة عشر عاماً بمكة، وأهلها واقفون عقبة كأداء في سبيل الدعوة، فلم يدخل في الإسلام طوال هذه المدة إلا عدد قليل لا يتناسب وهذه المدة من عمر الدعوة الإسلامية، حتى أذن الله للنور أن ينتشر، فيمّم النبي وجهه شطر قبائل العرب ووفودهم في موسم الحج، فوجد هذا النور من أهل المدينة - طيبة - عيوناً مفتوحة، وأذاناً صاغية، وقلوباً واعية، وسرعان ما سرى النور في المدينة كما يسري نور البدر في ظلمات الليل فيبدها، والماء العذب في الأرض الجذبة فينبتها، واحتضنت المدينة الإسلام والمسلمين كما تحتضن الأم الرؤوم أولادها، ووجد المسلمون في الأنصار خير إخوان وأعوان عرفتهم الدنيا في تاريخها الطويل.

وقد كان المحور الذي تدور عليه الدعوة في مكة انتزاع العقائد الضارة من شرك ووثنية، وإنكار للبعث والنبوات، وتثبيت العقائد الصحيحة في النفوس من توحيد، وإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وإقامة الأدلة العقلية والوجدانية والأفاقية والأنفسية على ذلك، ليؤمن من آمن عن بيّنة واقتناع، ويكفر من كفر عن تعنت وعناد، وقد مكث النبي في هذه الفترة يعلم ويلقّن ويربّي ويتعهد، حتى صنع طرازاً فريداً من الرجال، كانوا اللبنة الأولى التي منها أسس الإسلام وعليها قام صرحه العالي المنيف.

وطبعي أن يكون اتجاه الدعوة في مكة إلى هذه العقائد، فقد بعث النبي بين قوم وثنيين لا يؤمنون ببعث ولا رسالة، فكان المنهج المنطقي القويم في

الدعوة أن يؤمنوا بهذه الأصول أولاً، حتى إذا اطمأنت قلوبهم بالإيمان،
وانشرفت صدورهم للإسلام، سهل عليهم تقبل التشريعات من حلال
وحرام، وهذا ما كان.

وقد كان اتجاه الدعوة في مكة أيضاً إلى أصول التشريعات العامة والآداب
والفضائل التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وذلك كالحث على الثبات على
العقيدة، والصبر والتحمل في سبيلها، والأمر بالصلاة والصدق والعفاف، وبر
الوالدين وصلة الرحم والعدل والإحسان، والتواصي بالحق والخير، والنهي عن
الردائل كالقتل وواد البنات، والظلم والزنا، وأكل أموال الناس بالباطل إلى غير
ذلك.

أما في العهد المدني فقد بدأت الدعوة الإسلامية تتجه اتجاهاً آخر، ولم تعد
مقصورة على مكة وما جاورها، بل وجدت أمامها آفاقاً فسيحة، ودنيا عريضة في
جزيرة العرب وخارجها، ووجدت أرضاً خصبة تقبلت الإسلام بقبول حسن،
وأخذت عالمية الإسلام تأخذ طريقها إلى الأمم والشعوب، فلم تمض بضع
سنوات حتى أرسل النبي ﷺ بالكتب إلى الملوك والأمراء والرؤساء، داعياً إياهم
إلى الدخول في الإسلام وإلى كلمة سواء: ﴿أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ
شَيْئاً، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فمنهم من أطاع، ومنهم من
أبى ورد رداً سيئاً، ومنهم من رد رداً حسناً.

والإسلام دين عام خالده، نزل للبشرية جمعاء، لا فرق بين عربي وغير
عربي، ولا بين أبيض وأسود، ففي الكتاب الكريم:

﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(١).

وفيه أيضاً يقول الله على لسان رسوله:

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنِ لِتُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(٢).

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٩.

ويقول الله سبحانه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

وفي الحديث الذي رواه البخاري عن النبي ﷺ: «أعطيت خمساً لم يُعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة...» ورواه مسلم بلفظ: «وبعثت إلى كل أحر وأسود» وفي رواية: «وبعثت إلى الخلق كافة».

والحق ما لم تكن له قوة تؤيده وتفسح له الطريق كي يأخذ سبيله إلى القلوب والعقول كان حقاً مضيقاً، فكان لا بد في هذا العهد من تشريع القتال في الإسلام، ولو أن المناهضين للدعوة اكتفوا في ذلك بالحجاج والكلام، لقابلهم الإسلام بالمثل ولكان له الفوز والغلب. ولكنهم سلكوا مسلك القوة، وحلوا السلاح، فكان من العدل والحق أن تقابل القوة بالقوة، والسلاح بالسلاح، ولا سيما وقد أضحى للمسلمين قوة وكيان.

وقد كانت هذه الفترة من عمر الإسلام أخصب الفترتين، ففيها نزلت معظم التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في الحلال والحرام، والعبادات والمعاملات والحدود والجنايات، والحروب والمعاهدات، والعلاقات الدولية، والنظم السياسية، وذلك لأن حياة المسلمين في المدينة بدأت في الاستقرار، وأصبح لهم دولة وسلطان، ومن شأن الجماعة التي لها رابطة تربطها أن تكون في مسيس الحاجة إلى تشريع يتكفل بما تحتاج إليه في دينها ودنياها.

وشيء آخر: ذلك أن التشريعات العملية — ولا سيما الحدود والجنايات — مرتبطة بسلطان الحكم التنفيذي، فلا تشريع لمن لا يملك حق التنفيذ.

وقد أشارت إلى هذه الحكمة التشريعية السيدة العاقلة العالمة عائشة

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

رضي الله عنها، قالت: «إنما نزل من القرآن أول ما نزل منه سورة»^(١) من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولونزل أول شيء «لا تشربوا الخمر» لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولونزل: «لا تزنا» لقالوا: «لا ندع الزنا أبداً» (رواه البخاري).

وكما مُني المسلمون بمكة بالمشركين والوثنيين مُنوا في المدينة باليهود والمنافقين، وبذلك أصبح المسلمون في المدينة أمام قوى ثلاث تصارع الإسلام وتحاربه: قوة المشركين، وقوة المنافقين، وقوة اليهود.

وهؤلاء المنافقون وهم خليط من عرب المدينة ويهودها وإن لم يعلنوها حرباً سافرة فقد كانوا أشد خطراً على الدعوة من غيرهم، لأن العدو المكاشف أهون شأنًا من العدو المخالط المتستر تحت ستار من الخداع والتمويه، وقد شاء الله سبحانه أن يصرع الإسلام هذه القوى الثلاث، وأن يقضي عليها قضاءً مبرماً وأن يبقى الإسلام خفاق الراية، عالي المنار، يعلو ولا يعلى عليه.

وبعد: فهذا إيجاز لا بدُّ له من توضيح وإجمال يحتاج إلى كثير من التفصيل، وهذا ما سنعرض له في البحوث الآتية إن شاء الله، فاللهم أعن، وسدّد، وحقق.

(١) لعل مرادها سورة المدثر، فإنها أول ما نزلت بعد فترة الوحي، ففيها الأمر بتوحيد الله وذكر الجنة والنار، أو أن مرادها بالسورة الجنس أي سور من المفصل، وسور المفصل — ومعظمها نزل بمكة — تدور حول تثبيت العقائد والدعوة إلى الفضائل، وذكر الجنة والنار، وهذا الثاني أرجح.

منزلة المساجد في الإسلام

قبل أن أعرض لبناء مسجد قباء ومسجد المدينة أرى لزماً علينا أن نتعرف منزلة المساجد في الإسلام.

والمساجد بيوت الله في الأرض:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(١).

ومهيبط الملائكة، ومثوى عباد الله الصالحين في الأرض، فيها يصل المسلم حباله بحبال السماء، ويزكي نفسه، ويسمو بروحه حتى تصل إلى معارج القدس، ثم هي إلى ذلك مصحات للأبدان كما هي مصحات للأرواح، فلا بد لمن يغشاها مصلياً أن يتطهر من الأحداث والأنجاس في النفس والثوب والمكان، وهي المستراح لمن لا مستراح له، والمأوى والملجأ لمن لا مأوى له.

وهي منازل أدب ووقار، فلا رفع فيها لصوت، ولا للغو، ولا فسوق، وهي منازل طهر ونظافة وتجميل، وقد جاء في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد وكاد الصحابة أن يتناولوه بالأذى فمنعهم قوله ﷺ: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن» فلا يجوز أن تكون المساجد للبيع والشراء، والعبث واللغو، ولا لنشدان الضالة، ولا لإثارة الأهواء والمنازعات والمشاحنات السياسية ونحوها، ولا للخلافات الدينية. وقد كان من أدب رسول الله ﷺ في الموعظة

(١) سورة الجن: الآية ١٨.

التلويح لا التصريح، فكان يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا» وهي طريقة فذة مبتكرة في التربية والتهذيب.

وفي الحق أن المساجد في صدر الإسلام ولا سيما المسجد النبوي كانت تؤدي خدمات دينية، وعلمية، واجتماعية، وصحية وحربية، فكانت متعبداً تؤدي فيها المسلمون شعائر دينهم، وكانت تقوم مقام المعاهد والجامعات في التربية والتعليم والتهذيب، ومقام الجمعيات الخيرية في جمع الصدقات والمساعدات والتعاون على البر والخير، وكانت تقوم مقام الملاجئ والمبرات، يلجأ إليها الفقراء من لا مال لهم ولا دار، فيجد فيها المسكن والمأكل والمشراب، كما كان الحال في أهل الصُّفَّة^(١)، أضياف الله وأضياف الإسلام.

وكانت منتديات يجتمع فيها المسلمون فيتآلفون ويتحابون، ويتشاورون في مصالحهم الدينية والدنيوية، ويرمون ما يرتأون، وكانت تصنع بالمسجد النبوي السهام وآلات الجهاد، وتنصب به الخيام يستقبل فيها جرحى الحروب ويمرضون ويعالجون، وكان يجتمع به بعض المسلمين، فيتمرنون على فنون الحرب والقتال^(٢) وهكذا نجد أن المساجد في صدر الإسلام كانت تؤدي من الخدمات ما تقوم به جهات عدة في عصرنا الحديث.

بناء مسجد قباء

فلا تعجب والمساجد في الإسلام على ما ذكرنا أن كان أول عمل قام به الرسول في المدة التي أقامها في بني عمرو بن عوف أن يبني مسجد قباء، وهو المسجد الذي أشار إليه الحق تبارك وتعالى في قوله:

-
- (١) الصفة: الموضع المظلل من المسجد، وكانت في مؤخرة المسجد النبوي، أعد لتزول الغرباء عن لا مأوى لهم ولا أهل وكانوا يكثرون فيه ويقبلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر، وقد سرد أسماءهم أبو نعيم في الحلية فزادوا عن مائة.
- (٢) راجع صحيح البخاري - كتاب الصلاة - أبواب المساجد، تجد الإمام البخاري عقد لكثير مما ذكرت باباً مستقلاً.

﴿لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١).

روى الطبراني بسنده عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا...﴾، بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال: «ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟».

فقال: يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو قال مقعدته، فقال النبي ﷺ: «هو هذا» وروى نحوه أيضاً أبو داود والترمذي وابن ماجه.

وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء، ويؤيد رأي هؤلاء أن سياق الآيات القرآنية إنما هو في مسجد قباء، وهو الذي قصد أهل مسجد الضرار أن يصدوا الناس عنه بمسجدهم. وذهب آخرون إلى أنه مسجد المدينة، واستدلوا بما ورد في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ فأخذ كفاً من الحصاء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا».

والذي نرجحه أنه مسجد قباء لظاهر الآية والسياق، ولا تنافي بين الآية والحديث، لأنه إذا كان مسجد قباء أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد المدينة بطريق الأخرى والأولى، وهذا الحديث ذكر في معرض المفاضلة، وليس من شك في أن مسجد النبي ﷺ أفضل وهو خير المساجد بعد المسجد الحرام (٢) ولو أن النبي قال: «هو مسجد قباء» لتوهم متوهم أن مسجد النبي لم يؤسس على التقوى، ولا اتخذ البعض من هذا ذريعة للتقليل من شأن المسجد النبوي، فهذا هو السر في هذا الجواب الحكيم.

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٨.

(٢) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ٤ ص ٢٤٢؛ البداية والنهاية، ج ٣ ص ٢٠٩.

وقد ورد في مسجد قباء أن جبريل عليه الصلاة والسلام هو الذي أشار للنبي ﷺ إلى موضع قبلته.

ولما كان قباء أول مسجد بني في الإسلام وجُعل لعموم الناس من هذه الأمة، فقد كان النبي ﷺ يحمل له ذكريات كريمة في نفسه، وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه كان يزوره كل يوم سبت تارة راكباً وتارة ماشياً، وفي الحديث الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة» رواها الشيخان.

وروى الترمذي عن أسيد بن ظهير عن النبي ﷺ قال: «الصلاة في مسجد قباء ركعتين أحب إليّ من أن آتي بيت المقدس مرتين، لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل»، وروى ابن ماجه عن سهل بن حنيف أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته، ثم أتى مسجد قباء فصلّى فيه صلاة كان كأجر عمرة».

وقد زرت مسجد قباء - والله الحمد والمنة - غير مرة وأنا في طريقي إلى مسجد الرسول ﷺ، وجلست فيه وصليت فيه مراراً.

وَصُولُ النَّبِيِّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَنَائُهُ الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ

أقام النبي ﷺ بقباء بقية وصوله، وهو يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، ثم خرج يوم الجمعة قاصداً البلد الطيب (طيبة)، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في المسجد الذي ببطن الوادي: وادي (رانوناء)^(١)، وهي أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بالمدينة، بل قيل: هي أول صلاة جمعة^(٢) صلاها مطلقاً، لأنه لم يكن يتمكن في مكة من الاجتماع بأصحابه حتى يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان وموعظة لشدة مخالفة المشركين له وإيذائهم إياه وأصحابه، وفي هذه الجمعة خطب المسلمين خطبة بليغة مؤثرة تفيض بالإيمان واليقين، والمواعظ والزواجر، والترغيب والترهيب، وها هي الخطبة:

قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله، أحمدُه وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط، وضلّ ضلالاً بعيداً.

(١) بين قباء والمدينة، ويعرف هذا المسجد اليوم «بمسجد الجمعة».

(٢) أما صلاة الجمعة جماعة فقد حدثت قبل مقدم النبي وكان أول من جمعهم على صلاة الجمعة أبو أمامة أسعد بن زرارَةَ النجاري أحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة الثانية.

رواه ابن إسحاق وأبو داود وابن ماجه من طريقه.

وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذرکم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية ولا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، ﴿ويحذرکم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ هو الذي صدّق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك، فإنه يقول تعالى: ﴿ما يُبدّل القول لديّ، وما أنا بظلام للعبيد﴾.

واتقوا الله في عاجل أمرکم وآجله، في السر والعلانية، فإنه ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً. وإن تقوى الله توقّي مقتته، وتوقّي عقوبته، وتوقّي سخطه، وإن تقوى الله تبيّض الوجه، وترضي الرب، وترفع الدرجة.

خذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، ولا قوة إلا بالله.

فاكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفيه ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

روى هذه الخطبة الإمام محمد بن جرير، وفي السند إرسال، وقد حرصت على ذكرها كلها لأن فيها قبساً من نور الوحي، وحكماً من حكم النبوة، وهي نموذج رائع من كلمه الجوامع، وحكمه النوايع، وفيها القدوة لمن يحب أن يقتدي بالرسول في خطبه، ويحتذي به في مواعظه.

توسل الأنصار إلى الرسول أن ينزل عندهم

ثم أتاه رجال من بني سالم بن عمرو بن عوف فقالوا: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة^(١)، ويتشبثون بزمام الناقة - ناقتة القصواء -، فيقول لهم: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، وكلما مر بدار من دور الأنصار في الطريق عرضوا عليه أن ينزل عندهم في العدد والعدة والمنعة، فيقول لهم مثل قوله الأولى، حتى وصلت الناقة إلى موضع مسجده الشريف فبركت عنده، ورسول الله ﷺ راكب عليها لم ينزل، ثم ثارت الناقة^(٢)، وسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها ورجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه وألقت بجرانها^(٣).

فنزل رسول الله ﷺ فتنازعه الملاء أيهم ينزل عليه، فقال: «إني أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك»^(٤). ثم سأل: «أي دور أهلنا أقرب؟» فقال السيد الجليل أبوأيوب الأنصاري: أنا، فاحتمل رحل رسول الله ﷺ إلى منزله، فقال رسول الله ﷺ معتذراً بلطف عن النزول عند غير بني النجار «المراء مع رحله».

ثم جاء أسعد بن زرارة نقيب بني النجار ليلة العقبة الثانية، وقد فاته شرف نزول رسول الله ﷺ عنده، فأخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ فكانت عنده، واعتبر هذا شرفاً وكرامة له.

وكان نزول رسول الله ﷺ بدار السيد أبي أيوب الأنصاري منقبة عظيمة له ولبني النجار جميعاً، وقد كان في المدينة دور كثيرة تبلغ تسعاً، كل دار محلة مستقلة بمساكنها، ونخيلها، وزروعها وأهلها، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا

(١) العدد: الكثرة. العدة - بضم العين -: السلاح. المنعة: القوة وحماية الجار.

(٢) ثارت: قامت.

(٣) جرانها: مقدم عنقها.

(٤) وطبعي أن لا يغضب أحد من أشراف المدينة، لأن أحق الناس به هم أقرباؤه وأهله، وبهذا التصرف الحكيم تخلص الرسول الكريم من هذا الموقف المحرج حقاً.

في محلتهم، وهي كالقرى المتلاصقة، فاختار الله لرسوله ﷺ دار بني مالك بن النجار تكريماً لهم لحؤولتهم لرسول الله.

وقد أثنى رسول الله ﷺ على جميع دور الأنصار، فقد ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير»، فقال سعد بن عبادة: ما أرى النبي ﷺ إلا قد فضل علينا، فقيل: قد فضلكم على كثير، وفي رواية أخرى عن أبي حميد الساعدي عن النبي، وزاد فيه فقال أبو أسيد لسعد بن عبادة: ألم تر أن رسول الله ﷺ خير الأنصار فجعلنا آخراً، فأدرك سعد النبي ﷺ فقال: يا رسول الله خيرت دور الأنصار فجعلتنا آخراً؟ فقال: «أوليس بحسبكم أن تكونوا من الأخيار» وإنما لكياسة في الجواب لن تكون إلا من صاحب العقل الكبير، والصدر الرحيب، والقول الفصل البليغ.

اليوم المشهود

وكان يوماً مشهوداً في تاريخ الدنيا يوم دخل النبي ﷺ المدينة راكباً ناقته القصواء وأبو بكر الصديق ردفه^(١)، وملأ بني النجار حوله متقلدين سيوفهم يرهبون بها أعداء الله ورسوله، ومن تسوّل له نفسه من اليهود والمشركين أن ينال من رسول الله، وليعلموهم أنه إذا كان ترك أهله ووطنه إلى الله، فلا يزال في عزة ومنعة من أخواله وأتباعه وأنصاره، إنه لمشهد معبر يغني عن الكلام والخطب!!

وخرجت المدينة كلها بشبابها وشبيها، وصبيانها ونسائها وولائها، لتشارك في استقبال القادم الكريم، وليملأوا عيونهم من هذا الذي أصبح ذكره على كل لسان، وأنصاره في كل بيت.

(١) ردفه يعني خلفه، وقد كانت للصديق ناقه، ولكن رسول الله أراد ذلك تكريماً للصديق، وليرى الناس في هذا اليوم المشهود منزلة الصديق منه.

روى الإمام أحمد - في وصف هذا المشهد الحافل - عن أنس بن مالك قال: (إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد، فأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون جاء محمد، فأسعى ولا أرى شيئاً، قال حتى جاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر، فكمنّا في بعض خراب المدينة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية يؤذن بهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة حتى إن العواتق^(١) لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو، فما رأينا منظراً شبيهاً به. قال أنس: فلقد رأيته يوم دخل علينا ويوم قبض، فلم أر يومين شبيهاً بهما).

وخرجت جوار^(٢) - بنات - من بني النجار يضربن بالدفوف وهن يقلن:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال: «أتحييني؟» فقلن: إي والله يا رسول الله فقال: «وأنا والله أحبكم» ثلاثاً. وفي صحيح البخاري ومسلم في حديث الهجرة: «وخرج الناس حين قَدِمَا المدينة في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء رسول الله»^(٣).

(١) العواتق: جمع عاتق، وهي الشابة أول ما تدرك.

(٢) جوار: جمع جارية وهي الشابة أمة كانت أوحرة.

(٣) أما ما يذكره بعض كتاب السيرة من أنهم قالوا:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

فقد خالفه المحققون كابن القيم، والحافظ العراقي، والحافظ ابن حجر، وقالوا: إن

ذلك كان مرجعه من تبوك، وذلك لأن ثنية الوداع من جهة الشام لا من جهة مكة

[شرح المواهب ج ١ ص ٤٣٤].

في دار أبي أيوب الأنصاري

وأقام رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب معزراً مكرماً سبعة أشهر، حتى بنى المسجد وبنيت دور أهله ونسائه فانتقل إليها، ونزل رسول الله ﷺ أول ما نزل في سُفل دار أبي أيوب، وقد آلم أبا أيوب أن يكون رسول الله في السفلى، وألحَّ عليه أن يكون في العلو، حتى بين له النبي ﷺ أن ذلك أرفق به وبمن يأتيه من المسلمين والزائرين، فقد كانت دار أبي أيوب متندى يجتمع فيه المسلمون.

وبالغ أبو أيوب في إكرام رسول الله ﷺ، وما كانت تطيب نفسه أن يأكل حتى يأكل رسول الله، فكان يهيئ الطعام ويرسله إلى النبي، فإذا عادت القصة سأل عن موضع أصابع النبي فيأكل حيث أكل. وفي ذات مرة صنع طعاماً وكان فيه ثوم لم تذهب رائحته، فسأل عن موضع أصابع الرسول فقيل له: لم يأكل منه، ففزع وذهب إليه وقال: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: «لا، ولكنني أكرهه، فإني أناجي من لا تناجي»^(١) يريد الملائكة، وهي تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم.

وفي مرة أخرى كُسرت لأبي أيوب جرّة فيها ماء، ففزع أبو أيوب والسيدة أم أيوب زوجه، وأسرعوا إلى قطيفة لهما كانا يعتزّان بها، فأخذاها وصارا يحفظان بها الماء خشية أن يسيل الماء إلى أسفل البيت فيتأذى منه رسول الله أوزوَّاره.

وقد بلغ من أدب أبي أيوب وأهله — لما امتنع الرسول أن يصعد إلى العلو — أنهم كانوا لا ينزلون في المكان المسامت لرسول الله من العلو استحياء من الله ورسوله، وهكذا فليكن الأدب، والقيم الروحية العالية، ومع اعتذار رسول الله عن الصعود إلى العلو لم يزل به أبو أيوب، يرجوه ويلح في الرجاء، حتى قبل رسول الله ﷺ أن يكون في العلو، إذ قد خف الزوار ولم يعد هناك من حرج.

(١) رواه الشيخان.

وتسابق الأنصار في إكرام وفادة رسول الله ﷺ، فما من ليلة إلا وتجد على دار أبي أيوب القصاع والجفان يأكل منها من يشاء، ويدع من يشاء، وكذلك تسابقوا في إيواء المهاجرين وإكرامهم، وعرضوا عليهم أن يقاسموهم دورهم وأموالهم، بل وأعز شيء لديهم وهو التنازل لهم عن بعض أزواجهم كي ينكحوهن إذا رغبوا، ولكن المهاجرين أبوا واكتفوا منهم بالارتفاق والمواساة، وقد ضرب الأنصار في مواساة إخوانهم المهاجرين مثلاً علياً تذكر بالإعظام والإكبار، وسنوفيهم حقهم فيما يأتي إن شاء الله.

وقد صارت دار أبي أيوب التي حظيت بهذا الشرف الرفيع إلى مولاه أفلح بعد وفاته، فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار، وأصلح ما وهى من بنائها، ووهبها لأهل بيت فقراء.

وقد ذهبت إلى هذه الدار وأنا بالمدينة في زيارة رسول الله ومسجده، وهي بالقرب من المسجد النبوي، وأهاجت الدار الذكرى، وحركت لواعج الشوق والحب لأهلها الأخيار، فله أنت يا دار أبي أيوب.

جميل بجميل

ودارت الأيام دورتها، وقدم السيد الكريم أبو أيوب الأنصاري البصرة، وكان عليها يومئذ سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنها والياً من قبل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فوجد ابن عباس الفرصة سانحة لردّ الجميل المذكور لسيدنا أبي أيوب، فخرج له عن داره وأنزله فيها كما أنزل رسول الله في داره، وملّكه كل ما أغلق عليها بابها، ولما أراد الانصراف من البصرة ودّعه وأجزل له العطاء.

وما كان أبو أيوب - علم الله - ليرجو على ما عمل جزاء من أحد، ما كان يرجو إلا رضاء الله ورسوله، ولكنه أدب من آداب الإسلام، ردّ المعروف بمثله أو بخير منه، وأحق من رعى هذا الأدب الرسول وآله الكرام، وقد قال معلّم الناس الأدب والخير ﷺ: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه عليه، فإن لم تقدروا فادعوا له بخير» رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح.

إسلام عبدالله بن سلام وبعض أهله

وفي أثناء مقام الرسول بدار أبي أيوب الأنصاري قدم عليه أحد أحوار اليهود وعلمائهم وهو عبدالله بن سلام، وكان يعلم من كتبهم أوصاف النبي المبعوث في آخر الزمان. فلما جاء إلى النبي سأله بعض أسئلة تأكد منها أنه نبي، لأنه ما يعلمها إلا نبي، فأسلم وقال للرسول: لا تعلن إسلامي حتى تسأل اليهود عني، لأنهم إن علموا إسلامي فسيتقصوني.

فأرسل إليهم النبي وسألهم عنه، فقالوا: خيرنا وابن خيرنا، فلما أخبرهم بإسلامه قالوا: شرنا وابن شرنا. وإليك هذه القصة كما رواها البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال:

«... فلما جاء نبي الله صلى الله عليه وسلم جاء عبدالله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنت جئت بالحق، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا في ما ليس في».

فأرسل نبي الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً وأني جئتكم بحق، فأسلموا» قالوا: ما نعلمه.

قال: «فأي رجل فيكم عبدالله بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: «أفرايتم إن أسلم؟» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، وكررها وأجابوه - ثلاثاً - قال: «يا ابن سلام اخرج عليهم»، فخرج، فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت. وفي رواية أخرى أنهم قالوا: شرنا وابن شرنا وتنقصوه. قال هذا ما كنت أخاف يا رسول الله^(١). وقد أسلم

(١) صحيح البخاري «باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة» و«باب إتيان اليهود النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة».

بإسلامه أهل بيته، وعمّة له تسمّى خالدة بنت الحارث^(١).

وأما غيره من أحبار اليهود فقد طمس الحقد والحسد على قلوب الكثيرين منهم، وأبوا أن يؤمنوا، فكان عاقبة أمرهم خسراً ووبالاً في الدنيا والآخرة، كما سيأتي إن شاء الله.

(١) فتح الباري ج ٧ ص ٢٠٢.

بناء المسجد النبوي

وفي المدة التي أقامها رسول الله بدار أبي أيوب بُني المسجد النبوي، وقد بنوه في المكان الذي بركت فيه الناقة، وكان في الأصل حائطاً - بستاناً - فتحُربُ بعضه فبنيت فيه قبور، وأُخذ بعضه مريداً لتجفيف التمر، وكان لغلامين يتيمين بالمدينة، وهما سهل وسهيل ابنا عمرو، وكانا في حجر أسعد بن زرارة، فساومهما النبي فأبيا، وقالا بل نهيه الله ولرسوله؛ ولكن الرسول أبي إلا أن يكون بالثمن. وبهذا التصرف الحكيم ضرب النبي مثلاً كريماً في رعاية حقوق اليتامى، وقطع ما عسى أن تتقوّل به السنة السوء.

وقد ذكر موسى بن عقبة في تاريخه أن الرسول اشتراه بعشرة دنانير، وأن الصديق هو الذي دفعها، وأمر رسول الله ﷺ بالنخل فقطعت، وبالقبور فنبشت، وبالحرب فسويت.

وشرع المسلمون يبنون ورسول الله ﷺ يحمل معهم التراب واللبن وهم يقولون:

هذي الحمال لا حمال خبير هذي أبر - ربنا - وأطهر^(١)

ويقولون:

اللهم إنا الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

(١) الحمال بكسر الحاء: المحمول، أي هذا اللبن على ما ينال العامل في حمله من المشقة والاعترار أبقي ذخراً، وأكثر ثواباً، وأشدّ طهراً من حمال خبير وهي ما يحمل من التمر والزبيب ونحوهما في التجارة، وإنها لروحانية سامية لا تكون إلا من هذه النفوس الزكية.

وكان علي يقول:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعداً
ومن يُرى عن التراب حائداً

وكان بعضهم يقول:

لئن قعدنا والنبي يعمل ذاك إذا للعمل المضل
وفي هذا الارتجاز في الأعمال والأسفار تنشيط للنفوس، وترويح للقلوب،
فيسهل الشاق، ويلين الصعب.

ولما بني المسجد النبوي صار مصلً للمسلمين ومتعبدهم ومنتداهم ومكان
تشاورهم، وكان فيه صُفَّة يأوي إليها الفقراء والمساكين ممن لا مال لهم ولا دار،
ولا يجدون ما يعملون به فيكتسبون، وفيه تلقى دروس العلم والحكمة. وهكذا
كان المسجد النبوي يؤدي خدمات دينية وعلمية واجتماعية وسياسية، وكن على
ذكر مما ذكرنا سابقاً في منزلة المساجد في الإسلام.

الأطوار التي مرَّ بها بناء المسجد النبوي

كان المسجد النبوي في عهده ﷺ مبنياً باللبن - الطوب النيء - وكانت
عمده من جذوع النخل، وسقفه من الجذوع والجريد. وهكذا كانت المساجد في
عهده ﷺ تمتاز بالبساطة وعدم التكلف، ولكنها كانت عامرة بالإيمان والهدى،
والعلم والمعرفة.

يدل على هذه البساطة في بناء المسجد النبوي وغيره ما رواه البخاري
ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك - واللفظ لمسلم - «أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قدم المدينة فنزل في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن
عوف، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة^(١) ثم أرسل إلى ملائكة بني النجار، فجاءوا

(١) في سيرة ابن إسحاق أنه قدم يوم الاثنين وخرج إلى المدينة يوم الجمعة، ويمكن التوفيق
بين ما رواه ابن إسحاق وما ثبت في الصحيح بأن المراد تنمة أربع عشرة ليلة، ويكون
داخلاً فيها المدة التي قضاها رسول الله والصدِّيق في الطريق بعد خروجهما من الغار حتى
دخلوا قباء.

متقلدي سيوفهم قال: فكأنني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته، وأبو بكر ردفه، وملاً بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب.

فكان رسول الله يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، ثم إنه أمر بالمسجد. قال: فأرسل إلى ملاً بني النجار فجاؤوا فقال: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا»، قالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى، قال أنس: فكان فيه ما أقول: كان فيه نخل وقبور المشركين وخرب. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل فقطعت، وقبور المشركين فنبشت، وبالحرب فسويت؛ قال: فصفوا النخل قبله وجعلوا عضاديه حجارة، قال: فكانوا يرتجرون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم^(١) وهم يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

وبقي المسجد النبوي على هذا الحال في خلافة الصديق رضي الله عنه، فلما كان عهد الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه، واتسعت رقعة الإسلام، وكثر الوافدون إلى المسجد، وسَّعه عمر وأبقاه على ما كان عليه في عهد الرسول من بنيانه باللبن، وسقفه بالجريد، إلا أنه جعل عمده من الخشب بدل جذوع النخل. وقد روي عنه أنه قال لمن زاول البناء: (أكنَّ الناس من المطر، وإياك أن تحمَّر أو تصفَّر لتفتن الناس).

فلما ولي السيد الحيمي عثمان رضي الله عنه الخلافة زاد فيه زيادات كبيرة، وبني جدرانها بالحجارة المنقوشة والقصة - الجص - وجعل عمده من الحجارة المنقوشة أيضاً، وسقفه بخشب الساج^(٢).

وقد أنكر بعض الناس على عثمان هذا، واعتبروه إسرافاً وزخرفة، روى البخاري في صحيحه بسنده أن عثمان كان يقول عند قول الناس فيه حين بنى

(١) في رواية البخاري «فتمثل بشعر رجل من المسلمين...» قيل إنه عبد الله بن رواحة،

فالشعر ليس من إنشاء الرسول قطعاً، والعضادة جانب الباب.

(٢) خشب جيد يجلب من الهند.

مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم: إنكم أكثرتم، وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من بنى لله مسجداً بنى الله له مثله في الجنة».

ويعلم الله أن عثمان رضي الله عنه ما قصد الزينة حين بناه بهذا النوع من الحجارة، ولا قصد الإسراف حينما وسَّعه وجعل جدرانه من الحجارة، وسقفه بخشب الساج، فقد كان بيت المال في عهده يفيض بالأموال التي لا تحصى، وإنما هي الضرورة والمصلحة ليتسع المسجد للوافدين من المسلمين، وليكون ذلك أدعى إلى طول البقاء، وعدم تسارع الخلل والخراب إليه.

ثم زيد في المسجد في عهد الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق، وقد قام بهذا نائبه على المدينة عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه، وفي هذه الزيادة أدخلت حجر أزواج النبي ومنها حجرة عائشة التي كان فيها القبر الشريف، ثم زيد فيه زيادات كثيرة فيما بعد، وزيد فيه من جهة القبلة حتى صارت الروضة والمنبر بعد الصفوف الأمامية للمتوجه للقبلة كما هو اليوم.

وما ينبغي أن يعلم أن القبر الشريف ما كان في المسجد أولاً، وإنما دخل فيه لما اضطروا إلى توسعة المسجد، فقد وردت الأحاديث الصحيحة بلعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد، ونهى النبي عن ذلك، ودعا الله أن لا يتخذ قبره وثناً يعبد، ففي الحديث الشريف: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وقد احتاط المسلمون الأولون، فأحاطوا القبر الشريف بحائط مرتفع كيلا يظهر القبر في المسجد فيصلي إليه العوام، فيقعوا في اتخاذ قبره مسجداً، ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوهما حتى التقيا على هيئة رأس مثلث من الشمال حتى لا يتمكن المصلي من استقبال القبر الشريف في الصلاة.

زخرفة المساجد:

وكان أول من زخرف المساجد الوليد بن عبد الملك بن مروان، ومن يومها والناس شرعوا يغالون في بناء المساجد وزخرفتها حتى أصبح بعضها من قبيل المتاحف، تُقصد لما فيها من زخرفة لا للصلاة فيها، وكل ذلك خارج عن هدي

النبوة، ولوروعيت البساطة في بناء المساجد وعدم المغالاة في الزخرفة والتشديد لكان خيراً وأولى.

وقد أخبر الرسول ﷺ بما سيصير إليه حال المسلمين في بناء المساجد وزخرفتها، فقال فيها رواه أنس عنه: «يأتي على أمتي زمان يتباهون بالمساجد، ثم لا يعمرونها إلا قليلاً»، وقال: «لتزخرفنها - أي المساجد - كما زخرفت اليهود والنصارى» رواهما أبو داود في سننه. ولم يزل الخلفاء والملوك المسلمون يتداولون المسجد النبوي من قديم بالتوسعة والعمارة والتشديد حتى أصبح على وضعه الحالي وعلى هيئته الآن.

وكانت آخر توسعة وتشديد ما قام به آل سعود القائمون على شؤون الحرمين، وقد أصبح على حال من قوة التأسيس والسعة والفضامة تليق بهذا المسجد المشرف، الذي تُشدُّ إليه رحال ألوف الألوف من المسلمين من جميع بقاع الأرض، فشكر الله لهم هذا العمل المجيد.

فضل المسجد النبوي

هو أحد المساجد المشرفة التي تُشدُّ إليها الرحال في الأرض، وثانيها في الفضل، وإن كان ثالثها في الزمان والبناء، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس». وفي الصحيحين أيضاً أن رسول الله قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام». وفي مسند أحمد بإسناد حسن زيادة حسنة: وهي قوله: «فإن ذلك أفضل».

وفي مسجد النبي الروضة الشريفة التي هي من رياض الجنة، ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي^(١) ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي».

(١) اشتهر هذا الحديث على الألسنة بلفظ «ما بين قبري» وهو غير صحيح فالرسول لما قال الحديث لم يكن قبراً وإنما كان بيتاً وهي الرواية الصحيحة.

وكيف لا تكون من رياض الجنة والعبادة فيها مما يقرب صاحبها من الجنة، ويباعد بينه وبين النار، فالأعمال فيها ثوابها مضاعف، والدعاء فيها مرجو الإجابة، ويجوارها أشرف بقعة ضُمَّتْ أشرف جسمان على وجه الأرض، وطالما صلى فيها النبي في حياته وقام، وكثيراً ما وعظ فيها وذكر، وبشر وأنذر، وشهدت من أحداث الإسلام وسياسته ما شهدت، والجالس فيها يشعر بروحانية صافية، وراحة نفسية، وإشراق قلب، وانسراح صدر، وينسى فيها بؤس الحياة وآلامها، ويغمره إيمان بصاحب الرسالة وحب يصلان به إلى حظيرة القدس.

وذهب الإمام مالك وأصحابه إلى تفضيل مسجد المدينة على مسجد مكة؛ لأن ذاك بناء الخليل إبراهيم، وهذا بناء نبينا محمد.

والحق ما ذهب إليه جمهور العلماء من تفضيل المسجد الحرام، لأنه في بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وحرمه الخليل وحرمة نبينا، وجعل الصلاة فيه أفضل من الصلاة في المسجد النبوي، وجعل حجه فرضاً مفروضاً، ومن دخله كان آمناً، وفضيلته قد شهد بها التنزيل وصدق الله:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ^(١) مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ ^(٢).

بناء حجر أمهات المؤمنين

وبني لرسول الله ﷺ حجر حول مسجده الشريف، لتكون مساكن له ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك والأكاسرة والقياصرة، بل كانت بيوت من ترفع عن الدنيا وزخارفها، وابتغى الدار الآخرة، فقد كانت كمسجده مبنية من اللبن والطين وبعض الحجارة، وكانت سقفوها من جذوع النخل والجريد،

(١) بكة هي مكة بلد الله الحرام بإبدال الميم بباء، سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبارة الذين يلحدون فيها بظلم، وقيل لأن الناس يجتمعون فيها ويتزاحمون للطواف والسعي.

(٢) آل عمران: الأيتان ٩٦، ٩٧.

وكانت قرية الفناء قصيرة البناء، يناها الغلام الفارع بيده. قال الحسن البصري - وكان غلاماً مع أمه خيرة مولاة أم سلمة - : (قد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي صلى الله عليه وسلم بيدي).

ولما تمت هجرة النبي وصاحبه أبي بكر رجع عبدالله بن أريقط دليلهما إلى مكة، فأرسلا معه زيد بن حارثة وأبى رافع - وهما موليا رسول الله ﷺ - ليأتوا بأهليهما، فذهبا وجاءا ببنتي الرسول: أم كلثوم وفاطمة، وزوجته: السيدة سودة بنت زمعة، وأم أيمن زوج زيد، وابنها أسامة.

أما السيدة زينب فكانت في بيت زوجها أبي العاص بن الربيع حتى أرسلها بعد أن أسر في بدر كما سيأتي، وأما السيدة رقية فكانت مع زوجها عثمان رضي الله عنه. وقدمت معها أيضاً السيدة عائشة، وأمها أم رومان صحبة عبدالله بن أبي بكر، ومن آل أبي بكر أيضاً السيدة أسماء بنت الصديق امرأة الزبير بن العوام، وهي حامل متم بابنها عبدالله بن الزبير.

ولم يكن مع رسول الله حينئذ من أزواجه إلا سودة بنت زمعة التي دخل بها بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها، أما السيدة عائشة فكان عقد عليها ولم يئن بها إلا في شوال بعد مقدمه المدينة بسبعة أشهر. وكان رسول الله كلما بنى بزوجته بنى لها حجرة، حتى اكتملت حجرات نساءه حول المسجد، وكان لكل حجرة بابان: خارجي وداخلي من المسجد، ليسهل دخول النبي إلى المسجد، وقد أضيفت هذه الحجر كلها إلى المسجد لما اضطروا إلى توسعته كما أسلفنا.

حمى المدينة

لما قدم النبي ﷺ وصحبه إلى المدينة كانت أوباً أرض الله من الحمى، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف ذلك عن نبيه. وكان ممن وعكثهم الحمى وهذت من كيانهم الصديق أبو بكر، وعامر بن فهيرة مولاة، وبلال بن رباح، فكان الصديق إذا اشتدت به الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله

وكان عامر يقول:

قد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمي جلده بروقه^(١)

وكان بلال يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتُ ليلة بوادٍ وعندي إذخر وجليل^(٢)
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامةً وطفيل^(٣)

فأخبرت عائشة النبي بما رأت وسمعت فدعا بهذا الدعاء: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدّها، وانقل حماها فاجعلها بالبحفة» رواه البخاري، وقد استجاب الله لنبية الدعاء وصار جو المدينة من أحسن الأجواء، ولم تكن الجحفة حينئذ من بلاد الإسلام، وهي التي كانت مهل أهل الشام ومصر ومن على شاكلتهم، وقد درست الجحفة، والإحرام الآن من «رابغ» قرية قريبة منها على الطريق بين مكة والمدينة.

* * *

(١) الروق: القرن.

(٢) إذخر وجليل: نباتان من نبات البادية.

(٣) شامة وطفيل: جبلان بمكة.

حَالَةُ الْمَدِينَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ

بعد أن قدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة أصبح سكان المدينة يمثلون هذه الطوائف:

المهاجرين

وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم، تاركين الأهل والولد والدور والمال، مجردين من كل شيء إلا من الإيمان، ومنهم من اصطحب معه زوجه وولده، ومنهم من تركهم، وقد عانى المهاجرون في مبدأ قدمهم شدة ومرضاً وغربة ووحشة، ولكنهم لم يلبثوا - بفضل إخوانهم الأنصار - أن تعودوا على جو المدينة، وأن اندمجوا في المجتمع الجديد، وصارت المدينة وطناً لهم، وأبدلهم الله بالأهل أهلاً، وبالمال مالاً.

وكانت الهجرة قبل فتح مكة واجبة وفرضاً على المسلمين من أهل مكة لنصرة النبي ﷺ ومواساته بالنفس، وليكون لهم في تجمعهم في مكان واحد كيان وقوة، ولذلك أنحى الله باللائمة والتوبيخ لمن استطاع الهجرة ولم يهاجر، ولم يعذر إلا المستضعفين الذين ليست لهم قدرة عليها، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكُمْ مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * قَالُوا لَيْتَكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (١).

(١) سورة النساء : الآيات ٩٧ - ٩٩.

وأما بعد الفتح فلم تعد الهجرة واجبة، ففي الحديث المتفق عليه: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» ومع هذا فقد أبى الله ورسوله إلا أن تكون المدينة هي الوطن للمهاجرين، فحرم رسول الله على من هاجر قبل الفتح أن يستوطن مكة بعد الفتح، وأباح لمن قصدها لحج أو عمرة أن يقيم بها بعد أداء نسكه ثلاثاً لا يزيد عليها، ففي الحديث المتفق عليه - واللفظ لمسلم - أن رسول الله ﷺ قال: «يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثاً» ولذلك رثى النبي لسعد بن خولة^(١) أن مات بمكة كما رواه البخاري في صحيحه^(٢).

والحكمة في تحريم الإقامة للمهاجرين بمكة بعد الفتح خشية أن يعتبر هذا رجوعاً في هجرتهم، لأنهم تركوا ديارهم وأهلهم وأموالهم لله، وفي سبيل نصرة رسول الله، فأراد الله سبحانه أن يستمر تركهم لها ابتغاء مرضاته، ليكون شاهد صدق على قوة إخلاصهم، وعظمة نفوسهم، وسمو أخلاقهم، وليكونوا قدوة حسنة لمن يحيى بعدهم أن من ترك شيئاً لله لا ينغي أن يرجع إليه.

هذا إلى أن المدينة - دار الهجرة - قد أضحت قلب الإسلام النابض، ومركز الدعوة الإسلامية، ففيها استقر الرسول بعد الهجرة، والخلفاء الراشدون من بعده، فما أشد الحاجة إلى أن يبقى فيها السابقون الأولون من المهاجرين من قریش، التي تدين لها العرب كلها، فمن ثم حرم على المهاجرين الأولين الإقامة بمكة بعد الفتح، ولو أبيع لهم الرجوع لربما نزع الكثيرون منهم إلى الرجوع إليها، فإن النفوس البشرية مجبولة على حب الوطن والرجوع إليه إذا سنحت الفرصة، لذلك اقتضت حكمة الله سبحانه - ولله الحكمة البالغة - أن يحرم ذلك، ليبقى المهاجرون مع الأنصار في البلد الطيب «طيبة» الذي آوى الإسلام، ومنه انتشرت دعوة الإسلام، وعمَّ نوره الخافقين، وهو من أسمى أنواع الوفاء.

(١) سعد بن خولة من بني عامر بن لؤي من المهاجرين السابقين، وقد مات بمكة عام حجة الوداع.

(٢) صحيح البخاري كتاب الجنائز. وانظر فتح الباري ج ٣، ص ١٢٨.

ولما مرض سيدنا سعد بن أبي وقاص بمكة في حجة الوداع خاف أن يموت، فطمأنه الرسول وأشار له إلى أنه ستطول به الحياة، وقال: «اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم» رواه البخاري.

ولهذه المعاني كان النبي يرغب أصحابه في سكنى المدينة، ولا يتحولون عنها إلا لضرورة، فقد روى مسلم في صحيحه بسنده عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أحرم ما بين لابتي^(١) المدينة: أن يقطع عضاهها^(٢) أو يقتل صيدها»، وقال: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها^(٣) وجهدها إلا كنت له شفيعاً، أو شهيداً يوم القيامة، ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص، أو ذوب الملح في الماء».

الأنصار

هم أولئك الذين استجابوا إلى الإسلام من أهل المدينة أوسها وخزرجها في بيعة العقبة الأولى والثانية، وقد كان يسكنهم بالمدينة جالية كبيرة من اليهود الذين نزحوا إليها من الشام مشردين مضطهدين، وكان بينهم وبين اليهود وقائع وحروب، فكانوا إذا انتصفوا من اليهود وأذلّوهم قالوا لهم: لقد قرب عهد نبي يُبعث من العرب وسننضوي تحت لوائه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما دعا النبي أهل المدينة في موسم الحج قالوا فيما بينهم: هذا هو الذي بشرت به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فكان هذا من أسباب كرامة الله لهم بالمسارعة إلى الإسلام ونشره بالمدينة قبل هجرة النبي ﷺ.

وقد كانت بين الأوس والخزرج في الجاهلية حروب وأيام مشهودة كيوم بعاث، ولذلك لما عرض النبي عليهم الإسلام قالوا: إنا تركنا قومنا وبينهم

(١) أي حرّيتها وهي الأرض ذات الحجارة السود.

(٢) جمع عضه شجر ذو شوك.

(٣) شدتها من حر أو برد، أو جذب مثلاً.

ما بينهم من العداوة والبغضاء، فإن يجمعهم الله بك فلن يكون أحد أعز منك في العرب.

وقد حقق الله الرجاء، فقد صاروا بعد أن أنعم الله عليهم بالإسلام إخواناً متحابين متآلفين، وكان للإسلام من هذا الغنم والخير الكثير، وقد ذكرهم الله بهذه النعمة في قوله عز شأنه:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١).

وقد قام السادة الأنصار تجاه إخوانهم المهاجرين بألوان من المواساة، والإكرام، والإيواء، والإيثار، ما استحقوا به أن ينزل الله فيهم قرآناً يتلى إلى يوم الدين، وصاروا مثلاً عالياً يضرب في الأولين والآخرين، وسنعرض لمآثرهم ونوحيهم بعض حقهم عن كذب.

وقد صار المهاجرون والأنصار بعد الهجرة كالجسد الواحد، وعلى قلب رجل واحد، ويداً واحدة تجاه المشركين واليهود والمنافقين، ولم يزلوا يكافحون ويمجدون، ويصبرون ويصابرون حتى انماح هؤلاء الأعداء الثلاثة، وصاروا في عداد المهلكى الغابرين، وبقيت كلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم.

المنافقين

وهم أهل المدينة من غير المسلمين، ولم يكن بمكة منافقون لأن طبيعة العرب الخُلص تأبى النفاق، فإما إيمان صادق، وإما كفر ظاهر، وإنما نجم النفاق بالمدينة، فقد كان يساكن العرب فيها اليهود، وهم قوم مخادعون منافقون بطبيعتهم، وعندهم أخذ عرب المدينة الذين لم يسلموا هذا الخلق المردول.

ولما قدم النبي ﷺ المدينة، وتآلف المهاجرون والأنصار، وتآخوا في الله، وصاروا قوة مرهوبة في المدينة، وصارت للنبي ﷺ الكلمة النافذة على المسلمين

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٣.

جميعاً، لا فرق بين مهاجري وأنصاري، وصارت إليه الرئاسة الدينية والدينية، والقيادة السياسية والاجتماعية — حقد عليه وعلى دينه بعض العرب من كانت له الزعامة في المدينة، واليهود الذين حقدوا على العرب أن يكون منهم النبي المبعوث في آخر الزمان، وتآمر من هؤلاء وأولئك فئات على الشر وعداوة الإسلام، ولم يكن في استطاعتهم أن يعلنوا عن الحقد والشر الخبيء في قلوبهم، فلم يجدوا بداً من التستر بالإسلام، يظهرونه ويبطنون الكفر والحقد والضعف على الإسلام والمسلمين، وهم من يُسمَّون في الإسلام (بالمُنافقين)، وقد تزعم هؤلاء رجل من العرب، كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ويملكوه عليهم، فلما انصرفوا عنه ومنهم أهله وولده حقد وضغن، وناق وداهن، وهو عبدالله بن أبي ابن سلول الخزرجي.

وانضوى تحت لوائه — لواء النفاق — جماعة، منهم: أبو عامر، وكان يقال له الراهب، كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح^(١). قال فيه الرسول ﷺ: «لا تقولوا الراهب ولكن قولوا: الفاسق» ومات بالشام غريباً طريداً وحيداً، وكان ابنه حنظلة من خيار المسلمين، استشهد يوم أحد، وهو غسيل الملائكة.

ومنهم: جلاس بن سويد بن الصامت، قال ابن إسحاق: وقد زعموا أنه تاب وحسنت توبته حتى عرف منه الإسلام والخير. ونبتل بن الحارث وهو الذي قال فيه رسول الله: «من أحب أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى هذا»، وكان جسيماً ثائر شعر الرأس، أحمر العينين، أسفع الخدين وكان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ثم ينقله إلى المنافقين، وهو الذي قال: إنما محمد أذن، من حدثه بشيء صدقه، فأكذبه الله. وعباد بن حنيف، وكان ممن بنوا مسجد الضرار. ومربع بن قيس، وكان أعمى، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين جاز في حائطه وهو ذاهب إلى أحد: لا أحل لك إن كنت نبياً أن تمر في حائطي، وأخذ في يده حفنة من تراب، ثم قال: لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك لرميتك بها، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال

(١) المسوح: لباس الرهبنة.

رسول الله: «دعوه فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصر»، وقد ضربه سعد بن زيد الأشهلي بالقوس فشججه. وأخوه أوس بن قيطي. وحاطب بن أمية بن رافع، وكان شيخاً جسيماً قد أسن في الجاهلية، وكان له ابن من خيار المسلمين يقال له: يزيد بن حاطب أثختته الجراح يوم أحد فاستشهد، وهؤلاء من الأوس.

ومن الخزرج: رافع بن وديعة، والجد بن قيس، وزيد بن عمرو، وعمرو بن قيس، وقيس بن عمرو.

ومن المفارقات العجيبة أن عبدالله بن أبي رأس المنافقين كان له ابن من خيار المسلمين وأصدقهم إيماناً، حتى لقد عرض على النبي ﷺ أن يقتل أباه، فأبى النبي وقال: «لا، بل نحسن صحبته مادام بيننا»!!.

وتبع ابن أبي من اليهود قوم أظهروا الإسلام نفاقاً وتقية، منهم: سعد بن حنيف، وزيد بن اللصيت، ورافع بن حرملة، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ يوم مات: «قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين»، ورفاعة بن زيد بن التابوت، أخبر النبي بموته مرجعه من تبوك، ونعمان بن أوفى، وعثمان بن أوفى، وغيرهم^(١).

وكان هؤلاء المنافقون بحكم ظاهرهم يحضرون المسجد، ويسمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون ويستهزئون بدينهم، ويتسقطون الأخبار وينقلونها إلى الأعداء.

ولكن الله سبحانه وتعالى كان لهم بالمرصاد، فما بيتوا أمراً إلا أظهره الله وفضحهم. وما دبوا مكيدة إلا رد الله كيدهم في نحرهم، وأنزل في شأنهم معظم سورة التوبة، فما زال يقول فيها: ومنهم، ومنهم... حتى أخزاهم وكشف عن نذالة نفوسهم، وآيات كثيرة في سورة البقرة، وآل عمران، والأحزاب وغيرها، حتى أنزل فيهم سورة بتمامها وهي: (المنافقون)، وكانت عاقبة أمرهم كفراً وذلة، وعاقبة أمر المؤمنين المخلصين عزاً وسيادة، وسنين موقف الإسلام منهم في فصول تأتي إن شاء الله.

(١) البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٤٠.

اليهود

لما قدم النبي ﷺ المدينة كان فيها من أحياء اليهود: بنو قينقاع وبنو النضير، وبنو قريظة، وكان نزوحهم إلى الحجاز أيام «بختنصر» البابلي^(١) الذي استولى على بلادهم بالشام، وهدم متعبداتهم، وخرّب الهيكل للمرة الأولى، وأنزل العذاب بهم، وسبى الكثيرين منهم لما اعتوا في الأرض فساداً واستكباراً. ولعل هذا هو ما أراده الله سبحانه وتعالى في قوله:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلَنَ عُلوًّا كَبِيرًا ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولُنَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾^(٢).

ففر بعضهم إلى بلاد الحجاز؛ فمنهم من سكن خيبر، ووادي القرى وتيما، ومنهم من سكن بيشرب (أي المدينة) وذلك فيما ذكره هشام بن محمد بن السائب الكلبي^(٣) وقيل: إن هجرتهم إلى بلاد الحجاز: خيبر وما جاورها، ويشرب وما قرب منها، إنما كان سنة سبعين ميلادية، حينما هجم «طيطوس» الروماني على بلادهم واستولى على أورشليم، وخرّب الهيكل للمرة الثانية، ونكّل بهم، وقتلهم، وأذلهم^(٤).

(١) وكان ذلك حوالي سنة ٥٨٦ ق. م.

(٢) سورة الإسراء: الأيتان ٥، ٤.

(٣) البداية والنهاية، ج ٢، ص ٣٩.

(٤) الملل والنحل للأستاذ حامد عبد القادر، ص ٢٣ و ٣٦.

ولعل هذا هو ما أشار الله إليه في قوله سبحانه :

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا ۖ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمۥ وَإِنْ عُثِرْتُمْ عَدُوًّا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝﴾ (١).

وقد سكن بجوارهم من قديم الزمان قبيلتا الأوس والخزرج، وكان اليهود ذوي ثروة ومال وزروع، وإن لم يكونوا ذوي بأس وقوة كالأوس والخزرج، فمن ثم عاشوا كالأتباع لهم، مستذلين صاغرين، وكان اليهود أهل كتاب، ويعلمون صفات النبي في توراتهم، وكانوا يستفتحون على الأنصار قبل البعثة، بالنبي الذي سيبعث، وإنهم سيتبعونه ويأخذون بثأرهم منهم، فلما بعث النبي جحدوا رسالته وكفروا به عناداً وبغياً وحسداً للعرب.

وقد سجل الله سبحانه وتعالى عليهم هذا في قوله :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝﴾ (٢).

وقال سبحانه :

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝﴾ (٣).

ولما كان اليهود يزعمون كذباً وزوراً أنهم شعب الله المختار، وأن النبوة لن تكون إلا فيهم، فقد عادوا الإسلام ونبيه عداً حاقداً، ولم يسلم منهم

(١) سورة الإسراء: الآيتان ٧ و٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٦.

إلا القليل، أمثال عبدالله بن سَلام؛ وأهله وعمته؛ ونُخَيْرِيق الذي قال فيه النبي ﷺ: «نُخَيْرِيق خير يهود»^(١) قال ابن إسحاق في سيرته: وكان حبراً عالماً، وكان رجلاً غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته؛ وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أحد، وكان يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قُتِلَ هذا اليوم، فأموالي لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراد الله، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل، فكان رسول الله ﷺ يقول: «نُخَيْرِيق خير يهود» وقبض رسول الله ﷺ أمواله وتصدق بها على المسلمين.

وقد نافق بعضهم وأظهر الإسلام خداعاً ومضارة للمسلمين، كما قدّمنا، وأما الكثرة الكاثرة منهم فقد ناصبوا الإسلام وأهله العداوة، فمنهم حيي بن أخطب، وأخوه أبو ياسر، وسَلَام بن مِشْكَم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحَقِيق، وسَلَام بن أبي الحَقِيق، وهو أبو رافع الأعور تاجر أهل الحجاز، والربيع بن الربيع بن أبي الحَقِيق، وعمر بن جَحَّاش، وكعب بن الأشرف، وشاس بن قيس، ومالك بن صيف، وكعب بن أسد، ووهب بن يهودا^(٢)، وغيرهم.

وروى ابن إسحاق بسنده عن صفية بنت حيي قالت:

(لم يكن أحد من ولد أبي وعمي أحب إليهما مني، ولم ألقهما في ولد لهما ولم أهنس إليهما إلا أخذاً في دونه. فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء - قرية بني عمرو بن عوف - غدا إليه أبي وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغْلَسِينَ، فوالله ما جاءنا إلا مع مغيب الشمس، فجاءنا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليَّ واحد منهما، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله!! قال

(١) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٢٣٦، ٢٣٧؛ والإصابة في تاريخ الصحابة، ج ٣ ص ٣٩٣.

(٢) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٢٣٦ و ٢٣٧.

تعرفه بنعته وصفته؟ قال: نعم والله!! قال: فماذا في نفسك منه؟ قال عداوته ما بقيت).

وهذا يدل على مقدار ما كان يَكُونُ للنبي والإسلام، وكان عاقبة حيي خسراً وخزياً، فقتل فيمن قتل يوم قريظة^(١).

وكذلك كانت عاقبة المكذِّبين الحاقدين من اليهود، فمنهم من قتل، ومنهم من أجلي عن المدينة، ثم عن جزيرة العرب كلها، وأراح الله من شرورهم العباد والبلاد، وسن فصل ذلك حينما نعرض لمواقف الإسلام من بني إسرائيل.

(١) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٥١٨.

الإخاء بين المهاجرين والأنصار

ولما استقر المسلمون بالمدينة ألهم الله سبحانه نبيه محمداً بعمل يعتبر غاية في حسن السياسة وأصالة الرأي وبعد النظر، فقد عقد بين المهاجرين والأنصار أخوةً بها يتعاونون ويترافقون، ويتناصرون ويتوارثون. وقد اختلف العلماء في وقت هذه المؤاخاة، ف قيل بعد الهجرة بخمسة أشهر، وقيل بتسعة أشهر، وقيل وهو يني المسجد، وقيل قبل بنائه، والذي نرجحه أن ذلك كان بعد الهجرة بقليل، فإن الحال كانت تدعو إلى الإسراع بهذا الإخاء جمعاً للشمل، وتوثيقاً للعرى، وقطعاً لدسائس الأعداء ولا سيما اليهود.

فكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب أخوين، وأبو بكر وخارجة بن زيد أخوين، وعمر وعثمان بن مالك أخوين، وحمزة وزيد بن حارثة أخوين، وحاطب بن أبي بلتعة وعُويم بن ساعدة أخوين، وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، وابن مسعود ومعاذ بن جبل أخوين، ومصعب بن عمير وأبو أيوب الأنصاري أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة وعبد بن بشر أخوين، وبلال وأبورويحة^(١) أخوين، وأبو عبيدة بن الجراح وأبو طلحة الأنصاري أخوين، والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين، وطلحة بن

(١) اسمه عبدالله بن عبدالرحمن، روي أنه لما دُون عمر الدواوين بالشام، وكان بلال قد خرج إلى الشام، فأقام بها مجاهداً، فقال عمر لبلال: إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟ قال: مع أبي رويحة لا أفارقه أبداً، للأخوة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقدها بينه وبينني، فضم إليه.

عبيد الله وكعب بن مالك أخوين، وسعيد بن زيد وأبي بن كعب أخوين،
وعمار وحذيفة بن اليمان حليف بني عبد الأشهل أخوين. وهكذا.

قال ابن سعد: آخى بين مائة، خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار،
وليس معنى هذا أنه لم يكن التأخي إلا بين هذا العدد، وإنما كان هذا أول
ما آخى، وصار يجدها بحسب من يأتي إلى المدينة مهاجراً، ومن دخل في
الإسلام بعد ذلك.

ومما ينبغي أن يتنبه إليه أن الإمام محمد بن إسحاق وهم في بعض من
ذكرهما أخوين، وذلك مثل عدّه جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين،
 والمعروف الثابت أن جعفرأ كان بالحبيشة وقتها، ولم يقدم المدينة إلا عام خير سنة
سبع، وعدّه أبا عبيدة وسعد بن معاذ أخوين، والصحيح ما ذكرته وهو ما رواه
الإمامان أحمد ومسلم. وقد أجاب بعض العلماء عن بعض هذه المآخذ^(١).

وقد أنكر الإمام ابن تيمية المؤاخاة بين مهاجري ومهاجري، وقال إنها
كانت بين مهاجري وأنصاري، وردّ عليه الحافظ ابن حجر في الفتح، قال الحافظ:
(وأنكر ابن تيمية في كتاب الردّ على ابن المطهر الرافضي - يعني كتاب منهاج
السنة - المؤاخاة بين المهاجرين، وخصوصاً مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم
لعلي، قال: لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً، ولتأليف قلوب بعضهم
على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي لأحد منهم، ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري.
وهذا رد للنص بالقياس، وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان
أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى، فأخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى
بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا نظر إلى مؤاخاته صلى الله عليه وسلم
لعلي، لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة، وكذا مؤاخاة
همزة وزيد بن حارثة لأن زيدا مولاهم، فقد ثبتت أخوتها وهما من
المهاجرين)^(٢).

(١) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٢٢٧.

(٢) فتح الباري، ج ٧ ص ٢١٧.

ولم تكن هذه الأخوة أخوة إسلام وارتفاق فحسب، وإنما كانت أخوة بها يتوارثون، قال عز شأنه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا أَمَّا لَكُمْ مِنْ وَلِيِّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ التَّصَرُّ لَا عَلَى قَوْمِهِ يَتَنَكَّرُ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ (١) ...

وقد استمر الأمر على ذلك حتى عز الإسلام، واجتمع الشمل، وذهبت آثار الغربة من وحشة وحاجة، فنسخ الله حكم التوارث بهذه الأخوة بالحكم الثابت المستقر، وهو التوارث بالقرابة والرحم قال عز شأنه:

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٢)

وقال:

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣)

وقد كان لهذه الأخوة آثارها البعيدة في الحب والارتفاق، والتعاون والتناصر، وقاموا بحقوقها خير قيام، وضرب الأنصار في هذا مثلاً علياً لم تعرف لغير هؤلاء السادة الأبرار، واعترافاً بالفضل لأهله أرى لزماً علي أن أقول كلمة في فضائل الأنصار بعد قليل.

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

المؤاخاة بين المسلمين بمكة

ومما ينبغي أن يُعلم أنه كانت هناك مؤاخاة قبل هذه المؤاخاة حدثت بين المسلمين بمكة، وهي تعتبر أول مؤاخاة في الإسلام، كان الغرض منها تقوية الأواصر والروابط بين المسلمين، وارتفاق الضعيف بالشريف، والفقير بالغني، ومن ليس من قريش بمن هو منهم، فالحكمة منها ظاهرة والغرض منها شريف.

قال الحافظ ابن حجر في: «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: (قال ابن عبد البر: كانت المؤاخاة مرتين: مرة بين المسلمين وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار...) وهي التي كانت بالمدينة، وعني بذكرها كتاب السير والمؤرخون.

ثم قال: (وقعت المؤاخاة الأولى كما أخرجها الحاكم من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر قال: وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبدالرحمن بن عوف وعثمان) وذكر جماعة قال: (فقال علي: يا رسول الله، إنك آخيت بين أصحابك فمن أخي؟ قال: أنا أخوك).

وقد ذكر الحافظ في الإصابة في ترجمة سيدنا بلال رضي الله عنه أن النبي ﷺ آخى بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، فلعل مراد من قال ذلك المؤاخاة الأولى التي كانت بمكة، وإلا فالمعروف الثابت أن النبي آخى بين بلال وبين أبي رُوحة الخثعمي رضي الله عنهما.

مآثر الأنصار الخالدة

إن المتأمل فيما قام الأنصار رضي الله عنهم تجاه النبي ﷺ وإخوانه المهاجرين ليتعجب مما فعله هؤلاء القوم، ولو ذهب يتلمس الأسباب، فلن يجد إلا سبب الأسباب، وهو أن ذلك كان بفضل الله ورحمته لا بصنع بشر وحكمته وسياسته، وصدق الله حيث يقول:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ (١).

فلم يلتقِ النبي ﷺ بالأنصار إلا في سويحات تحت جنح الليل، واكتفى فيها بعرض الإسلام، وأخذ العهود والمواثيق، ولم يطل لقائه معهم قبل الهجرة حتى يكون هذا الذي فعلوه بسبب تربية النبي ﷺ إياهم، وطول تعهده لهم كما فعل تجاه المهاجرين حتى كون منهم رجالاً، ولم يكن بين دخولهم في الإسلام وقيامهم بهذه المآثر إلا أقل من عام!! وقد سمعت فيما مضى طرفاً من لقائهم للرسول وإكرام وفادته.

ولم يكن شعورهم تجاه إخوانهم المهاجرين بأقل من هذا، فقد فتحوا لهم قلوبهم قبل أن يفتحوا لهم بيوتهم، ووسعوهم بصدورهم قبل أن يوسعوهم بأموالهم، وتسابقوا إلى لقائهم وإكرامهم حتى لم يجدوا بداً في بعض الأحيان من تحكيم القرعة بينهم، وضربوا في باب الإيثار، وسخاء النفس، وكرم الطبع مثلاً عليها لا تزال تذكرها لهم الأجيال المتعاقبة بالإكبار والإعظام.

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٣.

روى البخاري في صحيحه عن عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ آخى بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فجاء سعد فعرض عليه أن يقاسمه ماله، وقال له: انظر أي زوجتي أحب إليك أتنازل لك عنها حتى إذا ما انتهت عدتها تزوجتها. فأبى عبدالرحمن وقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلني على السوق، فدلّه على السوق، فباع وابتاع حتى صار له مال، وتزوج امرأة من الأنصار بوزن نواة من ذهب، فقال له النبي: «أولم ولو بشاة»^(١).

وهكذا ضرب سعد بن الربيع مثلاً فريداً في الإيثار، وضرب عبدالرحمن بن عوف مثلاً عالياً لعزة النفس والرغبة في العمل والاكتساب، وقد فتحت عليه الدنيا بعد، فما توفي إلا وهو أثرى الأثرياء.

وما سعد بن الربيع إلا صورة مشرقة ومثلاً من أمثلة الأنصار الكرام.

ويبالغ الأنصار في الإيثار والعمل على مقتضى هذه الأخوة، فيأتون إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه فيقولون: (اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل). فيقول لهم النبي: «لا»، فقالوا لإخوانهم المهاجرين: تكفونا المؤونة - يعني السقي والعمل - ونشرككم في الثمرة، فقالوا: (سمعنا وأطعنا) رواه البخاري في صحيحه. وروى أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (دعا النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين. فقالوا: إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها) قال: «إم لا»^(٢)، فاصبروا حتى تلقوني، إنه سيصيبكم بعدي أثر»^(٣).

(١) صحيح البخاري باب: «كيف آخى النبي بين أصحابه».

(٢) إملا: هي إن الشرطية المدغمة في (ما) الزائدة، ولا نافية، وفعل الشرط محذوف تقديره: تقبلوا.

(٣) أثر: على وزن قصبة أي استثار بالأموال دونهم.

وكان النبي ﷺ أراد أن يكافئهم على ما قدموا له وللمهاجرين من برٍّ ومواساة وإيواء، ولكن القوم سمّوا وأبوا إلا أن يكون عملهم لوجه الله، لا يريدون من أحد عليه جزاء ولا شكوراً.

وإن شئت في باب الإيثار أروع من ذلك وأعجب، فإليك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم أموالكم ودياركم ولم نقسم لكم شيئاً من الغنيمة» فقالت الأنصار: «بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثروهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها»!! ذكره البغوي في تفسيره.

يا لله لهذه النفوس الكريمة الأبية، المؤثرة السخية!! لقد كان جزاؤهم من ربهم أن أنزل فيهم قرآناً يتلى إلى يوم الدين، وصدق الله:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَفْسِهِ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

وأن قال فيهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه مشيداً بمناقبهم وفضلهم «لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار» وأن جعل حبهم علامة الإيمان، وبغضهم علامة النفاق فقال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار» وقال: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله». وأن أوصى بهم المسلمين بعده خيراً، فقد حدث أنس بن مالك رضي الله عنه فقال:

«مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبيكون،

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

فقال: ما يبيكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم منا، فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد عصب على رأسه حاشية برد، قال: فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أوصيكم بالأنصار فإنهم كُرشي وعييتي^(١)، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم» رواها البخاري^(٢).

(١) بطائفي وخاصتي، وموضع سري.

(٢) صحيح البخاري باب حب الأنصار من الإيمان وباب قول النبي فاقبلوا من محسنهم.

موادعة النبي اليهود

لئن كان النبي ﷺ بإخائه بين المهاجرين والأنصار بلغ الغاية في الحكمة والتدبير والسياسة، فقد كان العمل البارِع حقاً الذي يدل على الحنكة السياسية والقدرة الفائقة على حل المشاكل — هو ما قام به من موادعة اليهود ومخالفتهم، فقد كتب بين المهاجرين والأنصار كتاباً وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم، وشرط لهم، وهذا هو نص الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي الأمي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس: المهاجرون من قريش على ربعتهم^(١) يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار:

بني ساعدة، وبني جشم، وبني النجار، وبني عمرو بن عوف، وبني النبيت. إلى أن قال: وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً^(٢) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل، ولا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم أو أثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعهم، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر؛ ولا ينصر

(١) ربعتهم: جماعتهم.

(٢) المفرح المثل بالدين الكثير العيال، قاله ابن هشام.

كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وأن المؤمنين يبيء^(١) بعضهم بعضاً بما نال دماءهم في سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط^(٢) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

وأنه لا يحل للمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً^(٣) ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل^(٤)، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ.

وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ^(٥) إلا نفسه وأهل بيته. وأن لليهود بني النجار وبني الحارث، وبني ساعدة وبني جشم، وبني الأوس، وبني ثعلبة، وجفنة، وبني الشطيبة^(٦) مثل ما لليهود بني عوف، وأن بطانة يهود كانوا أنفسهم. وأنه لا يخرج منهم أحد

(١) يبيء من البوء أي المساواة يريد أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماءهم.

(٢) يقال: اعتبطه أي قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله.

(٣) جانياً.

(٤) الصرف: التوبة، العدل: الفدية، أي لا يقبلان منه.

(٥) يوتغ: يهلك ويفسد.

(٦) في حياة محمد «لبي الشطيبة».

إلا بإذن محمد، ولا ينحجر^(١) على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه إلا من ظلم، وأن الله على أثر^(٢) هذا.

وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يَأْثَمَ امرؤٌ بحليفه؛ وأن النصر للمظلوم؛ وأن يشرب حرام جرفها^(٣) لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى^(٤) ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قریش ولا من نصرها. وأن بينهم النصر على من دهم يشرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو آثم. وأن الله جار لمن بر وأتقى.

هذه هي الوثيقة التي وضعها نبينا محمد ﷺ منذ قرابة أربعة عشر قرناً؛ وهي وثيقة جديدة بالإعجاب حقاً، وثق فيها ما بين المهاجرين والأنصار من إخاء وحلف، وقرّر فيها حرية العقيدة لغير المسلمين، وحرية الرأي، وحرمة المدينة، وحرمة الحياة، وحرمة المال، وبذلك سبق النبي ﷺ إلى تقرير حقوق الإنسان من هذا الزمن البعيد. وقرر فيها أيضاً تحريم الجريمة والإثم والغدر والخديعة، وهي فتح جديد حقاً في الحياة السياسية والمدنية في هذا العالم يومئذ، هذا العالم

(١) يعني لا يلتزم جرح على ثأر.

(٢) في حياة محمد «على أبر».

(٣) الجرف: موضع قريب من المدينة. وفي ابن هشام «جوفها».

(٤) في حياة محمد «على أتق».

الذي كان تغلب عليه روح الاستبداد، وتعبث فيه يد الظلم فساداً، ولا تراعى فيه الحقوق والحرمات.

وبمقتضى هذه الوثيقة أصبحت المدينة حرماً آمناً، وأصبح كل من المسلمين واليهود في أمن من جانب الآخر، وأصبح اليهود ملزمين بمعاونة المسلمين إذا ما دهم المدينة عدو، وبعدم مساعدة المشركين ومناصرتهم ضدهم. ولقد وفى النبي والمسلمون بكل الالتزامات التي أوجبتها هذه الوثيقة عليهم، على حين لم يف بما فيها اليهود، ولما عادوا إلى طبيعتهم من الدس والوقیعة والخداع، فحاولوا الوقیعة بين الأوس والخزرج، وهُمُوا بقتل النبي، واستباحوا حرمت المسلمين فكانت عاقبة أمرهم ذلاً.

بناء النبي بعائشة

وفي شوال من السنة الأولى دخل النبي ﷺ بزوجه عائشة، وكان خطبها من أبيها الصديق وهي بنت ست وقيل سبع سنين، وبنى بها بعد الهجرة وهي بنت تسع، وكانت نامية نمواً حسناً، ولم يتزوج النبي ﷺ بكرةً غيرها، وقد أراه جبريل صورتها في قطعة من حرير خضراء قبل أن يخطبها.

روى البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: «أريتُك في المنام مرتين، إذا رجل يملك في سرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك، فأكشفها فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه» ولما خطبها النبي من أبيها قال: إنما أنا أخوك، فقال النبي ﷺ: «أنت أخي في دين الله وكتابه، وهي لي حلال» رواه البخاري.

وقد دخل بها النبي ﷺ وهي فتاة حديثة السن تلهو مع صوحيباتها، وتلعب بالأرجوحة والعرائس كما هو شأن الفتيات الصغار، وكثيراً ما كان الرسول يدخل عليها وهي معهن، فيرفق بها، ويفسح لها من صدره.

وقد تربت في منزل الوحي، فنشأت متخلقة بأحسن الأخلاق، متطبعة بما يوافق هوى النبي ﷺ، فلا عجب أن كانت أحب نسائه إليه، وآثرهن عنده، وكانت تكنى بأم عبدالله، قيل لسقط ولده، وقيل باسم ابن اختها أسماء عبدالله بن الزبير، وهو الصحيح.

وكانت عاقلة عالمة، روت عن النبي وغن أبيها وغيره من الصحابة، وروى عنها كثير من الصحابة والتابعين، وعنها أخذ الكثير من أحكام الشريعة،

ولا سيما ما كان يصنعه النبي في بيته، ومع زوجاته. قال مسروق: رأيت
مشيخة أصحاب محمد الأكبر يسألونها عن الفرائض، وقال أبو موسى
الأشعري: ما أشكل علينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أمر قط، فسألنا
عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً.

ولما مرض النبي استأذن نساءه كي يمرض في بيتها، فقامت عليه حتى
توفي ﷺ بين سحرها^(١) ونحرها، وقد ألقى برأسه على صدرها، ف رضي الله
عنها وأرضاهما.

* * *

(١) السحر: الرئة فقد توفي النبي ورأسه على صدرها.

مشروعية الأذان

لقد فرض الله سبحانه الصلوات الخمس على الأمة قبل الهجرة ليلة الإسراء والمعراج. فكانوا يصلُّون ولا يؤذِّنون، لأن الظروف المحيطة بهم في مكة ما كانت تسمح بالدعوة إليها، والإعلان عنها. واستمر الحال على ذلك إلى ما بعد الهجرة، فلما اطمأن الرسول وأصحابه بالمدينة، واستحكم أمر الإسلام، وبدأ تشريع الأحكام، وأصبحوا على حال تؤهلهم لإظهار شعائر الإسلام، فكر النبي والمسلمون في وسيلة للإعلان عن الصلاة، وتشاوروا في ذلك.

روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عمر قال: (كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحيَّنون الصلاة ليس يُنادى لها، فتكلموا يوماً في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر: ألا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم يا بلال فنادِ بالصلاة) وكان هذا النداء بلفظ: «الصلاة جامعة»^(١)، رواه ابن سعد في الطبقات من مراسيل سعيد بن المسيب. وليس المراد بالنداء الأذان الشرعي المعهود.

فبينما هم على ذلك رأى عبدالله بن زيد بن عبدربه في منامه من يلقَّنه الأذان، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «إنها لرؤيا حق» وأقره على ذلك وقال له: «ألقها على بلال فإنه أندى صوتاً منك» فلما سمع الفاروق عمر رضي

(١) بنصب الصلاة على الإغراء، وجامعة على الحال أي احضروا الصلاة حالة كونها جامعة، وقيل بالرفع مبتدأ وخبر أي ذات جماعة.

الله تعالى عنه جاء - وهو يجرد رداءه - إلى النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله لقد رأيت مثل الذي رأي، فقال الرسول: «فلله الحمد».

وإليك ما رواه ابن إسحاق في سيرته عن عبدالله بن زيد قال:

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة إنما يجتمع الناس إليه للصلاة حين مواقيتها بغير دعوة، فهم رسول الله أن يجعل بوقاً مثل بوق اليهود الذي يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس ليضرب به للمسلمين للصلاة^(١)، فبينما هم على ذلك رأى عبدالله بن زيد بن ثعلبة بن عبدربه النداء، فأق رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنه طاف بي الليلة طائف: مرُّ بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده، فقلت: يا عبدالله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة. فقال: ألا أدلك على خير من ذلك؟ قلت وما هو؟ قال تقول: «الله أكبر الله أكبر. الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله. أشهد أن محمداً رسول الله. حيَّ على الصلاة. حيَّ على الفلاح. حيَّ على الفلاح. الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله».

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، قم مع بلال فאלقها عليه فليؤذن بها، فإنه أُنذَى صوتاً منك». فلما أذن بلال سمعه عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ يجرد رداءه وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأي، فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد».

(١) في بعض الروايات الحديثية أنهم كرهوا ذلك أيضاً، وإنما كرهوا هذا وذلك لأنهم يعتبرون أن لهم شخصية مستقلة تنأى بهم عن التقليد والمحاكاة لغيرهم، ولا سيما اليهود والنصارى، وهكذا ينبغي أن تكون شخصية المسلم تؤثر ولا تتأثر، وتبدع ولا تقلد، وقد بينت رواية ابن سعد في الطبقات الحلقة المفقودة في رواية ابن إسحاق وهي نداؤهم بلفظ «الصلاة جامعة».

وقد روى هذه القصة أيضاً أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه، وابن خزيمة وصححه.

ولا يظن ظان أن الأذان شرع بالرؤيا فحسب، وإنما شرع بالوحي أيضاً، وقد توافقا بدليل قوله ﷺ: «إنها لرؤيا حق» وفي رواية ابن جريج التي ذكرها ابن هشام في سيرته أن عمر لما جاء إلى النبي يخبره بما رأى قال له: «قد سبقك بذلك الوحي» وأيضاً فتقرير النبي لأحدٍ على شيء أحد وجوه السنن المعروفة^(١).

وقد ذكر السهيلي حديثاً يفيد مشروعية الأذان ليلة الإسراء والمعراج، ثم قال: وأخلق بهذا الحديث أن يكون صحيحاً لما يعضده ويشاكله من حديث الإسراء، وقد ردَّ عليه الحافظ ابن كثير فيما زعم حيث قال: (فهذا الحديث ليس كما زعم السهيلي أنه صحيح؛ بل هو منكر تفرد به زياد بن المنذر أبو الجارود، الذي تنسب إليه الفرقة الجارودية، وهو من المتهمين بالكذب، ثم لو كان قد سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء لأوشك أن يأمر به بعد الهجرة في الدعوة إلى الصلاة). وكل ما روي من روايات تدل على مشروعيته قبل الهجرة هي ضعيفة لا تنهض للاحتجاج بها كما نبه إلى ذلك الحافظ الكبير ابن حجر في الفتح.

وكان بلال بن رباح هو مؤذن^(٢) رسول الله ﷺ، مع وجود مساعدين له في بعض الأحيان، وكان بلال يزيد في أذان الفجر بعد حي على الفلاح الثانية: (الصلاة خير من النوم) مرتين، وأقره النبي على ذلك.

والأذان شعيرة من شعائر الإسلام، فلا يجوز تركه، ولو أن أهل بلد

(١) فتح الباري، ج ٢ ص ٦٤ والبداية والنهاية، ج ٢ ص ٢٢١-٢٢٣.

(٢) والحكمة في تخصيص بلال بالأذان حسن صوته ونداوته وقوته، وأيضاً فقد كان ذلك مكافأة على ما لقي في الله، لقد كان إذا اشتد به التعذيب لا يفتر عن قوله: «أحد أحد» فجوزي بالأذان الذي أوله تعظيم وتوحيد، وآخره تعظيم وتوحيد.

أجمعوا على تركه كان للسلطان قتلهم عليه، وأقوى ما يستدل به على هذا ما رواه البخاري ومسلم - واللفظ لمسلم - عن أنس قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُغير إذا طلع الفجر، كان يستمع الأذان، فإذا سمع أذاناً أمسك وإلا أغار).

السَّنةُ الْأُولَى مِنَ الْهِجْرَةِ

السرايا في السنة الأولى

كانت عادة قريش أن تذهب بتجارها إلى الشام لتبيع وتشتري، ويسمى الركب السائر بهذه التجارة عيراً، وكان يسير معها لحراستها كثير من أشرف قريش وسرّاتهم، وكانت طريقهم إلى الشام تمر على دار الهجرة، فرأى النبي ﷺ أن يقطع عليهم طريقهم، ويصادر تجارتهم ذاهبة وآية، ليكون في ذلك عقاب لهم على إخراجهم لهم من ديارهم، وما أخذوه من أموالهم، وإضعاف لقوتهم، فيكون ذلك أدعى لخذلانهم في ميدان القتال الذي لا بد أن يكون، فما كانت قريش لتدع النبي يبلغ الإسلام لمن أمره الله بتبليغه إليهم من الناس كافة، وكان النبي يتربص أن يؤذن الله له ولأصحابه في القتال وهذه هي السرايا^(١).

سرية حمزة بن عبدالمطلب

في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة أرسل النبي ﷺ عمه حمزة في ثلاثين راكباً من المهاجرين، وعقد له لواء أبيض حمله أبو مرثد الغنوي، وأمره أن يعترض عيراً لقريش راجعة من الشام، فيها أبو جهل وثلاثمائة من المشركين، فسار حمزة رضي الله عنه ومن معه حتى وصلوا ساحل البحر، فصادف العير هناك، فلما تصافوا للقتال حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، فأطاعه الفريقان وانصرفوا.

(١) السرية: الفرقة من الجيش التي لم يخرج فيها رسول الله؛ أما ما يخرج فيها الرسول فهي غزوة.

سرية عبيدة بن الحارث

وفي شوال من هذه السنة أرسل النبي عبيدة بن الحارث بن المطلب في ثمانين راكباً من المهاجرين ليس فيهم أنصاري، وأمرهم أن يعترضوا عيراً لقريش، فوافوا العير ببطن رابغ قرب «العيص»، وكان على العير أبو سفيان بن حرب في مائتي رجل من قريش، فكان بينهم الرمي بالنبال، ثم خشي المشركون أن يكون للمسلمين كمين فتقهقروا ولم يتابعهم المسلمون، وفر من القرشيين المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان، وكانا قد أسلما قديماً فانتهزا الفرصة ولحقا بالمسلمين.

وفي هذه السرية أطلق أول سهم في الإسلام، وكان الذي أطلقه عبيدة بن الحارث وقيل سعد بن أبي وقاص.

سرية سعد بن أبي وقاص

وفي آخر شوال من هذه السنة خرجت سرية ثلاثة عدتها عشرون من المهاجرين، وعلى رأسهم سعد بن أبي وقاص، فكانوا يكمنون النهار ويسرون الليل، حتى وصلوا صباح اليوم الخامس إلى «الخُرَّار»^(١)، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إليهم أن لا يجاوزوا هذا المكان، فلما وصلوا علموا أن العير قد مرت بالمكان في اليوم السابق، فعادوا دون أن يلقوا أحداً.

وقد ذكر الواقدي أن هذه السرايا كانت في السنة الأولى، وكلام ابن إسحاق في سيرته يميل إلى أنها في السنة الثانية، ورجَّح ابن كثير الرأي الأول، قال: (والواقدي عنده زيادات حسنة، وتاريخ محرر غالباً، فإنه من أئمة هذا الشأن الكبار، وهو صدوق في نفسه مكثار)^(٢).

(١) موضع قرب الجحفة.

(٢) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٢٣٤.

رأينا في هذه السرايا

والذي نراه في هذه السرايا التي وقعت في السنة الأولى أنها كانت لمعاينة المشركين، والحصول على ما يمكن الحصول عليه من تجارتهم، نظير ما أخذوا من أموالهم وما ظلموهم، ولإضعاف شوكتهم، فإن المال عصب الحياة.

وأيضاً فقد قصد بها إفهام قريش أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أهلهم - الذين اضطروا إلى الفرار من مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد والإيذاء - تفاهماً يقي الطرفين شرور العداوة والبغضاء، ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى دينهم، وحرية الإعلان عن عقيدتهم، وحرية الدخول إلى الحرم لتأدية شعائهم، كما يكفل لأهل مكة سلامة تجارتهم في طريقها إلى الشام، ولم يكن مثل هذا التفاهم ممكناً ما لم تقدّر قريش قوة المهاجرين من أبنائها على الإيقاع بها، وإيصاد طرق التجارة في وجهها.

ولا أرى أنها كانت للحرب، فقد كان القتال لم يشرع بعد، وذلك على حسب ما ترجّح في نظري من أن مشروعية القتال كانت في أوائل السنة الثانية على ما سأذكر، لأن الأعداد التي كان فيها المسلمون في سراياهم تلك لم تكن متكافئة مع أعداد المشركين، ولم تنقل الروايات أن النبي كان يوجههم للقتال، وإنما للقاء العير واعتراضها، وإن كان الاعتراض لا يسلم من المناوشة.

وقد رأى هذا الرأي من قبل الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله تعالى^(١)، وإن كنت أخالفه في اعتبار الغزوات التي كانت في السنة الثانية قبيل بدر من هذا القبيل، فاحتمال القتال فيها أمر راجح، ولا سيما وقد أصبح الجهاد مشروعاً للمسلمين.

مزاعم المستشرقين في هذه السرايا

زعم بعض المستشرقين أن هذه السرايا الأولى إنما كان يقصد بها إلى نهب تجارة القوافل، فإن النهب كان بعض طباع أهل البادية، وأن أهل المدينة

(١) حياة محمد، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

إنما أغرتهم الغنيمة والسلب باتباع محمد على خلاف عهدهم في العقبة، وهذا زعم ليس له ما يؤيده، ويرد عليه الواقع، وسأدع الدكتور محمد حسين هيكل يرد عليهم قال رحمه الله:

(وهذا كلام مردود، لأن أهل المدينة كأهل مكة لم يكونوا أهل بادية يعيشون على السلب والنهب، وأنهم فوق ذلك، كان في طبعهم ما في طبع من يعيشون على الزراعة من حب الاستقرار، مما يجعلهم لا يتحركون إلى قتال إلا للدافع قوي.

أما المهاجرون فكان من حقهم أن يستخلصوا من أيدي قريش ما أخذ من أموالهم، لكنهم لم يستعجلوا ذلك قبل بدر، فلم يكن هو الدافع للسرايا في الغزوات الأولى، ثم إن القتال لم يشرع في الإسلام ولم يقم (سيدنا) محمد وأصحابه لهذه الغاية البدوية التي يتوهم المستشرقون، وإنما شرع وقام به (سيدنا) محمد وأصحابه حتى لا يفتنهم عن دينهم أحد، وحتى يكون لهم من حرية الدعوة له ما يشاؤون... (١).

* * *

(١) حياة محمد، ص ١٤٢.

أحداث هذا العام

مواليد

وفي شوال من هذه السنة ولد عبدالله بن الزبير، فكان أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة من المهاجرين، ولما ولدته السيدة أسماء بنت الصديق كبر المسلمون تكبيرة كبيرة عظيمة فرحاً بمولده، لأنه كان قد بلغهم عن اليهود أنهم سحروهم حتى لا يولد لهم بعد هجرتهم ولد، ومع أن المسلمين ما كانوا يلقون بالألله الترهات التي كذبها الواقع الذي لا مرأ فيه، ولما ولدته جاءت به إلى رسول الله ﷺ، فوضعه في حجره، ثم حنكه بتمرة، ثم دعا له، وبرك عليه، وكان أول مولود ولد للأنصار بعد الهجرة النعمان بن بشير.

وفيات

في هذه السنة توفي كلثوم بن الهدم الأنصاري الأوسي من بني عمرو بن عوف، وقد ذكر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه، أنه أول من توفي بعد قدوم النبي ﷺ بيسير، وكان شيخاً كبيراً أسلم قبل مقدم النبي، ولما هاجر النبي ونزل بقاء نزل في بيته، فكان ينام عنده ليلاً، ويكون مع أصحابه في النهار في منزل سعد بن خيثمة، لأنه كان أعزب لا أهل له، وقيل: إنه مات قبل بدر بيسير.

وتوفي أيضاً أبو أمامة أسعد بن زرارة النجاري الخزرجي، أحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة على قومه بني النجار، وشهد العقبتين، وهو أول من أسلم من الخزرج، وأول من صلى الجمعة بالمدينة قبل هجرة الرسول ﷺ، وقد مات بالذبحة أو الشرقة والمسلمون يبنون المسجد النبوي.

ولما توفي سأل بنو النجار رسول الله أن يقيم لهم نقيباً فقال: «أنتم أخوالي وأنا بما فيكم، وأنا نقيبكم»^(١)، وكره أن يخص بعضهم دون بعض، فكان من فضل بني النجار على قومهم أن رسول الله كان نقيبهم، وقد كان هذا تصرفاً حكيماً من رسول الله، فقد كان المتطلعون إليها كثيرين، وبحسبهم شرفاً أن يكون رسول الله ﷺ نقيبهم.

(١) البداية والنهاية : ج ٣ ص ٢٢٩.

السَّنة الثَّانِيَّة مِنَ الْهِجْرَةِ

تشريع الجهاد^(١) في الإسلام

لقد مكث النبي ﷺ ثلاثة عشر عاماً بمكة وهو يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد حارب أهل مكة الدعوة الإسلامية حرباً لا هوادة فيها، وآذوا النبي وأصحابه إيذاءً تجاوز كل معاني الإنسانية، ومع هذا كان المسلمون يزدادون عدداً وصلابة وقوة في التمسك بدينهم، وكان الله سبحانه وتعالى ينزل على نبيه من الآيات ما يقويه ويثبتته على الصبر، وذلك مثل قوله سبحانه:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٢).

وقوله:

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣).

(١) الجهاد بكسر الجيم: أصله لغة: المشقة، يقال جاهدت جهاداً بلغ المشقة، وشرعاً: بذل الجهد في قتال الكفار وإعلاء كلمة الله، ويكون بالنفس والمال أو اللسان والقلب، وهو المراد هنا، ويطلق أيضاً على مجاهدة النفس، والشيطان، والفساق، فأما مجاهدة النفس فعلى تعلم أمور الدين ثم على العمل بها، ثم على تعليمها. وأما مجاهدة الشيطان فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات، وما يزينه من الشهوات، وأما مجاهدة الفساق فباليد، ثم باللسان، ثم بالقلب، وهو أضعف ثمرات الإيمان.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٧.

(٣) سورة الشورى: الآية ٤٣.

وقوله :

﴿ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾^(١)

وقوله :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا حِمِيلًا ﴾^(٢)

وكان المسلمون كثيراً ما يأتون إلى النبي ﷺ ما بين مضروب ومشجوج ومعذَّب، شاكين إليه، فيشتهم ويضرب لهم الأمثال والعظات ويقول لهم : « اصبروا فإني لم أؤمر بقتال »، حتى هاجر النبي والمسلمون إلى المدينة، وتأخوا هم والأنصار، وأصبح لهم كيان وسلطان، وأضحوا ذوي عدد وقوة، فلم يكن بدُّ من أن يأذن الله لهم في القتال.

وأما ما ذكره ابن إسحاق في سيرته من أن الجهاد شرع قبل الهجرة فمن أوهامه.

أول ما نزل في القتال

وكانت أول آية نزلت فيه هي قوله تعالى :

﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيًا حَقًّا إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفُتِنَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ ^(٣) يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾^(٤)

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

(٢) سورة المزمل: الآية ١٠.

(٣) الصوامع للرهبان، والبيع متعبدات اليهود والنصارى وهي الكنائس، والصلوات متعبدات النصارى أيضاً، والمساجد: متعبدات المسلمين.

(٤) سورة الحج: الآيات ٣٩ - ٤١.

والإذن لا يكون إلا بعد منع ، فأسلوب الآيات يشعر بأنها أول ما نزل ، هذا إلى ما روى الحاكم في المستدرک عن حبر القرآن ابن عباس ، أنها أول ما نزل في القتال ، ورواه عبدالرزاق وابن المنذر عن الزهري .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالیة - وهو من التابعین - أن أول آية نزلت فيه قوله تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ^(١).

ويرى البعض أن أول ما نزل هو قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ^(٢).

والذي نرجحه هو الأول ، وهو الذي يؤيده العقل والنقل ، أما الآية الثانية فهي إلى تنظيم شؤون القتال أقرب ، والتنظيم إنما يكون بعد الإذن ، وأما الآية الثالثة فهي إلى الحث والترغيب في الجهاد أقرب .

متى شرع الجهاد؟

والذي يترجح عندي بعد النظر والبحث أن يكون تشريع الجهاد في أوائل السنة الثانية للهجرة ، وذلك لأن المسلمين في السنة الأولى كانوا مشغولين بتنظيم أحوالهم الدينية والدنيوية ، كبنائهم المسجد النبوي ، وأمور معاشهم ، وطرق اكتسابهم ، وتنظيم أحوالهم السياسية : كعقد التآخي بينهم ، وموادعتهم اليهود

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٠ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١١ .

المساكين لهم في المدينة، كي يأمنوا شرورهم، ولا يقال: إن النبي أرسل سرايا في السنة الأولى، لأنها في نظرنا كانت للمناوشات وإرغامهم على أن يفكروا جدياً في تغيير خطتهم تجاه المسلمين، وتركهم يبلِّغون دين ربهم وهم آمنون مطمئنون.

لم شرع الجهاد في الإسلام؟

لقد تضمنت آيات سورة الحج المذكورة آنفاً الأسباب والأغراض التي اقتضت تشريع الجهاد، ولن أخرج في بيان ذلك عن منطق الآية وفحواها، حتى يكون في هذا إقام الحجر لمن يتقول على الإسلام، ومن هذه الآيات نستخلص الأسباب والحكم الآتية:

١ - تأمين دعوة الإسلام، الدين العام الخالد، الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء، ومساندة هذه الدعوة التحريرية الكبرى، حتى يتمكن النبي من تبليغ رسالة ربه حسبما صدع به الوحي في قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

وقوله:

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (٢).

وتأمين المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام عن رضا واطمئنان، وحمايتهم من أذى المشركين، ومنحهم حقهم في الإعلان عن عقيدتهم وهم آمنون، وليس من الحق والعدل أن يدافع أصحاب المذاهب الباطلة عن باطلهم بالقوة، وأن يترك أصحاب العقائد الصحيحة والشريعة السمحة من غير أن يؤذن لهم في الدفاع عن عقيدتهم ودينهم، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿بَانَهُمْ ظَلَمُوا﴾، وأي

(١) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٩.

ظلم أظلم من أن لا يجد الهداة والمصلحون متنفساً لدعواتهم في أرض الله الواسعة؟ ومن أن يجبر عليهم فلا يستطيعون الإعلان عن عقائدهم، ولا إظهار شعائريهم؟ والمظلوم إن لم يجد النصر من أهل الأرض فسيجده لا محالة من السماء، وصدق الله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

٢ - الانتصاف للمظلوم من الظالم، والانتصار للنفس، فهذا هم المشركون قد آذوا المسلمين، وحاولوا ما وسعهم الجهد أن يفتنوه عن دينهم، فلما لم يفلحوا أخرجوهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم. والانتصار للنفس أمر فطري، وحق من حقوق الإنسان، قررت الشرائع السماوية والقوانين الأرضية، وقد قرر الله هذه الحقيقة الإنسانية في قوله سبحانه:

﴿وَلَمَنِ انْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَاعَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

وقد أمر الله المسلمين بالصبر على أذى المشركين والتسامح معهم طوال العهد المكي وأوائل العهد المدني؛ عسى أن يرعوا، ولكنهم لم يزدادوا إلا بطراً وظلماً واستعلاء في الأرض، فأما إذا لم تفلح معهم سياسة المهادنة والتسامح، فلتقابل القوة بالقوة، والسلاح بالسلاح، ولأ صار السكوت والإغضاء عجزاً وضعفاً ومهانة.

وليس من العدل والحق أن يترك المشركون يمرحون في الأرض، ويجوبون الجزيرة من الجنوب إلى الشمال، ولا يؤذن للمسلمين في محاربتهم من جنس ما حاربوهم به، وأن يقطعوا عليهم تجارتهم، ويأخذوا منها ما تصل إليه أيديهم نظير ما اغتصبوا من أموالهم، وأن يضيقوا عليهم مثل ما ضيقوا عليهم، وصدق الله حيث يقول:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾^(٢).

(١) سورة الشورى: الآيتان ٤١، ٤٢.

(٢) سورة الشورى: الآيتان ٣٩، ٤٠.

وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى هذا بقوله :

﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ بغير حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾^(١).

٣ - إن في تشريع الجهاد نشر للسلام والأمان في الأرض، وتأمين كل ذي دين على دينه، واحترام مقدسات الأديان في الأرض. والإسلام هو الدين الذي ألزم معتنقيه بالإيمان بجميع رسل الله، وجميع كتبه المنزلة من عنده، وإذا كان اعتبر القرآن هو الشاهد والمهيمن على الكتب السماوية كلها، فلأنه هو الكتاب الذي سلم من التحريف والتبديل، لأنه نقل بأقوى طرق النقل والإثبات، وهو التواتر المفيد للقطع واليقين.

فالمسلمون حينما تكون لهم السلطة والغلبة في الأرض فلا خشية على أهل الأديان الأخرى منهم، لأن لهم من وصايا دينهم ما يعصمهم من الظلم والجور والتعنت، ولا كذلك الحال لوساد غيرهم، وهذا ما صدقه الواقع والتاريخ الصادق، فحينما كان السلطان للمسلمين في الأرض، لم يضار أحد من أهل الذمة في دينه، ولا في دنياه، ولا في نفس ولا عرض ولا مال، فلما ذهبت ريحهم، وغلبوا على أمرهم، ذاقوا من أعدائهم ألوان العذاب من تقتيل وتخريب وانتهاك للحرمات.

وليس أدل على ذلك من أن الإسلام قبل من أهل الكتاب إما أن يسلموا، وإما أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية، وهي ليست للإكراه على الدخول في الإسلام أو المضايقة، ولكنها نظير ما تقوم به الدولة الإسلامية من رعاية وحماية لأهل الأديان الأخرى، وما تؤديه لهم من خدمات اجتماعية واقتصادية، وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الغرض النبيل في قوله سبحانه :

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوبُهُمْ وَبِعَصَصَتْ وَصُلُوتٌ

(١) سورة الحج : الآية ٤٠.

وَمَسْجِدٌ^(١) يَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلْيَنْصُرِ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾ .

٤ - إن الإسلام بما خصه الله به من عموم الدعوة للناس أجمعين، وبما جاء به من عقائد وتشريعات وآداب، أكسبته الصلاحية لكل زمان ومكان، وهو الحقيق بأن يسود في الأرض، والمسلمون المتمسكون به هم الأحق بالسيادة والاستخلاف في الأرض، لأنهم هم الذين ينشرون فيها الهدى والحق والعدل والرحمة والبر والخير، وهم يأمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر، وهما أساس كل خير وإصلاح، وليس من شك في أن هذا يتطلب الجهاد والكفاح وبذل النفس والمال في سبيل هذه الغاية الشريفة.

وقد أشار الله إلى هذا في قوله:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَنِقَبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢).

وقد أشار الله سبحانه بهذه الأصول إلى ما عداها، فالصلاة رأس العبادات البدنية التي تزكّي النفس، وتحسّن علاقة المخلوق بالخالق، والإنسان بأخيه الإنسان. والزكاة رأس العبادات المالية التي تقيم المجتمع على أساس من التعاون والتكافل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساس كل خير ديني أو دنيوي، وهما دعامتا كل إصلاح، ودرء كل شر وفساد في الأرض.

حكم الجهاد في الإسلام

الجهاد في الإسلام من الفروض الكفائية عند جمهور أهل العلم من السلف والخلف، ومعنى هذا أنه إذا قام به من يكفي في دفع غائلة الأعداء ونصر الإسلام سقط عن الباقيين، ولا يكونون آثمين، وإن لم يقم به من يكفي

(١) سورة الحج : الآية ٤٠.

(٢) سورة الحج : الآية ٤١.

أثمت الأمة كلها، ولا يرتفع هذا الإثم إلا بخروج من فيهم الكفاية، ولو أدى ذلك إلى تجنيد الجميع.

والدليل على هذا قول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ أَعْلَمَهُمْ بِحُدُودِ اللَّهِ﴾ (١).

وبصير الجهاد فرض عين في أحوال ثلاثة:

الأولى: إذا التقى الجيشان وتقابل الصفان، تعين الجهاد على من حضر، وحرم عليه الفرار، إلا أن يكون ذلك لمكيدة أو خدعة حربية، أو لأخذ مكان أفضل وأحسن، أو للانهياز إلى فئة أخرى من الجيش. قال جل شأنه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢).

وقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُمْ أَلَامَةٌ فَاَلْقُنَالِ أَوْ مَتَحِينَ إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٣).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢. يعني ما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد جميعاً بل لتفر طائفة، ولتقم طائفة مع النبي ليتفقهوا في الدين ويتلقوا القرآن حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع، وما تجدد نزوله على النبي ﷺ من القرآن وما سمعوه من الحديث.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤٥.

(٣) سورة الأنفال: الآيتان ١٥، ١٦.

بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

والفرار كبيرة مهما كان عدد الأعداء، وإلى هذا ذهب بعض العلماء.

ومنهم من يرى ذلك إذا لم يزد الأعداء عن ضعف عدد المسلمين، فإن زادوا فلا، وذلك لقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ خَفَفَ^(١) اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ^(٢)﴾.

والرأي الأول هو الذي يؤيده ما كان عليه أصحاب النبي ﷺ من الثبات والصبر، وعدم الفرار مهما بلغ جنود الأعداء، فقد صمد المسلمون في «مؤتة» وهم ثلاثة آلاف أمام مائتي ألف من الروم، وأحلافهم من العرب من لحم وجذام، ولم يروا الفرار.

وليس من الفرار ما يراه قائد الجيش من الانسحاب الكلي أو الجزئي، حتى لا يحاط به أو يفنى الجيش عن آخره أو لتنظيمه، وإنما ذلك داخل في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾، وذلك كما حدث من سيف الله خالد بن الوليد في «مؤتة»، ولذلك لما عبر أهل المدينة الجيش بقولهم لهم: يا فرار، قال النبي ﷺ مدافعاً عنهم: «بل هم الكُرَار»!!

الثانية: إذا هاجم الكفار بلداً من بلاد الإسلام أو نزلوا فيه تعين على أهله قتالهم ودفعهم بما استطاعوا، ووجب على إخوانهم المسلمين في كل قطر وبلد أن ينخفوا إليهم بالعون والمساعدة أداء لحق الأخوة الإسلامية، ففي

(١) وقد كان في أول الأمر يجب الثبات إذا لم يزد جيش الأعداء عن عشرة أضعاف جيش المسلمين.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٦.

الحديث الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله»، وفي رواية أخرى للبخاري: «ولا يُسلمه» أي لا يخذله إذا استتصر به، ولا يسلمه أو يتركه لأعدائه ينالون منه.

الثالثة: إذا استنفر ولي الأمر - خليفة أو ملكاً أو رئيساً - قوماً أو أقواماً لزمهم الخروج، وتعين عليهم الجهاد، وذلك لقول الحق تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِنْ تَنَفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

وفي الحديث الصحيح المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا». وفي معنى الاستنفار العام إعلان التعبئة العامة في العرف الحديث ودعوة الأمة للجهاد، وقد يكون الاستنفار خاصاً بفئة، فيكون تعبئة جزئية.

من يرى أن الجهاد فرض عين
ومن السلف الصالح من كان يرى أن الجهاد فرض عين على أي حال وفي جميع الأزمان، ويستدلون بقول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

أي شباباً وشيئاً، ورجالاً وركباناً، وأغنياء، وفقراء، وأقوياء وضعفاء.

(١) سورة التوبة: الآيتان ٣٨، ٣٩.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤١.

مثل عليا للحرص على الجهاد

ومن كان يرى هذا الرأي السادة الأخيار: أبوأيوب الأنصاري، وأبو طلحة الأنصاري، والمقداد بن الأسود من الصحابة، وسعيد بن المسيب من التابعين. وقد كان أبوأيوب يستدل بالآية السابقة، وكان يرى أن الرغبة عن الجهاد والاشتغال بالأهل والمال إلقاء بالنفس إلى التهلكة، مستدلاً بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١).

وقد لزم رضي الله عنه الجهاد في حياة الرسول وبعده، ولم يتخلف عن غزوة قط، ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية انحاز إلى جانب علي، وشهد معه قتال الخوارج، ولما أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لغزو القسطنطينية تخرج في أول الأمر أن يخرج في جيش تحت إمرة يزيد، ولكن نفسه التواقة للجهاد نازعته إليه وقال: (ما ضرني من استعمل على الجيش)، فلحق بهم وأبلى بلاءً حسناً، ثم مرض فعاده يزيد فقال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي إذا أنا ميتٌ، فاركب بي ما وجدت مساعاً في أرض العدو، فإذا لم تجد فادفني ثم ارجع، فلما توفي صلى عليه يزيد والمسلمون، وفعلوا به ما أوصى به، فدفن بجوار أسوار القسطنطينية شاهداً على لون رائع من ألوان البطولة الإسلامية الفذة، وكانت وفاته سنة اثنتين وخمسين، فرضي الله عنه وأرضاه.

وروي أن أبا طلحة الأنصاري صاحب رسول الله وأحد الذين أحاطوا بالنبي يوم أحد، قرأ سورة التوبة وهو شيخ كبير، فأق على هذه الآية: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً...﴾، فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباباً جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، فركب البحر غازياً، فمات، فلم يجدوا جزيرة يدفنونه بها إلا بعد تسعة أيام ولم يتغير، فدفنوه بها.

(١) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ١، ص ٤٣٨، ط المنار.

وروى ابن جرير الطبري عن أبي راشد أنه رأى المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ بحمص يريد الغزو - وكان شيخاً كبيراً هماً قد سقط حاجباه على عينيه - فقال له: لقد أعذر الله تعالى إليك، فقال: أبت علينا سورة البعوث، يريد هذه الآية من سورة التوبة.

وقال الإمام الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد ذهب إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل صاحب ضر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد، وحفظت المتاع^(١).

وبحسب هؤلاء السادة الأجداد أنهم مجتهدون في فهم الآية^(٢)، فإن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر، وبحسبهم فضلاً ومثوبة هذه النية الصادقة، وبهؤلاء الأبطال المغاوير وأمثالهم - وما أكثرهم - مكّن الله للمسلمين في الأرض، وانتشر الإسلام حتى بلغ المشرق والمغرب.

الترغيب في الجهاد والاستشهاد

لما كان الجهاد هو الوسيلة لحماية العقيدة، وتأمين الدعوة، ونشر الشريعة شريعة التوحيد والحق والعدل والخير، رغب الله ورسوله فيه أيما ترغيب:

ففي الكتاب الكريم يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ حَقًّا فِي الثَّوَرَةِ الْآخِرَةِ وَالْأَنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعَكُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٣).

(١) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ٤، ص ١٧٤، ج ١، ص ٤٢٨.

(٢) ويرى ابن عباس وغيره أن حكم هذه الآية كان في مبدأ الأمر ثم نسخت بقوله تعالى:

﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾، وقوله: ﴿ليس على الضعفاء

ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج...﴾.

(٣) سورة التوبة: الآية ١١١.

وقال مبيناً الفرق ما بين المجاهدين والقاعدين :

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١).

وقال مرشداً إلى أعظم طرق الخير :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَخْرَجٍ تُخَرِّقُونَ بِهِ خُكُومَ آلِ يَمٍّ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وقال مبيناً أن القتال وإن كان مكروهاً للنفس بحسب الفطرة، لكنه قد يكون فيه الخير الكثير :

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

وإذا جاز لغير المسلم أن يخشى الجهاد أو يفرط فيه فلا يجوز ذلك للمسلم، إذ مآل الجهاد له إما نصر وغنيمة وإما أجر وشهادة، وكلا الأمرين غنم وجميل، قال سبحانه :

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾^(٤).

(١) سورة النساء : الآية ٩٥. والمراد بالقاعدين أولاً أصحاب الأعداء، وبالقاعدين ثانياً من لا عذر لهم.

(٢) سورة الصف : الآيتان ١٠، ١١.

(٣) سورة البقرة : الآية ٢١٦.

(٤) سورة التوبة : الآية ٥٢.

وفي السنة النبوية الكثير من الأحاديث المرغبة في الجهاد، المنفردة من التفریط فيه، ففي الصحيحين قال النبي ﷺ: «تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يَخْرُجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانٌ بِي وَبِرَسُولِي أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ أَشَقُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْزَوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَقْتُلَ، ثُمَّ أَغْزَوْ فَأَقْتُلَ، ثُمَّ أَغْزَوْ فَأَقْتُلَ»، وفي صحيح البخاري مرفوعاً: «رَبَاطٌ (١) يَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَمَوْضِعٌ سَوَّطٌ أَحَدَكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»، وفي صحيح مسلم مرفوعاً: «رَبَاطٌ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ»، وعَيْنُ المَرَابِطِ الَّتِي تَبِيَّتْ وَتَحْرَسُ، وَتَرَاقِبُ الْأَعْدَاءَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا تَذُوقُ طَعْمَ الْكَرَى هِيَ عَيْنٌ أَوْجِبَ اللَّهُ لَهَا الْجَنَّةَ، فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مَرْفُوعاً: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرَسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (٢). وفي مواقف الرسول في الغزوات مواطن مشهودة تشجع الجبان، وتجريء الشجاع، حتى يصير منه ليثاً هصوراً.

الاستشهاد في سبيل الله

وكذلك رَغِبَ الْإِسْلَامُ فِي الْإِسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣).

(١) الرباط والمرابطة: الإقامة في الثغور وهي: المواضع التي يخاف منها هجوم الأعداء كالموانئ والمطارات ونقط المراقبة.

(٢) حديث حسن.

(٣) سورة آل عمران: الآيتان ١٦٩، ١٧٠.

وهي حياة برزخية روحية تتمتع فيها الروح بشتى أنواع الملذات الحسية والمعنوية^(١)، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «أرواحهم في جوف طيور خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فأطلع الله عليهم إطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».

وفي مسند الإمام أحمد نحو حديث مسلم وفي آخره: «فلما وجدوا طيب مأكلمهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ عنا إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لثلاً يزهّدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ الآية. فلا تعجب وهذا موقف القرآن والسنة من الجهاد والاستشهاد أن ضرب المسلمون الأولون في باب الجهاد وحب الاستشهاد مثلاً علياً نادرة، وأن جادوا بأرواحهم طيبة بذلك نفوسهم، وأن حرصوا على الموت أكثر من حرصهم على الحياة، وكانت لهم في هذا المضمار بطولات لم يعرفها التاريخ لغيرهم، وسيأتيك من أنباء هذه البطولات الشيء الكثير.

الأطوار التي مرّ بها الجهاد

الطور الأول

لقد كان القتال في هذا الدور مقصوراً على القرشيين الذين عدّبوهم، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، والذين لا يزالون يعذبون المستضعفين الذين

(١) وهذه الحياة البرزخية فوق الحياة الدنيوية لتجرد الأرواح فيها من شوائب المادة، وخلوها من البلاء، والآلام، والمنغصات التي لا تسلم منها الحياة الدنيوية، ودون الحياة الآخوية لعودة الأرواح فيها إلى أجسادها، وكمال التمتع فيها باللذائذ الروحية والجسمانية.

لم يستطيعوا أن يهاجروا، أما من لم يحارب المسلمين ولم يتسبب في إخراجهم فلا يحارب، وهذا هو ما صدعت به الآية الكريمة:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْسِدِينَ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآخِزُوهُمْ مِنْ حَيْثُ آخَزَكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ
الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ
الْكَافِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١).

الطور الثاني

إن بعض القبائل كانوا أحلافاً لقريش، أو صاروا أحلافاً لها بعد هجرة الرسول ﷺ، فحملوا على المسلمين تمشياً مع سياسة قريش العامة، أو أخذاً بثأرها، ومن هؤلاء من فكروا في مهاجمة المدينة، أو هاجموها بالفعل، كما فعل كُرْز بن جابر الفهري، فقد أغار على سَرْح المدينة، وكان ذلك سبباً في خروج المسلمين إليه في غزوة بدر الأولى فلم يدركوه.

ومنهم من تحرشوا بالمسلمين أو قتلوا بغيرهم غدرًا وغيلة كما حدث في سريقي الرجيع والقرءاء، فكان الرسول ﷺ يبادر إلى لقائهم أو يرسل إليهم السرايا والبعوث ليعاقبهم على بغيتهم، ويرد عليهم كيدهم، ومن هذه القبائل: بنو غطفان، وبنو سليم، وبنو عامر، والأحابيش أحلاف قريش، وقبائل نجد وثقيف، وقد أفادت حروبه مع هؤلاء كثيراً، فقد أطلعوا على الإسلام، وعرفوا سماحته، فأسلم منهم الكثيرون، وصاروا أعواناً للإسلام بعد أن كانوا حرباً عليه.

الطور الثالث

لما تماهى المشركون في مكة وخارجها على المسلمين وصاروا يداً واحدة في قتالهم لم يكن بد من قتال هؤلاء جميعاً، كما يقاتلون جميعاً المسلمين، وهذا هو ما أراده الله سبحانه بقوله:

(١) سورة البقرة: الآيات ١٩٠ - ١٩٣.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

وبذلك صار الجهاد عاماً لكل من ليس له كتاب سماوي، وفي هذا الدور من الجهاد يقول الرسول ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»^(٢).

الطور الرابع

كان النبي ﷺ قد وادع اليهود وعاهدهم، وبذلك أئمنهم على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا العهد، وتآلوا مع المشركين وصاروا يحرضونهم على قتال النبي كما حدث في أحد وغيرها، بل حاولوا طعن المسلمين في ظهورهم كما حدث في غزوة الأحزاب، وظلما سَعَوْا في إفساد ما بين الأوس والخزرج، وإفساد ما بين المهاجرين والأنصار، وبذلك أصبحوا شوكاً في ظهور المسلمين، وجرائمهم إفساد في المجتمع المدني لا بد من القضاء عليها، فلذلك أمر الله سبحانه نبيه بقتالهم بعد إيداعهم بنقض ما بينه وبينهم من عهود بقوله سبحانه:

﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَإِنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾^(٣)

وهو أدب من آداب الحرب في الإسلام لم تصل إليه المدينة في القرن العشرين!! وقد قتل المسلمون البعض، وأجلوا البعض الآخر عن المدينة، ولم يلبثوا أن قطع دابرهم من جزيرة العرب كلها، وأراح الله منهم العباد والبلاد.

(١) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان - باب «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة».

(٣) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

الطور الخامس

لما فتح المسلمون مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ودانت لهم الطائف وما حولها، ونجد وما جاورها، لم تلبث الجزيرة العربية أن صارت مؤمنة موحدة، وكان النبي ﷺ قد أرسل كتباً إلى الملوك والأمراء في الهدنة ما بين الحديبية والفتح، عارضاً عليهم الدخول في الإسلام، فمنهم من أسلم، ومنهم من أبى وتوعد، وبذلك أصبحت دعوة الإسلام معروفة عند الدول المتاخمة للجزيرة، والمعروفة للمسلمين وقتها، ثم تحفزت الروم لغزو بلاد المسلمين، فلما علم الرسول جمع الجموع وخرج إليهم فلم يجد أحداً، فرجع بعد أن أراهم أن سلطان الله في الأرض لا يرهب أحداً.

وهذا الدور من أهم أدوار الكفاح والجهاد، فقد انتقلت الدعوة إلى العالمية، وانتقل ميدان الجهاد إلى خارج الجزيرة، وحدثت بعد وفاة الرسول الوقائع المشهورة بين الدولة الناشئة ودولتي الفرس والروم، وتمت الفتوحات العظيمة في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها، وتحققت سنة الله في الكون من تغليب المؤمنين على الكافرين، والمحقين على المبطلين وصدق الله:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (١).

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (٢).

رد الفرية الكبرى

من الأكاذيب التي يرددها أعداء الإسلام والمسلمين أن الإسلام قام على السيف، وأنه لم يدخل فيه معتنقوه بطريق الطوعية والاختيار، وإنما دخلوا فيه

(١) سورة القصص: الآية ٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

بالقهر والإكراه، وقد اتخذوا من تشريع الجهاد في الإسلام وسيلة لهذا التجني الكاذب الآثم، وشتان ما بين تشريع الجهاد وما بين إكراه الناس على الإسلام، فإن تشريع الجهاد لم يكن لهذا، وإنما كان لحكم سامية، وأغراض شريفة كما علمت آنفاً.

وهذه الدعوى الباطلة الظالمة كثيراً ما يرددها المبشرون والمستشرقون، الذين يتأكلون من الطعن في الإسلام وفي نبي الإسلام، ويسرفون في الكذب والبهتان، فيتصايحون قائلين: رأيتم؟! هذا محمد يدعو إلى الحرب، وإلى الجهاد في سبيل الله، أي إلى إكراه الناس بالسيف على الدخول في الإسلام، وهذا على حين تنكر المسيحية القتال، وتمقت الحرب، وتدعو إلى السلام، وتنادي بالتسامح، وتربط بين الناس برابطة الإخاء في الله وفي السيد المسيح عليه السلام^(١).

وقد فطن لسخف هذا الادعاء كاتب غربي كبير هو: «توماس كارليل» صاحب كتاب الأبطال وعبادة البطولة، فإنه اتخذ نبينا محمداً — عليه الصلاة والسلام — مثلاً لبطولة النبوة، وقال ما معناه: (إن اتهامه — أي سيدنا محمد — بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم، إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس، أو يستجيبوا له، فإذا آمن به من لا يقدر على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدّقين، وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدرُوا عليها)^(٢).

ومن الإنصاف أن نقول: إن بعض المستشرقين لم يؤمن بهذه الفرية، ويرى أن الجهاد كان لحماية الدعوة، ورد العدوان، وأنه لا إكراه في الدين، وإليك ما كتبه «أميل در منغم» في هذا قال^(٣):

(١) من حياة محمد لهيكل ص ٢٤٦.

(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ٢٢٧ ط الهلال.

(٣) حياة محمد لدر منغم ص ١٦٦ ترجمة عادل زعير.

(لم يشرع الجهاد هداية الناس بالسيف، ففي القرآن ﴿لا إكراه في الدين﴾، قد تبين الرشد من الغي﴾، والقرآن يأمر المسلمين بالاعتدال، وبأن لا يبدؤوا بالاعتداء، وما تجده في القرآن من الآيات المتتابعة، أو المبثوثة، أو المبعثرة في سورة حول الجهاد، فيشير إلى حوادث ذلك الزمن الراهنة، وإلى ما يجب على محمد أن يسلكه هو وأصحابه في المغازي تبعاً لتبدل الأحوال، ولذلك نرى من اللغو جعل تلك الآيات شاملة لأحوال أخرى، واستخراج مبدأ عام^(١).

وهاتان الشهادتان الحقتان من «كارليل» و«در منغم» هما قيمتهما العلمية في هذا الموضوع الخطير، إذ إنهما من رجلين لا يدينان بالإسلام.

وأحب قبل الشروع في ردّ هذه الفرية أن أبين كذب مزاعمهم في أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه، وتمقت الحرب، وتدعو إلى السلام، من كلام السيد المسيح نفسه قال: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً، وإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته. من أحب أباً أو أمّاً أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني، من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها»^(٢)، فما رأي المبشرين والمستشرقين في هذا؟ أنصدقهم ونكذب الإنجيل؟ أم نكذبهم ونصدق الإنجيل؟! الجواب معروف ولا ريب.

وأما التوراة فشواهد تشريع القتال فيها أكثر من أن يحصى، على ما فيه من الصرامة وبلوغ الغاية في الشدة، مما يدل دلالة قاطعة على الفرق ما بين آداب الحرب في الإسلام، وغيره من الأديان^(٣).

(١) وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ سورة الأنفال: الآية ٣٩، وقوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح العاشر فقرة ٣٥ وما بعدها.

(٣) أدلة اليقين في الرد على مطاعن المبشرين ص ٤٠٩.

وليس أدل على افتراءهم من أن تاريخ الأمم المسيحية في القديم والحديث، شاهد عدل على رد دعواهم، فمنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا، خضبت أقطار الأرض جميعها بالدماء باسم السيد المسيح.

خضّبها الرومان، وخضّبها أمم أوروبا كلها، والحروب الصليبية إنما أذكى المسيحيون - ولم يذك المسلمون - لهيها، ولقد ظلّت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوروبا خلال مئات السنين قاصدة أقطار الشرق الإسلامية، تقاتل، وتحارب، وتريق الدماء، وفي كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح - كما يزعمون - يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس، والبلاد المقدسة عند المسيحية، وتخريب بلاد الإسلام.

أفكان هؤلاء البابوات جميعاً هراطقة، وكانت مسيحياتهم زائفة؟! أم كانوا أذعياء جهالاً، لا يعرفون أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه؟! أجبونا أيها المبشرون والمستشرقون المتعصبون!!

فإن قالوا: تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام، فلا يحتاج على المسيحية بها، فماذا يقولون في هذا القرن العشرين الذي نعيش، والذي يسمونه عصر الحضارة الإنسانية الراقية؟!.

لقد شهد هذا القرن من الحروب التي قامت بها الدول المسيحية، ما شهدت تلك العصور الوسطى المظلمة بل وأشد وأقسى!! ألم يقف «اللورد اللنبى» ممثل الحلفاء: إنجلترا، وفرنسا، وإيطاليا، ورومانيا، وأميركا في بيت المقدس في سنة (١٩١٨) حين استولى عليه في أخريات الحرب الكبرى الأولى قائلاً: (اليوم انتهت الحروب الصليبية)؟!.

والم يقف القائد الفرنسي «غورو» ممثل الحلفاء أيضاً - وقد دخل دمشق - أمام قبر البطل المسلم «صلاح الدين الأيوبي» قائلاً: (لقد عدنا يا صلاح الدين)!!؟.

إن الإسلام إنما غزا القلوب وأسر النفوس بسماحة تعاليمه: في العقيدة، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، وآدابه في السلم والحرب، وسياسته الممثلة

في عدل الحاكم، وإنصاف المحكومين، والرحمة الفائقة، والإنسانية المهدبة في الغزوات والفتوح، إنه دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فلا عجب أن أسرعت إلى اعتناقه النفوس، واستجابت إليه الفطرة السليمة، وتحملت في سبيله ما تحملت، فاستعذبت العذاب، واستحلت المر، واستسهلت الصعب، وركبت الوعر، وضحت بكل عزيز وغال في سبيله.

والآن وقد فرغنا من تفنيد ما بنوا عليه مزاعمهم الكاذبة، من دعوة الإسلام إلى الجهاد، وتحريم المسيحية له، فلنأخذ في تفنيد هذه الدعوى الظالمة من واقع تاريخ الدعوة المحمدية قبل فرض الجهاد، ومن حكم تشريعه في الإسلام، ومن نصوص القرآن والسنة المتكاثرة، ومن سيرة النبي ﷺ وسير خلفائه الراشدين وأصحابه، ومن واقع تاريخ المسلمين اليوم، وما تعرضوا له من اضطهاد وحروب ومظالم، لم تزدهم إلا صلابة في التمسك بالإسلام، والعض عليه بالنواجذ، فأقول وبالله التوفيق:

١ - لقد مكث رسول الله ﷺ، وهو يدعو إلى الله بالحجة والموعظة الحسنة، وقد دخل في الإسلام في هذه الفترة من الدعوة خيار المسلمين من الأشراف وغيرهم، وكان الداخلون أغلبهم من الفقراء، ولم يكن عند رسول الله من الثراء ما يغري هؤلاء، وهذا أمر لا يختلف فيه اثنان، وقد تحمل المسلمون ولا سيما الفقراء والعبيد ومن لا عصبية له منهم من صنوف العذاب والبلاء ألواناً، فما صرفهم ذلك عن دينهم، وما ترعزعت عقيدتهم، بل زادهم ذلك صلابة في الحق، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقرهم، وما سمعنا أن أحداً منهم ارتدّ سخطاً عن دينه، أو أغرته مغريات المشركين في النكوص عنه، وإنما كانوا كالذهب الإبريز لا تزيده النار إلا صفاء ونقاء، وكالحديد لا يزيده الصهر إلا قوة وصلابة، بل بلغ من بعضهم أنهم وجدوا في العذاب عذوبة، وفي المראה حلاوة.

ثم كان أن هاجر بعضهم إلى بلاد الحبشة هجرتين، ثم هاجروا جميعاً الهجرة الكبرى إلى المدينة، تاركين الأهل والولد والمال والوطن، متحملين آلام

الاغتراب، ومراة الفاقة والحرمان. واستمر الرسول بالمدينة عاماً وبعض العام يدعو إلى الله بالحكمة والمجادلة والتي هي أحسن، وقد دخل في الإسلام من أهل المدينة قبل الهجرة وبعدھا عدد كثير عن رضا واقتناع ويقين واعتقاد، وما يكون لإنسان يحترم عقله ويدعن للمقررات التاريخية الثابتة، أن يزعم أنه كان للنبي والمسلمين في هذه الأربعة عشر عاماً أو تزيد حول أوقوة ترغم أحداً على الدخول في الإسلام، إلا إذا ألغى عقله وهدم التاريخ الصحيح.

٢ - إن تشريع الجهاد في الإسلام لم يكن لإرغام أحد على الدخول في الإسلام كما زعموا، وإنما كان للدفاع عن العقيدة، وتأمين سبلها ووسائلها، وتأمين المعتنقين للإسلام، وردّ الظلم والعدوان، وإقامة معالم الحق، ونشر عبادة الله في الأرض، وبحسبنا في هذا المقام ما ذكرته آنفاً في حكمة مشروعية الجهاد من نص القرآن، وما عرضت له في الأطوار التي مرّ بها الجهاد، من أن القتال كان للمقاتلين والمعتدين، فلما تمالأ المشركون على المسلمين أمرهم الله بقتالهم عامة، ثم ماذا يقول هؤلاء المغرضون في قوله تعالى:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

فالإسلام لم يقف عند حدّ أن من سالمتنا سالمتنا، بل لم يمنع من البر بهم والعدل معهم، وعدم الجور عليهم، وكذلك كان موقف القرآن كريماً جداً مع الذين قاتلوا المسلمين، وأخرجوهم من ديارهم، أو ساعدوا عليه، فلم يأمر بظلمهم أو البغي عليهم، وإنما نهى عن توليهم بإفشاء الأسرار إليهم، أو نصرتهم وإخلاص الودّ لهم، فإن حاربونا حاربناهم، وإن كفوا عنا كفنا عنهم، وصدق الله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا﴾.

(١) سورة الممتحنة: الآيتان ٨، ٩.

٣ - نصوص القرآن والسنة الصحيحة تردان على هذا الزعم وتكذبانه.
وقد صرح الوحي بذلك في غير ما آية قال تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ
بِاللهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

وإليك ما ذكره ثقات المفسرين في سبب نزول هذه الآية: روي أنه كان
لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان متصهران قبل مبعث النبي ﷺ،
ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما وقال:
لا أدعكما حتى تسلما، فاختصموا إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أيدخل
بعضي النار وأنا أنظر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾، فخل
سبيلهما، وقال الزهري: سألت زيد بن أسلم عن قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي
الدِّينِ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين لا يكره أحداً في الدين،
فأبى المشركون إلا أن يقاتلوه، فاستأذن الله في قتالهم فأذن له. ومعنى «لا إكراه
في الدين» أي دين الإسلام ليس فيه إكراه عليه.

وقال سبحانه:

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وقال:

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٣).

فالأية نص في أن من اختار الإيمان فباختياره، ومن اختار الكفر
فباختياره، فلا إكراه، ولكن مع هذا التخيير فالله سبحانه يحب الإيمان ويرضاه

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢) سورة يونس: الآية ٩٩.

(٣) سورة الكهف: الآية ٢٩.

ويدعو إليه، ويكره الكفر ويحذر منه، ونصوص القرآن حافلة في هذا المعنى، ولهذا عقب الله التخيير بقوله محذراً ومنفراً:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾.

والكفر رأس الظلم، فلا يتوهم أحد أن حمل الآية على التخيير وعدم الإكراه يشعر بإباحة الكفر أو الرضا، حاشا لله أن يكون هذا، ولعل خوف هذا التوهم هو الذي حدا كثيراً من المفسرين على حمل الآية على التهديد والوعيد، حتى مثل علماء البلاغة للأمر الذي يراد به التهديد بهذه الآية، فالآية بنصها تخيير، ولكنه تخيير يستلزم تهديداً ووعيداً لا محالة في حال اختيار الكفر على الإيمان، وهي نصوص صريحة في عدم الإكراه على الإسلام.

وأما السنة فقد جاءت مؤيدة لما جاء به القرآن، وإليك طرفاً منها:

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده أن النبي ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغْلُوا ولا تغدروا، ولا تَمْتَلُوا»^(١)، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم... فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»^(٢).

وهكذا ترى أن النبي لم يأمر بالقتال إلا بعد أن تستنفذ الوسائل السلمية، وليس بعد استنفادها إلا أنهم قوم مفسدون أو يريدون الحرب، وقد بينت فيما سبق أن الجزية ليست للإرغام على الإسلام، وإنما هي نظير حمايتهم

(١) الغلول: الخيانة في الغنيمة، الغدر: عدم الوفاء بالعهود في الحروب، المثلة: تقطيع أعضاء المقتول، وتشويه جسده بعد القتل أو قبله.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢ ص ٣٧، ٣٩.

وتأمينهم وتقديم شتى الخدمات لهم، وليس أدل على هذا بما رواه البلاذري في فتوح البلدان أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لواقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الجزية وقالوا: (قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم)، فقال أهل حمص: (لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشيم، ولندفعن جند هرقل - مع أنه على دينهم - عن المدينة مع عاملكم)، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود.

وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإننا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد^(١)...

وقد يقول قائل فما تقول في الحديث الشريف: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»؟

قلنا: المراد بالحديث فئة خاصة، وهم وثنيو العرب، أما غيرهم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم على التخيير بين الأمور الثلاثة التي نص عليها حديث مسلم.

على أن بعض كبار الأئمة كمالك والأوزاعي ومن رأى رأيها يرون أن حكم مشركي العرب كحكم غيرهم في التخيير بين الثلاثة: الإسلام، أو الجزية أو القتال، واستدلوا بحديث مسلم السابق، ويقولون: إن حديث «أمرت أن أقاتل الناس» منسوخ، أو أن فيه إيجازاً واقتصاراً على بعض الأمور الثلاثة^(٢).

وإذا نظرنا بعين الإنصاف إلى الذين حملوا حديث المقاتلة على وثنيي العرب، لا نجده يجافي الحق والعدل، فهؤلاء الوثنيون الذين بقوا على شركهم لم يدعوا وسيلة من وسائل الصد عن الإسلام إلا فعلوها، ثم هم أعرف الناس بصدق الرسول، فهو عربي من أنفسهم والقرآن عربي بلغتهم، فالحق بالنسبة

(١) أشهر مشاهير الإسلام، ج ١ ص ٥٢.

(٢) فتح الباري، ج ١ ص ٦٤.

إليهم واضح ظاهر، فلم يبق إلا أنهم متعنتون معوقون لركب الإيمان والعدل والحضارة عن التقدم.

هذا إلى أن الشرك مذهب فاسد، والمذاهب الفاسدة تحارب ويحارب دعائها بكل الوسائل، من قتل أو نفي أو سجن، وهذا أمر مقرر في القديم والحديث. وها هي دول الحضارة اليوم في سبيل تأمين سلامتها، بل وفي سبيل إرضاء نزواتها وأهوائها تزهرق الآلاف من الأرواح، ويغمض الناظرون أعينهم عن هذا ولا يعترض المعترضون، فهل هذا حلال لهم حرام على غيرهم؟!.

فالإسلام حينما لم يقبل من مشركي العرب المحاربين إلا الإسلام بعد ما تبين لهم الحق، وأصبحوا قلة تعتنق مذهباً فاسداً بجانب الكثرة الكاثرة من العرب التي أسلمت طواعية واختياراً لم يكن متجنياً ولا ظالماً، فالحديث كيفما فهمناه لا ينهض دليلاً للمفترين على الإسلام.

٤ - ويرد هذه الفرية ويقتلعها من أساسها ما التزمه الرسول ﷺ في سيرته من التسامح مع أناس أسروا وهم على شركهم، فلم يلجنهم على الإسلام، بل تركهم واختيارهم. ذكر الثقات من كتاب السير والحديث أن المسلمين أسروا في سرية من السرايا سيد بني حنيفة - ثمامة بن أثال الحنفي - وهم لا يعرفونه، فأتوا به إلى رسول الله فعرفه وأكرمه، وأبقاه عنده ثلاثة أيام، وكان في كل يوم يعرض عليه الإسلام عرضاً كريماً فيأبى ويقول: إن تُسأل مالا تعطه، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن تُنعم تنعم على شاكرك، فما كان من النبي إلا أن أطلق سراحه.

ولقد استرقت قلب ثمامة هذه السماحة الفائقة، وهذه المعاملة الكريمة، فذهب واغتسل، ثم عاد إلى النبي مسلماً مختاراً، وقال له: (يا محمد، والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ. والله ما كان على الأرض من دين أبغض إليّ من دينك، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إليّ. والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فقد أصبح أحب البلاد إليّ).

وقد سر رسول الله ﷺ بإسلامه سروراً عظيماً، فقد أسلم بإسلامه كثير من قومه، ولم يقف أثر هذا التسامح في المعاملة عند إسلام ثمانية وقومه بل كانت له آثار بعيدة المدى في تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد ذهب إلى مكة معتمراً، فهم أهلها أن يؤذوه ولكنهم ذكروا حاجتهم إلى حبوب اليمامة، فآلى على نفسه أن لا يرسل لقريش شيئاً من حبوب اليمامة حتى يؤمنوا، فجهدوا جهداً شديداً فلم يروا بُدّاً من الاستغاثة برسول الله ﷺ.

ترى ماذا كان من أمر رسول الله ﷺ معهم؟ أيدع ثمانية حتى يلجنهم بسبب منع الحبوب عنهم إلى الإيمان؟ لا، لقد عاملهم بما عرف عنه من التسامح، وأن لا إكراه في الدين، فكتب إلى ثمانية أن يخلي بينهم وبين حبوب اليمامة، ففعل!! فما رأيكم أيها المفكرون؟

بل امتد أثر دخوله في الإسلام على أساس من الاختيار والرغبة الصادقة إلى ما بعد حياة النبي، ذلك أنه لما ارتد بعض أهل اليمامة ثبت ثمانية ومن اتبعه من قومه على الإسلام، وصار يحذر المرتدين من اتباع مسيلمة الكذاب، ويقول لهم: (إياكم وأمرأ مظلماً لا نور فيه، وإنه لشقاء كتبه الله عز وجل على من أخذ به منكم، وبلاء على من لم يأخذ به منكم)، ولما لم يجد النصيح معهم خرج هو ومن معه من المسلمين وانضموا للعلاء بن الحضرمي مدداً له، فكان هذا مما فت في عضد المرتدين، وألحق بهم الهزيمة^(١).

وإليك قصة أخرى: لما فتح النبي مكة ودخلها ظافراً منتصراً كان صفوان بن أمية^(٢) ممن أهدرت دماؤهم لشدة عداوتهم للإسلام، والتأليب على المسلمين، فاختلفى وأراد أن يذهب ليلقي بنفسه في البحر، فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحي وقال: يا نبي الله، إن صفوان سيد قومه، وقد هرب

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، والاستيعاب بالهامش، ج ١ ص ٢٠٣.

(٢) صفوان هذا هو الذي كان أغرى عميراً هذا على قتل النبي بعد بدر، فلما قدم عمير لتنفيذ ما اتفقا عليه أخبره النبي بما جرى، فما كان منه إلا أن أسلم وحسن إسلامه لما استيقن أنه نبي يوحى إليه من ربه.

ليقذف نفسه في البحر فأُمنه، فأعطاه عمامته، فأخذها عمير حتى إذا لقي صفوان قال له: (فداك أبي وأمي. جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس؛ وهو ابن عمك؛ وعزه عزك؛ وشرفه شرفك، وملكه ملكك) فقال صفوان:

إني أخافه على نفسي. قال عمير: هو أحلم من ذلك وأكرم، وأراه علامة الأمان وهي العمامة، وقيل برده، فرجع إلى رسول الله فقال: إن هذا يزعم أنك أمتي، فقال النبي: «صدق»، فقال صفوان: أمهلني بالخيار شهرين، فقال له رسول الله: «بل أربعة أشهر»، ثم أسلم بعد وحسن إسلامه.

فهل بعد هذه الحجج الدامغة يتقوّل متقوّل على الإسلام زاعماً أنه قام على السيف والإكراه؟!

٥ - ثم ما رأي المبشرين والمستشرقين في أن من أكره على شيء لا يلبث أن يتحلل منه إذا وجد الفرصة سانحة له، بل ويصبح حرباً على هذا الذي أكره عليه؟ ولكن التاريخ الصادق يكذب هذا، فنحن نعلم أن العرب - إلا شذمة، تسور الشيطان عليها - ثبتوا على ما تركهم عليه الرسول، وحملوا الرسالة، وبلغوا الأمانة كأحسن ما يكون البلاغ إلى الناس كافة، ولم يزالوا يكافحون ويجاهدون في سبيل تأمين الدعوة وإزالة العوائق من طريقها حتى بلغت ما بلغ الليل والنهار في أقل من قرن من الزمان، ومن يطلع على ما صنعه العرب في حروبهم وفتوحاتهم لا يسعه إلا أن يجزم بأن هؤلاء الذين باعوا أنفسهم رخيصة لله، لا يمكن أن يكون قد تطرق الإكراه إلى قلوبهم، وفي صحائف البطولة التي خطوها أقوى برهان على إخلاصهم وصدق إيمانهم، وسلّ سهول الشام وسهول العراق، وسلّ اليرموك والقادسية، وسلّ شمال إفريقيا تخبرك ما صنع هؤلاء الأبطال.

٦ - ثم ما رأي هؤلاء المفترين على الإسلام في حالة المسلمين لما ذهبت ريجهم، وانقسمت دولتهم الكبرى إلى دويلات، وصاروا شيعةً وأحزاباً، وتعرضوا لمحن كثيرة في تاريخهم الطويل كمحنة التتار، والصليبيين في القديم، ودول الاستعمار في الحديث، وكل محنة من هذه المحن كانت كافية للمكرهين

على الإسلام أن يتحللوا منه ويرتدوا عنه، فأين هم الذين ارتدوا عنه، أخبرونا يا أصحاب العقول !!؟

إن الإحصائيات الرسمية لتدل على أن عدد المسلمين في ازدياد، على الرغم من كل ما نالهم من اضطهاد وما تعرضوا له من عوامل الإغراء، وقد خرجوا من هذه المحن بفضل إسلامهم وهم أصلب عوداً وأقوى عزيمه على استرداد مجدهم التليد وعزتهم الموروثة.

بل ما رأي هؤلاء في الدول التي لم يدخلها مسلم مجاهد بسيفه، وإنما انتشر فيها الإسلام بواسطة العلماء والتجار والبحارة كاندونيسيا، والصين، وبعض أقطار إفريقيا، وأوروبا وأمريكا، فهل جرد المسلمون جيوشاً أرغمت هؤلاء على الإسلام؟ ألا فليسالوا أحرار الفكر الذين أسلموا من أوروبا وغيرها، وسيجدون عندهم النبا اليقين.

لقد انتشر الإسلام في هذه الأقطار بسماحته، وقربه من العقول والقلوب، وما نحن نرى كل يوم من يدخل في الإسلام، وذلك على قلة ما يقوم به المسلمون من تعريف بالإسلام، ولو كنا نجرد للتعريف به عشر معشار ما يبذله الغربيون من جهد ومال لا يحصى في سبيل التبشير بدينهم وحضارتهم، لدخل في الإسلام ألوف الألوف في كل عام. ولن ترى - إن شاء الله - من يحل عروة الإسلام من عنقه أبداً مهما أنفقوا وأسرفوا في سبيل دعاياتهم التبشيرية، وبعثاتهم التعليمية والتنصيرية.

أما بعد: فقد لاح الصبح لذي عينين، وتبين الحق لكل ذي عقل وقلب، وما إخالك - أيها القارئ المنصف - إلا ازدددت يقيناً بسماحة الإسلام وسماحة الرسول في الدعوة إليه، وأن ماردده المستشرقون والمبشرون ما هو إلا فرية كبرى:

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾^(١)

(١) سورة الكهف: الآية ٥.

أحداث وتشريعات

تحويل القبلة إلى الكعبة

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة أمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، تأليفاً لليهود ونحبياً لهم للدخول في الإسلام، ولكن اليهود لم تثمر معهم هذه السياسة، واتخذوا من توجه النبي إلى بيت المقدس ذريعة للطعن فيه فقالوا: يخالفنا ويتبع قبلتنا؟!.

فألم النبي ﷺ ذلك، وكان النبي يجب أن تكون قبلته هي الكعبة قبله أبيه إبراهيم^(١)، ومفخرة آبائه وأجداده، فكان كثيراً ما يرفع بصره إلى السماء داعياً وراجياً، وقد مكث على استقبال بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم أجابه الله على سؤاله، وحقق أمنيته فوجهه إلى الكعبة البيت الحرام. قال عز شأنه:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ مَآكُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

(١) أما قبلته بمكة فقبل كان النبي يستقبل بيت المقدس، ولكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس، وذلك بأن يقف بين الركبتين الأسود واليماني، فلما هاجر استمر على استقبال بيت المقدس حتى نسخ الله ذلك بالتوجه إلى الكعبة، وقيل كانت قبلته الكعبة، فلما هاجر أمره الله باستقبال بيت المقدس حتى نسخ ذلك، قال ابن عبد البر عالم المغرب: وهذا أصح القولين عندي. وهو ما نرجحه، ويؤيده حديث إمامة جبريل للنبي غداة ليلة الإسراء والمعراج، فقد كان وقوفها عند باب الكعبة، وغير ممكن لمن كان عند بابها أن يستقبل الكعبة وبيت المقدس معاً.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٤.

وبذلك تحقق للنبي والمسلمين شرف التوجه إلى القبلتين.

وقد كان التحويل من بيت المقدس إلى الكعبة في منتصف شهر رجب على الصحيح، وبه جزم جمهور العلماء، ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس، وذهب البعض إلى أن التحويل كان في نصف شعبان، وهو قول ضعيف، وقد اختلف العلماء في أول صلاة حصل فيها التحويل، فقيل الظهر، وقيل العصر، والتحقيق أن النبي ﷺ زار أم بشر بن البراء بن معرور خارج المدينة في بني سلمة، فصنعت لهم طعاماً، وحانت صلاة الظهر، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه للصلاة في مسجدهم، وبعد أن صلى بهم ركعتين نزل جبريل على النبي بتحويل القبلة فاستدار النبي وهو في صلاته إلى الكعبة، واستدار معه أصحابه، فسُمي هذا المسجد، المسجد ذي القبلتين؛ ولا يزال مكانه موجوداً إلى وقتنا هذا بالقرب من المدينة، وفيه مكان القبلتين.

ثم خرج النبي إلى المدينة فحانت صلاة العصر فصلاها إلى الكعبة، ثم خرج رجل ممن صلى معه بالمسجد النبوي، فمر على بني حارثة في مسجدهم وهم يصلون إلى بيت المقدس، فأخبرهم بتحويل القبلة، فاستداروا وهم في صلاتهم إلى الكعبة، ثم ذهب هذا الرجل أو غيره إلى قباء، فأدركهم في صلاة الفجر وهم يصلون إلى بيت المقدس، فأخبرهم بنزول القرآن بالتحويل إلى الكعبة، فتوجهوا في صلاتهم إليها، وبهذا التحقيق يحصل التوافق بين الروايات المختلفة الواردة في هذا المقام، والتي يكمل بعضها بعضاً^(١).

وقد أكثر اليهود من الطعن في النبي والمسلمين بسبب هذا التحويل، ولهجوا بقالة السوء، مع علمهم من كتبهم أن هذا سيكون، وأن توجهه ﷺ إلى بيت المقدس لن يدوم، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى موقفهم هذا في قوله:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٥ ص ٩؛ فتح الباري، ج ١ ص ٧٩ - ٨١.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ١٤٢، ١٤٣.

ثم بين سبحانه أن هذا التحويل كان بلاء واختباراً لتمييز عند الناس المؤمنون المخلصون من الشاكين المرتابين، فقال سبحانه:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّكَ اللَّهُ بَالِ الْنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

ولما كان نسخ القبلة أول نسخ وقع في الإسلام، وقارنه إرجاف اليهود والمنافقين، أكد الله سبحانه الأمر بالتوجه إلى الكعبة في ثلاثة مواضع متقاربة، فقال سبحانه أولاً:

﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىٰ سَنَكْ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.
وقال ثانياً:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.
وقال ثالثاً:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا بَلَا يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِيَنَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٢).

وقد روى قصة تحويل القبلة إلى الكعبة الإمامان البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث، وإليك رواية البخاري لأنها أتم وأكمل: عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله من

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠.

الأنصار، وأنه صَلَّى قَبْلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا^(١) وكان يعجبه أن تكون قبلته قَبْلَ الْبَيْتِ، وأنه صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةُ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ فَخَرَجَ رَجُلٌ مِّنْ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ - هُمُ بَنُو حَارِثَةَ - وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: «أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ الْبَيْتِ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ»، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لِلْبُخَارِيِّ فَنَزَلَتْ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ...﴾ الْآيَةُ، وَفِي رِوَايَةٍ أَيْضًا: «أَنَّهُ مَاتَ قَبْلَ أَنْ تَحُولَ - يَعْنِي الْقِبْلَةَ - رِجَالٌ وَقَتَلُوا فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾، يَعْنِي صَلَاتَكُمْ الَّتِي تَوَجَّهْتُمْ فِيهَا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ».

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَى أَنْ اخْتَارَ لَنَا الْقِبْلَةَ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ مَبَارَكًا وَهَدَى لِلْعَالَمِينَ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامَ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَأَنْ جَعَلَ قِبْلَتَنَا خَيْرَ الْقِبَلِ، كَمَا جَعَلَ أَمْتَنَا خَيْرَ الْأُمَمِ وَإِنْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ وَالْيَهُودُ.

تشريع فريضة الصيام^(٢)

وَفِي شُعْبَانٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ فَرَضَ اللَّهُ شَرِيعَةً مِنْ أَعْظَمِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَرُكْنًا مِنْ أَرْكَانِهِ، وَهُوَ صِيَامُ رَمَضَانَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَدَ الْيَهُودَ يَصُومُونَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ - وَهُوَ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنَ الْمَحْرَمِ -، فَسَأَلَهُمْ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ فَقَالُوا: هَذَا يَوْمُ نَجَّى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا لِلَّهِ،

(١) قَدُومُ النَّبِيِّ الْمَدِينَةَ كَانَ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ، وَالتَّحْوِيلُ كَانَ فِي مَتْنِصِفِ رَجَبٍ عَلَى الصَّحِيحِ، فَإِذَا اعْتَبَرْنَا شَهْرِي الْقَدُومِ وَالتَّحْوِيلِ شَهْرًا كَانَتِ الْمُدَّةُ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَإِذَا اعْتَبَرْنَا هَاتَيْنِ الشَّهْرَيْنِ كَانَتِ الْمُدَّةُ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، فَمِنْ ثَمَّ تَرَدَّدَ الرَّوَايِ، وَبَعْضُ الرِّوَايَاتِ جَاءَتْ بِالْجُزْمِ.

(٢) الصَّوْمُ وَالصِّيَامُ فِي اللُّغَةِ الْإِمْسَاكُ. وَفِي الشَّرْعِ: إِمْسَاكُ الْمَكْلُوفِ نَفْسَهُ بَنِيَّةً عَنْ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْجَمَاعِ وَمِثَالِ الْمَفْطَرَاتِ، مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَمِنْ كَمَالِ الصَّوْمِ الْإِمْسَاكُ عَنِ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَالْفُسُوقِ، وَالْعَصْيَانِ وَبِذَلِكَ يَشْعُرُ الصَّائِمُ بِفَائِدَةِ الصَّوْمِ، وَيَفُوزُ بِشَرِّهِ.

فقال النبي لهم: «نحن أولى بموسى منكم» فصامه وأمر المسلمين بصيامه، روى ذلك البخاري ومسلم، فلما فرض صوم رمضان أصبح صيام عاشوراء غير واجب، فمن شاء صامه ومن شاء أفطره، روى ذلك الشيخان أيضاً عن عائشة.

وقد أوجب الله صيام رمضان بقوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١).

وكان صيام رمضان في أول الإسلام على سبيل التخيير، فمن شاء صام وأدى الفريضة، ومن شاء أفطر ووجب عليه الفداء: عن كل يوم لإطعام مسكين، ثم لما مرنا عليه وأصبح أمراً مألوفاً أمرهم بصيامه على سبيل الإلزام ونُسَخَ التخيير، وذلك بقوله سبحانه:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ...﴾ (٢) الآية.

روى ذلك الشيخان في صحيحيهما عن سلمة بن الأكوع - واللفظ لمسلم - قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾، كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها. وهي قوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾، وقد أكدت الآيتان الرخصة للمريض أو المسافر أن يفطر ويقضي دفْعاً للحرَج، وتيسيراً من الله على المسلمين: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٨٣، ١٨٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

ويرى فريق من العلماء وعلى رأسهم ابن عباس أنه لا نسخ، وأن الآيتين محكمتان، وأن قوله: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ إنما هي في الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فلهما أن يفطرا ويطعما بدل كل يوم مسكيناً. رواه البخاري في صحيحه، وعلى رأي ابن عباس ومتابعيه تكون الآيتان قد نزلتا مرة واحدة.

وفي مبدأ الإسلام كان الصائم إذا أفطر يأكل ويشرب ويباشر امرأته إلى أن ينام أو يصلي العشاء، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والمباشرة، فشق ذلك على المسلمين، ووقع بعضهم في الحرج بسبب هذا، فخفف الله عن الأمة، ورحمها، وأباح لهم هذه الثلاثة إلى طلوع الفجر^(١).

روى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل من حديث طويل في أحوال الصلاة والزكاة قال: وكانوا يأكلون، ويشربون، ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له صُرمة - يعني ابن قيس - كان يعمل صائماً حتى أمسى، فجاء إلى أهله فصلّى العشاء ثم نام، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح، فرآه رسول الله ﷺ قد جهد كثيراً فقال: «ما لي أراك قد جهدت جهداً شديداً»، فأخبره. وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام، فأتى رسول الله ﷺ وهو يبكي ندماً، فذكر له ذلك، فأنزل الله سبحانه: ﴿أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن...﴾، إلى قوله: ﴿لعلهم يتقون﴾ ورواه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه، وغيرهما.

وبهذا استقر تشريع الصيام على هذا اليسر ورفع الحرج، وتأكد وجوبه بالسنة القولية والعملية المتواترة عن رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، وأجمع على هذا المسلمون، فلا يحل لمسلم أن يفطر في هذا الأصل من أصول الإسلام الذي هو من أسس التقوى، وهي جماع الخير كله، ومن حكمه تركية النفوس

(١) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ١ ص ٤١٨.

والسمو بالأرواح، وتعطيف قلوب الأغنياء على الفقراء، وتعويد النفوس على الصبر والتحمل، ومواجهة شدائد الحياة ولأوائها، ومن بعد ذلك كله يكون غفران الذنوب، والفوز برضاء الله رب العالمين.

زكاة الفطر

وفي رمضان من نفس العام شرع الله سبحانه وتعالى زكاة الفطر من رمضان، طعمة للمساكين والفقراء، وطهرة للصائم من اللغو والرفث، وهي على كل حر أو عبد، وذكر أو أنثى، وصغير أو كبير من المسلمين. وقد روي أن النبي ﷺ خطب الناس قبل الفطر بيوم أو يومين وأمرهم بذلك، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين»^(١). وهي فريضة عند جمهور الأئمة واجب عند الحنفية على قاعدتهم في التفريق بين الفرض والواجب. ولها أحكام وتفصيلات تطلب من كتب الفقه.

صلاة العيد

وفي هذه السنة صلى النبي ﷺ صلاة العيد، فكانت أول صلاة عيد صلاحها، وخرج بالناس إلى المصلى - كما هي السنة - يهللون الله، ويكبرونه ويعظمونه شكراً لله على ما أفاء عليهم من النعم المتتالية، ولا سيما نعمة النصر في يوم الفرقان: يوم التقى الجمعان، وهو يوم بدر العظمى، اليوم الأغر في تاريخ الأيام، وخرجوا من بين يديه بالحرية وهي التي وهبها له النجاشي، فكانت تحمل بين يديه في الأعياد^(٢)، فمن ثم اتخذ الأمراء من بعده الحرية يُخرج بها بين يديهم في صلاة العيد.

(١) رواية الجماعة.

(٢) فتح الباري، ج ١ ص ٤٥٥.

وقيل إن الحربة كانت للزبير بن العوام وهبها له النجاشي، ثم وهبها للنبي ﷺ^(١).

الصوم والفطرة والعيد

من روافد العدالة الاجتماعية في الإسلام

وبتشرع الصوم وزكاة الفطر والعيد خطط الإسلام روافد ثلاثة من روافد البر والمواساة والتكافل الاجتماعي في الإسلام، فالصوم كما أَرادَه الله ورسوله يربي في النفس صفات السخاء والبذل والعطاء، فالصائم إذا لذعه الجوع وعضه بنابه أدرك بحسه ووجدانه ما يعانيه الفقراء والمساكين والمعوزون، فيجد نفسه مدفوعاً إلى البر والمواساة عن اقتناع وشعور، هذا إلى ما ورد في فضل البر والإنفاق والجود في رمضان، وأن من فطر صائماً كان له مثل أجره، وهذا جانب من الجوانب الفسيحة في تشريع الصيام.

ثم تأتي زكاة الفطر فتكون بأدائها شاهداً من شواهد صدق المسلم في صيامه، ورافداً من روافد البر والتوسعة على الفقراء في هذا اليوم الكريم، وكثيراً ما كان النبي ﷺ يقول في يوم العيد: «أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم» ثم يأتي العيد، وهو موسم من مواسم الخير والتعاطف والتحاب، فيكون رافداً ثالثاً، وقد كان من دأب رسول الله ﷺ أنه إذا صلى العيد ذكر وأندر، ورغب ورهب، فيتسابق في مضمار البذل والعطاء الرجال والنساء والصغار والكبار، وتمتد الأيدي إلى الأقراط والحلي فتلقي بها إلى بلال عن رضا وطيب خاطر. روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس «أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى يوم الفطر ركعتين لم يصل قبلها ولا بعدها، ثم أتى النساء ومعه بلال فأمرهن بالصدقة، فجعلن يلقين: تلقي المرأة خرصها، وسخابها»^(٢).

(١) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٢٥٦.

(٢) الخرص بضم الخاء: القروط. السخاب بكسر السين: القلادة.

تشريع الزكاة^(١) في الإسلام

وفي السنة الثانية أيضاً شرع الله الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام وكان ذلك بعد شهر رمضان، لأن تشريع الزكاة العامة كان بعد زكاة الفطر، وزكاة الفطر كانت بعد فرض صيام رمضان قطعاً، يدل على هذا ما رواه الأئمة أحمد وابن خزيمة والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث قيس بن سعد بن عبادة قال: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة، ثم نزلت فريضة الزكاة، فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله» قال الحافظ ابن حجر: إسناده صحيح^(٢).

وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أن مشروعية الزكاة إنما كانت بالمدينة في السنة الثانية، وقالوا: إن قوله تعالى في سورة الأنعام المكية: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ليس المراد به الزكاة المفروضة، وإن هذا شيء كانوا يعطونه عند الجذاذ ترضية للفقراء والمساكين من غير تقدير حد له، بل هو متروك لأريحية كل مُعْطٍ، فكان الواحد منهم يأتي بالقنون أو العذق فيضعه في جانب^(٣) المسجد، فيأتي الفقراء والمساكين فيأكلون منه، أو يعطي من حصاده ما تجود به نفسه من غير إلزام ولا تحديد بحد^(٤).

وذهب بعض العلماء إلى أن فرضية الزكاة كانت بمكة بهذه الآية، ثم نزل تأكيد فرضيتها وبيان أنصبتها ومصارفها، ومقدار المخرج من كل نوع إلى غير ذلك من التفصيلات في المدينة.

(١) الزكاة في اللغة: النماء والتطهير، وفي الشرع: إعطاء جزء من النصاب الحولي إلى فقير ومسكين وغيرهما من المصارف غير هاشمي ولا مطلبية، والمناسبة بين المعنيين ظاهرة لأن إخراجها سبب للنماء في المال أو الأجر، وأيضاً فهي طهرة للنفس من رذيلة البخل، وطهرة للمجتمع من الأحقاد والمفاسد والمذاهب المنحرفة، وركنها الإخلاص، وشرطها: هو ملك النصاب الحولي، وشرط من تجب عليه: العقل والبلوغ والحرية، وبأدائها يسقط الواجب في الدنيا، ويحصل له الثواب في الآخرة.

(٢) فتح الباري، ج ٣ ص ٢٠٧.

(٣) مجمع الكناسة، وهي ما نسميها «السباطة».

(٤) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ٣ ص ٤١٠؛ فتح الباري، ج ٣ ص ٢١١، ط. بولاق.

وأيّاماً كان الأمر، فقد ثبتت فرضيتها بالقرآن والسنة والإجماع، وأجمع الصحابة على قتال مانعها. فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً أو عقلاً^(١) كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

وإنما تجب الزكاة على المسلم المكلف إذا بلغ ما يملكه نصاباً من أي نوع من الأنواع التي تجب فيها الزكاة، فنصاب الذهب أن يبلغ عشرين مثقالاً^(٢) ونصاب الفضة أن تبلغ مائتي درهم^(٣)، وما زاد منها فبحسابه، وذلك بشرط حَوْلان الحول، ونصاب الغنم أربعون شاة، ونصاب البقر والجاموس ثلاثون، ونصاب الإبل خمس، فمن ملك نصاباً منها وحال عليه الحول وكانت سائمة وجب إخراج زكاته.

وعروض التجارة تُقَرَّم بأحد التقدين، والزروع تجب فيها الزكاة على تفصيل بين الفقهاء في النصاب، وما يُخرج منه وما لا يخرج، وما يسقى بالسيح أو ماء المطر وما يحتاج في سقيه إلى آلة وتعب، وقد فصلت ذلك كتب الأحاديث النبوية وكتب الفقه بما لا مزيد عليه.

وقد كان الشارع حكيماً في تقدير الزكاة الواجبة من كل نوع، وجعل ذلك جزءاً من المال لا تضمن به النفوس الشحيحة، لأن الله يعلم حب

(١) العناق: الأنثى من ولد الماعز. والعقال: ما تعقل به الإبل، أي لا يترك شيئاً من الزكاة قط ولو قل.

(٢) وقدر ذلك باثني عشر جنيهاً ذهباً تقريباً.

(٣) وقدر ذلك بستة وعشرين ريالاً فضة تقريباً.

النفوس للمال، فاقتضت حكمته أن يكون جزءاً يسيراً، وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى هذه الحكمة السامية، قال عز شأنه:

﴿وَأَنْ تَرْضَوْا وَتَرْضَىٰ أَعْيُنُكُمْ وَأَنْ يُضَافَ إِلَيْكُمْ أَمْوَالُكُمْ أَنْ يَسْأَلَكُمْ بِهَا شَيْءٌ وَتُقْبِلَ عَلَيْهِمْ تُبْخِلُوا بِهِمُ الْفُقَرَاءَ وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (١).

وقد رتب الشارع الحكيم هذا الحق الذي يخرج بحسب المؤونة والتعب في المال وعدمها: فأقلها تعباً الركاز (٢)، وفيه الخمس لعدم التعب فيه أو قلته، ويليه الزرع والتمر، فإن سقي بماء المطر والسيح فيه العشر، وإن سقي بالآلة أو الدالية أو الساقية ونحوها فنصف العشر، ويليه الماشية، وقد لوحظ فيها أنها يدخلها الأوقاص (٣).

مصارف الزكاة

وقد تكفّلت ببيان هذه المصارف الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٤).

وقد أسقط الفاروق عمر مصرف المؤلفة قلوبهم بعد أن أعز الله الإسلام، ولم يعد في حاجة إلى تأليف، وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء، ويرى بعض العلماء أن حقهم لم يسقط وأنه لا يزال باقياً إذا دعت الضرورة إليه.

(١) سورة محمد: الآيات ٣٦ - ٣٨.

(٢) الركاز: ما يوجد في بطن الأرض من مال أو معدن.

(٣) جمع وقص بفتح القاف وسكونها، ما بين الفريضتين من نصب الزكاة مما لا شيء فيه.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦٠.

الزكاة أساس العدالة الاجتماعية الإسلامية

إن الغرض من تشريع الزكاة هو إشراك الفقراء والمساكين ومن على شاكلتهم في أموال الأغنياء، ولما بعث النبي ﷺ سيدنا معاذاً إلى اليمن قاضياً أو والياً قال له: «أخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، وترد إلى فقرائهم»^(١).

والزكاة هي أساس العدالة الاجتماعية في المجتمع المسلم، ففيها اشتراك في المنفعة والثمرة لا في أصل المال، فقد ترك الشارع لأهل الأموال أموالهم لينموها، ثم فرض فيها حقاً لازماً لا يجوز التساهل فيه. قال سبحانه في صفة عباد الله المتقين:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(٢).

وقال:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(٣).

وقد سمعت أنفاً أن الصديق قاتل مانعي الزكاة، وجادله في هذا عمر حتى اقتنع برأيه، وصار أمراً مجتمعاً عليه من الصحابة، ولا عجب فالزكاة ركن أصيل في بناء المجتمع على أساس من التعاون والتكافل، والمشاركة في الخير والنعماء، وقد رأيت أن الإسلام جعلها حقاً في الذهب والفضة، والإبل والبقر والغنم، والزروع والثمار، وعروض التجارة، بل ذهب بعض الفقهاء إلى وجوبها في البقول، والخضر، والفواكه، وحلي النساء.

تُرى لو أن الزكاة أخرجت من كل هذه الأنواع الحولية وغير الحولية، ووزعت في مصارفها المشروعة، هل كان هناك جائع لا يجد ما يسد جوعته؟

(١) رواه البخاري.

(٢) سورة الذاريات: الآية ١٩.

(٣) سورة المعارج: الآيتان ٢٤، ٢٥.

أوعارٍ لا يجد ما يستر عورته؟ أو متشرد لا يجد مسكناً يؤويه؟ أو مريض لا يجد مستشفى يستشفى فيه، أو طالب علم لا يجد ما يعينه على طلب العلم؟.

تري لو أن الناس أخرجوا زكاة أموالهم بأمانة وإخلاص، من غير تهرب أو تحايل، ووزعت في مصارفها، هل كنت تجد بين المسلمين من يدعو إلى الشيوعية أو يعتنقها مذهباً؟ وهل كنت تجد بينهم في كثير من أقطار المسلمين هذا الفقر والضعف، وهذه الفوارق الشاسعة بين الناس؟ فهناك قلة تتمتع بمتع الحياة وزخارفها، بما يصل إلى حد الإسراف، وتبعثر الأموال هنا وهناك في الحانات وبيوت اللهو والفجور، وحلبات الرقص، والسباق والقمار!! وهناك الكثرة الكاثرة لا تتمتع بالطيبات الحلالات، بل ولا تجد الضروريات.

إن الزكاة حينما كانت تجمع من كل من تجب عليه، وتنفق في سبلها المشروعة في صدر الإسلام، كان المجتمع الإسلامي على خير ما يكون رخاء ورغداً، وتمتعاً بالطيبات، وتآلفاً وتآخياً وتحابياً. فقد روى الرواة أنه في عهد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أخصب الناس، واغتنوا حتى إنهم بحثوا عن مستحق للمصدقة فلم يجدوا، فما كان منهم إلا أن اشتروا بها عبيداً وأعتقوهم لوجه الله. وهكذا بلغ الإسلام في عصوره الأولى، بمستوى حياة المسلمين ومعيشتهم حداً لم تبلغه إلا أمم قليلة اليوم، وذلك بفضل تشريع الزكاة.

الغزوات والسرايا في السنة الثانية

غزوة الأبواء أو ودان^(١)

وهي أولى غزوات النبي ﷺ، وكانت في شهر صفر من السنة الثانية، خرج فيها النبي وبعض أصحابه، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة من الخزرج ليعترض عيراً لقريش، وكان يحمل لواءه عمه حمزة أسد الله، وكان لونه أبيض، فلما وصلوا إلى ودان وجدوا العير قد فاتتهم، فودع النبي نخشي بن عمرو الضمري سيد بني ضمرة^(٢)، وعاهده على أنهم آمنون على أنفسهم، ولهم النصر على من رامهم، وأن عليهم نصر المسلمين إذا دعوا، وكانت هذه أول معاهدة عقدها الرسول مع غير يهود المدينة وقد حققت نصراً للمسلمين.

غزوة بواط^(٣)

وأقام رسول الله بالمدينة حتى كان شهر ربيع الأول من هذه السنة، فبلغه أن عيراً لقريش آية من الشام، فيها أمية بن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فخرج إليها في مائتين من المهاجرين والأنصار بعد أن استخلف على المدينة سعد بن معاذ سيد الأوس، وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص، فسار حتى بلغ بواط، ولكن أمية كان قد غي إليه خبر خروج المسلمين للقاءهم، فأسرع بالقافلة ونجا بها.

(١) ودان بتشديد الدال، والأبواء: مكانان متقاربان بينهما نحو ستة أميال.

(٢) ضمرة: بفتح الضاد المعجمة وإسكان الميم.

(٣) بواط بفتح الباء وضمها وتخفيف الواو: جبل من جبال جهينة بالقرب من ينبع.

غزوة العشيرة^(١)

وفي جمادى الأولى أو الثانية بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خروج قريش بأعظم عير لها، قد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي له مثقال إلا بعث به في تلك العير، وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب في بضعة وعشرين رجلاً من قريش، فخرج إليها رسول الله ﷺ بعد أن استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وحمل لواء عمه حمزة، ولم يزل سائراً يسعى الليل ويخفي النهار حتى بلغ العشيرة، فوجد العير قد أفلتت، مما يدل على أن قريشاً بدأت تأخذ حذرهما، وترسل لذلك العيون والجواسيس.

وفي أثناء عودته حالف بني مدلج وحلفاءهم بمثل ما حالف بني ضمرة، وهذا كسب أيضاً ودّ قبيلة أخرى من القبائل الواقعة على طريق التجارة بين مكة والشام، وهذا ولا شك فيه تقوية للمسلمين وإضعاف لقريش، فقد قطع عليهم الرسول بهذه الأحلاف أن يستجبروا بقبيلة من هذه القبائل، ويحتموا بها، وهي سياسة حكيمة ولا ريب.

غزوة بدر الأولى

لم يقم الرسول بالمدينة إلا بضع ليال بعد أوبته من العشيرة، حتى أغار كُرُز بن جابر الفهري على سَرَح^(٢) المدينة حيث ترعى الأغنام ليأخذ منها ما تصل إليه يده، فخرج الرسول في طلبه بعد أن استخلف على المدينة زيد بن حارثة مولاه، وكان يحمل اللواء علي بن أبي طالب، حتى بلغ وادياً يقال له «سفوان» من ناحية بدر، ولكن كان قد هرب كُرُز فلم يدركه، وهكذا بين النبي بهذا العمل الحازم أنه لن يقبل من أحد انتقاص حقوقهم، أو الإغارة على المدينة وما حولها من حمى وقرى.

(١) العشيرة بالتصغير والشين بهاء وبغيرها، وبالسین بهاء وبغيرها: مكان بطن ينبع.

(٢) السرح: المرعى الذي ترعى فيه الدواب.

سرية عبدالله بن جحش

في رجب من السنة الثانية، أرسل الرسول ﷺ رَهْطاً من المهاجرين ثمانية^(١)، وقيل سبعة، وأمر عليهم عبدالله بن جحش الأسدي، وأعطاه كتاباً وقال له: «لا تفتحه إلا بعد يومين، فإذا فتحته فامض لما أمرتك به، ولا تستكره أحداً من أصحابك» فلما سار بهم يومين فتحه فإذا فيه:

«إذا نظرت كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم» فلما قرأ الكتاب قال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بما في هذا الكتاب، وقال: قد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فليطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فامض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد.

وإنما وقع اختيار النبي على هذا المكان البعيد لأن أهل مكة كانوا قد بدؤوا يحتاطون لتجارته، ويأخذون لها الحذر، ويجهدون في إخفاء أخبارها عن أهل المدينة، فغلبهم النبي على حذرهم، وأراد أن يتعرف أخبار تجارتهم من وادي نخلة الواقع بين مكة والطائف؛ وكانت حكمة بالغة أن لم يخبر النبي السرية بمقصده من إرسالهم ووجهتهم قبل مغادرتهم المدينة، حذراً من أن يشاع الخبر، فينقله أحد المنافقين أو اليهود إلى قريش، فترصدهم في هذا المكان النائي عن المدينة، وهم قلة فتقتلهم.

(١) هم: أبو حذيفة بن عتبة، وعكاشة بن محصن، وعتبة بن غزوان، وسعد بن أبي وقاص، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبدالله التميمي، وخالد بن البكير، وسهيل بن بيضاء الفهري.

وسار الركب حتى وصلوا مكاناً يسمى «بحران»، فأصل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما كانا يعتقبانه؛ فتخلفا في طلبه، ومضى بقية الركب، حتى نزلوا «نخلة»، فمرت بهم غير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي ومعه ثلاثة آخرون، فلما رآهم القرشيون هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم، فأطل عليهم عكاشة بن محصن^(١)، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا وقالوا: عُمَار لا بأس عليكم منهم.

وتشاورت السرية في أمرهم وكان في آخر يوم من رجب^(٢)، فقالوا: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتالهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسروا اثنين وأفلت واحد، واستاقوا العير، ورجعوا بها وبالأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ.

فلما علم أنهم قاتلوا في رجب قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»، ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فسقط في يد رجال السرية، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم المسلمون، واتخذ المشركون مما حدث وسيلة للطعن في المسلمين، وقالوا: قد استحلف محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا الأموال، وأسروا الرجال، وأرجف اليهود والمنافقون في المدينة قصد إشعال الفتنة.

وفي هذه الغمرة من الأسى والأسف، والشريب والعتاب والإرجاف من الأعداء، نزل الوحي من السماء بقول الله سبحانه:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدْعٌ سَبِيلُ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ

(١) عكاشة: بضم العين وتشديد الكاف، وقد تخفف، ومحصن: بكسر الميم وفتح الصاد.
(٢) وقيل إن ذلك كان في آخر يوم من جمادى الثانية، فقاتلوهم ظناً منهم أنه من جمادى، ثم ظهر أنه من رجب فتقدموا.

مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرَالُونَ يُقِيلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ
مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فَيَمُتْ - وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (١).

فكان في هذا إعذار من الله لأصحاب السرية، فسُري عنهم وعن
المسلمين ما كانوا فيه من الكرب والغمة، فقبض الرسول العير والأسيرين،
وبعث قريش في فدائهما، فقال رسول الله: «لا نفديكما حتى يقدم صاحبا»
- يريد سعداً وعتبة - فلما نخشاكم عليهما، فإن قتلتموهما نقتل صاحبيكم»،
فقدم سعد وعتبة سالمين، فأفداهما رسول الله، فأما أحد الأسيرين وهو الحكم بن
كيسان فأسلم وحسن إسلامه وأقام بالمدينة حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً؛
وأما الثاني وهو عثمان بن عبد الله بن المغيرة فلحق بمكة، ومات بها كافراً.

وقفة عند ما نزل من القرآن

وما كان لنا أن نمر بهذه الآية دون أن نعرض لها بالبحث والاستنتاج، فقد
كان ذلك مفترق طرق في سياسة الإسلام من تقدير للقيم الدينية والخلقية،
وسمو بالمعاني الروحية والإنسانية، وعدم إغفال للبواعث الشريفة التي دعت
رجال السرية للقتال في الشهر الحرام، دون الوقوف عند الظواهر والرسوم
وما التزمه الناس من تقاليد كريمة مشروعة أو موروثة، فالله سبحانه أجاب
المتسائلين بأن القتال في الشهر الحرام أمر كبير، ولكن هناك من الكبائر التي قام
بها المشركون تجاه المسلمين ما هو أكبر وأعظم، فالصد عن سبيل الله -
وهو الإسلام - والكفر به، والصد عن المسجد الحرام أن تؤذى فيه الشعائر
والمناسك، وإخراج المسلمين من بلدتهم وأهليهم وأموالهم كلها أكبر عند الله
مما فعل المسلمون!!.

(١) سورة البقرة: الآيتان ٢١٧ - ٢١٨.

ثم هم مع كل جرائمهم هذه فعلوا ما هو أشنع وأظلم، فقد ابتغوا الفتنة، فتنة المسلمين عن دينهم وعقيدتهم، وسلكوا كل وسيلة ممكنة للفتنة من وعد ووعيد وإغراء وتعذيب، وتجردوا في هذا من معاني الإنسانية والرحمة، ولا يزالون - وقد فعلوا كل هذه الجرائم - يحاولون جاهدين فتنة المسلمين وقتلهم والتضييق عليهم، فإذا كان المشركون يرتكبون هذه الكبائر كلها فلا جناح على من وقعت عليهم هذه الكبائر والآثام إن قاتلوهم في الشهر الحرام، وأسروا منهم، واستاقوا غيرهم، وإنما الحرج والإثم أن يقاتل في الشهر الحرام من يجترح هذه الأوزار والآثام.

وفي الآية الثانية عِدَّة بالجميل لمن هاجر وجاهد في سبيل الله على سبيل الرجاء، وهو أسلوب من أساليب القرآن قصد به إزالة الأطماع، وعدم الاتكال والاعتماد على ما قدّموا من أعمال مجيدة فيما مضى، وحثّ لهم على إدامة الجهاد والكفاح فيما يأتي وما يستقبلون من حياتهم، وفي ضمن هذا عِدَّة لأصحاب هذه السرية بالأجر والمغفرة.

* * *

غزوة بدر الكبرى

ترقب وانتظار

بقي الرسول ﷺ والمؤمنون بالمدينة يترقبون قدوم العير العظيمة التي أفلت بها أبوسفيان، وكانت تبلغ ألف بعير، فيها معظم أموال قريش، وهي التي خرج للقائها في غزوة العشيرة التي مرَّ الحديث عنها آنفاً.

وبعث رسول الله ﷺ برجلين من أصحابه هما: طلحة بن عبيدالله وسعيد بن زيد إلى «الحوراء» على البحر الأحمر، وهي محطة من محطات القوافل التي تسير بين الحجاز والشام ولا بدَّ للعير أن تمرَّ بها يترصدانها، وقد تمكن الرجلان من أن يستميلا قبيلة جهينة، وأقاما يتسكَّطان الأخبار، حتى تأكدا من موعد مبارحتها الشام، فعادا إلى الرسول يبلغانه الخبر، ويقال إن الرسول لم ينتظر قدوم الرسولين من مهمتهما وقرر الخروج إلى طريق الشام، خشية أن تفوته العير في إيابها كما فاتته في ذهابها ولا سيما أنه قوم ما فيها بخمسين ألف دينار.

الخروج إلى العير

ندب الرسول ﷺ أصحابه إلى الخروج قائلاً: «هذه عير قريش، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها»^(١) فحفَّ لدعوته أقوام، وتناقل عنها آخرون، لظنهم أن رسول الله ﷺ لم يرد حرباً، وقوي عندهم هذا الظن أن الرسول قال: «من كان ظهره حاضراً فليركب معنا» ولم ينتظر من كان ظهره غائباً، فخرج

(١) في القاموس: نفله ونفَّله وأنفله: أعطاه إياه، والنفل: الغنيمة.

رسول الله ﷺ ثلاث وقيل لثمان ليال خلون من رمضان، وكان معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، منهم نيف وأربعون ومائتان من الأنصار، والباقي من المهاجرين، ولم يتخلف منهم إلا عثمان بن عفان لتمريض زوجته السيدة رقية بنت الرسول فقد اشتد عليها المرض.

واستخلف النبي عبدالله بن أم مكتوم ليصلي بالناس في المدينة، وردّ أبا لبابة الأنصاري من الرّوحاء واستعمله على المدينة، وردّ عاصم بن عدي أيضاً واستخلفه على قباء والعالية، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، وكان أبيض، وبين يدي رسول الله رايتان سوداوان: أحدهما مع علي بن أبي طالب، والثانية مع سعد بن معاذ، وكان معهم فرسان: أحدهما للزبير بن العوام، والثاني للمقداد بن الأسود، وسبعون بغيراً يعتقبونها، كل ثلاثة أو أربعة يتناوبون بغيراً.

فكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب وأبولبابة على بغير ولما ردّ أبا لبابة كان ثالثهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي^(١)، وضرب رسول الله مع صاحبيه غاية العدل والرحمة، ذلك أنه لما جاءت نوبته في المشي قال له: نحن نمشي عنك فقال: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما». وكان أبو بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف يعتقبون بغيراً. وكان حمزة وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة^(٢) يتعاقبون بغيراً.

وسار الجيش القليل في عدده الكثير بروحه وإيمانه حتى وصل إلى «بيوت السقيا» خارج المدينة، وعسكر فيها واستعرض النبي من خرج معه، فردّ من ليس له قدرة على الحرب المحتملة الوقوع، وكان ممن ردّ: البراء بن عازب، وعبدالله بن عمر، ففي صحيح البخاري عن البراء قال: «استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر، وكان المهاجرون يوم بدر نيفاً على ستين، والأنصار نيفاً وأربعين ومائتين»^(٣).

(١) أبو مرثد اسمه كنان بن حصين ينتمي نسبه إلى قيس بن عيلان.

(٢) الثلاثة موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٣) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب «عدة أصحاب بدر».

وروي عن البراء أيضاً: «أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، بضعة عشر وثلاثمائة».

وقد اختلف في هذا البضع، فقليل: ثلاثة عشر، وقيل: أربعة عشر، وقيل: خمسة عشر، ولا ينافي هذا ما ذكره ابن سعد من أنهم كانوا ثلاثمائة وخمسة رجال، وما ذكره ابن جرير من أنهم كانوا ثلاثمائة وستة؛ لأن هناك صحابة عدوا من أهل بدر، ولكن النبي ﷺ ردَّ بعضهم، استخلاقاً له كسيدنا أبي لبابة، أو تخلفوا عنها لأعدار وضروريات كسيدنا عثمان، فقد تخلف لتمريض زوجته السيدة رقية بنت الرسول، وكسيدنا الحارث بن الصمة، فقد كسرت رجله بالرُّوحاء فردَّه النبي ﷺ^(١)، والاختلاف في مثل هذا سهل غير بعيد.

أبوسفيان واستنفار قريش

كان أبوسفيان على حذر أن تقع العير في قبضة المسلمين، فلما دنا من الحجاز صار يتجسس الأخبار، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك وخاف العاقبة، إذ لم يكن معه من قريش في حراسة العير إلا ثلاثون أو أربعون رجلاً، وما يغني هذا العدد عند اللقاء؟.

فاستأجر ضَمُضَم^(٢) بن عمرو الغفاري، فبعثه مسرعاً إلى مكة ليستنفر قريشاً إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فوصل ضَمُضَم إلى مكة، وقد جدع أذني بعيره وأنفه، وحول رَحْله، وشقَّ قميصه، وقال:

يا معشر قريش، اللطيمة، اللطيمة^(٣). أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها. الغوث الغوث.

(١) فتح الباري، ج ٧ ص ٢٣٣.

(٢) بفتح الضادين، وسكون الميم بينهما.

(٣) اللطيمة: العير التي تحمل التجارة والأموال.

ومالبت أبو جهل حين سمعه أن صاح بالناس من عند الكعبة يستنفرهم، وكان أبو جهل رجلاً خفيفاً حديد الوجه، حديد اللسان، حديد النظر، ولم تكن قريش في حاجة إلى من يستنفرها فقد كان لكل منهم في هذه العير نصيب.

فتجهز الناس سراعاً وقالوا: أئظن محمد وأصحابه أن تكون كبير ابن الحضرمي؟ والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً. وأوعبت قريش^(١)، فلم يتخلف من أشرافها إلا أبو لهب بن عبد المطلب، فقد بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة استأجره بأربعة آلاف درهم كانت عليه قد أفلس بها، وكاد أمية بن خلف يتخلف، وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً، ذلك أنه سمع من صديقه سعد بن معاذ - وقد ذهب إلى مكة معتمراً بعد الهجرة - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك» قال: بمكة؟ قال سعد: لا أدري. فلما حصل الاستنفار تذكر هذا وداخله رعب شديد.

ولكن الله إذا أراد شيئاً هياً له الأسباب، فلم يلبث أبو جهل - وقد علم بخبر تخلفه - أن جاءه ومعه عقبة بن أبي معيط، ومع عقبة مجمرة فيها بخور، ومع أبي جهل مكحلة ومروء، فوضع عقبة المجرمة بين يديه وقال له: يا أبا علي استجمر فإنما أنت مثل النساء، وقال أبو جهل: اكتحل أبا علي فإنما أنت امرأة، فلم يجد بداً وقد استثارا حميته بهذا الكلام الجارح لرجولته إلا أن قال لهم: ابتاعوا لي أجود بعير بمكة، وخرج معهم وفي نيته أن يرجع بعد قليل متسللاً، ولكن منيته ساقته إلى حتفه رغم أنفه، وهكذا لم يتخلف بمكة قادر على القتال، غير بني عدي فلم يخرج منهم أحد.

تخوف قريش من بني بكر

وكانت قريش تتخوف إذا خرجت إلى لقاء النبي وصحبه أن يأتيهم بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة من خلفهم، لما كان بينهم من ثارات وقتل في الجاهلية، حتى كاد ذلك يشنهم عن الخروج لولا أن جاء سراقة بن مالك بن

(١) يقال: أوعب القوم إذا خرجوا جميعاً إلى الغزو.

جُعْشَم^(١) المدلجي - وكان من أشراف بني كنانة - فقال: أنا لكم جارٌّ من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فزالت مخاوفهم وأجمعوا على المسير. فخرجوا بجمعهم بطرين أشيرين، وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى هذا بقوله:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢).

وكان مثله ومثلهم:

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

وكان تعداد جيش المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير يعتقبونها، وأمامهم القينات يغنين بهجاء المسلمين، وساروا يحدوهم البطر، ويملؤهم الزهو والغرور حتى كانت عاقبة أمرهم هلاكاً وخسراً.

(١) وقيل إن إبليس جاء في صورة سراقه وقال: إني جار لكم وسار معهم، حتى لما كانت الموقعة ونزلت الملائكة نكص على عقبيه.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٤٧، ٤٨.

(٣) سورة الحشر: الآيتان ١٦، ١٧.

فرار أبي سفيان بالعبير واختلاف المشركين في الخروج

أما أبو سفيان فقد ساحل بالعبير خارجاً عن الطريق المعتاد، فنجا، وأرسل إلى قريش وقد خرجت عن بكرة أبيها يعلمهم بذلك، ويشير عليهم بالرجوع قائلاً: (إنكم قد خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا)، ورأى رأي أبي سفيان من قريش عدد غير قليل، لكن أبا جهل ما لبث حين سمع هذا الكلام أن صاح قائلاً: (والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم عليها ثلاثًا، ننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فامضوا).

وقال الأخنس بن شريق^(١) - وكان حليفاً لبني زهرة وكان فيهم مطاعاً -: (يا بني زهرة قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم - محرمته بن نوفل - فارجعوا، فاتبعوا مشورته ورجعوا، فلم يشهد بدرًا زهري، وكذلك لم يشهدا أحد من بني عدي، وكان بين طالب بن أبي طالب - وكان في صفوف المشركين - وبين بعض قريش محاورة فقال له: والله لقد عرفنا يا بني هاشم - وإن خرجتم معنا - أن هواكم مع محمد، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع، ومضت جموع قريش في خيلها وخيلائها حتى وصلت وادي بدر، فتلوا عدوته القصوى عن المدينة في أرض سهلة لينة.

مسير المسلمين إلى بدر^(٢)

أما النبي ﷺ فقد سار وأصحابه في الطريق إلى بدر، وكان لا يزال شائعاً بين صفوف المسلمين أن غير أبي سفيان ستمر بها في طريقها إلى مكة، ولم يكن عليه السلام عارفاً بما فعله أبو سفيان من إفلاته بالعبير، ولا بما قامت به قريش

(١) شريق: بفتح الشين المعجمة وكسر الراء.

(٢) بدر: مكان بين مكة والمدينة، وهو إلى المدينة أقرب، سمي باسم بشر هناك. وكان به سوق تقام كل سنة ثمانية أيام وبه قرية الآن.

من جمع جموعها والتوجه إلى بدر حتى بلغ وادياً يقال له «ذفران»^(١) أو «الروحاء»، وهناك أتاه الخبر عن قريش ومسيرهم في جيش كبير لمنع العير وحمايتها.

وحينئذ تغير وجه الأمر، ولم يصبح الأمر مقصوراً على اللحاق بالعير والاستيلاء عليها، فها هي قريش خرجت بجموعها الكثيرة، وبذلك ترجحت كفة القتال والمناجزة، فجمع رسول الله ﷺ كبراء الجيش وقال لهم: «أيها الناس إن الله وعدني إحدى الطائفتين أنها لكم: إما العير، وإما النفير»، فتبين له عليه الصلاة والسلام أن البعض يريد العير، ولا يرغب في لقاء النفير، وقال بعضهم: هلاً ذكرت لنا القتال فنستعد؟ ولكن الأكثرية كانت تريد لقاء النفير، وقد ذكر الله سبحانه هذا في قوله:

﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٢).

وإذا أراد الله شيئاً هيأ له الأسباب، وإن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً.

استشارة النبي أصحابه في القتال

وقد كانت هذه الاستشارة بمثابة اختبار لإيمان المسلمين، وصلابة عقيدتهم، ومقدار استعدادهم للقتال والتضحية في سبيل الإسلام، وقد أسفر الامتحان عن نجاح باهر، ودلّوا بحق على أنهم أهل لحمل الرسالة المحمدية والجهاد في سبيل تبليغها للناس كافة.

(١) ذفران: بفتح الذال المعجمة وكسر الفاء: وادٍ قرب وادي الصفراء.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٧، ٨. والمراد بالطائفتين: العير أو النفير يعني الجيش. ومعنى الشوكة: السلاح. فغير ذات الشوكة هي العير. وقد صار مثلاً أن يقال: فلان لا في العير ولا في النفير لمن لا خطر له ولا يؤبه به.

استشار النبي أصحابه في القتال، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن الكلام، وقام الفاروق عمر فقال وأحسن الكلام، ثم قام المقداد بن الأسود^(١) فقال: (يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون - وفي رواية البخاري في صحيحه: «ولكن نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك وخلفك» - فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد^(٢) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه)، فقال له رسول الله خيراً ودعا له.

ثم قال رسول الله: «أشيروا علي أيها الناس»، وإنما يريد الأنصار لأنهم لما بايعوه ليلة العقبة بايعوه على أن يمنحوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ما دام بين أظهرهم، ولم تكن المبايعه على قتال خارج المدينة، وإنما لمشورة حقة من كان أصدق الناس بالوعود، وأوفاهم بالعهود، وأبعدهم عن التوريط والخذاع، وقد فطن لهذا السيد الجليل سعد بن معاذ فقال: (والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟) قال «أجل» فقال: (لقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى عدونا غداً، إنا لَصَبْرٌ في الحرب. صُدُقٌ^(٣) عند اللقاء. لعل الله يريك ما تقر به عينك، فسر على بركة الله) فسر الرسول وأشرق وجهه، ثم بشر القوم بالنصر قائلاً: «سيروا

(١) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة الكندي، كان أبوه ترك بلاد قومه إلى حضرموت، وهناك تزوج وولد لهم المقداد، فلما كبر المقداد تلاحق هو ورجل آخر، فضربه بالسيف وهرب إلى مكة، فحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري، فتبني المقداد، فكان يعرف به، فلما أبطل الإسلام ذلك كان يقال له: المقداد بين عمرو، ولكن بقيت شهرته ابن الأسود.

(٢) برك: بفتح الباء، الغماد بكسر الغين موضع على خمس ليال من مكة في طريق اليمن.

(٣) صبر: بضم الصاد والباء جمع صبور، صدق: بضم الصاد والذال جمع صدوق.

وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

وكيف لا يسر الرسول بهذه المواقف المشرفة التي مبعثها الإيمان الصادق الذي لا يعرف الضعف ولا الاستخذاء، والذي ظهرت ثمراته في كلمات طيبة مؤمنة، والتي كشفت عن معدن العرب المسلمين الأصيل، وأبانت الفرق الشاسع ما بين موقف اليهود من نبيهم موسى عليه السلام وموقف المسلمين من نبيهم محمد ﷺ. وإنها لمقارنة صادقة حقة في هذا الموقف الدقيق، تشف عن نفاسة معدن العرب، وبطولتهم، وعن خبث معدن بني إسرائيل ونذالتهم.

تسنت أخبار قريش

وارتحل المسلمون من «ذفران»، حتى إذا كانوا على مقربة من بدر ركب رسول الله وصاحبه الصديق حتى وقفا على شيخ من العرب يقال له: سفيان الضمري، فسأله الرسول عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه من أخبارهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له رسول الله: «إذا أخبرتنا أخبرناك» فقال: أوداك بذلك؟ قال: «نعم»، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به جمع رسول الله ﷺ، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به قريش، فلما فرغ قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله: «نحن من ماء»^(١)!! ثم انصرفا عنه فقال الشيخ: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟^(٢)

ثم رجع رسول الله وصاحبه إلى أصحابه. فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء

(١) هذا من التوريات البديعة، وهو يحتمل معنيين: أحدهما قريب وهو المكان المعروف بهذا الاسم، والثاني بعيد وهو الماء الذي خلق منه كل كائن حي، وهو مراد النبي.

(٢) يعني أمن المكان الذي بالعراق أم من غيره؟

بيدر يتسقطون له الأخبار، ويتجسسون على قريش، فأصابوا راوية^(١) لقريش فيها غلامان هما: غلام لبني الحجاج، وغلام لبني العاص بن سعيد، فأتوا بها ورسول الله ﷺ يصلي، فقالا: نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما، فلما أوجعهما قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما، فلما فرغ رسول الله من صلاته قال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا - والله - إنها لقريش»، ثم قال لهما: «أخبراني عن قريش» فقالا: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما: «كم القوم؟» قالا: كثير، قال: «ما عدّتهم؟» قالا: لا ندري، قال الرسول: «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة والألف»^(٢). فقال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» فذكرا: عتبة بن ربيعة، وشيبة، وأبا جهل، وأمّية بن خلف، وسهيل بن عمرو في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلاً: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»!!

تعرف أخبار العير

وكما عاد سيدنا علي ومن معه بالغلامين وبخبر قريش معهما، عاد رجلان آخران ذهبا يتعرفان أخبار العير، حتى عرفا من جاريتين تتنازعان على حقّ لإحدهما على الأخرى على ماء لهم أن العير ستقدم غداً أو بعد غد، وأخبرا الرسول بما سمعا.

وكان أبو سفيان قد سبق العير يتسقط الأخبار حذراً أن يكون المسلمون قد سبقوه إلى الطريق، فلما ورد الماء وجد عليه مجدي بن عمرو، فسأله هل رأى أحداً؟ فأجابه بأنه لم ير إلا راكبين أناخا إلى هذا التل، وأشار إلى حيث أناخا،

(١) الراوية: الإبل يستقى عليها الماء.

(٢) هذا من حصافة الرسول، والمعيته النادرة، وحذسه الصائب الذي لا يخطيء.

فأتى أبو سفيان مناخهما فوجد في روث بعيريهما نوى، عرفه من علائف يثرب، فأسرع إلى أصحابه، وعدل بالسير عن الطريق المعهود متبعاً ساحل البحر، مسرعاً في سيره حتى نجا بالعرير كما قدمنا، وأصبح الغد والمسلمون في انتظار مرور العير بهم، فإذا الأخبار تصلهم أنها فاتت، وأن قريشاً بجموعها تعسكر بالقرب منهم، وهكذا أفلتت العير، ولم يبق إلا النفير وتعين القتال.

جيش المسلمين في بدر

وسار المسلمون حتى نزلوا بعُدوة الوادي الدنيا^(١) بعيداً عن الماء في أرضٍ سبخة، لا تثبت عليها الأقدام، فأصبحوا عطاشاً، وبعضهم جنب، وبعضهم محدث، ووجد إبليس وأعوانه مجالاً للوسوسة، وإلقاء الريب والشكوك في النفوس، فهجس قائلًا: ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم، ويذهب قواكم، فيتحكموا فيكم كيف شاؤوا.

آية من السماء

ولكن الله عز شأنه أبطل كيده، ومنَّ عليهم بأن أرسل عليهم السماء مدراراً فشريوا، وتوضأوا واغتسلوا، وملأوا الأسقية، ولبد المطر الأرض من تحت أقدامهم، فسهل لهم السير، على حين كان نقمة على المشركين، فقد وحل الأرض تحت أقدامهم، حتى لم يعودوا يقدرّون على الارتحال، وصدق الله حيث يقول:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(٢).

وسار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر.

(١) العدو: جانب الوادي. الدنيا: القرية من المدينة، أما العدو القصوى فهي البعيدة عنها.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١١.

مشورات حكيمة

لما نزل النبي بالمسلمين هذا المنزل قال الحباب^(١) بن المنذر الخزرجي - وكان معروفاً بجودة الرأي والدربة في الحروب - لرسول الله ﷺ: «أرأيت هذا المنزل، أمتزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال الرسول: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فامض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فتملأه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله: «لقد أشرت بالرأي»، ونفذ ما أشار به الحباب.

وقد دُلَّ النبي بهذا على تأصل روح الشورى في نفسه الشريفة فيما لم ينزل فيه وحي، وأنه على جلالة قدره، ووفور عقله، وبعد نظره لا يستبد برأيه، ولا يأنف من الرجوع إلى الحق، كما هو شأن الكثيرين من القادة والزعماء والسياسيين، فإن الواحد منهم قد يودي بأمة في سبيل التشبث برأي قد يكون خطأ، وما ذلك إلا لأنه نبي يتبع ما يؤمر به، وصدق الله:

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مَعَهُ حَتَّى تَأْمُرَ بِهُ فَتَقْتُلُوهَ أَوْ تُنَادُوا بِقَتْلِهِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ خَائِفِينَ﴾^(٢)

ومن المشورات الصائبة، مشورة سعد بن معاذ الأوسي، فقد قال: (يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعُدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحيينا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدَّ حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنحك الله بهم، ويناصحونك ويجاهدون معك). فأثنى عليه النبي خيراً، ودعا له بخير، ثم بُني

(١) الحباب: بضم الحاء المهملة وفتح الباء الموحدة المخففة.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

للرسول عريش على تل مشرف على ميدان القتال، فكان فيه ومعه صاحبه الصديق يحرسه.

وهذه الفكرة التي أشار بها سعد هي من أدق فنون الحرب، فالقائد ينبغي أن يكون بمنأى عن ميدان القتال، حتى يكون قادراً على التوجيه والإشارة بما يراه من أساليب القتال. وحتى لا يصاب فينفرط بإصابته عقد الجيش، فيكون مآله الفشل والهزيمة، وقضى الرسول في ذلك العريش ليلته ومعه الصديق، وأقام سعد بن معاذ على مدخل العريش بسيفه، ونام المسلمون نوماً عميقاً استراحوا فيه من وعثاء السفر.

تصاف المسلمين

وفي الصباح صف النبي جنوده للقتال صفوفاً متراصة، لا خلل فيها ولا اعوجاج، حسبما أشار إليه القرآن في قوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَنٌ

مَرصُوضٌ﴾^(١).

وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما رآها رسول الله تنحدر من وراء الكتيب إلى الوادي قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أجنهم^(٢) الغداة»، ووقف الجيشان وجهاً إلى وجه، فلما رأى رسول الله ﷺ عتبة بن ربيعة في القوم على جمل له أحر قال: «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحر، إن يطيعوه يرشدوا».

رؤيا الرسول

وكان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه — ليلة اليوم الذي التقى فيه الجيشان — المشركين قليلاً عددهم، كي يجروا عليهم ولا يهابوهم. قال سبحانه:

(١) سورة الصف: الآية ٤.

(٢) الحين: بفتح الحاء الهلاك، أي أهلكهم وأمتهم.

﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادْتَ كَثِيرًا لَفِشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١).

وكذلك شاء الله أن يقلل المشركين في أعين المسلمين، ويقلل المسلمين في أعين المشركين كي يتجرأ الجيشان، وتقع الواقعة، فيكون النصر والعزة للمسلمين، والهزيمة والذلة للمشركين، والله سبحانه إذا أراد شيئاً مما يجري بين الخلق يسر له الأسباب، ووفر له الدواعي. قال عز شأنه:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَقَالُوا لَوْ أَنَّ بَيْنَنَا وَقَوْمَنَا عَاقِبَةٌ مَا كُنَّا بِمُقِيمِيهَا لَآتَيْنَهُمْ بِنَصْرٍ مِّنْ لَّدُنَّاهُ وَلَآتَيْنَهُم مَّا يَكْفِيهِمْ لَآتَيْنَهُم مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَأَنفُسُهُمْ يَكْفِيهِمْ أَلِئِنَّكُمْ لَتَكُونُنَّ فِي الْأَمْرِ نَدًا﴾^(٢).

وروي عن ابن مسعود قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى إنني لأقول للرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة!!

وكان ذلك عندما تراءى الفريقان، فلما التحم الجيشان، وأمد الله المسلمين بالملائكة تعينهم وثبت قلوبهم، وتلقي الرعب في قلوب أعدائهم، وتكثّر عددهم، رآهم المشركون مثليهم، وعلى هذا ينزل قول الحق تبارك وتعالى:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأَى الْغَيْبِ وَاللَّهُ يُوَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٣).

فإن المعنى على أصح القولين أن الفئة الكافرة رأت الفئة المؤمنة مثلي عدد الكافرة على الصحيح أيضاً^(٤).

(١) (٢) سورة الأنفال: الآيتان ٤٣، ٤٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣.

(٤) انظر تفسير ابن كثير، والبيهقي، ج ٤ ص ٧٣، وتفسير الألوسي، ج ٣ ص ٩٦.

تخاذل في صفوف المشركين

لما نزلت قريش منازل القتال بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا له: احذر - قدّر - لنا أصحاب محمد، فاستجال بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر اللقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً، فرجع إليهم، فقال: (ما رأيت شيئاً، ولكن قد رأيت - يا معشر قريش - البلياء تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم مَنعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم)^(١).

فشل المساعي لعدم الحرب

ثم سعى بعض العقلاء في الحيلولة بين قريش والحرب، فقد مشى حكيم بن حزام إلى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي، قال: قد فعلت. هو حليفني علي عَقْلُه - ديتُه - وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية - أبا جهل - فإني لا أخشى أن يجسر أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة خطيباً فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون.

فانطلق حكيم إلى أبي جهل، فأرغى وأزبد، واتهم عتبة بالجن، والتخوف على ابنه أبي حذيفة الذي كان في صفوف المسلمين وأوعز إلى عامر

(١) فروا: أمر من رأى وصل بواو الجماعة.

ابن الحضرمي أن ينشد مقتل أخيه؛ فقام عامر مكتشفاً وصرخ: واعمراه، واعمراه، فانتصر الشر على محاولات الخير، ولم يعد من الحرب مفر.

مخاطرة من بعض المشركين

وقبل أن تقوم الحرب خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي وقال: (أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمته، أو لأموتنّ دونه)، وتقدم نحو الحوض فعاجله أسد الله حمزة بضربة قطع بها نصف ساقه، فوقع على الأرض وصار يزحف نحو الحوض إبراراً لقسمه حتى اقتحمه، فثني عليه سيدنا حمزة بضربة أخرى قضت عليه، وحينئذ ثار الدم في العروق، وأهاج منظر الدم النفوس، وأوشكت رحي الحرب أن تدور، ووقف رسول الله بين أصحابه ينفخ فيهم من روحه، ويشحذ عزائمهم بصدق إيمانه وسحر بيانه، فكان مما قال: «وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرّج الله به الهم، وينجي به من الغم».

ابتداء الحرب بالمبارزة

وابتدأت الحرب بالمبارزة، فخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد، وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم فتية ثلاثة من الأنصار، فقالوا من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار^(١)، فقالوا: أكفاء كرام، ولكن أخرجوا إلينا أكفاءنا من بني عمناء. وذكر بعض محققي كتاب السيرة^(٢) أن النفر من الأنصار لما خرجوا كره رسول الله ﷺ ذلك، لأنه أول موقف واجه فيه الرسول أعداءه، فأحب أن يكون أولئك من أهله وذوي قريبه، فأمر الأنصار بالرجوع وقال: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي»^(٣)، فبارز عبيدة - وكان أسنّ

(١) هم: عوف ومعوذ ابنا الحارث، وعبد الله بن رواحة الأنصاريون.

(٢) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٢٧٣.

(٣) عبيدة هو ابن الحارث، بن المطلب، بن عبد مناف، وقد أخطأ قلم بعض كتاب السيرة فظن أنه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب مثل المرحوم الشيخ الحضري في «نور اليقين»، وعلى هذا فيكون المتبارزون اثنين من بني هاشم وواحد من أبناء عمومته، وبني هاشم والمطلب سواء في الجاهلية والإسلام كما قال الرسول الكريم.

الثلاثة - عتبة، وبارز حمزة شيبه، وبارز علي الوليد بن عتبة. فأما حمزة وعلي فقتل كل منهما صاحبه، وأما عبيدة وعتبة فاختلفا بضربتين كلاهما أصاب الآخر، ففكر حمزة وعلي فأجهزا على عتبة، واحتملا صاحبهما وجاءا به إلى رسول الله، فأفرشه قدمه، فوضع خده عليها وقد طاب نفساً بذلك، ثم قال: يا رسول الله، وددت والله أن أبا طالب كان حياً ليعلم أننا أحقُّ منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل^(١)

ثم لم يلبث عبيدة أن توفي بعد من جراحته، فقال رسول الله: «أشهد أنك شهيد». وفي شأن هذين الفريقين المتبارزين نزل قوله تعالى:

﴿هَٰذَا نِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَحْمَةٍ﴾^(٢).

تعديل الرسول صفوف الجيش

وبعد المبارزة رجع رسول الله ﷺ إلى جيش المسلمين يعدل من صفوفه بقضيب في يده، فمر بسواد بن غزية^(٣) حليف بني النجار وهو خارج عن الصف، فطعنه في بطنه بالقضيب وقال: «استقم يا سواد»، فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدي - يعني مكني من نفسك حتى أقتص - فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه راضياً وقال: «استقد يا سواد»، فاعتقه سواد وقبل بطنه!! فقال النبي: «وما حملك على هذا يا سواد»، قال: يا رسول الله حضر ما ترى - يعني موطن الشهادة - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلديك، فدعا له الرسول بخيراً!!

(١) من قصيدة أبي طالب اللامية المشهورة التي يقسم فيها أن لا يسلم لهم رسول الله أبداً حتى يموتوا دونه. والحلائل: الزوجات. وقبل هذا البيت:

كذبتم وبيت الله نبي محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل نبي: نسلمه ونغلب عليه، والكلام على حذف «لا» أي لا نبي ولا نسلمه، وفي رواية ولا نبي محمد بالرفع.

(٢) رواه البخاري ومسلم. والآية من سورة الحج رقم ١٩.

(٣) سواد بتخفيف الواو، غزية كفتية.

وإن لنا هنا لواقفة تزيينا كيف يبلغ السمو النفسي والخلقي بصاحبه، وتزيينا كيف قبل النبي على جلالاته عن طيب خاطر أن يقتصر أحد المسلمين من نفسه، وهو غاية ما يطمع فيه من عدل في هذه الحياة، وتزيينا أيضاً كيف بلغ حب هؤلاء الصحابة للرسول وتكريمه وتقديسه في نفوسهم، قداسة لا تحل بدين ولا عقيدة، فهذا سواد وقد حضر موطن الشهادة يريد أن يحظى بلمسة من جسد الرسول، لأنه يرى فيها ثلج الصدر، وطمأنينة القلب وغذاء الروح!!

وصاة النبي للمسلمين

وتزاحف الناس من الفتتين، ودنا بعضهم من بعض، وأخذت جموع المشركين الغفيرة تنحدر نحو معسكر المسلمين، والمسلمون ثابتون في مكانهم، وذلك عملاً بنصيحة الرسول ﷺ فقد قال لهم: «لا تحملوا حتى آمركم، وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»، وقد بلغ النبي الغاية في السياسة الحربية بهذه الخطة الحكيمة، إذ أن معسكر المسلمين يكاد يكون خلواً من الخيل التي لا بد من وجودها في الهجوم، هذا إلى قلة عددهم وكثرة عدد عدوهم، فكان لا بد من اتباع خطة الدفاع بدل الهجوم.

إشفاق ودعاء

وعاد رسول الله ﷺ إلى العرش ومعه صاحبه الصديق، وسعد بن معاذ على باب العرش شاهراً سيفه، وكان رسول الله أشد ما يكون إشفاقاً على المسلمين وهم قليل، وأخوف ما يكون من مصير هذا اليوم الذي له ما بعده، واتجه النبي بقلبه وصدق إخلاصه إلى ربه، مناشداً إياه ما وعده، ومستنزلاً النصر والمدد لأصحابه، قائلاً: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بعد في الأرض أبداً»، وما زال يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبوبكر فردّه على منكبيه ثم قال: (يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك).

وأخذت النبي سنة وهو في العرش ثم انتبه فقال: «أبشر يا أبا بكر، فقد

أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثنياه النقع»، وصدق الله حيث يقول:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ أَلْمَلِكَةِ مُرْدِفٍ﴾^(١).

التحريض على القتال

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى صفوف المسلمين مجرضهم على القتال، ويعدهم بالخلود في جنات النعيم بمثل قوله: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة. ومن قتل قتيلاً فله سلبه»^(٢)، وقوله: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»، فسمع ذلك عمير بن الحمام الأنصاري^(٣) فقال: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟! قال: «نعم» قال: بَخٍ بَخٍ^(٤)!! فقال له رسول الله: «ما يحملك على قول: بَخٍ بَخٍ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها».

وكان معه تمرات في يده يأكل منهن، فقال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة!! فرمى بما بقي معه ثم قاتل وهو يقول:

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكلُّ زاد عرضة النفاذ
غير التقى والبر والرشاد

وما زال يقاتل حتى قتل شهيداً رضي الله عنه وأرضاه^(٥).

(١) سورة الأنفال: الآية ٩.

(٢) السلب: بفتح السين واللام ما على المقاتل من سلاح وثياب وقيل من سلاح.

(٣) عمير: بالتصغير. الحمام: بضم الحاء المهملة وتخفيف الميم.

(٤) كلمة رضا واستحسان.

(٥) الإصابة في تاريخ الصحابة ج ٣ ص ٣١.

وقال عوف بن الحارث وهو ابن عفراء: يا رسول الله ما يضحك الربُّ من عبده؟ قال: «غمسه يده - أي سيفه - في العدو حاسراً»، فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، وصار يقاتل حتى استشهد رضي الله عنه وأرضاه.

القوى الروحية تفوق القوى المادية

وأخذ رسول الله كفاً من الحصا بيده، ثم خرج واستقبل القوم فقال: «شاهت الوجوه» ثم رماهم بها وقال لأصحابه: «شدُّوا» فشَدُّوا.

والتحم الجيشان، واشتد القتال، وحمي الوطيس، وتعانقت السيوف، وتخطبت الأسنة بدل الألسنة، وتوالت الإمدادات الإلهية بجند الله من الملائكة تثبت قلوب المؤمنين، وترفُّ لهم البشري، وتلقي الرعب في قلوب المشركين، وتشارك في القتال أحياناً، وصدق الله:

﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْزَعَبُ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١).

وأظهر المسلمون بطولات فائقة، وعرفت الدنيا أن القوى الروحية لا تقهرها القوى المادية، وأن النفس البشرية إذا امتلأت بالإيمان وحب الشهادة تضاءلت أمامها شم الجبال الراسيات، فما بالك بالنفوس الخاويات، والقلوب الفارغات؟ وأن الله القوي القاهر يمد عباده المؤمنين بنصر من عنده إذا صدقوا الإيمان، وأخلصوا له في الجهاد، وانتصروا على شهواتهم وأنفسهم، واتقوا الله حق تقواه.

وكان شعار المسلمين يوم بدر «أحد - أحد»، وما هي إلا ساعة حتى انجلت المعركة عن نصر حاسم للمسلمين، وهزيمة منكرة للمشركين، فقتل سبعون من صناديدهم، وأسر سبعون، ومن أفلت من القتل أو الأسر سارع إلى الهرب وقال: النجاء النجاء!!

(١) سورة الأنفال: الآية ١٢.

ولم تزد خسارة المسلمين يومئذ عن أربعة عشر شهيداً: منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار. ولا عجب فقد كانت يد الله فوق أيديهم، وقوته معهم، وكأنما كانت الحصى التي رمى بها الرسول سهاماً صائبة وناراً محرقة؛ وصدق الله:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (١).

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّا اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣).

وكان هذا النصر المبين في يوم الجمعة السابع عشر من رمضان يوم الفرقان الذي فرّق الله فيه بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وهو يوافق اليوم الذي ابتداء الله فيه نزول القرآن على نبيه محمد ﷺ، وهو يتعبد في غار حراء، وبين التاريخين أربع عشرة سنة قمرية، بدئت بالقرآن، وتوجت بيوم الفرقان.

مشاركة الرسول في القتال

ولم يكتف رسول الله ﷺ بالدعاء والتحريض على الجهاد، فقد شارك في القتال. روى الإمام أحمد بسنده عن علي قال: (لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً). وروى البخاري بسنده عن ابن عباس أن رسول الله خرج من العريش يوم بدر وهو يثب في الدرع ويقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾. بل الساعة موعدهم، والساعة أدهى وأمر، وهذه الآية مكية قطعاً، ولكن وقع مصداقها يوم بدر، وهذا مما سبق نزوله معناه، ولما نزلت الآية بمكة قال عمر: أي جمع هذا؟! فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر...﴾ فعرفت تأويلها يومئذ (٤).

(١) سورة الأنفال: الآية ١٧.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١٠.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٢٣.

(٤) الإتيان ج ١ ص ٣٦.

الصدّيق والقتال

وكان الصدّيق في بدر ملازماً للرسول في العريش وخارجه، ويده السيف يذب به عنه. روي عن علي رضي الله عنه أنه خطب ذات يوم فقال: (يا أيها الناس من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر. إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله لثلاً يهوي إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله، لا يهوي إليه أحد من المشركين إلا أهوى إليه، فهذا أشجع الناس). ثم قال: (ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فهذا يحأّده، وهذا يتلته، ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟ فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجاهد هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم رفع علي بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله أو مؤمن آل فرعون خير أم هو؟ فسكت القوم فقال علي: والله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون: ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه^(١).

إمداد الله المسلمين بالملائكة يوم بدر

اتفق العلماء قاطبة على إمداد الله سبحانه للمسلمين يوم بدر بالملائكة، وذلك لقوله سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبُّكُمْ، فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمَدِّمٌ بِالْفِئَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢)، وقوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يَكْتَبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٣). وقد حصل هذا الإمداد على مرات بألف أولاً، ثم بثلاثة آلاف، ثم بخمسة آلاف، وبذلك تكمل الآيات بعضها بعضاً.

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٧١.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٩، ١٠.

(٣) سورة آل عمران: الآيات ١٢٤ - ١٢٧.

ولكنهم اختلفوا، أحصل قتال من الملائكة أم لا؟ فذهب الكثيرون إلى حصول القتال فضلاً عن البشرى والتثبيت بإبقاء الخواطر الحسنة في قلوب المسلمين، وذلك لقوله سبحانه:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(١).

واستدلوا أيضاً بالأحاديث والآثار الواردة في هذا، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم - اسم فارس هذا الملك - ، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه، كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة».

وروى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: (لم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون عدداً ومدداً لا يضربون)^(٢)، وابن عباس وإن لم يكن حضر الواقعة يومئذ لصغره وعدم هجرته، فلا بد أن يكون سمع ذلك من رسول الله فيما بعد، أو من مشيخة المهاجرين والأنصار.

وذهب بعض العلماء إلى أن الملائكة لم تقاتل يوم بدر، وإنما كانت عوناً ومدداً، تثبت القلوب، وتبشّر بالنصر، وتكثر العدد، واستدلوا بقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾^(٤). فقد ذكر الله هاتين الآيتين بعد آيات

(١) سورة الأنفال: الآية ١٢.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٨٥.

(٣) سورة الأنفال: الآية ١٠.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٢٦.

الإمداد، وقالوا: إن الخطاب في قوله سبحانه: ﴿فاضربوا فوق الأعناق..﴾ إنما هو حكاية لما أمر الله الملائكة أن يلقوه إلى المسلمين يوم بدر^(١).

والذي نراه - والله أعلم - أن الإمداد بالملائكة حصل قطعاً لتكثير العدد، وتثبيت القلوب، وإلقاء البشرى، وأن بعضهم قاتل لا كلهم، وأن الجهد الأكبر في القتال إنما هو للمسلمين، وبذلك لا نكون تعسفنا في التأويل، وخرجنا عن ظواهر بعض الآيات بغير داع، ولا نرد الأحاديث الصحيحة الدالة على حصول قتال من بعض الملائكة، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وقد يقول قائل: إن صيحة من جبريل أو انتفاضة منه كانت تكفي للقضاء على قريش وإبادتها في لمحة عين، فلم كل هؤلاء الملائكة؟

وجوابنا عن ذلك أن الله جرت سنده مع الأمة المحمدية أن لا يأخذها بما أخذ به الأمم السابقة من عموم العذاب والاستئصال، وترك إهلاكهم للسنن العادية التي أجراها الله في عباده، بدفع الكافرين بالمؤمنين، والمبطلين بأهل الحق، والظالمين بالعادلين، فأراد الله سبحانه أن يكون هلاك الكفار بأيدي المؤمنين، ليكون ذلك أنكى لقريش، وأذل لها، وأشفى لنفوس المؤمنين، وفي الوقت ذاته أمدهم بالملائكة تثبت وتؤيد، وتبشّر وتخوف، وتكثر العدد، ولا حرج أن يشارك البعض في القتال كما ذكرنا، وقد أشار الحق إلى هذه الحكمة في قوله:

﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾
إلى قوله:

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٧٩ - ٢٨١.

(٢) سورة التوبة: الآيات ١٤ - ١٦. انظر تفسير ابن كثير والبغوي.

وصاة النبي ببعض القرشيين

لَمَّا حُرِّضَ النبي المؤمنين على القتال، واستحث عزائمهم، لم ينسَ وصيته بأناس خرجوا مكرهين إلى القتال بحكم العصبية الجاهلية، وكانت لهم مواقف مشكورة في منع النبي وحمايته، أو مساع حميدة في ردّ الظلم والطغيان، فقال لأصحابه يومئذ: «إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا مكرهين، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختری بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرهاً».

ولا تحسبن أن الرسول بهذه الوصاة أراد أن يحابي أهله وذوي قرباه، فقد كانت نفسه الشريفة أسمى من ذلك وأرفع، وإنما ذكر لبني هاشم منعهم له ثلاثة عشر عاماً، وانحيازهم لأجله في الشعب ثلاثة أعوام حتى جهدوا وأكلوا ورق الشجر، وذكر لعمه العباس موقفه المشرف في بيعة العقبة الثانية وقوله للأنصار: (إن محمداً لا يزال في عزة ومنعة من قومه)، وذكر لأبي البختری أنه كان له ضلع كبير في نقض الصحيفة الظالمة، وهي حسنات لا ينساها الإسلام قط، وقد كان من خلق رسول الله أن يردّ الجميل بخير منه، وليس أدل على ذلك من أن أبا البختری ليس من بني هاشم، ولا تربطه بالنبي قرابة قريبة، وإنما هو السمو الخلقي والإنساني.

وفي ثورة من الحمية والغضب بدرت بادرة من رجل من خيار المسلمين وهو أبو حذيفة بن عتبة، فقال: (أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لأحمنه^(١) بالسيف)، فبلغت مقالته رسول الله فقال لعمر: «يا أبا حفص أضرِب وجه عمِّ رسول الله بالسيف»، فقال عمر: يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق، ولكن الرسول أبى وغفر له ما بدر بحسن نية وصدق وإيمان.

(١) لأحمنه: أي لأضربه بالسيف.

ولقد بقيت الكلمة التي قالها أبو حذيفة شبحاً مخيفاً يترأى له أمام عينيه، يقلق عليه راحته النفسية وطمأنينته القلبية كلما ذكرها، حتى لقد كان يرى أن لا مكفر لها إلا الشهادة في سبيل الله، فكان يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة. وقد قُتل يوم اليمامة شهيداً فرضي الله عنه وأرضاه.

مُثل عليا للإيمان

من المثل العليا الإيمانية الرائعة في غزوة بدر ما حدث من بعض المسلمين، فقد التقى المسلم الصادق أبو عبيدة بالأب المشرك عبد الله بن الجراح، وقد كان الأب يتصدى لابنه يريد قتله، وابنه يحيد عنه رعاية لحن الأبوة، ولكن الأب ما زال يتصدى للابن يريد قتله، فلم يكن بد لأبي عبيدة من قتله. وفيها دعا الصديق أبو بكر ابنه عبد الرحمن إلى المبارزة وقال: دعني يارسول الله أكن في الرعدة^(١) الأولى، فقال له النبي ﷺ: «متّعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة السمع والبصر». وفيها قتل الفاروق عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام بن المغيرة، وقتل حمزة وعلي أبناء عمومتهم من قريش^(٢)، وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير^(٣).

وهكذا ضرب المسلمون في بدر مثلاً عليا لصدق الإيمان، وأنهم آثروا رضا الله ورسوله على حب الوالد والولد والأهل والعشيرة، فلا تعجب إذا كان الله سبحانه أشاد بهذه المواقف الصادقة وأمثالها في قوله سبحانه:

﴿لَا تَحِدُّ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا

(١) في القاموس: والرعدة - بفتح الراء -: القطعة من الخيل كالرعيل أو مقدمتها أي في

مقدمة المجاهدين والمستشهدين.

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٨ ص ٣٧.

(٣) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٣٠٧.

وَلَوْ كَانُوا أَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾.

قتلى المشركين

لقد قتل في بدر من صناديد قريش وأشrafهم ما يربو على السبعين، منهم: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبه، وابنه الوليد، وأبوجهل بن هشام، قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ^(٢) ابن عفراء قتيان من الأنصار^(٣)، ثم أدركه عبدالله بن مسعود وبه رمق، فوضع رجله على عنقه، فقال أبوجهل له: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويحي الغنم، فاجترأ ابن مسعود رأسه وجاء به إلى رسول الله.

وأمية بن خلف وكان هو الذي يعذب بلالاً على الإسلام، فلما رآه بلال قال: رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا، وكان أمية وابنه قد وقعا أسيرين في يد عبدالرحمن بن عوف، فدرأ بلالاً عنها، فقال بلال: لا نجوت إن نجا، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا فأحاطوا به وبابنه حتى قتلوهما.

والعاصم بن هشام بن المغيرة، وعبدالله بن الجراح والد أبي عبيدة، وحنظلة بن أبي سفيان، ونوفل بن خويلد الأسدي، وأبو البختری بن هشام، وكان رسول الله قد أوصى المسلمين به خيراً كما أسلفنا ولكنه أبى إلا أن يترك هو وزميل له، فقالوا له: ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك، قال: لا والله إذاً لأموتن أنا وهو جميعاً. وغيرهم كثير.

(١) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٢) بضم الميم وفتح العين وكسر الواو المشددة، وقيل: تفتح. وعفراء أمه.

(٣) وقيل اشترك في قتله معاذ، ومعوذ ابنا عفراء، ومعاذ بن عمرو بن الجموح، انظر صحيح البخاري - كتاب فرض الخمس - باب من قتل قتيلاً فله سلبه، وكتاب المغازي - باب قتل أبي جهل، وفتح الباري في الموضعين.

موقف إنساني للرسول

ثم أمر رسول الله ﷺ بالقتل فنقلوا من مصارعهم التي كانوا بها إلى قليب^(١) بيدر، وقد كان من سنة رسول الله ﷺ في مغازيه إذا مرَّ بجيفة إنسان أمر بها فدفنت، لا يسأل عن صاحبها مؤمناً أم كافراً^(٢)، وهو موقف إنساني كريم لا يفعله إلا أولو العزم من الرسل، فطالما أهانوه، وسبّوه وأذاقوه وأصحابه العذاب ألواناً، وهم الذين أخرجوهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم، ولكنها إنسانية الإسلام تعلو عن الأحقاد والانتقام. ولما طرحوهم ولم يبقَ إلا أمية بن خلف، وقد كان رجلاً بديناً فانتفخ في درعه فملاها، فذهبوا ليخرجوه فتزایل لحمه، فأقروه وحفروا له، وألقوا عليه التراب حتى وراه.

ولما مروا بعتبة بن ربيعة ليلقوه في القليب — وكان ابنه أبو حذيفة حاضراً — نظر رسول الله ﷺ في وجه ابنه فإذا هو كئيب قد تغير لونه، فقال: «يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟»، فقال: (لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزني ذلك)، فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيراً.

البشرى بالنصر

ولما تمَّ النصر أرسل رسول الله ﷺ مبشرين قبل مقدمه المدينة: عبدالله بن رواحة لأهل العالية^(٣)، وزيد بن حارثة لأهل المدينة ركباً على ناقة رسول الله، فدخلوا وهما يرفعان عقيرتهما إعلاماً بالنصر للمسلمين، والقتل والهزيمة للمشركين، فتلقاهم الرجال والصبيان والولائد، وطفافوا بالمدينة وضواحيها يهللون ويكبرون الله على هذا النصر العظيم.

(١) القليب: البئر التي لم تَطْو، أي لم تبني جوانبها بالطوب فانهارت.

(٢) رواه الدارقطني في سننه.

(٣) العالية: قرى ظاهر المدينة ومنها قباء.

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا بالمدينة، وزعموا أن النبي قد قتل وأن المسلمين هزموا، فلما جاء المبشّران شرقوا بريقتهم، ورأوا أنهم قد ذلّوا وهانوا حتى قال أحد زعماء اليهود: بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشرف الناس وساداتهم، وملوك العرب وأهل الحرم الآمن.

وقد جاءت البشرى والمسلمون منصرفون من دفن السيدة رقية بنت النبي ﷺ، وكان تركها مريضة لما خرج لبدر، وخلف معها زوجها عثمان، فخفف من هول المصاب ما من الله به على المسلمين من نصر مؤزر، وقد ضرب النبي ﷺ بهذا مثلاً لإيثار مصلحة الإسلام والمسلمين على الأهل والولد.

الاختلاف على غنائم بدر وقسمتها

لما أراد المسلمون أن يقتسموا الغنائم التي غنموها في بدر اختلفوا، فقال الشباب الذين خرجوا يتعقبون الكفار: نحن الذين نفينا عنها العدو، ولولانا لما أصبتموها، وقال الرجال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ ونافحوا دونه: نحن خفنا على رسول الله أن يصيب منه العدو غرة، فاشتغلنا به عن جمع الغنائم، وقال الذين جمعوا الغنائم: نحن الذين استحوذنا عليها وليس لأحد فيها نصيب، فأمر رسول الله ﷺ أن تجمع الغنائم حتى يحكم الله حكمه فيها، فأنزل الله سبحانه قوله:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١).

وقد ذهب بعض كتاب السيرة كابن إسحاق وبعض العلماء كأبي عبيد القاسم بن سلام إلى أن النبي ﷺ قسمها بين المجاهدين بالبواء يعني بالسواء، ولم يَحْمِسْها، وهؤلاء يرون أن هذا الحكم كان في مبدأ الأمر، ثم نسخ فيما بعد بقوله سبحانه:

(١) سورة الأنفال: الآية ١.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الآية (١).

وذهب كثير من العلماء من المحدثين وغيرهم أن رسول الله ﷺ خُمسها،
فأخذ الخمس لنفسه ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وقسم
أربعة الأخماس الباقية بين المجاهدين. ويرى هؤلاء أن سياق الآيات قبل آية
الخمس وبعدها في غزوة بدر وقصتها، وهو يقتضي أنها نزلت كلها جملة واحدة
في وقت واحد غير متأخر بعضها عن بعض حتى يقال بالنسخ، قال ابن كثير في
بدايته: (وهو قول البخاري وابن جرير وغيرهما وهو الصحيح الراجح).

وقال هؤلاء: إن ما ورد في رواية ابن إسحاق من أن الغنائم قسمت
بالبواء، أي ساوى فيها النبي بين الذين جمعوها وبين الذين ثبتوا تحت الرايات
مع الرسول لم يخص بها فريقاً دون الآخر، ولا ينفي هذا تخميسها وصرف
الخمس في مواضعه، ويشهد لهم أيضاً ما رواه البخاري في صحيحه من قصة
الشارقين (٢) اللذين كانا لعلي رضي الله تعالى عنه، فجب حمزة رضي الله عنه
أسنمتها، وبقر بطنهما، وهوثمل وذلك قبل أن تحرم الخمر، ففيها أن أحدهما
كان من نصيبه في غنائم بدر، والآخر كان من الخمس الذي أفاء الله به على
رسوله من بدر (٣)، ومهما يكن من شيء فقد حسم الله الخلاف، وبذلك زال
الانقسام، وحل الوثام وعاد الصفاء.

وقد أسهم النبي لبعض من لم يحضر الواقعة لعذر، وهم: أبو لبابة
الأنصاري لأنه كان مخلفاً على أهل المدينة، وعاصم بن عدي لأنه خلفه الرسول
على أهل قباء والعالية، والحارث بن حاطب لأن الرسول خلفه على بني عمرو
ابن عوف، والحارث بن الصمة وخوات بن جبير لأنها كُسرا بالروحاء
فلم يتمكنوا من السير، وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد لأنها

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٢) الشارف: الناقة المسنة.

(٣) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٣٠٢؛ وتفسير ابن كثير والبغوي، ج ٣ ص ٩٤.

أرسلا يتجنسان الأخبار فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب، وعثمان بن عفان لأن رسول الله كان خلفه على السيدة رقية ليمرضها.

وكذلك أسهم الرسول لمن استشهد ببدر، فأعطى ذلك لورثتهم وهم أربعة عشر مسلماً: ستة من المهاجرين، منهم: عبيدة بن الحارث الذي جرح في المبارزة الأولى، ثم مات عند رجوع المسلمين من بدر ودفن «بالصفراء»، وثمانية من الأنصار، وما فعله النبي هو غاية العدل والإنصاف، وقد سبق به إلى رعاية أسر الشهداء وذويهم وضمان عيشة كريمة لهم بعد وفاة عائلتهم قبل أن يعرف العالم الحديث ذلك.

الأوبة إلى المدينة

ثم قفل المسلمون إلى المدينة شاكرين الله وحامدين، لا يزهيمهم النصر، ولا يبطرهم الغلب، وقد سبقتهم البشرية بالنصر إلى المدينة وما جاورها، وكان مع رسول الله الأسرى، وكانوا نحواً من السبعين، وفي الطريق تحت سرحة عظيمة بالقرب من «الصفراء» قَسَم رسول الله الغنائم بين المسلمين على حسب ما أراه الله، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهتفون ومن معه من المسلمين بالفتح العظيم والنصر المبين، ودخل الجيش المنصور المدينة بين تهليل المهللين وتكبير المكبرين، وضُربَ اللائد بالدفوف، وترديد أهازيج النصر.

وصاة النبي بالأسرى

وصل الرسول المدينة قبل قدوم الأسارى بيوم، وكان قد فرقهم بين أصحابه وقال: «استوصوا بهم خيراً». وهذا غاية الرحمة والإنسانية حيث أوصى بأناس طالما عذبوه وأصحابه، وحاولوا فتنهم عن دينهم، وقد نفَّذ الصحابة وصية رسول الله بأمانة، وكانوا سمحاء كرماء معهم، فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يقول: (كنت في رهط الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قَدَّموا غداءهم وعشاءهم خَصُّوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفخني بها، فاستحيي فأردها، فيردها عليّ ما يمسه).

وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين بيدر بعد النضر بن الحارث، وكان قد مرَّ به أخوه مصعب ورجال من المسلمين فأسروه فقال له: (شدَّ يدك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك)، فقال له أبو عزيز: (يا أخي، هذه وصاتك بي؟!) فقال له مصعب: (إنه أخي دونك). فسألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي، فقيل لها أربعة آلاف درهم، فبعثت بها فداء له، وكان أخاً شقيقاً لمصعب، وقد أسلم أبو عزيز بعد وحسن إسلامه، وروى الحديث^(١).

ولما قدم المسلمون بالأسارى كانت السيدة سودة بنت زُمعة زوج النبي عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء - وهما من شهداء بدر - وذلك قبل أن يضرب الحجاب، فلما أخبرت بقدم الأسارى رجعت إلى بيتها ورسول الله فيه، فإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو^(٢) مجموعة يده إلى عنقه بحبل، فما ملكت نفسها حين رآته كذلك أن قالت: (أي أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا متم كراماً؟!) قالت: فوالله ما أنبهي إلا قول رسول الله من البيت: «يا سودة أعل الله وعلى رسوله تحرّضين»؟! فقالت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي أن رأيت أبا يزيد مجموعة يده إلى عنقه أن قلت ما قلت، فقبل النبي اعتذارها.

قتل أسيرين

وبينما كان النبي والمسلمون في طريقهم إلى المدينة أمر بقتل أسيرين: أحدهما النضر بن الحارث، والثاني عُقبة بن أبي مُعيط، وكانا من شرّ عباد الله، وأكثرهم كفراً وعناداً وبَغياً وحسداً وإيذاءً للنبي والمسلمين، وهجاء للإسلام وأهله، ولم يأمر النبي بقتل أحد من الأسرى غيرهما.

ذلك أنه لما بلغ النبي في مرجعه «الصفراء» عُرض عليه الأسرى، فنظر النبي ﷺ إلى النضر نظرة رأى فيها الموت، فلما رأى ذلك قال لمصعب بن عمير

(١) الروض الأنف، ج ٢ ص ٧٨؛ الإصابة، ج ٤ ص ١٣٣.

(٢) هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ - ابن عم والد السيدة سودة، وهو زُمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ودّ.

— وكان أقرب من هناك به رحماً —: كلّم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه، فهو والله قاتلي إن لم تفعل، فقال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه كذا وكذا، وكنت تعذب أصحابه، فقال النضر: لو أسرتك قريش ما قتلتك أبداً وأنا حي، قال مصعب: والله إني لأراك صادقاً، ثم إني لست مثلك، فقد قطع الإسلام العهود!

وكان النضر أسير المقداد بن الأسود، وكان يطمع أن ينال في فدائه مالاً كثيراً، فلما هموا بقتله صاح: النضر أسيري، فقال النبي لعلي بن أبي طالب: «اضرب عنقه، واللهم أغنِ المقداد من فضلك».

أما عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْط فقد قتل «بعرق النظية»، ولما أمر النبي بقتله قال: فمن للصبيّة يا محمد؟ قال: «النار» ثم قال: أتقتلني من بين قريش؟ فقال النبي: «نعم» ثم التفت إلى أصحابه وقال: «أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي، وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران^(١)، وجاء مرة بسلاً^(٢) شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي».

وهذه القصة الثانية رواها البخاري ومسلم، فقد كان النبي يصلي عند الكعبة ورؤساء الشرك جالسون، فقالوا: من يذهب إلى سلا جزور بني فلان فيأتي به، فإذا سجد محمد وضعه على ظهره؟ فقال عقبة هذا: أنا، فذهب وجاء به ومعه قرث^(٣) ودم، فوضعه على ظهر النبي ورأسه، فصاروا يتضحكون، ومكث النبي على هذا خشية أن يقوم فيقع في المسجد الحرام فيقذره، حتى انطلق أحد الناس فأخبر ابنته فاطمة — وكانت صغيرة السن — فجاءت، ونحّت القذر عن أبيها، وقلبها يكاد يتفطر مما رأت، وعيناها مغرورتان بالدموع، ثم

(١) ستندران: ستخرجان من مكانها.

(٢) السّلا: الكيس الذي يكون فيه الجنين في بطن أمه «المشيمة».

(٣) القرث: ما يكون في الكرث من قدر.

التفتت إلى القوم، فسبّتهم، وويختهم على هذا العمل، وقد قتله علي بن أبي طالب، وقيل عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح.

ولما قتل النضر بن الحارث رثته أخته قتيلة بنت الحارث، وكان مما قالت:

أحمد يا خيرَ ضنءٍ^(١) كريمة من قومها والفحل^(٢) فحل مُعرق
ما كان ضرّك لو منّنتَ وربما منّ الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أسرت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق

قال ابن هشام: يقال إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال: «لو بلغني هذا قبل قتله لمنّنتُ عليه»^(٣) وليس هذا بعجيب من الرؤوف الرحيم الذي وسع خلقه الناس جميعاً محسنهم ومسيئهم. أما باقي الأسارى فلم يكن الرسول وأصحابه قد اتفقوا على رأي بالنسبة إليهم، أيقتلون أم يفادون؟

أسارى بدر

ولما استقر المقام للمسلمين بالمدينة بعد بدر استشار النبي أصحابه فيما يصنعون بالأسارى، فقال الصديق أبوبكر - وكان رحيماً رقيقاً -:
يا رسول الله قومك وأهلك، وإني أرى أن تأخذ منهم الفداء، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» فقال عمر - وكان صلباً في الحق شديداً -: والله ما أرى رأي أبي بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من أخيه عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم، وأئمتهم، وقادتهم، وقال عبدالله بن رواحة: يا رسول الله، انظر وادياً كثير الخطب فأدخلهم فيه، ثم أضرمه عليهم ناراً.

(١) الضنء: بفتح الضاد وكسرها: الولد.

(٢) تريد الأب، أي إنه كريم الأبوين.

(٣) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٣٠٥.

فدخل رسول الله ﷺ ولم يردّ عليهم شيئاً، ومكث ساعة ثم خرج والصحابة ما بين قائل برأي أبي بكر، وقائل برأي عمر، وقائل برأي ابن رواحة، فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثّل إبراهيم قال: ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾، ومن عصاني فإنك غفورٌ رحيمٌ» وكمثّل عيسى قال: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وإن مثلك يا عمر كمثّل نوح قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ وكمثّل موسى قال: ﴿ربنا اطمس على أموالهم، واشدد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ أنتم اليوم عائلة^(١)، فلا يفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق».

فقال عبدالله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء فإني قد سمعته يذكر الإسلام، فسكت النبي، قال عبدالله: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليّ حجارة من السماء من ذلك اليوم، حتى قال النبي: «إلا سهيل بن بيضاء» فسُرّي عنه، وهكذا رجّح النبي ﷺ رأي الصديق لما جبل عليه قلبه من الرأفة والرحمة، ولما فيه من التخلّق بصفة من صفات الرب جل وعلا، حيث قال: «سبقت رحمتي غضبي».

وصول النذير بالهزيمة إلى قريش

على حين كان المسلمون فرحين بنصر الله وما أفاء الله عليهم من الغنائم، كان الحيسمان بن عبدالله الخزاعي يحثّ الطريق إلى مكة، حتى كان أول من دخلها، وأخبر أهلها بالهزيمة، وقتل الكثيرين من صناديدهم وأشرافهم وأسرى الكثيرين منهم، وقد تشككوا أول الأمر، ثم لم يلبثوا أن استيقظوا لما توالى عليهم النذر، فكأنما نزلت عليهم صاعقة من السماء.

وكان أشدهم غيظاً وكمداً أبو لهب بن عبدالمطلب، ولم يمكث إلا بضعة

(١) عائلة: فقراء في حاجة إلى المال.

ليال حتى رماه الله بمرض العَدَسَة ففَضَى عليه، وكانت قريش تُتَقِي هذا المرض، فتركه ابنه بعد موته ثلاثاً حتى أُنْتَن، فقال لهما رجل من قريش: ألا تستحيان، إن أباكم قد أُنْتَن في بيته، ألا تدفناناه؟ فقالا: إنا نخشى عَدُوِي هذه القَرْحَة، فقال: انطلقا وأنا أعينكما عليه، فغسلوه قَذْفاً بالماء من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلامكة فأسندوه إلى جدار ثم ردموا عليه الحجارة. وهكذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يموت هذه الميئة الشنيعة لعداوته للرسول ومناهضته للإسلام، وعدم رعايته للرحم حرمة.

ومكثت قريش تنوح على قتلاها مدة، ثم تواصلوا فيما بينهم وقالوا: لا تفعلوا، يبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم. وكذلك تواصلوا أن لا يسرعوا في بذل الفداء، وقالوا: لا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم، لا يارب^(١) عليكم محمد وأصحابه في الفداء، وكان هذا من تمام ما عَذَّب الله به أحياءهم في ذلك الوقت، فإن البكاء مما ييل فؤاد الحزين، ويخفف من لوعة الحزن وهول المصاب، وكان الأسود بن المطلب قد أصيب في ثلاثة من ولده: زمعة، وعقيل، والحارث، فقال لغلام له: هل بكت قريش على قتلاها لعلِّي أبكي على ولدي، فإن جوفي قد احترق.

افتداء الأسرى

ولم تطق قريش الصبر على ما اتفقوا عليه من عدم التسارع إلى الفداء، وانسلوا واحداً وراء الآخر، وقد كان في الأسارى أبو وداعة بن ضبييرة السهمي، فقال رسول الله ﷺ: «إن له بمكة ابناً كيساً تاجراً ذاملاً، وكأنكم به قد جاءكم في طلب فداء أبيه»، فلما قالت قريش: لا تعجلوا بفداء أسراكم، قال المطلب بن أبي وداعة: صدقتم لا تعجلوا، وكان هو أول من نقض هذا، فانسل من الليل وقدم المدينة، وفدى أباه بأربعة آلاف درهم، وكان هذا أول أسير فُدي، ثم بعثت قريش في فداء أسراهم.

(١) قال في النهاية في تفسير هذا الخبر: أي يتشدّدون عليكم في طلب الفداء.

فقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو، وكان سهيل رجلاً أعلم^(١) من شفته السفلى، فقال عمر بن الخطاب لرسول الله: (دعني أنزع ثنية سهيل بن عمرو فيدلع^(٢)) لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً)، فكان جواب النبي هذا الجواب البالغ السمو في الرحمة والإنسانية: «لا أمثل، فيمثل الله بي، وإن كنت نبياً وعسى أن يقوم مقاماً لا تدمه». وقد صدقت نبوءة الرسول، فإنه لما جاور الرفيق الأعلى أراد بعض أهل مكة الارتداد كما فعل غيرهم من الأعراب والمنافقين، فقام سهيل هذا خطيباً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله:

(أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ألم تعلموا أن الله قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، ثم قال: والله إني لأعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها، فلا يغرُنكم هذا — يريد أبا سفيان^(٣) — من أنفسكم، فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم، لكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم، وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وكلمته تامة، وإن الله ناصر من نصره، ومقر دينه، وقد جمعكم الله على خيركم — يعني أبا بكر — وإن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه) فراجع الناس عما كانوا عزموا عليه، فكان معجزة من معجزات النبوة.

ومن الأسرى: عمرو بن أبي سفيان بن حرب، فقالوا له: افدِ عمراً ابنك فقال: لن يجتمع علي دمي ومالي، قتلوا حنظلة وأفندي عمراً؟ دعوه في أيديهم فيمسكوه ما بدا لهم. فبينما هو كذلك خرج سعد بن النعمان، — وكان شيخاً مسلماً — إلى مكة معتمراً، فعدا عليه أبو سفيان فحبسه بابه عمرو،

(١) أعلم: مشقوق الشفة.

(٢) يخرج عند الكلام.

(٣) لم يثبت أن أبا سفيان كان له موقف سيء بعد وفاة رسول الله، ولقد أسلم الرجل وحسن إسلامه، وأبلى في فتوح الشام بلاءً حسناً (الناشر).

فمضى قوم سعد إلى رسول الله ﷺ فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان فيفكوا أصحابهم به، فأعطاهم إياه فأرسلوه إلى أبي سفيان، فخلّى سبيل سعد.

ومن الأسرى: العباس بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ. قال ابن إسحاق: لما أمسى رسول الله يوم بدر والأسارى محبسون بالوثاق بات النبي ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: مالك لا تنام يا رسول الله؟ فقال: «سمعت أنين عمي العباس في وثاقه»، فأطلقوه فسكت، فنام رسول الله (١).

وروى الحاكم في المستدرک عن ابن عمر قال: لما أسر العباس فيمن أسر يوم بدر أوعده الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه»، فقال عمر: أفأنتهم؟ فقال: «نعم» فأق عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال عمر: فإن كان لرسول الله رضاء؟ قالوا: فإن كان له رضاء فخذّه، فأخذ عمر، فقال له: يا عباس أسلم فوالله لئن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله يعجبه إسلامك.

ومع أن النبي تألم لأله وهو في الأسر فقد أبى إلا أن يأخذ منه الفداء، وقد قذى نفسه وابني أخويه: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، وحليفه عتبة بن عمرو أحد بني الحارث بن فهر بمائة أوقية من الذهب، ولما قال للنبي: إنه لا مال له قال له: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل، وقلت لها: إن أصبت في سفري فهذا لبني: الفضل، وعبدالله، وقثم»، فقال: والله إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا شيء ما أعلمه إلا أنا وأم الفضل!!!

ولما قال: إنه خرج مستكراً وإنه كان قد أسلم قال له النبي: «أما ظاهرك فكان علينا، والله أعلم بإسلامك وسيجزيك»، وكذلك أبى أن يتنازل له الأنصار عن الفداء. روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال: إن

(١) السيرة مع فتح الباري، ج ٧ ص ٢٤٨ ط بولاق.

رجالاً من الأنصار^(١) استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنتترك لابن أختنا^(٢) العباس فداء، فقال: «لا والله، لا تذكرون له درهماً»^(٣).

وهذا غاية العدل والإنصاف في المعاملة، فرسول الله مع رحمته بعمه وشفقته عليه وتخوفه أن يقتل وهو يرجى من ورائه للإسلام خير كثير، تأبى عليه نفسه السامية أن يفرق بينه وبين الأسارى في الفداء، أو أن يقبل أن يمين عليه الأنصار خشية أن يكون عملهم هذا لمكانه من رسول الله وقرابته، مع أنه ﷺ من على بعض الأسارى دون فداء، وهذا ليس بعجيب ممن كان خُلِقَ القرآن.

ومن الأسرى: أبو عزة الشاعر، كان فقيراً ذا عيال، فقال: يا رسول الله، لقد عرفت مالي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فامنن عليّ، فمنّ عليه رسول الله، وأخذ عليه أن لا يظهر عليه أحداً، فتعهد بذلك ومدح الرسول بشيء من شعره.

ثم لم يلبث أن أغراه المشركون بهجاء النبي والمسلمين، ففعل بعد أن تمنع، وصار يؤلب على المسلمين لأجل أحد، وقد حضر الموقعة فأسر، فسأل النبي أن يمين عليه فقال له: «لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول: خدعت محمداً مرتين»، ثم أمر به فضربت عنقه، وقيل: إن الرسول قال له: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»، قيل: إن هذا من الأمثال التي لم تسمع إلا منه عليه الصلاة والسلام^(٤).

ومن الأسرى: الوليد بن الوليد، افتداه أخواه خالد وهشام، فلما افتدي ورجع إلى مكة أسلم، ف قيل له: هلاً أسلمت قبل الفداء، فقال: خفت أن

(١) هم بنو النجار، وقد كان وقع في أسرهم، ولعل الذين أرادوا أن يقتلوه غير بني النجار، أو بعض آخر منهم، فلا تنافي بين هذه الرواية والسابقة.

(٢) هم أخوال أبيه عبدالمطلب لأن أمه سلمى بنت عمرو من بني النجار ففي الكلام تجوز.

(٣) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٢٩٩.

(٤) المرجع السابق، ٣١٣.

يعدوا إسلامي خوفاً، ولما أراد الهجرة إلى المدينة منعه أخواه، فبقي بمكة حتى فرَّ إلى النبي في عمرة القضاء.

ومن الأسرى: أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس، صهر رسول الله ﷺ وزوج ابنته زينب رضي الله عنها، وهو ابن أخت^(١) السيدة خديجة رضي الله عنها، وكان من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة، وكان تزوجها قبل النبوة، فلما دعا النبي إلى دين الله مشى رجال من قريش إلى أبي العاص فقالوا له: فارق صاحبك ونحن نزوجك بأي امرأة من قريش شئت، فقال: لا والله إذاً لا أفارق صاحبتني، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش!!

وكان رسول الله ﷺ ينفي عليه في صهره كما ثبت في صحيح البخاري ويقول: «حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي»، وكان أسير بيد، فلما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت السيدة زينب بنت الرسول في فداء زوجها بمال، وفي المال قلادة كانت للسيدة خديجة رضي الله عنها، فأهدتها إليها وأدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، وأهاجت في نفسه ذكرى السيدة الجليلة التي واسته بنفسها وما لها خديجة، فقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها فافعلوا»، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردُّوا عليها قلادتها.

وكان النبي قد أخذ عليه أن يخلي سبيل ابنته زينب فوفى بالعهد وأرسلها، فبقيت عند أبيها إلى ما بعد الحديبية، فأسر أبو العاص مرة أخرى، ففر إلى المدينة واستجار بزوجه زينب - وكان الإسلام قد فرَّق بينه وبينها - فأجارته، فأقر المسلمون إجارته له، ورجع إلى مكة ومعه ماله، فأدى الأمانات إلى أصحابها، ثم عاد إلى المدينة مسلماً، فردها النبي ﷺ إليه بعقد ومهر جديدين على الصحيح.

(١) الروض الأنف، ص ٨١، ٨٣؛ الإصابة، ج ٤ ص ١٢٢؛ والاستيعاب (على هامش الإصابة) ٤ ص ١٢٥ - ١٢٩.

ومن الأسرى: وهَب بن عُمَيْر بن وهب الجُمَحِي، وكان أبوه شيطاناً من شياطين قريش، شديد الإيذاء للرسول وأصحابه بمكة، جلس يوماً بعد الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب بدر، فقال عمير: والله لولا دينُ علي ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد فأقتله، فإن ابني أسير عنده. فاغتنمها صفوان بن أمية فقال له: علي دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكنم علي، قال: سأفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له، وسَمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، وما أكرمهم الله به، إذ نظر إلى عمير بن وهب وقد أناخ بعيره على باب المسجد متوشحاً سيفه، فقال: هذا عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرَّش بيننا وحزَّنا للقوم يوم بدر، ثم دخل على رسول الله فأخبره فقال له: «أدخله علي».

فأقبل إليه عمر فأخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبَّيه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: أدخلوه على رسول الله، فلما رآه وعمر أخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: «أرسله يا عمر، أدنُ يا عمير» فدنا فقال له: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه. قال: «فما بال سيف في عنقك؟» قال: قبَّحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئاً؟ قال: «اصدقني ما الذي جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك، قال: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دينُ علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بن أمية بدَّينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك».

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله!! قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم في دينه وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره»، ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا أذيتهم في دينهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم.

فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة، وكان صفوان حين خرج عمير يميني نفسه الأماني، ويقول: أبشروا بوقعة تأتاكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان يخرج فيتلقي الركبان يسألهم عن عمير ليتأكد من نجاح المؤامرة، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فسقط في يده، وحلف أن لا يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً، أما عمير فلما قدم مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ويؤذي من خالفه أذى شديداً، فأسلم على يديه ناس كثير، وهكذا خرج كافراً جاهداً على قتل النبي، فإذا به يعود مؤمناً صادق الإيمان!!

قيمة الفداء

وكانت قيمة الفداء يومئذ ما بين الأربعمئة والأربعة آلاف درهم، كما رواه أبو داود في سننه، ومنهم من أخذ منه أربعون أوقية من ذهب عن نفسه كالعباس رضي الله عنه، ومن لم يكن له مال ويعرف القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم القراءة والكتابة. روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فجاء غلام يبكي إلى أمه، فقالت: ما شأنك؟ فقال: ضربني معلمي، فقالت: الخبيث يطلب بدخل بدر، والله لا تأتیه أبداً^(١). ومن لم يكن يعرف القراءة والكتابة منوا عليه كأبي عزة الشاعر، والمطلب بن حنطب المخزومي، أسره بعض بني الحارث بن الخزرج، فترك في أيديهم حتى خلوا سبيله فلحق بقومه^(٢).

وقبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في هذا الوقت الذي

(١) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٣٣٨.

(٢) المرجع السابق ص ٣١٢.

كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرتة إلى العلم والمعرفة وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم:

﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١).

واستفاضت فيه نصوص القرآن والسنة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يعتبر النبي ﷺ أول من وضع حجر الأساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق في هذا للإسلام.

وعد الله الأسارى بالخير إن أسلموا

وقد وعد الله سبحانه الأسارى من آمن منهم وأسلم وحسن إسلامه بالعوض عما أخذ منهم في الدنيا والآخرة، قال عز شأنه:

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبٌ لَّيِّنٌ فِي أَيِّدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢).

وهو ترغيب لهم في الإيمان، وعدة لهم بالعوض في الدنيا والغفران في الآخرة، وكان العباس رضي الله عنه ممن ناله هذا الوعد الكريم، فكان يقول: أبدلني الله من ذلك عشرين عبداً - وفي رواية أربعين - كلهم تاجر بمالي، وأعطاني زمزم - يريد السقاية - وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة. وكان يقول بعد ما ناله من الخير حتى رضي: وأنا بعد أرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه.

(١) (الذي علم بالقلم) إشارة إلى العلم الكسبي، (علم الإنسان ما لم يعلم) إشارة إلى العلم الوهبي الذي يهديه الله لأنبيائه وأوليائه، والآيات هي: ١ - ٥ من سورة العلق.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٠.

العتاب في الفداء

وقد عاتب الله سبحانه النبي والمسلمين على اختيارهم الفداء على القتل الذي أشار به الفاروق رضي الله عنه، وأنزل في ذلك قوله سبحانه:

﴿مَا كَان لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لِمَسْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

ولما نزلت الآيتان جاء عمر من الغد، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما!! فقال رسول الله: «للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، وقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة»، لشجرة قريبة منه، وأخبره بما نزل من الآيات، وهذا يدل على أن جمهرة الصحابة كانوا على رأي أخذ الفداء.

ولما نزلت الآيتان كفَّ الصحابة أنفسهم عن الانتفاع بما أخذوا من الفداء، وأسفوا لهذا العتاب، فأنزل الله سبحانه: ﴿فَكُلُوا مما غنمتم حلالاً طيباً، واتقوا الله، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧، ٦٨. تفسير الآيتين: أسرى: جمع أسير، الإثخان في الشيء: المبالغة فيه والإكثار منه، والمراد المبالغة في تقتيل الكفار. عَرَضَ الدنيا: الفداء. لولا كتاب من الله سبق: يعني لولا ما قدره الله في الأزل وجرى به تقديره الحكيم من أنه لا يؤاخذ من اجتهد وبذل الوسع، وإن لم يصادف الصواب، وقيل: من أنه لا يؤاخذ أهل بدر بما صنعوا، وقيل: من أنه لا يعذب قوماً حتى يبين لهم الحلال من الحرام، وما ينبغي مما لا ينبغي، يعني لولا هذا لتالكم عذاب شديد بسبب إيثاركم عَرَضَ الدنيا على ثواب الآخرة، وهذا درس تربوي عظيم، وبهذا الدرس وغيره أنشأ الله خير جيل عرفته الدنيا قديماً وحديثاً، وهم الصحابة الكرام، والآية الثانية بمثابة الترضية والإعذار لهم بعد العتاب.

طنين المستشرقين

يقف غير واحد من المستشرقين والمبشرين عند أسارى بدر، وقتل أسيرين من سبعين أسيراً، ويزعمون زوراً وكذباً تعطش الدين الجديد للدماء، ويرون أنه كان الأحسن أن يمنَّ المسلمون على الأسرى وبحسبهم ما نالوا من غنيمة، قالوا هذا وتغافلوا عما قام به هذان القتيلان، وما قام به معظم هؤلاء الأسرى من تعذيب وإيذاء للنبي والمسلمين، وصدهم للناس عن الإسلام ثلاثة عشر عاماً، ولم يفكهم ما فعلوا بالمسلمين بمكة، فهام لا يزالون يحاربون الإسلام والمسلمين، ويحاولون القضاء عليهم في موطنهم الجديد، وها نحن قد سمعنا عتاب الله للمسلمين أن قبلوا الفداء، ولم يشخّوا فيهم قتلاً، ولو أنهم فعلوا لما عوتبوا، ولحظّوا بالثناء من رب العالمين.

يقولون هذا ويتجاهلون ما قام به المسيحيون باسم الصليب تجاه المسلمين من حروب دامية دامت حقبة من الزمان، وحاولوا أن يغتصبوا جزءاً عزيزاً من أرض المسلمين في فلسطين، بل وأن يقضوا على الإسلام والمسلمين، ويتناسوا ذلك لولا ما قيض الله للإسلام والمسلمين من أمثال صلاح الدين الأيوبي البطل المسلم، فهزمهم وألقى بهم في البحر، وطردهم شر طردة.

ويتناسون ما قام به المسيحيون ضد المسلمين في الأندلس، وأيضاً المجازر الكبرى التي قامت باسم المسيحية تجاه إخوانهم المسيحيين مثل مجزرة (سان بارتلمي)، هذه المجزرة التي تعتبر سبة في تاريخ المسيحية لا شيء مثلها قط في تاريخ الإسلام، هذه المجزرة التي دبرت بليل وقام فيها الكاثوليك يذبّحون البروتستانتيين في باريس وفي فرنسا غدرًا وغيلة، بل في أحط صور الغدر وأبشع صور الغيلة^(١).

وتجاهلوا أيضاً ما حدث في أثناء الثورة الفرنسية والثورات المختلفة التي وقعت وتقع في أمم أوروبا المختلفة، من تقتيل وتذبيح للآلاف، وما قامت

(١) حياة محمد هيكل، ص ٢٦٨.

وتقوم به الدول المسيحية في العصر الحديث باسم قمع الثورات في بلاد يحكمونها على كره من أهلها، قصد استغلال خيراتها، وامتصاص دماء بنيتها.

وما رأيهم فيما تقوم به الدول المتحضرة اليوم في الشرق والغرب، وما جرى في الحريين العالميتين الأولى والثانية من قتل الأسارى قتلاً جماعياً والتكيل بهم تنكيلاً جاوز حدود الإنسانية؟ فلماذا أغمضوا عن هذا عيونهم، وأصموا آذانهم؟ وفتحوها لقتل أسيرين حفلت حياتها بالمساوىء والجرائم تجاه النبي والمسلمين؟ فأين هذا مما صنعه المسلمون مع الأسارى في بدر من إحسان إليهم حسب وصاة نبيهم لهم، حتى كانوا يؤثرونهم على أنفسهم بالطعام والشراب؟!

إن ما جرى في بدر وفي غير بدر من المسلمين في مغازيهم وفتوحاتهم إنما هي رحمة وعدل من آثار هذا الدين، دين الرحمة والعدل، ولقد لهج بذلك رجل لا يمت إلى الإسلام بصلة، وهو المؤرخ الكبير (غوستاف لوبون) حيث قال: (ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب)^(١).

وإليكم أيها المستشرقون والمبشرون هذه الحكمة: (من كان بيته من زجاج فلا يرقى بيوت الناس بالحجارة).

فضائل أهل بدر

لا تعجب وقد سمعت ما سمعت عن أهل بدر، وما قدّموه من التضحيات راضية بذلك نفوسهم، وما كان لهذه الغزوة من أثر بعيد في نشر الإسلام وظهوره على الأديان كلها - أن جعل الله سبحانه لأهل بدر من المنزلة والمكانة في الدنيا والآخرة ما ليس لغيرهم، حتى صار من المآثر والمفاخر أن يقال: فلان بدري.

روى البخاري في صحيحه عن حميد قال: سمعت أنس بن مالك رضي

(١) الوحي المحمدي، ص ١٢٩.

الله عنه يقول: أصيب حارثة^(١) يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع، فقال: «ويحك، أو هبلت - أي ثكلت - أوجنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس» وفي رواية: «إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى».

قال الحافظ ابن كثير: وفي هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر، فإن هذا لم يكن في حومة الوغى، بل كان من النظارة من بعيد، وإنما أصابه سهم غَرَب^(٢) وهو يشرب من الحوض، ومع هذا أصاب بهذا الموقف الفردوس الذي هو أعلا الجنان، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة، والتي أمر الشارع أمته إذا سألوا الله الجنة أن يسألوه إياها، فإن كان هذا حاله فما ظنك بمن كان واقفاً في نحر العدو، وعدوهم على ثلاثة أضعافهم عدداً وعدداً!

وروى الشيخان في صحيحيهما قصة حاطب بن أبي بلتعة، وبعثه الكتاب إلى أهل مكة عام الفتح يخبرهم فيه بعزم رسول الله على قصد مكة، وأن عمر استأذن رسول الله ﷺ في ضرب عنقه، لأنه قد خان الله ورسوله، فقال له الرسول: «أليس من أهل بدر؟ لعل الله أطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم.

والمراد عدم مؤاخذتهم عما عسى أن يبدر منهم بعد ذلك من الزلات والتجاوز عن سيئاتهم، كفاء ما قدموا للإسلام من مخاطرة بالنفس في هذه الغزوة، وما أظهروه من إيمان وبطولة، وليس المراد أن الله سبحانه أباح لهم أن يفعلوا أي شيء أرادوه من المعاصي والآثام كما يتوهم ذلك، وقد كان صحابة رسول الله ولا سيما أهل بدر أشد الناس تقوى لله وخوفاً من الله، على كثرة ما وعدهم من المغفرة والرضوان والنعيم المقيم في الآخرة.

(١) هو حارثة بن سراقة من بني عدي بن النجار الأنصاري وأبوه سراقة له صحبة واستشهد يوم حنين، وأمّه هي الربيع بنت النضر عمة أنس بن مالك.

(٢) أي أثاره من حيث لا يدري، فإن الذي رماه قصد غرته فرماه وحارثته لا يشعر به.

وكانوا يغلبون الخوف على الرجاء، وقد كان الصديق على منزلته يُشَمُّ من فيه رائحة الكبد المشوي من شدة الخوف من الله، وكان الفاروق عمر على زهده وعدله يقول: ليت أُمِّي لم تلدني، وكان أبو الحسن علي يقوم في محرابه بالليل فيبكي بكاء الثكلى، ويتململ تململ السليم - اللديغ - من خوفه وخشيته لله، إلى غير ذلك من المثل الكثيرة التي زخرت بها سيرة الصحابة الكرام.

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن جابر: أن عبداً لحاطب جاء رسول الله ﷺ يشكو حاطباً ويقول: ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله: «كذبت لا يدخلها، إنه شهد بدرًا والحديبية». وروى البخاري في صحيحه أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة^(١).

وقد عرف الخلفاء الراشدون لأهل بدر منزلتهم وقَدَمَهم في الإسلام ديناً ودينياً، فقد جعل سيدنا عمر عطاء أهل بدر لكل واحد خمسة آلاف^(٢)، وقال: لأفضلنهم على من بعدهم، وكذلك عرف لهم العلماء منزلتهم لما تكلموا في فضل الصحابة وجعلهم طبقات، حتى إن بعضهم جعل الطبقة الأولى أهل بدر، وهذا عرفان منهم بالفضل لذويه^(٣).

نتائج غزوة بدر

١ - كانت من نتائج غزوة بدر أن قويت شوكة المسلمين، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وما جاورها، وأضحى من يريد أن يغزو المدينة، أو ينال من المسلمين يفكر ويفكر قبل أن يقدم على فعلته، وإلا نزل به ما نزل بقريش على عددها وعدتها.

(١) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٣٢٨.

(٢) الباعث الحثيث إلى علوم الحديث، ص ٣٣٣.

(٣) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب فضل من شهد بدرًا.

٢ - أنها تركت بنفوس أهل مكة المشركين كمداً وأحزاناً وآلاماً بسبب هزيمتهم ومن فقدوا أو أسروا، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بالعلة ومات، وهذا أبو سفيان فقد ابتأ له وأسر له ابن آخر، وما من بيت من بيوت مكة إلا وفيه مناحة على قتل عزيز أو قريب، أو أسر أسير، فلا عجب أن كانوا صمموا في أنفسهم على الأخذ بالثأر، حتى إن بعضهم حرم على نفسه الاغتسال^(١) حتى يأخذ بالثأر ممن أذلوهم، وقتلوا أشrafهم وصناديدهم، وانتظروا يترقبون الفرصة للقاء المسلمين والانتصاف منهم، فكان ذلك في أحد.

٣ - أن النصر المبين في بدر حرك ما كمن في نفوس اليهود والمنافقين والمشركين من أهل المدينة. فهذا الذي وفد عليهم فاراً مهاجراً يزداد سلطانه ونفوذه يوماً بعد يوم، ويكاد يكون صاحب الكلمة في المدينة كلها لا في أصحابه وحدهم، وكان اليهود قد بدأ تذرهم من قبل بدر، وبدأوا يحكيون الدسائس والمؤامرات لتفريق وحدة المسلمين، ولولا عهد المودعة الذي كان بينهم وبين المسلمين لوقع الصدام السافر بين الفريقين، لذلك ما كاد المسلمون يعودون من بدر منصورين حتى جعلت طوائف اليهود والمنافقين تتغامز، وتستخف بالنصر الذي أحرزوه زاعمين أنهم لقوا أغماراً^(٢) في الحرب، ولئن وقعت بينهم وبين المسلمين الحرب فسيرى المسلمون أنهم هم الناس^(٣)!! وبدأوا يتحرشون بالنبي والمسلمين، وما كان النبي ليخفى عليه شيء من ذلك، وإنما كان يراقبهم عن حذر ويقظة، حتى استخفوا بالمقررات الخلقية، والحرمان التي يعتز بها المسلمون، واستعلنوا بالعداوة، فلم يكن بد من حريهم وإجلائهم عن المدينة، كما سنفصل ذلك فيما بعد إن شاء الله.

-
- (١) هو أبو سفيان بن حرب، كان نذر بعد بدر أن لا يمس رأسه ماء من جنبه حتى يغزو النبي ﷺ، وقد أغار على المدينة في رجال من قومه، ولكن لم ينل مأرباً، فخرج إليه النبي في جماعة من أصحابه، ولكنه فر هارباً، وكان ذلك في «غزوة السوق».
- (٢) لا خبرة لهم بالحروب وفنونها.
- (٣) يعنون أنهم أهل الخبرة والدربة في الحروب.

مواطن العبرة في بدر

إن في بدر لعبراً وآيات يستجليها ذوو البصائر النيرة، والقلوب المؤمنة، والعقول الفاحصة المتحررة، وصدق الله حيث يقول:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١).

من هذه العبر والآيات:

١ - أثر القوى الروحية والمعنوية: وأساس هذه القوى هو الإيمان: الإيمان بالله وأنه ذو قوة لا تغالب، وأن بيده النصر والموت والحياة، وأن الموت في سبيل الله خلود. والإيمان بالرسول، وأنه لا ينطق عن الهوى، وأن حبه إيمان، وتفديته بالنفس فريضة، وأن كل مصاب دونه هين ويسير. والإيمان باليوم الآخر، وأن هناك حياة أخرى خيراً من هذه الحياة يوفى فيها كل عامل جزاءه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأن الجنة للمتقين المجاهدين والنار للكفار والمتقاعسين عن نصرة الأنبياء والمرسلين.

والإيمان بالرسالة المحمدية، وأنها الشريعة العامة الخالدة التي يجب أن تسود الدنيا وأن يستظل بها البشر، فقد ناط الله بها كل سعادة، وربط بها كل هدى وحق وخير. والإيمان بأنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم الأمة الوسط الشاهدة على الأمم كلها بعقيدتها وشريعتها، وعلمها وعملها، وأخلاقها وسلوكها، وعلى الأمة الإسلامية أن تنشئ أبناءها على هذا الإيمان اليوم، وحينئذ ستسترجع عزتها وسلطانها.

هذا الإيمان العميق الجذور، المتشعب الفروع، هو سر الانتصار في هذه الموقعة وغيرها من مواقع الإسلام وأيامه المشهورة، وهو سر الأسرار وعبرة

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣.

العبر، وإنا لنلمسه جلياً في مقالة السادة: أبي بكر، وعمر، والمقداد، وسعد بن معاذ لما قال النبي ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس» ونلمسه أيضاً في مقالة عمير بن الحمام لما سمع النبي ﷺ يقول: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» فرمى بتمرات في يده كان يأكلها قال: إني إن حييت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة!!

ونحس هذا الإيمان المثالي في طلب الصديق أن يبارز ابنه عبدالرحمن، وفي قتل الفاروق لحاله العاص بن هشام، وقتل أبي عبيدة لأبيه، ومصعب بن عمير لأخيه، وفي مقالة أبي حذيفة لما رأى أباه عتبة وقد مات على الكفر... إلى غير ذلك من المواقف المشرفة، والمثل الإيمانية العليا.

٢ - من العبر أن النصر من عند الله، وأن لله جنوداً كثيرة منها الملائكة، ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ والله سبحانه وتعالى قد أمرنا في صريح الكتاب الكريم بإعداد العدة، وأخذ الأهبة للأعداء، وقد بلغ النبي والصحابة المدى في هذا، فلم يدعوا وسيلة من وسائل القوة والنصر عما يقع تحت أيديهم وفي استطاعتهم إلا اتبعوها، فضربوا بالسيوف والحراب، ورموا بالسهام والنبال، وحفروا الخنادق، وصنعوا الدبابات بما يلائم عصرهم، وتدريبوا على فنون القتال، وتعلموا الكر والفر، ومع هذا كانوا على صلة وثيقة بالله، وتوكل عليه، وهم على صلاح واستقامة، لم يفتروا بعدد ولا عدة، وإنما يستنزلون النصر من عند الله.

ولذلك كان النبي كثيراً ما يلجأ إلى الدعاء عند حضور المواطن، بل ويبالغ فيه كما حدث في بدر ليثبت في نفوسهم هذا المعنى الكريم، ولذلك لما عرض الله سبحانه في الكتاب الكريم لإمداد المسلمين بالملائكة ختم ذلك بقوله:

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(١).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٦.

وقوله:

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِشَيْءٍ حَكِيمًا﴾ (١).

وإنه لدرس عظيم يجب أن يعيه المسلمون في كل قطر، فما أجدرهم أن يأخذوا أنفسهم بتقوى الله والاستقامة على شريعته، وأن يصلوا حبالهم بحبال السماء، وإلا كانوا هم والأعداء في المعاصي سواء، وإن لا يكن لنا عليهم فضل بالدين والاستقامة والطاعة فضلونا بالعدد والعدة، وإذا تحلى الله سبحانه وتعالى عنا، ووكلنا إلى أنفسنا واغترارنا عز علينا استئزال النصر من الله، وصارت الغلبة لمن هم أكثر عدداً وعدة.

٣ - احترام النبي ﷺ لمبدأ الشورى في الحرب ولو كانت من فرد واحد، وهو تقرير لهذا المبدأ التي يعتبر من مبادئ الإسلام، وذلك مثل ما حدث من أخذه برأي الحباب بن المنذر في تخيير مكان نزول الجيش، ورأي سعد بن معاذ في بناء العريش؛ واستشارة أصحابه في القتال، لما علم بخروج قريش في جموعها، وفي الأسارى أيقتلون أم يقدون؟.

وليس هذا بعجب ممن نزل عليه قول الله سبحانه:

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٢).

٤ - إنسانية الرسول الفائقة: إنسانية مبعثها الرحمة التي امتلأ بها قلبه الكبير، والعظمة النفسية التي تسمو عن أن تؤاخذ كل مذنب بذنبه، وإنما تعفو وتسمح، وتتسامى وتصفح، وإنا لللمس هذا في الأمر بدفن القتلى، وفي أمر أصحابه بالإحسان إلى الأسرى، وفي إيبائه على سيدنا عمر أن يتزع ثنيتي سهيل بن عمرو

(١) سورة الأنفال: الآية ١٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

حتى لا يقوم ضد النبي خطيباً، وقوله هذه المقالة: «لا أمثل فيمثل الله بي وإن كنت نبياً!! وفي موقفه لما سمع رثاء قتيلة لأخيها النضر بن الحارث وقوله: «لو بلغني هذا قبل قتله لمنت عليه».

٥ - مواهب النبي ﷺ السياسية: هذه المواهب التي تفجر بها القلب المستنير الذي أشرق بالإيمان، وامتلاً بالفيوضات الإلهية والتجليات الربانية التي أفاض الله بها عليه، والعقل الكبير الذي تربى على التأمل والنظر في الكون، وترعرع في حياطة الله ورعايته، وتمرس بآيات الوحي والحكمة، فوسع العقول جميعاً، ولو وزنت به العقول كلها لرجحها.

وإننا لنلمس هذه المواهب في استشارة أصحابه لما ترجح جانب القتال بخروج جيش قريش، فقد كان هذا بمثابة اختبار لإيمان القوم، وتعرف مبلغ استعدادهم لنصرة الإسلام خارج المدينة. وقد نجحوا في هذا الاختبار أيما نجاح، وأبأنوا بما قالوا عن معدنهم الأصيل تجاه نبيهم محمد، الذي يختلف عن معدن بني إسرائيل معدن الجبن والخور والندالة تجاه نبيهم موسى.

كما نلمس هذا أيضاً حين بدأت المبارزة، فقد أخرج النبي - كما رجحنا - للثلاثة القرشيين ثلاثة من ألصق الناس به وذوي قرباه: اثنين من بني هاشم وواحد من بني المطلب، وبنو هاشم والمطلب سواء في الجاهلية والإسلام، وذلك ليكون إيداناً على رؤوس الأشهاد بأن أقرباء النبي الأقربين سيكونون في مقدمة المسلمين - مهاجرين وأنصاراً - تضحية بالنفس، وتقديراً للرسول والإسلام، وإنه لموقف معبر دونه الخطب والكلام.

ونلمس هذه الموهبة الفائقة في موقف يعتبر من أخرج المواقف بين رأيين متعارضين، وكل من صاحبي الرأيين يعتبر وزير صدق للنبي ﷺ، وانحاز إلى رأيه كثيرون، وذلك حينما استشار أصحابه في الأسرى، فقد رأى الصديق الفداء، ورأى الفاروق القتل، ودخل النبي بيته وفكر في الأمر، فرأى بما جُبل عليه من الرحمة والتسامح رأي الصديق، ولكن الرأي المعارض رأي عمر،

وهو من هو في الإسلام، وصاحب الموافقات، وربما يكون في هذا غضاضة على عمر.

وفكر الرسول ثم فكر، فتفتق العقل الكبير عن هذا التصرف الحازم البصير، فخرج وأثنى على كلا الرجلين ثناء نابعاً من طبيعة الرجلين، لا تحيف فيه على أحدهما، ولا هضم لحقه، ولا محابة ولا مداهنة، فشبه الصديق بنين رحيمين: إبراهيم وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وشبه الفاروق بنين اشتد غضبهما على قومهما، بعد أن لم يدعا في قوس الصبر منزعاً، وهما: نوح وموسى عليهما الصلاة والسلام، ثم رأى رأي الصديق، وبهذه المقدمة البارعة قضى الرسول على ما عسى أن يداخل نفس الفاروق، فإذا كان الرسول لم يأخذ برأيه فبحسبه شرفاً وتقديراً أن يكون شبيهاً بنين من أولي العزم من الرسل، وإنها لأمنية تنقطع دونها الأمانى، وحلم ترنو إليه أي نفس مهما بلغت من أصالة الرأي، وحسن التدبير، والافتناع بما رأت.

ومن هذه السياسة الحكيمة إسهام النبي لكل من لم يحضر الموقعة لتخلفه في مصلحة عامة أو خاصة، وكذلك إسهامه لمن استشهدوا في بدر وإعطاء حقوقهم لورثتهم وذوهم، وبذلك كان للإسلام سبق في تكريم الشهداء ورعاية أسرهم وأبنائهم من قرابة أربعة عشر قرناً.

٦ - عدالة النبي التامة في أخذ الفداء من القادرين عليه، وعدم محاباته لذوي قرباه، بل كان الأمر على خلاف ذلك، فقد أغلا الفداء على عمه العباس، ولم يقبل أن يتنازل له أخواله من الأنصار عن شيء منه، وترك أمر صهره إلى خيار المسلمين، فمَنُوا عليه لَمَّا رأوا زوجته السيدة زينب أرسلت في فدائه بقلادتها الغالية التي تحمل في نفسها أعظم ذكرى لأمرها السيدة خديجة، وفضل خديجة على الإسلام مذكور مشكور، وقد دَلَّ المسلمون بصنيعهم هذا على حسن مرهف، وشعور كريم، وإنسانية فائقة، وعلى حين فعل النبي هذا مع ذوي قرباه من على أناس لا يمتون إليه بصلة القربى لاعتبارات تدعو إلى ذلك.

✓ ٧ - أن النبي ﷺ له أن يجتهد فيما لم ينزل فيه وحي، وأنه إذا اجتهد في أمر من الأمور وسكت الوحي عن هذا الاجتهاد كان ذلك دليلاً على موافقته الصواب والحق، واكتسب صفة إقرار الوحي لما أدّى إليه الاجتهاد، لأنه سبحانه حاشاه أن يقر نبيه على أمر يخالف الحق والصواب، أما إذا اجتهد النبي ولم يصادف الصواب نزل الوحي معاتباً ومبيناً، وذاك كما حدث في هذه الغزوة.

فقد نزل قوله تعالى معاتباً: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ...﴾ والنبي في كلتا الحالتين مأجور، لأن الإسلام يقرر أن من اجتهد فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر، وهذا يدل على مبلغ تقدير الإسلام للاجتهاد والدعوة إليه، وتكريم المجتهدين، وهذا الذي ذهبنا إليه من أنه ﷺ له أن يجتهد هو ما عليه جمهور العلماء والمحققون منهم، وهو الرأي الراجح المنصور.

٨ - حدوث بعض المعجزات النبوية الحسية في هذه الموقعة: فقد ذكر ابن إسحاق وغيره أن عكاشة بن محصن الأسدي حليف بني عبد شمس قاتل يوم بدر بسيفه حتى انكسر، فأتى النبي ﷺ فأعطاه جذلاً^(١) من حطب، فقال: «قاتل بهذا يا عكاشة» فأخذه فهزّه فصار سيفاً في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدية، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، وكان يسمى «العون»، ولم يزل هذا السيف عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله حتى استشهد على يد طليحة الأسدي أيام حروب الردة.

وكان النبي يشيد بشجاعة عكاشة هذا فيقول: «منا خير فارس في العرب» قالوا: ومن هو يا رسول الله؟ قال: «عكاشة بن محصن» فقال ضرار بن الأزور الأسدي: ذاك رجل منا يا رسول الله، فقال: «ليس منكم ولكنه منا للحلف»^(٢) وبحسبه شرفاً هذا التقدير الكريم.

(١) الجذل: ما عظم من أصول الشجر المقطع، وقيل: هو من العيدان ما كان على مثال شماريخ النخل وهو المراد.

(٢) الروض الأنف، ص ٧٣، الجمالية.

وروى الواقدي بسنده في مغازيه عن رجال من بني عبدالأشهل قالوا:
انكسر سيف سلمة بن حريش يوم بدر، فبقي أعزل لا سلاح معه، فأعطاه
رسول الله ﷺ قضيماً كان في يده من عراجين ابن طاب - نخل بالمدينة رطبها
جيد -، فقال: «اضرب به»، فإذا هو سيف جيد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم
جسر أبي عبيد^(١).

ومن ذلك ما أعلم به النبي عمه العباس لما اشتكى الفقر، وإخباره
بما ترك من مال عند زوجته أم الفضل، وقوله لها: إن هلكت فهذا المال لبني.
وما حدث به عمير بن وهب لما جاء متظاهراً بفداء ابنه، وهو يريد قتل النبي
باتفاق مع صفوان بن أمية، فقد أنبأه نبأ المؤامرة، فكانت سبباً في إسلامه
وصدق إيمانه.

وما ينبغي لأحد أن يزعم أن المعجزات الحسية لا ضرورة إليها بعد
القرآن، فهذا قد بدت آثارها واضحة جلية في إسلام البعض، وتقوية يقين
البعض الآخر، وإثبات أنه نبي يوحى إليه، فقد أخبر بمغيبات انتفى في العلم
بها كل احتمال إلا أنه خبر السماء، وغير خفي ما يحدثه انقلاب عود أو عرجون
في يد صاحبه سيفاً بتاراً في إيمانه وتقوية يقينه، وجهاده به جهاداً لا يعرف التردد
أو الخور، وحرصه البالغ على أن يخوض المعارك بسيف خرقت به العادة، وصار
مثلاً وذكرى في الأولين والآخرين.

* * *

(٣) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٢٩٠. وفي البداية أبي عبيدة وهو خطأ والصحيح
أبي عبيد، وهو أبو عبيد بن مسعود الثقفي وكان عبر الفرات إلى الضفة الأخرى لقتال
الفرس على جسر، فلما قتل أبو عبيد جال المسلمون جولة ثم انهزموا، فقطع رجل الجسر
حتى لا يفكر أحد من الجيش في الفرار، وكانت خطيئة ترتب عليها أن قتل كثير من
المسلمين وتهافتوا في الفرات، ولولا موقف الثني بن حارثة ومعه بعض أبطال المسلمين
لكانت الهزيمة ساحقة ماحقة. (الإصابة، ج ٤ ص ١٣٠؛ والاستيعاب، ج ٤
ص ١٢٤).

أحداث في السنة الثانية

زواج علي بفاطمة

في هذه السنة تزوج أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ وبني بها، وقد ذكر البخاري أن ذلك كان بعد غزوة بدر بقليل، وقال الواقدي إنه بنى بها في ذي الحجة من هذه السنة، وإليك قصة خطبتها كما رواها البيهقي عن علي قال: خُطبت فاطمة من رسول الله ﷺ فقالت مولاة لي: هل علمت أن فاطمة خُطبت من رسول الله؟ قلت: لا. قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول الله فيزوجك بها؟ فقلت: أو عندي شيء أتزوج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زُوجك.

فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله، فلما أن قعدت بين يديه أفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبه، فقال رسول الله ﷺ: «ما جاء بك، ألك حاجة؟» فسكتُ، فقال: «لعلك جئت تحطب فاطمة» فقلت: نعم. فقال: «وهل عندك من شيء تستحلها به؟» فقلت: لا والله يا رسول الله، فقال: «ما فعلت درع سلحتكها؟» فوالذي نفس علي بيده إنها لحُطِمة ما قيمتها أربعة دراهم، فقلت عندي، فقال: «قد زوجتكها، فابعث إليها بها، فاستحلها بها» فإن كانت لَصْدَاق فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

وكان زواجاً ميموناً مباركاً، أنجبت منه السيدة الزهراء السادة: حسناً، وحسيناً، ومحسناً، وأم كلثوم، وزينب عليهم السلام. أما محسن فمات صغيراً، وعاش الحسن والحسين حتى بلغا مبلغ الرجال، فمات الحسن واستشهد الحسين بكر بلاء، ولعلك تعجب إذا علمت أن السيدة الزهراء كان جهازها خميلاً -

قطيفة - وقربة ووسادة آدم حشوها إذخر^(١)، وهكذا كان الأمر في صدر الإسلام لا مغالاة في المهور، ولا إرهاب في سبيل إعداد الجهاز كما هو الحال اليوم. وإنما الحال سماحة وبساطة، وتعاون في سبيل الحياة الزوجية الكريمة، ولو كانت المغالاة في المهور مكرمة لكان أولى بها رسول الله ﷺ وبناته، وأهله، وأصحابه الكرام الميامين.

(١) آدم: جلد. إذخر: نبات طيب الرائحة.

وفيات

في هذا العام توفيت السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان ذلك عند قدوم المبشرين بالنصر ببدر إلى المدينة كما أسلفنا.

وفيها استشهد أربعة عشر من المهاجرين والأنصار في بدر، منهم: عبيدة بن الحارث بن المطلب، وعمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص من المهاجرين، ومعوذ وعوف ابنا عفرأ، وعمير بن الحِمام، وسعد بن خيشمة من الأنصار. وفيها توفي بعد بدر السيد الجليل عثمان بن مظعون أحد السابقين الأولين ومن هاجر الهجرتين، وكان أخاً للنبي ﷺ من الرضاع، ولما توفي دخل عليه رسول الله ﷺ فقبله وبكى حتى سالت الدموع على وجهه^(١)، ثم شيع جنازته هو وأصحابه، ولما دفن أمر النبي رجلاً أن يأتي له بحجر، فلم يقدر الرجل على حمله لكبره، فقام النبي وأحضره ووضعوه عند رأسه وقال: «أعلم به قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي»^(٢)، ومن هنا أخذ جواز تمييز القبر بحجر ونحوه، ولما توفي إبراهيم ابن النبي قال: «الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون»^(٣)، وقد وهم بعض المؤلفين في السيرة^(٤) فذكر أنه توفي في العام الأول، وهو غلط، والصحيح كما ذكرنا.

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) رواه أبو داود. انظر نيل الأوطار ج ٤ ص ٥٥، ١٣٢.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) هو الشيخ الخضري رحمه الله في كتابه «نور اليقين».

السَّنة الثَّالِثَةُ مِنَ الْهِجْرَةِ

تمهيد:

في هذه السنة واجه النبي خصوماً لم يكن له بهم سابق عهد، ذلك أنه كان حالف معظم القبائل التي تسكن غربي المدينة بينها وبين ساحل البحر، فكاد يصبح طريق تجارة مكة إلى الشام مغلقاً، ولكن ماذا يصنع القرشيون والتجارة هي روحهم وعماد معيشتهم، لذلك فكروا في طريق صحراوي آخر من مكة إلى نجد، ومنها إلى العراق والشام، وكان بنو سُليْم وغطفان أهم من يسكن هذا الطريق من القبائل، وكانوا حلفاء قريش يستخدمونهم في تأمين متاجرهم إلى العراق.

وقد وثق القرشيون ما بينهم وبين سُليْم وغطفان وأغروهم بمحاربة الرسول.

وقد كان من سياسة النبي الحكيمة في محاربة هذه القبائل هي مبدأ المبادأة، فما إن يعلم بعزمهم على حربه حتى يسرع إليهم بالخروج ليريه أنهم أقوياء، وقد أثمرت هذه السياسة ثمرتها، فكان النبي إذا خرج إلى قوم منهم ألقى في قلوبهم الرعب وفروا، فيعود غانماً منتصراً، وقد كفاه الله والمؤمنين القتال.

غزوة الكدر

تجمعت جموع من بني سُليْم وغطفان يريدون مهاجمة المدينة، فلما علم النبي بعزمهم خرج إليهم على رأس مائتين من أصحابه، فلما وصلوا ماء لهم يسمى «قرقرة الكدر» وجدهم قد فروا، فرجع ولم يلق كيداً، وغنم المسلمون خمسمائة بعير خُمست، فأخذ النبي الخمس، ووزع الباقي على المجاهدين.

غزوة غطفان أو ذي أمر

وفي شهر ربيع الأول تجمع بنو ثعلبة ومحارب - هما حيان من غطفان - وعلى رأسهم رئيس لهم يسمى «دعثور» يريدون الغارة على المدينة، فخرج إليهم النبي في أربعمائة وخمسين من أصحابه بعد أن خلف على المدينة عثمان بن عفان، فلما سمعت الأعراب بمسيره رعبوا وفروا.

وسار المسلمون حتى وصلوا ماء لهم يسمى (ذا أمر) فعسكروا به، وأمطرت السماء مطراً غزيراً، فابتلت ثياب رسول الله، فذهب إلى شجرة هناك بمنأى عن المعسكر ونشر عليها ثيابه، وشغل المسلمون بشؤونهم. ورأى المشركون أن ينالوا من النبي على غرة، فأرسلوا رجلاً منهم شجاعاً يقال له دعثور هذا - ويقال غورث بن الحارث - لقتل النبي ﷺ، فما شعر به النبي إلا وهو قائم على رأسه بالسيف مشهوراً، فقال: من يمنعك مني يا محمد؟ فقال النبي: «الله!!» فرعب الرجل، وسقط السيف من يده، فتناوله الرسول، ورفع، وقال له: «من يمنعك مني؟» فقال الرجل: لا أحد، فعفا عنه النبي ﷺ، فما كان من الرجل إلا أن أسلم وتعهد أن لا يكثر على النبي جمعاً، وعاد إلى قومه، فأخبرهم الخبر، ودعاهم إلى الإسلام.

وهكذا شاء الله سبحانه أن يخرج قاصداً قتل النبي ﷺ فإذا به يعود مؤمناً به ومحباً له!! وصار يجمع قومه للرسول، بعد أن كان يجمعهم عليه، وقد قيل: إنه نزل^(١) في هذا قوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

(١) تفسير الألوسي ج ٦ ص ٧٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١.

سرية زيد بن حارثة أو القردة

علمت قريش من مبادأة الرسول لغطفان وسُليم وخروجه إليهم؛ أن قوة المسلمين المادية والمعنوية لا يستهان بها، وأن الطرق المطروقة إلى الشام أصبحت غير مأمونة، وأن القبائل المتحالفة معهم أصبحت غير قادرة على حماية تجارتهم، ففكروا في طريق وعر قليل الماء، عرّفهم به مرشد يأتونونه، فخرجت غيرهم في تجارة عظيمة، وكان رئيس العير صفوان بن أمية، ومعه أبوسفیان بن حرب، وآخرون، واستأجروا رجلاً من بني بكر بن وائل يسمى: فرات بن حيان^(١) ليدلهم على الطريق، وتكتموا أمر هذه العير.

ولكن الأقدار ساقط يثريباً، وهونعيم بن مسعود الأشجعي، فقد كان بمكة وعلم بخبر العير، فلما قدم المدينة وجلس في رفقة له يشربون ومعه رجل مسلم - وذلك قبل أن تحرم الخمر - فجرى على لسانه ذكر عير قريش والطريق الذي سلكته، فأسرع الرجل المسلم فأخبر النبي، فأرسل من فوره زيد بن حارثة في مائة راكب مجاهد، وكان ذلك في مستهل جمادى الأولى من السنة الثالثة فسارت السرية حتى لقوا العير عند ماء يسمى «القردة»، ففرّ الرجال، وأصاب المسلمون العير، وكانت أول غنيمة ذات قيمة غنمها المسلمون، وعادت السرية بها، فحُصِّسها رسول الله ﷺ، فبلغ خمسها خمسة وعشرين ألفاً، وقسم الباقي على رجال السرية، وكان فرات بن حيان فيمن أسر، فعرضوا عليه الإسلام فأسلم.

(١) حيان: بالياء المثناة. وقيل: بالباء الموحدة.

غَزْوَةُ أَحَدٍ

تجهز قريش لأحد

لما أصيبت قريش في بدر أرصدوا التجارة التي كانت تحملها العير لقتال النبي ﷺ، والثار منه ومن أصحابه، وأوقفوها بدار الندوة، وكانت تبلغ خمسين ألف دينار، فسعى رجال من رؤسائهم قبيل أحد إلى أبي سفيان بن حرب، فقالوا له: إن محمداً وترّنا^(٢)، وقتل خيارنا، وإنا رضىنا أن نترك ربح أموالنا فيها استعداداً لحرب محمد وأصحابه، وقد رضي بذلك كل من له فيها نصيب. وصاروا يجمعون الجموع لقتال النبي، واستنفروا حلفاءهم من الأحابيش، والقبائل المنتشرة حول مكة من كنانة وأهل تهامة، وعبّأوا القوى لهذا الاستنفار، فقد سعى صفوان بن أمية إلى أبي عزة الشاعر الذي كان في الأسارى يوم بدر، ومنّ عليه الرسول، وقال له: يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر، فأعنا بلسانك، وأخرج معنا، فقال: إن محمداً قد منّ علي فلا أريد أن أظاهر عليه، ولم يزل به يُغريه، ويقول: لله علي إن رجعت أن أغنيك، وإن قتلت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر، حتى قبل، فخرج أبو عزة يسير في تهامة، ويدعو بني كنانة لحرب رسول الله ﷺ، وكذلك اشترك في تأليب القبائل أبو عامر الذي كان يقال له: الراهب، فسماه رسول الله: الفاسق.

وما زالت قريش تجمع الجموع حتى تكوّن جيش تعداده ثلاثة آلاف منها، ومن حلفائها، وأعراب كنانة، وتهامة.

وقد اختلفوا: يخرجون بالنساء أم لا؟ وكان آخر الأمر أن ترجّع رأي القائلين بخروجهن لما صرخت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان وأصرّت على

(١) أحد: جبل بينه وبين المدينة نحو ستة أميال. وكانت الموقعة عنده.

(٢) وترنا: أصابنا في أحبنا وأهلنا.

خروجهن، فخرجت مع زوجها تُولب وتُحث على القتال، وكذلك خرجت زوجات عكرمة بن أبي جهل، وعمر بن العاص، وصفوان بن أمية وغيرهن، وسار هذا الجيش قاصداً المدينة ومعهم ثلاثة آلاف بعير، ومائتا فرس ومن بينهم ستمائة دارع.

وكان في الجيش عبدٌ حبشي يقال له: «وَحْشي» وهو غلام لجبير بن مطعم، فقال له جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي - وكان قتل يوم بدر مشركاً - فأنت حر، وكانت هند تحرضه هي الأخرى على قتل سيدنا حمزة بن عبدالمطلب الذي فجعها بقتل الأُحبة من أهلها في بدر، فكانت كلما مرت أو مرَّ بها تقول له: ويهاً أبادسمة، اشف، واششف^(١)

وسار الجيش حتى وصل إلى الأبواء حيث قبر السيدة آمنة بنت وهب أم النبي، ففكر بعض سوقتهم في نبش قبرها، ولكن زعماءهم أبوا ذلك حتى لا تكون سنة سيئة في العرب، وقالوا: لا تذكروا من هذا شيئاً فلو فعلنا نبشت بنو بكر وبنو خزاعة موتانا. وتابعت قريش سيرها حتى نزلت عند بعض السفوح من جبل أحد على خمسة أميال من المدينة.

وصول الخبر إلى الرسول

وكان العباس بن عبدالمطلب يعلم ما صنعت قريش من تأليب القبائل، وجمع الجموع، وعزمها على مهاجمة المدينة، فكتب كتاباً إلى ابن أخيه محمد ﷺ يخبره فيه بما جرى، وأعطاه لرجل من بني غفار، فأوصله الرجل إلى النبي، فقرأه عليه أبي بن كعب، فاستكتمه الرسول ما فيه، وأخبر بعض أصحابه واستكتمهم الخبر أيضاً.

ثم أرسل النبي أنساً ومؤنساً ابني فضالة يتسنيطان أخبار قريش، فألفياها قد قاربت المدينة، وأرسلت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وأرسل بعدهما الحباب بن المنذر مستطلعاً، فجاءت الرسل تؤكد ما أخبر به العباس، وأن جيش قريش بمشارف المدينة، ولم يعد الأمر سراً، فقد تواتت الأخبار بوصول قريش وعسكرتها بالقرب من أحد، وأخذ المسلمون الحيطه للرسول

(١) ويهاً: كلمة إغراء وتحريض. أبودسمة: كنية وحشي.

ولأنفسهم، حتى لقد بات وجوه المسلمين من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد النبوي خوفاً على الرسول، وأقاموا حراساً على مداخل المدينة بالليل.

مشاورة النبي أصحابه

ولم يكن بدُّ من أن يتشاور النبي والمسلمون فيما دهمهم، فجمع النبي وجوه المهاجرين والأنصار وحضر معهم عبدالله بن أبي رأس المنافقين، وكان ذلك في يوم جمعة، وكان رسول الله ﷺ رأى ليلة الجمعة رؤيا، فلما أصبح قصَّها على أصحابه فقال: «إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً تُذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، فأولتها المدينة»، وقد ورد في تأويل بقية الرؤيا أن النبي قال: «فأما البقر فأناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم... فهو رجل من أهل بيتي يقتل»^(١).

فمن ثمَّ كان رأي رسول الله المقام بالمدينة والتحصن بها، فإن هم دخلوا عليهم قاتلوهم، ورأى هذا الرأي شيوخ المهاجرين والأنصار، ورأى هذا الرأي أيضاً عبدالله بن أبي ابن سلول، فقال: (يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين).

ولكن الكثيرين ولا سيما الشباب ممن لم يشهد بدرأ، أو شهدا وأمتعهم الله بالنصر قالوا: يا رسول الله: اخرج بنا إلى أعدائنا، ولا يرون أننا جبنَّا عنهم وضعفنا، ومن هؤلاء حمزة بن عبدالمطلب فقال: والذي أنزل عليك الكتاب لنجالدهم.

وصلَّى رسول الله ﷺ بهم الجمعة، ووعظ الناس وذكرهم وحثَّهم على الثبات والصبر، ثم دخل بيته فلبس لأمته^(٢) ثم خرج عليهم، فلما رآه الذين أشاروا بالخروج ندموا وقالوا: استكرهناك ولم يكن لنا ذلك، يا رسول الله إن

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٦٢ ط الحلبي.

(٢) عدة الحرب من درع ومغفر ونحوها.

شئت فاقعد، فقال: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل أو يحكم الله بينه وبين أعدائه».

وأذن مؤذن رسول الله بالخروج، فخرج في ألف من أصحابه واستعمل على المدينة عبدالله ابن أم مكتوم، ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، وسار الجيش، وفي الطريق بصر النبي بكتيبة كبيرة فسأل عنها، فقيل له هؤلاء حلفاء ابن أبي من اليهود، فقال: «لا حاجة لنا فيهم، إنا لا نستعين بكافر على مشرك» ونجماً فعل، فهم قوم مرنوا على الخيانة والنفاق فلا يؤمن جانبهم.

فلما وصلوا إلى الشوط^(١) انخزل عبدالله بن أبي ثلاثمائة من أصحابه وقال: أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟ فرجع من أتبعه من قومه من أهل النفاق والشك، فتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام والد جابر فقال: يا قوم، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونيكم عند ما حضر من عدوهم، فقالوا: لونغلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال، فلما استعصوا عليه قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه. وفي هؤلاء المنخزلين نزل قول الله تعالى:

﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّنَافُؤِ أَجْمَعِينَ فَيَا ذُنُ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنُحِمْكُمْ سَبِيلَ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾^(٢).

ولما رجع ابن أبي وأصحابه همّت بنو سَلِمة وبنو حارثة أن ترجعا، ولكن الله ثبتهما وعصمهما، وفي ذلك نزل قوله سبحانه:

(١) الشوط: مكان بين المدينة وأحد.

(٢) سورة آل عمران: الأيتان ١٦٦ - ١٦٧ .

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

استعراض الجيش ورد بعض الصبيان

وفي الطريق استعرض رسول الله الجيش، وكان خرج مع الرجال بعض الغلمان ممن لا طاقة لهم على الجهاد رغبة في الجهاد حُباً للاستشهاد في سبيل الله، فردَّهم النبي لصغرهم، منهم: عبدالله بن عمر، والبراء بن عازب، وأسامة بن زيد، وزيد بن ثابت، وعرابة بن أوس^(٢)، وأجازهم يوم الخندق، وكان الرسول ردُّ سمرة بن جندب ورافع بن خديج، وهما أبناء خمس عشرة سنة، فقليل له: يا رسول الله إن رافعاً رجل رامٍ فأجازه، فقليل له: فإن سمرة يصرع رافعاً فأجازه.

وما كان لنا أن نمر بهذا دون أن نشيد بأثر التربية الإسلامية آنذاك في نفوس الشبان، وأنهم لم يكونوا أقل من الرجال حُباً للجهاد وتضحية في سبيل العقيدة والمثل الإنسانية العالية، وبهؤلاء الشباب وأمثالهم انتصر الإسلام وعلا على كل الأديان، وكان المسلمون خير أمة أخرجت للناس، وعسى أن يكون لشبابنا في هؤلاء أسوة حسنة.

نزول المسلمين بالشعب في أحد والتعبئة للقتال

ومضى رسول الله في سبعمائة من أصحابه حتى وصل الشعب من أحد، وجعل ظهره وعسكره إلى الجبل، وقال: «لا يقاتلن أحد حتى أمره بالقتال». وفي صبيحة يوم السبت الخامس عشر من شوال عبَّ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال، وصفَّ الصفوف، وبوأ كل فريق مكانه، وأمر رسول الله على الرماة عبدالله بن جبير، وهو مَعْلَمٌ بشباب بيض، وكانوا خمسين رجلاً، وأوصاهم قائلاً: «انضحوا بالنبل عنا لا نؤتين من قبلكم، والزموا مكانكم، إن كانت النوبة لنا أو علينا،

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٢.

(٢) قال فيه الشاعر:

رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع النظير
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

وإن رأيتُمونا تحطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم». وفي هذا نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).
الرسول يحمس أصحابه

وصار النبي يحمس المسلمين، وينفخ فيهم من روحه وقوة إيمانه، ويحثهم على الصبر والثبات في هذه المواطن، وابتدع طريقة تثير الحمية، وتدعو إلى الاستبسال في القتال، فقد أخذ بسيف في يده وقال: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فأحجم القوم، ثم كرر الكلمة فقام رجال فأمسكه عنهم، فقام إليه أبو دجانة سِمَاك بن خرشة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «أن تضرب به العدو حتى ينحني»، قال: أنا آخذه بحقه، فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يخالل عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم أنه سيقاتل، فأخرج عصابته تلك فاعتصب بها، ثم جعل يتبختر بين الصفين فقال رسول الله: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الوطن».

جيش قريش

وعبأت قريش جيشها وتصافوا، وكان معهم مائتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وكان حامل لوائهم طلحة بن عثمان من بني عبد الدار، وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء يحمسهم ويستثير حميتهم: (يا بني عبد الدار، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤق الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا، فلما أن تكفونا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه)، فهموا به وتواعدوه، وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا؟ غداً إذا التقينا ترى كيف نصنع؟ وهذا ما أراد أبو سفيان.

وقامت هند امرأة أبي سفيان في نساء من قريش وهن يتجولن بين الصفوف، ويضربن بالدفوف، ويحرّضن على القتال ويقلن:

ويهاً بني عبد الدار ويهاً حماة الأدبار ضرباً بكل بئار^(٢)

(١) الآية ١٢١ من سورة آل عمران.

(٢) ويهاً: كلمة تحريض وحث على القتال. حماة الأدبار: الذين يحمون أعقاب الناس.

البئار: السيف القاطع.

ويقلن:

نحن بنات طارق^(١) نمشي على النمارق
مشي القطا النوازي والمسك في المفارق
والدر في المخانق
إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق^(٢)

محاولة فاشلة

وحاول أبو عامر الفاسق - وقد تصاف الجيشان - أن يستزل بعض الأنصار، فقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق، فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم قتالاً شديداً، ورماهم بالحجارة.

بدء القتال بالمبارزة

وابتدأ القتال بالمبارزة، فقد دعا طلحة بن أبي طلحة العبدري أحد حملة لواء المشركين يومئذ إلى البراز، فأحجم عنه الناس، فبرز إليه الزبير بن العوام، فوثب حتى صار معه على جملة، ثم ألقاه على الأرض وذبحه بسيفه، فقال الرسول ﷺ: «إن لكل نبي حوارياً»^(٣)، وحواري الزبير، وقال: «لولم يبرز

(١) قال السهيلي: فيقال: إنها - أي هنداً - تمثلت بهذا الرجز، وإنه لهند بنت طارق بن بياضة، قالت في حرب الفرس لأباد، فعلى هذا يكون إنشاده. نحن بنات طارق - بالنصب على الاختصاص. وإن كانت أرادت النجم فبنات مرفوع خبر مبتدأ، أي نحن شريفات رفيات كالنجوم، وبعد أن استبعده ذكر عن بعضهم أنه استحسنة (الروض الأنف ج ٢ ص ١٢٩ - ١٣٠).

(٢) النمارق: جمع غمقة، وهي الوسادة. النيازق: الخفاف. المخانق جمع مخنقة وهي القلادة. والوامق: المحب.

(٣) الحواري: المخلص الصفي الناصر.

إليه أحد لبرزت أنا إليه، لما رأيت من إحجام الناس عنه، وهذا يدل على شجاعة رسول الله الفائقة التي لا تدانيها شجاعة.

وخرج سباع بن عبد العزى من صفوف المشركين، وهو يقول: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال له: يا سباع، يا ابن أم أئثار اتحاد الله ورسوله؟! ثم شدَّ عليه فكان كأمس الذاهب. ونادى أبو سعد بن أبي طلحة - وكان أحد حملة لواء المشركين وقد سمع علي بن أبي طالب يقول: أنا أبو القُصم^(١) - فقال: هل لك يا أبا القُصم في البراز من حاجة؟ قال: نعم، فبرزنا بين الصفين، فاختلعا ضربتين، فضربه علي فصرعه ولم يجهبز عليه، فقال له بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ فقال: إنه استقبلني بعورته، فعطفتني عليه الرحم، وعرفت أن الله قد قتله.

التحام الجيشين

ثم التحم الجيشان، وحمي الوطيس، وتعانقت السيوف، وحملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات، فينضحهم الرماة بالنبال فينكصون على أعقابهم، وأبلى كثير من المسلمين في هذا اليوم بلاءً حسناً، وأظهروا من البطولات ما أعجز المشركين.

فاندفع أبو دُجانة^(٢) وقد اعتصب بعصاة الموت وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول^(٣) أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحداً من المشركين إلا قتله، ورأى رضي الله عنه إنساناً يحمش الناس خمشاً شديداً، قال: فصمدت له، فلما حملت عليه بالسيف ولول،

(١) بضم القاف وفتح الصاد، وروي بالفاء، والقصم - بالقاف - القطع مع الإبانة، والفصم - بالفاء - قطع من غير إبانة.

(٢) أبو دُجانة: بضم الدال وتخفيف الجيم، واسمه: سِمَاك بكسر السين ابن خَرَشَة بفتح الخاء والراء والشين.

(٣) الكيول: آخر الصفوف في الحرب، ويروى أيضاً الكبول: جمع كبل وهو القيد.

فإذا هي امرأة، وهي هند بنت عتبة، قال: فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن
أضرب به امرأة.

وقاتل علي، والزبير، وطلحة بن عبيدالله، وأبو طلحة الأنصاري،
وسعد بن أبي وقاص، وأبطال غيرهم كثيرون، وقاتل أسد الله حمزة بن
عبدالمطلب قتال الأبطال، لا يمر به أحد من المشركين إلا أطاح برأسه؛ ولا يقدر أحد
أن يهوي إليه، فقتل نفراً من حملة اللواء من بني عبدالدار؛ وبينها هو على هذه
الحال؛ كمن له وحشي حتى تمكن منه، ثم رماه بحريته فأصابته مقتلاً،
وسأدع وحشياً يحدثنا عن هذا المشهد المؤلم المثير قال:

(كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم
بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لي جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي
فأنت حر، قال: فخرجت مع الناس وكنت رجلاً أقذف بالحربة قذف الحبشة؛
قل ما أخطيء بها، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته في
عرض الناس كأنه الجمل الأورق^(١)، يهد الناس بسيفه هذا ما يقوم له شيء،
فوالله إني لأتألم له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني، فلما دنا هزرت
حربتي، حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت في ثنته - تحت سرتة - حتى
خرجت من بين رجله، وذهب لينوء نحوي فغلب، وتركته وإياها حتى مات،
ثم أخذت حربتي ورجعت، ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأعتق^(٢)).

وسرت قوة الإيمان في نفوس المسلمين، وضاعفت من قواهم المغنوية،
فإذا السبعمائة يهزمون الثلاثة آلاف، حتى لقد قتل من حملة لواء المشركين من
بني عبدالدار سبعة أو تسعة، ولم يزل اللواء صريعاً لا يجد من يحمله، حتى
أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية، فرفعته لقريش فاجتمعوا عليه، وأنزل الله
نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحسبهم بالسيف، حتى كشفوهم عن
المعسكر، ولولت نساء المشركين، وأصعدن في الجبل هرباً.

(١) الجمل الأورق: الذي لونه بين الأبيض والأسود «الرمادي».

(٢) البداية والنهاية، ج ٤ ص ١٨.

قال الزبير بن العوام: والله لقد رأيته أنظر إلى خَدَم^(١) هند بنت عتبة وصواحبها مشتمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير. وأضحت الهزيمة لا شك فيها، وأقبل المسلمون على جمع الغنائم، وما أكثرها، وشغلوا بها عن مطاردة المشركين، والإثخان، فيهم، وتطلع إلى الغنائم كثير من الرماة، فتركوا أماكنهم فكانت بؤادر الهزيمة.

مخالفة الرماة أمر الرسول

ونسي معظم الرماة وصية الرسول إليهم أن لا يبرحوا مكانهم، وقالوا: مالنا في الوقوف من حاجة، وذكرهم رئيسهم عبدالله بن جبير قائلاً: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ وقال لهم: أما أنا فلا أبرح مكاني، فخالفه أكثرهم، وانطلقوا إلى الغنائم وثبت معه عشرة رماة، حينذاك اهتبل هذه الفرصة خالد بن الوليد، فشدَّ على بقية الرماة فقتلهم، واندفع بخيله في ظهور المسلمين وأخذوهم على غرة وهم لاهون بجمع الغنائم، وصاح في قريش: أن ارجعوا، فعاد كل منهمز منهم، واندفعت قريش كالسيل الآتي إلى معسكر المسلمين؛ وصار المسلمون بين نارين، وهنالك دارت الدائرة على المسلمين وتحولت الصِّبادبوراً^(٢)، ووقع الاضطراب في صفوفهم، وصار كل واحد يلقي بما في يده من مغنم، وعاد إلى سيفه يسألُه ليقاتل به، ولكن هيهات هيهات، لقد تفرقت الصفوف، وتمزقت الوحدة، وابتلع البحر اللجي من جيش قريش هذه الفئة القليلة من المسلمين.

لقد كانوا من منذ ساعة يقاتلون بوحى من إيمانهم، ودفاعاً عن عقيدتهم، وها هم الساعة يقاتلون لينجوا من برائن الموت، ويفلتوا من ذل الأسر، وكانوا يقاتلون متراصين متضامين، وهم الآن يقاتلون مبعثرين مفرقين، لا نظام يجمعهم ولا وحدة تشملهم، وكانوا يقاتلون تحت قيادة حكيمة حازمة، وهم الآن يقاتلون ولا قيادة لهم، فلا تعجب إذا صار المسلمون يضرب بعضهم

(١) الخدم: بفتح الخاء والداال جمع خدمة: الخلاخيل، وقيل موضع الخلاخيل من الساق.

(٢) الصبا: ربح تهب من المشرق. والدبور: تهب من المغرب.

بعضاً، وهم لا يشعرون، كما حدث في قتل «اليمان»^(١) والد حذيفة، فقد قتله المسلمون خطأ وهم لا يعرفونه، واعتذروا لحذيفة، فقال: يغفر الله لكم، وأراد رسول الله أن يعطيه دية أبيه فأبى، وتصلق بها على المسلمين، فما زال في حذيفة بقية خير حتى لقي الله عز وجل.

شائعة قتل الرسول

واندفع المشركون نحو رسول الله يريدون قتله، منهم ابن قمئة، فتلقاه مصعب بن عمير، فقتله ابن قمئة ظناً أنه رسول الله، وصاح صائح: ألا إن محمداً قد قتل، وهنالك عظمت البلية، وطاشت أحلام المسلمين، وذهلوا عن أنفسهم، فمنهم من ولّى هارباً، ولم ترده إلا حيطان المدينة فرجع استحياء، وفي هؤلاء نزل قوله سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٢).

ومنهم من انطلق صاعداً فوق الجبل وألقى بسلاحه من هول الفاجعة، ثم لم يلبثوا أن فاؤوا إلى الرسول وإلى القتال بعد أن أفاقوا من أثر الصدمة، ومنهم من قاتلوا دفاعاً عن دينهم وحماية لأنفسهم، وهم كثير منهم: حفظة بن أبي عامر، وكعب بن مالك، وقتادة بن النعمان، وعبدالله بن عمرو بن حرام والد جابر.

وقدم أنس بن النضر عم أنس بن مالك على قوم عن أذهلتهم الشائعة وألقوا بسلاحهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله، فقال: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه وقال: اللهم إني أعتر إليك بما قال

(١) هو حسيل بن جابر، ويسمي اليماني لأنه من ولد جروة بن مازن، وكان جروة قد بعد عن أهله في اليمن زمناً طويلاً، ثم رجع إليهم فسموه اليماني.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.

هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني المشركين - ثم لقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أحد، ثم ألقى بنفسه في أتون المعركة، وما زال يقاتل حتى استشهد. فوجد به بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أورمية بسهم، فلم تعرفه إلا أخته بيناته، وفي هذا وأمثاله نزل قول الله سبحانه:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (١).

الذين ثبتوا مع الرسول

وثبت حول النبي ثلثة من المهاجرين والأنصار، وفدّوه بأنفسهم، قال ابن سعد: إنهم أربعة عشر رجلاً، منهم أبوبكر، وسبعة من الأنصار. وذكر الواقدي في مغازيه أنه ثبت مع الرسول يوم أحد من المهاجرين سبعة: أبوبكر، وعلي، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد، وطلحة، والزبير، وأبو عبيدة. ومن الأنصار: أبودجانة، والحباب بن المنذر، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمة، وسهل بن حنيف، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير (٢).

وذكر البغوي في تفسيره أنه كان ممن ثبت أبوبكر وعمر؛ وفي هذا ما يرد ما ذكره الدكتور هيكل في كتابه: «حياة محمد» (٣) صلى الله عليه وسلم، من أن أبابكر وعمر ممن انتحوا ناحية الجبل وألقوا بأيديهم، والظن بالصدّيق في قوة إيمانه وتفديته للرسول بنفسه في الهجرة وغيرها أن يكون ممن ثبتوا، وكذلك الظن بعمر، ولعل هيكل أخذ بما رواه ابن إسحاق في قصة أنس بن النضر من أنه وجد عمر وطلحة بن عبيدالله فيمن ألقوا بأيديهم، وهي رواية مردودة، فقد اتفقت الروايات كلها في الصحيحين وغيرهما على أن طلحة كان ممن ثبت (٤)،

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٣. قضى نجه: مات.

(٢) فتح الباري، ج ٧ ص ٢٨٨.

(٣) ص ٢٩١.

(٤) البداية والنهاية، ج ٤ ص ٢٦، ٢٧.

وهو مما يوهن هذه الرواية ويضعفها، ويقلل الثقة بها، وليس لنا أن نأخذ ببعض ما تفيدته وندع البعض.

وفي بعض الروايات أن المقداد، وسعد بن عباد، ومحمد بن مسلمة ممن ثبتوا مع الرسول. والذي يظهر لي - والله أعلم - أن رسول الله ﷺ، كان يدعو أصحابه إليه، فصار كل من يسمع النداء يفيء إليه، حتى تجمع حوله عدد كثير، فمن ثم اختلفت الروايات في ذكر العدد والأشخاص بحسب الأحوال والأزمان.

ثبات الرسول

وثبت رسول الله ﷺ كالجبل الأشم، يدافع ويجالد جموع المشركين المحيطين به من كل ناحية، وهو يقول: «إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله»، ففاء إليه الكثيرون ممن أذهلتهم شائعة أنه قتل، ففقدوا عن القتال، ومن تفرقوا يقاتلون بين الصفوف، حتى تكونت حوله ثلَّة من أصحابه، فسار بهم حتى وصل إلى الصخرة التي فوق الجبل، وكان أول من عرف رسول الله بعد شائعة قتله كعب بن مالك، فإنه رأى عينيه تزهران من تحت المغفر، فنادى: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله، فأشار إليه الرسول أن أنصت. وكانت تلك حكمة بالغة من الرسول، فإن شائعة قتله كان من شأنها أن يخفف المشركون الوطأة على المسلمين، فإذا ما علموا أنه لا يزال حياً عاودوا الكرة، وكرروا محاولة قتله.

ولكن لم يلبث الخبر أن ذاع وانتشر بين المسلمين، ففويت العزائم بعد خور، وتجمعت الصفوف بعد تفرق، ثم أراد رسول الله أن يعلو الصخرة التي في الشعب من الجبل فلم يستطع لكثرة ما نزل من دمه الزكي، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فهض به حتى استوى عليها، فقال رسول الله حينئذ: «أوجب طلحة»، وبصر رسول الله بجماعة من المشركين فيهم خالد بن الوليد على ظهر الجبل، فقال: «لا ينبغي لهم أن يعلونا»، ثم أرسل إليهم عمر بن الخطاب في رهط من المهاجرين، فقاتلوهم حتى أهبطوهم من الجبل، وهذا يدل

على أن المسلمين على الرغم مما أصابهم من جروح وهزيمة كانوا ولم يزالوا بهم قوة ومنعة.

ما نزل بالرسول من جراح

فقد رماه عتبة بن أبي وقاص فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وكان سعد بن أبي وقاص يقول: ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة - يعني أخاه - ولقد كفاني فيه قول الرسول: «اشتد غضب الله على من دُمِّي وجه رسول الله»، وقد دعا عليه الرسول فما حال عليه الحول حتى مات كافراً، وشجَّ رسول الله في جبهته عبدالله بن شهاب؛ ورماه ابن قمئة - أقماه الله - فجرح وجنته ودخلت حلقتان من المغفر فيها، فكان أن سلَّط الله عليه تيساً فقتله، ذلك أنه لما انصرف إلى مكة خرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل، فشدَّ عليه تيسها فنطحه نطحة أردته من شاهق الجبل، فتقطع قطعاً.

وكان أبو عامر الفاسق قد حفر حفرة وغطَّها ليقع فيها المسلمون، فوقع رسول الله في حفرة منها، فأخذ علي بن أبي طالب بيده، ورفع طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً. وأقبل أبي بن خلف، وهو مقنَّع في الحديد قائلاً: أين محمد لا نجوتُ إن نجا؟ فقال أصحاب النبي: يا رسول الله يعطف عليه رجل منا، فقال رسول الله: «دعوه»، فلما دنا منه تناول الحربة من الحارث بن الصمة، قال الراوي: فلما أخذها رسول الله انتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله رسول الله فطعنه في عنقه طعنة تدحرج منها عن فرسه، وهو يخور خوار الثور، ومات - لعنه الله - بسرف^(١)، والمشركون راجعون إلى مكة وبحسبه قول الرسول: «اشتد غضب الله على رجل قتله رسول الله في سبيل الله»^(٢).

وعالج أبو عبيدة بن الجراح إخراج حلقتي المغفر من وجه رسول الله،

(١) سرف: ككتف موضع قريب من التنعيم.

(٢) رواه الشيخان.

وكره تناولها بيده فيؤذي الرسول، فأزم على إحدى الحلقتين بضمه فاستخرجها، وقد سقطت ثنيته معها، ثم أزم على الأخرى فاستخرجها ف وقعت الثنية الأخرى، فكان أبو عبيدة لذلك من أحسن الناس هتماً، ومضى مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم عن وجه رسول الله ﷺ، ثم ازدرده - ابتلعه - فقال الرسول: «من مس دمي دمه لم تصبه النار».

علي وفاطمة يضمّدان جراح النبي

أصلح علي وزوجه السيدة فاطمة من شأن الجروح، فكان علي يسكب الماء بالمجن، وفاطمة بنت الرسول تغسل، فلما رأت أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها بالجراح، فاستمسك الدم^(١). وكان النبي يقول وقد أصابته الجراح والدم يسيل على وجهه يوم أحد: «كيف يفلح قوم شجّوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته، وهويدعو إلى الله»، فأنزل الله سبحانه:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٢).

فصبر النبي ورضي.

وقد كان ثبات النبي ﷺ موقفاً بطولياً فذاً، لا يكون إلا من نبي يوحى إليه، ولولا هذا الموقف لما تجمع الأبطال حول البطل، ولكانت الهزيمة ساحقة ماحقة.

مثل من البطولات في الدفاع عن الرسول

وقد أبدى بعض المسلمين في ثباتهم حول الرسول ودفاعهم عنه يوم أحد بطولات فدائية، لم يعرفها التاريخ لأحد إلا لأصحاب نبينا محمد، وسواء في ذلك المهاجرون والأنصار ومن هؤلاء:

طلحة بن عبيد الله من السابقين الأولين، وكان الصديق أبو بكر إذا ذكر

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٨.

يوم أحد قال: ذاك يوم كله لطلحة، وتكاد تجمع الروايات على أنه ممن ثبت، وقد روى البيهقي بسنده عن جابر أن المشركين رهبوا رسول الله وهو صاعد في الجبل ومنعه جماعة من الأنصار ومعهم طلحة، فقال رسول الله: «ألا رجل لهؤلاء؟» فقال طلحة: أنا، فقال: «كما أنت يا طلحة»، فقال رجل من الأنصار: أنا. فقاتلهم حتى قتل، فلحقه المشركون، وما زال يقول: «ألا رجل لهؤلاء؟» وطلحة يقول: أنا، فيدخره، ويتقدم أحد الأنصار فيقاتلهم حتى يقتل، حتى قتلوا جميعاً، ثم قاتلهم طلحة، فقاتل مثل قتال جميع من كانوا قبله، وأصيب أنامله فقال: «حسن»، فقال رسول الله: «لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة، والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء». وروى البخاري في صحيحه عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يوم أحد، ولقد بقيت يده رضي الله عنه وساماً دونه كل وسام إلى يوم القيامة.

ومنهم سعد بن أبي وقاص الزهري، نثّل له رسول الله ﷺ كنانته^(١) يوم أحد وقال له: «إرم، فذاك أبي وأمي»، وقد ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله لم يجمع أبويه لأحد في التفدية إلا له.

ومنهم أبو طلحة الأنصاري، روى البخاري في صحيحه عن أنس قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوّب عليه بجحفة له^(٢). وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع^(٣)، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمر معه جعبته^(٤) فيقول النبي: «انثرها لأبي طلحة»، ويشرف النبي ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك^(٥). وكان أبو طلحة

(١) الكنانة: كيس يوضع فيه السهام.

(٢) مجوّب: بضم الميم وفتح الجيم وكسر الواو المشددة. الجحفة بفتح الجيم والحاء: الترسان الذي يتقي به المقاتل.

(٣) شديد النزع: أي الرمي بالقوس.

(٤) بضم الجيم: وعاء السهام.

(٥) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة أحد.

يسور نفسه بين يدي الرسول ويقول: إني جلد يا رسول الله، فوجهني في حوائجك، ومُرني بما شئت.

ومنهم أبودجانة، فقد ترس بنفسه على رسول الله، فحني ظهره عليه، والنبل يقع فيه حتى كثرت به الجراح.

ومنهم زياد بن السكن، ويقال: عمارة بن يزيد بن السكن، كان أحد نفر من الأنصار الذين قُتلوا بين يدي رسول الله دفاعاً عنه حينما غشيه القوم وتكاثروا عليه لقتله^(١).

ومنهم فتى الفتيان علي بن أبي طالب، فقد كان ممن ثبت مع الرسول، ونافع عنه، وممن قاتل في هذا اليوم قتال الأبطال.

بطولة امرأة

وانها لبطولة تستحق التسجيل، وبطلتها هي السيدة نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية. روى ابن إسحاق وغيره أنها دخلت عليها أم سعد بن الربيع فقالت لها: يا خالة أخبريني خبرك؟ قالت: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح^(٢) للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله، فقامت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إلى.

قالت الراوية: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف، له غور، فقلت لها: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة - أقماء الله - لماً ولئ الناس عن الرسول أقبل يقول: دلوني على محمد، لا نجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبتوا مع الرسول، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان. وقد غشي عليها من جراحها، فلما أفاق قالت: أين رسول الله وما صنع المشركون معه؟ فقالوا لها: بخير.

(١) سيرة ابن هشام، ج ٣ ص ٨١.

(٢) الريح: الغلبة والنصر.

وروى الواقدي بسنده عن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما التفت يوم أحد يميناً وشمالاً إلا وأراها تقاتل دوني».

وإن الإنسان ليدهش من هذه الشجاعة التي لا تكاد نجد لها مثلاً في تاريخ الدنيا، إن لهذه السيدة البطلة لتاريخاً حافلاً في باب الجهاد في الإسلام، فقد ذكر ابن عبد البر في ترجمتها: أنها شهدت أحداً مع زوجها زيد بن عاصم وابنيها: حبيب وعبد الله، وشهدت كذلك بيعة الرضوان، وقد أبلت بلاء حسناً في حروب الردة.

وكان مسيلمة الكذاب قد ظفر بابنها حبيب وهو مقبل من عُمان إلى المدينة وأخذه أسيراً^(١)، فقال له: أتشهد أني رسول الله: فيقول: لا أسمع، فيقول: أتشهد أن محمداً رسول الله فيقول نعم، فيقطع منه عضواً، وما زال يسأله ويحجب بما أجاب به حتى قطعه إرباً إرباً، ومات شهيد عقيدته مرضياً عليه من ربه، وأبت عليه بطولته أن يداهن في موطن تحيز له التقية أن يوافق ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان، ولكن المؤمنين الأبطال يأبى عليهم إيمانهم الفذ إلا العزائم!!.

ولما بلغها ما صنع الكذاب بحبيب عاهدت الله أن تموت دون مسيلمة، فلما كان يوم اليمامة ذهبت إلى الصديق تستأذنه في الخروج، فقال لها: ما مثلك يحال بينه وبين الخروج، فقد عرفناك، وعرفنا جرأتك في الحرب، فاخرجي على اسم الله.

فخرجت هي وابنها عبد الله، وأصيبت يومها باثني عشر جرحاً، وفقدت يداً في هذا اليوم وكانت حريصة على قتل مسيلمة، ولم يهدأ بالها حتى قابلها ابنها البطل عبد الله بن زيد الذي شارك وحشياً في قتل مسيلمة، وسيفه يقطر دماً من دمه، فقالت له: أقتلته؟ قال: نعم، فسجدت شكراً لله، وعادت وقد فقدت في

(١) وذكر ابن عبد البر أن رسول الله ﷺ قد بعثه إلى مسيلمة الكذاب باليمامة، ففعل به ما ذكرنا.

حروب الردة يداً وابناً، وعادت بيد وابن، ولكنها كانت قريرة العين أن أبر الله قسّمها، وأن فقدت ما فقدت في سبيل الله!!^(١).

مثل آخر من إيمان النساء

فقد مرّ رسول الله ﷺ بعد الموقعة بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله بأحد، فلما نُعوا إليها قالت: ما فعل رسول الله؟ قالوا خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه حتى إذا رآته قالت: كل مصيبة بعدك جليل!!^(٢).

ومن جهاد النساء في أحد

وقد كان للنساء المسلمات جهاد مشكور في أحد: يسقين العطشى، ويداوين الجرحى. روى الشيخان في صحيحهما عن أنس قال: «ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر - زوج الرسول - وأم سليم - يعني أمه - وإنهما لمشمرتان أرى خَدَمَ^(٣) سوقهما تنقزان^(٤) القرب على متونهما، تفرغان في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملأنا، ثم تحيثان فتفرغانه في أفواه القوم».

ومنهن أم سليط؛ روى البخاري في صحيحه بسنده: «أن عمر بن الخطاب قسم مروطاً^(٥) بين نساء من نساء المدينة، فبقي منها مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعطِ هذا بنت رسول الله التي عندك - يريدون أم كلثوم بنت علي - فقال عمر: أم سليط أحق به منها، قال عمر: فلما كانت تزفر^(٦) لنا القرب يوم أحد»^(٧).

(١) الإصابة، ج ٤ ص ٤٧٩، وج ١ ص ٣٠٦؛ والاستيعاب على هامش الإصابة، ج ٤ ص ٤٧٥ وج ١ ص ٣٢٨.

(٢) جليل: أي صغيرة. وهذا اللفظ من الأضداد.

(٣) خَدَم: جمع خَدَمَة، هي الخللخال، والسوق: جمع ساق.

(٤) تنقزان: تسرعان المشي، وقيل تهرولان.

(٥) المروط: جمع المروط وهو كساء من صوف أو حرير تلتفع به المرأة وتتستر.

(٦) تزفر: مثل تحمل وزناً ومعنى.

(٧) صحيح البخاري - كتاب المغازي - غزوة أحد، باب ذكر أم سليم.

وكان النساء يقمن بهذه الخدمات وهنَّ على حالة من الوقار والاحتشام، وعدم التبرج والمخالطة المريبة، فالإسلام لا يمنع المرأة من المشاركة في الحرب بما يليق بحالها، بل ومن الأخذ بالسلاح إذا لزم الأمر، كما فعلت السيدة نسيبة وغيرها. روى مسلم في صحيحه بسنده عن أنس أن أم سُلَيْم اتخذت خنجرًا يوم حُنين، فسألها النبي ﷺ عن ذلك فقالت: «اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت بطنه» وهكذا فلتكن النساء.

وروى مسلم أيضاً عن أنس قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يغزو بأُم سُلَيْم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء، ويداوين الجرحى»، وروى أيضاً عن أم عطية الأنصارية قالت: «غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى»^(١). فالإسلام يبيح للمرأة المشاركة في الجهاد، ولكن بشرط التدين والتصون والتعفف وعدم الابتذال والوقوع في المآثم، وإلا كان ضررها أكثر من نفعها، وإفسادها أكثر من إصلاحها.

المقاتلون حمية

على حين كانت الكثرة من المسلمين تقاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، كان في صفوفهم من يقاتل حمية عن قومهم ممن يظهرون الإسلام، ولا يرجون الله واليوم الآخر، ومن هؤلاء رجل يسمى: «قُزْمان». قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: كان فينا رجل أتي - غريب - لا يُدرى مَنْ هو يقال له «قُزْمان»، وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر له قال: «إنه من أهل النار»، وقال: فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً، فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس، فأثبتته الجراح، فاحتمل إلى دار بني ظَفَر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قُزْمان، فأبشر، قال: بماذا أبشر؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا هذا

(١) صحيح مسلم - كتاب الجهاد - باب غزو النساء مع الرجال.

ما قاتلت! فلما اشتدت به جراحه أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه. وهكذا صدق الله مقالة رسوله، وكانت خاتمة أمره خسرأً، ومآلاً إلى النار حيث قتل نفسه.

* * *

المشركات يمثلن بشهداء أحد

لما وقعت الهزيمة بسبب مخالفة الرماة أمر الرسول، وأصيب من أصيب من المسلمين انطلقت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي كن معها إلى قتلى المسلمين، يمثلن بهم بحقد وغيظ وشراسة، فصرن يجدن الأذان والأنوف، ويقرن البطون، حتى إن هنداً بقرت عن كبـد سيد الشهداء حمزة فلاكـتها - مضغتها - فلم تستطع أن تسيغها - تبتلعها - فلفظتها. وبالغن في التمثيل بالشهداء، ونسبن صنع الرسول والمسلمين في قتلاهم ببدر، حيث أمر بدفنهم، ولم يتركهم للسباع والطيـر، فضلاً أن يمثلوا بأحد منهم. فشتان ما بين الصنيعين!!

وصنعت هند من الأذان والأنوف خلاخيل وأقراطاً وقلائد، وأعطت وحشياً قلائدها وخلاخيلها وأقراطها مكافأة له على جريمته النكراء، بل بلغ الأمر بأبي سفيان بن حرب أن صار يضرب في شـدق سيد الشهداء حمزة بزج الرمح ويقول: دُقْ عُقُق - يعني يا عاق - فمرَّ عليه الحُـلَيس بن زبـان سيد الأحابيش يومئذ وهو يفعل ذلك فقال: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ماترون لحماً^(١) فقال: وبحك اكتمها علي فإنها كانت زلة.

حزن الرسول على عمه

وخرج رسول الله يتفقد القتلى، ويتلمس عمه حمزة، فوجده قد مُثِّل به، فبُـقِر بطنه، وأخرج كبده، وقطعت أنفه وأذناه، فقال: «لن أصاب بمثلك أبداً، وما وقفت قط موقفاً أغـيـظ علي من هذا» ثم قال: «ولئن أظهرني الله على قريش

(١) لحماً يعني ميتاً لا يقدر على الانتصار لنفسه.

في موطن من المواطن لأمثلن ثلاثين رجلاً منهم مكانك». وقال المسلمون لما رأوا
المثلة في قتلاهم، وحزن النبي البالغ على عمه حمزة: لئن أظفرن الله بهم يوماً
من الدهر لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب.

أمر الله بالعدل في القصاص
ولم يلبث الوحي أن نزل بالأمر بمراعاة العدل في القصاص، ومحبة في
الصبر والعفو، فقال عز شأنه:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِّلصَّابِرِينَ * وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ
مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾^(١).

فعفا رسول الله ﷺ، وصبر وكفر عن يمينه، ونهى عن المثلة. روى ابن
إسحاق بسنده عن سُمرة بن جندب قال: «ما قام رسول الله صلى الله عليه
وسلم في مقام قط ففارقه، حتى يأمرنا بالصدقة وينهانا عن المثلة».

ولا يشكلن عليك كون هذه الآيات من سورة النحل وهي مكية، لأن
بعض العلماء قال: إنها مكية إلا هذه الآيات من خواتم السورة فإنها مدنية. نعم
ذهب كثير من العلماء إلى أنها كلها مكية وعلى هذا فتكون هذه الآيات مما تكرر
نزولها على حسب المناسبات والدواعي، تذكيراً بما فيها من هذا الأدب الإسلامي
العالي، وهو رعاية العدل عند النصر والظفر، وعدم الاستجابة لهوى النفس،
أو الإسراف في الانتقام والتشفي، وهو أدب إسلامي لم تصل إليه المدنية في
القرن العشرين^(٢).

(١) سورة النحل: الآيات ١٢٦ - ١٢٨.

(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم للمؤلف، ص ١٥.

بعد الموقعة

وبعد الموقعة أشرف أبو سفيان بن حرب على المسلمين فقال: أفي القوم محمد؟ فقال لهم النبي لا تحيبوه، أفي القوم ابن أبي قُحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ والنبي يقول: لا تحيبوه، فقال أبو سفيان: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذي عددت لأحياء، وقد بقي لك مايسوؤك، فقال: يوم بيوم بدر والحرب سجال - يعني يوم لك ويوم عليك - فقال له عمر: لا سَواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فقال أبو سفيان: وإنكم ستجدون في القوم مثله لم آمر بها ولم تسؤني.

ثم أخذ يرتجز: أَعْلُ هُبْلٍ، أَعْلُ هُبْلٍ^(١)، فقال النبي: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أَعْلَى وَأَجَلٌ» فقال أبو سفيان لنا العُزَى، ولا عُزَى لكم، فقال النبي: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» ثم قال أبو سفيان: إن موعدكم بدر العام المقبل، فقال رسول الله لرجل من أصحابه: «قل: نعم هو بيننا وبينك موعد»^(٢).

نعرف وجهة المشركين

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على تعرف رغبة القوم حتى لا يميلوا إلى المدينة، فأرسل ابن عمه علياً وقال له: «اخرج في آثار القوم، وانظر ماذا يصنعون، وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون

(١) يعني أظهر دينك. أو اعل هبل أي ازدد علواً.

(٢) رواه ابن إسحاق وأحمد والبخاري ومسلم.

مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لئاجزنهم» فخرج علي، فوجدهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، وتوجهوا إلى مكة، وهذا يدل على أن المسلمين كانوا لا يزالون أقوياء وعلى استعداد للقتال، وأن الهزيمة لم توهم من قواهم المعنوية.

صلاة النبي بالمسلمين قاعداً

وصلى رسول الله بأصحابه الظهر قاعداً لكثرة ما نزل من دمه، وصلى وراءه المسلمون قعوداً.

دعاء وابتهاال

وتوجه النبي إلى الله الذي بيده كل شيء بالدعاء والثناء على ما نالهم من الجهد والبلاء، فقال لأصحابه: «استوتوا حتى أثني على ربي عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً ثم دعا بهذه الكلمات المؤمنة العذاب:

«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت.

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين.

اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق»^(١).

(١) رواه الإمام أحمد.

من استشهد في أحد

وقد استشهد في أحد من خيار المسلمين حوالي سبعين، منهم أربعة من المهاجرين وقيل ستة، والباقي من الأنصار. فمن المهاجرين:

١ - حمزة بن عبدالمطلب: سيد الشهداء وأسد الله وأسد رسوله، قتله وَحْشِي كَمَا أَسْلَفْنَا، وقد بقي وحشي بمكة حتى فتحت، ففر إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف أعيته المذاهب، فعزم على الفرار إلى الشام أو اليمن، ف قيل له: إن النبي لا يقتل أحداً من الناس دخل في دينه، فخرج حتى قدم على رسول الله بالمدينة، فإذا هو واقف على رأسه يشهد شهادة الحق، فقال له: «أوحشي أنت؟» قال: نعم، فحدثه بمقتل حمزة، فقال له: «ويحك غيَّب وجهك عني فلا أرينك»، ففعل، فكان يعتمد أن لا يلقي رسول الله كي لا يثير الكامن من الحزن، ولا الذكريات المؤلمة.

فلما حصلت حروب الردة وخرج المسلمون إلى مسيلمة، خرج معهم ومعه حربته التي قتل بها سيد الشهداء كي يكفّر عن فعلته بقتل مسيلمة، فأمكنه الله منه، وشاركه عبدالله بن زيد بن عاصم في قتله^(١)، فلذا كان يقول: قتلت خير الناس بعد رسول الله وقتلت شر الناس. وكانت وفاته بحمص.

ولما قتل حمزة ومُثِّلَ به جاءت أخته صفية بنت عبدالمطلب لتراه، وكان أخاً شقيقاً لها؛ فقال رسول الله - رحمة بها وشفقة عليها - لابنها الزبير بن العوام:

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي، غزوة أحد - باب قتل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، والإصابة والاستيعاب، ترجمة حمزة.

«الْقَهَا فَأَرْجِعْهَا لَا تَرَى مَا بِأَخِيهَا»، فَقَالَ لَهَا ابْنُهَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَأْمُرُكَ أَنْ تَرْجِعِي؛ فَقَالَتْ: وَلَمْ؟ وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ مُثَلِّ بِأَخِي، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ، فَمَا أَرْضَانَا مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ!! لَأَحْتَسِبَنَّ وَأَلْصِقَنَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمَّا أَخْبَرَ الزَّيْبِرَ رَسُولَ اللَّهِ بِمَقَالَتِهَا قَالَ: «خَلِّ سَبِيلَهَا» فَأَتَتْهُ، فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ، وَصَلَّتْ عَلَيْهِ^(١) وَاسْتَرْجَعَتْ وَاسْتَغْفَرَتْ.

٢ - مصعب بن عمير: وكان حامل اللواء يومئذ، قتله ابن قمئة لما اعترضه مفدياً رسول الله بنفسه. ولما قفل رسول الله إلى المدينة لقيته حمته بنت جحش زوجة مصعب رضي الله عنه، فَنَعِيَ إِلَيْهَا أَخُوَهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ، فَاسْتَرْجَعَتْ وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ، ثُمَّ نَعِيَ إِلَيْهَا خَالَهَا حَمْزَةَ فَاسْتَرْجَعَتْ وَاسْتَغْفَرَتْ، ثُمَّ نَعِيَ إِلَيْهَا زَوْجَهَا مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، فَصَاحَتْ وَوَلَوْلَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنْ زَوْجُ الْمَرْأَةِ مِنْهَا لَبِمَكَانٍ».

٣ - عبد الله بن جحش ابن السيدة أميمة بنت عبد المطلب، وكان قد مُثِّلَ بِهِ حَتَّى سَمِيَ: الْمَجْدُوعُ فِي اللَّهِ، وَذَكَرَ الزَّيْبِرُ بْنُ بَكَارٍ أَنَّ سَيْفَهُ انْكَسَرَ يَوْمَ أَحَدٍ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ عَرَجُونًا فَصَارَ فِي يَدِهِ سَيْفًا فَقَاتَلَ بِهِ، ثُمَّ بَاعَ فِي تَرْكَةِ بَعْضِ وَلَدِهِ بِمِائَتِي دِينَارٍ.

وَاسْتَشْهَدَ مِنَ الْأَنْصَارِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ:

٤ - أنس بن النضر عم أنس بن مالك، وَقَدْ قَدَّمْنَا طَرَفًا مِنْ خَبَرِهِ.

٥ - سعد بن الربيع: وَلَمَّا افْتَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لِي سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ، فِي الْأَحْيَاءِ هَوَامٌ فِي الْأَمْوَاتِ؟» فَذَهَبَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَوَجَدَهُ جَرِيحًا فِي الْقَتْلِ وَبِهِ رَمَقٌ، فَأَخْبَرَهُ بِمَقَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ: أَنَا فِي الْأَمْوَاتِ، فَأَبْلَغَ رَسُولُ اللَّهِ سَلَامِي، وَقَالَ لَهُ: إِنْ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ يَقُولُ: جَزَاكَ اللَّهُ عَنَّا خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَأَبْلَغَ قَوْمَكَ عَنِّي السَّلَامَ وَقُلْ لَهُمْ: إِنْ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ

(١) صَلَّتْ عَلَيْهِ: أَي دَعَتْ لَهُ.

يقول لكم: لا عذر لكم إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف. ثم لم يلبث أن مات، فجاء الرجل وأخبر النبي بخبره.

٦ - عبدالله بن عمرو بن حرام والد جابر: وفي الصحيحين عن جابر أنه لما قتل أبوه صار يكشف عن وجهه الثوب ويبكي، وصارت عمته تبكي أيضاً، فقال رسول الله: «تبكيه أولاً تبكيه، لم تزل الملائكة تظله حتى رفعتموه» وروى البيهقي عن جابر قال: نظر إلي رسول الله ﷺ فقال: «ما لي أراك مهتأ؟» فقال: قتل أبي وترك ديناً وعيالاً فقال له: «ألا أخبرك؟ ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً - يعني مواجهة - وقال له: يا عبدي سلني أعطك. قال: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال الحق تبارك وتعالى: إنه سبق مني القول أنهم إليها - أي الدنيا - لا يرجعون، قال: ربي فأبلغ من ورائي، فأنزل الله سبحانه:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

وكان والد جابر قد خلفه على أخواته البنات السبع، وقال له: ما كنت لأؤثرك على نفسي في الخروج مع رسول الله، حتى كتب الله له الشهادة.

٧ - عمرو بن الجموح: وكان رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون المشاهد مع رسول الله، فلما كان يوم أحد أرادوا منعه من الخروج وقالوا: إن الله قد عذرك، فأقن النبي وقال: إن بني يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة، فقال رسول الله: «أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك» وقال لبنيه: «ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة» فخرج فرزقها.

٨ - حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة، كان أبوه من أشد الناس عداوة للرسول، وكان هو من خيار المسلمين، وقد التقى هو وأبوسفيان بن حرب، فلما علاه حنظلة رآه شداد بن الأسود - وكان يسمى: ابن شعوب - فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم تغسله الملائكة، فاسألوا أهله

ما شأنه؟» فسألوا صاحبته - زوجته - وهي جميلة بنت عبدالله بن أبي ابن سلول وكانت عروساً عليه تلك الليلة، فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة - الصيحة للجهاد - فقال رسول الله: «لذلك غسلته الملائكة».

وقد التقى به بعد استشهاده الوالد الفاسق القاسي فضربه برجله وقال: لقد نهيته عن مصرعك هذا، ولقد كنت - والله - وصولاً للرحم، براً بالوالد. ولا أدري لولم يكن براً به فماذا كان سيلقى منه؟! وبحسب حنظلة فضلاً أن لا يزال ذكره مسكاً يتضوع على مدى الأجيال.

٩ - عبدالله بن جبير أمير الرماة، وقد ذُكر من كان معه بوصية رسول الله وأبى أن يبرح هو ومن وافقه حتى قتلوا شهداء.

قتلى المشركين:

أما عدد من قتل من المشركين فكانوا عشرين.

دفن شهداء أحد

وأمر رسول الله أن يدفن شهداء أحد حيث ماتوا، وقد كان بعض أهالي الشهداء نقلوهم إلى المدينة المنورة ليدفنوا فيها، ولكن نادى منادي رسول الله: أن ردُّوا القتلى إلى مضاجعهم، فأعادوهم^(١).

وكان رسول الله يجمع بين الرجلين والثلاثة في القبر الواحد، بل وفي الكفن الواحد، وكان يسأل: «أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟» فإذا أشير إليه قدَّمه في اللحد، وقال: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة» وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم، ولم يغسلوا^(٢) وإنما أرخص لهم في الدفن في القبر الواحد لما كان بهم من الجراح والجهد الذي يشق عليهم معه أن يحفروا لكل واحد قبراً، وقد دفن حمزة مع ابن أخته عبدالله بن جحش في قبر، ودفن عمرو بن الجموح مع صاحبه وصهره عبدالله بن حَرَام في قبر، ومصعب بن عمير وسعد بن الربيع في قبر، وهكذا.

وهذا الذي ذكرناه من أن شهداء أحد دفنوا بشياهم ودمائهم ولم يغسلوا ولم يصلِّ عليهم هو الذي ثبتت به الروايات الصحيحة في الصحيحين وغيرهما، وذلك لتكون دماؤهم وجراحاتهم شاهدة لهم يوم القيامة بفضلهم ومنزلتهم.

وفي الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يُكَلِّم - يجرح - أحد في سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم في سبيله - إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلم، اللون لون الدم، والريح ريح المسك».

(١) البداية والنهاية، ج ٤ ص ٤٥.

(٢) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب من قتل من المسلمين يوم أحد.

ولذلك ذهب الجمهور من الفقهاء إلى عدم الصلاة على الشهداء الذين قتلوا في جهاد الكفار، وعدم تغسيلهم.

وأما ما رواه ابن إسحاق وغيره من أن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه صلى على حمزة سبعين صلاة بتعدادهم، فقد قال الحافظ ابن كثير: إنه ضعيف^(١). نعم ثبت في صحيح البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم صلى عليهم بعد ذلك بيض سنين كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: «إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها».

قال الراوي: وكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هنا ذهب بعض الفقهاء إلى مشروعية الصلاة على الشهيد: شهيد المعركة. وأما الجمهور فحملوا هذا على الدعاء أو أن ذلك خصوصية للنبي صلى الله عليه وسلم^(٢).

منزلة شهداء أحد:

ولما لشهداء أحد من منزلة وتضحية في سبيل الله كان النبي صلى الله عليه وسلم يزورهم ويسلم عليهم، ويقول: «سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار». وكان أبو بكر يفعله، وكان عمر يفعل ذلك، وكان عثمان يفعله، وحكى الواقدي زيارتهم عن السيدة فاطمة، وسعد، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وأم سلمة رضي الله عنهم أجمعين.

وبحسبهم فضلاً أن الله أنزل فيهم وفي أمثالهم قوله سبحانه:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

وقد قدمنا في فضل الاستشهاد في الإسلام من روى ذلك من الأئمة، وبينا المراد بهذه الحياة، فكن على ذكر من ذلك^(٣).

(١) البداية والنهاية، ج ٤ ص ٤٠ - ٤١.

(٢) فتح الباري، ج ٣ ص ١٦٣، ١٦٤.

(٣) ص ٨٤ - ٨٧ من هذا الكتاب.

وقد بقي الشهداء بمكانهم حتى كان عهد معاوية وإجرائه العين من أحد، فانفجرت العين عليهم فنقلوا من أماكنهم. وفي رواية ابن إسحاق عن جابر قال: فأخرجناهم كأنما دفنوا بالأمس، وهذا إكرام من الله للشهداء.

كما حُرِّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، روى الإمام مالك في الموطأ: «أن عمرو بن الجموح وعبدالله بن حرام الأنصارين كان قد حفر السيل قبرهما، وكان قبرهما مما يلي السيل، وكانا في قبر واحد^(١)، وهما ممن استشهد يوم أحد، فحفر عنها ليغيرا من مكانها، فوجدا لم يغيرا كأنما ماتا بالأمس. وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه، فدفن وهو كذلك، فأميطت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت. وكان بين أحد ويوم حُفر عنها ست وأربعون سنة»^(٢).

من أصيب بالجراح يوم أحد

وأصيب كثيرون بجراح ولا سيما الذين كانوا يحيطون برسول الله، منهم أبو دجانة، وأبو طلحة، وطلحة بن عبيدالله، وأبوسلمة بن عبد الأسد، وعبدالرحمن بن عوف، فقد جرح عشرون جراحة أو أكثر، وكسرت ثنيته فهتَم. وأصيبت يومئذ السيدة نسيبة بنت كعب بجرح غائر في عاتقها.

معجزة نبوية

وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى سقطت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدهما. وقد روى هذه القصة ابن إسحاق، والدارقطني، والبيهقي في الدلائل وذكروا أنها كانت في أحد. وروى البعض أن ذلك كان في بدر، والصحيح الأول، ولما وفد حفيده عاصم بن عمر بن قتادة على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله وهو والي المدينة قال له: من أنت؟ فقال له مرتجلاً:

(١) لأنها كانا متصاحبين ومتصاهرين في الدنيا.

(٢) الموطأ كتاب الجهاد - باب الدفن في قبر واحد للضرورة، «البدية والنهاية»، ج ٤

أنا ابن الذي سألت على الخد عينه
فرُدَّت بكف المصطفى أحسن الردِّ
فعادت كما كانت لأول أمرها
فيا حُسنها عيناً، ويا حُسن ما خد
فأجابه عمر متمثلاً:
تلك المكارم لا قعبان من لبن
شيء بماء فعادا بَعْدُ أبوالا
وصدق خامس الراشدين، فتلك هي المفاخر الباقية حقاً، فلا عجب إذا
كان وصله وأحسن جائزته^(١).

* * *

(١) البداية والنهاية، ج ٤ ص ٣٤.

سبب الهزيمة في أحد

١ - مخالفة معظم الرماة أمر رسول الله ووصيته لهم أن لا ييرحوا أماكنهم سواء انتصروا أم انهزموا. وقد كان النصر للمسلمين في الجولة الأولى فلما تخلفوا عن أماكنهم كانت الهزيمة.

٢ - إيثار بعضهم الغنيمة على الجهاد، وعرض الدنيا على ثواب الآخرة، فلولا أن الرماة سارعوا إلى الغنائم يحوزونها، ولولا أن البعض شغلوا بالغنيمة عن الإثخان في المشركين لما حدث ما حدث، وقد سجل الله ذلك في كتابه فقال:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرِيكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۚ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ (١).

وهذه معاني كلمات هذه الآية:

(وعده) يعني بالنصر. (تحسونهم) تقتلونهم. (ما تحبون) أي النصر. (ليبتليكم): أي يعاملكم معاملة المختبر، ليظهر صادق الإيمان من غيره.

عبرة وعظة

وقد كانت أحد درساً قاسياً تعلّم منه المسلمون أن مخالفة الرسول لا تجر إلا إلى الخيبة والهزيمة، فمن ثم لم يقعوا في هذا الخطأ بعد، ولم تقع مثل هذه

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

الهزيمة، كما تعلموا منه أن ما عند الله خير وأبقى، وأن الغنائم ما هي إلا عرض زائل لا ينبغي أن تكون غرضاً لمجاهد في سبيل الله، كما كان اختباراً تميّز به المؤمنون الصادقون من ضعفاء الإيمان والمنافقين.

وقد دلّ ما حدث في أحد على أن الرسل وأتباعهم قد تنالهم الهزيمة في بعض المواقف لخطأ أولغير ذلك، ولكن العاقبة بالنصر لا بد أن تكون لهم، وهذه هي سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وصدق الله:

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١).

وقد سجل الله سبحانه ذلك في كتابه فقال:

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

وهذا توضيح لمعاني كلمات هذه الآية:

﴿قَرْحٌ﴾: جراح في أحد، فقد نزل بهم مثله في بدر ﴿نُداوِلُهَا﴾: يوم لك ويوم عليك، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ...﴾: أي يظهر لعباده المؤمنين المخلصين من المنافقين، وليكرم من أكرم من أهل الإيمان بالشهادة، ﴿وَلِيُمَحِّصَ...﴾: أي يطهرهم بالبلاء الذي نزل بهم مما عسى أن يكونوا اقترفوه حتى يصيروا كالذهب نقاء وصفاء، ويهلك الكافرين والمنافقين ويكشف عن دخيلة نفوسهم.

ما نزل من القرآن في أحد

وقد أنزل الله سبحانه في أحد وما يتصل بها حوالي أربعين آية من سورة آل عمران، وقد ذكرنا بعضها أثناء الدراسة التحليلية للغزوة، وها هي بعض الآيات الأخرى منزلاً لها على مواقعها، وموجزاً مقاصدها ومواضع العبرة فيها.

(١) سورة المجادلة: الآية ٢١.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١٤٠، ١٤١.

قال تعالى في بيان سنة الله في الأمم، وأن النصر للرسول وأتباعهم،
والهلاك للمكذبين أعدائهم:

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكْذِبِينَ﴾. إلى قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

﴿ولا تهنوا﴾: أي لا تضعفوا عن الجهاد بسبب ما جرى لكم.
﴿ولا تحزنوا﴾: على ما أصابكم من قتل وجراح. ﴿وأنتم الأعلون﴾: جمع الأعلى
أي الأعلون شأنًا، لأن قتالكم لله، وفي سبيل إعلاء كلمته، وقاتلهم للشيطان،
وإعلاء كلمة الكفر. وأيضاً فقتلكم في الجنة وقتلهم في النار، ثم إنكم أصبتم
منهم في بدر أكثر مما أصابوا منكم. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أن العاقبة والنصر
للمؤمنين، أو إن كنتم من أهل الإيمان الصادق، ففيه تهيج وإلهاب لحماسهم،
لأن الإيمان الصادق لا يهن صاحبه ولا يحزن لما أصابه، ويستعين بكل شدائد
الحياة في سبيل العقيدة الحقة والغاية الشريفة، أما قوله تعالى: ﴿إن يمسسكم
قرح...﴾ الآية، فقد سبق شرحها آنفاً.

ثم بين سبحانه أن الجنة حفت بالمكاره فلا محيص لمن يطلبها من الجهاد
والصبر والكفاح، والقتل والجراح.. فقال سبحانه:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ
الصَّابِرِينَ﴾. إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تُنظَرُونَ﴾^(٢).

ومعنى يعلم: يظهر، أو المراد تعلق علم الله بالشيء واقعاً وحادثاً.

﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾: تحضروا موطنه.

﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾: عاينتم أسبابه، وأبصرتم موارده.

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٣٧ - ١٣٩.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١٤٢، ١٤٣.

ثم عاتب الذين انهزموا وفروا أو قعدوا عن القتال لما أشيع أن النبي قتل مع أنه كسلفه من الأنبياء الذين مضوا، وسيموت كما ماتوا، ولكل أجل كتاب، فقال عز شأنه:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (١).

﴿انقلبتم﴾: انهزمتم وتحاذلتم، وفعلتم فعل المرتدين وإن كان لا ردة، ومن فر أو تحاذل فلا يضر إلا نفسه، ومن ثبت وقاتل وصابر فسيجزيه خير الجزاء. ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾: بقضائه وقدره. ﴿كتاباً مؤجلاً﴾: أي كتب ذلك كتاباً مؤقتاً لا تقدّم عنده ولا تأخر. ﴿ثواب الدنيا﴾: من يرد بعمله الدنيا أعطي من الدنيا. ﴿ثواب الآخرة﴾: ومن قصد وجه الله ورضاه أجزل له الثواب.

ثم عرض لأتباع الأنبياء في الأمم السابقة، وأنهم ما ضعفوا لما نالهم من قتل أو هزيمة، إلهاباً لحماسهم، وإثارة لنفوسهم فقال عز شأنه:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾. إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢).

﴿وكاين من نبي...﴾: أي وكثير، وقرئ «قتل» و«قاتل». ﴿ربيون﴾ الجماعات الكثيرة. ﴿فما وهنوا﴾: تحاذلوا لما نزل بهم من هزيمة أو قتل أو جراح. ﴿وما ضعفوا﴾: عن طلب عدوهم. ﴿وما استكانوا﴾: لما أصابهم في الجهاد دفاعاً عن دينهم، وهذا ظاهر على قراءة قاتل، وعلى الأخرى يكون المراد بقوله: ﴿فما وهنوا...﴾: الباقون بعدهم. ﴿ثواب

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٤٤، ١٤٥.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ١٤٦ - ١٤٨..

الدنيا: النصر والظفر. وحسن ثواب الآخرة: الجنة ونعيمها. والله يحب المحسنين: الإحسان الإتقان ومراقبة الله في الاعتقاد والقول والعمل، أي يشيهم.

ثم عاتبهم على فرارهم عن نبيهم وهو يدعوهم إليه فقال:

﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُوتُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتْبَاكُمْ غَمًّا بَغْمٍ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرُ رِيمَاتِ عَمَلُونَ﴾^(١).

﴿تصعدون﴾: من أصد وهو الذهاب والإسراع في الأرض هرباً، وأما صعد فمعناه ارتقى في جبل أو نحوه. ﴿ولا تلون﴾: ولا تعطفون وترجعون. ﴿في أخراكم﴾: في آخركم ومن ورائكم حينما قال: «إني عباد الله». ﴿فأتاكم غمًا بغم﴾: أي غمًا بسبب غم، وهو ما نزل بهم من الهزيمة والقتل بسبب ما أدخلتموه على نفس الرسول بمخالفتكم أمره أيها الرماة، أو غمًا بعد غم، وهو ما نزل بهم من الهزيمة وما حصل لهم لما أشيع أن النبي قتل. ﴿على ما فاتكم﴾: من النصر والغنيمة. ﴿ولا ما أصابكم﴾: من القتل والجراح.

ثم وبخ الله المنافقين وضعفاء الإيمان الذين لم تهمهم إلا أنفسهم، وظنوا بالله ورسوله الظنون السيئة، والذين زعموا أنهم لو لم يخرجوا لما قتل من قتل، فقال:

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخَفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

﴿وليبلى الله ما في صدوركم...﴾: أي أصابكم الله بما أصابكم ليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس، أما هو سبحانه فعليم بما في القلوب.

﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾: أي إن الله خاذل دينه ونبيه. ﴿قل لو كنتم...﴾: فالخروج في الجهاد لا يقصر أجلاً، والجبن والتخلف في البيوت لا يطيل عمراً، وما قدره الله لا بد أن يكون، والله لا تخفى عليه خافية، ويعلم ما تكنه صدوركم.

ثم حذر سبحانه المؤمنين أن يكونوا كالمنافقين الذين يفتحون عمل الشيطان في نفوسهم بقولهم: لو لو... ولن تجر عليهم هذه التمنيات الباطلة إلا الحسرة، والله سبحانه وتعالى هو الذي بيده الحياة والموت، فقال:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

﴿لإخوانهم﴾: أي لأجل إخوانهم في النفاق أو في النسب. ﴿ضربوا في الأرض﴾: سافروا فيها لتجارة أو غيرها فماتوا. ﴿غُرًى﴾: جمع غاز أي غزاة فقتلوا. ﴿حسرة في قلوبهم﴾: أي ندامة في الدنيا أن فاتهم ما أحبوا، وفي الآخرة حينما يحرمون من النعيم وتتكشف لهم الحقائق، والله قادر أن يرجع من خرج مجاهداً غانماً سالماً، وأن يميت من أقام في أهله، ونكص عن القتال.

ثم بين سبحانه أن الموت أو القتل في سبيل الله هو أسمى الغايات وأشرفها، وأن ما أعدّه للمجاهدين ولا سيما الشهداء من النعيم الدائم المقيم خير من الدنيا وما فيها فقال:

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٦.

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ
 * وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَ اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾^(١).

فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم قال سبحانه معزياً للمسلمين ومسلماً، ومبيناً أن ما أصابهم في أحد قد
 أصابوا مثليه في بدر، وأن ما أصابهم إنما هو بسبب مخالفتهم:

﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ
 أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

﴿أنى هذا؟﴾ أي من أين حصل لنا هذا. ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾: أي بسبب مخالفتكم أمر الرسول ورغبتكم في الغنائم.

ثم ختم الحق سبحانه قصة أحد بين منزلة الشهداء عند ربهم فقال
 سبحانه:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *
 فَرِحِينَ بِمَاءِ اتِّلَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا
 خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا
 يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

والخوف: ألم يحصل في النفس من توقع حصول مكروه فيما يستقبل.
 والحزن: ألم يحصل في النفس من خوف فوات محبوب فيما مضى، وأهل الجنة
 لا يخافون فيها شيئاً لأنها دار أمن وسلام، فلا مكروه فيها، ولا يحزنون لأنهم
 سيجدون كل ما عملوه من خير محضراً، أو أن ما أعدّه الله لهم من النعيم يفوق

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٥٧، ١٥٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٥.

(٣) سورة آل عمران: الآيات ١٦٩ - ١٧١.

أضعافاً مضاعفة ما كانوا يحبون ويرجون، وصدق الرسول الكريم حيث يروي عن رب العالمين: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بله ما اطلعتم عليه، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقد قدّمت ما يتعلق بحياة الشهداء، نسأل الله الكريم أن يرزقنا هذا النعيم المقيم تفضلاً وكرماً.

آثار غزوة أحد

رجع النبي إلى المدينة وقد دفن بأحد سبعين شهيداً، وبأصحابه العائدين جراح؛ فأظهر المنافقون واليهود بالمدينة فرحهم، وفارت المدينة بالنفاق والتشفي، ولم يقف أمرهم عند حد السرور والانشرح النفسي، بل ظهرت سخائم نفوسهم في كلمات على ألسنتهم، فقالت اليهود: لو كان نبياً ما ظهروا عليه ولا أصيب منه؛ ولكنه طالب ملك تكون له الدولة وعليه! ونسوا ما حل بأنبياء بني إسرائيل من تقتيل وتشريد، بل نسوا فرار موسى وأتباعه من فرعون وقومه، ولولا أن أنجاهم الله لكانوا من المهلكين. وقال المنافقون لو كنتم أطعتمونا ولم تخرجوا لما أصابكم ما أصابكم.

وتجاوز أثر أحد المدينة إلى من حولها من الأعراب والقبائل الموالية لأهل الشرك، فكان لا بد من استرجاع هبة المسلمين؛ وإيذان الناس جميعاً أن المسلمين على الرغم مما نالهم لا يزالون أقوياء وقادرين على منازلة الأعداء، فكان الخروج إلى غزوة حراء الأسد.

غزوة حمراء الأسد

كانت غزوة أحد في يوم السبت الخامس عشر من شوال، وفي يوم الأحد أذن مؤذن رسول الله في الناس بطلب قريش وقال: «لا يخرجن معنا إلا من حضر معنا القتال» فخرج الذين حضروا غزوة أحد من المسلمين، واستأذن جابر بن عبد الله رسول الله في الخروج، لأن تخلفه عن أحد كان لعذر كما أسلفنا، فأذن له، وقال ابن أبي رأس المنافقين: أنا راكب معك، فأبى عليه الرسول ذلك.

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وحمل اللواء علي بن أبي طالب، وساروا حتى وصلوا (حمراء الأسد)^(١) يوم الاثنين. ومر برسول الله معبد بن أبي معبد الخزاعي - وهو يومئذ مشرك، وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة^(٢) نصح رسول الله - فقال: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك؛ ولوددنا أن الله عافاك فيهم.

وكان المشركون لما غادروا المدينة وبلغوا الروحاء قد أخذوا يتلاومون أن لم يستأصلوا المسلمين، فمر معبد بأبي سفيان وأصحابه وقد هموا أن يرجعوا إلى الرسول وأصحابه، فقال له: ما وراءك يا معبد؟ قال: قد خرج محمد في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله، يتحرقون عليكم تحرقاً، واجتمع إليهم من كان تخلف عنهم، ونصحه بعدم العودة.

فخاف أبو سفيان إذا ما عادوا أن تكون الكثرة عليهم فأسرع إلى مكة،

(١) موضع على ثمانية أميال من المدينة.

(٢) عيبة نصحه: يعني موضع سره وأهل مودته.

ولكنه لجأ إلى حيلة، فقد مرَّ به ركب بني عبد القيس يقصدون المدينة، فعرض عليهم أن يبلغوا النبي وأصحابه أن قريشاً قد أجمعت السير إليهم، ووعدهم أن يوقر لهم إبلهم زيبياً إذا وافوا عكاظ في الموسم، فمرَّ الركب برسول الله وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بما قال أبو سفيان، فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وأقام المسلمون بحمراء الأسد ثلاثة أيام، وفي يوم الأربعاء عادوا إلى المدينة وقد استردوا الكثير من هيتهم؛ بعد أن كادت تتزعزع بسبب أحد. وقد ذكر الله هذا الموقف المشرف في قوله سبحانه:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

مخزاة لابن أبي

كان عبد الله بن أبي ابن سلول له مقام بقومه كل جمعة لا ينكر لشرفه في قومه، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة ليخطب الناس قام فقال: «أيها الناس: هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا» ثم يجلس، حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع، ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت!!.

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٧٢ - ١٧٤. والمراد بالناس أولاً: وفد عبد القيس، والمراد بالثاني: أبو سفيان وأصحابه. ﴿حسبنا﴾: كافينا. ﴿الوكيل﴾: متولي أمورنا وناصرنا. ﴿فانقلبوا بنعمة من الله﴾: عافية وقوة. ﴿وفضل﴾: أجر عظيم. وقيل هي تجارة أصابوها فربحوا فيها. ﴿لم يمسسهم سوء﴾: أذى من أعدائه. ﴿واتبعوا رضوان الله﴾: بطاعتهم لرسول الله على ما بهم من جراح وآلام.

فخرج وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجراً - أمراً عظيماً - أن قمت أشدُّ
أمره. فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال: مالك وتلك، فأخبره فقال
له: ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

حوادث هذا العام

تزوج عثمان بأم كلثوم

في هذه السنة تزوج سيدنا عثمان بن عفان السيدة أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة أختها رقية عام بدر، وقد عقد عليها في ربيع الأول ودخل بها في جمادى الآخرة، ولما خطبها من النبي قال له: «لو كان لي يا عثمان عشرة لزوجتك واحدة بعد الأخرى» ويقال لم يتزوج أحد بابنتي نبي واحدة بعد الأخرى غيره، ولهذا كان يقال له: ذو النورين.

تزوج النبي بحفصة

وفيهما تزوج النبي ﷺ بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبل النبي زوجاً لخنيس - مُصَغَّرًا - بن حذافة السهمي، وكان بدرياً توفي بعد بدر، وقيل بعد أحد، والأول هو الصحيح. وقد روى البخاري في صحيحه أن عمر رضي الله عنه عرضها على عثمان بعد وفاة زوجته رقية، فقال: لا حاجة لي في الزواج. ثم عرضها على أبي بكر فسكت، ولم يرجع له بقول، حتى وجد عمر في نفسه. ثم خطبها النبي فأنكحها إياه. وقد بين له الصديق بعد خطبة النبي لحفصة أنه ما منعه من الجواب إلا أنه كان يعلم أن رسول الله ذكرها، وأنه كره أن يفشي سر رسول الله^(١).

وقد وثق النبي بهذا الزواج علاقته بصاحبه ووزيره الثاني، عمر، كما وثق من قبل علاقته بصاحبه ووزيره الأول أبي بكر بزواج عائشة، وأيضاً فقد كرم

(١) صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب عرض الرجل ابنته أو أخته على أهل الخير.

النبي بزواجه منها أباهما، كما كرم بذلك زوجها بعد مماته - وكان من أهل بدر - برعاية أرملة وضمها إليه، وأزال عنها تأميتها.

مولد الحسن

وفيها ولد للسيدة فاطمة بنت رسول الله ابنها الحسن بن علي، وفيها حملت بالحسين رضي الله عنهما، وكان مولد الحسن في رمضان عند الأكثر، وقيل بعد ذلك.

السَّنة الرَّابِعَةُ مِنَ الْهَجْرَةِ

عاد النبي ﷺ من غزوة حمراء الأسد وقد استرد بعض هبة المسلمين في المدينة وما حولها، إلا أن بعض القبائل الضاربة حولها سَوَّلَتْ لها أنفُسها النيل من المسلمين لَمَّا أصابهم في أحد، ولتحريض قريش إياهم على محاربتهم، وكان للرسول عيون وجواسيس يأتون إليه بأخبار تلك الحركات العدائية قبل وقوعها، فيسارع إلى وأدائها في مهدها قبل استفحالتها، فمن ذلك:

سرية أبي سَلَمَةَ بن عبد الأسد

ففي المحرم من هذه السنة بلغه عليه الصلاة والسلام أن طليحة وسَلَمَةَ ابني خويلد الأسديين قد جمعا الجموع لحرب النبي، فأرسل أبا سلمة على رأس سرية تعدادها خمسون ومائة، فساروا حتى وصلوا إلى أرضهم، فلما سمعوا بهم هربوا وتفرقوا، وتركوا نَعْمًا كثيرة لهم من الإبل والغنم، فأخذوها غنيمَةً، فحُصِّمَتْ، فأبَقُوا الخمس للنبي يصرفه كما أراه الله، وقسموا بينهم الباقي، وعادوا إلى المدينة ظافرين غانمين، وقد أعادوا إلى النفوس من هبة المسلمين شيئاً مما ضيعت أحد.

ثم لم يلبث السيد الجليل أبو سلمة أن توفي، فقد كان أصيب في أحد بجرح ثم التأم، فلما خرج في هذه السرية نغراً^(١) عليه الجرح ومات بسبب ذلك.

(١) نغرا الجرح: سال منه الدم.

سرية عبدالله بن أنيس

وفي نفس الشهر بلغه عليه الصلاة والسلام أن سفيان بن خالد بن نُبَيْح الهذلي المقيم بعُرْنة^(١) يجمع الجموع لحربه، فأرسل عبدالله بن أنيس لقتله، فاستأذن عبدالله رسول الله أن يقول حتى يتمكن منه، فأذن له.

فخرج فلما وصل إلى ديار القوم قال له سفيان ممن الرجل؟ قال من خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك. قال: أجل إني لفي الجمع له، فمشى عبدالله معه وصار يحدثه، وسفيان يستحلي حديثه، حتى إذا أمكنته الفرصة منه قتله، ثم عاد إلى المدينة وقد كفى الله المؤمنين القتال، وهدأت بنو لحيان من هذيل بعد موت زعيمهم لتجد فرصة فتثار فيها من المسلمين.

(١) عُرْنة: بضم العين وفتح الراء والنون: موضع قريب من عرفات كما في القاموس.

سرية الرجيع^(١)

في صفر من هذه السنة قدم على رسول الله ﷺ رَهْطٌ من عَضَلٍ والقارة^(٢)، فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئونا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله معهم نفراً ستة في رواية ابن إسحاق، وقيل عشرة في رواية البخاري، وهو الأصح، ليؤدوا هذه المهمة السامية، وليكونوا عيوناً على قريش والمشركين، وأمر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح^(٣).

فساروا حتى إذا كانوا بالرجيع غدروا بهم، واستصرخوا عليهم بني لحيان من هذيل - هم قوم سفيان بن خالد الهذلي الذي قتله عبدالله بن أنيس - فنفروا إليهم في مائتي رجل، فلم يرع المسلمون وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوه، فلجأ رجال السرية إلى ربوة عالية، واستعصموا بها، وأخذوا أسياфهم ليقاتلوهم، فلجأ المشركون إلى الخديعة وقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلکم، ولكننا نريد أن نصيب بكم من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأما عاصم وآخرون فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً، وأبوا التسليم، وقاتلوا حتى استشهدوا، واغتر بعهدهم خبيب بن عدي،

(١) الرجيع: اسم موضع من بلاد هذيل بين مكة وعسفان على ثمانية أميال من عسفان.

(٢) عضل: بفتح المهملة والمعجمة بطن من بني الهون - بفتح الهاء وقيل بضميتين - ابن خزيمه ابن مدركة بن إلياس. والقارة: بالقاف وتخفيف الراء بطن من بني الهون أيضاً.

(٣) وفي رواية ابن إسحاق أن أميرهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي.

وزيد بن الدُّثَنَّة، وعبدالله بن طارق، فنزلوا إليهم فلما استمسكوا بهم حلُّوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال عبدالله: هذا أول الغدر حتى إذا كانوا بالظهران في طريقهم إلى مكة انتزع عبدالله يده منهم، ثم استأخر عنهم وأخذ بسيفه ليقاتلهم، فرجموه بالحجارة حتى مات شهيداً، وأما خبيب^(١) وزيد فباعوهما لأناس من أهل مكة بأسيرين من هذيل، فاشتري خبيباً بنو الحارث بن عامر ليقتلوه بأبيهم الذي قتله يوم بدر، واشتري زيداً صفوان بن أمية ليقتله بأبيه، فحبسوهما حتى انتهت الأشهر الحرم فأخرجوهما إلى التنعيم فقتلوهما.

وكان من أمر خبيب أنه وهو محبوس في دار لبني الحارث قد استعار من جارية لهم «موسى»^(٢) ليستحذ بها لما دنا قتله، فأعارته إياه، وغفلت عن غلام لسانتها دَرَج حتى أتى خبيباً فوضعه على فخذه، فلما رأت هذا المنظر فرعت فرعة شديدة وقالت في نفسها: أصاب - والله - الرجل ثأره بقتل هذا الغلام، فأدرك خبيب ما حدثت به نفسها فقال لها: اتَّخَشِينَ أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله!!

وكانت الجارية تحدّث بعد أن أسلمت فتقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، ولقد رأيته يأكل من قُطْف من عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقاً رزقه الله!!

ولما خرجوا به إلى الحِلِّ ليقتلوه قال: دعوني أصل ركعتين. فكان أول من سن الركعتين عند القتل، ثم انصرف إليهم وقال: لولا أن تروا أن ما بي^(٣) جزع من الموت لزدت، ولما رفعوه على الخشبة وأوثقوه ليقتلوه صبراً قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يُفعل بنا، اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً^(٤)، ولا تبقِ منهم أحداً.

(١) بضم الخاء وفتح الباء وسكون الياء مُصَفَّراً.

(٢) موسى: هو الآلة الحادة المعروفة، استعارها ليحلق بها شعر عاتته.

(٣) ما: موصولة.

(٤) بدداً: متفرقين.

ثم أنشد يقول:
ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شِلُو ممزَع^(١)

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، ومات رضي الله عنه شهيد إيمانه وإخلاصه.

وأما زيد بن الدثنة^(٢) فلما جاؤوا به ليقتلوه وعاین الموت، قال له أبوسفيان بن حرب: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي!! فقال أبوسفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً!! ثم قام إليه نسطاس - عبد لصفوان - فقتله رضي الله عنه.

ولما قتل عاصم بن ثابت أمير السرية أرادت هذيل أخذ رأسه لبيعه من سُلَاقَة بنت سعد، وكان قتل ابنها يوم أحد، فنذرت لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر^(٣). ولكن الله عز شأنه منعه، فبعث على جسده مثل الظِّلَّة من الدبر^(٤). وكذلك أرادت قريش أن تنال من جسده فلم يستطيعوا، فقالوا: دعوه حتى يمسي فيذهب عنه الدبر فنأخذه، فغيبه الله في الوادي، فما عرفوا له أثراً.

(١) الشلو: العضو. ممزَع: ممزق.

(٢) الدثنة بفتح الدال، وكسر الثاء، وفتح النون المشددة.

(٣) القحف بكسر القاف: أعلى الدماغ.

(٤) الدبر: الزناير، أو ذكور النحل.

وكان عاصم رضي الله عنه قد أعطى الله عهداً أن لا يمس مشرك ولا يمس مشركاً أبداً تنجساً، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أن الدبر منعت: يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمس مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً في حياته، فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع منه في حياته^(١).

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٦٤.

أصحاب بئر معونة^(١) أو سرية القرأء

وفي شهر صفر أيضاً وفد على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وهو من رؤوس بني عامر، فدعاه رسول الله إلى الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ: «إني أخشى عليهم أهل نجد»، فقال أبو براء: أنا لهم جار، فبعث رسول الله المنذر بن عمرو في سبعين رجلاً من خيار المسلمين، وكانوا يُعرفون بالقرأء^(٢)، وقيل في أربعين رجلاً والصحيح الأول. منهم: الحارث بن الصمة، وحَرام بن ملحان - خال أنس بن مالك - وعامر بن فهيرة مولى الصديق.

فساروا حتى نزلوا بئر معونة، فبعثوا حَرام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في الكتاب، وأوعز إلى رجل فأنفذه بالرمح من خلفه، فقال حرام: قُزْتُ ورب الكعبة!!

ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا وقالوا: لن نخفر^(٣) أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم: رِغلاً وذُكوان وعصية^(٤)، فأجابوه فخرجوا حتى غَشَوْا القوم، فأحاطوا بهم في رحاهم، فقال

(١) اسم موضع من بلاد هذيل بين مكة وعسفان.

(٢) هم جماعة من حَفَظَةِ القرآن، كانوا يحتطبون بالنهار، ويتدارسون القرآن ويصلون بالليل، ويطعمون أهل الصفة، وإذا دعوا إلى الجهاد لبوا سراعاً.

(٣) نخفر بضم أوله: نقض عهده، وأما خَفَر الثلاثي فبمعنى وفى بالعهد.

(٤) رعل: بكسر الراء وسكون العين، وذُكوان بفتح الذال، وعصية: بضم العين وفتح الصاد وتشديد الياء، أحياء من بني سليم.

لهم المسلمون: والله ما إياكم أردنا وإنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ، فأبوا عليهم، فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث^(١) من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً، وإلا عمرو بن أمية الضمري، والمذر بن محمد بن عقبة، فقد كانا في سرح القوم^(٢) فلم ينبثهما بمصاب أصحابها إلا الطير تحوم حول العسكر. فقالا: والله إن لهذا الطير لشأناً، فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دماثهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال المذر لعمر: ما ترى؟ فقال: أرى أن نلحق برسول الله فنخبره الخبر، فقال المذر بن محمد: لكني لا أرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المذر بن عمرو، وما كنت لأخبر عنه الرجال!!

وقاتل القوم حتى قتل رضي الله عنه شهيد البطولة والوفاء، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن جز ناصيته، وأعتقه عن رقة كانت عن أمة فيما زعم، فخرج عمرو قاصداً المدينة، فلقي رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من الرسول وهو لا يعلم، فأمهلها حتى ناما فقتلها، وهو يرى أنه أصاب بهذا ثاراً من بني عامر، فلما قدم عمرو وأخبر الرسول بقصتهما قال: «لقد قتلت قتيلين لأدينهما».

ثم قال: «هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً»، فبلغ ذلك أبا براء، فشق عليه إخفار ابن أخيه عامر إياه، فذهب ابنه ربيعة إلى عامر بن الطفيل فطعنه بالرمح انتقاماً منه على فعلته النكراء، فجرح ولكنه لم يميت، ثم وفد على النبي بعد قاصداً الغدر به فمنعه الله منه، وقد دعا عليه النبي ﷺ فقال: «اللهم اكفني عامراً»، فأصابه الله بغدة^(٣) في بيت امرأة من بني سلول، فكان يقول: غدة كغدة البعير في بيت امرأة سلولية، ثم ركب فرسه، فمات على ظهره بالعراء، تطعم منه الطيور والسباع.

(١) أي رفع من بين القتلى وله بقية حياة.

(٢) حيث ترعى إبلهم ودوابهم.

(٣) نوع من الطاعون يصيب الإبل.

وكان وصول خبر سرية الرجيع وبثر معونة في يوم واحد، فحزن النبي ﷺ والمسلمون حزناً شديداً عليهم لم يخفف منه إلا أنهم شهداء عند ربهم يرزقون، ولقد بلغ حزن النبي عليه الصلاة والسلام أنه مكث شهراً يدعو في صلاة الصبح على رعل وذكوان وعصية الذين غدروا بالقراء. وروى البخاري أن النبي لما نعى القراء قال: «إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك، ورضيت عنا، فأخبرهم عنهم، فأنزل الله فيهم قرآناً كان يتلى: بَلَّغُوا عَنَا قَوْمَنَا أَنَا لَقِينَا رَبَّنَا فَرْضِي عَنَا وَأَرْضَانَا»، ثم نسخ بعد^(١).

وقفة عند سرية الرجيع وبثر معونة:

وإن لنا لوقفة ترينا كيف يستهين الإيمان بالكثرة حينما قاتل بضعة نفر غرباء عن ديارهم مائتي رجل في عقر دارهم، وكيف يسمو الإيمان عن الضعف والاستخذاء والترخص وبأبى إلا العزيمة. فقد كان يمكن لزيد وخبیب أن يظهرهما كلمة الكفر، أو أن ينالا من النبي وقلبهما مطمئن بالإيمان، ليكون سبباً في نجاتهما من القتل والصلب، ولكن أولي العزائم الثابتة، والعقائد الصادقة، يأبون إلا أن يموتوا أبطالاً كما عاشوا أبطالاً.

ولو أن خبيباً المأسور ليُقتل بعد أن غدروا به قَتَلَ الغلام ثاراً من أهله لما كان أمراً مستكراً، فهو مظلوم انتصر لنفسه، ولكنه الخلق الإسلامي الأصيل، والقلب المؤمن، والضمير الحي تترفع بصاحبها عن الغدر والغيلة حتى ولو كان على سبيل المجازاة، وأن يؤخذ الغلام بجريرة أهله.. وإن هذه المعاني الشريفة لتستشفها في قولة خبيب للجارية: أتحشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك!!

وكنا نحب من المستشرقين الذين أسرفوا في القول من أجل أسيري بدر اللذين قُتلا أن نسمع لهم كلمة في قتل الأسيرين المؤمنين على فرق ما بين الموقفين، وفي قتل من قتل غدرًا وغيلة في سريتي الرجيع وبثر معونة، ولكن الأمر كما قيل:

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب سرية الرجيع وبثر معونة.

وعين الرضا عن كل عيب كليله

ولكن عين السخط تبدي المساويا

وقد يقول قائل: كيف يوافق النبي ﷺ على إفاد هاتين السريتين مع أناس ليسوا بمسلمين، وفي جوار رجل لم يدخل الإسلام، مع احتمال أن يكون هذا استدراجاً للمسلمين ومكيدة للإيقاع بهم، وقد كان النبي من رجاحة العقل، وبعد النظر، والمواهب السياسية بالمنزلة التي لا تدفع؟ وللجواب عن ذلك نقول:

١ - إن حفظ الحوار كان من خيرة فضائل العرب والخلق المتأصل فيهم، فاحتمال الغدر بهم مستبعد، ولا سيما أن القراء كانوا في جوار رجل له منزلته في بني عامر، وهو أبو براء. ولذلك لم يقبل بنو عامر أن يخفروه في جواره، فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل من بني سليم.

٢ - إن إفاد هاتين السريتين لم يكن إلا حلقة من حلقات الجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى هذا الدين، والسهر على نشره بشتى الوسائل، أليس غاية ما يحتمل أن يموتوا شهداء؟ وهذا ما كان يرجوه كل مسلم آنئذ. وصدق الله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾، إما النصر والغنيمة، أو الموت والشهادة.

غزوة بدر الآخرة

في شعبان من نفس العام خرج الرسول وأصحابه إلى بدر لميعاد أبي سفيان، واستعمل على المدينة عبدالله بن عبدالله بن أبيّ، وسار في ألف وخمسمائة من أصحابه. وكانت بدر محل سوق تعقد كل عام للتجارة في شعبان، يقيم فيها التجار ثمانية أيام يتبادلون فيها التجارة، فلما وصلوا إليها أقاموا بها ثمانية في انتظار أبي سفيان.

وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى بلغ عُسفان، وقيل مجنة، ثم ألقى الرعب في قلبه، فبدأ له أن يرجع فقال: يا معشر قريش إن هذا العام عام جذب، ولا يصلحكم إلا عام خصب، ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإني راجع فارجعوا، فرجعوا فسمّاهم أهل مكة جيش السوق^(١)، يريدون أنهم خرجوا لشرب السوق لا للحرب.

وكان أبو سفيان قد لجأ إلى حيلة يقصد بها إرهاب المسلمين حتى لا يخرجون إلى بدر، فيكون خلف الوعد من جانب المسلمين لا من جانبه، فاتفق مع نعيم بن مسعود الأشجعي وجعل له جُعلاً على أن يذهب إلى المدينة فيرجف فيها بعظم جيش أبي سفيان وعُدّته، فذهب نعيم وقال للنبي وأصحابه: إن قريشاً قد جمعت لكم الجموع. ولكنهم لم يلتفتوا إلى مقاتته، وخرجوا وهم يقولون: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

(١) السوق: شراب يصنع من القمح أو الشعير.

وفي أثناء مقام المسلمين ببدر اشتغلوا بالتجارة فعادت عليهم بربح عظيم، وقد ذكر الله هذا في قوله:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٧﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِيَارِهِمْ وَفَضَّلَ اللَّهُ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءُ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانُ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٨﴾ ﴿١﴾

والمتبع لمجريات الحوادث في هذه الغزوة يرى أن المشركين قد باتوا يخشون المسلمين، ولا يجرؤون على لقاءهم، وكأنما كان نصرهم في أحد فلتة لا يطمعون في مثلها، فمن ثم لجأوا إلى الحيلة يدرؤون بها عن أنفسهم عار خُلف الوعد باللقاء، ولكنهم لم يفلحوا، وخيب المسلمون ظنونهم، وقد شعر المشركون بأثر تخلفهم في إذهاب هيبته المزعومة في النفوس، ولذلك قال صفوان بن أمية لأبي سفيان: قد - والله - نبيتك أن تعد القوم، قد اجترؤوا علينا، رأوا أننا أخلفناهم.

(١) جمهور المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، إلى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾، في غزوة حمراء الأسد، وقد عرضت لذلك آنفاً. ومنهم من يرى أنها نزلت في غزوة بدر الآخرة، وذكر الواقدي في المغازي أن الآية الأولى في غزوة حمراء الأسد، وهاتين الآيتين في غزوة بدر الآخرة والآيات من سورة آل عمران.

حوادث في هذا العام

وفاة أبي سلمة

في هذه السنة توفي أبو سلمة عبدالله بن عبدالأسد بن هلال القرشي المخزومي، وأمه برة بنت عبدالمطلب عمه رسول الله ﷺ، وكان أخا رسول الله من الرضاع، ارتضعا من ثوبية مولاة أبي لهب، وكان من السابقين الأولين، هاجر إلى الحبشة هو وزوجته أم سلمة، وقد ولد لهما بها أولاد، ثم عادا إلى مكة، وكان أول من هاجر إلى المدينة ومعه زوجته فمنعها أهلها، ثم لحقت به بعد عام، وشهد بدرًا وأحدًا فأصيب فيها بجرح فمكث شهراً يداويه حتى برأ، ثم بعثه رسول الله في سرية في أول هذا العام، فلما عاد انتقض جرحه، فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى فرضي الله عنه وأرضاه.

وفاة عبدالله بن عثمان

وفي جمادى الأولى من هذه السنة مات عبدالله بن عثمان رضي الله عنه، وهو من السيدة رقية بنت الرسول، وكان ابن ست سنين، فصلّى عليه رسول الله ﷺ، ونزل والده عثمان رضي الله عنه في حفرة.

مولد الحسين

وفي ليال خلون من شعبان من هذا العام ولد الحسين بن علي من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهو سيد شباب أهل الجنة، وقد قال فيه الرسول وفي أخيه الحسن: «هما ريحائتا من الدنيا»، وقد روي أن رسول الله كان يشمهما ويقبلهما.

تزوج رسول الله بزینب بنت خزيمة

وفي شهر رمضان من هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله، ينتهي نسبها إلى هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية، وهي التي يقال لها أم المساكين، لكثرة صدقاتها عليهم، وبرها إياهم، وإحسانها إليهم، وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث بن المطلب، ثم خلف عليها أخوه عبدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف أحد شهداء بدر، وقيل كانت تحت عبد الله بن جحش فقتل عنها يوم أحد، وهذا يرجح أن زواج النبي بها في السنة الرابعة لا في السنة الثالثة كما زعم بعض كتاب السيرة^(١)، إذ أن عدتها على الرأي الأخير لا تنتهي إلا في آخر صفر من السنة الرابعة. قال ابن عبد البر: ولا خلاف أنها ماتت في حياة النبي ﷺ، وقيل لم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة، ثم توفيت رضي الله عنها، وقد أصدقها رسول الله أربع مائة درهم.

وقد ظهر مما ذكرنا الحكمة في زواج رسول الله بها، وأن ذلك كان تكريماً للتضحية والاستشهاد في شخص زوجها الذي مات عنها، سواء أكان ذلك عبد الله بن جحش أو عبدة بن الحارث، فكلاهما ممن أسلم وهاجر وسبق إلى الشهادة، هذا إلى ما كانت تمتاز به من حب المساكين والبر بهم.

فما أجدرها أن تكون في كفالة النبي وأن تحظى بزواجه منها بهذا الشرف الرفيع في الدنيا والآخرة، ولم نر أحداً ذكر أنها كانت ذات جمال أو شباب، بل الظاهر أنها كانت مسنة وكغيرها من النساء في الجمال، مما يؤكد أن النبي ﷺ تزوجها لما ذكرنا من المعاني الشريفة، وهذا يرد أي تقول على النبي في هذا الزواج.

تزوج النبي بأم سلمة

وفي شوال من هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ بالسيدة أم سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية القرشية، وكانت قبل النبي عند الصحابي

(١) هو الشيخ الحضري - رحمه الله - في «نور اليقين» ص ١٤٣.

الجليل ابن عمها وأبي أولادها أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي^(١) الذي توفي في جمادى الأولى من نفس العام، وقد أنجبت منه سلمة وعمر وزينب ورقية، فلما انقضت عدتها وحلّت خطبها النبي ﷺ في شوال من هذا العام، فأرسل إليها عمر بن الخطاب فاعتذرت بأنها امرأة غيّرى وأنها ذات عيال، فلم يجد رسول الله بداً من أن يذهب إليها بنفسه.

روى الإمام أحمد في مسنده عنها قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به، قال: «لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهم آجرني في مصيبي، وأخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله، وأخلف له خيراً منها»، قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت، وقلت: اللهم آجرني في مصيبي، وأخلف لي خيراً منها، ثم رجعت إلى نفسي فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة!؟

فلما انقضت عدتي استأذن عليّ رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهاباً لي، ففسلت يدي من القرظ وأذنت له، فوضعت له وسادة آدم حشوها ليف فقعد عليها، فخطبني إلى نفسه، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة، ولكني امرأة بي غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال:

«أما ما ذكرت من الغيرة فسيذهبها الله عنك - يعني بسبب دعائه لها كما في رواية أخرى - وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي»، فقالت: قد سلّمت لرسول الله، فقالت أم سلمة: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه رسول الله ﷺ.

(١) أبو سلمة: هو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، فهما يلتقيان في الجد الثاني، واسم أبيها حذيفة، وقيل سهيل، وكان يسمّى: «بزاد الراكب» لجوده، كان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه ومعه زاد، بل يكفي رفقاءه من زاد معها بلغوا.

وقد زوجها إياه ابنها سلمة، وأصدقها رسول الله فراشاً حشوه ليف،
وقدحاً، وصحفة، ومجشة - أي رحي - . وقد ترى أولادها الصغار في بيت
النبي، مما جعلهم لا يشعرون بمرارة اليتيم وذل الحاجة.

الحكمة في زواجها

ومن ثم نرى أن زواج رسول الله بها لم يكن إلا جبراً لحاظرها وكسرهما،
وحفظاً لها ولأولادها من الضيعة، وقد سمعت آنفاً أنها ما كانت تعدل
بأبي سلمة أحداً، ولولا أن رسول الله تقدم إليها لما رضيت بالزواج من أي
رجل أياً كان في قومها، لأنها لا ترى خيراً من أبي سلمة إلا رسول الله الذي
لم يكن يخطر لها على بال أثناء مقالتها، وأيضاً فقد كان هذا الزواج وفاء بحق
زوج من خيار المسلمين، وخاطر بنفسه في سبيل الله، وبهذا الزواج ضرب
رسول الله أروع الأمثال في باب المواساة بالنفس والمال، ووضع الأساس الصالح
لأولي الأمر في رعاية حقوق المواطن المؤمن الصالح، والجندي الباسل المضحي
بنفسه في سبيل الله ورسوله.

فهذه الاعتبارات السامية هي التي حذت برسول الله أن يتزوج بها،
لا كما يزعم بعض المتخربين من أن ذلك كان لجمالها، وهي بشهادتها كانت
مسنة، ومهما قيل في بقاء مسحة من جمال الشباب عليها فهناك - ولا ريب - من
الشابات الأبيكار الشريقات من يفقنها في هذا، وللشباب ماله من سحر وفتنة،
وإنكار ذلك مكابرة، ولا أدري كيف يرغب رجل شهواني - كما زعموا - في
امرأة مسنة مترهلة، وذات شغل شاغل بعيالها؟ ألا كبرت كلمة تخرج من
أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

وقد كانت عاقلة عالمة راوية، روت عن رسول الله بالذات وبالواسطة،
وعن غيره من الصحابة، وعنها روى الكثيرون، وقد ساهمت في نشر العلم
والحكمة عن رسول الله، وبسبب سؤالها للنبي نزلت بعض آيات القرآن وتشريعاته،
وهي آخر أمهات المؤمنين وفاة كما قال الحافظان الذهبي وابن حجر، وكان
وفاتها سنة اثنتين وستين بعد مقتل الحسين إبان حكم يزيد بن معاوية، وقيل غير

ذلك. وبموتها انطفأ آخر مصباح من مصابيح أمهات المؤمنين طالما شمع النور والهدى والعلم، فرضي الله عنها وأرضاها.

تعلم زيد بن ثابت كتابة اليهود ولغتهم

وفي هذه السنة تعلّم زيد بن ثابت كتابة اليهود، ففي صحيح البخاري تعليقاً عن خارجة بن زيد بن ثابت عن زيد بن ثابت «أن رسول الله ﷺ أمره أن يتعلّم كتاب يهود ليقراه النبي صلى الله عليه وسلم إذا كتبوا إليه، فتعلّمه في خمسة عشر يوماً»^(١). وفي مسند الإمام أحمد أن رسول الله لما قدم المدينة ذهب بزيد إلى رسول الله وقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فأعجب ذلك رسول الله وقال: «يا زيد تعلّم لي كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتاب»، قال زيد: فتعلّمت له كتابهم، ما مرّت خمس عشرة ليلة حتى حدّثته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب.

وهذا ذكاء مفرط، وقوة حافظة، ومن لوازم تعلّم الكتابة تعلم اللسان، وقد ثبت أنه كان يعرف السريانية والعبرانية^(٢)، وقد كان - رضي الله عنه - من حفظ القرآن كله على عهد رسول الله، ومن أشهر كتّاب الوحي بين يديه، وهو الذي تولى كتابة القرآن وحده في الصحف في عهد الصديق، وكان أحد كاتبني المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه، وأمر رسول الله زيدا بتعلم لغة اليهود وكتابتهم يدل على أن الإسلام يجب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم، ويتعرف على علومهم ومعارفهم ولا سيما إذا دعت لذلك ضرورة.

(١) صحيح البخاري - كتاب الأحكام - باب ترجمة الحكام أي الترجمة لهم.

(٢) البداية والنهاية ج ٥ ص ٣٤٦، فتح الباري ج ١٣ ص ١٥٨، ١٥٩.

السَّنةُ الْخَامِسَةُ مِنَ الْهَجْرَةِ

غزوة دومة الجندل^(١)

في ربيع الأول من سنة خمس بلغ رسول الله ﷺ أن بدومة الجندل جمعاً كبيراً من الناس، وأنهم يظلمون من مرٍّ بهم، ويريدون أن يدنوا من المدينة، فندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا في ألف، واستخلف على المدينة سباع بن عُرفطة الغفاري، وكانوا يسيرون الليل، ويكمنون النهار، ومعهم هادٍ خُرَيْتٌ يقال له «مذكور»، فلما دنوا من دومة الجندل، هجموا على الماشية والرعاء، فأصابوا من أصابوا، وهرب من هرب.

فلما علم أهل دومة الجندل رعبوا وتفرقوا، فنزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا والعيون فأصاب محمد بن مسلمة رجلاً منهم، فأتى به رسول الله ﷺ فسأله عن أصحابه، فقال: هربوا أمس، فعرض عليه الإسلام فأسلم ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن غاب عنها شهراً^(٢)، وقد امتازت هذه الغزوة بأمرين:

١ - أنها أول غزوة بعيدة عن المدينة من جهة الشام، إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد عن خمس ليال، وقد كانت بمثابة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكان البوادي الشمالية وأطراف الشام الجنوبية، وأحسوا بقوة الإسلام وسطوته، كما كانت إرهاباً لقيصر وجنده.

(١) دومة الجندل: بضم الدال وتفتح واحة على الحدود بين الحجاز والشام.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٩٢.

٢ - أن سير الجيش الإسلامي هذه المسافات الطويلة قد كان فيه تدريب له على السير إلى الجهات النائية، وفي أرض لم يعهدها من قبل، ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة في بلاد آسيا وإفريقيا فيما بعد.

مصالحة عيينة بن حصن

وصالح رسول الله ﷺ وهو عائذ عيينة بن حصن الفزاري، وهو الذي كان يسميه عليه الصلاة والسلام «الأحق المطاع» لأنه كان يتبعه ألف قناة لا يسأله أصحابها فيم غضب؟ وقد أقطعته الرسول أرضاً يرعى فيها دوابه على بعد ست وثلاثين ميلاً من المدينة، لأن أرضه كانت قد أجذبت.

غزوة بني المصطلق^(١)

أو المريسيع^(٢)

وفي شعبان من سنة خمس بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين في أحد بقيادة رئيسهم الحارث بن أبي ضرار يجمعون الجموع لحربه، فخرج إليهم في سبعمائة من أصحابه بعد أن استخلف على المدينة أبازر الغفاري، وقيل غيره، وأعطى راية المهاجرين إلى أبي بكر الصديق، وراية الأنصار إلى سعد بن عباد، وساروا حتى دهموهم وهم عند ماء لهم يسمى «المريسيع» وهم غارون^(٣)، وأنعامهم تُسقى على الماء. فأمر عمر بن الخطاب فنأدى فيهم: أن قولوا أن لا إله إلا الله تمنعوا بها

(١) المصطلق بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء وكسر اللام: لقب لحزيمة بن كعب، وهم بطن من خزاعة. والمريسيع بضم الميم وفتح الراء وسكون الياء وكسر السين: ماء بني خزاعة.

(٢) قد اختلف في زمن هذه الغزوة، فذهب ابن إسحق أنها في شعبان سنة ست ووافقها الطبري، وقال موسى بن عقبة: إنها في شعبان سنة خمس، ووافقها الحاكم، والبيهقي، وأبو معشر، وهو الراجح الذي تشهد له الأحاديث الصحيحة.

(٣) غافلون.

أنفسكم وأموالكم. فأبوا، فتراموا بالنبل، ثم أمر رسول الله المسلمين فحملوا حملة رجل واحد، فقتل منهم عشرة، وأسر سائرهم، ولم يقتل من المسلمين إلا هشام بن صبابه، قتله أحد الأنصار خطأ ظناً أنه من الأعداء، وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة: ألفي بعير، وخمسة آلاف شاة، هذا عدا السبايا من النساء والأسارى من الرجال، وكان شعار المسلمين يوم المريسيع (يامنصور: أَمِيتْ أَمِيتْ).

تصرف نبوي حكيم

وكان بنو المصطلق من أعز العرب داراً وأشرفهم نسباً، وأسر نسائهم على هذه الحال مما يترك في نفوسهم ونفوس حلفائهم جراحاً لا تندمل، وحزازات لا تنسى، والعربي يهون عليه المال مهما غلا، ولكن لا يهون عليه أن ينال في عرضه، أو تخدش كرامته وشرفه، لذلك لم يرتح قلب النبي الكبير لما تم من سبي واسترقاق، وفكر ثم فكر، حتى تفتق العقل الكبير عن هذا التصرف الحكيم.

فقد كانت من السبايا يومئذ جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق، وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، أولابن عم له، فكاتبته على نفسها، فأتت رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، ف وقعت في السهم لثابت بن قيس أولابن عم له فكاتبته^(١) على نفسي، فجئت أستعينك على كتابتي.

(١) أي على أن يعتقها نظير مال، وروي أن النبي لم يجعلها في سهم أحد تكرمه لها حتى قدم أبوها بعد في فدائها بليل، فلما بلغ العقيق غيب بعيرين من الفداء ضناً بهما، فلما قدم على الرسول قال له: «أين البعيران اللذان غيبتهما في شعب كذا؟ فلم يملك الرجل نفسه أن شهد شهادة الحق وقال: والله ما اطلع على ذلك إلا الله، وأسلم معه ابنان له وناس من قومه، وأرسل في طلب البعيرين فدفع الإبل، وسلمت إليه ابنته، فأسلمت فخطبها رسول الله من أبيها فزوجه إياها، وأياً كان الأمر فقد من الصحابة على من بأيديهم من قومه لمصاهرة رسول الله فيهم. سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٥.

فوجد الرسول الفرصة سانحة لتخليص بني المصطلق مما وقعوا فيه، فقال لها: «فهل لك في خير من ذلك؟»، قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي عنك كتابتك وأتزوجك»، قالت: نعم، وخرج الخبر إلى الناس، وفشا بينهم أن رسول الله قد تزوج جويرية بنت الحارث، وكان المسلمون عند حسن ظنه وبعد نظره، فقالوا: أصهار رسول الله يسترقون؟! فأطلقوا كل من بأيديهم، قالت عائشة - راوية القصة -: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها.

وبفضل هذا التصرف النبوي الحكيم أسلم بنو المصطلق عن طواعية جميعاً، وصاروا أعاوناً للمسلمين بعد أن كانوا عليهم.

حدثان عظيمان في هذه الغزوة

وفي هذه الغزوة نجمت حادثتان عظيمتان: إحداهما كادت تحدث فتنة بين المسلمين لولا أن النبي تدارك ذلك بموهبته السياسية الفائقة، والثانية حادثة الإفك التي حسم الكلام بشأنها وحْيُ السماء، ونزل بسببها تشريع عام خالد.

الحديث الأول

بينما المسلمون على الماء يستقون، وكان مع عمر غلام أجير له من بني غفار يسمى جَهْجَاه بن مسعود الغفاري يقود له فرسه، فتزاحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء وتضارباً، فصرخ الجهني: يامعشر الأنصار، وصاح الغفاري: يامعشر المهاجرين، فاجتمع الفريقان، وكادوا يقتتلون، فذهب إليهم رسول الله ﷺ وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة»، وأزال ما بينهما من شحناء وثيم الفتنة.

ولكن عبدالله بن أبي رأس النفاق أراد أن يوقظها، وبذكي لهما، فقال - وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم -: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: (سَمْنُ كلبك يأكلك). أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على الحاضرين

من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم فسعى إلى رسول الله فأخبره، وعنده عمر بن الخطاب سيف الحق، فاستأذن رسول الله في قتله، أو أن يأمر به من يقتله، فقال ذو الخلق العظيم، والسياسي الحكيم: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن عمداً يقتل أصحابه، ولكن آذن بالرحيل».

اعتذار ابن أبي

ولما بلغ ابن أبي أن زيداً أخبر الرسول بما سمع منه ذهب إلى رسول الله، وحلف بالله ما قلت ما قال لك، ولا تكلمت به، فقال بعض الحاضرين من الأنصار من أصحابه لرسول الله: عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، ترضية للرسول، ودفعاً عن ابن أبي.

سير النبي بالجيش ليشغلهم عن الفتنة

وارتحل النبي بالمسلمين في وقت لم يكن يرتحل فيه، فلقية أسيد بن حضير، فحياه بتحية الإسلام وسلم عليه، وقال: يا رسول الله لقد رحمت في ساعة ما كنت تروح في مثلها؟ فقال له: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال: أي صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبي»، قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»!

فقال أسيد: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو - والله - الدليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

وسار رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً.

وبهذا التصرف البالغ الغاية في السياسة الرشيدة قضى على الفتنة قضاءً مبرماً، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابن أبي.

نزول سورة المنافقون

وفي هذه الحادثة أنزل الله سورة بتمامها وهي «المنافقون» وفيها قوله سبحانه:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَيَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۖ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

ولما نزلت السورة أخذ رسول الله بأذن الغلام الصادق اللقن، وقال: «هذا الذي أوفى الله بأذنه»، وقد شاء الله أن تتحقق مقالة ابن أبي لا على ما أراد، فكان الرسول وأصحابه هم الأعزاء، وكان ابن أبي وجماعته هم الأذلاء!!

مثل أعلى للإيمان

وقد تجلّى في هذه الحادثة موقف بطولي إيماني، سَمَا عن الرحم والعاطفة، وعزّ في تاريخ الدنيا بلّه سير الصحابة، ذلك أن المؤمن الصادق عبدالله بن عبدالله بن أبي أتى رسول الله فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمربي به وأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي بين الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار!!

ماذا ترى يكون جواب الرسول الكريم؟ إنه لموقف محرج حقاً، أيوافق الرسول؟ إنه إن فعل فسيستريح من شر مستطير طالما نال من النبي والمسلمين، وأضرّ بالدعوة الإسلامية، ولكن كيف؟ ونيّنا محمد إنسان بشر قبل أن يكون نبياً، وإنسانيته فاقت كل ما يتصور في عقله وخبرته بالنفوس البشرية.

(١) سورة المنافقون: ٧ و ٨.

وغرائزها في المحل الذي لا يطاول، وهو يعلم يقيناً أن الابن في مأساة نفسية وعاطفية تغلب عليها بقوة إيمانه، وسمو نفسه، وحبّه لله ولرسوله!!.

لقد ضرب الابن أروع مثل الإيمان والتضحية بعاطفة الأبوة، فليضرب النبي الإنسان ذو القلب الكبير والخلق العظيم أروع المثل في العفو والرحمة وحسن الصحبة، فيقول: «بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا»!!.

يا لروعة العفو، ويا لجلال العظمة الإنسانية!!.

وسمو الإيمان ثم سمو، فلا يرضى الابن المؤمن الصادق من الأب بالاعتذار أو إنكار ما قال، بل يقف لأبيه وهم آيون عند مدخل المدينة، وبيده سيفه قائلاً له: قف، فوالله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله في ذلك، فلما أذن له تركه يدخل وقد أشاح عنه بوجهه.

آثار هذه السياسة النبوية الحكيمة

وقد كان لتسامح الرسول مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أبيّ كلما أحدث حدثاً، كان قومه هم الذين يعاتبونه، وبأخذونه ويعنفونه، ويعرضون قتله على النبي، والرسول يأبى ويصفح، فأراد رسول الله أن يكشف لسيف الحق عن آثار سياسته الحكيمة، فقال: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته!!» فقال عمر: قد — والله — علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري!!.

احتيال وغدر

وقدم من مكة مقيس بن صبابه، فقال: يا رسول الله جئتكم مسلماً، وجئتكم أطلب دية أخي الذي قتل خطأ، فأمر له الرسول بدية أخيه هشام، فأقام بالمدينة غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتداً، ولهذا كان مقيس من الذين أهدر النبي دماءهم يوم الفتح، وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة.

حادثة الإفك

وهي حادثة أخرى تمخضت عنها هذه الغزوة، وهي أشد شناعة وفضاعة من الأولى؛ لأنها تناولت بيت النبوة في أحب نسائه إليه وهي الصديقة بنت الصديق. وإليك هذه القصة كما رواها الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما بالسند عن عائشة رضي الله عنها - واللفظ للبخاري - قالت:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج - يعني إلى سفر - أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه، فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما نزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمنا حين آذنوا بالرحيل فمشيت، حتى جاوزت الجيش - يعني لقضاء حاجتها - فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عقد لي من جزع ظفار^(١) قد انقطع فالتمسست عقدي، وحسبني ابتغاؤه.

وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت، وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم، إنما يأكلن العلقه^(٢) من الطعام، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا.

(١) جزع بفتح الجيم وسكون الزاي، خرز معروف في سواده بياض كالعروق. وظفار بفتح الظاء وكسر الراء الأخيرة للبناء: مدينة باليمن.

(٢) العلقه: القليل من الطعام.

فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فأمت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء الجيش، فادلج^(١) فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأي، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه^(٢) حين عرفني، فخمّرت - غطيت - وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة^(٣)، فهلك من هلك، وكان الذي تولى كِبْرَه عبدالله بن أبي ابن سلول.

فقدمنا المدينة، فاشتكت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول: «كيف تيكُم؟»^(٤) ثم ينصرف، فذاك يريني ولا أشعر بالشر.

حتى خرجت بعد ما نَقَهْتُ^(٥)، فخرجت مع أم مسطح قِبَلِ المناصع^(٦) وهو متبرزنا، وكنا لانخرج إلا ليلاً إلى ليل... فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رُهم بن المطلب بن عبدمناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثانة^(٧)، فأقبلت أنا وأم مسطح قِبَلِ بيتي وقد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح،

(١) ادلج بتشديد الدال: سار من آخر الليل.

(٢) قوله: «إنا لله وإنا إليه راجعون» إعظماً وتألماً لما حدث من تأخرها بغير قصد.

(٣) موغرين: نازلين للاستراحة. نحر الظهيرة: في وقت شدة الحر.

(٤) تيكُم: اسم إشارة للمؤنثة.

(٥) نقه: بفتح القاف الذي برأ من مرضه ولم تكتمل صحته.

(٦) المناصع: مكان خارج المدينة.

(٧) مسطح: بكسر الميم وسكون السين. أثانة: بضم الهمزة.

فقلت لها: بش ما قلت، أتسيين رجلاً شهد بدران؟ قالت: أي هتاه^(١)
أولم تسمعي ما قال؟ قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك.

فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل علي رسول الله
صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: «كيف تيكم»؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي
أبوي؟ وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله
عليه وسلم، فجئت أبوي فقلت لامي: يا أمته، ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية
هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر
إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله، أوقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت
تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي.

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد
حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله، فأما أسامة بن زيد فأشار على
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في
نفسه من الود، فقال: يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيراً، وأما علي بن
أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير وإن
تسأل الجارية تصدقك.

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: «أي بريرة، هل رأيت
من شيء يريبك؟» قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً
أغمصه^(٢) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي
الداجن^(٣) فتأكله.

فقال رسول الله وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين من يعذرني^(٤) من
رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، لقد ذكروا

(١) يعني يا هذه.

(٢) أغمصه: بالغين والصاد أي أعيبه.

(٣) الداجن: ما يألف البيوت من شاة أو طير.

(٤) يعذرني: من ينصروني عليه ويتقّم منه.

رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرک منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک. فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج - وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته^(١) الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حُضَيْر^(٢) وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لتقتلته، فإنک منافق تجادل عن المنافقين^(٣)، فتشاور الحیان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

فمكثت يومي ذلك لا يرقا لي دمع ولا أكتحل بنوم، فاصبح أبوي عندي، وقد بقيت ليلتين ويوماً... فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأننا، فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال:

«أما بعد: يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئک الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبی إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه» فلما قضى مقالته قلص قلص دمعي^(٤) حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فقلت لأمي: أجيبی رسول الله قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله، قلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني

(١) احتملته: أي غلبته العصبية.

(٢) أسيد: هو بالتصغير في اسمه واسم أبيه.

(٣) أي صنيعك في المجادلة عن ابن أبيي صنيع المنافقين.

(٤) قلص: جف من شدة الحزن والأسى.

والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم إني بريئة - لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقني ، والله ما أجد لكم ولي مثلاً إلا قول أبي يوسف : ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ .

ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، وأنا حينئذ أعلم أني بريئة ، وأن الله مبرئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها ، فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ^(١) ، حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان ^(٢) من العرق وهو في يوم شات من ثقل الوحي الذي ينزل عليه .

فلما سُري عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها : « يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك » فقالت أُمي : قومي إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمده إلا الله عز وجل ، وأنزل الله - عز وجل - : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ... ﴾ العشر الآيات كلها - يعني إلى قوله تعالى : ﴿ وأن الله رءوف رحيم ﴾ ^(٣) .

فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق - وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقرابته منه وفقره - : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة - يعني عنها - ما قال ، فأنزل الله :

﴿ وَلَا يَأْتِلُ ^(٤) أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ

(١) بضم الموحدة وفتح الراء وبالمدة : الحالة التي كانت تعتربه عند الوحي .

(٢) الجمان : بضم الجيم حبات اللؤلؤ أو الفضة .

(٣) سورة النور : الآيات ١١ - ٢٠ .

(٤) ولا يحلف .

وَالْمُهْجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١).

قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي!! فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري، فقال: «يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً قالت: وهي التي كانت تُساميني (٢) من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمّة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك» (٣).

وقد بينت الروايات الأخرى في الصحيحين وغيرهما أن الذين خاضوا في هذا الحديث الأثم رأس النفاق ابن أبيّ، وحمّة بنت جحش، ومسطح بن أثاثه، وحسان بن ثابت، وأن الذي تولى معظم الحديث والإرجاف به ابن أبيّ، وتليه حمّة في هذا، وقد تاب هؤلاء — ما عدا ابن أبيّ — ولا سيما حسان بن ثابت، فقد اعتذر عما كان منه وقال يمدح عائشة بما هي له أهل:

حَصَان رَزَان مَا تُزْنُ بَرِيَّةَ	وَتَصْبِحُ غَرْمِي مِنْ لَحُومِ الْغَوَافِلِ
عَقِيلَةَ حِي مِنْ لَوْيِ بْنِ غَالِبِ	كَرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدَهُمْ غَيْرِ زَائِلِ
مَهْذَبَةَ قَدْ طَيَّبَ اللَّهُ خِيَمَهَا	وَطَهَرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ (٤)

(١) سورة النور: الآية ٢٢.

(٢) تناظرني وتحرص على أن تكون لها حظوتي عند رسول الله.

(٣) صحيح البخاري — كتاب التفسير — سورة النور، صحيح مسلم — كتاب التوبة — باب حديث الإفك.

(٤) حصان: عفيفة. رزان: عاقلة. تزن بضم التاء: ترمى وتتهم. الغوافل: جمع غافلة أي عن الشر والإثم. عقيمة: كريمة. خيمها بكسر الخاء: أصلها.

وزاد الحاكم في رواية له من غير رواية ابن إسحاق :

حليمة خير الخلق ديناً ومنصباً نبي الهدى والمكرمات الفواضل
رأيتك - وليغفر لي الله - حرة من المحصنات غير ذوات الغوائل

وقد تخلّقت السيدة عائشة بأخلاق زوجها وأبيها فعفّت، وكان يستأذن عليها لما كبر وعمي فتأذن له، بل كانت تكره - رضي الله عنها - أن يسب عندها لمنافحته عن رسول الله وآل بيته وتقول: إنه الذي قال:

فإنَّ أبي ووالدتي وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

إقامة الحد على من قذف عائشة

ولما نزلت الآيات ببراءة عائشة أقام النبي ﷺ الحد على مسطح وحسان وحنّة، رواه أصحاب السنن، وهذا يرد ما رجّحه الماوردي من أنهم لم يجلدوا اعتماداً على أن الحد لا يثبت إلا بإقرار أو بيّنة!! ولا أدري أي بيّنة بعد النص القرآني الدال على كذبهم، وهو يستلزم ثبوت الحد، وأما ابن أبي رأس النفاق فقيل إنه لم يحدّ سياسة وتأليفاً لقومه وأتباعه، وإلى هذا ذهب ابن القيم في الهدى، والذي رجّحه الحافظ ابن حجر في الفتح أنه أقيم عليه الحد استناداً إلى ما رواه الحاكم في الإكلیل^(١).

صفوان بن المعطل السلمي

ويقال له الذكواني نسبة إلى ذكوان بن ثعلبة بطن من بني سليم، صحابي فاضل، لا يغمص في دين ولا في خلق، أول مشاهدته المريسيع، وقيل الخندق، وبحسبه تزكية قول الرسول فيه: «ما علمت عليه إلا خيراً». وقد ثبت في الصحيحين أنه لما بلغه حديث الإفك قال: سبحان الله: (والذي نفسي بيده ما كشفت عن كنف أنثى قط). وما زعمه ابن إسحاق أنه كان حضوراً لم يثبت، ففي بعض الروايات الصحيحة أنه تزوج، وفي الصحيح أنه قتل شهيداً في سبيل الله، فقيل: استشهد في غزوة أرمينية في خلافة عمر سنة تسع عشرة،

(١) فتح الباري، ج ٨ ص ٣٨٨.

وقيل بل عاش إلى سنة أربع وخمسين فاستشهد بأرض الروم في خلافة معاوية^(١).

وقفات عند قصة الإفك

وما كان لنا أن نمر بهذا الحادث دون أن نقف ووقفات، نستخلص منها عبراً وعظات، وأخلاقاً ساميات، منها:

١ - صيانة الله سبحانه أنبياءه أن تقع من زوجاتهم خيانة زوجية، وذلك لأن زنا الزوجة مما يمتد أثره السيئ إلى الزوج، فصان الله زوجاتهم عن ذلك حتى لا يكون منفراً منهم، ومعوقاً عن الاهتداء بهم، أما الكفر فيجوز عليهن، وذلك كامراتي نوح ولوط عليهما السلام، لأن الكفر لا تتعدى معرفته إلى الزوج، وأما ما ذكره الله عنها في قوله:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾^(٢).

فقد أجمع المفسرون سلفاً وخلفاً على أنه ليس المراد الزنا وإنما الخيانة في الدين، روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (ما زنت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتها أنها كانتا على غير دينها، فكانت امرأة نوح تخبر أنه مجنون، وإذا ما آمن به أحد أخبرت به قومه الكافرين، وكانت امرأة لوط تدل قومه على أضيافه إذا نزل به ضيف).

٢ - إن في هذه القصة عزاء وسلوى للعفيفات اللاتي يرمين زوراً وكذباً بالفاحشة، فهذه الصديقة بنت الصديق، وزوج الرسول، والمبرأة من فوق سبع سماوات قد رميت بما هي براء منه، من المنافقين ومن شايعهم من ضعفاء الإيمان، ومن قبل رمى اليهود صديقة بني إسرائيل السيدة مريم البتول بالزنا،

(١) فتح الباري، ج ٨ ص ٣٧١.

(٢) سورة التحريم: الآية ١٠.

فمادنس ذلك من شرفها، ولا أنزل من كرامتها عند ربها، بل زادها رفعة وشرفاً، ولا تزال هذه القصة تتكرر على مسرح الحياة، فليكن للمحصنات المؤمنات الغافلات اللاتي لا يسلمن من قالة السوء فيها عزاء وسلوى.

٣ - أدب الصحابة رضوان الله عليهم في معاملة النساء المسلمات ولا سيما نساء النبي، والمبالغة في توقي مواطن الريبة والتهمة، فقد ثبت أن صفوان رضي الله عنه اكتفى بالاسترجاع حتى استيقظت السيدة عائشة، وفي استرجاعه ما يدل على استفظاعه وأسفه أن تترك زوجة النبي في العراء، ولم يكلمها قط غير أنه سألها عن شأنها وعرض عليها الركوب، وحين الركوب أولاها ظهره ولما ركبت قاد بها ولم يسر خلفها.

وقديماً فعل نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام ذلك مع ابنة شعيب عليه الصلاة والسلام، فقد قال لها: سيري خلفي ودليني على الطريق، خشية أن تضرب الريح بثوبها فتكشف أو تصف بعض جسمها. وهذا غاية الأدب والعفة، ولذلك قالت ابنة شعيب - وقد سمعت ورأت - كما قال الله سبحانه:

﴿قَالَتْ إِحَدَهُمَا يَبْتَغِي آسَ عَجْرَةَ وَإِنَّ خَيْرَ مَنْ آسَعَجَرَتِ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ (١).

٤ - حسن معاشرته النبي ﷺ لأزواجه، ورحمته بهم، وضبط النفس حتى في المواقف التي يستبد بالنفس البشرية فيها الغضب، فتخرج عن حد الاعتدال فعلى الرغم مما قيل في عائشة مما يجرح القلب، ويؤذي النفس كان يدخل عليها وهي مريضة فيسأل عنها وإن لم تجد منه ﷺ اللطف الذي كانت تجده منه حينما كانت تشتكي، وغاية ما يطمع فيه من بشر كريم في مثل هذا الموقف المؤلم المحير أن يكظم غيظه، ويكف غضبه، أما الملاحظة فأمراً خارجاً عن طوق البشر، ولن تكون إلا من فقد غيرته، وذهبت من نفسه معالم الرجولة والنخوة.

(١) سورة القصص: الآية ٢٦. أما أمانته فقد حدثناك عنها. وأما قوته فقد قيل: لأنها شاهدته وهو ينحى عن البشر، وما كان يطبق ذلك إلا الجماعة من الرجال، وقيل: لأنها رآته وقد دفع الرعاء عن البشر على كثرتهم، ولم يخشهم، وسقى لها.

ويلبغ السمو الإنساني بالرسول في معاملة عائشة حينما دخل عليها وهي في بيت أبيها وقال لها: «يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيرثك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه!!».

يا لعظمة النفس، إن العظيم حقاً هو الذي يعلم أن كل بني آدم خطاء، ويسر للمذنبين طريق التوبة، والقوي حقاً هو الذي يرحم ضعف الناس!!.

كان يمكن للنبي صلوات الله وسلامه عليه أن يطلق عائشة، وبذلك يستريح من ألم النفس الواصب، ويقطع قالة السوء، ولكن كيف يكون هذا؟ وهو الذي وسع صدره وخلقه الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم وفطرتهم وطبائعهم، حتى استحق ثناء الحق جل وعلا حيث يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

هـ — كرامة بيت أبي بكر رضي الله عنه على ربه، فقد شاء الله أن يبريء عائشة من فوق سبع سماوات، وأن ينزل في شأنها قرآناً ينل إلى يوم الدين، وهذا بعض ماجوزي به رجل دخل في الإسلام من أول يوم، وبذل نفسه وأهله وماله لله ولرسوله، ولم يزد — وقد تلظى بنار هذه الفتنة — على أن قال: (والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام!!) وما جوزيت به سيدة قدمت للرسول كل خير، ووفرت له كل وسائل الراحة النفسية والبيئية حتى تفرغ لأداء رسالة ربه، ولم تملك حينها نزل بها البلاء؛ وحل المصاب، إلا أن قالت كما قال نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾^(١).

(١) سورة يوسف: الآية ١٨.

تفسير آيات الإفك

قال الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

﴿الإفك﴾: أشنع الكذب وأفحشه. ﴿عصبة منكم﴾: الجماعة من العشرة إلى الأربعين، منهم عبدالله بن أبي رأس المنافقين، وزيد بن رفاعه، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثه، وحننة بنت جحش. ﴿لا تحسبوه شراً لكم﴾: خطاب للمسلمين ولا سيما من بلغ منهم الأذى مبلغه. ﴿بل هو خير لكم﴾: يعني في الدنيا والآخرة: أما في الدنيا فلا أنه نزل بسببه تشريع عام خالد يحفظ الحرم ويصون المجتمع، ولما تمخض عنه من تبرئة عائشة حبيبة رسول الله والشهادة لآل بيت الرسول بالطهر والعفاف، وتبرئة الرجل الصالح صفوان، وأما في الآخرة فلما لهم من رفعة الدرجات بالصبر على المحنة والبلاء. ﴿لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم﴾: جزاء ما اجتراح من الذنب على قدر ما خاض فيه. ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾: كبر الشيء معظمه، وهو ابن أبي فهو الذي كان يجمعه ويذيعه ويشيعه.

ثم أدب الله المؤمنين والمؤمنات مما كان ينبغي أن يسلكوه في هذه القصة من أدب فقال:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (٢).

﴿لولا﴾: هلاً. ﴿مبين﴾: بين ظاهر. يعني هلاً قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، وظنوا بإخوانهم خيراً، ولو أنهم فعلوا لتبين لهم أن أم المؤمنين أولى بالبراءة وأحرى، ولتعفوا عن النطق بهذا الهجر من القول، ومن تأدب بهذا

(١) سورة النور: الآية ١١.

(٢) سورة النور: الآية ١٢.

الأدب الإلهي السامي سيدنا أبوأيوب الأنصاري، فقد قالت امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك!!

ثم قال تعالى:

﴿لَوْلَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١).

«عند الله»: يعني في حكمه وشريعته، لأنهم لم يستطيعوا أن يأتوا بشهداء، وحكم القاذف في الإسلام إن لم يأت بهم أن يحُدَّ حد القذف، وقد حدَّ النبي ﷺ الأربعة الذين صرحوا بالقذف لما تبين كذبهم بشهادة الوحي.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

«لولا»: حرف امتناع لوجود: يعني لولا أني فضلت أن أتفضل عليكم بضروب النعم في الدنيا التي من جلتها الإمهال، وقبول توبة التائبين، والترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة، لعاجلتكم بالعقوبة في الدنيا والعذاب الدائم في الآخرة. وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كحسان ومسطح وحننة، فاما من خاض فيه من المنافقين كابن أبي وأضرابه فليسوا مرادين لأنهم ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يؤهلهم لاستحقاق هذا.

ثم بين سبحانه الأحوال والملابسات التي كانت توجب أن ينزل بهم العذاب فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾: أي يتلقفه بعضهم من بعض من غير تحجر وثبت ثم يذيعه، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾: يعني أن قالة

(١) سورة النور: الآية ١٣.

(٢) سورة النور: الآية ١٤.

السوء التي نطقتم بها ليس لها ما يسندها من علم أو دليل، وليست نابعة عن اعتقاد وإنما هي شكوك وأراجيف لا تعدو طرف اللسان، ﴿وتحسبونه هيناً، وهو عند الله عظيم﴾^(١): هذه جريمة من جرائمهم وهي استصغارهم لذلك وهو عظمة من العظام عند الله، ولو لم تكن عائشة زوجة نبي لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وهي بالمنزلة التي لا تخفى عليكم نسباً وشرفاً وديناً؟
ثم قال سبحانه:

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ﴾^(٢)

«سبحانك»: كلمة تعجب من الأمر المستفزع «بهتان»: كذب فاحش وهذا تأديب آخر للمؤمنين أنه كان الأليق بهم أن يستعظموا هذه المقالة، ويظهروا ألسنتهم من النطق بها، ثم حذرهم سبحانه أن يعودوا لمثل هذه المقالة الفاحشة التي تجافي الإيمان فقال: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات، والله عليم حكيم﴾^(٣).

ثم قال سبحانه: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾^(٤). هذا تأديب إلهي ثالث لمن سمع قالة السوء أو علم بفاحشة أن لا يذيعها ويشيعها، لما في إشاعة الفاحشة من إثارة بواعث الشر في النفوس، وإيقاظ الفتنة بين الناس، وفي ذلك ما فيه من الإضرار بالأسر والجماعات.

ومن أدب النبوة في هذا قول رسولنا ﷺ: «من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة» رواه مسلم، وقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان

(١) سورة النور: الآية ١٥.

(٢) سورة النور: الآية ١٦.

(٣) سورة النور: الآيتان ١٧، ١٨.

(٤) سورة النور: الآية ١٩.

قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله تعالى في قعر بيته» رواه أبو داود.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١). جواب لولا محذوف أي لعاجلكم بالعقوبة، وفي هذا تكرير للمنة بترك المعالجة، وفي حذف الجواب إيجاز معجز لتذهب النفس فيه كل مذهب، فله در التنزيل، ما أبلغه وما أكثر بركاته!!

وما يتصل بآيات الإفاك قوله سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

«المحصنات»: العفاف، «الغافلات»: يعني عن الفاحشة، وهذا أسمى وصف يدل على العفة، فإن من العفاف من تخطر الفاحشة ببالها ثم لا تلبث أن تزول، ولكن أعف العفة أن تكون المرأة غافلة عن التفكير فيها والخطور بنفسها، ويدخل في هذه الأوصاف أمهات المؤمنين دخولاً أولياً ولا سيما عائشة التي كانت سبب نزولها، فالذين يرمون بالزنا المحصنات الغافلات المؤمنات ملعونون في الدارين على ألسنة الخلق والملائكة، ومطردون في الآخرة من رحمة الله، ولهم عذاب هائل لا يقادر قدره لعظم ما ارتكبوه.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَ يُؤْصَفُ بِهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾^(٣).

ومعنى شهادة الجوارح المذكورة أنه عز وجل ينطقها بقدرته، فتخبر كل جارية منها بما صدر عنها من الذنوب والآثام. ﴿دينهم الحق﴾: أي يعطيهم

(١) سورة النور: الآية ٢٠.

(٢) سورة النور: الآية ٢٣.

(٣) سورة النور: الآيتان ٢٤، ٢٥.

جزاءهم المطابق لمقتضى العدل والحكمة وافياً تاماً. ﴿الحق المين﴾: الحق الظاهر ألوهيته والظاهر حقّيته.

ثم ساق سبحانه دليلاً على براءة السيدة عائشة على ما هو السنة الجارية الغالبة فيما بين الناس، فقال: ﴿الخبيثات﴾: أي من النساء ﴿للخبِيثين﴾ من الرجال، ﴿والخبِيثون للخبِيثات﴾: ذكره وإن كان مفهوماً مما سبق مبالغة في التأكيد. ﴿والطيبات﴾ من النساء ﴿للطيبين﴾ من الرجال، ﴿والطيبون للطيبات﴾ أي والطيبون من الرجال للطيبات من النساء لا يتجاوزهن إلى من عداهن، وحيث كان رسول الله أطيب الطيبين، وخير الأولين والآخرين، فقد ثبت كون الصديقة من أطيب الطيبات، واتضح بطلان ما قيل فيها من الترهات. ﴿أولئك﴾: إشارة إلى آل البيت النبوي رجالاً ونساء، ويدخل فيه السيدة عائشة دخولاً أولياً. ﴿مبرءون مما يقولون﴾: منزهون عما يقوله أهل الإفك في حقهم من الأكاذيب. ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾: مغفرة لما عسى أن يقع منهم من خلاف الأولى، أو ما لا يسلم منه إنسان من الذنب، ورزق دائم لا يزول ولا يحول وهو الجنة.

ورحم الله الإمام الزمخشري حيث قال في تفسيره: (ولو قلبت القرآن، وفتشت ما أوعده به العصاة، لم ترَ الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ماركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه - ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث^(١) لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك ﴿أن الله هو الحق المين﴾ فأوجز في ذلك وأشبع، وفصّل وأجمل، وأكد

(١) يريد قول الله تعالى: ﴿إن الذين يرمون المحصنات...﴾، إلى قوله تعالى: ﴿الحق المين﴾.

وكرر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا بما هو دونه في الفطاعة وما ذلك إلا لأمر.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يُسأل عن تفسير القرآن، حتى سئل عن هذه الآيات فقال: «من أذنب ذنباً ثم تاب عنه قبلت توبته، إلا من خاض في أمر عائشة»، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك، وقد برأ الله أربعة بأربعة: برأ يوسف بلسان الشاهد ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾، وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه^(١)، وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها ﴿إني عبد الله﴾، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام، في كتابه المعجز، المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، والتنبيه على أنافة محل سيد ولد آدم، وخيرة الأولين والآخرين، وحجة الله على العالمين، ومن أراد أن يتحقق من عظمة شأنه ﷺ، وتقدم قدمه، وإحرازه لقصب السابق دون كل سابق - فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمل كيف غضب الله له في حرمة، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابته^(٢).

(١) هذه القصة رويت في صحيح البخاري، وقد أشار إليها الله في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيهاً﴾، وكانوا رموه بأنه «آدر» أي منتفخ الخصية، وبينما هو ذات يوم يغتسل في البحر وقد ترك ثيابه على حجر، إذ فرَّ الحجر بثوبه، فصار يجري وراءه وهو يقول: ثوبي يا حجر، فرأى الناس أن ليست به أدرة.

(٢) تفسير الكشاف، ج ٢ ص ٧٨.

غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ أَوِ الْأَحْزَابِ

كانت قريش تود لو أتيحت لها الفرصة للقضاء على النبي والإسلام، ولا سيما بعد ما أصابها من نكسة بسبب نكوصها عن الخروج في بدر الآخرة. وكان الأعراب الذين نال منهم النبي وصحابته موتورين ويتحينون الفرصة للانتقام. وكان اليهود من بني قينقاع وبني النضير الذين أجلاهم النبي عن المدينة مغيطين محنقين، ويسعون ما وسعتهم الحيلة في القضاء على هؤلاء الذين أجلوهم عن ديارهم، ونسوا عفو النبي عنهم، وكان يمكنه أن يبيدهم بدل إجلائهم، فلا تعجب إذا كانت قوى الشر الثلاث هذه قد تعاونت قصد القضاء على الإسلام والمسلمين، فكانت غزوة الأحزاب.

تأليب اليهود على النبي

وحمل اليهود وزر التأليب، فخرج وفد منهم على رأسهم حُيَيُّ بن أخطب النضري، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، ونفر من وائل حتى قدموا على قريش، فدعوهم إلى حرب النبي وقالوا: إنا سنكون معكم حتى نستأصله، فرحبت قريش بمقدمهم، واستجابوا لدعوتهم، وحرصوهم على مواصلة مسعاهم.

تفضيل اليهود الوثنية على الإسلام

وانتهزت قريش وجود هذا الوفد الحائق المضلل فقالوا لهم: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق

منه!! وإنما لسقطة من اليهود وهم أهل كتاب أن يفضلوا الوثنية على التوحيد، وقد سجل الله عليهم هذا الموقف المخزي فقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍ مُّشْرِكٍ سَبَّلْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مَا كَانُوا يَسْأَلُونَ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤَلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (١).

وكفى اليهود خزيًا أن يهودياً مثلهم قد أخذهم على هذا الموقف المشين، قال الدكتور إسرائيل ولفنسون في كتابه «تاريخ اليهود في بلاد العرب»: كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم (٢).

استمرار اليهود في تأليب القبائل

وخرج هؤلاء النفر، فطافوا على بني مرة، وبني فزارة، وبني أشجع وسليم، وبني سعد وأسد، وكل من له عند المسلمين ثار، يحرضونهم ويعلمونهم أن قريشاً معهم.

خروج الأحزاب

وتجمعت الأحزاب لحرب رسول الله والمسلمين، فخرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب في أربعة آلاف، معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة الذي قتل أبوه وهو يحمل اللواء يوم أحد. وخرجت غطفان يرأسها عيينة بن حصن الأحق المطاع، الذي صالحه رسول الله وأقطعه أرضاً يرعى فيها سوائمه، وكان معه ألف فارس. وخرج بنو مرة في أربعمائة برئاسة الحارث بن عوف المري. وتجهزت بنو سليم في سبعمائة مقاتل، وبنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدي، وبنو أشجع.

(١) سورة النساء: الآيات ٥١-٥٢.

(٢) حياة محمد ص ٣٢٠.

وهكذا تمزبت الأحزاب حتى صاروا عشرة آلاف قائلهم العام أبوسفیان بن حرب، وساروا قاصدين المدينة.

وكانت الخندق في شوال سنة خمس عند جمهور العلماء من أهل المغازي وغيرهم، وهو الصحيح^(١).

استشارة الرسول أصحابه

واتصل نبأ هذا الجمع الحاشد بالرسول، فاستشار أصحابه، أقيمون في المدينة أم يخرجون للقاء العدو؟ ولما كان عدد المهاجرين عظيماً لا يقبل للمسلمين على الوقوف أمامهم في سهل منبسط كسهل بدر دون أن تكون العاقبة عليهم، قرّر رأي المسلمين على أن يتحصنوا بالمدينة، ولكن أيجدي التحصن أمام هذا الجيش الكبير؟ وهناك تقدم سيدنا سلمان الفارسي إلى رسول الله يعرض عليه أن يحفر المسلمون خندقاً في الجهة الشمالية، وهي عورة المدينة لا يستطيع المهاجمون نفاذاً إلى المدينة إلا منها، إذ إن بقية مداخل المدينة ضيقة المسالك مشبكة البيوت والتخيل، لا يفكر العدو في النفاذ منها، لما يخشى أن يصيبه من أسطح المنازل ونحوها، ثم هي لا تتسع إلا لعدد من المهاجرين، مما يسهل على المسلمين تصيدهم وإبادتهم، فاستحسن الرسول الفكرة، ودعا له بخير.

حفر الخندق

وشرع المسلمون في حفر الخندق في جو بارد، ورسول الله معهم يحفر ويحمل التراب بنفسه، وقد جعل لكل عشرة منهم أربعين ذراعاً، واحتق المهاجرون والأنصار في سلمان كل يريد أن يكون من قبيله، فحسم الرسول الأمر بقوله: «سلمان منا أهل البيت»، وكان رسول الله ﷺ إذا رأى ما بهم من النصب والتعب نشطهم بمثل قوله:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

(١) البداية والنهاية، وفتح الباري، ج ٧ ص ٣٦٤ و ٣٧٥.

فيجيئون قائلين:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا
وهكذا تجاوزت المشاعر بالإيمان، والعزائم بالكفاح والجلاد.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن البراء بن عازب قال: لما كان
يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ، رأيته يحمل من تراب الخندق حتى وارى
عنه التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر، فسمعتة يرتجز بكلمات عبدالله بن
رواحه وهو ينقل التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بعوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا
ثم يمد صوته بأخرها، يعني بقول: أبينا. أبينا^(١).

ولا تسل عما كانت تصنعه هذه الكلمات المؤمنة العذاب في نفوسهم من
مضاعفة الجهد، والاستهانة بالنصب والتعب، وبهذا العمل الدائب أتموا حفر
الخندق في ستة أيام، وقد استعانوا بالأحجار الصلبة فاتخذوا منها مئارس
يتحصنون بها.

تخاذل المنافقين

على حين كان المؤمنون المخلصون يجهدون في حفر الخندق كان المنافقون
يتخاذلون، ويتسللون إلى أهلهم دون إذن الرسول. أما المؤمنون فقد كان
الواحد منهم إذا عرضت له الحاجة الملحة استأذن الرسول، فإذا قضى حاجته

(١) في مد الصوت بهذا المقطع من البيت ما فيه من التطابق بين اللفظ والمعنى واللحن
المعبر، فهو إباء أبي، متصل بمدود، لا يعرف الضعف والاستخذاء، ولا الاستكانة
والاستسلام.

رجع إلى عمله رغبة في الخير، وطلباً للأجر، وقد أنزل الله في هؤلاء وأولئك قوله:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ (١) ۝

نبوءات صادقة

وفي أثناء الحفر عرضت للمسلمين صخرة بيضاء صلبة شق عليهم كسرها، فذهب سلمان إلى رسول الله فأخبره عنها، فجاء فأخذ المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتها - يعني المدينة - حتى كأنها مصباح في ليل مظلم، فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون، ثم ضربها الثانية فكذلك، ثم الثالثة فكذلك. فسألوا رسول الله عن ذلك، فقال: «لقد أضاء لي من الأولى قصور الحيرة، ومدائن كسرى، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ومن الثانية القصور الحمر من أرض الروم، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ومن الثالثة قصور صنعاء، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا». فاستبشر المسلمون وقالوا: موعود صادق (٢).

وقد صدق الله نبوءة نبيه، فكانت معجزة ظاهرة من معجزات النبي، إذ لم يمض على هذه الحادثة إلا نحو ربع قرن حتى فتحت هذه البلاد كلها

(١) سورة النور: الآيتان ٦٢ - ٦٣.

(٢) روى هذه القصة ابن إسحاق، وابن جرير الطبري، والطبراني. وروى أصلها الإمام البخاري في صحيحه.

ودخلت تحت لواء الإسلام، ولذلك كان أبو هريرة - رضي الله عنه - يقول حين فتحت هذه الأمصار: افتتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك!!

وكنتم أحب من المنكرين لنبوة سيدنا محمد أن يتأملوا في هذه النبوءات التي صدقها الزمن، مع أنها قيلت في ظروف وملابسات ما كانت تشجع عليها، فإن أشد الناس تفاؤلاً ما كان يحول بخاطره أن يقول هذا، أو يفكر فيه؛ اللهم إلا أن يكون نبياً يوحى إليه.

ولا جائر لقائل أن يقول: لعلها رمية من غير رام فأصابت، لانا نقول: إن تاريخ حياته ﷺ، وما عرف عنه من الاتقاد والتروي في الأمور، وعدم المجازفة في القول، والبصر بالعواقب ونحو ذلك ما أقرب به الأعداء والأصدقاء يرد هذا الجواز، وبعده، فلم يبق إلا أنها نبوءات صادقة من نبوءات الوحي، فاعتبروا يا أولي الأبصار!!

جيش المسلمين

وبعد أن أتم المسلمون الحفر خرج النبي وأصحابه في ثلاثة آلاف من المسلمين بعد أن استخلف على المدينة عبدالله بن أم مكتوم، وكان يحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة، ولواء الأنصار سعد بن عباد، وأمر الذراري والنساء فجعلوا فوق الأطام (الحصون)، وأسند ظهر الجيش إلى جبل (سَلْع)، وجعل الخندق بينه وبين المشركين.

دهشة المشركين من الخندق

وأقبلت قريش بجموعها وهي ترجو أن يكون المسلمون بأحد، فجاوزته إلى المدينة، فإذا بها أمام الخندق، فدهشت وعجبت لأن العرب لم يكن لهم عهد بهذا النوع من الدفاع، واتخذت قريش ومن تابعها مكاناً لها حول الخندق، وعسكرت غطفان ومن تبعها من أهل نجد بمكان آخر، ورأوا أن لا سبيل إلى اجتياز الخندق، فاكثفوا بالتراخي بالنبال عدة أيام، وأيقنوا أنهم سيقبضون يوماً

طوالاً في هذا الشتاء القارص البرد، العاصف الرياح، المنذر بالمطر بين حين وآخر.

نقض بني قريظة العهد

وخرج حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عهدهم، فلما سمع به كعب أغلق بابه دونه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له وقال: يا حيي إنك امرؤ مشثوم، وإني عاهدت محمداً عهداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقا. وما زال حيي به حتى فتح له فقال: ويحك يا كعب لقد جئتك بعز الدهر، قال: وما ذاك؟ قال: لقد جئتك بقريش على قادتها وسادتها، وبغطفان على قادتها وسادتها، وقد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه، فقال كعب: دعني يا حيي، فإني لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا!!

وتكلم عمرو بن سعدى القرظي فذكر وفاء الرسول ومعاهدتهم إياه وقال: إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه، ولكن حياً ما زال بكعب يفتله في الذروة والغارب^(١) حتى غلبت عليه يهوديته فاستجاب له، ونقض ما بينه وبين الرسول من عهد، ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العهد إلا بني سعة: أسد وأسيد وثعلبة، فإنهم خرجوا إلى رسول الله ووفوا بالعهد.

استجلاء الرسول الخبر

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ بعث سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عباد سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير وقال: «انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنبؤوا أحق ما بلغنا عنهم؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه^(٢)، ولا تفتؤا في أعضاء المسلمين، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس».

(١) هذا مثل يضرب في المرافضة والمخاتلة، وأصله في البعير يستصعب عليك فتأخذ القراة من ذروته وغارب سنامه وتقتل هناك، فيجد البعير لذة فيأنس عند ذلك.

(٢) يعني أسلوب التعريض والتلويح لا التصريح.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوا أن الخبر صحيح، ووقعوا في رسول الله ونالوا منه، فجعل سعد بن معاذ يشاتمهم فأغضبوه، فقال له سعد بن عبادة: دَعْ عنك مشامتهم، فما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة، ثم أقبل السعدان ومن معهما فقالوا: عَصَل والقارة، أي غدر كغدرهم بأصحاب سرية الرجيع، فقال رسول الله: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»، ثم تقنّع بثوبه واضطجع، ومكث طويلاً، فغرفوا أنه لم يأتِه خير عن بني قريظة، ثم رفع رأسه وقال: «أبشروا بفتح الله ونصره».

اشتداد البلاء والخوف

وعظم البلاء على المسلمين، واشتد الخوف، فقد أتاهم العدو من فوقهم، ومن أسفل منهم، وتنوعت الظنون، وكثرت الهواجس، فأما المؤمنون المخلصون فازدادوا إيماناً، وأيقنوا أن نصر الله لا بد أن يكون، وأما المنافقون وضعفاء الإيمان فقد كشفوا عن خبيثة نفوسهم حتى قال بعضهم: كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقیصر وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!!

وعزم البعض على الرجوع إلى المدينة، وتعلّل بعضهم بأن بيوتهم مكشوفة غير محصّنة، واستأذنوا النبي ورجعوا، وهكذا استحکم البلاء، ولاح الشر من كل مكان. ولن تجد أدق في تصوير هذه الحالة من قوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَلَإِذْ يَقُولُ الْمُتَفَقِّهُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا...﴾ (الآيات (١)).

وقد اضطر الرسول وقد نقضت قريظة العهد أن يرسل مسلمة بن أسلم في مائتين، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفاً على النساء والذراري

(١) سورة الأحزاب: الآية ٩ وما بعدها.

من غدر اليهود، وهكذا تضاعف عدد الجيش الواقف للدفاع قبالة الخندق بانسحاب بعض المنافقين أولاً، ثم بهذا العدد الذي وجهه النبي لحراسة المدينة.

اقتحام بعض المشركين الخندق

وقد شجّع نقض قريظة العهد وطول المقام أمام الخندق بلا قتال بعض المشركين على اقتحام الخندق، فتيّموا مكاناً من الخندق ضيقاً وأكروها خيلهم فاقتحموه منه، فجالت بهم في أرض سبخة بين الخندق وسلع، منهم عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب بن مرداس، فأسرع إلى الخروج إليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم.

قتل عمرو بن عبد ود

وكان عمرو بن عبد ود أشجع فارس في العرب، وقد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد أحداً، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلماً^(١) ليرى مكانه، فلما اقتحم الخندق قال: من يبارز؟ فبرز إليه علي بن أبي طالب وقال له: يا عمرو إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه؟ قال: أجل، قال: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، فقال: لا حاجة لي بذلك، فقال له: فإني أدعوك إلى النزال، قال له: لم يا ابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك؟ فقال له علي: لكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي، فتنازلا وتجاولا، فقتله علي رضي الله عنه، فخرجت خيل الباقيين منهزمة حتى اقتحمت الخندق هاربة.

وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له بعد ما غربت الشمس يريد أن يجتاز الخندق، فهوى هو والفرس فصرعا، وقيل بل نزل إليه علي بن أبي طالب فقتله، وقيل قتله الزبير بن العوام.

(١) جعل لنفسه علامة ليعرف بها.

فأرسل أبو سفيان بن حرب يعرض دية جثته مائة من الإبل، فرفض عليه الصلاة والسلام ذلك وقال: «خذوه فإنه خبيث، خبيث الدية، نحن لا نأكل ثمن الموتى»!!

ورُمي سعد بن معاذ يومئذ بسهم ففُطع أكحله^(١)، وكان جرحه سيباً في وفاته كما ستعلم، واستمرت المناوشة والمراعاة بالنبال يوماً كاملاً، وجعل رسول الله ﷺ على الخندق حراساً حتى لا يقتحمه المشركون بالليل، وكان يحرس بنفسه ثلثة فيه مع شدة البرد.

محاولة لتفريق الأحزاب

ثم رأى رسول الله ﷺ أن يَحْذُلَ بين الأحزاب ويفرق جمعهم، فبعث إلى عيينة بن حصن، والحارث بن عوف المرِّي - وهما قائدا غطفان - وسأومهما على أن يأخذا ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معها، فقبلا، ولكن الرسول ما كان ليبرم أمراً لم ينزل فيه وحي حتى يستشير أصحابه.

فأرسل إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد فذكر لهما ذلك، فقالا: يا رسول الله أمراً نحبه فنصنعه؟ أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحد، وكالبوكم - اجتمعوا عليكم - من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟!!

والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك».

(١) عرق في الذراع.

ويرى بعض المؤرخين أن عرض الرسول عهد الصلح هذا لم يقصد به العرض حقيقة، وإنما سبراً لغور الأنصار، وتعرفاً لمبلغ استعدادهم للذود عن المدينة، والتضحية بالنفس في سبيل العقيدة، وقد ظهر له ﷺ أن الأخطار والمخاوف وتكالب عوامل الشر لم تزدهم إلا إيماناً وصلابة في الدفاع عن دينهم.

الحرب خدعة

إن الله سبحانه إذا أراد شيئاً هياً له الأسباب ويسّر له الوسائل، وقد ساقط الأقدار نعيم بن مسعود الأشجعي - وهو من غطفان - إلى رسول الله، وكان صديقاً لقريش واليهود، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وقومي لا يعلمون بإسلامي، فمروني بأمرك حتى أساعدك.

وتفتّق العقل الكبير عن هذا التوجيه الرائع والإيمان إلى العمل السياسي البارع، فقال له: «أنت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة^(١)».

وكان نعيم عند حسن ظن النبي وأهلاً لتوجيهه، فخرج من عند النبي وتوجّه إلى بني قريظة فقال: يا بني قريظة تعرفون ودّي لكم، وخوفي عليكم، وإني محدثكم حديثاً فاكموه عني، قالوا: نعم لست عندنا بمتهم، فقال: لقد رأيتم ما وقع ببني قينقاع والنضير، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم، فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم، وأما أنتم فتساكنون الرجل - يريد الرسول - ولا طاقة لكم بحربه وحدكم، فأرى أن لا تدخلوا في هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم، بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه. فاستحسنوا رأيه وقالوا: قد أشرت بالرأي.

(١) خدعة بفتح المعجمة وضمها مع سكون المهملة، ويضم أوله وفتح ثانيه وهي أشهر لغاتها، وأفصحها الأولى حتى قال ثعلب: إنها لغة النبي. ومعنى الأولى أن الحرب تنتهي بخدعة واحدة، والثانية أن الشأن في الحرب الخداع، والثالثة صيغة مبالغة أي كثيرة الخداع.

ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال: أنتم تعرفون ودي لكم ومحبي إياكم، إني محدثكم حديثاً فاكموه عني، فقالوا نفعل، فقال لهم: إن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان جمعاً من أشrafهم، ونعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي، ولا أظنكم تهتموني، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، قال لهم: فاكموا عني قالوا: نفعل، ثم أخبرهم بما أخبر به قريشاً، وحذّره مثل ما حذّره.

نجاح التدبير

فلما كانت ليلة السبت من شوال أرسل أبو سفيان بن حرب رؤوس غطفان وفداً برئاسة عكرمة بن أبي جهل إلى بني قريظة فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر - الإبل والحيل - فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم أن اليوم يوم السبت، ولم يصبنا ما أصابنا إلا من التعدي فيه، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم، فإننا نخشى إن ضررستكم الحرب^(١) واشتد عليكم القتال أن تذهبوا إلى بلادكم وتركونا، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به.

فلما رجعت إليهم الرسل بذلك قالوا: والله إن الذي حدّثكم نعيم بن مسعود لحق!! فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فلما انتهت إليهم الرسل بذلك قالت قريظة: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق!! فأرسلوا إلى قريش وغطفان: أنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن. وهكذا بلغ هذا التدبير المحكم غايته بالفرقة بين قريظة والأحزاب.

(١) ضررستكم: ضعضتكم ونالت منكم.

دعاء وابتهال

وفي هذه الغمرة من الشدائد والمخاوف كان النبي ﷺ وأصحابه لا ينفكون عن الدعاء والتوجه إلى رب السماء. ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا يوم الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وزلزمهم»، وفي رواية: «اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم». وعن أبي سعيد الخدري قال: قلت يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟! قال: «نعم، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا»^(١).

هزيمة الأحزاب

واستجاب الله لرسوله والمؤمنين، ونزل المدد من السماء، وأرسل الله عليهم ريحاً شديدة في ليلة شاتية باردة، فهدمت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وفعلت فيهم جنود الله غير المرئية الأفاعيل، فامتلات قلوبهم رعباً وخوفاً، وساد المهرج والمرج والجلبة والصياح.

تعرف أخبار القوم

وكان رسول الله ﷺ مستيقظاً لا ينام، وقائماً لا ينفك عن الصلاة، فلما سمع الجلبة قال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؟»، فما قام رجل من القوم من شدة الخوف والبرد والجوع، فلما لم يقم أحد دعا حذيفة بن اليمان، قال: فلم يكن لي من بدّ من القيام حين دعاني، فقال: «يا حذيفة اذهب فادخل القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا».

قال: فذهبت فدخلت في القوم وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، فقام أبوسفيان فقال: لينظر كل امرئ من جلسه؟ فأخذ حذيفة بيد الرجل الذي كان جنبه، فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان، وتنادى الأعراب بالرحيل، وقام طليحة بن خويلد الأسدي فقال: إن محمداً قد بدأكم بشر فالنجا

(١) رواه أحمد في المسند.

النجاء!! ثم نادى أبوسفیان بالرحيل فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف^(١)، وأخلفتنا قريظة، ولقيتنا من شدة الريح ماترون، فارتحلوا فإني مرتحل!! ثم قام إلى بعيره وركبه، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فأسرعت إلى ديار قومها.

ثم رجع حذيفة ورسول الله يصلي وعليه كساء يمني، فلما فرغ من صلاته أخبره الخبر، فغطاه رسول الله بطرف كسائه، حتى ذهب عنه القر، فما زال نائماً حتى أصبح.

الأوبة إلى المدينة

وآب النبي وأصحابه إلى المدينة، وقد أزال الله الكرب، وكشف الغمة، ووعد أصحابه أن لا يغزوهم المشركون بعد هذا بل هم الذين سيعززونهم، فما قامت للمشركين بعدها قائمة، وما زال أمر المسلمين في ازدياد حتى توج ذلك بفتح مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

وعاد الرسول والمسلمون وهم يكبرون ويقولون: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير: آيئون تائبون، عابدون ساجدون، لربنا حامدون، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده.

* * *

(١) الكراع: الخيل. الخف: الإبل.

ما نزل من الآيات في غزوة الأحزاب

وقد أنزل الله سبحانه في هذه الغزوة بضع عشرة آية من سورة الأحزاب، وإليك تفسيرها موجزاً:

قال عز شأنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾: خطاب للمؤمنين الذين هم أهل العبرة والذكرى. ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾: وهي رجوع الأحزاب مدحورين مخذولين، ورجوعكم منصورين آمنين. ﴿إذ جاءكم جنود قريش وغطفان وأتباعهما﴾ فأرسلنا عليهم ريحاً عاصفة في ليلة مطيرة، ففُرضت أجسامهم، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وكفأت قدورهم ﴿وجنوداً لم تروها﴾ هم الملائكة ألقوا في قلوبهم الرعب والخوف، فذهبت معنوياتهم ورجعوا ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ بتاء الخطاب أي من نصرة نبيكم، فيجازيكم أحسن الجزاء. وقرىء في السبع بالياء، أي من تأليبهم على نبيّه، وتخزيهم عليه، فهو وعيد لهم.

ثم صور سبحانه ما نزل بهم من بلاء وشدة لتعظم النعمة بأبلغ عبارة، فقال: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم﴾ هم قريش وغطفان وأحلافهما ﴿ومن أسفل منكم﴾ هم بنو قريظة لما نقضوا العهد وأرادوا أن يطعنوهم من ظهورهم^(١)

(١) وقيل: «من فوقكم» بنو قريظة «ومن أسفل منكم» قريش وغطفان. وقيل من فوقكم عيينة بن حصن ومن معه، ومن أسفل منكم أبو سفيان ومن معه. والأول أولى، ويشهد له ما رواه الحاكم عن حذيفة قال: (لقد رأيتنا ليلة الأحزاب وأبو سفيان ومن معه من مكة من فوقنا، وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أنت علينا ليلة أشد ظلمة ولا ريحاً منها، فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون: إن بيوتنا عورة. فمرّ بي النبي =

﴿وإذ زاغت الأبصار﴾ فلا تثبت ولا تستقر على حال من شدة الخوف ﴿وبلغت القلوبُ الحناجر﴾ لما كان من شأن الخائف المذعور أن تنتفخ رثاه فتضغطان على القلب فيرتفع قليلاً، كثر بذلك عن شدة الخوف ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ الحسنة من جانب المؤمنين، وهي أن الله ناصر رسوله مهما اشتد البلاء والجهد، والسيئة من جانب المنافقين وضعفاء الإيمان الذين زعموا أن الله خاذل رسوله ودينه.

﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً﴾ تصوير بالغ في الإعجاز لما اعتراهم من الضيق والانحصار بين عدوين لدودين: الأحزاب واليهود.

ثم قصَّ الله سبحانه ما قاله المنافقون وضعفاء الإيمان فقال: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ باطلاً وزخرفاً من القول، ويمثل هؤلاء من قال: إن محمداً يعدنا ملك كسرى وقيصر، ولا يقدر الواحد منا أن يذهب إلى الغائط، وهناك طائفة أخرى وهم عبدالله بن أبي وأصحابه حرَّضت على الرجوع إلى المدينة متعللين بالتعللات الباطلة، وهم المعنيون بقوله سبحانه: ﴿وإذ قالت طائفة منهم: يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا﴾ يثرب هي المدينة وكانت تعرف بهذا في الجاهلية، سماها النبي (طابة) و(طيبة)، وهناك طائفة ثالثة اعتذرت بالأعذار الواهية وهم المرادون بقوله سبحانه: ﴿ويستأذن فريق منهم النبي، يقولون: إن بيوتنا عورة﴾ يعني مكشوفة للعدو والسراق غير محصنة، وهم قوم من بني حارثة ويمثلهم أوس بن قيثي، وقيل هم قوم من بني حارثة وبني سلمة، وقد أكذبهم الله في هذا فقال: ﴿وما هي بعورة، إن يريدون إلا فراراً﴾.

ثم بين سبحانه أن القائلين ذلك قوم جبناء لا يتصرفون لدين ولا حق ولا فضيلة، ولا تهمهم إلا أنفسهم، فقال سبحانه: ﴿ولودَّخِلَتْ عليهم من

= ولم يبق معه إلا ثلاثمائة فقال: «أذهب وأتني بخبر القوم» ودعا لي، فأذهب الله عني القر والفرع، فدخلت عسكرهم، فإذا الريح فيه لا تجاوزه شبراً، فلما رجعت رأيت فوارس في طريقي فقالوا: أخبر صاحبك أن الله عز وجل كفاه اليوم). فتح الباري ج ٧ ص ٤٠١.

أفطارها ثم سئلوا الفتنة لآئوها ﴿﴾ بالمد، أي لأعطوها، وبغيره أي لجأؤوا بها، والمراد بالفتنة الشرك والردة، أفطارها: جوانبها وهي المدينة ﴿﴾ وما تَلَبَّثُوا بها إلا يَسيراً ﴿﴾ يعني أنهم لو سئلوا الفتنة لما تَرَيُّثُوا في الإجابة إلا قليلاً ثم أعطوها، وهذا يدل على نفاقهم وضعف اعتقادهم ﴿﴾ ولقد كانوا عاهدوا الله مِن قَبْلُ لا يُولُون الأدبار، وكان عهد الله مسئولا ﴿﴾ هم بنو حارثة همُوا أن ينكصوا يوم أحد مع بني سَلَمَةَ فثبتهما الله، ثم عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها أبداً، فلما كانت غزوة الأحزاب نكصوا وعادوا لما هموا به.

ثم بَيَّنَّ سبحانه أن الجبن لا ينجي من القدر، وأن الموت بسيف، أو بدونه لا بد أن يكون، وهبوا أنكم فررتم من أسباب الموت فما تتمتعون في الحياة إلا قليلاً، فإن الحياة مهما طالت فهي قصيرة وعمر تأكله ذرات الدقائق والثواني وإن كثر فهو قليل، فقال: ﴿قُلْ لَن يَنْفَعَكُم الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ، وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم بَيَّنَّ سبحانه أن الموت والحياة، والخير والشر بيد الله، ولو أراد الله بكم سوءاً نزل بكم، ما عصمكم منه أحد منكم ولو أراد بكم خيراً ما منعه أحد عنكم، فقال: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بَكُم سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُم رَحْمَةً؟ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولياً ينفَعكم، ونصيراً يدفع الضر عنكم.

ثم قال سبحانه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ المنكصين من القتال ونصرة الإسلام ﴿﴾ والقائلين لإخوانهم هَلُمُّوا إلينا، ولا يأتون البأس إلا قليلاً ﴿﴾ هَلُمُّوا: تعالوا، البأس: الحرب، وهم عبدالله بن أبي ومن رجع معه إلى المدينة، فلم يكتفوا بزلتهم بل حاولوا استئلال غيرهم إلى القعود عن نصرة رسول الله ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾ بخلاء بالمعونة والإنفاق في سبيل الله.

ثم صَوَّرَ الله جبنهم أبلغ تصوير بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ جاء الخوف أي أسبابه لم تستقر أعينهم على حال، كالذي غشيتة سكرات الموت ﴿﴾ فإذا ذهب الخوف سَلَقُوكُم بِالسَّيِّئَةِ جَدَاداً ﴿﴾ نالوكم بالسنة بذئمة سليطة ﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ يعني أن

سَحَّهم عليكم إنما هو لأن أنفسهم شحيحة بالخير ﴿أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم﴾، وكان ذلك على الله يسيراً ﴿فإن من شأن النفاق أن يُحبط الله به الأعمال فلا ثواب لها﴾.

ثم بين الله شدة خوفهم وجبنهم فقال: ﴿يَحْسِبُونَ الأحزاب لم يذهبوا، وإن يأتِ الأحزاب - يعني مرة ثانية - يودُّوا لو أنهم بادُّون في الأعراب﴾ أي مقيمون في البادية حتى لا يصيبهم أذى ﴿يسألون عن أنبائكم، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ يعني أنهم حتى وهم مقيمون بالبادية لا يجرؤون أن يتعرفوا أخباركم بأنفسهم، بل يتعرفونها ممن يأتي من ناحيتكم، ومثل هؤلاء لا ترجون قتالهم معكم ونصرتهم لكم، لأنهم إن قاتلوا فمراءة وستراً لنفاقهم وتضليلاً لغيرهم.

ثم أقبل على المؤمنين فقال: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ الأسوة بضم الهمزة وكسرهما: القدوة، ورسول الله ﷺ محل القدوة في الصبر والشدائد، والثبات في الحروب، والصدق عند اللقاء، وفي كل شيء محل الاتساء، وإنما يأتي برسول الله الذين يرجون رحمة الله وثواب الآخرة، ولا ينفكون عن ذكر الله، ومثل هؤلاء قلوبهم حاضرة، وضمايرهم حية، وأعمالهم كلها خير وصلاح.

ثم ذكر الله سبحانه المؤمنين وصدقهم في عقيدتهم، وتصديقهم بما وعدهم الله ورسوله مهما عظم البلاء، وأن ذلك لا يزيدهم إلا ثباتاً على الإيمان، وصبراً على البلاء، وتسليماً للقضاء، فقال سبحانه: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾ فانظر الفرق بين الصورتين: صورة المؤمنين المشرقة، وصورة المنافقين المخزية.

ثم بين سبحانه أن من المؤمنين من سبق إلى الشهادة، ووفى بعهده، وأن منهم من ينتظرها ويترقبها، وأن هؤلاء وأولئك صدقوا الله بالإيمان، وثبتوا على الوفاء، فقال عز شأنه: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً﴾ النحب: النذر اللازم،

وقد أريد به هنا الموت، وكان المجاهد الذي خرج مخاطراً بنفسه فاستشهد قد نذر نفسه لله ثم وفى بنذره، ومن هؤلاء الذين قضوا نحبهم من استشهدوا في بدر وأحد وغيرها.

ثم بين سبحانه أن الغاية من البلاء والاختبار بالمحن والشدائد أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق، فيجازي الأول خيراً والثاني شراً، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ - يَعْنِي إِنْ تَابُوا - إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾. ثم ختم الله القصة بتذكيرهم بنعمة الله عليهم بهزيمة الأحزاب، وارتدادهم صاغرين، فقال: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً - نَصراً - وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ وَمَنْ كَانَ مِلَاذَهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُغَالَبُ فَقَدْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ وَحَلِيفٍ عَظِيمٍ.

زواجه ﷺ بزینب بنت جحش

هي السيدة زينب بنت جحش الأسدية، أخت شهيد أحد المجذع في الله عبدالله بن جحش، وأمها السيدة أميمة بنت عبدالمطلب عمة النبي ﷺ، فهي من أوسط العرب داراً ونسباً، تزوجها النبي ﷺ بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة، وقد تحقق بذلك غرضان شريفان: إبطال حرمة زوجة الابن المتبني، والقضاء على عنجهية الجاهلية بالاعتزاز بالأحساب والأنساب.

ذلك أن العرب كان من عادتهم التبني، وكانوا يلحقون الابن المتبني بالابن العنسي، وتجري عليه حقوقه في الميراث وحرمة زوجه على من تبناه، وكانت تلك العادة متأصلة فيهم. كما كان كبيراً عندهم أن تتزوج بنات الأشراف من موالٍ وإن أعتقوا وصاروا أحراراً.

فلما جاء الإسلام كان من مقاصده أن يزيل الفوارق بين الناس التي تقوم على العنصرية وحمية الجاهلية، فالناس كلهم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، وأن يقضي على بدع الجاهلية، وقد شاء الله أن يكون أول عتيق يتزوج بعربية في الصميم من العرب هو زيد بن حارثة، وأن يكون أول سيد يبطل هذه العادة الجاهلية هو رسول الله، فما على بنات الأشراف أن يتزوجن بعد من الموالي وهذه زينب بنت جحش قد اقترنت بزید، وما على سادات العرب أن يتزوجوا بأزواج أدعيائهم بعد فراقهم هن، وإمام المسلمين ومن يصدع بأمر الله قد فتح هذا الباب الموصد، وتزوج حليمة متبناه بعد فراقها، وقد كان ما أَرَادَهُ الله في تشريعه الحكيم.

فرسول الله بخطب زينب لزيد فتأنف وتأبى ويأبى بعض أهلها، وينزل الوحي من السماء بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(١).

فلم يكن بد من الإذعان والخضوع لما أراد الله ورسوله، فيتزوجها زيد، ولكنه وجد منها تعاضماً وترفعاً، وكان يؤذيه ذلك، فرغب في فراقها وذهب إلى النبي ﷺ يعرض عليه طلاقها، فكان ينصحه بإمساكها، وكان جبريل قد أخبر رسول الله بأن زينب ستكون من أزواجه، وسيبطل الله بزواجه منها هذه العادة الجاهلية، ولكن النبي وجد غضاضة على نفسه أن يأمر زيداً بطلاقها ثم يتزوجها، فتشيع القالة بين الناس أن محمداً تزوج حليلة ابنه كما كان يدعى في الجاهلية، ويصير عرضة للقليل والقال، وإرجاف المرجفين، وهو في دعوته إلى الله أحوج إلى تأييد المؤيدين، وقطع طريق التقول عليه من المبغضين.

فهذا القدر من خشية الناس حتى أخفى في نفسه ما أظهره الله بعد من تزوجه بها هو ما عاتبه الله عليه، وقد صدع الوحي بالسبب الباعث على زواج النبي منها فقال عز شأنه:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ^(٢) وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ^(٣) أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٤).

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٢) يعني بالإسلام وهو زيد.

(٣) يعني بالعتق.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

ثم ردَّ الله سبحانه على من عسى أن يتقولَّ على النبي بسبب زواج النبي من زينب أو من غيرها من أمهات المؤمنين، ويفتري عليه فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ، سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا. الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(١).

نعم هذه سنة الله في الأنبياء السابقين، فقد كان لداود مائة من الزوجات فضلاً عن السراري، وكان لسليمان ما يزيد عن المائة، فلئن كان لخاتم الأنبياء أكثر من أربع فليس يبدع من الرسل.

ثم بين الله بطلان التبني وبطلان ما يترتب عليه من الحقوق والآثار فقال عز شأنه:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(٢).

كما بين الله سبحانه إبطال التبني في الإسلام، وبين أنه لا يستقيم في منطق العقل أن يكون دعيًا وابناً، فقال عز شأنه:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَى تَطَاهُرُونَ مِنْهُنَّ أَمْهَنَكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ^(٣) أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٤).

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٣٨ - ٣٩.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

(٣) جمع دعي وهو المتبني.

(٤) سورة الأحزاب: الآيتان ٤ - ٥.

ومن بعدها صار يُدعى مولى النبي «زيد بن حارثة» ولا يقال: «زيد بن محمد»، وكذلك صنع المسلمون في مواليتهم.

الروايات الصحيحة تؤيد ما ذكرناه

وهذا الذي ذكرناه في تفسير الخشية هو ما جاءت به الروايات الصحيحة والحسنة، ففي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أن هذه الآية: ﴿وتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، وفي رواية أخرى عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتق الله وأمسك عليك زوجك». قال أنس: (لو كان رسول الله ﷺ كائناً شياً من الوحي لكتم هذه الآية)، يعني لما فيها من عتاب، وهذا من أكبر الأدلة على أنه نبي يوحى إليه. قال الحافظ الكبير ابن حجر في فتح الباري^(١) تعليقاً على رواية البخاري: وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السُّدِّي، فساقها سياقاً واضحاً حسناً ولفظه: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبدالمطلب عمه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجه زيد بن حارثة مولاه، فكرهت ذلك، ثم رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه، ثم أعلم الله عز وجل نبيه بعد أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال بين زيد وزينب ما يكون بين الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه، وأن يتقي الله وكان يخشى أن يعيب عليه الناس ويقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيداً). وروى ابن أبي حاتم أيضاً والطبري عن علي بن الحسين بن علي قال: (أعلم الله نبيه أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها وقال له: «اتق الله وأمسك عليك زوجك» قال الله: قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه).

وهذا ما ذهب إليه المحققون من المفسرين وغيرهم في تفسير الخشية، كالزهري، والقاضي بكر بن العلاء القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي،

(١) ج ٨ ص ٤٢٥.

والقاضي عياض في الشفاء^(١)، والحافظ المؤرخ ابن كثير في التفسير والبداية والنهاية.

روايات واهية مرسوسة

ورويت روايات واهية ساقطة في بعض كتب التفسير والقصص التي لا تعنى بالنقد والتمييز بين الروايات، مثل ما روي عن قتادة وابن زيد أن رسول الله ﷺ ذهب إلى بيت زيد في غيبته، فرأى زينب في زينتها، وفي رواية: أن الريح كشفت عن ستر بيتها فرآها في حسنها، فوقع حبها في قلبه، فرجع وهو يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان مقلب القلوب»، فلما حضر زيد أخبرته بكلام رسول الله، فذهب إليه وقال: بلغني أنك أتيت منزلي فهلاً دخلت يا رسول الله، لعل زينب أعجبتك فأفارقها، فقال له رسول الله: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، فنزلت الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ...﴾.

وقد ذكر هذا الهراء في تفسير الجلالين، والزمخشري، والنسفي، وابن جرير، والثعلبي إلا أن ابن جرير ذكر بجانب هذا الباطل المكذوب رواية علي بن الحسين الأنفة وهي الصحيحة.

وذكر مثل هذه الروايات الباطلة عقلاً ونقلاً غفلة شديدة، وقد تذرّع بها أعداء الإسلام في التهجم على النبي، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم متهم بالكذب والتحديث بالغرائب ورواية الموضوعات، وقد تنبه لزييفها وبطلانها الكثيرون من المحدثين والعلماء الراسخين، قال الحافظ ابن حجر في الفتح^(٢) بعدما ذكر الصحيح في تفسير الخشية: (ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري، ونقلها كثير من المفسرين، لا ينبغي التشاغل بها، وما أوردته هو المعتمد). وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره^(٣) عند تفسير هذه الآية: (ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير هنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردناها).

(١) تفسير القرطبي، والآلوسي عند تفسير هذه الآية.

(٢) ج ٨ ص ٤٢٥.

(٣) ج ٥ ص ٥٦٠.

أباطيل المبشرين والمستشرقين

وقد نسج المستشرقون والمبشرون المحترفون الذين يتأكلون بالاختلاق على الإسلام ونبيه من تلك الروايات الواهية المردودة أثواباً من الكذب والخيال، وصوروا النبي صلوات الله وسلامه عليه بصورة الرجل الذي لا هم له إلا إشباع رغباته الجنسية والجري وراء النساء، يقول الدكتور محمد حسين هيكل، رحمه الله: (ويطلق المبشرون والمستشرقون لخيالهم العنان حين يتحدثون عن تاريخ محمد في هذا الموضوع، حتى ليصور بعضهم زينب ساعة رآها النبي وهي نصف عارية أوتكاد، وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يكفه من كل معاني الهوى. ويذكر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب، وكانت ممددة على فراشها في ثياب نومها، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتها، فكتم ما في نفسه وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلاً!! وأمثال هذه الصور التي أبدعها الخيال كثيراً تراه في موير، وفي در منجم، وفي واشنطن إرفنج، وفي لامنس وغيرهم من المستشرقين والمبشرين)^(١).

وكذلك صوروا النبي بصورة الرجل الشهواني الغارق في لذات الجسد، الذي لم يكتف في الزواج بواحدة ولا بأربع، بل أطلق لنفسه العنان في التزوج بالنساء، ومن هؤلاء القسيس «فندر» في كتاب له حشاه بالجهل والسفه، والزور والبهتان، والتجني الأثم على النبي ﷺ.

تهافت كلامهم

ما اتفق خصوم الإسلام على شيء كما اتفقوا على تشويه سمعة النبي في موضوع تعدد زوجاته ﷺ، وقد اعتمد هؤلاء في طعنهم على بعض ما أطلعناك عليه من روايات مختلفة مدسوسة عند أئمة النقد وعلماء الرواية، أغلب الظن أنها من صنع أسلافهم من اليهود والزنادقة من الفرس وغيرهم، الذين عجزوا

(١) حياة محمد، ص ٣٠٨.

أن يقاوموا سلطان الإسلام وقوته، فلبجأوا إلى الكذب والدس؛ وجاز هذا الزور على بعض الأغرار من المسلمين، فروّوه وذكروه في كتبهم، ولكنه ما كان يخفى على العلماء الراسخين، فنبهوا على كذبه، وحذّروا من التصديق به، وهكذا نرى أنهم أقاموا من مزاعمهم قصراً على أساس من خيوط العنكبوت وما أوهنها من أساس.

وثمة حجة دامغة تذهب بالقصة من أساسها، فالسيدة زينب هي بنت عمّة رسول الله، وقد ربيت على عينه، وشهدها وهي تحبّو، ثم وهي شابة، وله بحكم صلة القرابة معرفة بها وبمفاتها، ولا سيما أن النساء كن يبدن من محاسنهن ما حرمه الإسلام فيما بعد، وهو الذي خطبها لمولاه زيد فتمنعت حتى نزل الوحي أن لا خيرة لأحد بعد قضاء الله ورسوله، فغير معقول والحال كما ذكرت أن لا يكون شاهدها، فلو كان يهاها، أو وقعت من قلبه فأي شيء كان يمنعه من زواجها من أول الأمر، وإشارة منه كانت كافية لأن يقدمها له أهلها وما ملكت، فمثله وهو في الذروة من قریش نسباً وديناً وخلقاً وخلقة وصحة ممن تتناول إليه الأعناق وتهفو القلوب، فلو كان كما يزعم المتخرصون تمتد عينه إلى كل من يهوى ويستحسن لتزوجها وهي بكر عذراء، لا أن يسكت حتى يجني جناها ويقطف زهرتها رجل مولى له، ثم بعد ذلك يرعى حيث رعى، فلولا أنه يتزوج لتشريع أو الحكمة سامية لما رضي بذلك.

وأيضاً فحياة رسول الله ﷺ لم تكن حياة حب واستهتار، ولا عرف عنه أنه كان صريع الغواني، وإنما كانت حياة الشرف والكرامة والعفة والترفع عن الدنایا قبل نبوته وبعدها، ما عرفت الدنيا أظهر ذيلاً منه، ولا أعف منه، ولا لمست يده قط يد امرأة لا تحل له، ولما بايع النساء على الإيمان والطاعة، ونبذ المعاصي والفجور، بايعهن بدون مصافحة، مع أن المصافحة كانت من ملازمات البيعة والمعاودة في الجاهلية والإسلام، وكيف يكون على ذلك الخلق الذي لا نرضاه لرجل من سوقة الناس فضلاً عن أنبياء الله ورسله - مَنْ خاطبه مولاه بقوله: ﴿وَأَنْتَ لَعَلَّ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾؟

ولو كان رسول الله متيماً بالنساء ومغرمًا بمفاتنهن - كما زعموا - لأشبع رغبته بالأزواج الكثيرات وهو في ميعة الصبا وشرخ الشباب، أيام أن كان الغيد الكواعب، والخيرات الحسان من بنات الأشراف تشرئب أعناقهن إلى أن يكن حليلات له، ولا سيما وأن التعدد عند العرب في الجاهلية لم يكن له حد محدود، ولكنه قضى زهرة شبابه ومعظم حياته الزوجية مع سيدة كانت عند اقترانه بها تعدو الأربعين، ورضيها قانعاً بها حتى توفاه الله قبيل الهجرة، ومهما قيل في السيدة خديجة وما كانت تتمتع به من جمال في شبابها، فهناك - ولا شك - غيرها من الأبنكار الشابات من يفقنها في الجمال، وللأبنكار ما لهن من جاذبية وروعة وسحر، ومن قضى بغير ذلك فقد خالف سنة الله في الفطرة.

تعدد الزوجات سنة من سنن الأنبياء

وأحب أن أقول للمبشرين والمستشرقين وأبواقهم المتابعين لهم: إن تعدد الزوجات سنة من سنن الأنبياء والمرسلين، وإن التسري في الحروب ليس بدعاً في الإسلام، فقد نصت التوراة التي يعترف بها هؤلاء على إباحة تعدد الزوجات والسراري بدون تحديد، ففي التوراة: إذا خرجت لمحاربة أعدائك، ودفعهم الرب إلهك إلى يدك، وسييت منهم سبياً ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة، والتصقت بها، واتخذتها لك زوجة، فحين تدخلها إلى بيتك، تحلق رأسها، وتقليم أظفارها، وتنزع ثياب سبيها عنها، وتقعد في بيتك، وتبكي أباهاً وأمها شهراً من الزمان، ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها، فتكون لك زوجة، وإن لم تسريها فأطلقها لنفسها^(١).

وقد نصت التوراة على أن إبراهيم أبا الأنبياء عدّد الزوجات، وجَدّعون وهو من الأنبياء عند اليهود تزوج نساء كثيرات جمع بينهن، أما داود فقد نصت على أنه تزوج سبعاً: ذكرتهن بأسمائهن^(٢)، ثم قالت: إنه تزوج غير ذلك نساء

(١) سفر التثنية - الإصحاح ٢١، فقرة ١٠ وما بعدها.

(٢) سفر صموئيل الثاني - الإصحاح ٣، فقرة ٣ - ٥، وسفر صموئيل الأول -

الإصحاح ١٨.

كثيرات، واتخذ سراري بدون قيد^(١). وكذلك نصت التوراة على كثرة نساء نبي الله سليمان - عليه السلام - وكثرة سراريه كثرة تفوق الحد.

ففي التوراة: «وكانت له - سليمان - سبع مئين من النساء السيدات، وثلاث مئين من السراري»^(٢).

فإذا كان تعدد الزوجات والسراري مباحاً بنص التوراة التي يقدسونها لأنبيائهم، فكيف اعتبروه نقيصة ومطعناً لسيد البشر، وخاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه!!!.

ومن قبل طعن أسلافهم اليهود في النبي بسبب هذا، فرد عليهم القرآن أبلغ رد، وذكرهم بأن التعدد سنة من سنن الأنبياء والمرسلين الذين كانوا قبله. روي أن اليهود عيّرت رسول الله ﷺ، وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء^(٣)، فأنزل الله سبحانه في الرد عليهم قوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِبَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾^(٤).

فقد ألقمهم هذا الرد حجراً، وباؤوا بالخزي والبهتان.

وأرى من المناسب هنا أن أبين أن التوراة والقرآن وإن أباحا تسري المسبيات في الحروب والتزوج بهن، ولكن شتان ما بين أدب التوراة في الاسترقاق والتسري وأدب القرآن، والفرق بينهما فرق ما بين شريعة مؤقتة لزمن خاص، وبين شريعة عامة خالدة، وهي شريعة القرآن، والإسلام لا يبيح حلق الرأس!! ولا تقليم الأظافر!! ولا الاستدلال!! وما الاسترقاق والتسري في

(١) سفر صموئيل - الإصحاح ١٥، فقرة ١٣.

(٢) سفر الملوك الأول - الإصحاح ١١، فقرة ٣.

(٣) تفسير الألوسي، ج ١٣، ص ١٦٨، ط. منير.

(٤) سورة الرعد: الآية ٣٨.

الإسلام إلا لون من ألوان التربية، والبر، والإحسان، وقد رأيت كيف أكرم النبي جويرية بنت الحارث المصطلقية، وسترى كيف عامل صفية بنت حُيَيّ النضرية، وريحانة اليهودية القرظية، ومارية القبطية المصرية.

الحكمة في تعدد زوجاته عليه الصلاة والسلام
ولو أن هؤلاء الطاعنين بحثوا بحثاً مجرداً عن الهوى والتعصب في أسرار تعداده صلوات الله وسلامه عليه لأزواجه لكبروا إعجاباً لنبل المشاعر الإنسانية عند الرسول، ولكنه الهوى يُعمي ويُصم، فلم يكن زواج رسول الله بزوجاته إلا لحكم عالية ومقاصد سامية، وهناك حكم عامة وحكم خاصة.

الحكم العامة

١ - إن نبينا محمداً صلوات الله وسلامه عليه هو خاتم الأنبياء والرسل، ودينه خاتم الأديان، وشريعته عامة لكل البشر في كل زمان ومكان، وكان حريصاً غاية الحرص على أن تبلغ عقائد هذا الدين وشرائعه، وآدابه، وأخلاقه إلى جميع البشر، رجالاً ونساء، وكباراً وصغاراً، وقد كانت زوجاته خير معوان له على تحقيق هذا الواجب الذي هو من أهم واجبات الرسالة، وهو التبليغ، ولا سيما فيما يتعلق بحياة النبي ﷺ الزوجية والبيتية، مما هو مناط التشريع، ولا يعتبر من أسرار الحياة الزوجية، وطبيعي أنه لا يمكن أن يبلغ ما يتعلق بهذا إلا زوجاته ﷺ، لأن أصحابه مع حرصهم على تبليغ كل ما يصدر عنه إلا أنهم ما كانوا ليطلعوا على حياته في بيته ومعاشرته أزواجه.

وقد كُنَّ رضي الله عنهن مصابيح هداية وإرشاد، ووسائل تبليغ في حياة النبي وبعد وفاته، ومن يطلع على كتب الأحاديث والسنن يعلم إلى أي حد تحدثن وروين، وأفتين في مسائل مما يتعلق بالمباشرة الزوجية، والمضاجعة وآدابها، والإكسال بعد الجماع، والاغتسال بعده أو عدم الاغتسال، والقبلة أثناء الصوم، وكيف يتمتع الرجل بامرأته أثناء الحيض والنفاس من غير المباشرة المحرمة، إلى غير ذلك مما يجب على كل مسلم ومسلمة معرفته وإلا وقع في الإثم والخرج من حيث لا يدري.

والمرأة بحكم فطرتها وحيائها تركز إلى المرأة، وسؤالها في مثل هذا من غير تخرج أو استحياء، ولم يقتصر استفتاؤهن وسؤالهن عما يشكل وبخاصة فيما يتعلق بحياة النبي الزوجية على النساء، بل كان كبار الصحابة يرجعون إليهن في ذلك ولا سيما السيدة عائشة رضي الله عنها. روي عن مسروق أنه قال: (رأيت مشيخة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يسألونها عن الفرائض).

وروي أبو بريدة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه قال: (ما أشكل علينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أمر قط، فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً). وروي هشام بن عروة عن أبيه قال: (ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا طب ولا شعر من عائشة). وكذلك كانت زوجات النبي ﷺ في العلم والفقه وإن تفاوتن في ذلك، ولم يبلغن مبلغ السيدة العاقلة العالمة المبرأة من فوق سبع سموات الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها، ومنهن من عاشت بعد النبي ﷺ ما يقرب من نصف قرن تنشر الهداية والعلم كالسيدة عائشة رضي الله عنها.

فقد توفيت سنة ثمان وخمسين للهجرة، والسيدة أم سلمة رضي الله عنها فقد توفيت سنة اثنتين وستين للهجرة، وهكذا نرى أن تعدد زوجاته ﷺ كان ضرورة دينية لا محيص عنها.

٢ - إقامة الحجة على أنه ﷺ نبي حقاً، فقد توفي عن تسع نسوة، ومع ذلك فلم يشغله هذا التعدد عن القيام بتبليغ شريعة ربه ونشر دينه في حياته، حتى عم الجزيرة العربية كلها وما جاورها من أطراف الممالك الأخرى. وإن الإنسان المنصف ليعجب حقاً من هذا، إن الواحد منا مهما بلغ من العقل وحسن الكياسة تكون عنده الزوجة فضلاً عن الثنتين والثلاث والأربع ومع ذلك يكون في هم من شأنها وإرضائها، ويكون في حيرة من التوفيق بين القيام بحقوقها وحقوق بنيتها والقيام بأمور معاشه ومعاده وما وكل إليه من المهام، وهذا رسول الله ﷺ قد جمع بين تسع في حياته وهن مختلفات السن والطبائع والأمزجة، ومع هذا فقد قام بأعباء الرسالة خير قيام، وإنها لبطولة حقاً تستحق الإعجاب لا الغمز واللمز والاعتراض!!

أيضاً فإن الواحد منا تكون عنده الزوجتان فيحار كيف يوفق بينهما، ويتعذر عليه الاستحواذ على رضائهما والعدل بينهما، وهذا هو رسول الله ﷺ كانت عنده تسع نسوة، فوفق بينهن واكتسبن رضاه، حتى كن يتسابقن في ذلك، وذلك بسبب سعة عقله ﷺ، ورحابة صدره، وحسن خلقه، وبعد نظره، وعجيب سياسته، وكمال كياسته، ولست أغفل هنا أمراً مهماً أعانه ﷺ على كل هذا وهو أنهن رضي الله عنهن كن خيار نساء هذه الأمة ديناً وخلقاً وعلماً وعملاً، طلباً لمرضاة الله ورسوله حسبما أشار إليه الحق تبارك وتعالى في قوله:

﴿يَا نِسَاءَ الْبَيْتِ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (١).

ولعلك تعجب معي إذا علمت أن هذه الحياة الزوجية الطويلة مع هذا العدد الكثير لم يُخصِ الرواة على كثرة تتبعهم لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام واستقصائهم لأخباره وأخبار أهل بيته إلا حادثتين أو ثلاثاً عكَّرت من صفو هذه الحياة الزوجية المثالية، وسأعرض لها في آخر الكتاب تحت عنوان «النبي الزوج».

٣ - من الحكم العامة الوقوف على استواء سره وعلنه ﷺ، وأنه في معاملته لأهله كمعاملته لصاحبه، وأنه لا يحكم تصرفه في هذا إلا التدين الصادق، والخلق الكريم، ومراقبة الله في السر والعلن، إذ الشأن في النساء أن لا يحفظن سراً كيفما كان، فلو كان منه ﷺ في السر ما يخالف العلن لعلمته،

(١) سورة الأحزاب: الآيات ٣٢ - ٣٤.

ولو علمنه لأذعنه بمقتضى طبائعهن البشرية، وهذا أمر معهود في النساء، ولا سيما الضرائر، ولكن لم يكن شيء من هذا، فكان ذلك من الأدلة على أنه نبي حقاً!!

إن كثيراً من الزعماء، والساسة، ورجال الإصلاح يخالف ظواهرهم بواطنهم، وعلايتهم سرهم، مما يسجل عليهم النفاق والخداع، ويعود عليهم بالنقص والمؤاخذه، ويبين الفرق الشاسع بين النبي وغير النبي. وبحسبنا هذا في الحكم العامة.

الحكم الخاصة

أما السيدة خديجة رضي الله عنها لأنها أول زوجة فهو زواج الفطرة، وكذلك السيدة سودة بنت زمعة لا يسأل عنها أيضاً، ومع ذلك فقد كان في زواجه ﷺ منها تكريم لها وللإسلام والعقيدة في شخصها، وشخص زوجها الذي مات عنها بعد رجوعها من هجرة الحبشة الثانية، ولم يكن له عند تزوجها غيرها، لأن ذلك كان بعد موت السيدة خديجة، ولم تكن ذات جمال بل كانت ذات عيال، وقد أبدت للنبي إشفاقها عليه من زواجها بما يسببه له صيتها من إقلاق راحة، فأبدى لها ترحيماً بأولادها.

أما زواجه بعائشة وحفصة فجاء تأكيداً للعلاقة والإخاء بينه وبين وزيريه: أبي بكر وعمر، وليس أدل على هذا بالنسبة لحفصة أن أباهما عمر دخل عليها وهي تبكي فقال لها: لعل رسول الله طلقك، لقد طلقك مرة ثم راجعك من أجلي، والله لو طلقك مرة ثانية لا أكلمك أبداً.

وزواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة التي كانت تلقب بأم المساكين لكثرة تصدقها عليهم وبرها بهم تكريم لهذا الخلق الكريم فيها، وتكريم للشهادة في شخص زوجها الذي توفي عنها.

وزواجه بالسيدة أم سلمة جبر لكسرهما، وتعويض لها عن فقد عائلتها الذي مات عنها بعد أحد بشهور، وعرفان لتضحياتها وتضحيات زوجها أبي سلمة في سبيل الله والإسلام، فقد هاجرا إلى الحبشة، وكانا أول مهاجرين

إلى المدينة، ومهما قيل في أم سلمة وأنها كانت ذات جمال في شبابها، فقد كان في كبر سنها، وما مرت به من أحداث جسام، وما أنجبت من أولاد، وما رزئت به من فقد الرجل الذي كانت تقول فيه: وَمَنْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سلمة؟ ما يذوي هذا الجمال، إن لم يذهب به.

وزواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق كان لحكمة سامية جداً، فقد كان هذا سبباً في أن مَنْ الصحابة على من في أيديهم من سبايا بني المصطلق، مما تسبب عنه إسلام أبيها وإسلام قومها، فكانت أئمن امرأة على قومها.

وزواجه بالسيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان حفظ لها من الضيعة وهي في بلاد نائية عن بلاد قومها، فقد تنصّر زوجها عبيد الله بن جحش بالحبشة ومات بها، وثبتت هي على عقيدتها، فلم يكن أجل مما فعله رسول الله معها، وقد عقد عليها النبي وهي بالحبشة، ولم يدخل بها إلا بعد خير عام سبع، فكيف يكون هذا من رجل صار همه في النساء وإشباع رغباته الجنسية منهن؟!!

وزواجه بالسيدة زينب بنت جحش كان لما ذكرته آنفاً من إبطال بعض عادات الجاهلية.

وأما زواجه ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب فقد كانت في سبي خيبر، فلما أخبر رسول الله ﷺ بها اصطفاها لنفسه ضناً بكرامتها ومنزلتها في قومها، فأعتقها وتزوجها بعد ما انقضت عدتها، وأحسن إليها غاية الإحسان في عشرتها، وكثيراً ما كان يتنصر لها عند ما تبدر من بعض أزواجه بادرة في النيل منها، وهذه غاية الإنسانية والإحسان لامرأة طالما نال النبي والمسلمين من قومها شر كثير، ولم يالو جهداً في محاربة دعوة الإسلام.

وأما زواجه من السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية فقد وثق به ما بينه وبين قبيلة من أعلم قبائل العرب وأشرفها، وقد زوجها إياه عمه العباس وأصدقها عنه في عمرة القضاء، ودخل بها بعد أن حل، كما كان فيه تكريم لعمه العباس وزوجه أم الفضل، فقد كانت أختها. وقد عرضت فيما سبق لزواج النبي بأغلبهن بإفاضة وتوسع، وسأعرض فيما يأتي لمن بقيت منهن.

والعجب من هؤلاء المستشرقين المتعصيين، والمبشرين المحترفين أنهم إذا وقعوا على ما يرضي أحقادهم، ويشفي غليلهم من باطل الروايات ومتهافتها هلّلوا له وطبلّوا، وتجاهلوا البيئة وأحكامها، والعادات وسلطانها، إلى غير ذلك مما يتفهمون به باسم العلم وقواعد البحث، ولم يعيروا نقد السند أو المتن أية أهمية، بينما يطيشون كثيراً في الحكم على روايات في غاية الصحة بأنها موضوعة، ولا حامل لهم في الحالين إلا الهوى والتعصب، والحقد الموزوث، والتجني الأثم.

وبعد: فلعلك - أيها القارئ الفطن - قد تيقنت أن ساحة الرسول الكريم بريئة من كل ما زعموا، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال فإني يؤفكون؟!!

خطبة النبي لزینب وفضلها

روى الإمام أحمد ومسلم بسندهما عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال النبي ﷺ لزید: «اذهب فاذكرها علي^(١)»، فانطلق حتى أتاها وهي تخمّر عجبها، قال: فلما رأيته عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي عز وجل، ثم قامت إلى مسجدها، ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بدون إذن. وقد علم الله سبحانه ما سيكون من أمر هؤلاء الطاعنين فآلمهم نبيه أن يرسل زيدا لخطبتها ليكون فيه قطع لألستهم ورد لفريتهم، فهذا الإعظام لزینب لأن رسول الله ﷺ رغب فيها، وإبائه على نفسه أن يمتد إليها طرفه لن يكون من رجل ترك زوجته وهو كاره فراقها.

وقد كانت زينب رضي الله عنها تدك على زوجات النبي وتقول: (زوجكن أهلكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات)، وكانت زينب من المهاجرات الأول وكانت كثيرة الخير والصدقة وتبصل الرحم، وبحسبها وصف

(١) اخطبها لي من نفسها.

إحدى ضراتها لها وهي السيدة عائشة رضي الله عنها بالورع والتقوى كما مر في حديث الإفك.

وكانت أولى زوجات النبي لحوقاً به. روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن عائشة أم المؤمنين قالت: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً»، قالت فكُنْ يتناولن أينا أطول يداً، قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتَصَدِّقُ^(١))، وقد توفيت سنة عشرين من الهجرة، وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ودفنت بالبقيع، وهي أول امرأة صنع لها القبة فوق النعش ليستر شخصها^(٢).

نزول آية الحجاب صبيحة عرسها

ولما دخل بها النبي ﷺ أُولِمَ عليها ما لم يولم على غيرها، وكان ذلك سبباً في نزول آية الحجاب. روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وغيرهما - واللفظ للبخاري - عن أنس رضي الله عنه قال: (بُني على النبي صلى الله عليه وسلم بزینب ابنة جحش بخبز ولحم، فأُرسِلت على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعو، فقلت يا نبي الله ما أجد أحداً أدعوه، قال: «ارفعوا طعامكم»، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله»، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدتَ أهلك بارك الله لك، فتقرئ حُجَرَ نساءه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة من رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أو أخبر أن القوم خرجوا، فرجع، حتى إذا وضع رجله

(١) فهمن - رضي الله عنهن - أن المراد بالطول الطول الحسي، ثم ظهر لهن أن المراد الطول المجازي طول اليد في الخير والبر.

(٢) البداية والنهاية، ج ٤ ص ١٠٩.

في أسكفة^(١) الباب داخلةً وأخرى خارجةً أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب.

والمراد بها قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ^(٢) وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مَنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

ولما نزلت قال بعضهم: أنهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب؟
لئن مات محمد لأتزوجن عائشة، فنزل تنمة الآية السابقة:

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾^(٣).

وقد كان نزول آية الحجاب من موافقات عمر رضي الله عنه. روى البخاري في صحيحه عن أنس قال: قال عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب. فأنزل الله آية الحجاب^(٤).

(١) الأسكفة: بضم الهمزة وسكون السين وضم الكاف وفتح الفاء المشددة عتبة الباب السفلى.

(٢) أي نضجه.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

(٤) صحيح البخاري - كتاب التفسير سورة الأحزاب - باب يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي.

تشريع الحجاب في الإسلام

وينزل هذه الآية كان تشريع الحجاب في الإسلام بالنسبة لأزواج النبي ﷺ، والمراد عدم إبداء شيء من أجسامهن للأجانب عنهن، وعدم محادثتهن أو طلب شيء منهن إلا من وراء حجاب، أي ستر يكون بينهن وبين غيرهن، ولما نزلت قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ: ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب؟ فأنزل الله قوله:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾^(١).

ونزل أيضاً في شأن نساء النبي في أدب الخطاب والإقامة في البيوت قوله تعالى:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ قُلُوبَكُمْ لِمَا يَسْتَعْجِلُ فِيهِ الظَّالِمُونَ وَلَا تَسْلُكْنَ مَوَازٍ مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٢).

﴿فَلَا تَحْضَعْنَ﴾: أي لا تُلْنِ أو تتكلمن بكلام مريب موهم. ﴿قَرْنَ﴾: أقمن والزمن بيوتكن. ﴿الجاهلية الأولى﴾: هي ما قبل الإسلام فهي كفولهم: جاهلية جهلاء، فقد كان النساء لا يتحاشين كلام الرجال الأجانب، والتكسر في حديثهن، وإظهار بعض محاسنهن، كالعنق، والصدر، والساقين، والساعدين، فجاء الإسلام فأبطل ذلك، ومن العجب المؤلم أن تتجاوز جاهلية القرن العشرين الجاهلية الأولى في باب التبرج والسفور حتى أضحي عرياً!!!

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٥.

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان ٣٢، ٣٣.

وجهور المفسرين على أن هذه الآية وإن كانت خطاباً لأزواج النبي فحكمها لجميع نساء الأمة، وإنما خصّ نساء النبي لمنزلتهن وعظم فضلهن، ومكانتهن من النبي ﷺ، قال الإمام الألوسي في تفسيره: (والمراد أمرهن - رضي الله عنهن - بملازمة البيوت؛ وهو أمر مطلوب من سائر النساء. أخرج الترمذي والبخاري عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن المرأة عورة، فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها»، وأخرج البخاري عن أنس قال: جئنا^(١) النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فهل لنا عمل نذكر به فضل المجاهدين في سبيل الله تعالى؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «من قَعَدَتْ مَنَكنَ في بيتها فإنها تترك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى»، وقد يحرم عليهن الخروج بل قد يكون كبيرة كخروجهن لزيارة القبور إذا عظمت مفسدته، وخروجهن إلى المسجد وقد استعطن وتزين إذا تحققت الفتنة، أما إذا ظنت فهي حرام غير كبيرة، وما يجوز من الخروج كالخروج للحج وزيارة الوالدين وعيادة المرضى وتعزية الأموات من الأقارب ونحو ذلك فإنما يجوز بشروط مذكورة في محلها^(٢).

يعني مع الاستتار وعدم إبداء الزينة وعدم مخالطة الأجانب، وعند أمن الفتنة، وقال الإمام القرطبي في تفسيره: (معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي ﷺ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشرعية طافحة بلزوم النساء بيوتهن؟ والانكفاف عن الخروج منها إلا للضرورة على ما تقدم في غير موضع^(٣)).

* * *

وقد فصل الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ما يتعلق بالنساء المسلمات: من غض البصر، وحفظ الفروج، وعدم إبداء مواضع الزينة من

(١) إما على لغة «أكلوني البراغيث» أو النون علامة جمع الإناث والنساء فاعل.

(٢) تفسير الألوسي، عند تفسيره هذه الآية.

(٣) تفسير القرطبي، ج ١٤ ص ١٧٩.

عنق وصدر وساق وعضد وساعد وشعر ونحوها من العورة الظاهرة
إلا للمحارم، قال سبحانه وتعالى:

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيْنَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرْ وَأَوْ عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

﴿الخُمُرُ﴾ بضم الخاء والميم: جمع خمار، وهو ما تستر به المرأة رأسها وعنقها، ﴿والجُيُوبُ﴾: فتحات الثياب من عند العنق، كُنَّ في الجاهلية يسدلن الخمر على ظهورهن فتبدو نحورهن وصدورهن وما حوالها، فأمرن بلفها على الأعناق والصدور كي لا يظهر شيء منها، وكُنَّ يضربن بأرجلهن ليتنبه الناس إلى أنهن ذوات خلخال فيلتفتوا إليهن، فنهين عن ذلك؛ وفي النهي عن الزينة نهى عن إبداء مواضعها بطريق أولى وأبلغ.

أما احتجاب المرأة بالنسبة إلى الأجانب منها فكل بدن المرأة عورة إلا وجهها وكفيها، ويستأنس لهذا بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن عائشة رضي الله عنها أن أساء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رفاق، فأعرض عنها وقال: «يا أساء، إِنَّ المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا»، وأشار إلى وجهه وكفيه. وجمهور الفقهاء على تقييد إظهار الوجه والكفين بأمن الافتتان بها وإلا فلا يجوز.

(١) سورة النور: الآية ٣١.

وكان النساء في أول الإسلام كما كُنَّ في الجاهلية متبذلات، تبرز المرأة في دُرْع وخمار لا فرق بين الحرة والأمة، وكان الفتيان وأهل الشطارة^(١) يتعرضون للإماء إذا خرجن بالليل إلى قضاء حوائجهن في الخلاء، وربما تعرضوا للحرائر ظناً أنهن إماء، فأمرن أن يخالفن بزimen زي الإماء، بأن يدين عليهن من جلابيبهن فيغطين الوجه والأعطاف فيُعرفن ويُبَيَّن، ولا يطمع فيهن فاسق. قال تعالى شأنه:

﴿بَنَاتُهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٢).

﴿يدين﴾: أي يرخين، ولذلك عدِّي بعلى لأنه ضَمَّن معناه. ﴿جلابيبهن﴾: جمع جلباب وهو ما تلتف به المرأة فوق درعها وثيابها كالملاءة والملحفة، بحيث يستر جميع البدن، ولا يصفه ولا يشف ما تحته.

وقد بينت السنة النبوية كل ما يتعلق بالنساء من احتجاب وتصون وتعفف، وعدم السفور والخلاعة والابتذال بما لا مزيد عليه، وبحسبنا هذا القدر في هذا المقام وندع التفصيل لمقام آخر.

(١) أهل الشطارة: أهل الهوى واللؤم والتعدي على الحرم.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٩.

تزوج النبي بأم حبيبة بنت أبي سفيان

وفي هذه السنة على ما رجَّحه ابن كثير في بدايته^(١) تزوج النبي ﷺ السيدة أم حبيبة - رَمْلَة، وقيل هند، والأول أصح - بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبدشمس، وأمها صفية بنت أبي العاص بن أمية، ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاماً، وكانت قبل النبي تحت زوجها عبيدالله بن جحش، وكانا أسلما وهاجرا إلى الحبشة، فولدت بها حبيبة وبها كانت تكنى، وقيل ولدتا بمكة ثم هاجرت بها، ثم تنصَّر زوجها وبقيت على إسلامها، ثم مات، فلما انقضت عدتها كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي أن يتولَّى له العقد عليها، وقيل أرسل له عمرو بن أمية الضمري بذلك، فولي النجاشي العقد، وأمهرها عن رسول الله ﷺ أربعمائة دينار وتولَّى نكاح أم حبيبة ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص.

وقد بقيت السيدة أم حبيبة بالحبشة معززة مكرمة حتى قدمت إلى المدينة مع مهاجري الحبشة سنة سبع، ولما بلغ أباهما أبا سفيان تزوج النبي بها قال: (هو الفحل لا يُقدِّع أنفه)^(٢)، وكان من سرورها بهذا الزواج أن أهدت الجارية التي أرسلها النجاشي لتعرض عليها زواج رسول الله بها سوارين من فضة،

-
- (١) وقيل سنة ست وقيل سبع ويرجح الأول أن عمرو بن العاص لما ذهب إلى الحبشة بعد الخندق وجد عند النجاشي عمرو بن أمية الضمري لأجل خطبتها للنبي.
- (٢) مثل يضرب للكفاء الكريم. والفحل: ذكر الإبل، وكان من عادة العرب إذا كان الفحل غير كريم ضربوا أنفه ليبعد عن الناقة، وإذا كان كريماً تركوه.

وبعض الدنانير، ولكن الجارية ردت به بأمر سيدها النجاشي، وجاءت لها بعود ووُزُس وعنبر، قالت: فقدمت به معي على رسول الله ﷺ^(١).

الحكمة في تزوج النبي بها

ومما ذكرنا يتبين للمنصف أن النبي لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة، أو إشباع رغبة جنسية، فالنبي لم يدخل بها إلا بعد خير، وإنما أراد المواساة بالنفس، فقد تنصّر زوجها وثبتت على إيمانها، ومات فأصبحت أيمًا، فكان عملاً إنسانياً كريماً أن عقد عليها وصارت بذلك في عداد أمهات المؤمنين، وحظيت بهذا الشرف الرفيع كفاء هجرتها وثباتها وتحملها، وناهيك بالاحترام البالغ الذي وجدته فيما بعد في نفوس المسلمين، والخفاوة البالغة التي أحاطها بها ملك الحبشة العادل الكريم، ألا إنه موقف كريم تغص به حلوق المتفوّلين على الرسول العظيم.

وفاتها

وكانت وفاتها بالمدينة سنة أربع وأربعين، فرضي الله عنها وأرضاها.

* * *

(١) الإصابة، ج ٣ ص ٣٠٥، ٣٠٦.

فرض الحج

وفي هذا العام على ما ذهب إليه الكثيرون^(١) شرع الله فريضة الحج بقوله سبحانه: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا﴾، وقيل بقوله: ﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّٰهِ﴾، والصحيح الأول لأن الإتمام إنما يكون بعد المشروعية. وقد ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة والإجماع حتى صار ركناً من أركان الإسلام معلوماً من الدين بالضرورة.

والحج شريعة قديمة من لدن أبي الأنبياء الخليل إبراهيم عليه السلام، فإنه لما فرغ من بناء البيت بمعاونة ابنه إسماعيل أمره الله أن يقف على جبل «أبي قُبَيْس» بمكة وينادي في الناس بالحج، فقال: يا رَبِّي وما يبلغ صوتي؟ فقال الله: «أُذِّنْ يا إبراهيم وعليّ البلاغ»، فأذّن إبراهيم قائلاً: «يا أيها الناس، إنّ الله كتب عليكم الحج فحجوا»، فأسمع الله سبحانه نداءه من كان في أصلاب الرجال، أو أرحام الأمهات، أو عالم الذر قبل أن يوجدوا!! ومن يومها ومن أراد الله لهم الحج يجيبون قائلين: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وهو العبادة التي بقي العرب محافظين عليها إلى وقت البعثة المحمدية، إلا أنهم كانوا شابوها بالوثنية بما نصبوه على الكعبة وعلى الصفا والمروة من أصنام يتمسحون بها ويتبركون، وكذلك غيَّروا في بعض المناسك وبدلوا وابتدعوا، فلما جاء الإسلام قضى على ما شابها من وثنية وعادات جاهلية، ورجع به إلى ما كان

(١) وقيل في السنة السادسة وإليه ذهب الشافعي، وقيل في السنة التاسعة.

في عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام من صفاء ورمز إلى التوحيد والوحدة والألفة والمحبة.

وللحج حكمته وفلسفته التي لا يتسع لها المقام هنا، ولولم يكن فيه إلا أنه مؤتمر المسلمين الأكبر لكفى، فما بالك وفيه ما فيه من تركية النفوس والسمو بالأرواح وغفران الذنوب، والتقوى والمساواة بين الناس جميعاً، وألوان العبر والعظات!!

نعم إنه المؤتمر السنوي الأكبر الذي يتلاقى فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها، فيتقاسمون السراء والضراء، ويتجاوبون في الآلام والأمال، ويتشاورون في كل ما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم، ويتعاونون على البر والتقوى، والتكافل والتناصر، ألا ما أعظمه من مؤتمر لواهتبل فرصته المسلمون!!

وليس في الحج وثنية كما يزعم بعض أعداء الإسلام، وليس أدل على ذلك من أن كل شعيرة ونسك من مناسكه لا ينفك عن التهليل والتكبير، والثناء على الله العلي العظيم، وإغا الأمر كما قيل:

أمرٌ على الديار: ديار سلمى أقبل ذا الجدار، وذا الجدارا

وما حبُّ الديار شَغَفَنَ قلبي ولكن حبُّ من سكن الديارا

فالطواف بالكعبة ليس تعظيماً للحجارة، وإغما هو تعظيم لرب البيت، وتقبيل الحجر الأسود ليس حباً للحجر، وإغما هو حب لرب الحجر، وهو الله سبحانه، وعلى المسلم إذا خفي عليه شيء من حكم تشريعات الله تبارك وتعالى أن يقول: سمعنا وأطعنا، لا يتهم الشريعة، بل يتهم عقله القاصر، ويقول كما قال الفاروق الملهم العبقري: (اللهم إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك)^(١).

(١) رواه البخاري.

وفاة سعد بن معاذ

قدمنا في الخندق أن سعداً رضي الله عنه أصيب في أكله أثناء المراماة بالنبل، فلما أصيب قال: (اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني بها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدكم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من قريظة)، وقد استجاب الله دعوة وليه سعد، وأقر عينه فيهم، فحكم فيهم بقدرته وتيسيره، وجعلهم هم الذين يطلبون ذلك كما سيأتي، فأمر النبي بإحضاره من خيمة (رافدة) التي كانت بالمسجد لتمرّض الجرحى، فجعل بنو قريظة يتحلّقون حوله ويقولون له: أحسن في مواليك، فقال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم!! ثم حكم فيهم بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم، فقال له النبي: «لقد حكمت فيهم يا سعد بحكم الله من فوق سبع سموات» ثم أرجع إلى خيمته بالمسجد، فلم يرّعهم إلا الدم يسيل في المسجد، فدخلوا فإذا جرحه قد انفجر ومات شهيداً رضي الله عنه، وقد شيعه رسول الله والصحابة حتى واروه في قبره.

وقد كان - رضي الله عنه - سيد الأوس، ومن خيار المسلمين، من ذوي السوابق في الإسلام، وقد ورد في فضله أحاديث كثيرة منها ما روي في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ» وإنما اهتز فرحاً بروحه وترحيباً بمقدمه ولقائه ربه، ولما أهديت إلى النبي ﷺ جبة صار الصحابة يعجبون من لينها وحسنها، فقال: «أتعجبون من هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها أو ألين». حشره الله سبحانه مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

السَّنة السَّادِسَةُ مِنَ الْهَجْرَةِ

أهلت السنة السادسة للهجرة والمسلمون على أحسن حال من القوة والمنعة بالمدينة وما جاورها، منتصرين على قريش ومن تحزَّب إليهم من عرب ويهود، فقد ارتد الأعراب منهزمين، كما لقي يهود بني قريظة القصاص العادل بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم.

وقد أرسل النبي عدة سرايا في هذا العام لتأديب بعض القبائل المجاورة جزاءً على غدرها، أو مباغته لها في عقر دارها قبل أن تنفذ ما بيته من مهاجمة المدينة، كما قام ببعض الغزوات التي أجَّلها خطراً غزوة الحديبية.

سرية محمد بن مسلمة قبل نجد

في المحرم من هذه السنة أرسل النبي عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لشنَّ الغارة على بني بكر بن كلاب، فسار إليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهموهم على غرة، فقتلوا منهم عشرة وفر الباقون، واستاقوا الإبل والشاء، وقفلوا راجعين إلى المدينة، فلقيهم ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه، فلما قدموا على النبي عرفه وأحسن معاملته، وأطلق سراحه بعد ثلاث بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يسلم، فما كان من ثمامة إلا أن عاد وأسلم وصار من خيار المسلمين، وقد قدمنا قصته، ويرى ابن كثير أن هذه السرية كانت بعد خيبر^(١)، فقد روى قصته البخاري

(١) البداية والنهاية، ج ٤ ص ٤٩.

وابن إسحاق عن أبي هريرة وأنه شاهد ذلك، وأبو هريرة إنما أسلم عقب خير سنة سبع.

غزوة بني لحيان

بنو لحيان هم الذين غدروا بعاصم بن ثابت وإخوانه أصحاب سرية الرجيع، ولم يزل رسول الله عازماً على الاقتصاص منهم حتى جمادى الأولى من هذه السنة، فخرج في مائتي راكب من أصحابه بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم، واتبع طريقة التعمية، فسلك طريق الشام ليرى أنه لا يريد بني لحيان، فلما وصل إلى منازلهم هربوا، وتمنعوا في رؤوس الجبال، فقال رسول الله ﷺ: «لو أنا هبطنا عُسْفَانَ^(١) لرأت قريش أنا قد جئنا مكة» فذهبوا إليها ليدخل أهل مكة الرعب، ثم أرسل فارسين حتى جاء «كُراع الغميم»^(٢) ليري قريشاً من نفسه القوة.

وفي عُسْفَانَ استقبلهم جمع من المشركين على رأسهم خالد بن الوليد، فصلَّى النبي بأصحابه صلاة الظهر، فقال المشركون: قد كانوا على حال لو أصبنا منهم غرثهم، ثم قالوا: تأتي عليهم صلاة^(٣) هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، فنزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه الآيات:

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٤).

(١) عُسْفَانَ: موضع قرب مكة.

(٢) كُراع الغميم: موضع جنوب عسفان بثمانية أميال.

(٣) هي صلاة العصر.

(٤) سورة النساء: الآية ١٠٢.

وكانت هذه أول صلاة خوف صلاحها رسول الله^(١)، وبذلك شرعت هذه الصلاة التي تدل على يسر الإسلام وسماحته وصلاحيته لكل زمان ومكان، وقيل إن مشروعية صلاة الخوف كانت في غزوة «ذات الرقاع»، وكانت على ما ذهب إليه ابن إسحاق سنة أربع، وذهب الإمام البخاري إلى أنها كانت سنة سبع عام خيبر واستدل بأدلة فليرجع إليها من يشاء^(٢).

سرية كرز بن جابر الفهري

وفي شوال من هذا العام قدم على المدينة جماعة من عُكَل وعُرينة^(٣)، فأظهروا الإسلام، وبايعوا رسول الله، وكانوا هُزالاً مصفرة ألوانهم، فلم يوافقهم هواء المدينة، فأمرهم النبي ﷺ أن يلحقوا بإبل له خارج المدينة فيشربوا من ألبانها وأبواها ففعلوا، فلما صَحُّوا قابلوا الإحسان بالكفران، وقتلوا الراعي ومثلوا به وسَمروا عينيه، واستاقوا الإبل، فلما بلغ الخبر النبي أرسل وراءهم كُرْز بن جابر الفهري في عشرين فارساً، فلحقوا بهم وجاؤوا بهم إلى المدينة، فأمر رسول الله أن يقتص منهم، فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسمرت أعينهم^(٤)، وألقوا في الحرة يستسقون فلا يُسقون حتى ماتوا^(٥).

وما فعل بهم ليس مثله وإنما هو قصاص وحد: ذاك أنهم سرقوا، وقتلوا، ومثلوا، وكفروا، وحاربوا الله ورسوله. فأقيم عليهم حد السرقة والبغي، واقتص منهم بالقتل والتمثيل كما فعلوا.

سرية عمرو بن أمية الضمري

جلس أبو سفيان بن حرب ذات يوم في نادي قومه فقال: ألا رجل يذهب إلى محمد فيقتله غدرًا فنستريح منه، فتقدم له رجل من الأعراب وقال له: إني

(١) البداية والنهاية، ج ٤ ص ٨١، ١٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٣.

(٣) عكل بضم العين: قبيلة من تيم الرباب، وعرينة مصغراً: حي من بجيلة.

(٤) أي فقتت بالمسامير، لأنهم فقأوا عيني الراعي بوضع الشوك فيها.

(٥) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب قصة عكل وعرينة، وكتاب الطهارة - باب أبوالإبل.

هَادٍ بالطرق خَرِيتَ، ومعِي خَنْجَرٌ مِثْلُ خَافِيَةِ النَّسْرِ، فَأَعْطَاهُ رَاحِلَةً وَنَفَقَةً وَأَوْصَاهُ أَنْ يَخْفِيَ أَمْرَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ حَتَّى وَصَلَ الْمَدِينَةَ، فَسَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِ وَهُوَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ يَرِيدُ غَدْرًا، وَاللَّهِ حَائِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَرِيدُ» فَوَقَّفَ فَقَالَ: أَيُّكُمْ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ: «أَنَا» فَذَهَبَ يَنْحَنِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ كَأَنَّهُ يَسِرُّ إِلَيْهِ شَيْئًا، فَجَبَذَهُ أُسَيْدُ بْنُ حَضِيرٍ وَقَالَ: تَنَحَّ عَنْ النَّبِيِّ، وَجَذَبَ بِدَاخِلِ إِزَارِهِ فَإِذَا الْخَنْجَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا غَادِرٌ، فَاسْقُطْ فِي يَدِ الْأَعْرَابِيِّ وَقَالَ: دَمِي، دَمِي، وَأَخَذَ أُسَيْدُ بْنُ حَضِيرٍ بِتَلَابِيهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ: «اصْدُقْنِي مَا أَنْتَ وَمَا أَقْدَمَكَ؟ فَإِنْ صَدَقْتَنِي نَفَعَكَ الصَّدَقُ، وَإِنْ كَذَبْتَنِي فَقَدْ أَطْلَعْتَ عَلَى مَا هَمَمْتُ بِهِ» فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ فَأَنَا آمِنٌ؟ قَالَ: «وَأَنْتَ آمِنٌ» فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ بِخَبَرِ أَبِي سَفْيَانَ وَمَا جَعَلَ لَهُ.

فَحَبَسَ عِنْدَ أُسَيْدِ بْنِ حَضِيرٍ، ثُمَّ دَعَا بِهِ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ: «قَدْ أَمْتَكَّ فَاذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ أَوْ خَيْرَ لَكَ مِنْ ذَلِكَ؟» قَالَ: وَمَا هُوَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْيَ رَسُولَ اللَّهِ» فَاسْلَمَ الرَّجُلُ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَا كُنْتَ لِأَفْرُقَ مِنَ الرِّجَالِ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتَكَ فَذَهَبَ عَقْلِي وَضَعُفَتْ، ثُمَّ أَطْلَعْتَ عَلَى مَا هَمَمْتُ بِهِ، وَمَا سَبَقَتْ بِهِ الرِّكَابُ وَلَمْ يَطْلُعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَعَرَفْتَ أَنَّكَ مَنُوعٌ، وَأَنَّكَ عَلَى حَقٍّ، وَأَنْ حِزْبَ أَبِي سَفْيَانَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ!! فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَبْتَسمُ.

وَأَقَامَ الرَّجُلُ أَيَّامًا، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ وَخَرَجَ، ثُمَّ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَجَازِيَ أَبَا سَفْيَانَ بِمَا صَنَعَ، فَقَالَ لِعَمْرُو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ - وَكَانَ شَجَاعًا فَاتِكًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ - وَلِسَلْمَةَ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ حَرِيشٍ: «اخْرُجَا حَتَّى تَأْتِيَا أَبَا سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، فَإِنْ أَصَبْتُمَا مِنْهُ غَرَّةً فَاقْتُلَاهُ» فَخَرَجَا حَتَّى أَتَيَا مَكَّةَ، وَطَافَا بِالْبَيْتِ وَصَلَّيَا رَكَعَتَيْنِ، فَفُطِنَ أَهْلُ مَكَّةَ لِعَمْرُو وَقَالُوا: مَا جَاءَ عَمْرُو إِلَّا بِبَشَرٍ وَهُمُومًا بِقَتْلِهَا، فَفَرَّوْا حَتَّى قَدِمَا الْمَدِينَةَ وَلَمْ يَقْضِيَا مِمَّا أَرَادَا وَطَرَأَ، وَهَكَذَا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ أَمْرًا، وَأَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا، وَكَانَ مَا أَرَادَ اللَّهُ، فَقَدْ نَجَّى أَبَا سَفْيَانَ حَتَّى اسْلَمَ لَيْلَةَ الْفَتْحِ، وَتَشَرَّبَ بِهَذَا الدِّينِ الْحَنِيفِ، وَصَارَ مِنْ أَنْصَارِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْ أَعْدَى أَعْدَائِهِ.

غَزْوَةُ الْحُدَيْبِيَّةِ

ها هي السنة السادسة كادت تنتهي، وقد أصبح المسلمون مرهوبي الجانب في الجزيرة، ولئن لم تكن فيها موقعة فاصلة فقد حفلت بسرايا كثيرة تمخضت عن قوة المسلمين، ورعب المشركين وهزيمتهم، وها هم المسلمون قد اشتاقوا إلى زيارة الكعبة البيت الحرام: بيت آبائهم وأجدادهم ومتعبدتهم وقبلتهم، فقد مضى نحو ست سنين ولما يتشرفوا بزيارة هذا البيت، ويقضوا شيئاً من حاجات النفس المشوقة إليه.

وأذكى هذا الشوق، وقوى الأمل في نفوسهم رؤيا رآها رسول الله ﷺ، فقد رأى أنهم يدخلون المسجد الحرام محلّقين رؤوسهم ومقصرين، ولكن كيف للمسلمين هذا، والمشركون حريصون على صدهم عن البيت، وأهون عليهم أن يموتوا جميعاً من أن يدخلها عليهم المسلمون عنوة؟ لذلك رأى النبي ﷺ بثاقب فكره أن يستنفر العرب ومن حوله من الأعراب، ليخرجوا معه معتمرين، كي تعلم قريش أنه لا يريد حرباً، فاستجاب له بعض الأعراب، وأبطأ عنه الكثيرون.

خروج النبي معتمراً

وفي ذي القعدة من هذا العام خرج رسول الله ﷺ في زهاء ألف

(١) الحديبية - يضم الحاء وفتح الدال وياء ساكنة وياء موحدة مكسورة وياء منهم من خففها ومنهم من شددها - قرية بالقرب من مكة على مرحلة منها سميت ببئر هناك.

وخسمائة^(١) من المهاجرين والأنصار، ومن لحق بهم من الأعراب، واستخلف على المدينة ثُميلة بن عبد الله الليثي، وأحرم بالعمرة^(٢) هو والكثيرون من أصحابه، وساق معه الهذلي سبعين بعيراً حتى يكون إيداناً للناس أنه لم يرد حرباً، وإنما خرج زائراً للبيت ومعظماً له.

وصول النبا إلى قريش

وخرج رسول الله حتى إذا كان بعسفان^(٣) لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل^(٤)، قد لبسوا جلود النمر، وقد نزلوا بذئ طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قدموا إلى كُراع الغميم^(٥).

فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟! فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»^(٦).

(١) ذكر ابن إسحاق في سيرته أنهم كانوا سبعمائة، وهو خلاف ما ذكره المحدثون في الصحاح وغيرها وكتب السير من أنهم كانوا بضع عشرة مائة، وقد استتج ذلك بما روي أن النبي ساق سبعين بدنة، كل بدنة عن عشرة، وهذا ليس بلازم، فإن بعضهم قد يهدي بغير الإبل، كما أن بعضهم لم يكن محرماً كأبي قتادة كما ثبت في الصحيح (صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة الحديبية).

(٢) هذا هو الصحيح، وهو ما ذكره المحدثون وكتاب السير، لا ما ذكره الدكتور هيكل في كتابه «حياة محمد» من أن النبي أذن في الناس بالحج.

(٣) قرية على مرحلتين من مكة أي مسيرة يومين.

(٤) العوذ: جمع عائد، وهو من الإبل الحديثة التناج. والمطافيل جمع مطفل: التي معها أولادها، والمراد أنهم خرجوا ومعهم النساء والأولاد، والكلام على الاستعارة.

(٥) واد أمام عسفان بثمانية أميال.

(٦) السالفة صفحة العتق وهو كناية عن الموت.

ثم تفادى رسول الله الاصطدام بخيل المشركين فقال: «مَنْ رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟»، فقال رجل من أسلم: أنا، فسلك بهم طريقاً وعراً صعباً خرجوا منه بعد مشقة وجهد، فأفضوا إلى أرض سهلة منبسطة، فقال رسول الله: «قولوا، نستغفر الله ونتوب إليه» فقالوها، فقال: «والله إنها للحطّة^(١)» التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها» ثم سلكوا طريقاً انتهى بهم إلى ثنية المَرَّار قرب الحديبية.

وفي هذا المكان بركت ناقة رسول الله فزجروها فلم تقم، فقالوا: خلأت — حرنت — القصواء، فقال الرسول ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما هو بخلق لها، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قریش اليوم إلى خطّة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» ثم قال للناس: «انزلوا» فقالوا: ما بالوادي من ماء يُنزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في بئر فغرز في جوفه، فجاش بالماء حتى ضرب الناس بعطن، فشربوا وسقوا دوابهم.

رسل قریش

رأت قریش أن لا قبل لها بحرب المسلمين، وإلا دارت عليهم الدائرة، ونمى إليها أن رسول الله ﷺ لا يريد حرباً، فأرسلت إليه من يفاوضه تعرفاً على قوة المسلمين وعزمهم على القتال من جهة، وطمعاً في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية من جهة أخرى.

(١) إشارة إلى قوله تعالى:

﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً، وقولوا حطة...﴾ سورة البقرة: الآيتان ٥٨ — ٥٩، فبدلوا، وغيروا، وسخروا، وتمكروا، ومعنى «وقولوا حطة» أي حط يارب عنا ذنوبنا، واغفرها لنا. وفي المقارنة دلالة على طيب عنصر الصحابة وطاعتهم للرسول، وخبث اليهود، ولؤم طباعهم، وعصيانهم لنبي الله موسى.

بُدَيْل بن ورقاء

فأتاه بدیل بن ورقاء فی رجال من خزاعة وكانت خزاعة عیبة^(١) نصح رسول الله ﷺ مسلمها وكافرها، لا یخفون عنه شیئاً كان بمكة - فسألوه عما جاء به، فأخبرهم أنه لم یأت یرید حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً له، فرجعوا إلى قریش فقالوا: یا معشر قریش، إنكم تعجلون على محمد، وإنه لم یأت لقتال، وإنما جاء زائراً للبيت، فاتهموهم وقالوا: وإن جاء لا یرید قتلاً فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة!!

مِكرز بن حفص

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص، فلما رآه رسول الله قال: «هذا رجل غادر»، فلما انتهى إلى رسول الله قال له نحو ما قال لبديل، فرجع إلى قریش فأخبرهم بما قال.

حلیس بن علقمة

ثم بعثوا بحلیس سید الأحابیش، فلما رآه رسول الله قال: «إن هذا من قوم يتأهون»^(٢)، فأبعثوا الهدی فی وجهه حتی یراه» فلما رأى الهدی یسیر علیه من عرض الوادي فی قلائده، قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قریش ولم یصل إلى رسول الله إعظاماً لما رأى، فأخبرهم بما رأى، فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب الحلیس وقال: یا معشر قریش، والله ما على هذا حالناكم، أیصدُّ عن بیت الله من جاءه معظماً له!! والذي

(١) عیبة - بفتح المهملة وسكون التحتانية - ما توضع فیها الثیاب لإخفائها، أي موضع النصح له والأمانة على أمره، كأنه شه الصدر الذي هو مستودع السر بالعیبة التي هي مستودع الثیاب.

(٢) يتأهون: یتعبدون ویعظمون شعائر الله.

نفس الخليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أولانفرن بالأحابيش^(١) نفرة رجل واحد، قالوا: مَهْ، كُفَّ عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

عروة بن مسعود الثقفي

ثم بعثوا إلى رسول الله حكماً يطمثون إليه، وهو عروة بن مسعود الثقفي، فخشي أن يناله من التعنيف وسوء المقالة ما نال من سبقه وهو من يعرفون، فقالوا له: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، فخرج حتى أتى رسول الله، فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد أجمعت أو شاب^(٢) الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك - بلدك - لتفضها بهم؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وإيم الله، لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً.

فلم يتمالك الصديق نفسه - وقد أحفظته هذه المقالة الكاذبة - أن ردَّ على عروة ردّاً جارحاً مؤلماً، فقال: مَنْ هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبي قحافة»، فقال له: أما والله لولا يدُ كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بهذه.

مثل أعلى للحب والإيمان

وكان عروة يتناول لحية رسول الله وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله وهو مدجج في السلاح، فجعل يقرع يد عروة بنعل سيفه ويقول له: اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك، فاغتاظ عروة

(١) الأحابيش جمع أحبوش - بفتح الهمزة والباء - وهم بنو الهون بن خزعة بن مدركة، وبنو الحارث بن عبدمناف بن كنانة، وبنو المصطلق من خزاعة. كانوا قد تحالفوا تحت جبل يقال له الحبشي أسفل مكة، وقيل سموا بذلك لتجمعهم. والتحبش والحباشة الجماعة.

فتح الباري، ج ٥ ص ٣٤٢.

(٢) أو شاب: أخلاط.

وقال: مَنْ هذا يا محمد! قال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبه»، فقال: أي غدر، وهل غسلت سواك إلا بالأمس^(١)!!

فكلمه رسول الله بنحو ما كلم به من سبقه وأنه ما جاء يريد حرباً، وكان عروة يرمق أصحاب رسول الله ويتعرف أحوالهم، فرأى أمراً عجيباً: رأى رسول الله لا يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده!! وإذا أمرهم ابتدروا أمره: أيهم ينفذه أولاً!! وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه!! وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون النظر إليه تعظيماً له!!.

فرجع عروة إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه، لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، وإنه قد عرض عليكم خطة رشدة فاقبلوها، فإني لكم ناصح، فقالت قريش: لا نتكلم بهذا، ولكن نرده عامنا هذا ويرجع من قابل.

رسل رسول الله ﷺ

وقد رأى رسول الله حرصاً على حرمة البيت، وإيثاراً للسلام على الحرب أن يرسل رسلاً إلى قريش بمكة، لاحتمال أن لا يكون عند رسل قريش من الشجاعة ما يحملهم على المصارحة بالحقيقة. فأرسل خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش، حمله على بعير له ليبلغ أشرافهم ما جاء الرسول إليه، لكنهم استبد بهم الحقد والغضب، فعمقوا به البعير، وأرادوا قتله، لولا أن منعتهم الأحابيش أحلافهم، فخلّوا سبيله.

سفارة عثمان بن عفان رضي الله عنه

ثم دعا رسول الله عمر بن الخطاب ليكون رسولاً إلى أهل مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي من

(١) كان المغيرة قد قتل الجماعة في الجاهلية، فتحمل ديتهم عمه عروة هذا، فلهذا استنكر معاملته له، ولكنه الإيمان يسمو بصاحبه عن الأهل والولد والمال!! وغدر - بضم الغين وفتح الدال - كثير الغدر.

يمني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكنني أدلك على رجل أعزُّ بها مني: عثمان بن عفان، فقبل الرسول منه الاعتذار، واستحسن ما عرضه عليه، فدعا عثمان فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش ليخبرهم بقصد رسول الله، فخرج عثمان إلى مكة فلقى أبا بن سعيد بن العاصي^(١)، فحملة بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ!!

بيعة الرضوان

واحتسبت قريش عثمان عندها، وبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال رسول الله: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا إلى البيعة تحت شجرة سمرة هناك، فبايعه بعضهم على الموت، وبعضهم على أن لا يفروا، ولم يتخلف عن المبايعة إلا الجذ بن قيس، فقد لصق بإبط ناقتة يستتر من الناس، وكان أول من بايع أبو سفيان وهب بن محصن أخو عكاشة بن محصن، ولما تمت البيعة للحاضرين ضرب رسول الله بإحدى يديه على الأخرى وقال: «وهذه لعثمان»، فكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من يده لنفسه، وهذه البيعة هي بيعة الرضوان لقول الله سبحانه وتعالى:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(٢).
وهو صلح الحديبية.

وبهذه البيعة أصبح المسلمون على استعداد لمناجزة قريش، وجعل كل واحد منهم يترقب يوم الظفر ويوم الاستشهاد بنفس راضية وقلب مطمئن. ولأنهم لفي استعداد للمناجزة إذ ترامى إليهم أن عثمان لم يقتل، ثم لم يلبث أن جاء إليهم سالماً، وبذلك كفى الله المؤمنين القتال، وحقق رغبتهم في السلام.

(١) هو ابن عم عثمان، قيل أسلم قديماً، وهاجر مع زوجته فاطمة بنت صفوان كما ذكره ابن إسحاق، والأكثرون على أنه أسلم أيام خيبر وشهداها مع النبي ﷺ.

(٢) سورة الفتح: الآية ١٨.

مناوشات قريش

وأرسلت قريش نحواً من خمسين رجلاً منهم، عليهم مكرز بن حفص ليطيّفوا بعسكر المسلمين عسى أن ينالوا منهم غيرةً، فأسروهم حارس الجيش محمد بن مسلمة؛ وهرب رئيسهم، وأقْبى بهم إلى رسول الله فعفا عنهم تشبهاً منه ﷺ بخطة السلم، واحتراماً للشهر الحرام أن يسفك فيه دم، وقد بهت قريش حين عرفوا ذلك، وسقطت كل حجة لهم في أن النبي يريد حرباً، وأيقنوا أن أي اعتداء من جانبهم على المسلمين لن تنظر إليه العرب إلا على أنه غدر لئيم، للمسلمين الحق كل الحق في أن يدفعوه - وما أقدرهم - بكل ما أوتوا من قوة، وفي هذا نزل قول الله:

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (١).

بشائر الصلح

لم يكن بدُّ لقريش وقد جرى ما جرى من أن تفكر في الصلح جدياً، وأن تنتهي هذه الحالة التي قد تدور بسببها الدائرة عليهم، فأرسلوا سهيل بن عمرو إلى النبي ﷺ وقالوا له: ائت محمداً وصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا نتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ورآه تفاعل به وقال: «لقد سهل لكم من أمركم» وتكلم سهيل فأطال الكلام، وتراجع هو والنبي ﷺ حتى انتهيا إلى صيغة الصلح، وتم الاتفاق ولم يبق إلا الكتاب.

* * *

(١) سورة الفتح: الآية ٢٤.

شروط صلح الحديبية

وكانت شروط الصلح على ما يأتي:

١ - وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين^(١)، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، وأن بينهم عيبة مكفوفة، فلا إسلال - سرقة - ولا إغلال - خيانة -.

٢ - من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

٣ - من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل. فدخلت خزاعة في عهد الرسول، ودخلت بنو بكر في عقد قريش.

٤ - أن يرجع النبي وأصحابه من غير عمرة هذا العام، فإذا كان العام القابل خرج عنها المشركون، فيدخلها المسلمون ويقيمون بها ثلاثاً ليس معهم من السلاح إلا السيوف في قربها - أغمادها -.

وقبل النبي هذه الشروط على ما في بعضها بادئ الرأي من إجحاف بالمسلمين؛ لأنه يصدع بأمر الله وإلهامه ولن يضيعه الله أبداً، ولحرصه على أن يسود السلام ويحفظ للبيت حرمة.

(١) ذكر الشيخ محمد الخضري رحمه الله في كتابه «نور اليقين» ص ١٩٠ أن مدة الصلح كانت أربع سنين، وقد تابعه بعض الكتاب المعاصرين، والذي في السير وكتب الحديث أن المدة عشر سنين، وأما رواية الأربع فضعيفة منكرة.

رأي المسلمين في الشروط

أما المسلمون فرأى بعضهم كالصديق ما رأى الرسول في الشروط وسلموا بها، ورأى بعضهم ولا سيما في الشرط الثاني إجحافاً بحق المسلمين، وقالوا: سبحان الله!! كيف نرد إليهم من جاء مسلماً، ولا يردون إلينا من جاء مرتداً؟ فأجابهم الرسول بهذا الجواب الحكيم: «إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً».

ومن هذا الفريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكما هو معروف عنه من الصلابة في الحق وحب المراجعة فيما لم يستتب له فيه وجه الحق والصواب؛ أبي إلا أن يعلن عما في نفسه، فذهب إلى الصديق رضي الله عنه، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟! فقال أبو بكر: يا عمر، الزم غَزْزه^(١) - طريقته -، فإني أشهد أنه رسول الله، فقال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

وكان الفاروق لما يزل في نفسه بعض الحرج في قبول هذا الشرط، فرأى أن يستين من الرسول وجه الحق وأن يسمع منه، فأق رسول الله وقال له: ألسنت برسول الله؟ قال: «بلى»، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فقال الرسول: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعني^(٢)»، فلم يكن بد من أن يذعن الفاروق وينتظر ما تحيي به الأيام، ولم تلبث الأحداث أن أظهرت بُعد نظر الرسول كما ستعلم عن كثب.

(١) الغز للبعير: كالسرج للفرس، والمراد الزم أمره وطريقته وإياك والمخالفة.

(٢) هذا ما ورد في السيرة لابن إسحاق، وفي الصحيح أنه أق النبي أولاً فسأله، ثم أقى أبا بكر بعد ذلك فسأله، وقد رجحت ما في السيرة على ما في الصحيح لأن بقاء شيء من الشك بعد سؤال الفاروق للصديق حتى سأل النبي فأزال ما بقي عنده أقرب من بقاء شيء من الشك بعد سؤال عمر للنبي حتى سأل الصديق فأجابه وأزال ما بقي عنده، والله أعلم.

وقد استشعر الفاروق وقد هدأت ثورته النفسية أنه ربما يكون قد جانبه الصواب في التردد في السؤال، أو احتمال أن يظن به الشك، فكان يقول: ما زلت أصوم وأتصدق، وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً، وفي صحيح البخاري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً، أي الأعمال الصالحة المذكورة.

رؤيا رسول الله

وكذلك كانت هناك مسألة أخرى تتردد في نفس بعض المسلمين وهي الرؤيا التي رآها رسول الله في دخولهم المسجد الحرام، فقد ظنوا أنها هذا العام، قلما لم تتحقق وانتهى الصلح بالتأجيل وجدوا لذلك أسى وحزناً في نفوسهم، حتى بين لهم الرسول أن الرؤيا ليس بلازم أن تتحقق هذا العام، فقد سأل الفاروق عمر رسول الله عن هذا، فقال: «أفأخبرت أنك تأتبه هذا العام؟»، قال: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به»، وكذلك سأل الفاروق الصديق عن الرؤيا، فأجابه بما أجاب به الرسول^(١).

كتابة كتاب الصلح

ودعا رسول الله علي بن أبي طالب ليكتب الكتاب، فقال له: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: أما الرحمن فلا أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم، فأبى المسلمون، فقال النبي: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، فقال سهيل: والله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله: «والله إني لرسول الله حقاً وإن كذبتُموني»، ثم أمر علياً بمحو ما كتب وكتابة محمد بن عبد الله، فامتنع علي

(١) صحيح البخاري - كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وصحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب أسباب صلح الحديبية.

تأدياً، فأخذ رسول الله الصحيفة فمحاها وكتب محمد بن عبد الله وهو لا يحسن أن يكتب^(١).

وبعد أن فرغ علي من كتابة الشروط أشهد الرسول على الكتاب رجالاً من المسلمين، وهم أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة. وشهد من المشركين حويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص. وكتب من شروط الصلح نسختان: نسخة للنبي ونسخة لقريش.

وقفة عند هذا الصلح

وإن لنا هنا لوقفة ترينا مبلغ صبر الرسول واحتماله، وتنازله عن بعض حقوقه في سبيل إتمام الصلح، ولو أن النبي استجاب لرغبات بعض المسلمين أو لهُوى في نفسه لما تمَّ الصلح، وهذا يدل على أنه نبي يوحى إليه، كما يدل على سمو نفسه سموً يعلمو على الجاه وعن هوى النفس وعن الألقاب، وكل ذلك كان حرصاً على الوفاء بما وعد به حيثما قال: «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها».

وإن ما حدث في صلح الحديبية ليعتبر مثلاً يحتذى في المساهلة في الشروط طلباً للأمن والسلام، فهل يكون فيما صنعه رسول الله قدوة للقواد والزعماء والرؤساء في عالمنا المضطرب الخائف، الذي يشاهد كل يوم مؤتمرات واجتماعات في سبيل السلام والحد من التسابق المجنون في سبيل التسليح ثم تنتهي إلى لا شيء!!؟.

أبو جندل بن سهيل بن عمرو

وبينا علي يكتب الكتاب جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيود الحديد إلى رسول الله ﷺ، فقام إليه أبوه فضرب وجهه وأخذ بتلابيه وقال: يا محمد هذا أول من أقاضيك عليه أن ترده، فقال النبي: «إنا لم نقض الكتاب بعد»،

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب عمرة القضاء، وباب الحديبية، وكتاب الشروط - باب الصلح في الجهاد.

فقال سهيل: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي: «فأجزه لي» فأبى فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أُرِدُّ إلى المشركين وقد جثت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟ فازداد الناس غمّاً فقال له الرسول: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم».

نحر النبي هديه

ولما فرغ النبي من كتابة العهد قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» — ثلاث مرات — فما قام منهم أحد، فقد أذهلهم ما هم فيه من الغم، والحزن عن أمر الرسول، فدخل رسول الله على زوجه أم سلمة وكانت خرجت القرعة عليها في سفر رسول الله هذا، فذكر لها ما وجد من الناس، فقالت — وكانت عاقلة حازمة —: يا نبي الله، اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بؤنك، وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، فلما رأوا ما فعل الرسول قاموا فانحروا، وحلق بعضهم وقصّر آخرون، فقال الرسول: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله، قال: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين، قال: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين، قال: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين؟ قال: «لأنهم لم يشكوا».

الأوبة إلى المدينة ونزول سورة الفتح

ثم آب رسول الله ﷺ وهو مغتبط بما أنتم من صلح، وفي الطريق أنزلت عليه سورة الفتح. روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه — ثلاثاً — قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل في القرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن

يكون نزل في قرآن، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس» ثم قرأ: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾.

ورواه أيضاً الإمام أحمد الترمذي والنسائي والطبراني، وقد بينت رواية الطبراني ورواية أخرى لأحمد أن نزولها كان مرجعه من الحديبية، وهو المراء بالسفر المذكور، وقد اختلف في مكان نزولها، فقليل: بالجحفة، وقيل: بكراع الغميم، وقيل بضجنان، والأماكن الثلاثة متقاربة^(١). وهذا يدل على أن هذه السورة نزلت بعد صلح الحديبية لا بعد فتح مكة، كما يزعم بعض الناس.

صلح الحديبية فتح مبين

وقد بينت هذه الرواية الصحيحة وغيرها أن المراد بالفتح في مفتح السورة هو صلح الحديبية وما جرى فيها من البيعة، وقد ورد ذلك مرفوعاً إلى النبي ﷺ، روى أحمد وأبوداود والحاكم من حديث مجمع بن حارثة قال: وشهدنا الحديبية، فلما انصرفنا وجدنا رسول الله ﷺ واقفاً عند كراع الغميم، وقد جمع الناس يقرأ عليهم: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾، فقال رجل: يا رسول الله أوفتح هو؟ قال: «أي والذي نفسي بيده إنه لفتح». كما ورد ذلك صريحاً عن بعض الصحابة، روى البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ قال: الحديبية. وروى بسنده عن البراء بن عازب قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، يعني الفتح في قوله: ﴿إنا فتحنا...﴾^(٢).

وما أحسن ما ورد عن الصديق رضي الله عنه في هذا قال: (ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصّر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد).

(١) تفسير ابن كثير والبغوي ج ٧ ص ١٥٨ وفتح الباري ج ٨ ص ٤٧٣.

(٢) صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة الفتح.

وقال الإمام الزهري : (ما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تَيْنك الستين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر). وليس أدل على هذا من أن المسلمين كانوا في الحديبية حوالي ألف وخمسمائة، وكانوا في فتح مكة عشرة آلاف^(١).

ولكي تزداد يقيناً بأن صلح الحديبية فتح مبين نسوق لك ما أفاده المسلمون من هذا الصلح.

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٢.

مكاسب المسلمين من صلح الحديبية

١ - اعترفت قريش بالمسلمين اعتراف النَّدِّ بالنَّدِّ، وفي ذلك دعاية للإسلام لا يستهان بها إن لم تكن ذات بال عند قريش فسوف يسمع بها العرب، وفي ذلك تمهيدٌ لاتساع نفوذ الإسلام وسطوته.

٢ - إنَّ هذه الهدنة ضمنت للمسلمين الانصراف إلى تبليغ دعوة الإسلام في كافة أنحاء الجزيرة وما يتاخها من الدول والإمارات، وهذا ما كان، فقد كاتب النبي الملوك والأمراء وبذلك انتشر الإسلام أضعاف انتشاره من قبل.

٣ - اعتراف المشركين بمجيء المسلمين معتمرين من العام القابل أكسب المسلمين الحق في زيارة البيت من غير مناجزة ولا حرب، وهذا ما كان يريده المسلمون.

٤ - كان أشد ما أحفظ بعض المسلمين من الصلح: أن من أتى المسلمين من قريش ردًّا، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يرد، وقد أثبت الواقع أنه لم يرتد مسلم، وبذلك أصبح هذا البند من الشرط غير ذي خطر، كما كان النبي يعلم بثاقب فكره، واستضاء قلبه بنور الوحي وفيوضاته أن الفقرة الأولى من هذا الشرط ستجر على قريش متاعب كثيرة، قد تضطرها إلى التنازل عنه، بل والإلحاح في ذلك، وهذا ما صدقته الحوادث بأسرع مما كان يظن.

سمي قريش في التنازل عن هذه الفقرة من الشرط
فقد جاء أبو بصير عروة بن أسيد الثقفي من قريش إلى المسلمين بالمدينة، فأرسلت قريش في طلبه رجلين فسلمه لهما النبي وقال له: «يا أبا بصير، إنا قد

أعطينا هؤلاء انقوم عهداً ولا يصح في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك»، فقال أبو بصير: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! فكرر عليه النبي قوله.

فخرج مع الرجلين، حتى إذا كان بذى الحليفة تحايل على أحد الرجلين فأخذ منه سيفه فضربه به حتى برد^(١)، وفر الآخر يعدو حتى دخل مسجد المدينة فلما رآه رسول الله قال: «قد رأى هذا ذعراً» وأخبر رسول الله بما جرى فأمنه، ولم يلبث أبو بصير أن جاء وقال: يا رسول الله قد — والله — أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فقال النبي: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد»^(٢).

ففتن الرجل لمقالة الرسول، وخرج حتى نزل (العيص) على ساحل البحر في طريق قريش إلى الشام، ولم يلبث أن انفلت أبو جندل ولحق به، وهكذا صنع كل من ضيق عليه واحتجز بمكة حتى تكوّن منهم نحو السبعين رجلاً، ففقطعوا على قريش تجارتها، فماذا كان من أمر قريش؟ لقد أرسلت إلى رسول الله تناشده الله والرحم أن يرسل إليهم ويؤويهم، وأن من أتاه مهاجراً من المسلمين فهو آمن ولا يرد.

وهكذا صدّق الله فراسة نبيه، وعلم المسلمون الذين امتعضوا من هذا الشرط أن أمر رسول الله أعظم بركة من أمرهم، وأن رأيه لهم أولى من رأيهم لأنفسهم، وازدادوا إيماناً بأن الله ناصر نبيه، وناشر دينه، ورضي الله عن الصحابي الجليل سهل بن حنيف، فقد كان يقول: (اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أردّ على رسول الله أمره لرددت، والله ورسوله

(١) برد: مات.

(٢) ويل أمه: كلمة ذم. والمراد بها هنا المدح. مسعر حرب: مثيرها ومحركها، ومسعر بالنصب على التمييز وهو وصف له بالإقدام.

أعلم^(١). وأخرج البزار عن عمر قال: (اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أردُّ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي، وما ألوت عن الحق)، وفيه قال: (فرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبيت، حتى قال لي: «يا عمر تراني رضيت وتأي»؟!).

(١) رواه البخاري.

تفسير سورة الفتح

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾: هو صلح الحديبية كما سبق أن دللنا عليه ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾: قد عاش رسول الله ﷺ على الطاعة والبر والاستقامة قبل البعثة وبعدها، فالمراد بالذنوب الأمور التي خالف فيها الأولى، وذلك مثل ما حدث في أسارى بدر، وترجيحه رأي القائلين بأخذ الفداء، ومثل إذنه للمعتذرين عن تبوك، وهذه ليست ذنوباً لكنها اعتبرت كذلك بالنسبة لجلالة قدره وعظم منزلته عند ربه، فهو من قبيل ما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين. ﴿ويتم نعمته عليك﴾: بهذا النصر على المشركين. ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾: بما يشرعه لك ولأمتك من الشرائع العادلة والدين القيم.

﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾: فيما تستقبل من أمرك حتى يظهر دينك على الأديان كلها. ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ السكينة: الطمأنينة والوقار والآية تدل على زيادة الإيمان. ﴿ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾: لله جنود كثيرة لا يعلمها إلا هو، ولو أراد أن يسلط عليهم ملكاً واحداً لأبادهم، ولكنه تعالى شرع لكم الجهاد لما في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة.

* * *

ولما بين الله ما يتعلق بنبيه ذكر ما أعدّه لعباده المؤمنين المجاهدين فقال: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار...﴾ الآية. ثم ذكر ما يتعلق بالمنافقين والمشركين في قوله: ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين

والمشركات الظانين بالله ظنَّ السوء ﴿ وهو أن الله لن ينصر نبيّه والمؤمنين وسيهلكون ﴾ عليهم دائرة السوء... ﴿: أي ما يظنونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم فهم مخذولون وهالكون في الدنيا ولهم العذاب الأليم في الآخرة، ثم أكد سبحانه قدرته على الانتقام من أعدائه فقال: ﴿والله جنود السماوات والأرض، وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ قوياً لا يُغالب، منتقماً بحكمة.

ثم قال تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾ على أمتك وعلى الأنبياء أنهم بلغوا ﴿ومبشراً﴾ للمؤمنين ﴿ونذيراً﴾ للكافرين ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه﴾ أي تنصروه ﴿وتوقروه﴾ وتعظموه وتكرموه ﴿وتسبحوه بكرةً وأصيلاً﴾ الضمير لله عزَّ شأنه أي تنزهوه وتقديسوه في أول النهار وآخره، والمراد في جميع الأوقات. ثم قال سبحانه وتعالى تشريفاً لنبيّه وتكريماً: ﴿إن الذين يبايعونك﴾ يعني في الحديبية وغيرها ﴿إنما يبايعون الله﴾ لأنك إنما تباع بأمر الله وشرعه وطاعته ﴿يد الله فوق أيديهم﴾: أي هو حاضر معهم يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فالله هو المبايع في الحقيقة بواسطة رسوله. ثم بين عاقبة النكث والوفاء ﴿فمن نكث﴾ نقض العهد ﴿فلنما ينكث على نفسه﴾ لأن وبال ذلك ضرره عليه ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾: النصر في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة.

﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب﴾ كان النبي استنفر الأعراب قبل الخروج إلى مكة معتمراً عام الحديبية فتناقل الكثيرون منهم وتعللوا بتعللات باطلة كقولهم ﴿شغلنا أموالنا وأهلونا﴾: نساؤنا وأبنائنا ﴿فاستغفر لنا﴾: قالوه تقية ومصانعة لا اعتقاداً بدليل قوله: ﴿يقولون بالسستهم ما ليس في قلوبهم﴾ وكان قعودهم ظناً منهم أنه يدفع عنهم الضر ويحصل لهم النفع، فردَّ عليهم بقوله سبحانه: ﴿قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرأً أو أراد بكم نفعاً﴾: استفهام إنكارى بمعنى النفي أي لا أحد. ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾ فيجازيكم بسرائركم.

ثم بين سبحانه أن تخلفهم ليس لعذر وإنما هو تخلف نفاق فقال: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾: طمعاً أن يستأصلهم العدو ﴿وزين ذلك في قلوبكم﴾ زينته لكم الشيطان والهوى ﴿وظننتم ظن السوء﴾: وهو أنهم لن يرجعوا ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ هلكى.

﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعدنا للكافرين سعيراً﴾: ناراً مسعرة وهو تسجيل عليهم بالكفر، ثم بين سبحانه أنه المتصرف في الكون كله على حسب مشيئته فقال: ﴿ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾: فمن تاب منكم وندم فباب المغفرة مفتوح له.

ثم بين سبحانه أن هؤلاء المتخلفين لا هم لهم إلا المغنم، ولا يعينهم نصرة الإسلام فقال: ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم﴾ هي مغانم خيبر. ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ هو ما وعد الله أصحاب بيعة الرضوان أن مغانم خيبر لهم وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين. ﴿قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل﴾: أي من قبل مرجعنا إليكم أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية. ﴿فسيقولون: بل تحسدوننا﴾ أن نشرككم في الغنائم، فرد الله عليهم زعمهم فقال: ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ الفقه: الفهم والعلم.

ثم بين سبحانه أن لهم فرصة لتدارك ما فاتهم والتكفير عن سيئاتهم فقال: ﴿قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾: هم بنو حنيفة وأضرابهم من المرتدين، وقيل: أهل فارس والروم ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ أي ينقادون إليكم بلا قتال ويدخلون في سلطانكم ﴿فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً﴾ النصر في الدنيا والثواب في الآخرة. ﴿وإن تتولوا كما توليتم من قبل﴾ في الحديبية ﴿يعذبكم عذاباً أليماً﴾: بالذلة في الدنيا والعذاب في الآخرة، ثم بين سبحانه أصحاب الأعداء في القعود عن الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج، ومنها عارض كالمرض فقال: ﴿ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج﴾ الآية.

ثم بين سبحانه رضوانه على أهل بيعة الحديبية فقال: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾: هي شجرة سَمُرَة كانت هناك، وقد بني عندها مسجد، وقد كان الناس يأتون الشجرة ويصلون عندها، حتى كان زمان خلافة الفاروق عمر فقطعها خشية افتتاح البعض بها. ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ من الإيمان ﴿وأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً﴾: هو صلح الحديبية. ﴿ومغانم كثيرة يأخذونها﴾: هي مغانم خيبر. ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾: لا يغالبه غالب. ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾: هي جميع المغانم التي غنموها فيما بعد من العرب وغيرهم. ﴿فعجل لكم هذه﴾ مغانم خيبر. ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾: لم ينلكنم سوء بما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة، وكذلك كف أيدي اليهود وغيرهم عن خلفتموهم وراء ظهوركم بالمدينة من عيالكم ونسائكم. ﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾: عبرة لهم أن الله ناصرهم، وأن الخيرة فيما اختاره الله لهم، وإن كرهوه في الظاهر. ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾: بانقيادكم لأمره وطاعتكم لرسوله. ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً﴾: الأخرى: قيل فتح مكة، وقيل: فتوح فارس والروم.

ثم بين سبحانه أنه لم يختزلهم القتال لحكم تجلت، لا لضعفهم، ولوأنهم قاتلوكم لاتصرت عليهم فقال: ﴿ولوقاتلكم الذين كفروا لوئلو الأذبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾: من دون الله، أما أنتم فالله وليكم وناصركم. ﴿سنة الله التي قد خلّت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾: أي سنة الله وعادته في الأمم أن ينتصر أهل الإيمان على أهل الكفر، والحق على الباطل، وأن العاقبة والنصر في النهاية إنما هي للمتقين المخلصين.

ثم قال تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم، وكان الله بما تعملون بصيراً﴾: امتنان من الله على عباده المؤمنين حيث كف أيدي المشركين عنهم فلم ينلهم منهم سوء، وكف أيدي المسلمين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، وصد كلاً من

الفريقين عن الآخر لحكم بالغة يعلمها، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين، وعافية لهم. وكان المشركون قد أرسلوا عيوناً على المسلمين نحواً من سبعين، فأسرهم المسلمون وجاؤوا بهم إلى رسول الله ﷺ فغفا عنهم بعد أن أمكنه الله منهم.

ثم قال تعالى: ﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام﴾: أن تعتمروا به. ﴿والهدي معكوفاً أن يبلغ محله﴾، يعني وصدُّوا الهدي الذي سقتموه وبقي محبوساً بالحديبية عن أن يبلغ محل نحره وهو الحرم، ثم بين سبحانه الحكمة في أنه لم يأذن له في القتال مع قدرتهم عليه بقوله: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾: هم المستضعفون والمستضعفات ممن أسلموا وأقاموا بمكة ولم يستطيعوا الهجرة. ﴿لم تعلموهم أن تطؤوهم﴾: أي تقتلوهم بغير علم. ﴿فتصيبكم منهم مَعَرَّةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ﴾: أي ينالكم بقتلهم سبة وإثم ويقول المشركون: قتلوا إخوانهم في الدين، وجواب لولا محذوف تقديره لسلطانكم عليهم فقاتلتموهم وأبدتموهم. ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ متعلق بمحذوف أي كففناكم عنهم ليكون لهم فسحة فيفيء بعضهم إلى الإسلام، وهذا ما كان، فقد أسلم منهم بين الحديبية والفتح أبطال مغاوير كخالد بن الوليد وعمر بن العاص، وعثمان بن طلحة بن عبدالدار. ﴿لو تَزَيَّلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾: تزيّلوا: تميزوا، يعني لو تميز المؤمنون عن الكافرين لسلطانكم عليهم فقاتلتموهم قتلاً ذريعاً.

﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية: حمية الجاهلية﴾: هي الغضب والأنفة فأبوا أن تدخلوا مكة معتمرين، وأبو أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وأبو أن يكتبوا: محمد رسول الله. ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾: فلم تأخذهم الحمية فيعضوا الله في قتلهم، ولكنهم كظموا غيظهم، وأذعنوا لنبيهم. ﴿والزهم كلمة التقوى﴾: هي كلمة الإيمان: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعملوا بموجبها ووقفوا عند ما أمر الله ورسوله: ﴿وكانوا أحقُّ بها وأهلها﴾: أحق بكلمة التقوى وأهلاً للعمل بها واحترامها. ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾. فقد وسع علمه كل شيء، أما علمكم فقاصر، ومن كان هذا

شأنه فليتهم عقله، وليلتزم ما أمر به الله ونبيه، ولينته عما نهيها عنه، وكن على ذكر لكلمة الصحابي الجليل سهل بن حنيف الأنفة^(١).

* * *

ثم بين سبحانه أن رؤيا رسول الله صادقة ولا بد أن تتحقق فقال: ﴿لقد صدّق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾: تعليم للخلق أن يلتزموها في كل شيء وإن كان المتكلم بالقرآن سبحانه عالماً بكل شيء، وصدق الله: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً. إلا أن يشاء الله﴾. ﴿آمنين محلّقين رعوّسكم ومقصّرين لا تخافون﴾: ذلك أن رسول الله كان قد رأى في المنام قبل الخروج إلى الحديبية أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك، فلما ساروا إلى الحديبية لم يشكوا أن هذه الرؤيا سيكون تأويلها هذا العام، فلما حدث ما حدث من قضية الصلح ورجوعهم وقع في نفس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر رسول الله عن ذلك فأخبره أنه لم يقل هذا العام، وأنه سيأتيه ويطوف به، وهذا ما كان فقد وقع تأويل الرؤيا في العام القادم. ﴿فعلم ما لم تعلموا﴾: وهو أن الصلاح والخير كان في الصلح وتأخير الدخول للحكم التي ذكرها الله آنفاً. ﴿فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾: وهو صلح الحديبية، وقيل: فتح خيبر.

ثم بين سبحانه أن الله ناصر نبيه وناصر دينه، وسيعلو على الأديان كلها فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾: أنك المبعوث رحمة للعالمين، ثم ختم سبحانه السورة ببيان صفة النبي وصحابته، وأنهم لجلالتهم ضرب الله لهم الأمثال في التوراة والإنجيل، وأشاد بذكرهم في القرآن فقال: ﴿محمد رسول الله، والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم﴾: لا تأخذهم في المشركين شفقة ولكنهم متوادون متراحمون بينهم، فهو كقوله سبحانه: ﴿أدلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين﴾. ﴿تراهم ركعاً سجدّاً﴾ كناية عن كثرة صلاتهم ومواظبتهم عليها. ﴿يبتغون فضلاً من الله

(١) انظر صفحة ٣٤١.

ورضواناً: أي يطلبون بأعمالهم الصالحة ثواب الله ورضوانه وهو أعظم من الثواب ﴿ورضوان من الله أكبر﴾. ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾: عليهم سيما الصلاح من الخشوع والتواضع وحسن السمات وإشراق الوجه. ﴿ذلك مثلهم في التوراة﴾: وبحسبهم فضلاً أن ينوه الله سبحانه بهم في توراته التي أنزلها على موسى عليه السلام. ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾: فرخه، وهو أول ما يبدو منه ﴿فآزره﴾: قوّاه وشده. ﴿فاستغلظ﴾: ترعرع وطال. ﴿فاستوى على سوقه﴾: غلظ وقوي. ﴿يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾: وكذلك أصحاب رسول الله كانوا قلة فكثروا، وضعفاء فقووا، وآزروه ونصروه حتى بلغ رسالة ربه، وعمّ دينه المشارق والمغرب.

﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم﴾: من لبيان الجنس أي هم ﴿مغفرة﴾: لذنوبهم ﴿وأجرًا عظيمًا﴾: ثواباً جزيلاً، ورزقاً كريماً لا يعلم قدره إلا الله، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتضى أثر الصحابة، ونهج نهجهم فهو في ركبهم، وإن كان لهم الفضل، والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم.

المهاجرات المؤمنات

كان من شروط الصلح كما أسلفنا أن من جاء من قريش إلى النبي مسلماً رُدّ، فما استقر المقام للنبي بالمدينة حتى جاءت نسوة مؤمنات من قريش منهن أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيْط، فجاء أخوها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلماه فيها أن يردّها إليهما فأبى، وروي أنه قال: «كان ذلك في الرجال لا في النساء»، فأنزل الله سبحانه قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِهْجَرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ إِنَّهُنَّ أَكْثَرُ عِلْمَهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۚ...﴾ الآية (١).

(١) سورة الممتحنة: الآية ١٠.

وهكذا صدق الله نبيه فيما قال، وأن النساء لا يدخلن في العهد الذي مضى، وأنهن يُختبرن، فإن ظهر إيمانهن لا يُرجعن إليهم أبداً.

تفسير الآيتين الواردتين في هذه الحادثة

﴿فامتنحوهن﴾: وكانت صيغة الامتحان كما روى ابن جرير عن ابن عباس: أن تقسم بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، ولا عشقاً لرجل، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله، فإذا قالت ذلك اكتفي به في إيمانها وحرم إرجاعها إلى المشركين، وذلك لأن المرأة لا يؤمن عليها الفتنة، أما الرجل فله في أرض الله الواسعة ملجأ كما صنع أبو جندل وأبو بصير وغيرهما. ﴿الله أعلم بإيمانهن﴾: يعني يكفيكم هذا في اختبارهن فلكم الظاهر والله يتولى السرائر.

﴿فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار لأنَّهنَّ حلَّ لهم ولا هم يحلون لهن﴾: وهذه الآية هي التي حرمت النساء المسلمات على أزواجهن المشركين، فإن أسلم زوجها فهو أحق بها ما لم تتزوج غيره، وقد رد رسول الله ﷺ ابنته زينب لأبي العاص بن الربيع لما أسلم، بعد نزول هذه الآية، قيل: بالعقد الأول، وقيل بعقد ومهر جديدين. ﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾: أي أعطوا أزواج المهاجرات المسلمات من المشركين ما أنفقوا من مهور. ﴿ولا جناح عليكم﴾: أيها المسلمون ﴿أن تنكحوهن إذا آتيتوهن أجورهن﴾: أي مهورهن بشرط انقضاء عدتهن. ﴿ولا تمسكوا بعهص الكوافر﴾: جمع كافرة، والمراد المشركات لا الكتابيات، نهي المسلمون عن الاستمرار مع زوجاتهم المشركات بهذه الآية كما نهوا عن زواجهن ابتداء بقوله سبحانه: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾. ولما نزلت آية المتحنة طلق المسلمون أزواجهن المشركات، فقد كان لسيدنا عمر زوجتان بمكة فطلقهما، فتزوج إحداها معاوية بن أبي سفيان، وتزوج الأخرى أبو جهم بن حذافة وهما على شركهما قبل أن يسلموا.

﴿واسألوا ما أنفقتم﴾: يعني إذا لحقت امرأة منكم بالمشركين مرتدة

فاسألوا ما أنفقتم من المهر ممن تزوجها منهم، قيل لم ترتد امرأة مسلمة قط، وقيل ارتدت واحدة ثم عادت فأسلمت فيها بعد، ﴿وليسألوا ما أنفقوا﴾: يعني للمشركين الذين لحقت زوجاتهم المؤمنات بكم أن يسألوا ما أنفقوا من المهر ممن تزوجها منكم. وهذا غاية العدل في التشريع ولذا قال: ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم، والله عليم حكيم﴾: أي عليم بما يصلح العباد حكيم في تشريعه.

ولما نزلت قال المسلمون: رضينا بما حكم الله، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا من أداء مهور من ارتدوا أو ثبتن على كفرهن، فأنزل الله: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ يعني لو ذهبت إليهم امرأة مرتدة ولم يعطوا زوجها ما أنفق من مهر، فأعطوه بما بأيديكم من مهور النساء اللاتي جئن مهاجرات، ولا تعطوا مهورهن لأزواجهن المشركين، وذلك على سبيل المعاقبة والمقابلة بالمثل.

وقيل معنى ﴿عاقبتهم﴾: غنمتم، أي من ذهبت زوجته مرتدة إلى المشركين ولم يعطوه ما أنفق من مهر فأعطوه مما غنمتم ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾: أي اتقوا الله واحذروا أن تتعدوا ما شرعه الله لكم، ولا تستجيبوا لاهوائكم في معاملة أعدائكم لأن الشأن في المؤمن أن يتقي على كل حال.

أحداث وتشريعات في هذا العام

١ - في هذا العام كان تشريع صلاة الخوف وهي تدل على يسر الشريعة الإسلامية وملاءمتها لكل زمان ومكان ولجميع الأحوال، وقد اختلفت الفقهاء في كيفية بناء على اختلاف الأحاديث والآثار الواردة فيها، وليس هنا مكان تفصيل ذلك، وإنما يطلب ذلك من كتب التفسير والحديث والفقهاء.

٢ - وفي هذا العام كان تحريم النساء المسلمات على أزواجهن المشركين بعد الحديبية، وتحريم النساء المشركات على أزواجهن المسلمين، قيل للإسلام، وقيل لاختلاف الدار.

تحريم الخمر

وقد اختلف العلماء وأصحاب السير في وقت تحريمها: قيل سنة أربع، وهو الذي يدل عليه كلام ابن إسحاق، فقد ذكر أنه كان في واقعة بني النضير، وقيل سنة ست وهو الذي جزم به الدمياطي في سيرته، واستظهر الحافظ في الفتح أنه كان سنة ثمان^(١)، والذي ترجح عندي أنه كان سنة ست.

ومهما يكن من شيء فقد كانت الخمر ممتزجة بلحوم العرب ودمائهم، حتى بلغ من بعضهم وهو أبو محجن الثقفي أن قال في الجاهلية:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة

ترؤي عظامي بعد موتي عروقها

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ٨٥ ص ٢٢٤، وج ١٠ ص ٢٤.

ولا تدفني بالفلاة فلإني

أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

لذلك كان حكمة الشارع الحكيم أن حرّمها بالتدريج، فإن النفوس البشرية يشق عليها ترك ما تعودته دفعة واحدة (شديد عادة منتزعة)، فقد نزل فيها أول ما نزل قوله سبحانه:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (١).

والآية وإن لم تقطع بالتحريم إلا أن فيها ترجيح جانب الحرمة على الحل، فمن ثم تركها قوم واستمر على شربها آخرون.

ثم إن بعض المسلمين وهو عبدالرحمن بن عوف صنع طعاماً لأصحابه، فأكلوا وشربوا، ثم قام أحدهم يصلي بهم وهو لا يعي، فقراً: «قل يا أيها الكافرون. أعبد ما تعبدون»، فترك حرف النفي في الآية وهو (لا)، فأنزل الله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (٢).

فقالوا: ما لنا ولشيء يمنعنا عن صلاتنا، فكانوا يتركونها عند الصلوات، وفي الأوقات القريبة منها، حتى إذا ما صلّوا العشاء شربوا وناموا، فيصحون وقد زال أثر السكر، وبذلك صار من السهل تحريمها تحريماً باتاً، وهذا ما كان.

فقد صنع بعض المسلمين طعاماً، فأكلوا وشربوا حتى لعبت الخمر برؤوسهم، فنهاجوا بالأشعار، فتشاجروا حتى شجّ أحدهم رأس الآخر بعظم، فقال الفاروق عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فأنزل الله سبحانه:

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٢) سورة النساء: الآية ٤٣.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ (١).

فقال عمر: انتهينا انتهينا. وبذلك حرمت الخمر تحريماً باتاً قاطعاً، روى هذا الإمام أحمد، وأصحاب السنن.

ولما حرمت نادى منادي رسول الله: ألا إن الخمر قد حرمت، فقام الناس إلى ما عندهم منها فأهرقوه حتى سالت بها طرق المدينة، وبذلك نجح الإسلام أيما نجاح في تحريمها على تأصلها فيهم، وقد حاولت بعض الدول - الولايات المتحدة - في العصر الحديث تحريمها بسطوة القانون ففشلت، وأين قانون الإنسان من شريعة الرحمن؟ فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وروي أنه لما نزلت آية التحريم البات قال ناس: يا رسول الله فكيف بمن قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فراشهم وكانوا يشربونها؟ فأنزل الله سبحانه قوله:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢).

فالآية إغذار لمن كان يشربها قبل التحريم ومات على ذلك، وليس فيها إباحة شربها لأن شربها لا يجامع التقوى بأي حال من الأحوال.

ما هي الخمر؟

والخمر هي كل ما أزال العقل أو غير منه. روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال: قام عمر على المنبر فقال: (أما بعد: فإنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير، والخمر ما خامر

(١) سورة المائدة: الآيتان ٩٠، ٩١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩٣. والحديث رواه البخاري.

العقل)، وقد خطب عمر بهذا وهو بمحضر من كبار الصحابة فلم ينكر عليه أحد، وإلى هذا ذهب جماهير العلماء سلفاً وخلفاً، وقد روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام»، وفي رواية: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام».

والخمر بجميع أنواعها حرام قليلها وكثيرها سواء، ويحد شاربها وإن لم يسكر، روى أبو داود في سننه أن النبي ﷺ قال: «ما أسكر الفرق منه فملاء الكف منه حرام»، وكل ما أسكر فهو خمر سواء أكان من العنب، أو التمر، أو الزبيب، أو البصل، أو الشعير، أو الذرة، والعبرة ليست بالأسماء، وإنما العبرة بالإسكار، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هؤلاء الذين يتحايلون على الشرع ويسمون الخمر بغير اسمها فقال: «ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها»^(١).

حكمة تحريم الخمر

والخمر مضرّة بالصحة^(٢)، مذهب للأموال، مفسدة لما بين الناس من أواصر المحبة والأخوة، مغواة للشيطان، صارفة عن ذكر الله وعن الصلاة، سالبة للعقل الذي هو أشرف ما وهب الله الإنسان، معرضة شاربها للعردة والتعدي على الدماء والأعراض، فهي أم الخبائث، فلا تعجب إذا كان الإسلام حرماً فيها حرم على المسلمين، ليكون المجتمع الإسلامي على خير ما يكون ديناً وخلقاً، وأمنأ وسلاماً.

وقد يقول قائل: إن القرآن الكريم قرر في آية البقرة أنها لم تخل من منافع، فكيف جعلتها سبباً لكل هذه المآثم؟ وأقول لمن يزعم ذلك: إن المراد بالمنافع في الآية الدنيوية وهي ما يتخلله شاربها بعد شربها من النشوة وإدخال

(١) رواه أحمد والبخاري في التاريخ.

(٢) انظر ما كتبه الطبيب النطاسي الدكتور عبدالعزيز إسماعيل في كتابه «الإسلام والطب الحديث».

الفرح والسرور على نفسه ونسيان الهموم، وما ينتفع به بعض الناس من صنعها أو بيعها أو الاتجار فيها، وهي منافع لا توازي في معيار الحق والفضيلة شيئاً مما فيها من مفسد ومبازل ومآثم، على أن هذه الآية كانت قبل التحريم، فكان من الحكمة مجاراتهم فيما يزعمونه منافع حتى لا ينفروا، ثم لما تهيأوا للتحريم حرّمها وجردها من أية منفعة أو مصلحة.

تَبْلِيغُ الْإِسْلَامِ فِي الْعَالَمِ

مكاتبة الملوك والأمراء

عاد رسول الله ﷺ من صلح الحديبية وقد أمن شر قريش ومناوأتها لدعوة الإسلام، ووجد الرسول الفرصة سانحة لتبليغ رسالة الإسلام للناس جميعاً عربهم وعجمهم، إذ قد أرسل للبشر كلهم قال تعالى:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(١).

وقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

وقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٣).

وقد كان هذا كسباً كبيراً للدعوة، فقد شهدت آفاقاً واسعة، ووجدت أرضاً خصبة، ونفوساً مستعدة لتقبل الدين الجديد بعد أن عاشت البشرية في ليل داج مظلم، ولم يكن ليخفى على رسول الله ﷺ ما يعانیه العالم - ولا سيما الدولتان اللتان كانتا تقفان النفوذ في العالم حينئذ: فارس والروم - من انحراف ديني، وفساد خلقي، واضطراب اجتماعي، وما وقع بينهما من حروب وغارات أنهكت قواهما، مما جعل هذه الشعوب على استعداد لقبول الإسلام،

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٣) سورة سبأ: الآية ٢٨.

الذي ينعمون فيه بالإيمان والأمان، والحرية والإخاء، والعدل والمساواة، ولذلك لم تكد تنتهي ثلاثون عاماً من دعوتهم إلى الإسلام، حتى كانت هذه البلاد قد دخلت في الإسلام، واستظلت بلوائه، وقد كان بدء إرسال الكتب بعد الحديبية في أواخر سنة ست أو أوائل سنة سبع، ولذلك آثرتُ ذكر هذه الكتب في هذا الموضع.

ولما عزم رسول الله على مكاتبة الملوك والأمراء خرج على أصحابه ذات يوم فقال: «أيها الناس: إن الله قد بعثني رحمة وكافة، فلا تختلفوا علي كما اختلف الخواريون على عيسى ابن مريم» فقال أصحابه: وكيف اختلف الخواريون يا رسول الله؟ قال: «دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتناقل» ثم ذكر أنه مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والنجاشي وغيرهم، يدعوهم إلى الإسلام، فأجابه أصحابه إلى ما أراد، ثم صنع له خاتم من فضة، نُقش عليه (محمد رسول الله) ليختتم به هذه الكتب.

كتاب رسول الله إلى القيصر (هرقل)

وجه رسول الله دحية بن خليفة الكلبي بكتاب إلى قيصر، وأمره أن يدفعه إلى حاكم (بصرى) ليوصله إلى هرقل، ونص الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإن أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن تولَّيت فإن عليك إثم الإريسيين^(١)». «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون»^(٢).

(١) الإريسيون: الفلاحون والأتباع، والمراد رعيته لأنها غالباً تتبع ملكها وراعيتها.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

موقف هرقل من الكتاب

ولما وصل الكتاب إلى هرقل وكان الرجل عاقلاً قال: ائتوني برجل من قومه أسأله عنه، فالتمسوه، فصادفوا أباسفيان في ركب من قومه ذاهبين بتجارتهن إلى الشام بعد صلح الحديبية، فجاؤوا بهن إليه، فسألهن بوساطة ترجمانه أيكن أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبوسفيان: أنا، فقال له: ادن مني، فأجلسه أمامه، ثم أجلس بقية قومه خلفه حتى لا يخلجوا من رد كذبه عليه إذا كذب. ثم سأله عن نسبه، وهل ادعى ذلك أحد قبله، وعن مبلغ صدقه؟ وهل كان من آباءه من ملك؟ وأيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ وأيزيدون أم ينقصون؟ وهل يرتد أحد من أتباعه سخطة لدينه؟ وهل يغدر إذا عاهد؟ وكيف حربكم وحره؟ وبم يأمركم؟ كل ذلك وأبوسفيان يجيب بما هو الحق.

ثم استخلص هرقل الحق من كلام أبي سفيان فقال له: إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكن ذونسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها. وسألتك هل قال أحد منكن هذا القول قبله، فزعمت أن لا، فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتي بقول قيل قبله. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك هل كان من آباءه ملك فقلت: لا، فلو كان من آباءه ملك لقلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فقلت: بل يزدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك هل قاتلتموه؟ فقلت: نعم، وأن الحرب بيننا وبينه سجال، وكذلك الرسل تبلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك بماذا يأمر؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

ثم قال: وهذه صفة نبي كنت أعلم أنه نبي، ولكن لم أعلم أنه منكم، وإن يك ما قلت حقاً فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه!! ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأ على الحاضرين، فعلت أصوات من حوله من عظماء الروم وكثر لغظهم، وأمر بأبي سفيان وأصحابه فأخرجوا، فقال أبو سفيان: لقد عظم أمر ابن أبي كَيْشَة^(١)، هذا ملك بني الأصفر^(٢) يخافه، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام.

ولما سار قيصر إلى حصص وأذن لعظماء الروم في دَسْكَرة له، ثم أمر بأبوابها فأغلقت، ثم قال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حَيْصَة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة، فلما رأى قيصر نفرتهم وغضبهم قال: ردوهم علي، ثم قال لهم: إنما قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فسجدوا له ورضوا عنه^(٣). وهكذا غلبه حب ملكه على الإسلام، فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكنه مع هذا كَرَّم دَحْيَة ورده رداً جميلاً.

كتاب كسرى

ووجه رسول الله ﷺ عبدالله بن حذافة السَّهْمِي بكتاب إلى كسرى^(٤) ملك الفرس، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه هذا إلى كسرى ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله

(١) قيل: هو كنية أبيه من الرضاعة، واسمه الحارث بن عبد العزى، كانوا ينسبونه إليه استهزاء.

(٢) بنو الأصفر: الروم.

(٣) صحيح البخاري، باب بدء الوحي، وكتاب الجهاد - باب دعاء النبي الناس إلى الإسلام.

(٤) كسرى لقب لكل ملك الفرس وهو كسرى بن برويز بن هرمز بن أنوشروان.

وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإن تسلم تسلم، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

فلما قرئ الكتاب عليه مزقه، فلما بلغ رسول الله ذلك دعا عليه قائلاً: «اللهم مرق ملكه» وقد استجاب الله لنيبه، فقتله ابنه شيرويه، ولم تقف حماقة كسرى عند تمزيق الكتاب بل أرسل إلى «بازان» عامله على اليمن: ابعث من عندك رجلين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز، ففعل بازان، فلما قدما على النبي قال: «أبلغا صاحبكما أن ربي قتل ربه في هذه الليلة!» وكان ذلك ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الآخرة سنة سبع من الهجرة، فخرجوا من عند النبي حتى قدما على بازان فأخبراه بمقتل كسرى، وقالوا له يقول لك: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك من الأبناء.

ثم لم ينشب بازان أن جاءه كتاب شيرويه يخبره بقتل أبيه، وأوصاه أن لا يبيع النبي حتى يأتيه أمره فيه، فقال: إن هذا الرجل لرسول، فأسلم وأسلم الأبناء من فارس الذين كانوا باليمن.

كتاب المقوقس عظيم مصر

وأوفد عليه الصلاة والسلام حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر وأميرها من قبل الروم بكتاب ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١).

(١) انظر: صورة هذا الخطاب في كتاب «الوسيط في الأدب العربي وتاريخه»، ص ١٢٢.

فوفد حاطب على المقوقس وكان بمدينة الإسكندرية، فناولته الكتاب،
فقبله وأكرم حاطباً وأحسن نزله.

ثم بعث إلى وفد جمع بطارقته، وقال: إني سأثلك عن كلام، فأحب أن
تفهم عني، قال: قلت هلم، قال: أخبرني عن صاحبك أليس هونبي؟ قلت:
بلى، هورسول الله، قال: فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث
أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال: فقلت: عيسى بن مريم أليس تشهد أنه
رسول الله؟ قال: بلى، قلت: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه
ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا؟!.

فسر منه وقال له: أنت حكيم قد جاء من عند حكيم^(١)، ثم قال إني
نظرت في أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب
فيه، ولم أجد بالساحر الضال، ولا الكاهن الكذاب، وسأنظر، ثم كتب ردَّ
الخطاب، فقال فيه:

(لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك أما بعد: فقد
قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد
بقي، وكنت أظنه بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان
عظيم في القبط، وبشباب، وأهديت إليك بغلة تركبها والسلام).

وإحدى الجاريتين مارية التي تسراها رسول الله وولدت له إبراهيم،
والأخرى أعطاهما حسان بن ثابت، فولدت له عبد الرحمن بن حسان وقيل أربع
جوار، ومما أهدي غلام خضي اسمه «مابور» وخمار أسمي عفيراً أو يعفور، وقد
أسمى النبي البغلة دللاً، وكانت فريدة بياضها بين البغال التي عرفتها بلاد
العرب.

وخطاب المقوقس هذا يدل على إكباره لرسول الله كما يدل على أنه
لم يسلم، ولم يبعد، والذي يبدو أن الرجل خاف على ملكه، ولولا هذا لآمن
ونال حظه من الإسلام.

(١) البداية والنهاية، ج ٤ ص ٢٧٣.

كتاب النجاشي

وبعث رسول الله ﷺ بكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسوله، فأسلم تسلم».

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

فإن آيتَ فعليك إثم النصارى من قومك^(١).

ولما وصله الكتاب احترمه وكرم حامله وقال له: إني أعلم والله أن عيسى بشر به، ولكن أعواني بالحبشة قليل، فأنظرني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب. وفي بعض الروايات أنه أسلم، والصحيح خلافه، ففي صحيح مسلم عن أنس «أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس النجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ».

ثم بعث إليه رسول الله بكتاب آخر مع عمرو أيضاً بشأن مساعدة مهاجري الحبشة على الخروج إلى المدينة، فأعد لهم سفينتين حملتاهم إليها، فوصلوا عقب فتح خيبر كما سيأتي إن شاء الله.

بقية الكتب

كتاب المنذر بن ساوى

وجهه عليه الصلاة والسلام العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، يدعوهم وقومه إلى الإسلام، فأسلم، فأقره النبي على إمارته، وأوصاه

(١) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٨٣.

بالنصح والطاعة والإصلاح، وأن لا يكره أحداً على الإسلام، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.

كتاب أمير بصرى

وأرسل عليه الصلاة والسلام الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى، فلما بلغ مؤتة - قرية بمشارف الشام - تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، قال له: أين تريد؟ قال: الشام. قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، فأمر به فضربت عنقه، ولم يقتل لرسول الله رسول غيره.

كتاب أمير دمشق

ووجه عليه الصلاة والسلام شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني أمير دمشق من قبل هرقل، يدعوهُ إلى الإسلام، ويَعِدُهُ ملكه إن أسلم، فلما وصله الكتاب رمى به، وقال: من ينتزع مني ملكي؟ واستعد ليرسل جيشاً لحرب النبي، وقال لشجاع: أخبر صاحبك بما ترى، ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك، وصادف ذلك مجيء دحية بكتاب رسول الله إلى هرقل، فكتب إليه يثنيه عن عزمه، فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاعاً بالحسنى ووصله بنفقه وكسوة.

كتاب ملك اليمامة

ووجه النبي سليط بن عمرو العامري بكتاب إلى هُوْذَةَ بن علي ملك اليمامة يدعوهُ إلى الإسلام، ووَعَدَهُ أن يجعل له ما تحت يديه إن أسلم، فكتب في رد الكتاب: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك، فلما بلغ كتابه الرسول قال: «لو سألتني قطعة من الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يديه» فلم يلبث أن مات منصرف الرسول من فتح مكة.

كتب أخرى

وكذلك أرسل النبي إلى جَبَلَةَ بن الأيهم الغساني، وإلى الحارث بن عبدكلال الحميري ملك اليمن، وإلى جيفر وعبد ابني الجلندى ملكي عمان،

وإلى غيرهم من الملوك والأمراء، فمنهم من أجاب وأسلم ومنهم من رد رداً سيئاً.

ويلاحظ على هذه الكتب الخبرة الدقيقة بنفوس من أرسل إليهم، وحسن تخير الألفاظ المناسبة لكل، والمثيرة للعواطف والمشاعر، كما يلاحظ أن بعض من لم يسلم كان رده رداً جميلاً رقيقاً مما يدل على قوة الإسلام وسطوته، وسماحة دعوته، فلا تعقيد فيها ولا غموض، وأن الصحابة الذين حملوا الكتاب كانوا عند حسن ظن الرسول بهم، ووفوا بما عاهدوه عليه من الإقدام، وأن لا ينكصوا كما نكص بعض رسل عيسى عليه الصلاة والسلام، كما كان عجيباً أن لم يقتل من الرسل على كثرتهم إلا واحد، وهذا يدل على أن العالم حينئذ كان يستشرف إلى دين جديد سمح، ينقذه من الخضيض الذي هوى إليه، فكان هذا الدين هو الإسلام.

* * *

السَّنة السَّابِعَةُ مِنَ الْهَجْرَةِ

غزوة ذي قَرَد^(١)

لم يختلف أصحاب السير أنها كانت سنة ست قبل الحديبية وإن اختلفوا في شهرها، وجزم الإمام البخاري بأنها كانت قبل خيبر بثلاث ليالٍ على ما ثبت عنده من أحاديث صحيحة، وقد رجَّح الحافظان ابن كثير وابن حجر ما ذهب إليه البخاري^(٢)، ولذلك آثرت ذكرها هنا تبعاً لما في الصحيح.

أغار عبدالرحمن بن عيينة بن حصن الفزاري في جماعة من قومه غطفان على لقاح^(٣) النبي ﷺ بالغابة، وعلى اللقاح رجل من غفار ومعه امرأته، فقتلوا الرجل واستاقوا اللقاح وأخذوا معهم المرأة، وكان أول من سمع بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع، فقد لقيه غلام لعبدالرحمن بن عوف فأخبره، فتوشح سيفه، وتكبَّ قوسه، وأخذ نبله وصعد على جبل فرآهم، فصاح واصباحاه^(٤) (ثلاثاً) وخرج يشتد في آثار القوم، وكان عادياً لا يسبقه أحد حتى لحق بهم، فجعل يرميهم بالنبل ويقول:

خذها وأنا ابن الأكوع اليوم يوم الرُّضْع^(٥)

(١) بفتح القاف والراء وحكي الضم فيها، وهو ماء على نحو بريد من بلاد غطفان.

(٢) فتح الباري، ج ٧ ص ٣٧.

(٣) جمع لقحة بكسر اللام وفتحها: الإبل ذوات اللبن.

(٤) كلمة تقال عند استنفار الغافل.

(٥) الرضع: جمع راضع وهو اللثيم، أي يوم هلاك اللثام.

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هارباً، وكان رسول الله ﷺ قد سمع صباح ابن الأكوع فنادى في المدينة: «الفرع. الفرع» فترامت الخيول إلى رسول الله، فأمر عليهم سعداً وقال: «أخرج في طلب القوم حتى ألحقك». منهم المقداد بن الأسود، وعبيد بن بشر، وسعد بن زيد، وعكاشة بن محصن، وأبوقتادة.

وما زال سلمة يكر ويفر، حتى استنقذ منهم اللقاح، واستلب منهم أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رحماً، ألقوها متخفين منها، وهم يظنون أنه ما فعل ذلك إلا ومعه كمين أو وراءه مدد.

ولما أدركهم الفرسان المسلمون حمل أبوقتادة على عبدالرحمن بن عيينة فقتله، وقتل عكاشة رجلاً وابنه، وقتل من المسلمين محرز بن نضلة، وأخذ المشركون في السير هرباً، ولم يلبث رسول الله أن جاء في خمسمائة من أصحابه وأقام على ذي قرد يوماً وليلة، فقال سلمة: يا رسول الله لو سرحتني ومائة رجل لاستنقذت بقية السرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال العفو الكريم: «يا سلمة ملكت فأسبح^(١)، إنهم الآن ليغبقون في غطفان»^(٢) أي فاتوا ووصلوا إلى بلادهم.

وقسم النبي الغنيمة عليهم وأعطى سلمة سهمين: سهم الراجل وسهم الفارس، تقديرًا له، وأردفه على ناقته العضباء، وهم عائدون إلى المدينة، وقال: «خير فرساننا اليوم أبوقتادة، وخير رجالتنا سلمة» وعاد المسلمون بعد أن لقنوا غطفان درساً لن ينسوه.

لا نذر في معصية

وكانت امرأة الغفاري قد غافلت المشركين، وركبت ناقة من إبل النبي حتى قدمت عليها المدينة، وكانت نذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنها،

(١) أي إذا قدرت فاعف.

(٢) ليغبقون: يشربون لبن العشي، والغبوق - بفتح الغين - ما يشرب بالمساء.

فلما أخبرت الرسول تبسم وقال: «بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها، ثم تنحرينها، إنه لا نذر في معصية، ولا فيها لا تملكين، وإنما هي ناقة من إبلي».

الوفاء حتى للحيوان

وإن هذه القصة لترينا حسن العهد، وغاية الوفاء للذين كان يتخلق بهما رسول الله ﷺ، هذا الوفاء الذي شمل بني الإنسان والحيوان، وقد كان هذا درساً علمه رسول الله هذه المرأة ليكون عبرة للأجيال، إن صاحب الخلق العظيم يعلمنا أن نقابل الإحسان بالإحسان، والجميل بالجميل، والنعم بالشكر، لا بالجحود والكفران، وأن الوفاء لازم حتى للحيوان. وبعد أن بين لها الرسول الكريم أن هذا وإن كان لا يليق خلقاً ومروءة، فهو لا يجوز شرعاً، إذ لا نذر في معصية ولا فيها لا يملكه الإنسان.

غزوة خيبر

وفي هذه السنة كانت غزوة خيبر، وبالانتصار فيها تم القضاء على شوكة اليهود في جزيرة العرب، وسنرجى الكلام عليها إلى بحث موقف الإسلام من اليهود بعد الفراغ من حوادث هذا العام.

غزوة ذات الرقاع^(١)

خرج فيها رسول الله ﷺ في جمع من أصحابه، قيل: أربعمائة وقيل: سبعمائة قبل نجد يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان لما بلغه أنهم يجمعون الجموع له، واستخلف على المدينة أباذر، وقيل عثمان بن عفان، فساروا حتى وصلوا «نخلًا»، فلقي بها جمعاً من غطفان، فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب، وخاف المسلمون أن يأخذهم المشركون على غرة، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الخوف، وذلك أن طائفة منهم صفّت مع النبي ﷺ ووقفت طائفة تجاه العدو، فصلّى بالتّي معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصّفوا تجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلّى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم.

وقد ورد عن النبي في صفة صلاة الخوف كفيات أخرى حملها بعض العلماء على التوسع والتخير، وأن أية طريقة منها جائزة، وحملها البعض الآخر على اختلاف الأحوال، فإذا اشتد الخوف أخذ بأيسرها مؤونة، وأقلها عملاً. وهذا يدل على يسر الإسلام وسماحته، وصلاحيته لكل زمان ومكان. وقد اختلف في تحديد وقتها، فالإمام البخاري يرى أنها كانت سنة سبع بعد خيبر وساق أدلته على ذلك، أما أصحاب السير فذهبوا إلى أنها قبل خيبر، وإن اختلفوا في تحديد زمانها، ففيل سنة أربع، وقيل سنة خمس، وقيل في أوائل سنة ست.

* * *

(١) اختلف في سبب تسميتها «ذات الرقاع» فقيل: لأنهم كانوا يلفون على أرجلهم الحرق لما حفيت أقدامهم، وقيل: لأنهم رقعوا راياتهم فيها.

قدوم مهاجري الحبشة

وفي هذا العام وفد على النبي ﷺ بالمدينة من بقي من مهاجري الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب، ومعه بضعة وخمسون رجلاً من أهل اليمن وهم الأشعريون، منهم أبو موسى الأشعري، وأخوه أبو بردة، وأبورهم. ففي صحيح البخاري^(١) عن أبي موسى أنه بلغهم مخرج النبي ﷺ وهم باليمن، فخرجوا مهاجرين إليه وركبوا سفينة، ولكن الرياح عاكستها، وألقت بها إلى الحبشة، فوافوا جعفر وأصحابه هناك، فأقاموا معهم حتى بعث النبي عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي أن يجهز إليه جعفرًا ومن معه، فجهزهم وحملهم في سفينتين وعادوا مكرمين إلى المدينة.

وكان قدومهم بعد فتح خيبر، وقد سر النبي بمقدم جعفر وأصحابه، وقال: «ما أدري بأيها أنا أسر: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟» وكان فيمن قدم مع جعفر زوجته أسماء بنت عميس والسيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج الرسول، وخالد بن سعيد بن العاص، وزوجته، وولده، وعمرو بن سعيد بن العاص، والأشعريون.

ولما قدمت أسماء ورآها الفاروق عمر قال لها: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت، وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله، يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار البعداء البغضاء، وذلك في الله،

(١) فتح الباري، ج ٧ ص ٣٣٤.

وفي رسول الله . ثم أخبرت النبي بمقالة سيدنا عمر فقال لها : « ليس بأحق بي منكم ، له ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » أي هجرتهم إلى الحبشة ، ثم هجرتهم إلى المدينة ، فما فرح أصحاب السفينة بشيء أعظم من فرحهم بمقالة الرسول .

ولما لهم من منزلة ، ولما تحمّلوه في سبيل الإسلام قسم لهم جميعاً من غنائم خيبر ، ولم يقسم لأحد لم يشهدا غيرهم ، إلا ما كان من أمر أبي هريرة فقد قدم على النبي مسلماً وهو بخيبر بعد فتحها ، فكلم النبي أصحابه في شأنه فأشركوه في غنيمتهم .

* * *

سرية بشير بن سعد

بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد الأنصاري لقتال بني مرة بناحية فُذَك، فلما ورد بلادهم لم ير منهم أحداً، فاستاق نَعَمَهم، وكان القوم بالوادي فجاءهم الصريخ^(١)، فأدركوه ليلاً وهوراجع، فتراموا بالنبل، ولما أصبح الصباح اقتتل الفريقان قتالاً مريراً حتى قتل عامة من كان مع بشير، وصمد هو يومئذ صمود الأبطال، وما زال يقاتل حتى أنخنته الجراح، وظنوا أنه مات، ثم لم يلبث وقد انصرف عنه العدو أن تحامل على نفسه حتى جاء إلى رسول الله وأخبره الخبر.

سرية غالب بن عبد الله

وفي رمضان سنة سبع بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبي إلى الميفعة^(٢) من أرض بني مرة في جماعة من الصحابة، منهم أبو مسعود البدري، وكعب بن عجرة، وأسامة بن زيد، فأدرك أسامة بن زيد ورجل من الأنصار «مرداس بن نهيك»^(٣)، فلما شهرا عليه السيف قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فكفَّ عنه الأنصاري وقتله أسامة، وقد لأمه الصحابة على هذا حتى سقط في يده، فلما قدموا على رسول الله أخبروه فقال: «يا أسامة كيف لك بلا إله إلا الله؟» فقال: يا رسول الله إنما قالها متعوذاً من القتل، فقال النبي: «فهلأ شققت عن قلبه فنظرت إليه؟» وما زال النبي يردد قوله: «فكيف لك

(١) الصريخ: المستغيث.

(٢) بكسر الميم وسكون الياء وفتح الفاء: على ثمانية برد من المدينة بناحية نجد.

(٣) «مرداس» بكسر الميم و«نهيك» بفتح النون وكسر الهاء.

بلا إله إلا الله» حتى تمنى أسامة أنه لم يكن أسلم قبل ذلك اليوم وقال: إني أعطي الله عهداً أن لا أقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً، فقال النبي: «بعدي يا أسامة» قال: بعدك. وهذا يدل على عظم حرمة كلمة التوحيد، وأن الرجل ما دام أظهر كلمة الإسلام فهو معصوم الدم.

وقد حدث مثل ذلك من المقداد وغيره من الصحابة متأولين^(١)، فأنزل الله هذا التأديب الإلهي في قوله:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَسُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٢).

(١) فتح الباري، ج ٨ ص ٢٠٨؛ وتفسير القرطبي، ج ٥ ص ٣٣٦، ٣٣٧.

(٢) سورة النساء: الآية ٩٤.

عمرة القضاء والقضية والقصاص^(١)

ها هو العام قد استدار، وحلَّ ميعاد عمرة القضاء، فما إن وافى ذو القعدة من عام سبعة حتى أذن مؤذن رسول الله أن يتجهزوا للعمرة، وخرج مع رسول الله ﷺ كل من كان معه بالحديبية إلا من مات أو استشهد، وخرج معه آخرون حتى بلغت عدتهم ألفين، واستخلف على المدينة عوف بن الأضبط الديلي وقيل أبارهم، وسار رسول الله يلبي والمسلمون يلبن بعد أن أحرموا بالعمرة، وساقوا أمامهم الهدي، وشهدت الصحراء هذا المشهد الرائع الذي لم تشهده من قبل، وعجَّت الصحراء بالتهليل والتكبير والتلبية، والمسلمون يغذون السير يحذوهم الشوق إلى بيت الله الحرام، ويستخفهم الفرح بالعودة إلى البلد الطيب الذي فيه ولدوا، وعلى ترابه ترعرعوا، وفي مغانيه كانت ذكريات الطفولة ومآرب الشباب.

وكان رسول الله - رعاية للحديقة، وأخذاً للمحذر - قد ساق أمامه الخيل وعليها محمد بن مسلمة، والسلاح مع بشير بن سعد، حتى إذا غدر أهل مكة

(١) سميت عمرة القضاء لأنها كانت قضاء عن العمرة الأولى، وأنكر السهيلي ذلك وقال: سميت بالقضاء لأنها كانت بسبب التقاضي والصلح بين المسلمين والمشركين في الحديبية، وتسمى عمرة القضية أيضاً لما ذكرنا، وتسمى عمرة القصاص لأنها كانت قصاصاً عن عمرة الحديبية، وقيل لقول الله تعالى: ﴿والحرمت قصاص﴾ لأنهم لما منعوا المسلمين من الاعتمار في شهر حرام كان جزاؤهم أن يدخلوا عليهم مكة في شهر حرام من العام القابل.

بهم أو أهاجهم هائج كان السلاح قريباً منهم، وفي مرّ الظهران التقى نفر من قريش بمحمد بن مسلمة في خيل المسلمين، ورأوا السلاح مع بشير بن سعد، فرجعوا سراعاً فأخبروا قريشاً، ففزعت قريش وقالوا: والله ما أحدثنا حدثاً، وإنا على كتابنا وهدنتنا، فقيم يغزونا محمد في أصحابه؟ ولما بلغ رسول الله بطن يأجج حيث ينظر أنصاب الحرم^(١) ترك الخيل والسلاح، وبعث قريش مكرز بن حفص في نفر منهم فالتقوا بالنبي ببطن يأجج، فقالوا: يا محمد ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر، وقد شرطت أن لا تدخل مكة إلا بالسيوف في القرب، فقال له النبي: «إني لا أدخل عليهم السلاح» فقال مكرز: هذا التي تعرف به: البر والوفاء.

ثم رجع إلى قريش فأخبرهم، فخرجوا إلى رؤوس الجبال، وأخلوا مكة للمسلمين، واكتفوا بالنظر إليهم من عل، واستبدّ الحق والغضب ببعضهم، فذهبوا إلى الخندمة كراهة أن ينظروا إلى النبي وإلى أصحابه، وتبياً المسلمون لدخول البلد الحرام، وركب رسول الله على ناقته القصواء، وهؤلاء الغر الميامين والأبطال الأشاوس يحيطون به، وهم متوشحون سيوفهم، والكل يقول: «ليكن اللهم ليكن، ليكن لا شريك لك ليكن، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك» والبطل المقدم عبدالله بن رواحة أخذ بزمام الناقة وهو يرتجز ويقول:

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله	خَلُّوا فكل الخير في رسوله
يسا ربّ إنني مؤمن بقبيله	أعرف حقّ الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله	كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله

وأنكر ابن هشام أن البيتين الأخيرين من كلام ابن رواحة وأنها لعمار بن ياسر يوم صفّين، وقال: إنما يقاتل على التأويل من أقر بالتنزيل. وفيما قاله نظر،

(١) العلامات الدالة عليه.

فلان موسى بن عقبة والحافظ البيهقي رويًا هذا، والمسلمون قد قاتلوا المشركين على تأويله، كما قاتلوهم على ما أوجبه التنزيل^(١).

ودخل المسلمون المسجد الحرام ليطوفوا بالبيت، وكان المشركون قد أرجفوا وقالوا: إنه يقدم عليكم وفد وهتهم حمى يثرب، وتطلعوا من رؤوس الجبال ليروا الذين أضعفتهم الحمى والغربة، فلما علم النبي بهذه المقالة اضطلع بردائه وصار يهرول^(٢)، وأمر المسلمين أن يضطبعوا ويهرولوا وقال: «رحم الله امرأ أراه من نفسه قوة» فكان إذا استلم الحجر الأسود هرولاً وهرولاً، حتى إذا استلم الركن اليماني وواراه البيت منهم مشى ومشوا حتى يستلم الركن عند الحجر الأسود، هكذا فعل الأشواط الثلاثة الأولى ومشى في الأربعة الباقية، ولولا الرحمة بهم، والإشفاق عليهم لهرول بهم الأشواط كلها.

وبعد الطواف وصلاة ركعتين عند مقام إبراهيم سَعَوْا بين الصفا والمروة، ثم حلقوا وذبحوا هديهم، وبذلك تمت عمرتهم. ورأى المشركون هذا المشهد المؤثر المعبر فخاب ظنهم، ولم يكتموا ما بأنفسهم، فقالوا: ما يرضون بالمشي، أما إنهم لينفرون نفر الظباء، وازدادوا كمدًا إلى كمد.

إقامة النبي بمكة

ومكث النبي والمسلمون بمكة ثلاثة أيام، يطوفون بالبيت ويصلون، ويعبون من ماء زمزم، وقد قَضَوْا بعض حاجات النفس المشوقة إلى بيت الله

(١) البداية والنهاية، ج ٤ ص ٢٢٨؛ فتح الباري، ج ٧ ص ٤٠٢.

(٢) الاضطباع: أن يضع منتصف إزاره تحت إبطه اليماني، ثم يطرح طرفه على كتفه اليسرى. والهرولة فوق المشي العادي، ودون الجري مع تقارب الخطأ وهز الكتفين، وهي مشية تنم عن القوة والفتوة، وهذا أصل هذه السنة، ثم أبقاها الشارع لما فيها من التذكير بنعمة الله على المسلمين حيث أعزهم بعد ذلة، وقواهم بعد ضعف، ونصرهم ويمكن لهم في الأرض بعد ضيعة، وقد ذكر المرحوم الشيخ الحضري في سيرته: أن النبي طاف بالبيت وهو على ناقته، واستلم الركن بمحجن في يده، وهذا ليس بصحيح، وإنما كان ذلك في حجة الوداع، وهذا الذي ذكرناه هو ما ذكره ابن إسحاق وثبت في الأحاديث الصحاح.

الحرام، وفي صبح اليوم الرابع جاء سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى إلى رسول الله وهو يتحدث مع سعد بن عباد، فصاح حويطب: نناشدك الله والعهد لما خرجت عن أرضنا فقد مضت الثلاث، فقال سعد: كذبت ليس بأرضك ولا بأرض آبائك والله لا يخرج، ولكن رسول الله حسم المخاصمة وقال لهما:

«إني قد نكحت فيكم امرأة - ميمونة - فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها، ونصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا» وذلك تطيباً لنفوسهم، وتالياً لقلوبهم، ولكنها أياها فأم رسول الله أبارافع فأذن بالرحيل، فارتحل الرسول وأصحابه حتى نزلوا بسرف - قرية قرب مكة - وأقاموا هناك، وفيها بنى النبي ﷺ بزوجه ميمونة، ثم ارتحلوا إلى المدينة وألستهم بالشكر والثناء على الله، أن صدق وعده، ونصر عبده وهم يرددون قول الله سبحانه:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(١).

حادثة وقضية

ولما خرج النبي من مكة تبعته فاطمة ابنة حمزة شهيد أحد وكانت جارية صغيرة، وقالت: يا عم يا عم، فتناولها علي وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فلما رجعوا إلى المدينة اختصم فيها علي، وزيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، فقال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وعندني ابنة رسول الله وهي أحق بها، وقال جعفر ابنة عمي وخالتها تحتي^(٢)، وقال زيد ابنة أخي^(٣)، ففضى النبي بها لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم» ثم طيب خاطر كل واحد

(١) سورة الفتح: الآية ٢٧.

(٢) لأن أم البنت هي سلمى بنت عميس أخت أسماء بنت عميس.

(٣) لأن النبي كان أخى بين حمزة وزيد حين عقد المؤاخاة بين المسلمين.

من هؤلاء الثلاثة فقال لعلي: «أنت مني وأنا منك» وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي»^(١) وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» ولما كبرت قال علي للنبي: ألا تتزوج ابنة حمزة فقال: «إنها ابنة أخي من الرضاعة».

وإن لنا هنا لوقفة عند هذه القضية الشائكة، فكل من الثلاثة أدلى بحجته، وعلي وجعفر تربطهما بالنبي صلة القرابة الوثيقة، وهما بالنسبة للبننت أبناء عمومة، وزيد تربطه بالنبي علاقة تربية ومحبة، بها أثر النبي على أهله حتى تبناه النبي، ثم أبطل ذلك الإسلام فيما أبطل، قضية محيرة حقاً، ولكن ذا القلب الكبير والعقل الواسع قضى فيها خير ما يكون القضاء، فريد مهما نال من شرف الأخوة وحققها لحمزة فهو دون علي وجعفر في استحقاق ابنة حمزة، وقد يرى بعض بني هاشم في تربيتها في بيت مولى لهم ما يخل بمنزلتهم في قريش، أو ترى البننت الهاشمية في ذلك غضاضة عليها، فبقي التفاضل بين علي وجعفر، كلاهما من بني هاشم، وكلاهما ابن عم لها، وكلاهما من السابقين الأولين من المهاجرين ومنزلتهما في الإسلام معروفة، فليكن التفاضل بما وراء ذلك فمن ثم قضى بها لجعفر، لأن خالتها عنده والخالة كما قال الصادق المصدوق بمنزلة الأم.

وقد يبدو بادىء الرأي أن علياً كان أولى بها، لأنه ابن عم، وزوجه بنت عم لها، ولكن كيف؟ وابنة العم مهما بلغت من الكرم والتسامح والرعاية لن تكون كالخالة، وربما ترى في وجود ابنة العم معها - وهي من تحل لزوجها - منافساً لها، فلا تعجب إذا كان صاحب القلب المضيء، والنظر الرحيب، قد قضى بهذا القضاء العادل الحكيم، فقضى بها لجعفر، أو إن شئت الدقة فقل لخالتها التي عنده: أسما بنت عميس، وهي من هي ديناً وخلقاً وتضحية في سبيل الله ورسوله.

ولا يخفى على العارف بالنفوس البشرية وما يدبّ فيها من الخواطر والهواجس ما عسى أن يداخل نفوسهم من ألم أو خواطر لفوات ما كانت تحب

(١) الأولى بفتح الحاء وسكون اللام والثانية بضم الحاء واللام.

وتهوى، أو هوان وضعف منزلة، فيطيب خاطر الثلاثة بهذه الأوصاف المشرفة
الموزونة بميزان عادل دقيق، لا يمكن أن يكون إلا بمن أوتي جوامع الكلم،
واختصر له الكلام اختصاراً، وبهذا جمع النبي صلوات الله وسلامه عليه بين
جلال الحق العادل وجمال تطيب الخاطر.

* * *

تشريعات وحوادث هذا العام

تحريم لحوم الحُمُر الأهلية وغيرها

وفي غزوة خيبر حَرَّمَ رسول الله ﷺ لحوم الحُمُر الأهلية - الإنسية - ، وحرم لحوم كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مَخْلَب من الطير . روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « نهى النبي ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر » ورويا بسندهما عن أنس أن رسول الله ﷺ جاءه جاء فقال : أكلت الحمر ، ثم جاءه جاء فقال : أكلت الحمر ، ثم جاءه جاء فقال : أفنيت الحمر ، فأمر منادياً ينادي في الناس :

« إن رسول الله ينهاكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجس ، فأكفثت القدور وإنما لتفور باللحم » .

وروى مسلم عن ابن عباس قال : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مَخْلَب من الطير) وبينت رواية الترمذي أن ذلك كان في خيبر^(١) .

تحريم نكاح المتعة

وفي خيبر أيضاً حرم النبي نكاح المتعة ، وهو النكاح لأجل ، ولم يكن يستلزم طلاقاً ولا عدّة ، ولا يستوجب ميراثاً ، وقد كان هذا النكاح معروفاً في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أباحها في بعض الغزوات للضرورة القصوى ، ففي

(١) فتح الباري، ج ٩ ص ٥٤٠؛ صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٣، ص ٨٢، ٩٩.

حديث ابن مسعود: (أنهم كانوا إذا غَزَوْا اشتدت عليهم العُزْبَةُ، فأذن لهم في الاستمتاع).

وقد ورد في حل المتعة ثم تحريمها أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما، ففي الصحيحين عن علي رضي الله تعالى عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن المتعة، عام خيبر، ولحوم الحمر الأهلية. وفي صحيح البخاري عن علي أيضاً التصريح بأن نكاح المتعة نسخ. وتحرير المقال في هذا المقام الذي كثُر فيه القيل والقال: إن تحريم المتعة بعد إباحتها وقع مرتين: الأولى يوم خيبر، والثانية يوم فتح مكة، أبيحت ثلاثة أيام ثم حرمت بعد ذلك تحريماً مؤبداً إلى يوم القيامة، ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها من جميع العلماء إلا الشيعة.

وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول بإباحتها، وروي عنه أنه رجع عنه، بل قد ورد عنه أنه كان يبيحها للضرورة، فقد روى الخطابي والفاكهي عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس لقد سارت بفتياك الركبان، وقال فيها الشعراء، فقال: والله ما بهذا أفيت، وما هي إلا كلمية لا تحل إلا للمضطر، فإذا ثبت ذلك وأنه رجع عن مقالته فقد تأكد الإجماع على حرمتها بعد الفتح إلى يوم القيامة، وأجمع العلماء على أنه متى وقع نكاح المتعة الآن حكم بطلانه سواء كان قبل الدخول، أو بعده، إلا ما ورد عن زفر من الحنفية في أنه يتأبد نكاحه، وكأنه يرى التوقيت من باب الشروط الفاسدة في النكاح، فإنها تلغى ويصح النكاح.

ولا أدري كيف يستحل الشيعة نكاح المتعة، ويقولون ببقائه بعدما ثبت في الصحيحين عن الإمام علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عنها وأنها منسوخة^(١)! والحق أحق أن يتبع.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٩ ص ١٧٩ - ١٨١؛ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ٩ ص ١٣٦.

زواج النبي بصفية بنت حَيِّ النضرية

هي السيدة صفية بنت حَيِّ بن أخطب من ذرية هارون بن عمران ، ومن سبط لاوي بن يعقوب ، ولما أجلى النبي يهود بني النضير من المدينة ذهب عامتهم إلى خير ، وفيهم أبوها حَيٌّ سيد بني النضير وبنو أبي الحقيق ، وكانت صفية حينئذ دون البلوغ ، فلما بلغت تزوجها سلام بن مشكم ، ثم خلفه عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وكان عنده كنز بني النضير ، فجيء به إلى الرسول بعد هزيمة يهود خير ، فسأله عن الكنز فجحدته ، فقال له النبي : «أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟» قال : نعم ، فأتى رسول الله رجل من اليهود فقال : يا رسول الله ، إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة ، فأمر الرسول بالخربة فحفرت ، فأخرج منها بعض الكنز ، ثم سأله عما بقي فأبى أن يؤديه ، فدفعه رسول الله إلى محمد بن مسلمة ، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة الذي قتله اليهود في خير .

ولما فتح المسلمون القموص - حصن بني أبي الحقيق - كانت صفية في السبي ، فأعطاه دحية الكلبي ، فجاء رجل إلى النبي فقال : يا رسول الله أعطيت دحية صفية بنت حَيِّ سيدة قومها ، وهي ما تصلح إلا لك ، فاستحسن النبي ما أشار به الرجل ، وقال لدحية : «خذ جارية من السبي غيرها» ثم أخذها رسول الله وأعتقها وجعل عتقها صداقها . وهكذا ردَّ النبي إليها بصنيعه هذا اعتبارها ، وحفظ لها شرفها وسيادتها .

وذكر ابن سعد عن الواقدي قال : لم يخرج النبي من خير حتى ظهرت صفية من حيضها ، فحملها وراءه ، فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خير

مال يريد أن يعرّس بها فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء نزل بها هناك فمشطتها أم سليم، وعطرتها، وزفتها إلى النبي وبنى بها، فسألها: «ما حملك على الامتناع من النزول أولاً؟» فقالت خشيت عليك من قرب اليهود، فعظمت في نفسه، ومكث رسول الله بالصهباء ثلاثة أيام، وأولم عليها ودعا المسلمين، وما كان فيها من لحم وإنما التمر والأقط والسمن، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطأ لها خلفه ومدّ عليها الحجاب، فأيقنوا أنها إحدى أمهات المؤمنين.

وقد بلغ من إكرام النبي لها أنه كان يجلس عند بعيه فيضع ركبته لتضع صفيه رجلها على ركبته حتى تركب، وقد بلغ من أدبها أنها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته، فكانت تضع ركبته على ركبته وتركب.

ولما كانت ليست يعربية ولا قرشية كان بعض نساء النبي يدللن عليها ويحاولن النيل منها، ولكن العادل النصف، وناصر الضعفاء كان يتنصر لها، وينافح عنها، ويلقنها كيف ترد عليهن، فقد بلغ النبي أن عائشة وحفصة نالتا منها، فقال لها: «ألا قلت: وكيف تكونان خيراً مني وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى» رواه الترمذي، بل بلغ من انتصار النبي لها أن هجر زينب بنت جحش مدة لنيلها منها، ووصفها لها باليهودية^(١).

فلا عجب أن كانت تحب رسول الله حباً جماً، وشديدة الوفاء والإخلاص له، ففي مرض موته اجتمع نساؤه حوله، فقالت صفيه: يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمزن ببصرهن، فقال: «مضمضن» فقلن: من أي شيء؟ فقال: «من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة».

وقد روت عن النبي الأحاديث، ورُوي عنها، وكانت صفيه عاقلة حليلة صادقة، يروى أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: إن صفيه تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإنني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً،

(١) رواه ابن سعد.

فأنا أصلها، فقبل منها، ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان، فقالت لها: اذهبي فأنت حرة. وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين في زمن معاوية، وقيل سنة اثنتين وخمسين رضي الله عنها وأرضاها^(١).

حكمة زواجه بها

وما ذكرنا يتبين لنا أن النبي لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة، أو إشباعاً للغريزة الجنسية كما يزعم الأفاكون، وإنما أراد إعزازها وتكريمها وصيانتها من أن تفتersh لرجل لا يعرف لها شرفها ونسبها في قومها، هذا إلى ما فيه من العزاء لها فقد قتل أبوها من قبل وزوجها وكثير من قومها، ولم يكن هناك أجهل مما صنعه الرسول معها، كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبي واليهود عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام، والانضواء تحت لوائه، والحد من مكرمهم وسعيهم بالفساد، وقد ضرب النبي بزواجه بها بعد أن أعتقها في باب التسامح والعفو المثل الأعلى فطالما نال النبي والمسلمين من قومها الشر الكثير، ولا سيما أبوها الذي جمع الجموع في الأحزاب وكان دائم التآليب على النبي، وكان للنبي أن يدعها مملوكة له يستحقها بملك اليمين، أو يتركها سبية عند رجل ربما لا يعرف لها قدرها، ولكنه النبي الإنسان الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه وأوفى في مكارم الأخلاق على الغاية.

حراسة أبي أيوب للنبي

ولما أعرس الرسول بصفية في قبة له، بات السيد الجليل أبوأيوب الأنصاري يحرس رسول الله ويطيف بالقبة من بعد، فلما أصبح الصباح ورأى النبي مكانه قال: «مالك يا أبا أيوب؟» قال: يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة، وقد قتل أبوها وزوجها وقومها، وكانت حديثه عهد بكفر، فسرّ الرسول بعمله الذي ينبىء عن غاية الحب والإيمان وقال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحرسني».

* * *

(١) البداية والنهاية، ج ٤ ص ١٩٦؛ الإصابة والاستيعاب، ج ٤ ص ٣٤٧.

زواج النبي بميمونة بنت الحارث

وفي ذي القعدة من هذا العام تزوج النبي ﷺ السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية، أخت أم الفضل لبابة الكبرى زوج عمه العباس، وكانت قبل النبي عند أبي رهم بن عبد العزى وقيل عند حويطب بن عبد العزى^(١)، وكانت جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل، فجعلت أم الفضل أمرها إلى زوجها العباس، فعرضها العباس - وقد تأيئت - على رسول الله فقبل^(٢)، وأصدقها العباس عن الرسول أربعمائة درهم ولما بلغتها خطبة النبي وهي راكبة على بعير قالت: الجمل وما عليه لرسول الله، وقد أراد النبي أن يدخل بها وهو بمكة، فأبى المشركون ذلك كما ذكرنا، فخرج وبني بها وهو بسرف.

وكانت آخر امرأة تزوجها رسول الله ممن دخل بهن كما قال ابن سعد، وقد اختلفت الروايات في الصحيحين وغيرهما أتزوجها النبي وهو محرم أم وهو حلال؟ فعن ابن عباس تزوجها وهو محرم، وروى غيره أنه تزوجها وهو حلال، فمن ثم جمع العلماء بين الروايات بأنه عقد عليها وهو محرم ودخل بها وهو حلال بعد قضاء عمرته، وقد شاء الله أن تكون وفاتها بسرف حيث بنى بها النبي، ودفنت هناك، وكانت وفاتها سنة إحدى وخمسين وقيل سنة إحدى وستين، فرضي الله عنها وأرضاها^(٣).

(١) ذكر المرحوم الشيخ الحضري في «نور اليقين»، ص ٢١٢ أنها كانت تحت حمزة بن عبد المطلب، ولم أر هذا لغيره.

(٢) وقيل: إن النبي أرسل جعفر بن أبي طالب فخطبها عليه، فلعلها لما بلغتها الخطبة وكلت من يتولى العقد.

(٣) الإصابة، ج ٤ ص ٤١١.

الحكمة في زواجها

قد سمعت أن العباس عرضها على الرسول فكان من أدب النبي مع عمه - والعم صنو الأب - أن لا يرد له رغبة شريفة، ولا سيما أن في تحقيق هذه الرغبة توثيق الصلة بعمه العباس، وتأليفه إلى الدخول في الإسلام، وبزواج عمه أم الفضل وهي من السابقات إلى الإسلام، وبابن عمه جعفر فقد كانت زوجه أسماء بنت عميس أختاً لميمونة من أمها، كما كانت سلمى بنت عميس زوجة سيد الشهداء حمزة أختاً لها من أمها.

ولعل النبي أراد ما هو أهم من هذا وهو استمالة البطل المغوار خالد بن الوليد، فقد كانت ميمونة أختاً لأمه لبابة الصغرى، هذا إلى ما في زواج الرسول بها من توثيق صلته بقبيلة من أشرف القبائل العربية، وهم بنو هلال وبغيرها من قبائل العرب؛ فقد ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب^(١) أن ميمونة بنت الحارث كان لها ثلاث أخوات شقيقات، وأربع أخوات من أمها، وكلهن كنّ متزوجات في أشرف القبائل، وبعضهن كنّ من المنجبات، ولأولادهن منازل عالية في الإسلام، وكان النبي يسمي لبابة الكبرى، وميمونة، وأسماء، وسلمى: (الأخوات المؤمنات) وبحسبهن ذلك شرفاً.

(١) ج ٤ ص ٤٠٤.

مَوْقِفُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْيَهُودِ وَمَوْقِفُهُمْ مِنْهُ

ذكرنا فيما سبق أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وادع اليهود، وكتب بينه وبينهم كتاباً شرط لهم فيه وشرط عليهم، وأقرهم على دينهم بشرط أن لا يغدروا، ولا يمالثوا عليه عدواً، ولكن اليهود قوم في طبيعتهم الغدر والدس والخيانة، فقابلوا هذا الإحسان بالإساءة، وحاربوا الدعوة الإسلامية بأساليبهم الماكرة حرباً لا هوادة فيها، فقد هموا بقتل النبي وهو بدارهم لولا أن عصمه الله منهم، وطالما سَعَوْا في إفساد ما بين المسلمين ولا سيما الأوس والخزرج من أخوة ومحبة كانت بفضل اعتناقهم الإسلام، وكثيراً ما نقضوا العهود وحاولوا طعن المسلمين من ظهورهم، وكثيراً ما ألَّبُوا عليه المشركين والقبائل كما حدث في غزوة الأحزاب.

وهكذا كانت حياتهم في المدينة وما جاورها سلسلة من المخازي، والمؤامرات الدنيئة، فلم يكن بدُّ من أن يقف النبي منهم موقفاً حازماً، فأجلاهم عن المدينة واستراح من شرورهم، وقتل من يستحق منهم القتل، ولم تأت السنة السابعة حتى تقوَّض سلطانهم في شبه الجزيرة، ولم يعد لهم شأن يذكر، وأذعنوا لسلطان الإسلام وسطوته. وهذا إيجاز يحتاج إلى تفصيل، وإليك البيان.

محاولتهم الوقعة بين الأوس والخزرج

مرُّ شاس بن قيس - وكان شيخاً كبيراً عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين - على نفر من الأوس والخزرج في مجلس يتحدثون، فغاظه ما رأى من الفتنة وصلاحيات ذات بينهم في الإسلام، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من

العداوات والإحـن فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة - الأوس والخزرج - بهذه البلاد، لا والله ما لنا إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شاباً من اليهود كان معه فذكرهم بيوم بعث^(١) وما كان فيه، وما تناولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم وتفاخروا، وتواثبوا حتى قال أحدهم للآخر: إن شئتم رددتها - أي الحرب - الآن جذعة، وغضب الفريقان، وتنادوا: السلاح السلاح موعدكم الحرة.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فذهب إليهم في جماعة من المهاجرين حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟! الله الله».

فأفاق القوم من غضبهم، وعلموا أنها نزعة شيطانية وكيد من عدوهم، فآلقوا السلاح، وبكوا، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين، وفي هذا نزل قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ ءُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَدَإِئِكُمْ كُفْرِينَ ۖ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٢).

ولولا حكمة النبي لكان من وراء هذه الفتنة شر كثير.

(١) بضم الباء، وفتح العين: هو آخر يوم جرت فيه حرب بين الأوس والخزرج، وكان الغلب للأوس، ثم جاءهم الله بالإسلام، فألف بين قلوبهم.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ١٠٠ - ١٠٣.

الجدل بين اليهود والمسلمين

من مخازي بني إسرائيل وأكاذيبهم

وثارت بين المسلمين واليهود حرب كلامية، تدرّع فيها اليهود بالباطيل والاختلاق على الله وعلى الرسل، ونسبوا إليهم ما لا يليق بهم، روى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر رضي الله عنه بيت المدراس^(١) فوجد من اليهود ناساً كثيرين قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له: فنحاص^(٢) بن عازوراء من علمائهم وأخبارهم، فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده تجددونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة، وإنه إلينا لفقير، وإنا عنه لأغنياء!! لو كان غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم^(٣)، ينهاكم عن الربا ويعطيناه؛ ولو كان غنياً ما أعطانا الربا!!

فغضب الصديق وضرب وجهه ضربة شديدة - على ما كان يتصف به الصديق من الحلم والرزانة والوقار - وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله، فذهب فنحاص شاكياً إلى رسول الله، فقال الرسول لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت؟» فأخبره بمقالة فنحاص وتجريته على الله، فجحد فنحاص، فأنزل الله سبحانه وتعالى:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾ الآيةين^(٤).

* * *

(١) المدراس: الكنيسة التي يتدارسون فيها كتبهم.

(٢) فنحاص: بكسر الفاء وسكون النون.

(٣) يريد قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾.

(٤) سورة آل عمران: الآيتان ١٨١، ١٨٢.

وزعموا أيضاً أن الله أخذ عليهم العهد أن لا يؤمنوا برسول حتى يقدم قرباناً، فتأتي نار من السماء فتأكله، وأنهم لن يؤمنوا برسول الله حتى يكون كذلك؛ وقد أكذبهم الله ورد عليهم رداً مفحماً فقال:

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١).

* * *

وقد يستبد ببعضهم الغضب والحمق فينكر بعض الحقائق الثابتة التي يقر بها، جاء مالك بن الصيف ليخاصم النبي ﷺ فقال له النبي: «أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة أن الله يبغض الخمر السمين» - وكان حبراً سميناً - فغضب وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء. فلما لأمه أصحابه على مقالته قال: أغضبي محمد فقلت ذلك، وقد ذكر الله مقالتهم والرد عليها في قوله:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَوْلَا أَوْكُم قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢).

إلى غير ذلك مما أثاروه من جدل حول تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وأي المسجدين أفضل: الكعبة، أم بيت المقدس (٣)، وأي النبيين هو الذبيح إسماعيل أم إسحاق (٤)، وحكم الزاني المحصن في التوراة أهو الرجم أم الجلد؟ وتحريفهم للتوراة، ولا سيما فيما يتعلق بالبشارة بالنبي،

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩١.

(٣) قد أوضحت أفضلية الكعبة في الجزء الأول.

(٤) قد حققت ذلك في الجزء الأول.

وقد كانوا قبل البعثة المحمدية يقولون للأوس والخزرج: إنه قرب زمان نبي يبعث في آخر الزمان سنتبعه وسنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما جاءهم النبي العربي المؤيد بالوحي والمعجزات الباهرة كفروا وعاندوا، وصدق الله في قوله:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وهكذا ثارت حرب كلامية في هذه المسائل وغيرها، وكان للمسلمين فيها الغلب والحجة لليهود البهت والعجز.

اليهود بالجزيرة العربية

كان يساكن المسلمون بالمدينة يهود بني قينقاع، ويهود بني النضير، ويهود بني قريظة، كما كانت تسكن منهم جالية كبيرة بخيبر وما جاورها. وإليك ما حاكوه من دسائس، وما هموا به من شر، وما قاموا به من مناهضة للدعوة، لترى أن النبي ﷺ كان على حق فيما صنع معهم، وأن إجلاءهم كان لا بد منه لتأمين الدعوة.

(١) سورة البقرة: الآيات ٨٩ - ١٠١.

يهود بني قينقاع

لما انتصر المسلمون ببدر حرك هذا الأحقاد في نفوس الأعداء ولا سيما اليهود، وصاروا يرجفون بالمدينة، فرأى رسول الله ﷺ أن يعظهم بالحسنى ويدعوهم إلى ترك المعاندة والدخول في الإسلام، فذهب رسول الله إلى يهود بني قينقاع، وجمعهم في سوق لهم، ثم قال: «يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من النعمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم».

فقالوا: (يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحروب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس)، وتمادوا في غيهم، فأنزل الله في شأنهم محذراً قوله تعالى:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ* قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ...﴾ الآية (١).

يريد سبحانه فتني المؤمنين والكافرين في بدر فلم يرعوا.

تماديهم في الشر

وتمادوا في الشر ولم يعابوا بالقيم الخلقية، والتقاليد الكريمة العربية، ذلك أن امرأة من العزب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع؛ ثم جلست إلى

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٢، ١٣.

صائع هناك منهم، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائع إلى عمل مشين، فقد عقد طرف ثوبها إلى ظهرها وهي لا تشعر؛ فلما قامت انكشفت سواؤها، فضحكوا منها، فصاحت واستغاثت، فوثب رجل من المسلمين على الصائع اليهودي فقتله، فتجمع اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين فغضب المسلمون ووقع الشر بينهم وبين اليهود. ولا تنس ما لهذا العمل الدنيء من إثارة النفوس العربية التي جبلت على حماية الأعراض، وصيانة النساء من مثل هذا العبث، والاستهانة بكل شيء في سبيل الشرف والكرامة.

غزوة بني قينقاع

لذلك لم يجد النبي بدءاً من غزوهم وقد نقضوا العهد بهذه الفعلة النكراء، وأخبرهم بنقض العهد الذي كان بينه وبينهم تأديباً بأدب القرآن في هذا حيث يقول:

﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانِذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾^(١).

ثم حاصرهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكم الله ورسوله، فاستشار الرسول كبار أصحابه فأشاروا بقتلهم، وكان لهم حليفان: عبدالله بن أبي المنافق، وعبيدة بن الصامت، فأما عبادة فقد تبرأ إلى الله ورسوله منهم وقال: (يا رسول الله، أتولى الله ورسوله وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم)^(٢). وأما ابن أبي فقال: (يا محمد أحسن في موالي)، فأعرض عنه الرسول، ثم كرر مقالته والرسول يعرض عنه، وما زال يلح على الرسول ويقول: (إني أخشى الدوائر)، حتى قبل شفاعته فيهم على أن يخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الأموال.

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

(٢) هذا هو الصحيح لا ما ذكره الدكتور هيكل في كتابه «حياة محمد»، ص ٢٧٤ من أنه حدث النبي بحديث ابن أبي وشفع فيهم.

وكل رسول الله عبادة بن الصامت بإجلالهم وأهلهم ثلاث ليال، فذهبوا إلى أذرعات على حدود الشام، وبذلك أزال الله سبحانه عن المسلمين شر شوكة من الشوكات الثلاث التي كانت في ظهورهم آنذاك، وكان ذلك في أوائل سنة ثلاث وقيل في شوال سنة ثنتين للهجرة.

وفي شأن ابن أبي وموالاته لهم، وعبادة بن الصامت وبراءته منهم أنزل الله آيات كريمة، لتكون درساً للمسلمين يعلمهم من يوالون، ومن لا يوالون فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّ مِنْهُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ^(١) يَسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ: نَخْشَى أَنْ تَصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ^(٢)﴾. إلى قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ^(٣)﴾.

يعني عبادة بن الصامت ومن على شاكلته من المؤمنين.

(١) مرض: نفاق، والمراد عبدالله بن أبي وأصحابه.

(٢) سورة المائدة: الآيتان ٥١، ٥٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥٥.

قتل كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف^(١) شديد العداوة للإسلام ورسوله، ولما هزم المشركون ببدر قال: (لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها)، ثم خرج إلى مكة يندب من مات، ويحرض على رسول الله والمسلمين، ولما عاد إلى المدينة صار يشبّب^(٢) بنساء المسلمين، ويقذع في هجاء النبي وأصحابه، فقال رسول الله: «من لكعب بن الأشرف، فإنه آذى الله ورسوله؟»، فقال محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي: أنا، وقال: ائذن لي أن أقول شيئاً فيك، فقال له النبي: «قل».

وانضم إليه نفر من قومه، منهم: أبو نائلة وكان أخا كعب من الرضاع، وعبد بن بشر بن وقش، والحارث بن أوس، فاجتمعوا فيما بينهم كي يحكموا الخطة لاغتيال عدو الله كعب، فخرج حتى أتى كعباً، فوقع في الرسول حتى ركن إليه كعب، واستسلفه وسقاً أو وسقين، فقال: نعم ولكن ارهنوني قال: أي شيء تريد؟ قال: نساءكم!! قالوا: وكيف وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم!! قالوا: كيف نرهنك أبناءنا، فتكون مسبة وعاراً علينا، ولكن نرهنك السلاح - وذلك حتى لا ينكر منهم مجيئهم بالسلاح - فواعده أن يأتيه ليلاً بالسلاح.

(١) قال ابن إسحاق وغيره: كان عربياً من بني نهران، وهم بطن من طيء، وكان أبوه أصاب دماً في الجاهلية، فأتى المدينة فحالف بني النضير، فشرف فيهم وتزوج عقيقة بنت أبي الحقيق فولدت له كعباً، وكان طويلاً جسيماً له بطن وهامة.

(٢) التشبيب: ذكر محاسن النساء والتعرض لهن.

فخرج محمد بن مسلمة ومعه أبو نائلة وصحبه وكلهم من الأوس حتى أتوه، فناداه محمد بن مسلمة وأبو نائلة، فأراد أن ينزل فقالت له امرأته: أين تخرج الساعة؟ إني أسمع صوتاً يقطر منه الدم؟! فقال لها: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيحي أبو نائلة^(١)، إن الكريم لو دُعي إلى طعنة بليل لأجاب، ثم قال محمد: إذا جاء فسأخذ بشعره فأشمه فإذا رأيتُموني استمكنت منه فاضربوه، فنزل كعب إليهم متوشحاً سيفه، وهو ينفخ منه ريح المسك، فقال له محمد: ما رأيت كالיום ريحاً أطيب، أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم، فشمه - وكذلك فعل أبو نائلة -^(٢) فلما استمكن منه قال: دونكم فاقتلوه ففعلوا.

ثم أتوا النبي فأخبروه^(٣)، وبذلك أراحوا المسلمين من هذا الشر المستطير، وهكذا كان الرسول إذا رأى من أحد من اليهود غدرًا وتآلياً عليه ومحاربة للدعوة أرسل إليه من يريحهم من شره، وكان قتله في ربيع الأول من السنة الثالثة كما ذكره ابن سعد في طبقاته.

* * *

(١) اسمه سُلَكان بن سلامة بن وقش، وقيل اسمه سعد، ولقبه سلكان، وكان أخاً كعب من الرضاع كما كان نديمه في الجاهلية ويركن إليه. وذكر الواقدي أن محمد بن مسلمة كان أخاه من الرضاع أيضاً.

(٢) في السيرة لابن هشام: «أن أبا نائلة هو الذي وقع في الرسول، وأنه هو الذي أخذ برأسه حتى قتلوه» ولعل الاثنين اشتراكاً في النيل من الرسول، والأخذ برأسه، وقد أثرت ذكر ما في صحيح البخاري.

(٣) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب قتل كعب بن الأشرف.

غزوة بني النضير

وكان يهود بني النضير ممن عاهدهم النبي ووادعهم على أن يأمن كل فريق الآخر، لكنهم لم يَفُوا بالعهد وهُمُوا بقتل الرسول. ذلك أن عمرو بن أمية الضمري الذي نجا من سرية القراء لقي أثناء رجوعه إلى المدينة رجلين من بني عامر، فقتلهما وهو يظن أنه أصاب بذلك بعض الثار من بني عامر الذي غدروا بهم، ولم يشعر بعهدهما الذي لهما من رسول الله، فقال له الرسول: «لقد قتلت رجلين لأدينيهما»^(١) وكان بين بني عامر وبني النضير عهد وحلف.

فخرج رسول الله إلى بني النضير يستعينهم في دية الرجلين في جماعة من صحابته منهم أبو بكر وعمر وعلي، فلما جاءهم أظهروا له حسن الاستعداد لإجابته، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة - وكان رسول الله ﷺ جالساً إلى جنب جدار لهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة ويرميحنا منه؟ فانتدب لذلك الشقي عمرو بن جحاش فقال: أنا لذلك.

فصعد ليلقي الصخرة، فأقى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث النبي أصحابه قاموا في طلبه حتى انتهوا إليه بالمدينة، فأخبرهم بما كانت اليهود اعترزته من الغدر بهم.

فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة إليهم يطلب إليهم الخروج من جواره بالمدينة، وأمهلهم عشرة أيام وإلا حاق بهم الهلاك. فأيقنوا أن الله أطلعه

(١) لأدفعن الدية إلى أهلها.

على ما أرادوا وصاروا متحيرين لا يدرون ما يفعلون، وبينما هم في حيرتهم وترددهم جاءهم رسل أهل النفاق ابن أبي وأتباعه أن اثبتوا وتمنعوا، فإننا لن نسلمكم: إن قوتلتهم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحيي حبيي بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود وفي ذلك نزل قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِكَنَّ أَلْدَبْرَةُ مَا يَنْصُرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١).

حصار بني النضير

وأمر رسول الله بالتهيؤ لحربهم وقتالهم، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وسار إليهم في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة حتى نزل بدارهم، فحاصروهم ست ليال، وقيل: خمس عشرة ليلة، وقتلوه، ثم أمر رسول الله بقطع نخيلهم وتحريقها ليكون ذلك أدعى إلى تسليمهم، ففزعوا وجزعوا ونادوا: يا محمد، كنت تنهى عن الفساد وتعييه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها؟! ولم يكن هذا إفساداً إنما هو وسيلة لنشر السلام والأمان والتقليل من إراقة الدماء، وكان بأمر الله وإذنه.

وعبثاً انتظر اليهود نصر ابن أبي وجماعته، وخذلهم كما خذل بني قينقاع من قبل، وكان مثله ومثلهم كما قال الله:

﴿كَشَلِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا كَفَرْتُ بِهِ﴾

(١) سورة الحشر: الآيات ١١-١٣.

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَتَهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾.

وملاً الرعب قلوبهم، واشتد الحصار عليهم، وأيقنوا أن حصونهم لا تمنعهم من سوء المصير، فسألوا رسول الله أن يجليهم ويؤمنهم على دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة أي السلاح.

فصالحهم رسول الله على الجلاء، وعلى أن لكل ثلاثة منهم بغيراً يحملون عليه ما شاؤوا من أموال، فصاروا يخربون بيوتهم بأيديهم ليحملوا منها ما استطاعوا مما يحرسون عليه، ولكيلا ينتفع بها المسلمون، فممنهم من خرج إلى خير كحبيبي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، ومنهم من ذهب إلى أذرعات بالشام، وتركوا وراءهم للمسلمين مغنم كثيرة من غلال وسلاح وعقار ودور، ولما كان المسلمون قد أخذوها صلحاً بدون حرب ولا قتال، فكانت فيثاً من حق رسول الله يتصرف فيها كيف شاء، وقد قسمها على المهاجرين دون الأنصار بعد أن استبقى منها قسماً خصصت غلته لذوي القربى والفقراء والمساكين، وبذلك أغنى الله المهاجرين وأزال فاقتهم، ولم يأخذ من الفتيء من الأنصار إلا أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة، فقد شكوا فقراً، ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان فأحرزا أموالهما.

وبإجلاء بني النضير أراح الله المسلمين من شوكة ثانية كانت تقض مضاجعهم، ولو أن هؤلاء الأشرار نجحوا في مكيدتهم لقصوا على الإسلام في مهده، وأية خسارة كان سيمنى بها العالم لو لم يستضيء بنور الإسلام وتعاليمه؟ ولكن الله بالغ أمره لا محالة، وقد أنزل الله سورة الحشر في هذه الغزوة وإليك موجز تفسيرها.

(١) سورة الحشر: الآيتان ١٦، ١٧.

ما نزل في غزوة بني النضير

(سورة الحشر): ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * سُبْحَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: أي نزهه وقُدَّسه. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾: القوي الذي لا يتصرف إلا عن حكمة. ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾: هم يهود بني النضير، والحشر: الجلاء. والحشر الأول من المدينة إلى خيبر، والثاني من خيبر والجزيرة إلى الشام. ﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾: لشدة بأسهم، وحصانة حصونهم، وكثرة عددهم وعددهم. ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾: بأسه وعذابه. ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾: يظنوا، فسلط عليهم المؤمنين ذوي البأس الشديد، فلم تُغْنِ عنهم حصونهم شيئاً. ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾: الذي نصر به النبي من مسيرة شهر ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾: فكان اليهود يخربون ليحملوا معهم ما أمكن والمسلمون يخربون نكاية فيهم. ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾: العقول والبصائر، واحذروا أن تقعوا فيما وقعوا فيه من الإغترار بالقوة والمال وترك جانب الله ومحاربة الله ورسوله.

﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء﴾: الخروج من المدينة. ﴿لעذبهم في الدنيا﴾: بالأسر والقتل. ﴿ولهم في الآخرة عذاب النار﴾: ولكنهم باستسلامهم وقوا أنفسهم من القتل والأسر، ولكن بقي لهم عذاب الآخرة. ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾: بسبب مخالفة الله ورسوله. ﴿ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾: وعيد لكل من يخالف أمر الله ويحارب رسوله.

ثم بين سبحانه أن قطع النخل ليس إفساداً كما زعموا لأنه بأمر الله وشرعه فقال: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها﴾: اللينة: النخلة أو نوع منها. ﴿فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾: يعني اليهود، ثم بين سبحانه معنى الفيء ووصفه فقال: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء﴾: أوجف: أسرع وتكلف. ركاب: إبل. يعني أن الفيء ما أخذ بدون حرب ولا قتال

ولا تعب، وهو ما أخذ صلحاً و (ما) في (فما أوجفتم) نافية. أما الغنيمة: فهي ما أخذت بحرب وقتال. ﴿والله على كل شيء قدير﴾: ومنه تمكينهم من مال بني النضير.

ذكر الله مصارف الفبيء وبين أنه لرسول الله يضعه حيث شاء في ذوي القربى والمساكين، وليس للمجاهدين فيه نصيب، فقال: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾: أي مما جعل الله مصرفه لهؤلاء، حتى لا يكون المال متداولاً بين الأغنياء دون الفقراء، فالآية تبين أن البر ومواساة الفقراء تلحقهم بالأغنياء وتزيل من فقرهم وحاجتهم. ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾: أصل عام في طاعة رسول الله في كل ما يأمر به من قرآن أو سنة والانتفاء عما ينهى عنه. ﴿واتقوا الله﴾: أن تحالفوا أوامر رسوله ونواهيه لأنها من أمر الله ونبيه. ﴿إن الله شديد العقاب﴾: لكل من خالف رسوله.

ثم بين سبحانه من هم أحق بهذا الفبيء فقال: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾: الجنة ونعيمها، ورضوان من الله أكبر. ﴿وينصرون الله ورسوله﴾: بالتضحية بالنفس والجهاد في سبيل الله. ﴿أولئك هم الصادقون﴾: المخلصون في إيمانهم، وقد خصهم الرسول بالفبيء في هذه الغزوة إغناء لهم وتعويضاً عما تركوه راضين من دور وعقار ومال.

ثم أثنى على الأنصار بما هم أحق به وأهل له فقال: ﴿والذين تبوءوا الدار﴾: المدينة. ﴿والإيمان من قبلهم﴾: أي أخلصوا الإيمان وصدقوا الله فيه. من قبلهم: راجع لتبوء الدار، فقد كانت موطنهم قبل هجرة المهاجرين إليها. ﴿يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾: أي مما أعطي المهاجرون من هذا الفبيء وغيره. ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾: شدة فقر وحاجة. ﴿ومن يؤق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾: الفائزون، ولعلك على ذكر مما ذكرناه في مآثر الأنصار رضوان الله عليهم.

ثم بين الله عز شأنه ما يجب أن يتخلَّق به التابعون ومن جاء بعدهم إلى يوم القيامة، وهو موقفهم من المهاجرين والأنصار خيار هذه الأمة الذين زكاهم الله ورسوله فقال: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم﴾: فليثق الله الذين يتناولون الصحابة رضوان الله عليهم بالنقد الجريء والتجريح، وليتأدبوا بأدب القرآن في هذا.

ثم ذكر الله المنافقين وكيف أغروا بني النضير على المعاندة حتى يشوا منهم، ونزلوا على حكم الرسول فقال: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا...﴾ إلى قوله: ﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾. وقد ذكرتها أثناء الغزوة.

ثم بين الله أن اليهود لا يجروون على قتالكم إلا وهم متحصنون فقال تعالى: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى مُحَصَّنَةٍ أو من وراء جُدُرٍ، بأسهم بينهم شديد﴾: أي هم يدعون القوة والبأس فيما بينهم، فإذا لقوكم انهارت قواهم، وانماعت شجاعتهم، والمراد بالحصون الحسية والمعنوية، فتشمل الحصون المثبتة، والمتاريس، والخنادق ونحوها كما كان أولاً، وتشمل أيضاً الدبابات والطائرات، والقواعد التي يوجهون منها الصواريخ كما هو اليوم، ولولم يكن إلا عنايتهم ببناء المسالح، والقرى المحصنة اليوم - المستعمرات - لكفى في بيان أسرار الإعجاز في الآية فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾: تحسب اليهود والمنافقين متفقين في ظاهريهم ولكنهم مختلفون في بواطنهم، فاهواؤهم متشعبة وقلوبهم متفرقة. ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم﴾: هم بنو قينقاع الذين سبقوا بالغدر والنذالة. ﴿ولهم عذاب أليم﴾: فقد أجلوا في الدنيا ولهم العذاب في الآخرة.

ثم بين سبحانه أن مثل المنافقين في إغرائهم اليهود وتخليعهم عنهم ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر...﴾ الآيتين. وإلى هنا انتهى ما يتعلق ببني النضير.

ثم بعد ذلك نادى الله المؤمنين وأوصاهم بتقوى الله وأن يقدموا ما ينفعهم في أخراهم، ولا يكونوا كاليهود الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، ثم خلص من ذلك إلى أن السبب في العصيان والمخالفة واتباع هوى النفس إنما هو لعدم الفقه والتأمل في القرآن، هذا الكتاب الذي لو نزل على الجمادات لخشعت وتصدعت، فكيف لا تخشع له قلوبكم وتلين جلودكم؟ ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾.

ثم ختم السورة بتقديس الله في ذكر الكثير من أسمائه فقال: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم﴾ إلى قوله: ﴿يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ وبذلك ختم السورة بما بدئت به فسبحانه سبحانه في البدء والنهاية، وتقديساً له ثم تقديساً فيما مضى، وفي الحال، وفيما يستقبل، وعلى كل حال.

غزوة بني قريظة

قدمنا في غزوة الأحزاب أن حيي بن أخطب في جماعة من بني النضير ألّبوا العرب على محاربة الرسول بالمدينة حتى كانت غزوة الخندق، وأنهم سَعَوْا إلى بني قريظة - والمشركون يحاصرون المدينة - أن ينقضوا ما بينهم وبين النبي، وأنهم نجحوا في ذلك حتى اشتد الكرب على المسلمين وأصبحوا بين نارين: نار المشركين ونار اليهود، حتى اضطر النبي إلى أن يرسل بعض المسلمين لحراسة الذراري والنساء من غدر اليهود، بعد أن نقضوا العهد.

ولما عاد النبي من الخندق ووضع سلاحه جاء جبريل فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم». فقال جبريل: ما وضعنا السلاح، وإن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة فأني عامد إليهم فمزلزل بهم، فأمر رسول الله منادياً ينادي في الناس: «ألا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» فأخذ بعضهم بظاهر الأمر، فلم يصلوا العصر حتى جاؤوا بني قريظة وقد غربت الشمس، وقال بعضهم: إنما أراد الإسراع وصلُّوا في الطريق، فلما علم النبي لم يعنف واحداً منهم^(١).

وخرج رسول الله ﷺ وراءهم فيمن بقي من الصحابة ولواؤه معقود لابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فلما عاين بنو قريظة جيش المسلمين امتلأت قلوبهم رعباً، وتحصنوا بحصونهم، وحاصروهم المسلمون خمساً وعشرين

(١) لأن كلا الفريقين مجتهد، إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر.

ليلة حتى اشتد بهم الحال، وأيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، فقال لهم كعب بن أسد: أرى أن تسلموا فقد استبان لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي بشر به كتابكم؛ فتأمنوا على دمائكم ونسائكم وأبنائكم وأموالكم، فأبوا، فقال لهم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ونخرج إلى محمد مستميتين في القتال حتى يحكم الله بيننا وبينه، فإن نهلك لم نترك وراءنا شيئاً نخشى عليه، وإن نغلب فلن نعدم النساء والأبناء، فأبوا، فقال: الليلة ليلة السبت، وعسى أن يكون محمد وأصحابه أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة، فأبوا وتحوفوا أن يعذوا في السبت فيصيبهم ما أصاب من قبلهم، فأعرض عنهم ورماهم بعدم الحزم.

استشارتهم أبا لبابة

فبعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف - وكانوا حلفاء الأوس - نستشيريه في أمرنا، فأرسله الرسول إليهم، فلما رآوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء، وبكى الصبيان، فكأنه رق لهم، فقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقة، يعني الذبح، فاستشعر أبو لبابة أنه زل، وندم ندماً تصوره هذه العبارة التي قالها: فوالله ما زالت قدماي من مكانها حتى عرفت أي قد خنت الله ورسوله!!.

توبة أبي لبابة

فاستحيا أبو لبابة أن يقابل رسول الله وقال: والله لا أنظر في وجه رسول الله ﷺ حتى أحدث لله توبة نصوحاً يعلمها الله من نفسي، وعاد إلى المدينة فربط نفسه إلى سارية من سواري المسجد النبوي - وكانت من جذوع النخل - وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله علي ما صنعت، فلما علم الرسول الكريم قال: «لوجاءني لاستغفرت له، وإذ قد فعل هذا فلن أطلقه حتى يقضي الله فيه ما يشاء».

وأقام على هذه الحال ست ليال أو أكثر تأتيه امرأته في وقت كل صلاة

فتحله حتى يتوضأ ويصلي، ثم يرتبط حتى نزلت توبته من السماء في قول الله تعالى:

﴿وَالْآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

فتتابع إليه الناس يشيرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه فأبى وقال: لا يحلني إلا رسول الله، فلما خرج الرسول إلى صلاة الفجر حله من رباطه، ولم يكتف أبو لبابة بما صنع بنفسه وقال: يا رسول الله إن من تمام توبيتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله، فقال النبي: «يجزيك الثلث» فتصدق به.

وإن لنا هنا لوقفة ترينا مبلغ قوة الإيمان، وتذكر القلب، ويقظة الضمير من صحابة رسول الله، الذين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون، وسرعان ما يتوبون، ومبلغ ما وصل إليه المجتمع الإسلامي حينئذ من حياء من المعاصي والردائل، وتقدير للقيم الخلقية، والمعاني الروحية، واستهانة بالنفس والولد والمال في سبيل رضا الله ورسوله، وأن هذا المجتمع لم يصل إليه أي مجتمع متحضر إلى وقتنا هذا.

نزول بني قريظة على حكم رسول الله

فلما لم يرَ بنو قريظة فائدة من تحصنهم، وأنهم لا ناصر لهم من دون الله، عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعاملهم معاملة بني النضير، فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه ففعلوا، فأمر برجالهم فكتفوا، ثم سعى إلى رسول الله رجال من الأوس راجين أن يعاملهم معاملة بني قينقاع حلفاء إخوانهم الخزرج، فقال لهم السيد الحكيم: «ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم؟» فقالوا: بلى، فاختاروا سعد بن معاذ - وكان في خيمة في المسجد النبوي معدة لمعالجة الجرحى وتمريضهم بسبب سهم أصيب به في الخندق - فأرسل رسول الله في طلبه، فجاء

(١) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ٤ ص ٢١٢. والآية هي ١٠٢ من سورة التوبة.

راكباً، فالتف حوله جماعة من الأوس قائلين له: أحسن في مواليك، ألا ترى ما فعل ابن أبي في مواليه؟ فقال لهم: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم ثم قال: فإني أحكم فيهم أن تقتلوا الرجال، وتسبوا النساء والذرية، فقال له رسول الله: «لقد حكمت فيهم يا سعد بحكم الله^(١) من فوق سبع سماوات». فنُفذَ فيهم الحكم، فإذا كما قيل ثلاثمائة، وقيل أربعمائة، وقيل أكثر من ذلك.

وقتل معهم حيي بن أخطب وهو السبب فيما نزل بهم من قتل وبلاء، فقد كان دخل معهم حصنهم بعد انصراف قريش وغطفان، وعاد سعد إلى الخيمة بالمسجد، فلم يلبث - وقد أقر الله عينه - أن انفجر جرحه فمات شهيداً رضي الله عنه وأرضاه.

وبالقضاء على بني قريظة تخلص المسلمون بالمدينة من آخر شوكة في ظهورهم، وأصبحت المدينة كلها - ما عدا المنافقين - على قلب رجل واحد، وموئل الإسلام، وحصنه الحصين.

دم بني قريظة في عنق حيي

وفي الحق أن دم بني قريظة معلق في عنق حيي بن أخطب النضري، وإن كان قتل معهم، فهو الذي حمل قريظة على نقض العهد وجسم العداوة بين اليهود والمسلمين، حتى اعتقدوا أن اليهود لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال النبي وأصحابه، وهو الذي دخل معهم حصنهم وأغراهم بعدم التسليم والاستمرار في المقاتلة، ولو أنهم استسلموا من أول الأمر لما أهدرت دماؤهم، ولقبل النبي

(١) وهو ما قضى به كتابهم المقدس «العهد القديم» في حق العدو المهزوم ففي سفر التثنية الإصحاح ١٣، فقرة ١٣، ١٤: «وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء، والأطفال، والبهائم، وكل ما في المدينة، كل غنيمتها لنفسك. وتاكل غنيمه أعدائك التي أعطاك الرب إلهك» وهكذا يتبين لنا أن ما قضى به سيدنا سعد لم يخرج عما حكمت به التوراة وأيضاً فهم ليسوا أعداء مهزومين فحسب بل هم خائنون غادرون غير وافرين بالعهد.

منهم ما قبل من بني قينقاع وبني النضير من قبل، وعفوه عن الآخرين بعد أن هموا بقتله.

وقيل أن يستعظم أحد حكم سعد عليهم واعتبار ذلك قسوة، عليه أن يتدبر فيما لو نجح المشركون في عبور الخندق والتقوا بالمسلمين وجهاً لوجه، ونفذ بنو قريظة خطتهم التي هموا بها بمهاجمة المسلمين من ظهورهم، والتعدي على نسائهم وذريعتهم، ماذا يكون الحال؟ وإلى أي مدى ستكون الكارثة؟ لا شك أن الكارثة ستكون بالنسبة إلى من اقتص منهم من بني قريظة أضعافاً مضاعفة من رجال المسلمين ونسائهم وأولادهم.

وفي شأن بني قريظة نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ^(١)﴾، وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرًا^(٢) يعني الذين ظاهروا الأحزاب وهم قريظة.

قسمة أموال قريظة

وقسم النبي أموال بني قريظة بعد ما أخرج الخمس، جعل للفارس ثلاثة أسهم: سهمين للفرس، وسهماً لراكبه أول للراجل، وكانت الخيل يومئذ ستاً وثلاثين، وبعث رسول الله سعيد بن زيد بسبايا من بني قريظة إلى نجد فاشتري بها خيلاً وسلاحاً ليزيد من قوة المسلمين الحربية.

ريحانة

وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى من نسائهم ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة، فعرض عليها الإسلام فامتنعت، ثم أسلمت بعد ذلك، فسرَّ الرسول بإسلامها، وقد عرض عليها أن يعتقها ويتزوجها، فاختارت أن تستمر على الرق

(١) الصياصي: جمع صيصة، وهي الحصن. وكل ما يتحصن به يقال له: صيصة، ومنه سمي قرن الثور.

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان ٢٦، ٢٧.

ليكون أسهل عليها وعليه، وقيل إن رسول الله ﷺ لما خيّرهما اختارت الإسلام، فأعتقها وتزوجها وضرب عليها الحجاب، فغارت عليه غيرة شديدة فطلقها، فشق عليها وأكثر البكاء فراجعها، ولم تختلف الروايات أنها ماتت في حياة النبي، قيل لما رجع من حجة الوداع، وقيل قبلها فرضي الله عنها^(١).

من استشهد

واستشهد من المسلمين يوم بني قريظة خلاد بن سويد، طرحت عليه امرأة رحي فجرحته جرحاً بالغاً فمات فقال النبي: «إنَّ له لأجر شهيدين»، وقد أمر رسول الله بقتل هذه المرأة، ولم يقتل من بني قريظة امرأة غيرها، ومات في أثناء الحصار أبو سنان بن محصن فدفن هناك رضي الله عنها وأرضاها.

* * *

(١) الإصابة ج ٤ ص ٣٠٩.

قتل سلام بن أبي الحقيق (١)

كان أبورافع سلام بن أبي الحقيق فيمن حزب الأحزاب على رسول الله، وكان شديد الإيذاء له وللمسلمين. وكان تاجراً مشهوراً بأرض الحجاز، وقد اتخذ من ثرائه وسيلة لمحاربة الدعوة الإسلامية، وكان مما صنع الله لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأوس والخزرج كانا يتسابقان في سبيل إرضاء الرسول وخدمة الإسلام، لا تصنع الأوس شيئاً إلا وقالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذا الفضل، فلا ينتهون حتى يفعلوا مثله أو أكثر منه، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك.

وكان الأوس قد قتلوا كعب بن الأشرف فقال الخزرج: والله لا يذهبون بهذا الفضل علينا، فتذكروا مَنْ رجل في عداوة رسول الله كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبي الحقيق، وكان بقصره بخير، فاستأذنوا رسول الله في قتله فأذن لهم، فخرج من الخزرج خمسة نفر وهم: عبدالله بن عتيك، ومسعود بن سنان الأسلمي، وعبدالله بن أنيس الجهني حليف الأنصار، وأبوقتادة الأنصاري، وخزاعي بن أسود، وأمر عليهم رسول الله عبدالله بن عتيك، وأوصاهم أن لا يقتلوا وليداً ولا امرأة.

(١) سلام: بتشديد اللام، الحقيق: بضم الحاء المهملة، وفتح القاف مُصَغَّرًا، وقيل: اسمه عبدالله، وقد اقتصر ابن إسحاق على الأول. وذكر البخاري الاسمين (وكان له أخوان مشهوران من أهل خير، أحدهما: كنانة وكان زوج صفية بنت حيي قبل النبي ﷺ، والثاني: الربيع بن أبي الحقيق وقد قتل في غزوة خيبر).

فلما وصلوا إلى خير قال لهم عبدالله: مكانكم، وانطلق إلى الباب، وتحايل على البواب حتى دخل، ثم توجه إلى بيت أبي رافع، وصار يفتح الأبواب التي توصل إليه، وكلما فتح باباً أغلقه من داخل حتى انتهى إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله فلم يمكنه تمييزه، فنادى يا أبا رافع، فقال: من؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يُغن شيئاً، فعاد عبدالله يناديه وفي كل مرة يغير صوته، حتى استمكن منه وقتله دون أن يؤذي أحداً من ولده وزوجه.

ثم خرج من البيت وكان نظره ضعيفاً فوقع من فوق السلم فانخلعت رجله، فعصبتها بعمامته، وصار يتحامل على نفسه حتى وصل إلى أصحابه فأخبرهم، فقالوا: النجاة النجاة، حتى انتهوا إلى الرسول، فلما رآهم قال: «أفلحت الوجوه» وحدثوه بما كان، ثم قال لعبدالله: «ابسط رجلك» فمسحها عليه الصلاة والسلام فكانه لم يشتكها قط^(١)، وعادت أحسن مما كانت، فله در هذه النفوس المؤمنة التي استهانت بالموت في سبيل الله، وكانت أسمى أمانيتها أن تفوز برضاء الله ورسوله.

وكان قتل أبي رافع - كما قال ابن سعد - في رمضان سنة ست، وقيل في ذي الحجة سنة خمس وقيل غير ذلك.

* * *

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب قتل أبي رافع.

غزوة خيبر

لئن كانت المدينة قد تطهرت من اليهود وغدرهم فها هي خيبر^(١) لا تزال حصناً حصيناً لليهود وأهلها، ومن نزع إليها من يهود بني النضير الذين يحملون الحقد والضغن على الإسلام والمسلمين، وغير بعيد عنا ما قام به زعماء بني النضير الذين اتخذوا خيبر مقاماً لهم، من تأليب العرب على المسلمين في الخندق، وحملهم بني قريظة على نقض العهود التي كانت بينهم وبين الرسول، ومن ثم نجد أن خيبر أصبحت مركزاً لتجمعات اليهود يقومون منها بما يريدون من غدر ومكايد.

ولئن كان المسلمون بعد فتح الحديبية قد أمنوا قريشاً والجنوب، لكنهم لم يأمنوا ناحية الشمال، ولا سيما أهل خيبر الذين لا ينسون ما فعل بإخوانهم اليهود، وليس ببعيد أن يستعينوا بهرقل أو كسرى في النيل من المسلمين، وما كان رسول الله ﷺ - وهو السياسي المحنك - ليخفى عليه شيء من هذا، لذلك لم يكد يرجع من الحديبية ويستريح بالمدينة شهراً أو نحوه حتى أمر بالتجهز للخروج إلى خيبر، على أن لا يغزو معه إلا من شهد الحديبية كما أمر الله، وأراد بعض الأعراب الذين تحلّفوا عن الحديبية أن يخرجوا معه فقال لهم: «لا تخرجوا معي إلا رغبة في الجهاد، أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً»، وقد أراد الرسول بذلك أن يبين لهم أن لا حاجة له بالذين لا هم لهم إلا الغنيمة، ولا يهتمهم نصر الإسلام، وولّى على المدينة سيباع بن عُرْفطة الغفاري، وصحب معه من أزواجه السيدة أم سلمة.

(١) قرية في شمال المدينة بينها وبين الشام.

الخروج إلى خيبر

وخرج رسول الله ﷺ في مطلع عام سبع في جيش تعداده ألف وستمائة، ومعهم مائتا فرس وقيل ثلاثمائة، وكل واثق بنصر الله، وذاكر قول الله سبحانه في سورة الفتح التي نزلت منصرفه من الحديبية:

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لَتَاْخُذُوا هَٰذِرُونَ أَنَّا نَبِغُكُم بِرِيْدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١).

وكان من شأن رسول الله أنه إذا غزا قوماً لم يُغَر عليهم حتى يصبح، فإن سمع أذاناً كف وإن لم يسمع أذاناً أغار، فوصل إلى خيبر ليلاً، فبات حتى أصبح لم يسمع أذاناً، فركب وركب معه أصحابه، فاستقبلهم يهود خيبر بمساحيهم ومكاتلهم (٢)، فلما رأوا رسول الله والجيش قالوا: محمد والجيش معه، فقال رسول الله: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

ضخامة القوتين

وقد كان يهود خيبر من أشد الطوائف اليهودية بأساً وأكثرها مالاً، وأوفرها سلاحاً، وكذلك كان المسلمون كثيراً عددهم، وافرأ سلاحهم، ممتلئة قلوبهم بالإيمان، واثقة نفوسهم بنصر الله، مصممين على استئصال هذا الشر منها كانت التضحية، فلا عجب إذا كانت قريش والجزيرة كلها وقفت تنتظر ما يسفر عنه التقاء هاتين القوتين، حتى حدث من البعض التراهن على أي الفريقين سيكون له الغلب؟.

ووقف المسلمون أمام حصون خيبر متأهبين للقتال، وهم كاملو العدة،

(١) سورة الفتح: الآية ١٥.

(٢) مساحيهم: جمع مسحة وهي المجرفة وهي من حديد، المكاتل جمع مكئل - بكسر الميم - وهو الزنجيل وهو شيء يصنع من الخوص يحمل فيه التمر والتراب وغيرها.

وكانت حصونهم ثلاثة مجاميع، وكل مجموعة ثلاثة حصون تمتد من الجنوب إلى الشمال، يتخللها النخيل والزروع والمنازل المتفرقة. وهذه المجاميع هي: النظاة، والشق، والكتيبة، أما النظاة فكانت ثلاثة حصون: ناعم، والصعب، وقلة، وكانت الشق حصنين: أبي، والبريء، وأما الكتيبة فكانت ثلاثة حصون: القموص، الوطيح، والسلام.

وتشاور اليهود فيما بينهم فأشار عليهم زعيمهم سلام بن مشكم فأدخلوا أموالهم وعيالهم حصني الوطيح والسلام، وأدخلوا ذخائرهم حصن ناعم، ودخلت المقاتلة وأهل الحرب حول حصن النظاة.

والتقى الجمعان حول حصن نظاة واقتتلوا قتالاً شديداً، وضيق المسلمون الحصار على حصون خيبر، واليهود يستमितون في الدفاع عنها لأنهم يعلمون أن هزيمتهم ما هي إلا القضاء الأخير عليهم في جزيرة العرب، وتتابعت الأيام والقتال يشتد، فالمسلمون يبدون من ضروب الشجاعة والاستبسال والتضحية ما هم أهل له، واليهود يستमितون في الدفاع، فقال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله عليه يحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله».

فبات الناس ليلتهم يتمنى كل منهم أن يعطاها، حتى إن عمر قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، فلما أصبح الصباح قال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، فدعاه فبصق رسول الله في عينيه ودعا له فبرأ بإذن الله، فأعطاه الراية وقال له: «انفذ إليهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»^(١).

ولما ذهب إليهم خرج مرحب اليهودي يخطل في سلاحه، ويرتجز ويدعو إلى المبارزة قائلاً:

(١) رواه البخاري ومسلم.

أنا الذي سمّني أمي مَرْحَبٌ شاكي السلاح بطل مُجَرَّبٌ
أطعن حيناً وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تَحَرَّبُ^(١)
فبرز له سيدنا علي وهو يرتجز ويقول:

أنا الذي سمّني أمي حَيْدَرَةٌ^(٢) كليث غابات كرية المنظره
أكيلهم بالصاع كيل السُّنْدَرَةِ^(٣)

فقتله، وقيل بل قتله محمد بن مسلمة الموتور الثائر الذي قتل اليهود أخاه محمود بن مسلمة بالأمس. وخرج بعد مرحب أخوه ياسر يقول: هل من مبارز؟ فبرز له الزبير بن العوام فقتله، ثم كان أن سقط حصن ناعم، ثم لم تلبث الحصون أن تهاوت حصناً بعد حصن، فاستولى اليأس على اليهود فطلبوا من النبي ﷺ الصلح على أن يحقن دماءهم، فقبل الرؤوف الرحيم وصارت أرضهم لله ولرسوله وللمسلمين، فلما أراد النبي إجلاءهم سألوهم أن يقرهم على أن يعملوا في الأرض ولهم نصف التمر فقال لهم: «نقركم على ذلك ما شئنا»^(٤)، وقد قتل من اليهود في هذه الغزوة ثلاثة وتسعون رجلاً، واستشهد من المسلمين نحو خمسة عشر رجلاً.

قصة الشاة المسمومة

ومع هذه المساهلة في الصلح، والإحسان إليهم بالكف عن قتلهم وإجابة مطلبهم، ما زالت نفوسهم مملوءة بالحقد والبغضاء وانتهاز الفرص للنيل من النبي والمسلمين، وليس أدل على هذا من أن النبي بعد أن صالحهم واطمأن، أهدت إليه زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم - وهو ممن قتل في الحرب - شاة مشوية، وسألت أي عضو أحب إلى نبيهم؟ فقبل لها: الذراع، فأكثرت فيه من السم، ثم سمّت سائر الشاة وجاءت بها ووضعتها بين يدي

(١) تحرب أي مغضبة.

(٢) حيدرة: من أسهاء الأسد.

(٣) مكيل واف.

(٤) رواه البخاري.

النبي، فتناول الذراع، فلاك منها قطعة فلم يسفها^(١)، وكان معه بشر بن البراء بن معرور، وقد أخذ منها قطعة فأساغها، وأما رسول الله فلفظها وقال: «إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم».

ثم دعا بها فاعترفت فقال لها: «ما حملك على هذا؟» قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان كذاباً استرحنا منه، وإن كان نبياً فسيخبر، فتجاوز عنها، ومات بشر من أكلته هذه. ويروى أن النبي قتلها به قصاصاً، وهكذا نجى الله نبيه من غدر هذه اليهودية، كما نجاه من غدرهم وهمهم بقتله فيما قبل، ولم يزل أثر هذا السم يعاود النبي ﷺ كل عام حتى اختاره الله لجواره، ففي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «ما زالت أكلة خبير تعاودني حتى قطعت أبهري^(٢)».

تقسيم غنائم خبير

وبعد الموقعة وحيازة الغنائم حُسها رسول الله ﷺ، فأبقى الخمس لنفسه يصرفه في مصارفه، ثم قَسَم الباقي نصفين: نصفاً قسمه في الغنائم، ونصفاً أرصده لما ينوبه من الحاجات والمصالح، وقد جعل للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهماً، ولم يقسم رسول الله ﷺ إلا لمن شهد الحديبية من حضر منهم خبير ومن غاب، ولم يغب عن خبير ممن شهد الحديبية إلا جابر بن عبد الله، فضرب له بسهمه، وكذلك أسهم النبي ﷺ لأصحاب السفينة الذين قدموا من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب بعد أن استأذن أصحابه.

وكان رسول الله ﷺ وكل إلى عبد الله بن رواحة أخذ النصف من غلتهم، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه - تقديره -، وأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت!! والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم، وحبي إياه على

(١) لأك: مضغها، فلم يسفها: لم يبلعها.

(٢) الأبر عرق متصل بالقلب إذا قطع مات الإنسان وهو كناية عن الموت.

أن لا أعدل، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، فلما استشهد في مؤتة ولي بعده جبار بن صخر^(١).

مثل أعلى للتسامح

وقد كان من إحسان النبي معاملة يهود خيبر أنه كان من بين ما غنم المسلمون منهم عدة صحف من التوراة، فطلب اليهود ردها، فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع ﷺ ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، ولا ما صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة^(٢).

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٠١.

(٢) حياة محمد ص ٣٧٧.

يهود فَدَك وتيماء ووادي القرى

ثم أرسل النبي ﷺ إلى يهود فَدَك^(١) من يطلب إليهم الانقياد والطاعة، فصالحوا رسول الله على أن يحقن دماءهم، ويتركوا أموالهم، فكانت فَدَكَ فيئاً لرسول الله خاصة، ينفق منها على نفسه وعلى من يمون ويعول، ثم عاملهم على العمل في الأرض بنصف ما يخرج منها.

ولما بلغ يهود تيماء^(٢) ما انتهى إليه أمر أهل خيبر، صالحوا على دفع الجزية وبقوا في بلادهم وأموالهم آمنين.

ثم دعا رسول الله يهود وادي القرى إلى الاستسلام والطاعة، فأبوا وقاتلوا فقاتلهم، ولكن سرعان ما استسلموا، وصالحوا على ما صلح عليه أهل خيبر، فتركت لهم الأرض يزرعونها بشرط ما يخرج منها.

وبهذا النصر المتتابع دان اليهود كلهم لسلطان الإسلام، وانتهى ما كان لهم من نفوذ وكيان، ولم تقم لهم قائمة بعد، وبهذا أصبحت الدولة الإسلامية بمأمن من ناحية الشمال إلى بلاد الشام.

(١) فدك، بفتحتين: بلد بينها وبين مدينة النبي ﷺ يومان، وبينها وبين خيبر دون مرحلة.
(٢) تيماء، وزن حمراء: موضع قريب من بادية الحجاز يخرج منها إلى الشام على طريق البلقاء.

إجلاء الفاروق عمر لهم عن جزيرة العرب

ولم يزل يهود خيبر ومن صالح صلحهم يعملون في أرضها على نصف ما يخرج منها حياة رسول الله ﷺ، ومدة خلافة الصديق أبي بكر رضي الله عنه، وصدرأ من خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه، حتى أجلاهم إلى بلاد الشام بعد أن أعطاهم قيمة ما كان لهم من التمر مالاً وإبلأ وعروضاً، وذلك لأمر:

١ - لما قاموا به من الغدر والإفساد، فقد كان لابنه عبدالله مال بخير، وكان يختلف إليه بين الحين والحين، فعدوا عليه من الليل، وألقوه من فوق السطح وهونائم ففدعت^(١) يدها ورجلاه.

٢ - ولما ثبت عنده من قوله ﷺ: «لا يبقى بجزيرة العرب دينان»، فقال: من كان له من أهل الكتابين عهد فليأت به أنفذه له، وإلا فإني مجليكم فأجلاهم^(٢)، ولا سيما أن إبقاء رسول الله لهم، وإقرارهم في بلدهم كان مشروطاً بمشيئة المسلمين، ففي الصحيحين «نقركم ما شئنا»، وفي رواية ابن إسحاق: «على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم».

٣ - لأن إقرارهم عليها إنما كان لأنهم أقدر على العمل في الأرض، وأعمر لها من غيرهم، ولأن المسلمين كانوا في قلة من الأيدي العاملة،

(١) الفدع بفتحين: اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل، فينقلب الكف أو القدم إلى الجانب الآخر.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وغيره.

لاشتغالهم بالجهاد ونشر الإسلام، والعمل في زراعتهم بالمدينة، فلما كثروا لم تعد حاجة إليهم، لا سيما أنهم أصبحوا مصدر قلق وإفساد. روى عمر بن شبة في أخبار المدينة قال: لما كثرت العيال - أي الخدم - في أيدي المسلمين وقووا على العمل في الأرض أجلاهم عمر، فلهذه الاعتبارات مجتمعة كان الإجماع^(١).

ونعمًا فعل الملهم المحدث، فإن الحجاز قطب الإسلام، وقلبه النابض، فكان من الحكمة أن يبقى القطب قوياً متماسكاً، والقلب سليماً من عوامل الضعف والفساد، كي تبقى الأطراف سليمة قوية تؤدي وظائفها المطلوبة معها، فهل يقبض الله لهم من أبطال المسلمين والعرب من يجلبهم من الأرض المباركة (فلسطين) كما أجلوا عن البلد الطيب (المدينة) والأرض الطاهرة (الحجاز)؟!.

* * *

(١) فتح الباري ج ٥ ص ٢٥٠.

السَّنة الثَّامِنَةُ مِنَ الْهِجْرَةِ

إسلام خالد، وعمرو، وعثمان بن طلحة

وفي مستهل هذا العام أسلم ثلاثة من خيار قريش، وسادة بيوتاتها، وهم: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة.

إسلام عمرو

وقد كان هاجر إلى الحبشة بعد غزوة الأحزاب في رواية ابن إسحاق لما ضاقت نفسه بانتصارات الإسلام، وبعد صلح الحديبية في رواية البيهقي، فصادف هناك عمرو بن أمية الضمري^(١)، فأراد أن يوقع به فزجره النجاشي، ثم كان أن أسلم وأقام بالحبشة حتى قدم على النبي أوائل هذا العام مظهراً إسلامه.

إسلام خالد

أما خالد فكان من أشد الناس على النبي والمسلمين، ولكن الله لما أراد له الكرامة نظر فرأى أنه لا يشهد مشهداً ضد النبي إلا وقد خُذِل فيه، وهو الفارس المُعَلَّم والقائد المحنك، وفي الحديبية كان على خيل المشركين ولقي رسول الله بعُسفان، وتربص بالمسلمين شراً وهم يصلُّون، ولكن الله أعلم نبيه فصلَّى صلاة الخوف، فوقع ذلك من نفس خالد وقال: الرجل ممنوع!!.

(١) قيل كان هناك ليوصل كتاب النبي إلى النجاشي بشأن تزويجه من أم حبيبة، وقيل بشأن قدوم جعفر وأصحابه، وقيل كان يحمل كتاب النبي إلى النجاشي داعياً له إلى الإسلام.

فلما كانت عمرة القضاء تغيب فيمن تغيب من المشركين كراهة رؤية المسلمين وهم بمكة، فسأل رسول الله ﷺ عنه أخاه الوليد بن الوليد، وتعجب كيف يغيب الإسلام عن مثل خالد، فكتب له أخوه هذا الكتاب:

(بسم الله الرحمن الرحيم، فلإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك!! ومثل الإسلام جهله أحد؟! وقد سألتني رسول الله عنك وقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به فقال: «مثله جهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين كان خيراً له، ولقد مناه على غيره»، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة).

فلما وصل خالداً الكتاب وقع سؤال النبي عنه من نفسه، واستشعر ما فيه من معان وتقدير كريم، فازداد رغبة في الإسلام، وقوى هذه الرغبة في نفسه رؤيا رآها: رأى أنه كان في بلاد ضيقة مجدبة، فخرج منها إلى بلاد خضراء واسعة، فقال: إن هذه لرؤيا!! فكانت البلاد الضيقة - كما عبرها له الصديق فيما بعد - هي دنيا الشرك الذاهبة القاحلة. وكانت البلاد الخضراء الواسعة هي دنيا الإسلام الفسيحة الخصبة.

وأدركته لحظة من لحظات التجلي الإلهي، فعزم على الخروج إلى رسول الله، وعرض هذه الفكرة على صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل فأبيا، ثم عرضها على عثمان بن طلحة فأسرع الإجابة.

وخرج خالد وعثمان حتى كانا بالطريق بين مكة والمدينة التقيا بعمرو بن العاص، فقال له: أين يا أبا سليمان - يعني خالداً -؟ قال: والله لقد استقام الميسم - أي تبين الطريق ووضح - وإن الرجل لنبي، أذهب - والله - فأسلم، فحتى متى؟!

وسار الركب الميمون المبارك حتى دخلوا المدينة، فأصلحوا من شأنهم ولبسوا صالح ثيابهم، ثم قصدوا إلى النبي. وكان البشير قد جاء بالبشرى إلى رسول الله فسر بمقدمهم، ولقيهم أخوه الوليد فقال لخالد: أسرع فإن رسول الله ﷺ قد سر بمقدمك وهو ينتظركم، فأسرعوا حتى وقفوا على الرسول

وهو يتسم، فسلم عليه خالد بالنبوة، فرد السلام بوجه طلق، ثم شهد شهادة الحق، فقال النبي له: «تعال، الحمد لله الذي قد هداك، كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير»، فقال خالد: يا رسول الله إني قد شهدت تلك المواطن عليك معانداً للحق، فادع الله أن يغفرها لي، فقال الرسول الكريم: «الإسلام يجب ما كان قبله».

وتقدم عثمان بن طلحة فبايع، وتقدم عمرو بن العاص فبايع. قال عمرو: فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فاستحييت أن أرفع طرفي حياء منه، فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، فقال: «إن الإسلام يجب ما كان قبله، والهجرة تجب ما كان قبلها»، فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حزه منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة، ولقد كنت عند عمر بهذه المنزلة، وكان عمر على خالد كالعاتب، وكان قدومهم وإسلامهم في أول صفر سنة ثمان من الهجرة^(١). وبإسلام خالد وعمرو اكتسب الإسلام اثنين من أبطال الإسلام وقواده، الذين كانت لهم يد طولى في غزوات الإسلام وفتوحاته.

* * *

(١) ذكر الشيخ الحضري - رحمه الله - في نور اليقين إسلام خالد وصاحبيه في سنة سبع، والتحقيق ما ذكرته (البداية والنهاية، ج ٤ ص ٢٣٦).

غَزْوَةُ مُؤْتَةَ^(١)

في جمادى الأولى من عام ثمان الموافق سنة ٦٢٩م جهز رسول الله ﷺ جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله إلى أمير بصرى، داعياً له إلى الإسلام، وقيل: إن النبي كان أرسل سرية إلى ذات الطلع على حدود الشام يدعون إلى الإسلام، فكان جزاؤهم القتل، ولم ينج منهم إلا رئيسهم بعد أن ظنوا أنه مات. وأمر على الجيش زيد بن حارثة، وقال: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، وإن أصيب جعفر فعبدة بن رواحة»، وسار الجيش وعدته ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار بعد أن ودعهم المسلمون قائلين: صحبكم الله، ودفع عنكم؛ وردكم إلينا سالمين.

وخرج رسول الله ﷺ يشيئهم ويوصيهم قائلاً: «اغزوا باسم الله؛ قاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً، ولا شيخاً فانياً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناء...».

ثم مضوا في سبيل الله حتى وصلوا (معاناً) من أرض الشام، فبلغهم أن هرقل قد نزل (مآب) في أرض الشام في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من متصرة العرب من: لحم وجذام والقين وبهراء وبلي.

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على (معان) ليلتين وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره.

(١) مؤتة: مهموزة الواو، وحكى غير الهمزة، قرية من أرض البلقاء بطرف الشام.

فمنمضي له ، فقال عبدالله بن رواحة : يا قوم والله إن التي تكروهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين : إما ظهور وإما شهادة .

فتشجع الناس وقالوا : صدق ابن رواحة ، وسار الجيش الإسلامي تحذوه الرغبة في إعزاز دين الله وحب الشهادة ، حتى التقوا بجموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء (مشارف) فانحاز المسلمون إلى مؤتة وتحصنوا بها .

التقاء الجيشين

والتقى الجمعان غير المتكافئين عدداً وعدة ، وقاتل المسلمون قتال الأبطال ، وصمدوا أمام هذا الجيش العرمرم ، وقاتل زيد بن حارثة حامل اللواء حتى استشهد ، فولي القيادة جعفر بن أبي طالب وحمل اللواء ؛ وكان على فرس له شقراء ، فنزل عنها وعقرها ، وتقدم يقاتل وهو يحمل اللواء ويقول :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إن لاقيتها ضرابها

وكان جعفر يحمل اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى ضربه رجل من الروم ضربة فقطعته نصفين ، فاستشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة بعد أن خط في كتاب البطولة الإسلامية سطوراً مشرقة ، وكان جزاؤه من ربه أن أبدله الله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء ، ولما التمس في القتل وجد به بضع وتسعون جرحاً . وكان ابن عمر إذا حيّ ابن جعفر قال : السلام عليك يا ابن ذي الجناحين .

فأخذ الراية عبدالله بن رواحة ، ثم تقدم بها في جموع الروم وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد وهو يقول :

أقسمت يا نفسُ لتنزلنَّه لتنزلنَّ أو لتكرهنَّه

إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شئنه^(١)
ويقول:

يا نفس إن لا تُقتلي تموي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلي فعلهما هديت
وما زال يتقدم باللواء ويقا تل حتى قتل شهيداً رضي الله عنه.

ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت، فقال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد المخزومي، فلما أخذ الراية قاتل قتال الأبطال حتى اندقت في يده تسعة أسياف، وما صبرت معه إلا صحيفة يمانية، واستعمل دهاءه وجنكته الحربية حتى انحاز بالجيش، وأنقذه من هزيمة منكرة كادت تقع، وكان الليل قد أقبل، فانتهاز خالد هذه الفرصة وغير نظام الجيش، فجعل المقدمة ساقية، والساقة مقدمة، والميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة، وصف صفّاً طويلاً وراء الجيش، فلما أصبح الصباح أنكرت الروم ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيتهم، وسمعوا من الجلبة، وقعقة السلاح، ما قد ظنوا معه أنهم جاءهم مدد، فرعبوا وانكشفوا، وما زال خالد يحاورهم ويداورهم، والمسلمون يقاتلونهم في أثناء انسحابهم بضعة أيام حتى خاف الروم أن يكون هذا استدراجاً لهم إلى الصحراء، فتحاجز الفريقان وانقطع القتال.

بلاء المسلمين

وقد أبلى البطل خالد وأصحابه الأبطال بلاء حسناً في هذا اليوم، وبفضل ثباتهم وشجاعتهم تبدلت هزيمتهم نصراً، وأي نصر يرجى أكثر من صمود جيش تعداده ثلاثة آلاف أمام جيش تعداده مائتا ألف، وانسحابهم وهم موفورو العدد محفوظو الكرامة، وإنه لشيء نادر في تاريخ الحروب أن يقف جندي واحد أمام

(١) أجلبوا: صاحوا. الرنة صوت ترجيع شبه البكاء. النطفة: الماء القليل الصافي. الشنة: السقاء البالي، فيوشك أن يهراق أو ينخرق السقاء، وضرب ذلك مثلاً لنفسه في جسده.

سبعين من الجنود المدججين بالسلاح، ولكنه الإيمان الذي يصير من الجبناء شجعاناً، ومن الشجعان أبطالاً، ولعل مما يثير العجب أن جميع من استشهد من المسلمين في مؤتة ثمانية، وقيل اثنا عشر.

نعمي رسول الله الأمراء

وأطلع الله سبحانه رسوله على ما جرى فقام على المنبر فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»^(١). ومن يومها قد عرف خالد بسيف الله المسلول، وفي رواية ابن إسحاق:

«ولقد رفعوا إلي في الجنة فيما يرى النائم على سرير من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله ازوراراً عن سريري صاحبيه، فقلت عم هذا؟ ف قيل لي: مضياً وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى»، ويا لها من عبرة!! فإذا كان بعض التردد من الشجاع المغوار ابن رواحة قد جعله في منزلة دون صاحبيه، فما بالك بمن ينكص على عقبيه مؤثراً الحياة على الشهادة، طمعاً في جاه أو مال أو عرض من أعراض الحياة؟! إن مثله لا يقام له عند الله وزن وإن عرض عند سواد الناس جاهه، وبذ مال قارون ماله.

لقاء الجيش

وخرج الرسول والمسلمون للقاء الجيش، فجعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون لهم يا فرار، فررتم في سبيل الله، ولكن الرسول العليم ببواطن الأمور، والمقدر لموقف الجيش قال لهم: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله».

مثل أعلى للاستحياء

ومع منافحة الرسول عن أصحاب مؤتة قد اعتزل بعض المسلمين في بيته خشية سماع هذه الكلمة الثقيلة على أسماع المؤمنين الشجعان «يا فرار». روى

(١) رواه البخاري.

ابن إسحاق عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت لامرأة سلمة بن هشام بن المغيرة: مالي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ؟ فقالت: ما يستطيع أن يخرج، كلما خرج صاح به الناس: يا فرار، فرزتم في سبيل الله، حتى قعد في بيته ما يخرج. وهذا يدل على مبلغ ما وصل إليه الخلق الإسلامي آنئذ من حب البطولة وإثبات الشهادة في سبيل الله على الفرار، والاستحياء من المثالب والمساوىء، وتقدير للقيم الخلقية، والمعاني الأدبية.

إكرام النبي لآل جعفر

لما أصيب جعفر دخل رسول الله على أسماء بنت عميس فقال: «اثني ببني جعفر»، فأثنت بهم فشمّمهم وقبلهم وذرفت عيناه، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم»، فجعلت تصيح وتولول فقال النبي: «لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم»، وهذا هو الأصل في صنع الطعام لأهل الميت لا ما يصنعه بعض الناس اليوم بقصد التفاخر والمقابلة بالمثل، وقد لا يصيب أهل الميت منه شيء.

ولما قارب الجيش المدينة تلقّاهم الصبيان يشتدون ورسول الله مقبل مع الجيش على دابة له فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر»، فأثني بعبد الله فحمله بين يديه، وبعد ثلاث دخل على أسماء وقال لها: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا لي بني أخي»، فجيء بهم كأنهم أفرخ، فدعا بالخلق فحلق لهم رؤوسهم ثم قال: «أما محمد فشبيهه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيهه خلقي وخلقي»، ثم أخذ يمين عبد الله وقال: «اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه»، (ثلاثاً). ولما ذكرت له أمهم يتمهم وضعفهم قال لها: «العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة» رواه الإمام أحمد.

وهذا غاية ما ينتظر من تكريم أبناء الشهداء، وبذلك وضع الرسول الكريم الأساس الصالح لهذا التقليد الشريف.

نهي آل جعفر عن النياحة

روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قتل زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة جلس رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الحزن فأتاه رجل فقال: أي رسول الله، إن نساء جعفر - وذكر بكاءهن - فأمره أن ينهأهن، فذهب الرجل ثم أتى فقال: والله لقد غلبتنا، فقال رسول الله: «فاحث في أفواههن من التراب».

رثاء أسماء بنت عميس زوجها

ورثت أسماء زوجها فقالت:

فَالَيْتُ لَا تَنفَكْ نَفْسِي حَزِينَةً عَلَيْكَ وَلَا يَنْفَكْ جِلْدِي أَغْبَرَا
فَلَلَّهُ عَيْنًا مَنْ رَأَى مِثْلَهُ فَتَى أَكْرَّ وَأَحْمَى فِي الْهِيَاجِ وَأَصْبَرَا

فلما انقضت عدتها خطبها الصديق رضي الله عنه فتزوجها فأولم عليها، وكان في الناس علي بن أبي طالب، فلما ذهب الناس استأذن عليّ أبا بكر في أن يكلم أسماء من وراء الستر فأذن له، فلما اقترب من الستر نفحه ريح طيبها فقال لها - متباسطاً معها - : من القائلة :

فَالَيْتُ لَا تَنفَكْ نَفْسِي حَزِينَةً عَلَيْكَ وَلَا يَنْفَكْ جِلْدِي أَغْبَرَا

فقالت: دعنا منك يا أبا الحسن فإنك امرؤ فيك دعاية. فولدت للصديق ابنه محمداً، ثم لما توفي الصديق تزوجها بعده علي بن أبي طالب، فولدت له أولاداً رضي الله عنهم أجمعين.

غزوة ذات السلاسل (١)

وفي جمادى الآخرة بلغه ﷺ أن جمعاً من قُضاعة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القرى ليغيروا على المدينة، فأرسل لهم عمرو بن العاص في ثلاثمائة من خيار المسلمين، لأن أم عمرو كانت من بلي، ولعل في هذا تأليفاً لهم، فلما صار إلى هناك خاف كثرة عدوه، فبعث إلى رسول الله يستمده، فندب لذلك المهاجرين والأولين، فانتدب أبو بكر وعمر في مائتين من سرّة المهاجرين، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وقال له: «إذا أنت قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا».

فلما قدم على عمرو قال له: إنما جئت مدداً لي، فقال له أبو عبيدة: لا، ولكنني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه، فأبى عمرو، فتذكر أبو عبيدة وصّة رسول الله - وكان رجلاً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا - فقال له: يا عمرو، إن رسول الله ﷺ قال لي: «لا تختلفا»، وإنك إن عصيتني أطعتك، وبذلك حسم الخلاف.

وسار عمرو بمن معه حتى وصل إلى بلاد بلي، فكان كلما انتهى إلى موضع به جمع تفرّقوا حتى انتهى إلى بلاد بلي وعُدّة، فلقي جمعاً ليس

(١) ضبطها ابن الأثير في النهاية، بضم السين الأولى، وكسر الثانية. وضبطها صاحب القاموس بفتح السين الأولى. سميت باسم ماء بارض جُذام يقال له السلسل، وقيل لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا. وذكر ابن سعد أنها وراء وادي القرى وبينها وبين المدينة عشرة أيام. ونقل ابن عساكر الاتفاق على أنها كانت بعد غزوة مؤتة إلا ابن إسحاق فقال: إنها كانت قبلها.

بالكثير، فاقتتلوا ساعة وتراموا بالنبل، وحمل عليهم المسلمون فهزموا وتفرقوا، وأوغلوا هرباً في البلاد، ثم عاد المسلمون منتصرين بعد أن أروهم سلطان الإسلام وسطوته.

وفي الطريق أصيب عمرو بن العاص بجناية من أثر احتلام، فتيّم وصلّى بأصحابه، فلما قدموا على رسول الله سألهم عن أحوالهم في غزوتهم كما هي عادته، فأخبروه بما كان من أمر عمرو واحتلامه وتيّمه وصلاته من غير اغتسال، فقال رسول الله: «يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب»، فقال: يا رسول الله احتملت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيّمت ثم صليت بأصحابي الصبح، وإن سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فضحك النبي ولم يقل شيئاً، وكان سكوت النبي تقريراً له على هذا، وتقديره أحد وجوه السنن المعروفة.

وقد نجح عمرو في إرجاع هيبة الإسلام لأطراف الشام، وإرجاع أحلاف المسلمين لصداقتهم الأولى، ودخول قبائل أخرى في حلف مع المسلمين، وإسلام الكثيرين من بني عبس، وبني مرة، وبني ذبيان، وكذلك دخلت فزارة وسيدها عيينة بن حصن في حلف مع المسلمين، وتبعها بنو سليم، وعلى رأسهم العباس بن مرداس، وبنو أشجع، ومعظم من لم يكن قد حالف المسلمين من القبائل المجاورة للمدينة، وأصبح المسلمون أقوى عنصر سياسي في شمال بلاد العرب، وإن لم يكن في بلاد العرب جميعها^(١).

(١) محاضرات في السيرة وتاريخ الخلفاء للدكتور محمد مصطفى زيادة.

فتح الفتوح في الإسلام

فتح مكة

تمهيد

لما أبرم صلح الحديبية كان من شروط الصلح أن من أحب أن يدخل في عهد النبي فليدخل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش فليفعل، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وقد مضى على الصلح قرابة عامين ولم يحدث من المسلمين ما يخل بالعهد، وقد حدث بعد مؤتة أن خُيِّل إلى قريش أن المسلمين قد ضعفوا وزالت هيبتهم، وخُيِّل إلى بني بكر أن ينالوا من خزاعة أحلاف الرسول، وقد كان بين بني بكر وخزاعة ثارات في الجاهلية ودماء، فبيّت بنو بكر خزاعة وهم على ماء يسمى (الوتير) وأصابوا منهم، وأعانتهم قريش بالرجال والسلاح تحت جنح الليل، وما زالوا يقاتلونهم حتى ألجؤوهم إلى الحرم، ولجأت خزاعة إلى دار بُذيل بن ورقاء، ومولى لهم يسمى أبا رافع.

فركب عمرو بن سالم إلى رسول الله بالمدينة يخبره بغدر قريش وإخلافهم العهد، ولما وقف على النبي أنشده أبياتاً منها:

يا ربّ إني ناشد محمداً حلف أبيه وأبيننا الأتلدا
فانصر رسول الله نصراً أعتداً^(١) وادع عباد الله يأتوا مددا
في فيلق كالبحر يجري مزبداً إن قريشاً أخلفوك الموعدا

(١) أعتدا: حاضراً، من الشيء العتيد، وهو الحاضر.

وزعموا أن لستُ أدعو أحداً فهم أذلُّ وأقلُّ عدداً
هم يبتوننا بالوتير هجداً وقتلوننا ركعاً وسجداً
فقال رسول الله: «نصرت يا عمرو بن سالم».

ثم خرج أيضاً بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله فأخبروه بما جرى، ثم انصرفوا آيين إلى مكة، وفي الطريق لقيهم أبوسفيان وهو ذاهب إلى المدينة فقال له: لعلك ذهبت إلى محمد بالمدينة، فأنكر بديل وتعلل بتعللات أخرى، ولكن أباسفيان جاء إلى مبرك ناقته، فرأى في بعرها نوى يثرب، فأيقن أنه جاء النبي مستنصراً.

سفارة أبي سفيان بن حرب

وأدركت قريش مغبة غدرها ونقضها للعهد، فأرسلت أباسفيان إلى المدينة يؤكد العهد ويمد في المدة، فلما وصلها قصد إلى بيت ابنته أم حبيبة زوج الرسول، فلما هم بالجلوس على فراش رسول الله طوته، فعجب وقال: يا بنية أرغبت بي عن الفراش أم رغبت به عني؟ فقالت هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه!! وكانت صدمة له لم يفق منها حتى قال: يا بنية والله لقد أصابك بعدي شر، وخرج مغضباً.

ثم كلم رسول الله في العهد وإطالة المدة فلم يحظ منه بطائل، فخرج قاصداً أبا بكر فكلمه أن يكلم رسول الله فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال له: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟! فوالله لو لم أجد لكم إلا الذر لجاهدتكم به.

ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله والحسن غلام يدب بين يديه، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً وأقربهم مني قرابة، وقد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله، فقال له: ويحك يا أباسفيان، والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر،

فقالت: والله ما يبلغ بني ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على النبي ﷺ^(١) فقال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحنى، فقال علي: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فاجز بين الناس ثم الحق بأرضك، فقال: أوترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ فقال: لا والله، ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبوسفیان فقال: إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره وعاد من حيث أتى، فلما قدم على قريش أخبرهم بما كان وإجارته بين الناس، فقالوا له: هل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويحك ما زاد الرجل على أن لعب بك فما يغني عنا ما قلت.

تجهز النبي للخروج

ولم يلبث رسول الله أن أخذ التجهز للخروج إلى مكة، وأذن في الناس بالتجهيز، وأخفى مقصده إلا عن بعض خاصته كالصديق، وكان غرض رسول الله أن يبعث قريشاً في عقر دارها من غير أن تأخذ أهبتها، حرصاً أن لا تراق الدماء في بلد الله الحرام، فلما تجمعت الجموع وتميأت للمسیر أخبرهم بمقصده وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها».

كتاب حاطب إلى قريش

ولما أجمع ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله، ثم أعطاه مولاة لبعض بني عبدالمطلب تسمى سارة، وجعل لها جُعللاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته في عقاص شعرها، ثم خرجت به، فإذا الوحي ينزل على رسول الله بما صنع حاطب، فبعث علياً والزبير والمقداد وقال: «انطلقوا حتى تأتوا (رَوْضَةَ خَاخ) فإن بها طعينة معها كتاب فخذوه منها». فانطلقوا تتعادي بهم خيلهم حتى أدركوها، فقالوا لها أخرجي الكتاب، فقالت: ليس معي كتاب، فقالوا لها: لتخرجي الكتاب، أولنكشفن

(١) لا مخالفة بين هذا وقوله عليه الصلاة والسلام: (ويجبر على المسلمين أدناهم) لأن المراد بالثاني من يجبر واحداً ونفراً يسيراً، وأما قول السيدة فاطمة فالمراد به الإجارة العامة أي لا يمنع أحد الإمام من غزوه قوماً.

التياب، فخافت وأخرجته من عقاصها، فأتوا به إلى النبي فإذا فيه: «يا معشر قريش فإن رسول الله جاءكم بجيش كالليل، يسير كالسيل. فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله، وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم، والسلام»^(١).

فقال النبي: «يا حاطب ما هذا؟» فقال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرأً مُلصقاً في قريش - يعني حليفاً ولم يكن من أنفسها - وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي بها، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال الرسول العظيم: «أما إنه قد صدقكم».

فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال الرسول: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله قد أطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فبكى عمر وقال: الله ورسوله أعلم!! فأنزل الله هذا التأديب الإلهي وهو صدر سورة الممتحنة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ إلى قوله سبحانه:

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٢).

العظيم من يرحم الضعفاء
وإن لنا هنا لوقفه، فما كان حاطب منافقاً، ولا ضعيف الإيمان، بتركية الرسول له. ولكن في النفس الإنسانية جوانب ضعف تغطي عليها في بعض الأحيان، وتهوي بها إلى ما لا ترضاه لنفسها، وكل بني آدم خطاء، وما كان هذا الضعف الإنساني ليخفى على صاحب القلب الكبير، والقوي الأمين صاحب الخلق العظيم، فلا تعجب إذا كان الرسول صدقه فيما قال، ورحم ضعفه،

(١) فتح الباري ج ٨ ص ٤٢٠.

(٢) سورة الممتحنة: الآية ١.

ونافع عنه، والقوي حقاً هو الذي يرحم الضعفاء، والعظيم حقاً هو الذي يلتزم المعاذير لمن يستزهم الشيطان في غفوة من صدق الإيمان ووازع الضمير!!.

مسيرة الجيش إلى مكة

ثم مضى رسول الله لغزوته واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري، وكان خروجه لعشر مَضَيْن من رمضان من السنة الثامنة، فصام وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد - موضع بين مكة والمدينة - أفطر حتى قدم مكة وانسلخ الشهر، وخرج معه المهاجرون والأنصار لم يتخلف منهم أحد، وانضم إليهم آلاف من سُليم ومزينة وغطفان وغيرها، وما إن وصل مرَّ الظهران حتى صار تعداد الجيش عشرة آلاف وقيل اثنا عشر ألفاً، وشهدت الصحراء العربية الجيش العرمم الذي لم تشهد له مثيلاً من قبل، في عقيدته وإيمانه، وإيثاره الموت على الحياة والآخرة على الدنيا.

إسلام العباس وبعض القرشيين

وكان العباس بن عبدالمطلب عم الرسول قد خرج من مكة مهاجراً إلى الله، واحتمل معه أهله وولده، فلقي الرسول بالجحفة^(١) فأسلم، وقد سرَّ الرسول بإسلامه غاية السرور، إذ قد كان ناصراً له ومؤيداً، وفي هم شاغل به وبدعوته مع بقائه على دين قريش، وإقامته بمكة على سقاية الحاج، وخرج من قريش أيضاً أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب الهاشمي، وعبدالله بن أبي أمية المخزومي، فلقي رسول الله «بنيق العقاب» والتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فيهما وقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك، وصهرك يلتزمان الدخول عليك فقال: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فبالغ في إساءتي،

(١) وقيل برباغ، والقريتان متجاورتان، وقد درست الجحفة وبقيت رباغ، ويرى بعض المؤرخين أن العباس كان قد أسلم من قبل ولكنه أخفى إسلامه لمصلحة الدعوة، فقد كان بمثابة العين لرسول الله على قريش، ثم أعلن إسلامه قبل الفتح، ومنهم من يرى أنه ذهب إلى المدينة قبل الفتح وأسلم وسار مع جيش الفتح، ويشكك بعض المؤرخين في هذا وذلك، والصحيح ما ذكرناه أولاً.

وأما ابن عمتي فهو الذي قال بمكة ما قال، فلما بلغهما ذلك كان مع أبي سفيان بني له فقال: والله ليأذنن لي، أو لأخذن بيد بني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فلما بلغ النبي ذلك رقى لهما، فدخلا عليه وأسلما.

تخوف العباس على قريش

ورأى العباس علو نجم ابن أخيه وقوته، وأحس منزلة النبي في قلوب هذه الآلاف المؤمنة التي لا يقدر على أن يصدّها عن غايتها صاد، والتي لا قبل لمكة ولا لغيرها بهم، فقال: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر، فركب بغلة رسول الله البيضاء وذهب ناحية الأراك عسى أن يجد حطاباً أو صاحب لبن أو ذا حاجة ذاهباً إلى مكة فيخبرهم بمكان رسول الله حتى يخرجوا إليه فيستأمنوه، فكان أن التقى بأبي سفيان وصحبه.

أبو سفيان يستطلع الأخبار لقريش

ها هو رسول الله والجيش قد وصل إلى مر الظهران^(١)، وقد عميت الأخبار عن قريش لا يأتيهم خبر عنه، ولا يدرون ما هو فاعل بهم، وبينما هم في حيرة من أمرهم خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يستطلعون الأمر لقريش، وكان رسول الله قد أمر أصحابه أن يوقدوا ناراً فأوقدوا عشرة آلاف نار، حتى كانوا قريباً من مر الظهران رأوا نيراناً كثيراً الحجيج في عرفة، فقال أبو سفيان ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً!!، فقال بديل: هذه والله خزاعة، فقال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وبينما هما يتحاوران عرف العباس صوت أبي سفيان، فقال: أبا حنظلة! وأجاب أبو سفيان: أبا الفضل! فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الجيش، فقال أبو سفيان: فما الحيلة فذاك أبي وأمي؟ فقال العباس: فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فاستأمنه لك،

(١) قرية بالقرب من مكة بوادي الظهران يقال لها اليوم: وادي فاطمة.

فركب وسار الآخرين وراءهما، فكلما مروا بنار قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلة رسول الله، حتى مروا بنار عمر بن الخطاب وعرف أبا سفيان فوجأه في عنقه، وهم بقتله حتى أجاره العباس، وأركض العباس البغلة، وعمر يشتد في إثرها حتى دخل العباس ومعه أبو سفيان على رسول الله، ثم دخل عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عهد فدعني فلاضرب عنقه، فقال العباس: أنا أجرته.

ثم جلس إلى رسول الله يناجيه، فلما أكثر عمر في شأن أبي سفيان قال العباس: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك عرفت أنه من بني عبدمناف!! فقال عمر: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب!!، وحسم رسول الله الخلاف بينهما فقال: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به»، أما حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء فقد أسلما.

إسلام أبي سفيان

وبات أبو سفيان ليلته ورأى فيها ما ملأ نفسه إعجاباً!! رأى المسلمين لما سمعوا الأذان انتشروا فتوضأوا، ثم اقتدوا بالرسول يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، فقال: يا عباس، ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه؟! قال: نعم والله، لو أمرهم بترك الطعام والشراب لأطاعوه! ورأى أعجب من ذلك، ذلك أنه لما توضأ رسول الله ﷺ جعلوا يبتدرون وضوءه، فقال: يا عباس ما رأيت كالليلة ولا ملك كسرى وقيصراً!!.

وفي الصباح غدا به العباس إلى رسول الله فقال له: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟»، فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، قال الرسول: «ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟»، فقال: أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً.

فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً

رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد شهادة الحق وأسلم، فقال العباس: إن أباسفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، فرأى رسول الله بنور قلبه، وواسع عقله أن يكون هذا الشيء مما يتعلق بحقن الدماء، ونشر الأمان، وأن لا يقتصر على أبي سفيان حتى يأمن أكثر عدد من الناس فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

حبس أبي سفيان بمضيق الوادي

ورأى الرسول الحكيم أن يوقف أبوسفيان حيث تمر عليه كتائب جيش المسلمين ليرى قوة المسلمين، فيكون نذيراً لقريش بالتسليم والجنوح إلى السلام إبقاءً على أنفسها، فقال: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم^(١) الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها».

فخرج بأبي سفيان - وقيل كان معه حكيم وبديل - فحبسه حيث أمره رسول الله، ومرت القبائل على راياتها، فمرت قبيلة فقال: يا عباس من هذه؟ قال: غفار، فيقول: ما لي ولغفار، وهكذا كلما مرت قبيلة قال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلاً، فقال: يا عباس من هذه؟، فقال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبوسفيان: يا عباس حبذا يوم الذمار - أي يوم الحرمة ورعاية العهد -.

الكتيبة الخضراء

ثم مر رسول الله ﷺ في كتيبة الخضراء يحيط به المهاجرون لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد^(٢)، يحمل الراية الزيرين العوام، فقال سبحان الله يا عباس!! من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين، فقال

(١) خطم الجبل: هو المكان الناء منه في الطريق، ليتمكن من رؤية الجيش كله.

(٢) أي عدة الحروب من قوس، ومغفر، وسلاح، والعرب تعبر عن الاسوداد بالاخضرار، والعكس، ومنه قوله تعالى: ﴿مُذَاهِمَاتُنَّ﴾ أي خضراوان شديدة الخضرة حتى كأنها سوداوان.

أبوسفيان: ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً!! فقال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة!! قال: نعم إذاً.

وبلغ أبوسفيان الرسول مقالة سعد بن عبادة فقال: «كذب - أي أخطأ - سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة»^(١)، وأمر بالراية أن تؤخذ من سعد وتعطى لابنه قيس، وقيل أعطاها لعلي بن أبي طالب، وقيل للزبير، والذي نرجحه الأول وهو ما يتفق وما عُرف عن الرسول من حكمة وبعُد نظر، إذ لم يرد أن يغضب أبا سفيان وصحبه بإبقاء الراية مع سعد، وقد يطغى سيفه فيسرف في القتل، فأخذها من سعد تأديباً له وزجراً عما قال، وفي الوقت نفسه لم يغضب سعداً لأنه أخذها منه وأعطاه لابنه، وأي إنسان لا يود لابنه من الفخار والمنزلة ما يود لنفسه بل وأكثر! رجوع أبي سفيان إلى مكة

ثم رجع أبو سفيان مسرعاً حتى إذا وصلها نادى بأعلا صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به!! فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالوا وما تغني دارك؟ فقال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، إلا من غلبت عليه الحمية وصمم على القتال.

دخول مكة

وسار الجيش الإسلامي حتى وصل (ذات طوى)، وفي هذا المكان رأى الرسول الحكيم والقائد المحنك أن يفرق الجيش فرقاً، وأوصاهم أن يكفوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفلها من كدى، وأمر الزبير بن العوام أن يدخل في فرقته من شمالها، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري من جانبها الغربي.

(١) هذا ما ذكر في صحيح البخاري، وذكر ابن إسحاق أن ذلك عند الدخول، والذي نرجحه ما في الصحيح.

ودخل رسول الله ﷺ من أعلاها من كداء بين يديه أبو عبيدة بن الجراح في فرقة من الجيش، دخلها وهو راكب ناقته ومطأطأ رأسه حتى إن شعر لحيته ليمس واسطة رحله تواضعاً لله وشكراً، ومعظماً له ومكبراً، حين رأى ما أكرمه الله من الفتح، وقد أردف وراءه أسامة بن زيد، فلما بلغ الحجون^(١) أمر أن تركز رايته هناك وأن تضرب له قبة، فضربت فاستراح بها هو وزوجته ميمونة وأم سلمة، فقال له أسامة بن زيد: أين تنزل غداً يا رسول الله؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أودور؟» وفي رواية أخرى: «متزلنا غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر»^(٢) رواهما البخاري.

ودخلت الجيوش مكة ولم يُلَقَ منها مقاومة تذكر إلا جيش خالد بن الوليد فقد كان يقيم في أسفل مكة أشد قريش عداوة للرسول، ومن اشتركوا مع بني بكر في نقض عهد الحديبية، هؤلاء لم يرضهم أن يستسلموا من غير إراقة دماء، ولم يعتدوا بما منحوا من أمان فاعدوا عدتهم للقتال، ومن هؤلاء: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وحماس بن قيس، فلما دخل جيش خالد أمطروه بنباهم، ولكن خالد لم يلبث أن فرقههم، ولم يقتل من رجاله إلا اثنان ضلاً طريقهما، أما قريش ففقدت ثلاثة عشر رجلاً في رواية، وأربعة وعشرين في رواية أخرى، ولم يلبث صفوان وعكرمة وسهيل أن ولّوا الأدبار منهزمين.

وكان حماس بن قيس يعد سلاحاً قبل مقدم جيش المسلمين، فقالت له امرأته: لماذا تعدّ ما أرى؟ فقال: لمحمد وأصحابه، فقالت: والله ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء، فقال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم، فلما شهد

(١) مكان بأعلى مكة بالقرب من مقبرتها، و(كداء) بفتح الكاف كسحاب جبل بأعلى مكة، و(كدى) بالضم والقصر جبل بأسفل مكة.

(٢) يعني لما تحالفت قريش أن لا يبايعوا بني هاشم ولا يناكحوهم ولا يؤوهم وحصروهم في الشعب وقد اختار النبي ذلك المكان ليتذكروا ما أصابهم من بلاء، فيشكروا الله على ما أنعم عليهم من الفتح العظيم ومبالغة في الصفح عن الذين أساؤوا، ومقابلتهم بالعفو والإحسان، وقد كان الخيف وجاه الشعب.

الموقعة مع صحبه وهزموا جاء حماس لاهثاً وهو يقول: أغلقتي عليّ بابي،
فقلت: فأين ما كنت تقول؟! فقال لها:

إنك لو شهدت يوم الخندمة	إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالؤتمة	واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة	ضرباً فلا يسمع إلا غمغمة
لهم نهيت خلفنا وهممة	لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة ^(١)

ولما قيل لرسول الله: هذا خالد بن الوليد يقتل، فقال: «قم يا فلان فأت
خالداً فقل له يرفع يديه من القتل». وكان هذا الفتح المين في صبيحة العشرين
من رمضان سنة ثمان، فلا عجب أن كان المسلمون يحتفلون في هذا اليوم
بالذكرى الخالدة: ذكرى الفتح المين.

إجارة أم هانئ رجلين

وكانت السيدة أم هانئ بنت أبي طالب زوج هبيرة بن أبي وهب
المخزومي فر إليها يوم الفتح رجلان من أحائها^(٢)، وهما: الحارث بن هشام،
وزهير بن أبي أمية المخزوميان، فدخل عليها أخوها علي بن أبي طالب يريد
قتلها فمنعته أم هانئ، ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ وهو في أعلى مكة، فلما رآها
قال: «مرحباً بك وأهلاً يا أم هانئ ما جاء بك؟» فقلت: يا نبي الله كنت
أمنت رجلين من أحائي فأراد عليّ قتلها، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من
أجرت يا أم هانئ»^(٣). وقد أسلم الحارث وزهير، وأما هبيرة زوجها فلم يسلم
وأقام بمكة حتى مات كافراً.

(١) الخندمة: المكان الذي كانت به الموقعة، أبو يزيد: سهيل بن عمرو، المؤتمة: الاسطوانة
أو المرأة مات عنها زوجها، الغمغمة: أصوات غير مفهومة، نهيت: صوت الصدر،
هممة: كلام خفي أو صوت يتردد في الصدر عند الحرب والظعن.
(٢) أماء: جمع حم: أقارب زوج المرأة كالأب والأخ والعم.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

إلى الكعبة

ثم قصد رسول الله الكعبة فطاف بها سبعاً، يستلم الركن بمحجن في يده، وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مشدودة إليها برصاص، فصار يطعن بها يعود في يده وهو يقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ ﴿جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾ فجعلت الأصنام تنهار وتسقط إلى غير رجعة، ورجعت الكعبة كما كانت على عهد الخليل إبراهيم رمز التوحيد، وعبادة الله وحده.

في جوف الكعبة

ثم دعا النبي عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد الدار حاجب الكعبة، فأخذ منه المفتاح ففتحت له الكعبة، فدخلها وكبر في جوانبها وصلى فيها ركعتين، ورأى على جدرانها صور الملائكة وغيرهم، وصورة إبراهيم وإسماعيل بيدهما الأزام يستقسمان بها فقال: «قاتلهم الله، لقد علموا ما استقسما بها قط»!! وأمر بالصور فأزيلت، وبالأصنام فأخرجت.

أذان بلال على الكعبة

وبعد أن طهرت الكعبة من الأصنام أمر النبي عليه الصلاة والسلام بلالاً فأذن فوقها، مما أهاج غيظ الذين لم يكونوا قد تخلصوا من عنجهية الجاهلية، حتى لقد قال بعضهم: الحمد لله الذي توفي فلاناً قبل أن يرى هذا العبد الأسود على ظهر الكعبة!! ومن يومها ومنذ أربعة عشر قرناً إلى يومنا وإلى ما شاء الله وبلال وخلفاؤه ينادون الناس كل يوم خمس مرات: (أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) وأن الله أكبر من كل كبير، وداعين الناس إلى الفلاح، وإلى خير العمل وهي الصلاة.

اليوم يوم بر ووفاء

ولما خرج رسول الله ﷺ قام إليه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ومفتاح الكعبة بيده، فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية، فقال النبي ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟ فدعي له فقال: «هذا مفتاحك يا عثمان،

اليوم يوم بر ووفاء» وقال: «خذوها يا بني شبيهة خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم»^(١).

ولا يزال مفتاح الكعبة فيهم إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله، ويقال للحجبة: الشيبون نسبة إلى شيبه بن عثمان بن أبي طلحة، وهو ابن عم عثمان هذا لا ولده، وله أيضاً صحبة للنبي ورواية، فقد انتقلت من عثمان بن طلحة إلى ابن عمه شيبه وما زالت في نسله إلى اليوم، وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ الآية^(٢).

خطبة يوم الفتح

ووقف رسول الله ﷺ على باب الكعبة، وقد تكاثر الناس في المسجد، وأوجس المشركون خيفة، وكادت تغص حلوقهم بقلوبهم من شدة الخوف، وصارت أبصارهم مشدودة إلى الرسول، ولكن المظلوم المنتصر أبى إلا أن يضرب مثلاً نادراً في العفو، فقام خطيباً وكان مما قال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل ماثرة كانت في الجاهلية، أودم، أو مال يدعى، فهو موضوع تحت قدمي هاتين، إلا ما كان من سدانة البيت وسقاية الحاج فإنهما أمضيتهما لأهلها على ما كانت ألا وإن قتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل: أربعون منها في بطونها وأولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب» ثم تلا هذه الآية:

(١) فتح الباري، ج ٨ ص ١٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٨.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم قال: «اذهبوا فانتم الطلقاء»!!
العفو عند المقدرة

ألا ما أجل العفو عند المقدرة، وما أعظم النفوس التي تسمو على الأحقاد وعلى الانتقام، بل تسمو على أن تقابل السيئة بالسيئة، ولكن تعفو وتصفح، والعفو عن مَنْ؟ عن قوم طالما عذبوه وأصحابه، وهما بقتله مراراً، وأخرجوه وأتباعه من ديارهم وأهلبيهم وأموالهم، ولم ينفكوا عن محاربتة والكيد له بعد الهجرة!!.

إن غاية ما يرحى من نفس بشرية كانت مظلومة فانتصرت أن تقتص من غير إسراف في إراقة الدماء، ولكنه النبي!! والنبوة من خصائصها كبح النفس ومغالبة الهوى، والعفو والتسامح، أليس من صفاته التي بشرت بها التوراة أنه ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يقابل السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح؟ لقد ضرب النبي صلوات الله وسلامه عليه بعفوه عن أهل مكة للدنيا كلها، وللأجيال المتعاقبة مثلاً في البر والرحمة، والعدل والوفاء وسمو النفس لم تعرفه الدنيا، ولن تعرفه في تاريخها الطويل.

ارجع ببصرك قليلاً إلى ما فعله الغالبون بالمغلوبين في الحريين العالميتين في قرننا هذا: قرن الحضارة كما يقولون، لتعلم علم اليقين فرق ما بين النبوة وغير النبوة، والإسلام وغير الإسلام.

إسلام أبي قحافة

وبعد الفتح جاء أبو بكر الصديق بأبيه أبي قحافة يقوده وقد كُفَّ بصره، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هلاً تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، فأجلسه بين

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

يديه، ثم مسح صدره وقال: «أسلم» فأسلم، وهنا رسول الله أبا بكر بإسلام أبيه، وكان رأس أبي قحافة قد اشتعل شيباً، فقال الرسول: «غَيَّرُوا من شعره، ولا تقربوه سواداً».

إسلام الحارث وعتاب

وكان الحارث بن هشام، وعتاب بن أسيد وأبوسفيان بن حرب جلوساً بفناء الكعبة، وبلال يؤذن فوق ظهر الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا، فسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، فقال أبوسفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصة، فطلع عليهم رسول الله فقال: «قد علمت الذي قلت» ثم ذكره لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول: أخبرك!!

إسلام فضالة بن عمير

وكانت نفسه قد حدثته أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال له الرسول: «أفضالة؟» قال نعم فضالة يا رسول الله، قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي ثم قال: «استغفر الله» ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه.

فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هَلُمَّ إلى الحديث - تعني حديث الهوى والغرام - فقال: لا، وانبعث يقول:

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلت: لا

ياأبى عليك الله والإسلام

لو ما رأيت محمداً وقبيله

بالفتح يوم تُكسّر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بيّناً

والشرك يَغشى وجهه الإظلام

نعم إن الإسلام يغير من سلوك من يعتنقه، ويرشده إلى القيم الخلقية
الكريمة، ويغير من نظراته إلى الحياة حتى يصير منه إنساناً آخر في عقيدته،
وسلوكه، وأخلاقه.

* * *

إهدار النبي بعض الدماء

لقد كان النبي صلوات الله وسلامه عليه حريصاً غاية الحرص على أن تبقى لمكة حرمتها، وأن يتم الفتح من غير إراقة دماء، وقد أوصى أمراء الجيوش أن لا يقاتلوا إلا مكرهين، وتوَجَّ هذا بالعفو عن أهل مكة عفواً شاملاً، بيد أنه استثنى بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، لأنهم عظمت جرائمهم في حق الله ورسوله، وحق الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جمعت أسماءهم من متفرقات الأخبار، وهم: عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد - مصغراً - ومقيس بن صبابه، وهبار بن الأسود، وقيتان كانتا لابن خطل: فرتى وقريبة، وسارة مولاة بني عبد المطلب، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلائل الخزاعي، وذكر الحاكم أن فيمن أهدر دمه كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة^(١).

ومن هؤلاء من قتل، ومنهم من جاء مسلماً تائباً فعفا عنه الرسول، وحسن إسلامه، إليك بعضاً منهم.

عبد الله بن خطل وقيتاه

كان اسمه عبد العزى، فلما أسلم سمي: عبد الله، وقد بعثه رسول الله

(١) فتح الباري، ج ٧ ص ٩.

مصدقاً^(١)، وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى له فغضب عليه فقتله، ثم ارتد مشركاً، وكانت قيتاه تغنيان بهجاء رسول الله والمسلمين، فلهذا أهدر النبي دمه ودم قيتيه، وقد اشتراك في قتله أبو بَرزة الأسلمي، وسعيد بن حريث المخزومي، وقتلت إحدى قيتيه، واستؤمن للأخرى.

عبدالله بن أبي سرح

كان ممن يكتب الوحي لرسول الله، ثم ارتد وزعم أنه كان يزيف الوحي على الرسول، ولما أهدر الرسول دمه ذهب مع أخيه من الرضاع عثمان بن عفان كي يطلب له الأمان، فأعرض عنه الرسول طويلاً، ثم قال: «نعم»، فلما انصرف مع عثمان قال الرسول: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رأيي قد صمت فيقتله؟» فقالوا: يا رسول الله، هلاً أو مأت إلينا، فقال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين» وقد حسن إسلامه فيما بعد، وولاه الفاروق عمر بعض أعماله، وكذلك فعل عثمان.

الحوirth بن نقيذ

ولما تحمّل العباس بن عبدالمطلب بفاطمة وأم كلثوم ليذهب بهما إلى المدينة يلحقهما برسول الله، نخس بهما الحوirth الجمل الذي هما عليه فسقطتا على الأرض، وهي نذالة وعمل عار عن المروءة، وقد قتله سيدنا علي بن أبي طالب.

مقيس بن صبابه

كان قتل أخ له مسلم خطأ، فأخذ ديتَه ورضي، ثم التمس من القاتل غرة فقتله وارتد مشركاً، فقتله رجل من قومه ثملة بن عبدالله.

هبار بن الأسود

كان أبو العاص بن الربيع زوج السيدة زينب بنت الرسول أسرى في بدر فأطلقه المسلمون، فأخذ عليه رسول الله أن يرسل إليه ابنته، فوفى بما وعد،

(١) المصدق - بتخفيف الصاد وتشديد الدال - هو الذي يأخذ صدقات النعم، وأما المصدق - بتشديد الصاد - فهو الذي يعطي الناس، ويتصدق عليهم.

وأرسل بصحبته أخاه كنانة بن الربيع^(١)، فلما علمت قريش بخروجها علانية سَعَوْا إليها كي يردوها، فكان أول من أدركها هُبَّار بن الأسود فروعها بالسيف وهي في هودجها، فسقطت وكانت حاملاً فأجهضت، ولم يزل يعاودها المرض بسبب هذا حتى توفاه الله.

فلما أهدر النبي دمه هرب، حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالجعرانة بعد الفتح لقيه فأسلم، وقال: يا رسول الله هربت منك وأردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك، وأنقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل فقال العفو الكريم: «قد عفوت عنك، وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الإسلام، والإسلام يحب ما قبله».

عكرمة بن أبي جهل

لما أهدر النبي دمه هرب قاصداً اليمن، وكانت امرأته أم حكيم بنت الحارث قد أسلمت قبل الفتح، فأخذت له أماناً من رسول الله ﷺ، فلحقته وقد همُّ بركوب البحر، فقالت: جئتُك من عند أبر الناس، وخيرهم، لا تهلك نفسك، وإني قد استأمنت لك. فرجع معها، فلما رآه رسول الله وثب قائماً فرحاً به، وقال: «مرحباً بمن جاءنا مسلماً مهاجراً»، ثم التمس من النبي أن يستغفر له كل عداوة عاداه إياها فاستغفر له، وكان رضي الله عنه بعد ذلك من خيرة المسلمين، وأشدَّهم غيرة على الإسلام ومن أبطال الفتوحات الإسلامية.

هند بنت عتبة بن ربيعة

زوج أبي سفيان، وهي التي أغرت وحشياً بقتل حمزة، والتي مثلت بقتل المسلمين في أحد، وكانت اختفت ثم جاءت إلى النبي مسلمة، فعفا عنها

(١) هذا ما ذكره ابن إسحاق، وذكر الحافظ في الإصابة أنه كنانة بن عدي بن ربيعة بن عبد العزى، فهو ابن عم أبي العاص لا أخوه. وقال ابن عبد البر إنه ابن أخيه (الإصابة، ج ٣ ص ٣٠٧)، ولعله للاختلاف في نسبه أم هو أبو العاص بن الربيع بن ربيعة بن عبد العزى، أم أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى كما ذكر الحافظ في الفتح.

فقلت: والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا من أهل خبائك!!

وأما وحشيُّ بن حرب قاتل سيد الشهداء حمزة فقد مضت قصة إسلامه في غزوة أحد، وأما كعب بن زهير فتأتي قصته بعد.

* * *

خطبة النبي ﷺ غداة الفتح وإسلام أهل مكة وبيعته

وفي غداة الفتح بلغ النبي ﷺ أن خزاعة حلفاء عدت على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك برجل قتل في الجاهلية، فغضب وقام بين الناس خطيباً فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد - يقطع - فيها شجراً لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم.

يا معشر خزاعة: ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه، فمن قتل بعد مقامي هذا، فأهله بخير النظرين: إن شاؤوا قُدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله»^(١).

ثم ودى رسول الله الذي قتله خزاعة، فأبي احترام حرمة الدماء حتى ولو كانت غير مسلمة فوق هذا؟ وهل يشك أحد في حرمة البلد الأمين بعد هذه الخطبة البليغة المؤثرة، واستمرارها إلى يوم القيامة؟

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده من طريق ابن إسحاق صاحب السيرة، ورواه أيضاً من غير طريقه، وأصل الحديث في الصحيحين، والعقل: الدية.

إسلام قريش رجالاً ونساء

لقد كان من أثر عفو النبي الشامل عن أهل مكة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهل مكة رجالاً ونساء وأحراراً وموالي في دين الله، طوعية واختياراً، وبانطواء مكة تحت راية الإسلام دخل الناس في دين الله أفواجا، وتمت النعمة، ووجب الشكر، وصدق الله حيث يقول:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

فالمراد بالفتح في هذه السورة فتح مكة، ولما نزلت قال النبي: «نُعِيتَ إِلَى نَفْسِي» فقد فهم منها قرب انتهاء أجله^(١)...

(١) كان نزولها في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع كما سيأتي، وإنما ذكرتها هنا استشهادا على انتشار الإسلام بعد الفتح حتى عم الجزيرة، وليبان أن المراد بالفتح في الآية فتح مكة.

بيعة الرجال

وبايع رسول الله ﷺ الناس جميعاً الرجال والنساء، والكبار والصغار، وبدأ بمبايعة الرجال، فقد جلس لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، وجاء مجاشع بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح فقال يا رسول الله، جئت بك بأخي لتبايعه على الهجرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «ذهب أهل الهجرة بما فيها»، فقال: على أي شيء تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد»^(١).

وقد روي في الصحيحين وغيرهما أن رسول الله قال يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»، والمراد أن الهجرة التي كانت واجبة من مكة قد انتهت بفتح مكة، فقد عز الإسلام، وثبتت أركانه ودعائمه، ودخل الناس فيه أفواجا، أما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو من بلد لا يقدر أن يقيم فيه دينه ويظهر شعائره إلى بلد يتمكن فيه من ذلك فهي باقية إلى يوم القيامة، ولكن هذه دون تلك، فقد تكون واجبة؛ وقد تكون غير واجبة؛ كما أن الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروع وباق إلى يوم القيامة ولكنه ليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل فتح مكة قال عز شأنه:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِ وَكُلًّا وََعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢).

(١) رواه البخاري.

(٢) سورة الحديد: الآية ١٠.

بيعة النساء

ولما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة متقبّة متنكرة، على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنین، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين بيهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، ولما قال النبي: ولا يسرقن قالت هند: يا رسول الله، إن أباسفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني ويكفي بنيّ، فهل علي من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها: «خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف». ولما قال: ولا يزنین قالت هند: وهل تزني الحرة؟ ولما عرفها رسول الله قال لها: «وإنك لهند بنت عتبة؟»، قالت: نعم، فاعفُ عما سلف عفا الله عنك.

وقد بايعن رسول الله من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (لا والله، ما مسّت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة قط)، وفي رواية: ما كان يبايعهن إلا كلاماً ويقول: «إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة»^(١).

(١) البداية والنهاية، ج ٤ ص ٣١٩.

أكان فتح مكة عَنوة^(١) أم صلحاً؟

وقد اختلف العلماء في ذلك، فقال مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وجماهير العلماء، وأهل السير: إن مكة فتحت عَنوة.

وقال الشافعي - ورواية عن أحمد - إنها فتحت صلحاً.

وقد احتج الجمهور بأدلة منها:

١ - حديث أبي هريرة الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه وفيه: أن رسول الله ﷺ ناداه، فقال أبو هريرة: لبيك يا رسول الله، قال: «اهتف لي بالأنصار»، فلبوا سراعاً، قال: فأطافوا به، ووبّشت قريش أوباشاً لها^(٢) وأتباعاً، فقالوا: نقدّم هؤلاء فإن كان لهم شيء - يعني من النصر - كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا، فقال رسول الله ﷺ: «تروني إلى أوباش قريش، وأتباعهم»، ثم قال^(٣) بيديه إحداهما على الأخرى^(٤) ثم قال: «حتى نوافوني بالصفاء»، قال: فانطلقنا فما شاء أحد منا أن يقتل أحداً إلا قتله، وما أحد منهم يوجه إلينا شيئاً، فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله، أبيحت

(١) قال في المصباح المنير: «عنا يعنو عنة إذا أخذ الشيء قهراً... وفتحت مكة عنة أي قهراً».

(٢) أي جمعت جوعاً من قبائل شتى لمحاربة جيش المسلمين.

(٣) قال: أشار.

(٤) يريد الإشارة إلى القتل.

خضراء قریش^(١)، لا قریش بعد اليوم!! ثم قال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»^(٢).

٢ - وقوع القتال من خالد بن الوليد وجيشه، وهذا أمر ثابت في الصحاح وكتب السير.

٣ - قوله ﷺ - كما في الصحيحين - : «أحلت لي ساعة من نهار»، ونبيه عن التأسي به في ذلك.

٤ - إذنه ﷺ أن ينادى في الناس بقوله: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن»، فلو كان دخولهم مكة صلحاً لم يحتج إلى هذا.

٥ - حديث أم هانئ - وهو في الصحيحين - حين أجارت رجلين من أمهاتها أراد علي أخوها قتلها، فأخبرت النبي بذلك، فقال: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»، فكيف يكون دخولها صلحاً ويخفى على مثل علي؟! واحتج الإمام الشافعي بأمور منها:

١ - ما قاله الإمام النووي من أنه احتج بالأحاديث المشهورة من أن النبي ﷺ صالحهم بمر الظهران قبل دخول مكة.

٢ - لأنها لم تقسم بين الغائين، ولم يملكوا دورها، بل بقيت على ملك أهلها.

وقد رد الجمهور بما يأتي:

١ - أي أحاديث مشهورة رويت في هذا؟! وما ذكره الإمام النووي - رحمه الله تعالى - إن أراد به ما وقع من قوله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان

(١) يعني جماعاتهم، ويعبر عن الجماعة المجتمعمة بالسواد، والخضرة، ومنه السواد الأعظم.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب غزوة الفتح.

فهو آمن...»، فإن ذلك لا يسمّى صلحاً إلا إذا التزم من أشير إليه بذلك الكف عن القتال، والذي ورد في الأحاديث الصحيحة والسير أن قريشاً لم يلتزموا ذلك، بل استعدوا للقتال، وجعوا أوباش القبائل كما في حديث مسلم، وإن كان المراد بالصلح وقوع عقد بين النبي وبينهم فهذا لم ينقل قط.

٢ - وأما عدم القسمة بين الغائين، فإنها لا تستلزم عدم العنوة، فقد تفتح البلد عنوة، ويمن الإمام على أهلها، ويترك لهم دورهم، لأن قسمة الأرض المغنومة بين الغائين ليس متفقاً عليها بل الخلاف ثابت بين الصحابة فمن بعدهم، وقد فتحت أكثر البلاد عنوة فلم تقسم، وذلك في زمن عمر وعثمان، مع وجود أكثر الصحابة، وقد زادت مكة على ذلك بأمر يمكن أن تكون مختصة به دون بقية البلاد، وهي أنها دار النُسكَيْن - الحج والعمرة - ومتعبد الخلق، وقد جعلها الله تعالى حراماً آمناً سواء العاكف فيه والباد.

وجنحت طائفة منهم الإمام الماوردي إلى أن بعضها فتح عنوة، لما وقع بينهم وبين خالد وجيشه من قتال، وإن كانت دارت عليهم الدائرة، وبعضها وقع صلحاً. وقد قرر ذلك الإمام الحاكم في «الإكليل».

والحق أن الراجح والصحيح أن فتحها كان عنوة، وبقوة السلاح، ولو أمكنهم أن يقاتلوا أيضاً الجيش الذي كان فيه النبي ﷺ لفعلوا، وقد ناوشوا جيش خالد، ولكنهم لم يلبثوا أن هزموا واستسلموا، ولكن النبي ﷺ للاعتبارات التي ذكرناها، وتأليفاً لقلوب من لم يدخل منهم في الإسلام يوم الفتح عاملهم معاملة من فتحت بلدهم بأمان وصلح^(١)، وبحسبنا هذا القدر في هذا المقام.

* * *

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ج ١٢ ص ١٣٠، ١٣١؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٨ ص ٩، ١٠.

مخاوف الأنصار وتبديدها

لما رأى الأنصار سرور رسول الله بالفتح، وحفاوته بالكعبة والمسجد الحرام، وذهابه إلى الصفا داعياً وشاكراً لله على عظم نعمائه - تخوفوا أن يقيم رسول الله في بلده، ولا يرجع إليهم فيحرموا منه، فقال بعضهم لبعض فيما بينهم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته، أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟

فأوحى الله إليه بما جرى، فذهب إليهم فأخبرهم بما قالوا فأقروا، فطمأنهم قائلاً: «كلا إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم»، فأقبلوا إليه يبيكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله ورسوله، فقال رسول الله: «إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم».

مدة إقامة النبي بمكة

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بضعة عشر يوماً، قيل: خمسة عشر يوماً، وقيل سبعة عشر يوماً، وقيل تسعة عشر وهي أرجح الروايات، لأن أكثر الروايات الصحيحة على هذا^(١)، وكان النبي يقصر الصلاة في هذه المدة ويفطر، لأنه كان على سفر ولم يرد الإقامة، وكان إذا صلى قال: «يا أهل البلد صلُّوا أربعاً فإننا سَفَرٌ»^(٢).

وفي هذه المدة أرسل النبي بعض الصحابة للدعوة إلى الإسلام، وهدم الأصنام والأوثان، والأنصاب.

(١) فتح الباري، ج ٢ ص ٤٤٩.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة وهدم بعض الأصنام

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام، ولم يبعثه مقاتلاً، فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فقام رجل منهم يسمى: جحدراً فقال: ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد؛ والله ما بعد وضع السلاح إلا الإِسار، وما بعد الإِسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً فلم يزالوا به حتى وضع سلاحه.

فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد فكتفوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسراً وقتلاً، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يوماً أمر خالد أن يقتل كل واحد أسيره، فامثل البعض، وامتنع عبدالله بن عمر وامتنع معه آخرون من قتل أسراهم، فلما قدموا على رسول الله أخبروه، فغضب ورفع يديه إلى السماء قائلاً: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» مرتين.

وقد أنكر على خالد الصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف، وقال له: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام، وكانت بينهما ملاحاة قال له فيها عبدالرحمن: إنك تأرت لعمك الفاكه بن المغيرة، وكان بعض بني جذيمة قتلوه في الجاهلية^(١) وكذلك أنكر على خالد بعض كتاب السير والتاريخ، ورموه بما رماه به ابن عوف.

(١) السيرة لابن هشام، ج ٢ ص ٤٣١.

والظن بمثل خالد أنه إنما أراد نصرة الإسلام، وأنه اجتهد في أمر وتأول فأخطأ، ففهم من كلامهم صباناً أنهم يتبرأون من الإسلام، لا أنهم يريدون الإسلام. ولعل هذا هو السبب في أن النبي ﷺ عذره ولم يعزله، وإن كان تبرأ من فعله إلى الله، وما كان رسول الله يداهن، أو يخاف في الحق لومة لائم.

وبعض من يعذر خالداً ويتنصر له يزعم أن خالداً قال: ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبدالله بن حذافة السهمي، وقال: إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام، وليس من شك في أن لخالد من المواقف المشهودة، والتضحية بالنفس، ما يغفر له مثل هذه الهنات، والله يغفر لهم جميعاً.

تعويض النبي بني جذيمة عن الدماء والأموال

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وقال له: «يا علي، اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم. واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك».

فخرج حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله معه، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من مال حتى مئيلة الكلب^(١)، وبقيت معه بقية من المال فقال لهم: هل بقي لكم دم أو مال لم يؤدّ لكم؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيتكم هذه البقية احتياطاً لرسول الله بما لا يعلم ولا تعلمون، ثم رجع إلى رسول الله فأخبره بما صنع فقال له: «أصبت، أحسنت».

وبهذا التصرف النبوي الحكيم وأسى النبي بني جذيمة، وأزال ما في نفوسهم من أسى وحزن.

هدم العُزَى

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم العُزَى، وهي هيكَل بنخلة تعظمه قريش وكنانة ومضر؛ وكان ذلك لخمس بقين من رمضان، فذهب إليها وهدمها وهو يقول:

يا عُزَّ كُفْرانك لا سبْحانك إني رأيت الله قد أهانك

(١) المئيلة: إناء من خشب كان يعد لشرب الكلب.

هَدْمُ سُوع

وأرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص لهدم سُوع، وهو أعظم صنم
لهذيل على ثلاثة أميال من مكة، فذهب إليه وهدمه.

هَدْمُ مَنَاةَ

وبعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مناة، وهي صنم
لكلب وخزاعة، وهيكلها بالمثلل، وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى
قُدَيْد، فتوجهوا إليها وهدموها.

وبهذا الفتح المبين وسقوط دولة الأصنام والهيكل أصبح توحيد الله على كل لسان،
وأضحت الكعبة منارة التوحيد في الأرض، وعادت كما كانت على عهد الخليل إبراهيم
عليه الصلاة والسلام.

* * *

غزوة حُنين^(١)

لما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين، ودانت له قريش فزعت هوازن وثقيف وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزّه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا، وولّوا عليهم مالك بن عوف النَّصْرِي، فاجتمع إليه هوازن، وثقيف، ونصر، وجُشَم، وسعد بن بكر قوم السيدة حلّيمة السعدية، وناس من بني هلال، ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب، وكان معهم دريد بن الصَّمّة، وكان معروفاً بشدة البأس في الحرب وأصالة الرأي، إلا أنه كان كبيراً فلم يكن له إلا الرأي والمشورة.

وكان رأي مالك بن عوف أن يخرجوا ووراءهم النساء والذراري والأموال حتى لا يفروا، فلما علم بذلك دريد سأله: لم ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال دريد: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك!! ولكنه لم يستمع لمشورته.

خروج رسول الله

فلما علم رسول الله ﷺ بما أجمعوا عليه خرج إليهم لخمس خَلَوْن من شوال من هذا العام وقيل لست، ليغزوهم قبل أن يغزوه في اثني ألفاً، منهم العشرة الآلاف الذين كانوا في فتح مكة، وألفان من الأعراب والطلقاء، والمؤلفة قلوبهم والنساء يرجون الغنائم، وخرج في الجيش ثمانون من المشركين، منهم:

(١) حنين مصغراً واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات.

صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، واستخلف النبي على مكة عتّاب بن أسيد^(١) الأموي العبشمي، وكان عمره عشرين عاماً.

استعارة دروع صفوان

وكان ذكر لرسول الله أن عند صفوان بن أمية دروعاً وسلاحاً، فلما عزم الأمر أرسل إليه وهو يومئذ مشرك، فقال: «يا أبا أمية أعرنا سلاحك نلق به عدونا غداً»، فقال: أغصباً يا محمد؟ فقال: «بل عارية مضمونة»، فأعاره مائة درع بما يكفيها من السلاح، وسأله رسول الله أن يكفيهم حملها ففعل، فلما تمت الموقعة جمعت دروع صفوان فوجدوا أن بعضها فقد، فعرض عليه رسول الله أن يضمها له، فأبى وقال: أنا اليوم في الإسلام أرغب.

مسيرة الجيش

وسار رسول الله حتى كان قريباً من معسكر العدو صف الغزاة، وعقد الألوية، فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، وكذلك فعل مع القبائل الأخرى. وركب النبي بغلته ولبس درعين والبيضة والغفر، واغتر بعض المسلمين بهذه الكثرة الكثيرة حتى قال: لن نهزم اليوم من قلة.

وفي الطريق إلى حنين مروا بذات أنواط^(٢) فقال بعض حديثي العهد بالإيمان: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط!! فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر!! قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾، قال: إنكم قوم تجهلون». إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم».

(١) قال في المصباح المنير: «وأسد أسيد مثل كريم أي متأسد جريء وبه سمي، ومنه: عتّاب بن أسيد»، وعتّاب بتشديد التاء صيغة مبالغة ثم سمي به، وعبشمي: نسبة إلى عبداشمس.

(٢) شجرة عظيمة كانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب، يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها، ويمكفون عليها يوماً.

التقاء الجيشين

وكان مالك بن عوف قد سبق رسول الله ﷺ إلى حنين، فأعدوا أنفسهم، وكنموا في مضائق الوادي وأحنائه، وأقبل رسول الله ﷺ في أصحابه حتى نزلوا بالوادي في عماية الصبح، وإنهم لكذلك إذ شدت عليهم قبائل هوازن وثقيف شدة رجل واحد، وخرج من كان مستتراً في شعاب الوادي ومضايقه، وأمطروهم بالسهام، فاختلط أمر المسلمين وأذهلتهم المفاجأة، فلجأوا أعنة خيلهم وأزمنة إبلهم متقهقرين لا يلوون على أحد حتى وصلت فلول المنهزمين إلى مكة.

ثبات الرسول

ورأى رسول الله الجيش على كثرته قد اختل نظامه، واضطرب أمره، وولى الكثيرون الأدبار، فماذا يصنع؟ إنه ليعلم أنه رسول الله وأنه ناصره، وأنه البطل الذي لم يعرف عنه الفرار قط، فعزم على الثبات ولو أن يكون وحده، وثبت رسول الله، وصار يركض بغلته البيضاء ركضاً في نحر العدو^(١)، والعباس عم الرسول أخذ بلجامها يكفها به إرادة أن لا تسرع وأبوسفیان بن الحارث ابن عم الرسول أخذ بركابه ينافح عنه، ورسول الله ينادي: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»^(٢) وكان من دعائه في هذا اليوم: «اللهم أنزل نصرک، اللهم إنک إن تشأ لا تعبد فی الأرض بعد اليوم».

(١) قال الحافظ في الفتح: وما يبیه علیه هنا أن البغلة البيضاء التي كان عليها في حنين غير البغلة البيضاء التي أهداها له ملك «أيلة»، لأن ذلك كان في تبوك، وغزوة حنين كانت قبلها. وقد وقع في مسلم من حديث العباس أن البغلة التي كانت تحته في حنين أهداها له فروة بن نفاثة — بضم النون بعدها فاء خفيفة ثم مثناة — وهذا هو الصحيح. وذكر أبو الحسين بن عیدوس أن البغلة التي ركبها يوم حنين «لدل» وكانت شهباء أهداها له المقوقس. وأن التي أهداها له «فروة» يقال لها «فضة» ذكر ذلك ابن سعد، وذكر عكسه. والصحيح ما في مسلم (فتح الباري، ج ٦ ص ٥٧) وفروة كان عاملاً للروم على بلاد «معان» وما جاورها من بلاد الشام.

(٢) انتسب إلى جده لأنه كان أشهر وأذكر عند العرب. أما أبوه فقد مات وهو شاب.

من ثبت مع الرسول

وثبت مع رسول الله عدا هذين رهط من المهاجرين، وآل البيت، منهم: أبوبكر، وعمر، وعلي بن أبي طالب، وربيعه بن الحارث بن عبدالمطلب، والفضل وثم ولدا العباس، وأسامة بن زيد، وأمين ابن أم أيمن. ولكن ماذا تفعل هذه القلة في هذا البحر اللجي من جيش الأعداء؟ فتفتق عقل النبي عن هذا الأمر الحكيم، فقد أمر عمه العباس - وكان رجلاً جسيماً صَبِيّاً - أن ينادي: يا معشر الأنصار، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة. فنادى بها.

استجابة المسلمين

وحركت هذه الكلمات ذات الذكريات مكامن الإيمان والشجاعة في النفوس، وأزالت ما غشي النفوس من هلع وفرع، فثاب الفارون إلى رشدهم، وأجابوه: لبيك، لبيك، وجعل الرجل منهم إذا لم يستطع أن يلوي عنق بغيره ينزل عنه، ويأخذ سيفه ورمحه ويؤم الصوت، حتى تجمع حول الرسول عدد كبير.

الآن حمي الوطيس

واشتد القتال، وأشرف رسول الله على المعركة فقال: «الآن حمي الوطيس»^(١)، وأمد الله المؤمنين بجند من عنده، واشتدت مطاردة المسلمين للفلول المنهزمة من هوازن وثقيف، وما هي إلا ساعة حتى انهزم المشركون، وجيء بالأسارى وهم مكتفون، وأفاء الله على رسوله والمؤمنين أموالهم وأبناءهم ونساءهم، وقتل من المشركين عدد غير قليل منهم دريد بن الصمة.

ومن قاتل في هذا اليوم قتال الأبطال السادة علي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، فقد جرح جراحات بالغة، وأبوقتادة حتى سَمَّاه الصديق أسداً من أسد الله. وهكذا بفضل ثبات النبي كان النصر بعد الهزيمة، ولولا ثبات الرسول لما تجمع الأبطال حول سيدهم، ولما ثاب المسلمون إلى نبيهم، وقد

(١) أي اشتدت رحى الحرب وهي من الكلم التي لم يسبق النبي إليها.

كان لهذا النصر أثره في نفوس كثير من بقي من أهل مكة على شركهم، فأسلموا لما عاينوا نصر الله لنبيه، وإعزازه لدينه، وفي غزوة حنين أنزل الله سبحانه قوله:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَرِّينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

تشفي بعض الأعراب وضعفاء الإيمان

ولما انهزم المسلمون تكلم بعض جفاة الأعراب، ومن كانوا حديثي عهد بالإسلام بكلام ينم عن التشفي والشماتة، فقال كلدة بن الحنبل - وهو أخ لصفوان بن أمية لأمه -: ألا بطل السحر اليوم!! فقال له صفوان - وكان لا يزال مشركاً في المدة التي جعل له فيها الرسول الخيار -: اسكت، فض الله فاك، فوالله لأن يرُبِّي - يملكني - رجل من قريش أحب إلي من أن يرُبِّي رجل من هوازن!!

ومر رجل قرشي بصفوان بن أمية فقال له: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبداً، فزجره أمية وقال: تبشرني بظهور الأعراب؟! وقال عكرمة بن أبي جهل لهذا الرجل: الأمر ليس بيدك، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء، إن أدبيل عليه اليوم فإن العاقبة له غداً!! فقال سهيل بن عمرو: والله إن عهدك بخلافه لحديث، فقال عكرمة: يا أبا يزيد إنا كنا على غير شيء، وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع!! وقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. وقد أكذب الله كل هذه الأماني، وكانت العاقبة للرسول والمؤمنين.

(١) سورة التوبة: الآيات ٢٥ - ٢٧.

موقف إنساني للرسول

ومر رسول الله ﷺ بامرأة مقتولة قتلها خالد بن الوليد، والناس واقفون عليها ينظرون ويتعجبون من خلقها، حتى لحقهم رسول الله على راحلته، فانفرجوا عنها، فقال: «ما كانت هذه لتقاتل»، وقال لأحدهم: «الحق خالداً فقل له: لا يقتلن وليداً ولا امرأة ولا عسيفاً» أي أجيراً.

حنين درس في التربية النفسية

وقد كانت حنين درساً أفاد منه المسلمون، فقد كان في الجيش أخلاق كثير من المشركين والأعراب، والمؤلفة قلوبهم، وهؤلاء لا يقاتلون عن عقيدة وإخلاص، وإنما يقاتلون لمغنم أو عصبية. كما كانت درساً في التربية النفسية علم المسلمين أن النصر ليس بكثرة العدد والعدة، وأن الاغترار بذلك ليس من أخلاق الإسلام، فها هم لما اغتروا بكثرتهم كانت الهزيمة، وذلك ليكون المسلمون على صلة قوية بالله، فلا يلهمهم العدد والعدة عن تذكر الله، والتوكل عليه، فليتوكلوا على الله، ثم ليأخذوا ما استطاعوا في إعداد العدة للأعداء حسبما أمر الله به في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ...﴾، وقد أشار الله إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(١)، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

غنائم حنين

وأمر رسول الله بجمع السبي من النساء والذراري والغنائم من الإبل والغنم والمال، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وأمر أن تساق إلى الجعرانة فتحبس هناك ريثما تقسم، وجعل على الغنائم مسعود بن عمرو الغفاري.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٦.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١٠.

من استشهد من المسلمين
ومن استشهد في حنين أيمن بن عبيد ابن أم أيمن مولاة رسول الله
وحاضنته، وزيد بن زمعة بن الأسود جمع به فرسه فمات، وسراقة بن الحباب
الأنصاري.

سرية أوطاس

لما انهزمت هوازن وثقيف ذهبت فرقة منهم فيها رئيسهم مالك بن عوف
فلجأوا إلى الطائف فتحصنوا بها، وسارت فرقة أخرى فعمسكروا بمكان يسمى
(أوطاس)^(١)، وتوجهت فرقة ثالثة نحو نخلة^(٢)، وهم بنو غيرة من ثقيف،
فبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبل أوطاس سرية وأمر عليهم أبا عامر
الأشعري، فلما التقوا تناوشوا القتال، وقد أبلى أبو عامر بلاء حسناً حتى قيل:
إنه قتل تسعة منهم، ثم رماه أحدهم بسهم فأثبته في ركبته ففجّز عن القتال،
فاستخلف على السرية ابن أخيه: (٣) أبا موسى الأشعري، فقتل قاتل عمه.

ولم يلبث أبو عامر أن مات من جرحه بعد أن أوصى أبا موسى أن يقرىء
رسول الله منه السلام، وأن يستغفر له، وقاتل أبو موسى القوم حتى هزمهم،
فلما رجع بعد الموقعة أخبر الرسول بخبر عمه فدعا له ولأبي موسى رضي الله
عنهما.

سبايا أوطاس

وفي يوم أوطاس أصاب المسلمون سبايا لهن أزواج من أهل الشرك، فتأثم
أناس من أصحاب رسول الله من غشيانهن وكفوا، فأنزل الله هذه الآية:

(١) أوطاس: واد في ديار هوازن.

(٢) مكان بين مكة والطائف.

(٣) وهم ابن إسحاق فقال إنه ابن عمه، والذي في صحيح البخاري أن أبا عامر عم
أبي موسى، وهو الصحيح

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ (١)

فاستحلوا فروجهن (٢).

وقد استدلل جماعة من السلف على إباحة الأمة المشتركة بهذه الآية،
وخالفهم الجمهور فقالوا: هذه قصة عين فلعلهن أسلمن أو كن كتابيات.

(١) سورة النساء: الآية ٢٤.

(٢) رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي.

غَزْوَةُ الطَّائِفِ^(١)

أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ للمسير إلى الطائف حيث ذهب إليها مالك بن عوف رئيس المشركين في حُنين في فلول من الجيش المنهزم، وكانت الطائف مدينة محصنة لها أبواب تغلق عليها كأكثر مدن العرب في ذلك العهد، وكان أهلها ذوي دراية بحرب الحصار، وذوي ثروة طائلة جعلت حصونهم من أمنع الحصون.

فسار إليهم رسول الله في جيش كثيف في شوال سنة ثمان حتى نزل قريباً من حصونها، فضرب به عسكره، فصار أهل الطائف يرمون بالنبل من فوق حصونهم، فأصابوا عدداً من المسلمين، فتأخر إلى الموضع الذي يوجد فيه مسجد الطائف الذي بنته ثقيف لما أسلمت بعد، وكان مع رسول الله من نسائه أم سلمة وزينب بنت جحش، فضرب لهما قبتين، فكان يصلي بينهما بأصحابه، ومكث المسلمون حول الحصون بضعاً وعشرين ليلة، وقيل سبع عشرة ليلة يترامون هم وأهل الطائف بالنبال والسهم.

إسلام بعض العبيد

وأمر رسول الله من يؤذن في ثقيف: أن من خرج إلينا من العبيد فهو حر، فخرج إليهم جماعة بعد أن تسوروا الحصن، منهم أبو بكر^(٢) نُفيع بن مسروح الحبشي، وكان عبداً للحارث بن كلدة فتنّاه، فمن ثم ذكر في نسبه أنه نفيع بن

(١) الطائف بلد كثير الأعتاب والتخيل على ثلاث مراحل من مكة.

(٢) كان عبداً لآل يسار بن مالك من ثقيف، وقال الواقدي: كان مولى يسار نفسه.

الحارث. والمنبعث، ويحنس، ووردان في رهط من رقيقهم يبلغ ثلاثة وعشرين رجلاً، فأسلموا فأعتقهم رسول الله، ودفع كل واحد منهم إلى رجل من المسلمين يعوله ويحمّله. فلما قدم أهل الطائف بعد مسلمين قالوا يا رسول الله: ردّ علينا رقيقنا فقال: «لا، أولئك عتقاء الله»^(١).

الرمي بالمنجنيق واستعمال الدبابات

ثم أمر رسول الله برميهم بالمنجنيقات^(٢) وذكر ابن هشام أن رسول الله أول من رمى به، وكان أول استعمالهم له في حصار الطائف، ويقال إن سلمان الفارسي هو الذي أشار به وعمله بيده، ورأى المسلمون أن يستعملوا الدبابات^(٣) ليتوصلوا بها إلى نقب الحصن وتقويض أساسه، فيسهل عليهم الدخول والتلاقي مع الأعداء وجهاً لوجه، فدخل نفر من الصحابة تحت دبابية ثم زحفوا إلى جدار الحصن لينقبوه.

ولكن أهل الطائف كانوا من المهارة والدربة في الحرب ما أكره المسلمين على الفرار من تحتها، وعدم الاستفادة منها، ذلك أنهم أحوا قطعاً من الحديد بالنار، حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات فأحرقتها، ففرّ الجنود المسلمون من تحتها خيفة أن يحترقوا، فرمتهم ثقيف بالنبال فقتلت بعضهم، وهكذا لم تفد هذه المحاولة الجادة المبتكرة في نقب الحصون والدخول منها، وهذا يدل على لون من ألوان إعداد العدة للأعداء، وعلى مبلغ تقبل النبي والصحابة واستعمالهم لكل سلاح مستطاع في الحروب.

تقطيع الأعناب والزروع

وكانت الطائف مشهورة بزروعها وكرومها وكانت تمثل ثروة عظيمة لأهلها، فأمر رسول الله أصحابه بتقطيعها عسى أن يكون هذا حاملاً لهم على

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٤٨.

(٢) المنجنيق آلة يُرمى بها الحجارة كانت تقوم مقام المدفع اليوم.

(٣) الدبابية مشددة: آلة تتخذ للحروب، فتدفع في أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها (قاموس) وقد كانت حينذاك تكسى بالجلود الغليظة، فلذلك أحرقها كرات النار.

الاستسلام، وشرع المسلمون يقطعون الكروم ويحرقونها، فلما رأى المشركون أن المسلمين جادون أرسلوا إلى الرسول مع أبي سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة أنه إن شاء فليأخذه لنفسه، أوليدعه الله وللرحم، وكان رسول الله عطوفاً رحيماً فتركه لهم.

مشورة نوفل بن معاوية الدثلي

ولما طال حصار الطائف استشار رسول الله نوفل بن معاوية الدثلي فقال: «ما رأيك في المقام عليهم؟» فقال: يا رسول الله، ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك.

وكان رسول الله قد رأى رؤيا قصّها على صاحبه أبي بكر قال: «إني رأيت كأنني أهديت لي قعّبة مملوءة زبدًا، فنقرها ديك فهراق ما فيها»، فقال الصديق ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد، فقال رسول الله: «وأنا لا أرى ذلك». ولما غما إلى الفاروق عمر ما قاله رسول الله أنه لم يؤذن له في اقتحام ثقيف جاء إلى الرسول فقال: أو ما أذن فيهم؟ قال: «لا»، فقال: أفلا أؤذن بالرحيل؟ قال: «بلى»، فأذن بالرحيل.

وعاد رسول الله ﷺ من غير أن يفتح الطائف، ولو أن رسول الله أقام على حصارهم لاشتدّ بهم الجهد، ولاضطربوا بعد القتال إلى الاستسلام، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن يؤخر الفتح عامئذ، لئلا يستأصلوا قتلاً وأسرًا، وقد كان رسول الله - كما هو دأبه - حريصاً على عدم الإسراف في القتل وإراقة الدماء، كما كان حريصاً على هدايتهم، ولما قيل له وهم قافلون من الطائف: يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم، قال: «اللهم اهدِ ثقيفاً واكفنا مؤنتهم».

ولو أننا رجعنا القهقري إلى ما قبل الهجرة، وقد خرج إليهم داعياً إلى الله، وأن يؤوه حتى يبلغ رسالة ربه لرأينا أنهم ردوا عليه وكذبوه، وأغروا به الصبيان والسفهاء حتى رموه بالحجارة فأدموا عقبه، فرجع مغموماً لم يستفّق إلا عند قرن الثعالب، فناده جبريل فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك

وماردوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه هذا الملك وقال له: أنا رسول ربك، بعثني إليك لتأمرني فيهم بما شئت: إن شئت أطبق عليهم الأخشيش؟ - جبلين - فقال الرؤوف، الرحيم: «أرجو أن يخرج الله من أصلاهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً»^(١)، وكذلك استأنى بهم رسول الله بعد هذه القصة بنحو عشر سنين، وفك حصارهم، واستجاب الله دعاءه، فقدموا من العام المقبل في رمضان مسلمين.

* * *

(١) رواه البخاري ومسلم.

وقد هوازن واسترداد السبايا

وعاد رسول الله من حصار الطائف إلى الجِعْرانة^(١) حيث وجد الغنائم والسبايا ليقسمها، فوافاه بها وفد هوازن وقد جاؤوا مسلمين، فقالوا: يا رسول الله إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامن علينا من الله عليك، وقام إليه خطيبهم زهير بن صُرْد فقال: يا رسول الله إغما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ثم أنشده بعض الشعر.

وكان رسول الله أعرف الناس بالجميل، وأرحم الناس بكليم القلب، وكسير الجناح، فقال لهم: «نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟»، وقد كنت استأنيت بكم^(٢)، فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا، فقال رسول الله: «أما ما كان لي ولبي عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم».

فلما صلى رسول الله الظهر بالناس قاموا فقالوا مثل ما قال لهم، فقام النبي فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء

(١) بكسر الجيم والعين وتشديد الراء، وقد تسكن العين وتخفف الراء: موضع بين الطائف ومكة وهو إليها أقرب.

(٢) كان رسول الله انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، وأخر قسمة السبي عسى أن يحضروا مسلمين فيشفع لهم إسلامهم.

قد جاؤوا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يفيء الله به علينا فليفعل»، ثم قال: «ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم»، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقال الأنصار مثل ذلك، وتمنّع أناس منهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، والعباس بن مرداس، وما زال بهم رسول الله حتى أَرْضاهم.

وبذلك رَدَّتْ إلى هوازن نساؤها وذاريها بفضل النبي وبره ورحمته، وحسن كياسته وسياسته، فهو ﷺ يعلم أن العربي يضحّي بكل مال، ولا يضحّي بامرأته، وذريته، ويموت راضياً في سبيل صيانة عرضه.

وأكمل رسول الله بره وصلته، فسأل وفد هوازن عن رئيسهم مالك بن عوف، فقالوا هو بالطائف مع ثقيف فقال: «أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل»، فلما بلغ ذلك مالكا أنسل من ثقيف خفية، وركب فرسه حتى أتى رسول الله بالجعرانة، أو بمكة، فأسلم فردّ عليه رسول الله أهله وماله وأعطاه المائة، مما جعل لسانه ينطلق بمدح النبي، واستعمله النبي على من أسلم من قومه، وقد أسرت هذه المعاملة الكريمة مالكا، فكان يقاتل بمن أسلم من قومه ثقيفاً، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم.

الشيء بنت الحارث

وكان في السبایا الشيء بنت الحارث بن عبدالعزى أخت رسول الله من الرضاع، وكان بعض المسلمين قد عنف عليها، فقالت: والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدّقوها حتى أتوا بها رسول الله، فتعرّف عليها، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، وقال لها: «إن أحببت فعندي محبة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت؟» فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، فتمتعها وأعطها وردها إلى قومها ويقال: إنه أعطها غلاماً يقال له مكحول وجارية فزوجتهما، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية.

قسمة الغنائم

لما ردَّ رسول الله السبايا على هوازن وأعطى بعضهم ما أعطى من الإبل، تخوف بعض الناس ولا سيما الأعراب أن يرد إليهم أموالهم أيضاً، فآلخوا على الرسول في قسمة الغنائم حتى ألجأوه إلى شجرة هناك، وخطفوا رداءه، فقال: «ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه العضاه نَعَمًا لقسمته فيكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً»، ثم أخذ وبرة من سنام بغير ثم رفعها بين إصبعيه وقال: «أيها الناس، والله مالي من فيثكم ولا هذه البرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فادوا الخياط والمخيط، فإن الغلول^(١) عار وشنار على أهله يوم القيامة». فجعل كل من أخذ شيئاً من الغنيمة يرده ولو كان زهيداً.^(٢)

ثم خُسَّ رسول الله ﷺ الغنيمة فأخذ الخمس لنفسه، وأعطى منه أناساً أسلموا يتألفهم بذلك، وأناساً لم يسلموا ليحببهم في الإسلام، فأعطى مائة من الإبل لكل من أبي سفيان، وابنيه: معاوية ويزيد، والحارث بن هشام، وحكيم بن حزام، وكان كلما أعطاه الرسول مائة استزاده حتى قال له: «يا حكيم، إن هذا المال خَصِيرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى»^(٣). وقد أثرت هذه الموعظة في نفس حكيم، فأخذ

(١) في القاموس : «والخياط - ككتاب ومنبر-: ما خيط به الثوب والإبرة»، والغلول:

الخيانة في الغنيمة، يعني أدوا الخيط والإبرة.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

المائة وترك ما عداها، ثم قال: والذي بعثك بالحق لا أرزأ^(١) أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يعرضان عليه العطاء فلا يأخذه.

وأعطى عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس مائة، وسهيل بن عمرو، والحارث بن كلدة وغيرهم، وأعطى غير هؤلاء دون المائة كالعباس بن مرداس، فأنشأ يقول:

أتجعل نهبي ونهب العُبَيْسِ^(٢) بين عيينة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع
فقال النبي: «اقطعوا عني لسانه» فأكملوا له المائة.

وأعطى صفوان بن أمية - وكان لا يزال مشركاً - عطاء كثيراً حتى قال: ما طابت بهذا نفس أحد، وكان يقول ما زال رسول الله يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلي، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه، وكان من البواعث على إسلامه.

وكان رسول الله ﷺ يعلم أن بعض النفوس عبيد الإحسان فتألفهم بذلك، وهو ضرب من ضروب السياسة الشرعية الحكيمة، ولهذا جعل الشارع الحكيم للمؤلفة قلوبهم سهماً في الزكاة، ونِعْماً فعل الرسول، فإن كثيرين ممن لم يسلموا قد أسلموا، وكثيرين ممن أسلموا ولم تشرب قلوبهم حب الإيمان قد صاروا بعد من أجلاء المسلمين، وأعظمهم نفعاً للإسلام.

ثم قسم رسول الله الغنائم بين سائر المجاهدين فأصاب الراجل أربعة من الإبل وأربعون شاة، وأصاب الفارس ثلاثة أمثال ذلك.

(١) لا أرزأ: لا أنقص، يعني لن آخذ من أحد شيئاً.

(٢) النهب: النصيب، والعُبَيْد بضم العين على صيغة المصغر: فرسه.

اعتراض بعض المنافقين

ولما قسم النبي غنائم حنين وأعطى للمؤلفة قلوبهم ما أعطى جاء رجل من المنافقين يقال له: (ذو الخويصرة) من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدل، فقال الرسول: «ويلك، ومن يعدل إن لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إذا لم أعدل»، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ائذن لي أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ويمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية!!».

وقال معتب بن قشير - وكان منافقاً -: ما أريد بهذه القسمة وجه الله، فلما أخبر بذلك رسول الله قال: «رحم الله موسى، قد أودى بأكثر من هذا فصبر» ولم يكن رسول الله يفعل هذا لهوى نفسه، فحاشاه من ذلك، وإنما الأمر كما قال: «إني أعطي قوماً أخاف هلعمهم وجزعمهم، وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى».

معتبة الأنصار

لما أعطى رسول الله ﷺ قريشاً والمؤلفة قلوبهم وغيرهم من سائر العرب ولم يعط الأنصار، وجد بعض الأحداث منهم في نفسه وقالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؟!، فلما نمت المقالة إلى رسول الله أرسل إليهم وجمعهم في قبة وحدهم، فلما اجتمعوا قام خطيباً فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«ما حديث بلغني عنكم؟» فقال فقهاء الأنصار: أما رؤسائنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً وأما ناس منا حديثه أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله... ثم قال: «يا معشر الأنصار، ألم آتكم ضللاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، ثم قال: «ألا تحبون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وبماذا نجيبك؟ المنُّ لله ولرسوله، فقال

النبي: «والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم: جئنا طريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك، وخائفاً فأمناك، ومخذولاً فنصرناك» فقالوا: المنُّ لله ولرسوله.

فقال رسول الله ﷺ: «أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاة - شيء يسير - من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعر، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً، وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»^(١).

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا بالله رباً ورسوله قسماً، ثم انصرفوا.

فهل سمعت في باب الاسترضاء أروع من هذه الخطبة البليغة الجامعة بين الحق والصراحة، والرقّة والاستعطاف؟ وهل سمعت في تهذئة النفوس العاتية أو النائرة مثل هذه الكلمات الرقاق التي تضرب على أوتار القلوب، وتهز المشاعر، وتستولي على الوجدان؟ ومن أعجب العجب أنك لا تجد فيها كلمة مدهانة أو مخادعة، أو كلمة مزوّقة دعت إليها المجاملة، أو عدة بالوعود الكاذبة، والأمانى البراقة، كما يفعل دهاقين السياسة، وقواد الحروب، وزعماء الإصلاح ولا سيما في العصر الحديث، ولكنها النبوة التي تسمو عن كل هذا، وتأتي إلا الإذعان للحق والإقرار بالفضل لذويه.

عمرة الجمرات

واعتمر رسول الله ﷺ وأصحابه بعد قسمة الغنائم من الجمرات في أواخر ذي القعدة هذا العام، ودخل مكة بليل، فطاف وسعى ثم تحلل من عمرته، ثم

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة الطائف، وصحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب إعطاء المؤلف قلوبهم.

عاد هو وأصحابه من المهاجرين والأنصار إلى المدينة وقد دانت لهم مكة وما جاورها ومن الله عليهم بهذا النصر العظيم.

عتاب بن أسيد

وقد استعمل على مكة عتاب بن أسيد^(١) وكان عمره نيفاً وعشرين سنة، وأخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس في دينهم، ويعلمهم القرآن. ولما ولاء رسول الله مكة جعل رزقه كل يوم درهماً، فقام فخطب الناس فقال: أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقني رسول الله كل يوم درهماً، فليست لي حاجة إلى أحد. وهذا غاية القناعة، وكان متعففاً عن أموال المسلمين، روي عنه أنه قال: ما أصبت في عملي هذا الذي ولاني رسول الله ﷺ إلا ثوبين معقدين^(٢) كسوتها مولاي كيسان، وقد بقي والياً على مكة مدة الصديق، ثم في خلافة عمر إلى سنة اثنتين وعشرين فتوفاه الله^(٣).

الحج هذا العام

وحج الناس في هذا العام على ما كانت العرب تحج وكان أمير الحج في هذا العام عتاب بن أسيد.

(١) عتاب - بتشديد التاء - ابن أسيد - بفتح أوله وكسر السين - ابن أبي العيص بن أمية بن عبدشمس الأموي أبو عبد الرحمن، ويقال: أبو محمد، وأمه زينب بنت عمرو بن أمية، وقد أسلم يوم الفتح كما ذكرنا. وقد استعمله النبي على مكة بعد أن رجع من الطائف، وقيل لما سار إلى حنين واستمر والياً عليها حتى مات.

(٢) الثوب المعقد: نوع من ثياب هجر.

(٣) الإصابة ج ٢ ص ٤٥١.

إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى

كان كعب ممن أهدر النبي دماءهم لكثرة هجائه لرسول الله والمسلمين، فلما آب النبي إلى المدينة بعد غزوة الطائف كتب بُجير بن زهير إلى أخيه كعب أن رسول الله لا يقتل من جاء تائباً مؤمناً، فإذا جاءك كتابي هذا فأسلم وأقبل.

وبعد مطارحة شعرية بينهما خرج كعب قاصداً المدينة، فنزل على رجل كان بينه وبينه معرفة من جهينة، فغدا به إلى رسول الله في صلاة الصبح، فلما فرغ من صلاته قال له صاحبه: هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه، فقام كعب إلى رسول الله فجلس إليه، ووضع يده في يده - وكان رسول الله لا يعرفه - فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء يستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن جئتك به؟ قال: «نعم»، فقال: إذا أنا يا رسول الله كعب، فوثب إليه رجل من الأنصار مستأذناً رسول الله أن يضرب عنقه، فقال له: «دعه عنك فإنه جاء تائباً مسلماً»، فمن ثم وجد على الأنصار في نفسه، ولم يذكرهم بشيء في قصيدته. بل يقال: إنه عرض بهم في بعض شعره.

ثم أنشد رسول الله ﷺ قصيدته المشهورة الطويلة ومطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	مُتِمَّ إثرها لم يُفَدَ مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا	إلا أغنَّ قرير العين مكحول

ومنها:

إنَّ الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

في عصبه من قريش قال قائلهم يبطن مكة لما أسلموا زولوا
شُمُ العرانيين أبطال لبؤسهم من نسج داود في الهييجا سرايل

ويقال إنه لما أنشد رسول الله قصيدته أعطاه برده، وهي التي صارت إلى
الخلفاء؛ قال ابن كثير: هذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أر ذلك في شيء
من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه فالله أعلم.

قال ابن هشام: ويقال إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده: بانت: «لولا
ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل»، وكانت هذه إيماءة كريمة من رسول الله بعد
أن أحس غضب الأنصار عليه، فقال يمدح الأنصار:

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالحى الأنصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر إن الخيار همو بنو الأخيار
ومنها:

والبائعين نفوسهم لنبيهم للموت يوم تعانق وكرار

تشريعات وأحداث في هذا العام

في هذا العام حُرِّمَت المتعة تحريماً باتاً إلى يوم القيامة.

وفي ذي القعدة منها تزوج رسول الله فاطمة بنت الضحاك الكلابية، فاستعازت بالله منه فقال لها: «لقد عُذْتُ بعظيم، الحقي بأهلك»، وقد أدركها الندم فيها بعد وكانت تقول: أنا الشقية. وقيل إن رسول الله دخل بها، فلما خيّر نساءه اختارت قومها ففارقها، ورد هذا ابن عبد البر، واحتج لذلك بما ثبت في الحديث الصحيح عن عائشة أن النبي لما خيّرهن بدأ بها فاختارته، وتتابع أزواج رسول الله كلهن على ذلك.

إسلام أبي العاص بن الربيع

قدمنا أن أبا العاص بن الربيع صهر رسول الله كان أسير في بدر، فأرسلت السيدة زينب زوجها في فدائه قلادة قلدها إياها أمها السيدة خديجة، فلما رآها رسول الله رَقَّ لها رقة شديدة وقال: «إن شئتم أن تردوا عليها قلادتها وتطلقوا لها أسيرها فافعلوا»، ففعلوا، وأخذ عليه الرسول عهداً أن يرسل إليه ابنته، فوفَّى بالعهد، وكان ما كان من ترويع هُبَّار بن الأسود لها وكانت حاملاً فأجهضت.

واستمرت السيدة زينب عند النبي، وبقي زوجها على كفره بمكة، حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص في تجارة لقريش، فلما قفل من الشام لقيته سرية، فأخذوا مامعه وأعجزهم هرباً، وجاء تحت جنح الليل إلى زوجته زينب فاستجار بها فأجارته، فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الصبح وكَبُرَ وكَبُرَ الناس؛ صرخت من صُفَّة النساء: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

فلما سلم رسول الله ﷺ على الناس فقال: «أما والذي نفس محمد بيده

ما علمت من شيء حتى سمعت ما سمعتم، وإنه يجير على المسلمين أديانهم»، ثم انصرف إلى ابنته زينب فقال: «أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له»، ثم حث رسول الله أصحابه على رد ما كان معه، فردوه بأسره، فأخذه أبو العاص وذهب به إلى مكة فأعطى كل ذي حق حقه، ثم قال لهم: هل بقي لأحد منكم عندي مال يأخذه، قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفيّاً كريماً قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنني إنما أردت أن آكل أموالكم، فقد أداها الله إليكم. ثم خرج حتى قدم المدينة.

وقد اختلفت الرواية في رد رسول الله إليه زوجته زينب أكان بالنكاح الأول، أم بنكاح ومهر جديدين؟ فالذي رواه ابن إسحاق عن ابن عباس أنه ردها بالنكاح الأول، وهو ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وروى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه أن رسول الله رد بنته على أبي العاص بمهر جديد ونكاح جديد، ولكن قال فيه الإمام أحمد: إنه حديث ضعيف، والحديث الصحيح الذي روى أن النبي ﷺ أقرها على النكاح الأول، والأول وإن كان صحيحاً إلا أن العمل عند الفقهاء على الثاني، فإن القاعدة عندهم أن المرأة إذا أسلمت وزوجها كافر فإن كان قبل الدخول تعجلت الفرقة، وإن كان بعده انتظر إلى انقضاء العدة، فإن أسلم فيها استمر على نكاحها، وإن انقضت ولم يسلم انفسخ نكاحها، والسيدة زينب انقضت عدتها ولا محالة فقد نزل تحرير المسلمات على المشركين عام ست، وأبو العاص أسلم سنة ثمان.

ويعجني في هذا الموضوع قول بعض العلماء: إن في قضية زينب والحالة هذه دليل على أن المرأة إذا أسلمت وتأخر إسلام زوجها حتى انقضت عدتها فنكاحها لا ينفسخ بمجرد ذلك، بل يبقى بالخيار إن شاءت تزوجت غيره، وإن شاءت تربصت وانتظرت إسلام زوجها أي وقت كان، وهي امرأته ما لم تتزوج، وهذا القول فيه قوة وله حظ من جهة الفقه والله أعلم^(١).

(١) البداية والنهاية، ج ٤ ص ٣٣٢، ٣٣٣.

وفاة السيدة زينب

وفي هذا العام توفيت السيدة زينب بنت رسول الله وزوج أبي العاص بن الربيع، ولدت قبل المبعث بعشر سنين، وكانت أكبر بناته ﷺ تليها رقية ثم أم كلثوم، ثم فاطمة رضي الله عنهن، كان رسول الله محباً لها، أسلمت قديماً ثم هاجرت قبل إسلام زوجها بست سنين، وكانت قد أجهضت في هجرتها كما أسلفنا ثم نزلت، وصار المرض يعاودها حتى توفيت رضي الله عنها ولذا كان رسول الله يقول: «هي خير بناتي، أصيبت في»، ولما ماتت قال رسول الله: «اغسلنها وتراً: ثلاثاً، أو خمساً، واجعلن في الآخرة كافوراً»^(١).

وكانت ولدت من أبي العاص علياً، ثم مات وقد ناهز الاحتلام، وأمامة وهي التي كان يحملها رسول الله وهو يصلي كما في الصحيحين، ولما كبرت تزوجها سيدنا علي بن أبي طالب بعد موت خالتها فاطمة، ثم تزوجت بعد علي المغيرة بن نوفل بن الحارث، فولدت له يحيى، وقيل إنها لم تلد لعلي ولا للمغيرة، ولذلك قال الزبير: ليس لزينب عقب.

مولد إبراهيم ابن النبي

وفي ذي الحجة من هذا العام ولد إبراهيم ابن النبي من السيدة مارية القبطية التي كان أهداها له المقوقس عظيم مصر، ففسراها، حتى ولدت له، فصارت أم ولد، وأنزلها منزلة الأزواج، وكان رسول الله قد رزىء بفقد أولاده الذكور صغاراً كما رزىء بفقد رقية وهو بيدر، ثم ب وفاة زينب سنة ثمان، لذلك لا تعجب إذا كان رسول الله ﷺ قد فرح بمولد إبراهيم فرحاً شديداً، وخرج إلى أصحابه فبشرهم قائلاً: «ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم»، ولدته مارية بالعالية حيث كانت تقيم في الموضع الذي يقال له اليوم مشربة إبراهيم، وكانت قابلة مارية سلمى مولاة النبي امرأة أبي رافع، فبشّره أبو رافع النبي فوهب له عبداً.

(١) الكافور: نبت طيب الرائحة، وهو فضلاً عن كونه يطيب الميت يجفف جسمه ويجعله صلباً متماسكاً، ويمنع إسراع الفساد إليه.

وفي اليوم السابع عتق عنه بكبش، وحلق رأسه أبو هند، وتصدق بوزن شعره وِرقاً^(١) على المساكين، ثم دفعه رسول الله إلى أم سيف امرأة قين بالمدينة يقال له: أبو يوسف لترضعه، وكان النبي ﷺ ينطلق إلى بيت مارية كل يوم فيأخذها ويقبله، وتنافست نساء الأنصار في إرضاعه، فكان النبي ﷺ يجاملهن ولا يرد لهن طلباً، كما كان يغدق على من ترضعه الكثير من خيره وبره، وأرصد لذلك قطعة من الغنم واللحاح فتروح كل ليلة على بيت من ترضعه فتشرب من لبنها وتسقي رضعها حتى لقد أثار ذلك مكامن الغيرة في نفوس أزواجه.

ورسول الله بشر وإنسان، والأولاد ولا سيما البنين الصالحين ذكر باق بعد الموت، وحياة موصولة لحياة الآباء، فليس يبدع أن يهفو قلبه إلى إبراهيم، وأن يحل إبراهيم من نفس النبي هذه المنزلة، وأن يرى فيه العزاء والسلوى وهو في سن الستين عن فقد الأحبة قبل البعثة وبعدها، وأن يملأ إبراهيم جانباً من جوانب القلب الإنساني الكبير.

سرية بني المصطلق

وبعث الرسول ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط لأخذ صدقات بني المصطلق، فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين السلاح تحية أثناء قدومه، ومعهم إبل الصدقة فلما رآهم الوليد هابهم وظن أنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم من عداوة في الجاهلية، فرجع مسرعاً إلى المدينة وأخبر الرسول بما ظن، فأرسل الرسول ﷺ خالد بن الوليد في سرية لتعرف حقيقة أمرهم، فسار إليهم حتى ديارهم، وكمن بالقرب منهم ليلاً، فإذا بمؤذنين يؤذن للصلوات، فأتاهم خالد فلم ير منهم إلا الطاعة، فأخذ الصدقات وعاد إلى المدينة وأخبر الرسول بخبرهم.

وفي هذه الواقعة أنزل الله هذا التأديب الإلهي في قوله تعالى:

(١) الورق بكسر الراء: الفضة.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ
فَتُصِيحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ تَنِيدًا﴾ (١).

وهذه الآية أصل في الثبوت في الأخبار، واشترط العدالة في الرواة،
والبحت عن أحوالهم حتى كان من ذلك علم (الجرح والتعديل) في الإسلام.

(١) سورة الحجرات: الآية ٦.

السَّنةُ التَّاسِعَةُ مِنَ الْهِجْرَةِ

سرية لطيء

في ربيع الأول من هذا العام أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في خمسين فارساً لهدم (الفلس)^(١) صنم لطيء، فسار إليه وهدمه وأحرقه، ولما حاربه عباده هزمهم واستاق نَعَمهم وشاءهم، وسبى منهم سبايا فيهن «سفانة»^(٢)، بنت حاتم الطائي المشهور.

ولما رجع إلى المدينة جعلت سفانة في حجرة عند باب المسجد كان السبايا تقيم فيها، فلما مر بها رسول الله قامت إليه فقالت: يا رسول الله: هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ من الله عليك، فقال لها: «ومن وافدك؟» قالت: عدئي بن حاتم، قال: «الفار من الله ورسوله؟» ثم مضى وتركها، فكررت هذا من الغد، وبعد الغد، فمَنَّ عليها وقال: «لا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم أذنيني».

فلما أعلمته بأنها وجدت رفقة ثقة كساها وحملها وأعطاهها نفقة، فشكرت النبي على هذا الجميل، وكان مما قالت: «شكرتك يد افتقرت بعد غني؛ ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لثيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبياً لردها عليه».

(١) في القاموس: الفلس بالكسر صنم لطيء.

(٢) سفانة بفتح السين وتشديد الفاء كما في القاموس.

ثم ارتحلت حتى قدمت على أخيها عدي بالشام، لأنه لما سمع بخيل رسول الله ﷺ احتمل بأهله وولده وتركها وفرَّ إلى الشام، فلما وصلت إليه وبخته على صنيعه، فلم يجد ما يعتذر به، ثم أخبرته بما لقيت من رسول الله من كرم وحسن معاملة، وقالت له: أرى أن تلحق به سريعاً، فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فانت أنت، فما كان منه إلا أن أخذ بمشورتها، وقدم على النبي، ثم أسلم كما سنذكره إن شاء الله أثناء الوفود.

غزوة تبوك (١)

وكانت في رجب في العام التاسع، وكان سببها ما بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت له الجموع تريد غزوه في بلاده، وكان من سياسة رسول الله الحكيمة أنه إذا علم أن قوماً هموا بغزوه أن يبادئهم قبل أن يغزوه وكان قلماً يخرج لغزوة إلا ورى بغيرها؛ ليعمى الأخبار على الأعداء، إلا في هذه الغزوة فإنه أخبر بمقصده، لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو، حتى يأخذ الناس لذلك عدتهم.

وقد اتفق أن كانت هذه الغزوة في زمان عسرة من الناس، وجذب في البلاد، وشدة الحر، كما كانت حين طابت الثمار، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، لذلك أمر الرسول بالتجهز، واستنفر لذلك أهل المدينة وما حولها، وأهل مكة وما جاورها، واستنفر أيضاً الأعراب الضاربين في الجزيرة العربية ممن أسلموا، كي يتكون من ذلك أكبر جيش يمكن إعداده لمقاتلة الروم، ذوي العدد والعدة، والدربة في الحروب.

الحث على تجهيز الجيش

وحث رسول الله على البذل والإنفاق في سبيل الله فقال: «من جهز جيش العسرة فله الجنة»، وتسابق الخيرون في هذا المضمار، فتبرع عثمان بن عفان

(١) تبوك: موضع معروف في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق.

رضي الله عنه بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها^(١)، وبألف دينار^(٢) جاء بها فصبها في حجر النبي ﷺ فجعل يقلبها ويقول: «اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض»، ويقول: «ما على عثمان ما عمل بعد اليوم»^(٣).

وجاء أبو بكر الصديق بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم فقال له الرسول: «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبدالرحمن بن عوف بمائة أوقية من ذهب، وجاء العباس وطلحة بمال كثير، وجاء عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، وجاء أحد الأنصار بصاع من تمر^(٤)، وأرسلت النساء ما استطعن من خلي. وهكذا ضرب المسلمون أروع ألوان التضحية والبذل، وتكاثر الراغبون في الجهاد على رسول الله ﷺ يبعثون الظَّهر والنفقة حتى لم يبق لديه شيء.

البكاؤون

وجاء جماعة إلى رسول الله وكانوا سبعة يسألونه ما يحملهم عليه فلم يجدوا، فرجعوا وهم يبكون أسفاً وحزناً على ما فاتهم من شرف الجهاد مع رسول الله، والمساهمة في النفقة فيه، وقد عذَّروهم الله حيث قال:

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ

(١) الأحلاس: جمع حلس وهو كساء يوضع على ظهر البعير تحت الرحل. الاقتاب: جمع قتب وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب.

(٢) وأما رواية عشرة آلاف دينار فسندها واه كما قال الحافظ، ولعلها كانت بعشرة آلاف درهم فتوافق الروايتان.

(٣) رواه أحمد والترمذي.

(٤) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ٤ ص ٢١٢.

مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا
مَا يُنْفِقُونَ ﴿١﴾.

وقد روي أن يامين بن عمرو جهز اثنين، وجهز عثمان ثلاثة، والعباس
اثنين (٢).

وإن لنا هنا لوقفة ترينا كيف بلغ حب الجهاد والبذل في سبيل الله في
نفوس الصحابة، وأنهم كانوا يؤثرون رضاء الله ورسوله على كل محبوب لديهم،
وبهذه المعاني والخصائص النفسية فتحوا العالم وسادوا الدنيا.

خروج الجيش

ثم خرج رسول الله ﷺ يوم الخميس في جيش كثيف يزيد عن الثلاثين
ألفاً، يتقدمهم عشرة آلاف فارس في مشهد مثير يستولي على المشاعر، ويستهي
القلوب، ويثير العزائم حتى وصل إلى ثنية الوداع حيث عسكر هناك، وضرب
عبدالله بن أبي عسكره أسفل من عسكر النبي، وقد استخلف النبي على
المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري وقيل: سباع بن عرفة الغفاري، واستخلف
على أهله علي بن أبي طالب، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استقالاً
له حتى قال علي لرسول الله: أتخلفني في النساء والصبيان؟ فقال له: «ألا ترضى
أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» رواه البخاري
ومسلم.

تخلف المنافقين وتخذيلهم عن الرسول

ثم لم يلبث ابن أبي أن تخلف وتخلف معه كثير من المنافقين، وقال
بعضهم: يغزو محمد بني الأصفر - الروم - مع جُهد الحال والحر والبلد
البعيد!! أيجسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب!! والله لكأني أنظر إلى

(١) سورة التوبة: الآيتان ٩١، ٩٢.

(٢) نور اليقين، ص ٢٤٦.

أصحابه مقرّنين في الجبال!! وتعلّل بعضهم بالتعلّلات الباطلة من بعد الشقة
وشدة الحر، وهم الذين ذكرهم الله في قوله:

﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(١)

وقوله:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ
الشُّقَّةُ...﴾^(٢) الآية.

ومن هؤلاء الجدّ بن قيس، فقد قال له الرسول: «يا جدّ هل لك العام في
جلاد بني الأصفر» فقال: يا رسول الله، أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف
قومي أنه ما من رجل بأشدّ عجباً بالنساء مني، وإني خشيت إن رأيت نساء بني
الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه الرسول.

تحريق بيت سويلم

وبلغ رسول الله أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي
يشبطون الناس عن رسول الله في غزوة تبوك، فبعث إليهم طلحة بن عبيدالله في
نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة، فاقتحم
بعضهم من ظهر البيت فانكسرت رجله، وأفلت الآخرون.

المعتذرون

وجاء قوم من المنافقين يعتذرون إلى رسول الله ﷺ ليس لهم عذر، وإنما
هو النفاق والشك وكراهية الجهاد، فأذن لهم بناء على ظاهر حالهم، ولكن الله
عاقبه على الإذن لهم فقال:

﴿عَقَّا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
الْكَاذِبِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ تَرَدَّدُونَ﴾^(٣).

(١) سورة التوبة: الآية ٨١.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٢.

(٣) سورة التوبة: الآيات ٤٣ - ٤٥.

وفي شأن المنافقين المتخلفين عن تبوك أنزل الله آيات كثيرة في سورة التوبة، وسنعرض لهم فيما بعد.

المتخلفون من غير نفاق

وتخلف جماعة من المسلمين لا يهتمون في إيمانهم، ولكن عن كسل، وميل إلى الراحة، منهم الجماعة الذين ربطوا أنفسهم في سوارى المسجد، ومنهم الثلاثة الذين خُلّفوا، وسنعرض لهم فيما يأتي ومن المتخلفين من تدارك أمره، فلتحق بالرسول في الطريق أو في تبوك.

مسيرة الجيش إلى تبوك

ثم سار الرسول قاصداً تبوك، وأعطى اللواء الأعظم الصديق أبا بكر رضي الله عنه ولا يخفى على القارئ الفطن ما في إعطائه ﷺ اللواء في آخر غزوة غزاها الصديق، وتخليفه علياً في أهل بيته من إشارة لطيفة إلى أن الصديق أحق الصحابة بالخلافة. ووزع الرسول الرايات، فأعطى الزبير بن العوام راية المهاجرين، وأسيد بن حضير راية الأوس، والحباب بن المنذر راية الخزرج.

وسار الجيش في جهد شديد من قلة الظهر، حتى كان الرجلان والثلاثة يعتقبون على بعير واحد، ومن قلة المؤنة حتى كان الرجلان والثلاثة يقتسمون التمرة فيما بينهم، حتى استأذنوا رسول الله أن ينحروا رواحلهم فيأكلون منها، فأذن لهم، فجاء الفاروق عمر فقال: يا رسول الله إن فعلنا قلَّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادعُ الله لهم فيها بالبركة، فقال الرسول: «نعم» ودعا ينقطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم حتى اجتمع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله بالبركة ثم قال: «خذوا في أوعيتكم»، فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوها، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقي الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة»^(١).

(١) رواه مسلم والبيهقي، عن البداية والنهاية ج ٥ ص ١٠.

وأصيبوا بعسرة في الماء حتى عطشوا عطشاً شديداً كادت تنقطع منه رقابهم، حتى كان الرجل منهم ينحر بغيره فيعتصر ما في كرشه من ماء فيشربه، ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع الله لنا. فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعها حتى أمطرت السماء، فشربوا وملأوا ما معهم، ثم ذهبوا فنظروا فلم يجدوها جاوزت العسكر. وقد ذكر ابن إسحاق أن هذه القصة كانت وهم بالحجر، وأنهم قالوا لرجل معهم منافق: ويحك هل بعد هذا من شيء؟ فقال: سحابة مارة!!

وهكذا لم ينفك المنافقون عن شكهم وإرجافهم، بل قال بعضهم — يقال إنه زيد بن نصيب^(١) — وقد ضاعت ناقة رسول الله: هذا محمد يخبركم أنه نبي ويخبركم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقتة؟ فقال الرسول: «إني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، هي في الوادي، حبستها شجرة بزمامها» فانطلقوا فوجدوها كما أخبر الرسول فجاؤوا بها.

وقد دُلَّ النبي بمقالته تلك على أنه نبي حقاً يوحى إليه، وهكذا الأنبياء لا يعلمون إلا ما علمهم الله سبحانه، ولا يزعمون لأنفسهم علم الغيب، وإنما ذلك شأن المشعوذين والدجالين، أما زيد بن النصيب فقليل: إنه تاب، وقيل: ما زال منافقاً حتى هلك.

كن أبا خيشمة

وكان أبو خيشمة رضي الله عنه ممن تخلف من غير عذر، فرجع بعد ما سار رسول الله إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في بستان له، وقد رشَّت كل واحدة منهما عريشها، وبردت فيه ماء، وهيأت فيه طعاماً، فلما رأى ذلك قال: رسول الله ﷺ في الضح^(٢)، والريح، والحر، وأبو خيشمة في

(١) في الإصابة: زيد بن لصيب بلام مهملة ومثناة مصغراً، وقيل بنون في أوله وآخره موحدة يعني باء، ثم ذكر عن ابن إسحاق قصته هذه في تبوك (الإصابة ج ٤ ص ٥٧١).

(٢) الضح بكسر الضاد: الشمس وضوؤها (قاموس).

ظل بارد، وطعام مهياً، وامرأة حسناء، في ماله مقيم!! ما هذا بالنصف، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله، فهيئاً زاداً ففعلتا.

ثم ركب راحلته ولحق برسول الله حين نزل بتبوك، فلما دنا من الجيش قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل. فقال رسول الله: «كن أبا خيثمة» فنظروا فإذا هو أبو خيثمة. فسلم على الرسول وأخبره خبره، فدعا له بخير. وكذلك لحق برسول الله عمير بن وهب الجمحي^(١).

كن أبا ذر

لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل الرجل يتخلف عنه فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم. وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه». حتى قيل يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيه، فقال مقالته تلك.

فتلوم - انتظر - أبو ذر بعيه، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحملة على ظهره، ثم خرج يتبع رسول الله ماشياً، ونزل رسول الله في بعض منازلهم، ونظروا فإذا رجل ماش على الطريق، فقال رسول الله: «كن أبا ذر» فتأمله القوم فإذا هو أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

وقد صدقت نبوءة الرسول، ففي عهد عثمان خرج إلى الربرة^(٢) وأقام بها حتى مات، فلما حضرته الوفاة أوصى امرأته وغلामه فقال: إذا أنا مت فاغسلاني، وكفناني، وضعاني على الطريق، فأول ركب يمر فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ. فلما مات فعلوا به كذلك، فإذا ابن مسعود مار في رهط من الكوفة، فقال: ما هذا؟ ف قيل له: جنازة أبي ذر، فبكى وقال: صدق رسول الله «يرحم الله أبا ذر...» ونزل فتولى دفنه بنفسه.

(١) البداية والنهاية ج ٥ ص ٧، ٨.

(٢) الربرة: على وزن قصة: مكان على الطريق بين المدينة والعراق، على ثلاثة أيام من المدينة.

النزول بالحِجْر

ولما مرَّ رسول الله بالحِجْر - ديار ثمود - قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم مثل ما أصابهم» ثم قَنَعَ (١) رأسه وأسرع السير حتى أجازوا الوادي (٢).

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال: نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك الحِجْر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجيين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُدُّوا فقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم». وذكر ابن إسحاق نحو ذلك وكذا البخاري في صحيحه، وهكذا لا يجد النبي فرصة للاعتبار إلا ذكَّروهم وحذَّروهم.

انسحاب الروم

ولما وصل جيش المسلمين تبوك لم يجد أحداً هنالك، لأن الروم لما بلغهم مسير هذا الجيش الذي يؤثر الموت على الحياة أثروا الانسحاب إلى بلاد الشام ليتحصنوا بحصونهم، فلم ير النبي داعياً لتبعضهم داخل بلادهم، وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن يناجزه ويقاومه.

وفود صاحب أيلة وأهل جرباء وأذرح (٣)

وأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضعة عشر يوماً، ليريه أن سلطان الله في الأرض لا يرهب أحداً، وليؤمن الحدود الشمالية بمعاهدة المجاورين له.

(١) قَنَعَ رأسه: غطاها بثوبه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) أيلة بفتح الهمزة وسكون الياء: قرية بين الحجاز والشام على خليج العقبة. والجرباء: قرية من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام. أذرح بفتح الهمزة وسكون الدال، وضم الراء آخره حاء مهملة: بلد في أطراف الشام من نواحي البلقاء مجاورة لأرض الحجاز، وهي قرية من الجرباء.

وكان يُحنة بن رؤية^(١) صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود قد أتى إلى رسول الله وصالحه وأعطاه الجزية، فأمنه وكتب له كتاباً.

وأتاه أهل جرباء وأذرح وصالحوه أيضاً وأعطوه الجزية، فأمنهم وكتب لهم كتاباً.

وأهدى صاحب أيلة النبي ﷺ بغلة بيضاء، وكساه برداً، وكتب له ببحرهم أي ببلدهم^(٢).

كتاب رسول الله ليحنة

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤية وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يُمنعوا ماء يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر» وأعطاهم النبي برده مع كتابه زيادة في الأمان لهم.

كتاب أهل جرباء وأذرح

«بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد النبي رسول الله لأهل جرباء وأذرح: إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب، ومائة أوقية طيبة. وإن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين».

بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر

وبهذه العهود أمن النبي هؤلاء، وأمن مجيء الروم من ناحيتهم، ولم يبق

(١) يحنة - بضم أوله وفتح الباقي - ابن رؤية: بضم الراء وسكون الهمزة وفتح الباء في آخره تاء: ملك أيلة كما في القاموس.

(٢) رواه البخاري.

إلا أكيدر دومة^(١)، فيخشى انتفاضه أو معاونته لجيوش الروم إذا جاءت من ناحيته، فأرسل إليه الرسول ﷺ خالد بن الوليد في خمسمائة فارس وأخبره بأنه سيجده يصطاد البقر، فذهب إليه خالد فإذا أكيدر وأخوه حسان في نفر من أهل بيته يصطادون بقر الوحش ليلاً، فلم يجدوا مقاومة تذكر، فقتلوا أخاه وأسروا أكيدراً، وكان عليه قباء من ديباح - حرير - مخوص بالذهب^(٢)، فاستلبه خالد منه وأرسل به إلى رسول الله قبل قدومه عليه، فصار الصحابة يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه، فقال الرسول لهم: «أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا».

ثم قدم خالد بأكيدر على رسول الله فحقن دمه وأمنه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله. وذكر بعض الكاتين في السيرة أنه أسلم^(٣)، وقد اختلف الكاتبون في تاريخ الصحابة في إسلامه وعدمه، والراجح أنه لم يسلم^(٤) وقيل إنه أسلم ثم ارتد.

الأوبة إلى المدينة

وبعد أن أقام النبي بتبوك مدةً استشار أصحابه في مجازة تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام، فقال الفاروق عمر: إن كنت أمرت بالسير فسر، فقال عليه الصلاة والسلام: «لو كنت أمرت بالسير لما استشرت» فقال عمر: يا رسول الله إن للروم جمعاً كثيرة، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك، فلورجعنا في هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً، فاستجود النبي رأيه، واتبع مشورته بالرجوع إلى المدينة، فعادوا حامدين شاكرين.

(١) دومة هي المعروفة بدومة الجندل بين المدينة ودمشق، وأكيدر: على صيغة المصغر هو ابن

الملك الكندي ملكها.

(٢) مخوص: مزين بالذهب.

(٣) حياة محمد ص ٤٤٤.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ١٢٥ - ١٢٨.

ونعماً أشار به الفاروق، فإنه ربما يكون من المخاطرة الحرب في بلاد الشام، مع أن الجزيرة لم تكن أسلمت أو استسلمت كلها، وقد تمّ ذلك بعد تبوك. قدمت ثقيف مسلمة ومذعنة في هذا العام وما بعده حتى صارت الجزيرة كلها على قلب رجل واحد، وبذلك حصل التهيؤ للجهد والفتوحات خارج الجزيرة وتبليغ الإسلام للناس كافة، وهذا ما قام به الخلفاء الراشدون بعد وفاة الرسول ﷺ.

موت ذي البجادين^(١)

وفي طريق الأوبة مات عبدالله ذو البجادين، فحفروا له ونزل رسول الله في حفرته، وأبو بكر وعمر يدلّيانه إليه. وإذا هو يقول: «أدنيا لي أخاكما» فدلّياه فلما هياها لشقه قال «اللهم إني قد أمسيت راضياً عنه فأرض عنه».

مكيدة بعض المنافقين

كان بعض المنافقين في الأوبة تأمروا على رسول الله أن يزحموه في الطريق وهو على رأس عقبة - مكان عال - ولكن الله عصمه منهم. روى البيهقي عن حذيفة بن اليمان قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله، وعمار يسوق الناقة، حتى إذا كنا بالعقبة إذا باثني عشر رجلاً قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهت رسول الله ﷺ فصرخ فيهم، فولّوا مدبرين، فقال رسول الله: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا، يا رسول الله، قد كانوا متلثمين، قال: «هؤلاء المنافقون يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟» قلنا: لا، قال: «أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة فيلقوه منها!!» قلنا: أولا تبعث إلى عشائهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن يتحدث العرب أن محمداً قاتل بقومه حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم» ودعا عليهم.

(١) البجاد بكسر الباء وبالجيم هو الكساء الغليظ المخطط، كان يريد الإسلام فمنعه قومه وضيقوا عليه حتى خرج من بينهم وليس عليه إلا بجاد فشقه اثنين، فانتزروا واحد وارتدّى بالآخر وقدم على رسول الله فقتل له: ذو البجادين لذلك.

وروى الإمام أحمد في مسنده نحو ذلك وزاد: أن عماراً صار يضرب
وجوه رواحلهم ينحيها عن رسول الله حتى قال: (قد، قد) يعني كفى، كفى،
وهم الذين عناهم الله بقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ أُولَئِكَ يَمُوتُونَ﴾^(١) يعني قتل
الرسول.

(١) سورة التوبة: الآية ٧٤.

هدم مسجد الضرار وتحريقه

كان أبو عامر الراهب ممن حمل لواء العداوة لرسول الله من أول يوم قدم فيه المدينة. وقد دعاه رسول الله إلى الإسلام، وقرأ عليه القرآن فأبى، وقد كان يسمى الراهب لتنصره وترهبه في الجاهلية، فلما أبدى عداوته لله ورسوله قال النبي: «لا تقولوا: الراهب، بل قولوا: الفاسق». وقد دعا عليه النبي أن يموت بعيداً طريداً فأصابته الدعوة، وهو الذي ألّب قريشاً على المسلمين في أحد، وحفر الحفائر في ميدان المعركة كي يقع فيها المسلمون.

ولم يكف عن محاربة الرسول بعد أحد، فلما رأى أمر الرسول في ارتفاع وظهور، ورأى النصر يتوالى عليه ولا سيما بعد حنين وهزيمة هوازن، فر إلى هرقل ملك الروم يستنصر به، فوعده ومنأه وأقام عنده، فكتب إلى جماعة من المنافقين بالمدينة يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم عليهم بجيش يقاتل به رسول الله، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لتبليغ كتبه، ويكون مرصداً لهم إذا قدم عليهم بعد ذلك.

فشرعوا في بناء هذا المسجد وكانوا اثني عشر رجلاً، منهم: خذام بن خالد ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب^(١)، ومعتب بن قشير،

(١) أو ابن أبي حاطب كان من المنافقين، وهو الذي روي أنه منع الزكاة لما اغتنى وترك الجمعة والجماعة فنزل فيه قوله تعالى: ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ الآيات من سورة التوبة، وهو غير ثعلبة بن حاطب الأنصاري من بني أمية بن زيد وهو من أهل بدر، وذكر ابن الكلبي أنه مات بأحد، وقد نبه إلى ذلك الحافظ ابن حجر في الإصابة (ج ١ ص ١٩٨) وساق أدلة على ذلك، وقد وهم ابن إسحاق حيث عدّ الثاني ممن بنى مسجد الضرار وهم ابن عبد البر في الاستيعاب حيث نسب إليه القصة السابقة.

ونبتل بن الحارث، ومجمع بن جارية وهو الذي كان يصلي بهم فيه^(١). فلما فرغوا من بنائه وأحكموه جاؤوا إليه ﷺ وهو يتجهز لتبوك وسألوه أن يصلي لهم فيه ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره واعتباره، وذكروا للنبي أنه بنوه لذي العلة والحاجة والليله المطيرة، والليله الباردة، فعصمه الله من الصلاة فيه وقال: «أنا على جناح سفر، ولكن إذا رجعنا - إن شاء الله - أتيناكم فصلينا لكم فيه».

فلما رجع النبي من تبوك، ولم يبق بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، وما أراد به بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين، فدعا رسول الله مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وقيل أخاه عاصماً وقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه» فذهبا فحرقاه وهدماه.

وفي هذا نزل قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِّلْمَسْجِدِ أُسُسٌ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾^(٢).

ولا يزال أعداء الإسلام من المنافقين الملحدين والمبشرين والمستعمرين يقيمون أماكن باسم العبادة وماهي لها، وإنما المراد بها الطعن في الإسلام وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وآدابهم، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدرس والتعليم ليتوصلوا بها إلى بث سمومهم بين أبناء المسلمين، وصرفهم عن دينهم، وكذلك يقيمون المنتديات باسم نشر الثقافة والغرض منها خلخلة العقيدة

(١) سيرة ابن هشام ج ٢١ ص ٥٣٠.

(٢) سورة التوبة: الآيتان ١٠٧، ١٠٨.

السليمة من القلوب، والقيم الخلقية من النفوس، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحة والخدمة الإنسانية والغرض منها التأثير على المرضى والضعفاء وصرفهم عن دينهم. وقد اتخذوا من البيئات الجاهلة والفقيرة ولا سيما في بلاد إفريقيا ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الدنيئة التي لا يقرها عقل ولا شرع ولا قانون، وكل هذه أخطر بكثير من مسجد الضرار الذي حاربه الله ورسوله أشد المحاربة.

الوصول إلى المدينة واعتذار من تخلف عن الخروج إلى رسول الله

ولما وصل النبي والمسلمون إلى المدينة تلقاهم النساء والصبيان والولائد من ثنية الوداع وهن ينشدن الأناشيد، ويرحبن بالرسول الكريم، وأصحابه الغر الميامين، والجيش المظفر المنصور.

طوائف المتخلفين

كان المتخلفون في غزوة تبوك أربعة أصناف:

- ١ - مأمورون مأجورون، كعلي بن أبي طالب، ومحمد بن مسلمة.
- ٢ - ومعدورون، وهم الضعفاء والمرضى والمقلون الذين لا يجدون ما ينفقون، ولا يجد الرسول ما يحملهم عليه كالبكائين وأمثالهم.
- ٣ - وعصاة مذنبون، وهم الثلاثة الذين خُلفوا، وأبولبابة وأصحابه الذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد حتى يتوب الله عليهم.
- ٤ - وآخرون ملومون مذمومون، يظهرون خلاف ما يبطنون وهم المنافقون^(١).

* * *

المنافقون

أما المنافقون فقد جاؤوا إلى رسول الله يعتذرون عن تخلفهم، ويحلفون الأيمان الكاذبة، وينتحلون المعاذير، فأعرض عنهم النبي وترك حسابهم الله سبحانه وتعالى. وفي هؤلاء نزل قول الله تعالى:

(١) البداية والنهاية، ج ٥ ص ٢٧.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذْ رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾
إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

وقوله:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى
الْئِفَاقِ...﴾ الآية^(٢).

إلى غير ذلك من الآيات المتكاثرة التي كشفت عن المنافقين وأساليبهم في
سورة التوبة.

أبو لبابة وأصحابه

وهم قوم تخلفوا كسلًا وميلًا إلى الراحة، لا شكًا ولا نفاقًا، وكانوا سبعة
وقيل عشرة، فقد أوثقوا أنفسهم في سواري المسجد^(٣)، تعبيراً عن بالغ ندمهم،
فمر بهم رسول الله ﷺ فقال: «من هؤلاء؟» قالوا: أبو لبابة وأصحابه، تخلفوا
عنك وعاهدوا الله عز وجل أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت تطلقهم
وترضى عنهم، فقال: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله
عز وجل هو الذي يطلقهم، رغبوا عني، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين».

فلما أن بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي
يطلقنا، فأنزل الله سبحانه قوله: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم، خلَطُوا عَمَلًا
صَالِحًا وَآخِرَ سِيئًا، عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأرسل
إليهم رسول الله ﷺ فأطلقهم وعذرهم، فجاءوا بأموالهم، وقالوا: يا رسول الله هذه
أموالنا فتصلق بها عنا، واستغفر لنا، وكان هذا شأن الصحابة رضي الله عنهم
إذا تاب الله عليهم من ذنب قدموا أموالهم شكرًا لله، فقال: «ما أمرت أن آخذ
من أموالكم شيئاً» فأنزل الله سبحانه قوله: ﴿آخِذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ

(١) سورة التوبة: الآيات ٩٤ - ٩٨.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠١.

(٣) هي الأعمدة.

وَتَرْكِيهِمْ بِهَا...﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١) فَاخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ثَلَاثَ أَمْوَالِهِمْ وَتَرَكَ لَهُمُ الْبَاقِي.

الثلاثة الذين خُلِفُوا

وَهُمْ: كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، وَهَلَالُ بْنُ أُمِيَّةَ، وَمِرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ. لَمْ يَبَالِغُوا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِعْتِزَارِ كَمَا فَعَلَ أَبُو لُبَابَةَ وَأَصْحَابُهُ، فَلِذَلِكَ نَزَلَتْ تَوْبَةُ هَؤُلَاءِ وَتَأَخَّرَتْ تَوْبَةُ كَعْبٍ وَصَاحِبِيهِ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَهُمْ الْمُرَادُونَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:

﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

وَإِلَيْكَ خِلَاصَةُ قِصَّةِ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَسَاحِرْصٌ عَلَى إِيرَادِ لَفْظِهَا لِأَنَّهَا قِطْعَةٌ مِنَ الْأَدَبِ النَّفْسِيِّ وَالْقَوْلِيِّ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا - وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ -^(٣) عَنْ كَعْبٍ قَالَ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزَاةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزَاةِ بَدْرٍ وَلَمْ يِعَاتِبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهَا، وَإِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قَرِيشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ... حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزَاةُ الَّتِي غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، وَمُفَاوِزَ وَعَدَدًا كَثِيرًا... وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ كَثِيرٌ لَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدِّيَّانَ - .

فَتَجَهَّزَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ، فَطَفَقَتْ أَغْدُو لَكِي أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَارْجِعْ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ يَتِمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجَدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ: أَتَجَهَّزُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحِقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا - خَرَجُوا - وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا،

(١) سُورَةُ التَّوْبَةِ: الْآيَاتُ ١٠٢ - ١٠٥.

(٢) سُورَةُ التَّوْبَةِ: الْآيَةُ ١٠٦.

(٣) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ - كِتَابُ الْمَغَازِي - حَدِيثُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ.

فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم - وليتني فعلت - فلم يُقدِّر لي ذلك.

فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً^(١) عليه النفاق، أو رجلاً من عذر الله من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرداه ونظره في عِطْفِيهِ^(٢)، فقال معاذ بن جبل: بشئ ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً.

قال كعب: فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادماً زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، فأصبح رسول الله ﷺ قادماً، فكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبإيعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله عز وجل.

فجئته، فلما سلّمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خلّفك، ألم تكن قد ابتعت ظهراً؟» فقلت: بلى - والله - لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني لبوشكنّ الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديثاً تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك».

ثم قلت: هل لقي هذا أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي.

(١) أي مطعوناً عليه.

(٢) العطف: الجانب والمراد إعجابه بنفسه.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فقد استكانا وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفّتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر^(١)، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض.

حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوّرت^(٢) جدار حائط - بستان - أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحبّ الناس إلي - فسلمت عليه، فوالله ما ردّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلمني أحبّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناى.

قال: وبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا تبطني من أنباط^(٣) أهل الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه: (أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نؤاسك) فقلت: وهذا أيضاً من البلاء، فتيّمت بها التنور - الفرن - فسجرت بها.

فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقر بها، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك،

(١) أنظر إليه خلسة.

(٢) أي: علا عليه ودخل.

(٣) جيل من الناس يسكنون سواد العراق.

فقلت لامرأتي: الحقى بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه قال: «لا، ولكن لا يقربك» فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومنا. . .

قال: فلبثت بعد ذلك عشر ليال وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع^(١) يقول بأعلى صوته: يا كعب أبشر، فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج. وأذن رسول الله بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يشيروننا، وذهب قبل صاحبني مبشرون، وركض رجل إلي فرساً، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى نزعته له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتفونني بالتوبة يقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيدالله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال - وهو يبرق وجهه من السرور -: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير» قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير.

وقلت: يا رسول الله إنما نجاتي الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أتحدث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك

(١) بفتح السين وسكون اللام.

لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت.
وأُنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين﴾ إلى قوله:
﴿وكونوا مع الصادقين﴾^(١).

* * *

وقفات عند هذه القصة

وإن لنا في هذه القصة لعبراً وعظات وآيات بينات، تدل على فضل
الصحابة وما وصلوا إليه من سمو في الدين والأخلاق وتقدير للمعاني الروحية
والقيم الأدبية، منها:

١ - صدق الإيمان، وقوة اليقين، وحضور القلب، وكيف يسمو الإيمان
بصاحبه حتى يرى السعادة الحقة الكاملة في رضوان الله ورسوله، والشقاوة كل
الشقاوة في غضبهما وإنا لنلمس هذا في قول كعب: (حتى تنكرت لي الأرض،
فما هي بالتي أعرف). وفي بعض الروايات: (تنكرت لنا الحيطان، وتنكر لنا
الناس، حتى ما هم الذي نعرف). وهذا المعنى يجده الحزين والمهموم في كل
شيء، حتى قد يجده في نفسه فينكرها، بل نلمس هذا المعنى بصورة أكبر في
قول الله عنهم: ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾.

والإنسان قد تضيق به الأرض من سوء من يجاوره أو لعدم وجود من
يشاكله، ومع هذا فيكون في اطمئنان من قلبه، ورضى من نفسه، ورحابة من
صدره، ولكن أضيق الضيق أن تضيق بالإنسان نفسه، وحينئذ تصير الحياة مهما
أحيطت بمظاهر النعيم جحيماً لا تطاق، ويكون الموت خيراً من الحياة، وهذا
يدل على مبلغ ما كان يتمتع به هؤلاء الثلاثة من قلوب متيقظة ونفوس شفاقة
وضمائر حية.

٢ - إن المقاطعة والهجر كان نوعاً من أنواع التأديب والزجر في صدر
الإسلام، وقد أثمر هذا اللون من التأديب ثمرته ووصل بهم إلى هذه الخاتمة
السعيدة الموفقة، وإن أضر شيء على أي مجتمع أن يجد فيه أهل الفسق

(١) سورة التوبة: الآيات ١١٧ - ١١٩.

والفجور، وأهل الظلم والابتداع، وأهل الاستهتار بالقيم الدينية والخلقية صدوراً رحبة، ونفوساً ترضى عن فعلهم، بل وتحتضنهم، ولو أن العصاة والمذنبين والمنحرفين عن الصراط المستقيم وجدوا من المجتمعات التي يعيشون فيها نبذاً لهم ومقاطعة وازدراء، لكان هذا من أقوى العوامل الدافعة إلى أن يرشد الغاوي، ويستقيم المعوج، ويصلح الطالح.

٣ - إن التأمل في القصة يعجب كيف أن الصحابة نفّذوا ما أمر به الرسول من المقاطعة حتى ولو كانوا في غيبة عن أعين الرقباء. فهذا كعب ينشد ابن عمه كلمة عسى أن يجد فيها ما يخفف ما به من حزن وأسى، ولكنه يأبى عليه هذه الكلمة، ويكل علم ذلك إلى الله ورسوله، وهذه غاية ما يطمع فيه مجتمع من أمانة ومراقبة لله.

٤ - في أثناء المحنة تعرض كعب لمحنة أخرى كانت أقسى وأشد من الأولى، فهذا هو ملك غسان يكتب له كتاباً وهو في أشد أوقات المقاطعة وضيق النفس، يفسح له من صدره، ويفتح له باب الأمانى الحلوة، والجاه العريض، ويستغل ما كانت عليه حالته النفسية، فيقول له: قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك!!.

لوان كعباً - رضي الله عنه - كان رقيق الإيمان، ضعيف النفس والخلق لوجد في هذه الفرصة السانحة المغرية ما يرغم به أنوف مقاطعيه ونابذيه، ولكن أدرك بادية ذي بدء أنها محنة أخرى أقسى من الأولى، فلا يرضيه أن يجيب الرجل بالسلب، أو يرمي بالكتاب ويمزقه، ولكنه رمى به في التنور ليصير رماداً، ويصير كل ما به دخاناً يتبدد في الهواء، وخرج الرجل من محنته وهو أقوى ما يكون إيماناً، وأصفى ما يكون روحاً، وأكرم ما يكون أخلاقاً، فبالعظمة هذه النفوس المؤمنة الكبيرة!!.

٥ - هذه القصة توحى بما كان يتمتع به المجتمع الإسلامي آنئذ من تقدير للقيم الدينية والخلقية، فغاية ما يطمع فيه الفرد أن يكون على كمال في دينه، ومن أجل النعم عندهم نعمة التوبة، إنها للجديرة بأن يهنأ بها المسلم، وإننا

لنلمس هذا المعنى في قول الرسول لكعب: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» وخَلَعَ كعب ثوبيه الوحيدين لمن بشره بالتوبة، ومجيء المسلمين أفواجا لتهنئة كعب وصاحبيه، وعدم نسيان كعب لطلحة بن عبيدالله مصافحته وتهنئته له.

٦ - إن من أدب الصحابة - وهم خير من يمثل الإسلام - أن من شكر الله على نعمائه أن يُخرج شيئاً من ماله صدقة على الفقراء والمساكين والمحتاجين، براً بهم ومواساة لهم، ترى لو أن كل من حصلت له نعمة دينية أو دنيوية جعل شيئاً من ماله لله فهل كنت تجد بائساً أو محروماً، أو جائعاً أو عارياً؟ فلا تعجب وقد كوّن الصحابة هذا المجتمع المثالي في عقيدته، وسلوكه، وأخلاقه أن خاطبهم الله سبحانه هذا الخطاب الشريف:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (١).

﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (٢).

نبوك خاتمة الغزوات

وبغزوة تبوك تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة العربية كلها، وأمن النبي ﷺ الحدود الشمالية، وأمن من كل عادية عليها، وأقبل سائر العرب وفوداً يقدمون الطاعة، ويعلنون لله الإسلام، وقد كانت هذه الغزوة خاتمة غزوات النبي ﷺ، وصدق وعد الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣).

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٣.

تفسير ما نزل من الآيات في تبوك

لقد أنزل الله سبحانه في تبوك آيات كثيرة وإليك تفسيرها موجزاً:

قال عز شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾: نزلت في الحث على غزوة تبوك، وكانت في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحر، حين طابت الثمار والظلال، فكان لا بدّ من الترغيب في الخروج، والتنفير من القعود. ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾: أصلها ثاقلتم، أدغمت التاء في الثاء فصارت ساكنة، فأُتي بهمزة الوصل: أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة وطيب الثمار. ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾: أفعلتم هذا رضاءً للدنيا بدل الآخرة، ثم زهد في متاع الدنيا ورغب في الآخرة فقال: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، ثم أوعدهم على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا﴾ هي إن الشرطية المدغمة في لا النافية ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾: جواب الشرط، يعني في الآخرة، أوفيهما وفي الدنيا كمنع المطر عنهم. ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: خيراً منكم وأطوع. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾: بترككم النفير. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فهو ينصر نبيه بدونكم.

ثم بين الله أن نصرة نبيه ليست متوقفة عليكم، وإلا فقد نصره الله على أعدائه لما خرج مهاجراً ليس معه إلا صاحبه الصديق ولا أعوان معه ولا سلاح، وقد أيدته بجنود لم تروها وهم الملائكة، فأنجاه الله منهم وهم مسلحون وهو على قيد أذرع منهم فقال: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وهو من الاستطرادات اللطيفة البديعة.

ثم عاد إلى الحث على غزوة تبوك فقال: ﴿انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً، وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: قيل إنها أول ما نزل من سورة براءة، وهو قول سديد يتفق وما روي أن صدر السورة نزل قبيل خروج أبي بكر أميراً على الحج سنة تسع أو بعد خروجه بقليل، وتبوك قبل حجة الصديق قطعاً. ومعناها: شباباً وشيباً، وأغنياء وفقراء، وأقوياء وضعفاء، ومشاة وركباناً، في العسر واليسر، والمنشط والمكره. ثم من العلماء من يرى أن ذلك كان في أول الأمر بسبب ما لابس تبوك من ظروف، ثم نسخ بآية ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى...﴾. وآية: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾، ومنهم من يرى أنها محكمة، وكان بعض السلف الصالح على هذا، ويخرج للجهاد على أي حال^(١) منهم أبو أيوب الأنصاري والمقداد بن عمرو من الصحابة، ومن التابعين سعيد بن المسيب كما قدمنا.

﴿ذلكم﴾: أي الجهاد بالنفس والمال ﴿خير لكم﴾: في الدنيا لما فيه من العزة والظهور على الأعداء، والآخرة لأن الله ضمن للمجاهدين في سبيل الله الجنة. ثم وُيُخِ اللهُ المتخلفين في تبوك فقال: ﴿لو كان عَرَضاً قَرِيباً﴾: أي غنيمة قريبة المتناول. ﴿وسفراً قاصداً﴾: قريباً هيناً. ﴿لاتبعوك﴾: اخرجوا معك. ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾: المسافة. ﴿وسيحلفون بالله﴾: لكم إذا رجعت إليهم قائلين: ﴿لو استطعنا﴾: الخروج، ﴿اخرجنا معكم يهلكون أنفسهم...﴾: بالتخلف من غير عذر والأيمان الكاذبة.

كان جماعة استأذنوا رسول الله ﷺ أن يتخلفوا عنه فأذن لهم، وكان الأولى أن لا يأذن لهم لأنهم لا أعذار لهم، فعاتبه الله على هذا، وهذا من ألطف أنواع الكلام، حيث قَدِّمَ العفو على العتاب. وهو يدل على غاية إكرام الله لخاتم

(١) تفسير ابن كثير والبيهقي، ج ٤ ص ١٧٩.

أنبيائه، وحفاوته به فقال: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا، وتعلم الكاذبين﴾.

ثم بين الله أنه لا يستأذنه المؤمنون المخلصون في التخلف عن الجهاد، وإنما ذلك شأن المنافقين فقال: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، والله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وارتابت قلوبهم﴾: شكت وناقت، ﴿فهم في ربهم يترددون﴾: يتحIRON لا يثبتون على حال.

ثم هوّن الله الأمر على نبيه في شأن المتخلفين، وأنهم لم يكونوا جادّين في اعتذارهم، وأن الخير في عدم خروجهم فقال: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾: من سلاح وكُراع^(١)، ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾: خروجهم معكم مع أمرهم به شرعاً، ﴿فثبطهم﴾: بعد التوفيق ﴿وقيل اقعدا مع القاعدین﴾: المرضي والزمني والنساء والصبيان. أي قال بعضهم لبعضهم ذلك.

ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾: أي فساداً وشرّاً، ﴿ولأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾: الإيضاع الإسراع، أي لأسرعوا بالسعي فيما بينكم بالفتنة والبغضاء والنميمة، ﴿وفيكم سماعون لهم﴾: أي مستجيبون لأحاديثهم ووسوستهم. ثم بين الله سبحانه أنهم طالما فكروا في كيدك وخذلان دينك، وتحذيل الناس عنك قبل هذا اليوم، كما فعل ابن أبيّ في أحد، ولكن الله ردّ كيدهم في نحرهم، ونصرك وأظهر دينك، فقال: ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل، وقلّبو لك الأمور، حتى جاء الحق﴾ النصر ﴿وظهر أمر الله﴾: دينه على كره منهم. قال تعالى: ﴿وممنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾: نزلت في الجدّ بن قيس كما قدمنا.

ثم بين الله تأصل عداوة هؤلاء المنافقين فقال: ﴿إن تصبك حسنة﴾: نصر أو غنيمة ﴿تسوهم﴾: تحزنهم ﴿وإن تصبك مصيبة﴾: من قتل أو هزيمة

(١) الكراع: بضم الكاف، جماعة الخيل.

﴿يقولوا: قد أخذنا أمرنا من قبل﴾: أي حذرنا بالقعود عن الغزو ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾: بما نالكم من مصيبة ﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾: هو تعزُّ بالقضاء بعد نزول البلاء، ولن يخفف عن الإنسان ألم المصيبة إلا الإيمان بالقدر خيره وشره، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ﴿هو مولانا﴾: ناصرنا وحافظنا ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾: ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل ﴿قل هل ترَبُّصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾: إما النصر والغنيمة، أو الشهادة والمغفرة ﴿ونحن نترَبِّص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾: فيهلككم كما أهلك الأمم الخالية ﴿أو بأيدينا﴾ بالقتل أو السبي ﴿فترَبِّصوا﴾: ما وعدكم به الشيطان ﴿إنا معكم مترَبِّصون﴾ ما وعدنا الله به ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً﴾: أي طائعين أو مكرهين. قيل نزلت في الجدُّ بن قيس حين اعتذر وقال: أعينكم بمالي ﴿لن يُتقبلَ منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾: عاصين لله ورسوله.

وبعد أن ذكر الله سبحانه أصنافاً من المنافقين ومقالاتهم ونبيلهم من النبي والمسلمين رجع إلى أخبار تبوك فقال: ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾: أي مخالفين له أو متخلفين بعده ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر﴾: أي قال بعضهم لبعض ذلك ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلاً﴾: في الدنيا ﴿وليبكوا كثيراً﴾: في الآخرة ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾: من النفاق ﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم﴾: أي ردك، والمراد بالطائفة الذين تخلفوا نفاقاً ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ معك في غزوة أخرى ﴿فقل: لن نخرجوا معي أبداً﴾ في سفر ﴿ولن تقاتلوا معي عدواً، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة﴾: يعني في غزوة تبوك ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾: الرجال الذين تخلفوا بغير عذر ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً...﴾: نزلت بسبب صلاة النبي على ابن أبي المنافق كما سيأتي، وحكمها عام في كل من عرف نفاقه.

قال تعالى: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾ المعذرون: قرىء بالتشديد من عذر في الأمر إذا قصر فيه، وحقيقته أن يوهم أن له عذراً فيما فعل ولا عذر له، أو أصله المعتذرون أدغمت التاء في الذال ونقلت حركتها إلى

العين، وهم الذين يعتذرون بالباطل، وهم جماعة من الأعراب جاؤوا يعتذرون ولا عذر لهم، وقرأ يعقوب ومجاهد: المعتذرون بالتخفيف، وهم المبالغون في العذر، يقال في المثل: «لقد أعذر من أنذر» قال ابن إسحاق: إنهم نفر من بني غفار ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾: يعني المنافقين. قال أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين كان سيئاً، قوم تكلفوا عذراً بالباطل، وقوم تخلفوا من غير تكلف عذر، فقعدوا جرأة على الله تعالى، فأوعدهم الله بقوله: ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم﴾.

ثم بين الله تعالى الأعدار التي لا حرج على من قعد عن القتال بسببها، سواء ما كان منها لازماً لا ينفك عن صاحبه، أو عارضاً، فقال: ﴿ليس على الضعفاء، ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل﴾: طريق بالعقوبة والمواخظة ﴿والله غفور رحيم﴾: بهم ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ لتوفر لهم الظهر والنفقة ﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون﴾: وهم البكاؤون كما أسلفنا.

وفي الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: وهو راجع من تبوك: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتهم مسيراً إلا وهم معكم» قالوا وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حبسهم العذر» ﴿إنما السبيل﴾: الحجة بالعقوبة ﴿على الذين يستأذنونك وهم أغنياء، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾: النساء جمع خالفة ﴿وطيع الله على قلوبهم﴾: بسوء اختيارهم ﴿فهم لا يعلمون﴾: النافع من الضار.

ثم أعلم الله نبيه بأنه عند رجوعه إلى المدينة سيأتي المنافقون المتخلفون يعتذرون، وأوصاه بأن لا يصدقهم فقال: ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم، قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾: لن نصدقكم ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ فيما سلف ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾: فيما يستقبل، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه، ﴿ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم

تعملون ﴿: من خير أوشر، ويجازيكم عليهما﴾ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم ﴿: إخبار بأنهم سيشفعون اعتذارهم بالأيمان الكاذبة﴾ لتعرضوا عنهم ﴿: لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم﴾ فأعرضوا عنهم ﴿: احتقاراً لهم﴾ إنهم رجس ﴿: نجس بواطنهم واعتقاداتهم﴾ وماؤاهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴿: يجتروحون من السيئات.

ثم بين سبحانه إلحاحهم في الحلف فقال: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾: فلا تركنوا إليهم ﴿فإن رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي إن فرض أنكم رضيتم عنهم فلن يرضى الله عنهم لأنهم فاسقون خارجون عن طاعة الله ورسوله.

ثم بين الله طوائف الأعراب أي أهل البدو، وأن منهم كفاراً، ومنافقين ومؤمنين، وأنهم أعرق في الكفر والنفاق من غيرهم، فقال: ﴿الأعراب أشد كفرةً ونفاقاً﴾ من أهل الحضرة لغلظ قلوبهم، وبعدهم عن مراكز العلم والاستنارة وهي المدن ﴿وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ أجدر: أخرى لبعدهم عن سماع القرآن ومعرفة السنن وهما أصل الدين والفقه والعلم ﴿والله عليم حكيم﴾: عليم بقلوب خلقه حكيم فيما شرعه من شرائع.

ثم ذكر صنفًا آخر من الأعراب فقال: ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا﴾ المغرم التزام ما لا يلزم، فهم لا يرجون على الإنفاق ثواباً، ولا يخافون على إمساكه عقاباً، إنما ينفقون خوفاً ورياء ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾: الحوادث والشُرور والآفات ﴿عليهم دائرة السوء﴾ قرىء بفتح السين وضمها، أي سينزل بهم البلاء والشُرور وما يترقبونه للمؤمنين ﴿والله سميع عليم﴾: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

ثم ذكر الصنف الفاضل المؤمن الخير فقال: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله﴾: طاعات تقربهم من الله ﴿وصلوات الرسول﴾: أي دعائه واستغفاره لهم ﴿ألا إنها قربة لهم﴾: حقاً

وواقعاً ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾: جنته ﴿إن الله غفور رحيم﴾ ثم استطرد سبحانه إلى ذكر خيار المؤمنين فقال: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار...﴾ الآية.

ثم بين الله أن في الأعراب منافقين، وفي أهل المدينة منافقين فقال: ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق﴾: أي مرونا عليه ﴿لا تعلمهم﴾ يا محمد يقيناً، وإنما تعلمهم بعلاماتهم وأماراتهم، فهو لا ينافي قوله سبحانه في سورة محمد: ﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنهم في لحن القول﴾^(١) أو معناه لا تعلمهم جميعاً، وهو لا ينافي أنه كان يعلم بعضهم، وقد روي أنه ﷺ أسرَّ إلى حذيفة بأسماء بعضهم.

﴿نحن نعلمهم، سنعذبهم مرتين﴾ اختلف في تفسير المرتين على أقوال عدة، فقليل الفضيحة في الدنيا وعذاب القبر، وقيل المصائب في الأموال والأولاد، وقيل بافتضاح أمرهم، وبما كان يداخلهم من الغم والحزن عند ظهور الإسلام. والذي يترجح عندي أن المراد به التكرار لا التحديد، فهو مثل قوله سبحانه: ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ ويكون المراد ما ينزل بهم في الدنيا من بلاء ومصائب وافتضاح، وما كان يحزُّ في نفوسهم كلما حصل للمسلمين نصر وظهور وللإسلام انتشار ﴿ثم يُردُّون إلى عذاب عظيم﴾: عذاب جهنم خالدين فيها أبداً.

قال تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ الآية، هم أبو لبابة وأصحابه، وقد قدَّمنا قصتهم ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم﴾: بها من ذنب تخلفهم بغير عذر كسلاً وتهاوناً، لا نفاقاً ولا شكاً ﴿وتركيهم بها﴾: من شبهة النفاق إلى منازل المخلصين، والضمير في ﴿أموالهم﴾ قيل للمذكورين في الآية السابقة فإنهم لما تاب الله عليهم عرضوا على النبي أن يتصدقوا بأموالهم، فأخذ منهم الثلث وترك الباقي، وعلى هذا يكون المراد بالصدقة صدقة النفل كفارة

(١) لحن القول: فحواه ومعناه الذي يفهم منه نفاقهم، وذلك بما يبدو منهم رغماً عنهم ويظهر من فلتات لسانهم، وعلى قسمات وجوههم، ورضي الله عن ذي النورين عثمان حيث قال: (ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفتلت لسانه).

لذنوبهم، ومن العلماء من يجعل الآية مستقلة عما قبلها وأنها تشريع عام لجميع الناس فقالوا: إن المراد صدقة الفرض وهي الزكاة.

﴿وصلّ عليهم﴾: ادع لهم واستغفر لهم ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾: طمأنينة لهم أن الله قد قبل منهم توبتهم على الأول، وزكاتهم على الثاني، وكان من أدب رسول الله ﷺ إذا أتاه رجل بصدقة قوم دعا لهم أو بصدقة دعا له، وهل هذا الدعاء واجب، أو مستحب، وفي صدقة الفرض أم في صدقة التطوع أم فيها معاً؟ خلاف بين العلماء^(١). ﴿ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة عن عباده، ويأخذ الصدقات﴾: هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحو السيئات ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾: ومن شأن التواب أنه يقبل توبة من تاب إليه بشروطها.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ حثٌ للتائبين أن يتداركوا ما فاتهم من الغزو ويعملوا صالحاً فيما يستقبلون من أمرهم ﴿وستردون﴾ إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون. وعد للطائعين ووعد للمخالفين بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى يوم القيامة، فيجازيهم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وآخرون مُرْجَوْنَ لأمر الله﴾: هم الثلاثة الذين خُلفوا، فقد قيل الله توبة أبي لبابة وأصحابه، وأرجأ توبة هؤلاء الثلاثة حتى تاب عليهم ﴿إما يعذبهم﴾ وإما يتوب عليهم. أي هم تحت عفو الله، إن شاء عفا عنهم وإن شاء عذبهم، ولكن رحمته تسبق غضبه ﴿والله عليم حكيم﴾: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، منزّه عن العبث والهوى.

ثم أنزل الله التوبة عليهم في قوله سبحانه: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾: أي وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها، ﴿وزيغ﴾: يميل ولم يرد الميل عن الدين، بل أراد الميل إلى التخلف والانصراف عن السير للشدة التي

(١) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ٤ ص ٢٣٥.

نزلت بهم ﴿ثم تاب عليهم﴾ : تأكيداً للآولى ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ . وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا ﴿إلى قوله﴾ : ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ : أي وتاب عن الثلاثة ، وقد ذكرنا قصتهم سابقاً مستوفاة ، ومعنى خُلّفوا أي أرجىء قبول توبتهم عن توبة أبي لبابة وأصحابه ، وقيل تخلّفوا عن غزوة تبوك ، ومعنى ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ أي ليستقيموا على التوبة ويستمروا عليها .

قال تعالى : ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ : هذا عتاب من الله للمتخلفين عن رسول الله في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب ، ومعنى ﴿ما كان﴾ : ما صح وما ينبغي ، ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ : أي ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن أن يصيبهم من الشدائد ما نزل به ، فيختاروا الراحة والدعة ورسول الله ﷺ في مشقة السفر ومعاناة التعب ، فإنهم حرموا أنفسهم من الأجر ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم﴾ : في سفرهم ﴿ظماً﴾ : عطش ﴿ولا نصب﴾ : تعب ﴿ولا مغمصة﴾ : مجاعة ﴿في سبيل الله ، ولا يطؤون موطئاً﴾ : إما مصدر أو اسم مكان ﴿يغيظ الكفار﴾ : ويطؤهم إياه ، ونزولهم به ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ : قتلاً أو أسراً ، أو غنيمة أو هزيمة ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ : أي كتب لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلية تحت قدرهم ، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم - أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ، فهو سبحانه لا يضيع عنده شيء مهما قل ﴿ولا ينفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرة﴾ : قليلة أو كثيرة ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ : في السير إلى الأعداء ﴿إلا كتب لهم﴾ : ثواب ما قدموه من نفقة أو قطع وادٍ ﴿ليجزئهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ : أي أحسن جزاء أعمالهم .

وأما ما يتعلق بمسجد الضرار من الآيات فقد ذكرناه فيما سبق ، وأما ما يتعلق بالمسجد الذي أسس على التقوى فقد ذكرناه في أول هذا الكتاب أثناء الكلام عن مسجد قباء ، والحمد لله الذي هدانا لهذا .

قدوم ثقيف على رسول الله ﷺ

وكان قدومهم على النبي ﷺ في رمضان بعد رجوعه من تبوك، وكان من خبرهم بعد أن فكَّ حصارهم ورجع عنهم أن اتبعه أحد أشرافهم: عروة بن مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل المدينة، فأسلم وسأل رسول الله ﷺ أن يرجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فقال له: «إنهم قاتلوك»، فقال عروة - وكان فيهم حُبباً مطاعاً -: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم.

فلما عاد من الطائف أشرف على عُلْيَةٍ له ودعاهم إلى الإسلام، فرمَوْه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله، فقيل له - وهو محتضر -: ما ترى في دينك؟ فقال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم. فدفنوه، فقال فيه رسول الله: «إِنَّ مَثْلَهُ فِي قَوْمِهِ كَمَثَلِ صَاحِبِ يَاسِينَ فِي قَوْمِهِ»^(١).

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، واثتمروا فيما بينهم، فرأوا أن لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا، فأجمعوا أمرهم أن يرسلوا رجالاً منهم لرسول الله ﷺ، فأرسلوا عبد ياليل ومعه خمسة من أشرافهم منهم عثمان بن أبي العاص، وكان أصغرهم، فلما وافوا المدينة وجدوا

(١) قال السهيلي: يحتمل أن يريد به المذكور في سورة يس الذي قال لقومه: «اتبعوا المرسلين» فقتله قومه، واسمه حبيب بن مري. ويحتمل أن يريد صاحب إلياس وهو اليسع، فإن إلياس يقال في اسمه ياسين أيضاً، وفيه قال الله تعالى: «سلام على إل ياسين» الروض الأنف، ج ٢ ص ٣٢٥.

المغيرة بن شعبة، فلما رأهم ذهب يشتد إلى رسول الله يبشره بقدمهم، فلقيه الصديق فأخبره عنهم وأنهم قدموا يريدون البيعة والإسلام إن شرط لهم شروطاً، ويكتبوا لهم كتاباً، فأقسم عليه الصديق أن لا يسبقه حتى يبشر هو الرسول بمقدمهم، فقبل ودخل الصديق على رسول الله فبشره. ثم خرج إليهم المغيرة فعلمهم كيف يحثون رسول الله، فلما قدموا على الرسول حيّوه بتحية الجاهلية، وضربت لهم قبة بالمسجد النبوي ليكون ذلك أدعى إلى دخولهم في الإسلام، والتأدب بآدابه.

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يسعى بينهم وبين الرسول، وهو الذي كتب لهم كتابهم، وكان فيما اشترطوا على رسول الله أن يدع لهم الطاغية^(١) ثلاث سنين فأبى، فسألوه سنة فأبى، فسألوه شهراً بعد مقدمهم ليتألفوا سفهاءهم فأبى عليهم أن يدعها شيئاً ما. وهكذا الأنبياء لا يفرطون في التوحيد قيد شعرة.

وسألوه أيضاً أن لا يصلّوا، ولا يكسروا أصنامهم بأيديهم فقال: «أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه».

واشترطوا على رسول الله مع ذلك أن لا يحشروا، ولا يعشروا ولا يجبوا^(٢)، ولا يستعمل عليهم غيرهم، فأعطاهم ذلك رواه أحمد، ثم قال: «سيتصدقون، ويجاهدون إذا أسلموا»، يعني أنهم سيقبلون الجهاد، ويخرجون الزكاة إذا انشرفت صدورهم للإسلام، وهذا ما كان، ثم سألوه عن الزنا، والربا، والخمر فحرم عليهم كل ذلك^(٣).

(١) صنم ثقيف وهي اللات.

(٢) أن لا يحشروا: لا يندبوا إلى المغازي، ولا تضرب عليهم البعوث، ولا يعشروا ولا يجبوا أي لا تؤخذ منهم صدقاتهم.

(٣) البداية والنهاية، ج ٥ ص ٢٩ - ٣٤.

فلما أسلموا صاموا مع رسول الله ﷺ ما بقي من شهر رمضان، وكان رسول الله يأتيهم كل ليلة، فيعظهم ويفقههم وهو قائم، فأبطأ عليهم ذات ليلة فسألوه، فقال: «طراً عليّ حزبي فكرهت أن أجيء حتى أتمه» فسألوا الصحابة كيف تحزبون القرآن، فقالوا: «ثلاث وخمس وسبع وتسع، وإحدى عشرة سورة، وحزب المفصل وحده»^(١).

ثم أمر عليهم بمشورة الصديق عثمان بن أبي العاص، لحرصه على القرآن والنفقة في الإسلام، وكان مما أوصاه به أنه قال: «من أم قوماً فليخفف، فإن فيهم الضعيف والكبير، وإذا الحاجة، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء»^(٢). وفي سنن ابن ماجه أن النبي بين له أن يقرأ بسورة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ وأشباهاها من القرآن، وكانت تلك حكمة بالغة من الرسول؛ فإن قوماً رغبوا أن يتحللوا من الصلاة ينبغي أن يخفف عنهم في الصلاة حتى لا يسأموا، ولعل في هذا بلاغاً للذين ينفرون الناس أو بعضهم بإطالة الصلاة.

فلما رجعوا إلى بلادهم بعث معهم رسول الله أباسفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم (اللات)، فتولى المغيرة هدمها حتى جاء على أساسها بعد أن أشفق عليه قومه أن يصاب كما هي عقائدهم الخرافية، فأيقنوا - وقد فرغ من هدمها وهو معافي - أنها حجارة لا تضر ولا تنفع، وهكذا طهر الله أرض ثقيف من الأصنام، ووقفهم إلى عبادة الله وحده.

وذكر موسى بن عقبة في مغازيه أن وفد ثقيف لم يجروا أن يصارحوا قومهم بإسلامهم وما عاهدوا الرسول عليه، وقالوا: إنه يريد أن يحرم علينا الربا والزنا والخمر، فنفروا وقالوا: لا نطيع له أبداً، وتأهبوا للقتال، ومكثوا على ذلك يوماً أو يومين، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب فرجعوا وقالوا: ارجعوا إليه فشارطوه على ذلك وصالحوه، فقالوا لهم: فإننا قد فعلنا ذلك ووجدناه أتقى الناس، وأوفاهم، وأرحمهم، وأصدقهم، وقد بورك لنا ولكم في سيرنا، وفيما

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه أحمد ومسلم.

قاضيته، فاقبلوا القضية، واقبلوا عافية الله، وقالوا: فلم كتمتمونا؟ قالوا: أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان، فأسلموا وحسن إسلامهم.

ولما هدم المغيرة الطاغية وأخذ مالها وحليها دفع منها بأمر رسول الله دية عروة بن مسعود، وأخيه الأسود بن مسعود والد الصحابي قارب بن الأسود، وكان الأسود قد مات مشركاً، ولكن رسول الله رأى ذلك تأليفاً وإكراماً لولده قارب.

كتاب رسول الله لهم

«بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين: إن عضاه (وَجَّ) وصيده لا يعضد^(١)، من وجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه، وإن تعد ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به النبي محمداً، وإن هذا أمر النبي محمد» وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله فلا يتعدّه أحد يظلم نفسه فيما أمره به محمد رسول الله ﷺ، وقد ذكره أبو عبيد في كتاب الأموال وزاد فيه شهادة علي وابنيه الحسن والحسين رضي الله عنهم.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله قال: «إن صيد وَجَّ وعضاه حَرَمٌ محرّم لله» وكذا رواه أبو داود، وذلك قبل نزول الطائف وحصاره ثقيفاً، وقد اختلف الأئمة في هذا الحديث، فمنهم من ضعفه كأحمد والبخاري وغيرهما، ومنهم من صححه كالشافعي وقال بمقتضاه^(٢).

(١) العضاه ككتاب: شجر ذوشوك، وج: أرض الطائف، يُعضد: يقطع. قال السهيلي حرم عضاهه وشجره على غير أهله كتحریم المدينة ومكة.

(٢) البداية والنهاية، ج ٥ ص ٣٤.

بعض من مات في هذا العام

موت النجاشي

وفي رجب من هذا العام مات أصحمة بن أبجر النجاشي ملك الحبشة، أسلم على عهد النبي ﷺ، ولم يهاجر إليه، وقد أحسن إلى المسلمين الذين هاجروا غاية الإحسان، ولما مات نعاه النبي إلى أصحابه في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلّى وكبر عليه أربع تكبيرات^(١)، وهذا هو الأصل في مشروعية صلاة الجنازة على الغائب.

موت السيدة أم كلثوم

بنت سيد البشر رسول الله ﷺ، وكانت وفاتها في شعبان من هذا العام، وكان سيدنا عثمان تزوجها سنة ثلاث بعد موت أختها رقية، ولم تنجب له أولاداً، وقد اشتركت في تغسيلها أم عطية والسيدة صفية بنت عبدالمطلب، وأسما بنت عميس، وصلى عليها رسول الله والمسلمون، ولما ذهبوا لدفنها وقف النبي على قبرها وعيناه تذرفان بالدموع، فقال: «هل فيكم أحد لم يقارف الليلة؟» فقال أبو طلحة: أنا، فقال: «انزل في قبرها» فنزل ونزل معه علي، والفضل، وأسامة بن زيد. وموتها لم يبقَ من بنات النبي إلا السيدة فاطمة رضي الله عنهن.

موت عبدالله بن أبي

وفي شوال من هذا العام مرض عبدالله بن أبي المنافق ومات في ذي القعدة، وكان النبي يعوده في مرضه، وفي اليوم الذي مات فيه دخل عليه

(١) رواه البخاري وغيره.

وهو يجود بنفسه فقال له: «قد نهيتك عن حب يهود» فقال: يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتوبخني، ثم سأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه فأجابه، قال الحافظ ابن حجر: وهذا مرسل مع ثقة رجاله. وكان قد عهد ابن أبيّ إلى ابنه بذلك^(١)، فلما توفي جاء ابنه إلى النبي ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك^(٢) ربك أن تصلي عليه، فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرتني الله فقال: ﴿استغفر لهم أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾، وسأزيده على السبعين، قال: إنه منافق، فصلّى رسول الله عليه فانزل الله: ﴿ولا تصلّ على أحدٍ منهم مات أبداً، ولا تقمّ على قبره﴾ الآية^(٣).

وفي رواية أخرى له عن عمر نفسه أن النبي لما قام ليصلي عليه قام عمر فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد قال كذا وكذا يعدد مساوئه، فتبسم الرسول وقال: «أخر عني يا عمر» فلما أكثر عليه قال: «إني خيّرْتُ فاخترت، لو أعلم أيّ لوزدت على السبعين يغفر له لزدت عليها» ثم صلّى عليه فلم يلبث إلا قليلاً حتى نزلت الآية^(٤).

وإنما صلّى عليه رسول الله ﷺ إجراء له على حكم الظاهر وهو الإسلام، ولما فيه من إكرام ولده عبد الله - وكان من خيار الصحابة وفضلائهم - وهو الذي عرض على النبي أن يقتل أباه لما قال مقالته يوم غزوة بني المصطلق كما ذكرنا، ولما فيه من مصلحة شرعية، وهو استئلاف قومه ومتابعيه، فقد كان يدين له بالولاء فئة كبيرة من المنافقين، فعسى أن يرعوا عن نفاقهم ويعتبروا ويخلصوا

(١) فتح الباري، ج ٨ ص ٢٦٨.

(٢) ليس في القرآن نهي عن الصلاة على المنافقين قبل نزول آية ﴿ولا تصلّ﴾. والظاهر أن عمر فهم ذلك من قوله سبحانه: ﴿استغفر لهم﴾ الآية. أو من قوله تعالى: ﴿وما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ الآية.

(٣) رواه البخاري عن ابن عمر.

(٤) صحيح البخاري - سورة التوبة - باب ولا تصل... الخ.

لله ولرسوله، ولولم يجب ﷺ ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح
لكان سباً وعاراً على ابنه وقومه، فالرسول الكريم اتبع أحسن الأمرين في
السياسة إلى أن نهى فانتهى.

وهو لم يفعل ذلك لاعتقاده أنه يغفر له، وليس أدل على ذلك مما رواه
أبو الشيخ عن قتادة: أنهم ذكروا القميص بعد نزول الآية فقال عليه الصلاة
والسلام: «وما يغني عنه قميصي، إني لأرجو أن يسلم به أكثر من ألف من بني
الخزرج» أي يتخلصوا من نفاقهم، وينقادوا ظاهراً وباطناً لله ولرسوله،
وأما إعطاؤه القميص فلأن الضن به يخل بالكرم، وقد كان من خلق رسول الله
أن لا يرد طالب حاجة قط، على أنه كان مكافأة له على إعطائه العباس عم
الرسول قميصه لما جيء به أسيراً يوم بدر^(١)، وكان من خلق رسول الله وآل بيته
رد الجميل بخير منه.

وقد استشكل بعض العلماء حديث عمر وابنه، واستبعدوا أن يفهم النبي
من الآية التخيير لأن الظاهر أن «أو» للتسوية في عدم النفع، وأن يفهم من ذكر
السبعين التحديد لأن ظاهر السياق أنها للتكثير، فقال بعضهم: إنه خبر آحاد
لا يعول عليه، وأنكر بعضهم صحته^(٢)، وكل هذا وذاك غير سديد، فالحديث
صحيح رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه، وكفى بهم أئمة.

والذي ظهر لي - والله أعلم - بعد النظر والتأمل في الآية والأحاديث
وما قاله الأئمة: أن الآية تحتل التسوية، وهو الأظهر، وأن المراد بالسبعين
التكثير لا التحديد وهو الأظهر أيضاً، وفي رواية عمر السابقة ما يدل على أن
النبي كان يرى ذلك فقد قال: «لو أعلم أي لو زدت على السبعين يغفر له،
لزدت» وتحتل أيضاً التخيير في «أو»، وتحتل التحديد في لفظ السبعين وهما
مرجوحان قطعاً.

(١) تفسير الألوسي، ج ١٠ ص ١٥٤.

(٢) فتح الباري، ج ٨ ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

والرسول ﷺ - وهو أفصح العرب، وأعرفهم بأساليب البيان - ما كان يخفى عليه ذلك، ولكنه رجح أحد الاحتمالين وإن كان مرجوحاً للحكم السياسية، والأغراض التي ذكرناها آنفاً، وقد أطلت النفس في هذا، وعرضت لما يعرض له المؤرخون غالباً، لأن دراستنا للسيرة من جوانبها التحليلية من القرآن والسنة، وهذا هو السر في عنايتي بالتشريعات وتواريخها، وحكم التشريع فيها، وإعطائي للقارئ صورة واضحة لكل تشريع، وعنايتي بتفسير الآيات القرآنية في كل موضوع، وهو المهيّج الذي سلكه إمام أهل المغازي محمد بن إسحاق، وابن هشام، والدراسات على هذا المنهج هي أجدى الدراسات وأنفعها، والحمد لله الذي هدانا لهذا.

حج الصديق أبي بكر بالناس

لما رجع النبي ﷺ من تبوك تواردت عليه الوفود، ودخل الناس في دين الله من كل فج، فلما حل موسم الحج أراد الحج ولكنه قال: «إنه يحضر البيت عراة مشركون يطوفون بالبيت، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك». فأرسل الصديق أميراً على الحج سنة تسع، وبعث معه بضعاً وثلاثين آية من صدر سورة براءة ليقرأها على أهل الموسم^(١).

فلما خرج دعا النبي ﷺ علياً رضي الله عنه ورائه، وقال له: «اخرج بهذه الآيات من صدر سورة براءة، فأذن - أعلم - بها في الناس إذا اجتمعوا» فخرج علي على ناقه رسول الله ﷺ «العضباء» حتى أدرك الصديق أبا بكر بذي الحليفة، فلما رآه الصديق قال له: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم سارا، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وكان الحج في هذا العام في ذي الحجة كما دلت على ذلك الروايات الصحيحة لا في شهر ذي القعدة كما قيل.

وقد خطب الصديق قبل يوم التروية معلماً الناس مناسكهم، ثم خطب يوم عرفة، ويوم النحر، وكان كلما خطب أمير الحج «الصديق» قام أبو الحسن «علي» فقرأ على الناس صدر سورة براءة، ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة.

(١) هذا ما عليه الأكثر، وقيل إنها نزلت بعد خروج الصديق فأرسل علياً ورائه للحكمة التي سنذكرها.

روى الترمذي في جامعه عن زيد بن يُثيع، قال: سألت علياً بأي شيء بعثت في الحج؟ قال: (بعثت بأربع:

أن لا يطوف بالبيت عريان.

ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة^(١) أشهر.

ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.

ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا).

قال الترمذي: «حديث حسن صحيح» وخرجه النسائي أيضاً، وفيه قال علي: (فكنت أنادي حتى صَحِلَ^(٢) صوتي).

وقد أمر الصديق أبا هريرة في رهط آخرين أن يؤذّنوا في الناس يوم النحر بهذه الأمور مساعدين لعلي حتى يصل البلاغ إلى الناس جميعاً، فلم يكن ثم افتيات عليه، وإنما هي معاونة على الخير. روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة قال: (بعثني أبوبكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع في رهط يؤذّنون في الناس يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان) فكان حميد بن عبد الرحمن بن عوف يقول: يوم النحر يوم الحج الأكبر من أجل حديث أبي هريرة. وبيان ذلك: أن هذا الحديث مع الآية القرآنية ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ...﴾ يدلان على أن يوم النحر^(٣) هو يوم الحج الأكبر.

وقد ذكر ابن إسحاق أن قريشاً ابتدعت قبل الفيل أو بعده أن لا يطوف

(١) يعني من يوم التبليغ على الصحيح تنتهي في عشر من ربيع الآخر.

(٢) صحل صوته كفرح فهو أصحل. وصحل: بُحَّ.

(٣) ومن السلف غيرهم من يرى أن يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة. وسمي الحج الأكبر احترازاً عن العمرة لأنها تسمى الحج الأصغر.

أحد ممن يقدم عليهم من غيرهم أول ما يطوف إلا في ثياب أحدهم، فإن لم يجد طاف عرياناً، فإن خالف وطاف بشيابه ألقاها إذا فرغ، ثم لم ينتفع بها، فلما جاء الإسلام هدم ذلك كله فيما هدم من العقائد والخرافات، وقال العلامة ابن كثير: كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الحمُس - ^(١) يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يملكه، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحسي ثوباً طاف عرياناً، وربما كانت امرأة، فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان الناس يطوفون عراة بالليل، وكان هذا ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه أهواءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فانكر الله عليهم ذلك فقال:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٢)

وقد كان المشركون يجتمعون مع المسلمين في الحج، فأراد الله أن لا يكون ذلك، فقد دالت دولة الشرك والأوثان، وأصبحت كلمة الله هي العليا، وقد امتثل المشركون فلم يأت مشرك عام حجة الوداع، وانفرد المسلمون بالبيت لا يشاركون فيه أحد، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ

(١) الحمُس: جمع أحس كأحر، سميت قريش بذلك، لتحمسها أي تشدها على أنفسها في عبادتها ودينها، وقيل: سموها حمساً بالكعبة لأنها حمساء حجزها أبيض يضرب إلى السواد.

(٢) تفسير ابن كثير والبغوي، ج ٣ ص ٤٦٤. والآية هي ٢٨ من سورة الأعراف.

الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾.

والمراد من نجاسة المشركين النجاسة المعنوية، وهي نجاسة المعتقدات،
أو المراد أنهم لا يتزهون عن النجاسات غالباً، ولا يغتسلون من الجنابات،
وجمهور العلماء على عدم تمكينهم من دخول الحرم كله، وبعضهم حلها على
المسجد الحرام خاصة دون الحرم وبقية المساجد، وبعضهم قال: المراد عدم
تمكينهم من أداء الحج والعمرة استناداً إلى سبب النزول، والحق ما ذهب إليه
الجمهور.

* * *

شبهة والجواب عليها

وهنا شبهة نرى لزماً أن نعرض لها ونبين الحق فيها، وهي: لم عدل
النبي عن تبليغ أبي بكر صدر سورة براءة ووكل ذلك إلى علي؟

والجواب: أن صدر سورة براءة تضمن نقض العهود المطلقة غير المقيدة
بوقت، أو التي مدتها فوق أربعة أشهر فيما زاد عن أربعة أشهر، وكان العرب
تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة
أو رجل من رهطه، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يكون المبلغ عن النبي رجلاً
من أهله حتى يقطع السنة العرب بالاحتجاج على أمر هو من تقاليدهم، ولا سيما
أنه ليس فيه منافاة للإسلام، فلذلك تدارك النبي ﷺ الأمر.

روى الترمذي - وحسنه - وأحمد من حديث أنس قال: (بعث النبي
صل الله عليه وسلم براءة مع أبي بكر، ثم دعا علياً فأعطاه إياها وقال:
«لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهل بيتي»). وفي رواية الطبراني أن
جبريل عليه السلام هو الذي قال للنبي ﷺ: «إنه لن يؤديها عنك إلا أنت
أو رجل منك».

(١) سورة التوبة: الآية ٢٨.

فهذا هو السبب لا ما زعمته الرافضة من أن ذلك للإشارة إلى أن علياً
أحق بالخلافة من أبي بكر، ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصديق له: أمير
أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، وكيف يكون المأمور أحق بالخلافة من الأمير.
وقد كانت هذه الحجة بمثابة التوطئة للحجة الكبرى وهي حجة الوداع.

* * *

عَامُ الْوُفُودِ

لما فتح رسول الله ﷺ مكة وأسلمت هوازن، وعاد من تبوك وقد أظهر هيبة الإسلام، وجاءت ثقيف إليه مسلمة - تواردت عليه الوفود من كل ناحية، وفي حديث عمرو بن سلمة في قصة الفتح عند البخاري قال: «كانت العرب تلوم - تنتظر - بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم...».

واتفقوا على أن توارد الوفود كان سنة تسع. قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة قال: كانت سنة تسع تسمى سنة الوفود^(١). وقد ذكر هذه الوفود ابن إسحاق وابن هشام في السيرة، والواقدي في مغازيه، وكاتبه محمد بن سعد في طبقاته^(٢)، وهو أوفى ما جمع في ذلك، والبخاري في صحيحه^(٣)، وتابعهم معظم الكتّاب في السيرة. قال الحافظ في الفتح: ومجموع ما ذكره يزيد على الستين.

ومما ينبغي أن يتنبه إليه أن الذين تعرضوا لذكر الوفود لم يقتصرُوا على الوفود سنة تسع، بل استوردوا إلى ذكر بعض الوفود قبلها وبعدها، فقد ذكر ابن إسحاق وقد ضمّام بن ثعلبة مع أنه كان في رجب سنة خمس^(٤)، وابن سعد

(١) سيرة ابن هشام، ج ٢ ص ٥٦٠.

(٢) الطبقات، ج ١ من ص ٢٩١ - ٢٩٥.

(٣) فتح الباري، ج ٨ من ص ٦٨ - ٨٤.

(٤) كنت قد ذكرت هذا في الطبعة الأولى بناء على ما ذكر ابن كثير نقلاً عن الواقدي، وقد قال ذلك أيضاً غيره. ثم ظهر لي أن قدوم ضمّام كان سنة تسع، وهو الذي صححه =

وفد مُزينة مع أنه قال إنه كان في رجب سنة خمس. وذكر البخاري في الوفود وفد عبد القيس مع أنه كانت وفادتهم سنة خمس أو قبلها، ولم يتعرض لوفادتهم الثانية وهي المرادة هنا. وكذلك ذكر ابن سعد وفد محارب مع أنه قال: إن قدومه كان سنة عشر في حجة الوداع؛ وقد نبه إلى هذا الحافظ المؤرخ ابن كثير في بدايته^(١)، والحافظ ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري^(٢)، وقد تابع بعض الكتاب المتأخرين في السيرة السابقين فيما ذكروا من غير تحجّر وتحقيق. وقد رأيت أن أذكر أهم هذه الوفود لما في أخبارها من فقه وعلم، وخلق وأدب، وحسن سياسة النبي ﷺ، وغاية كياسته في معاملة هذه الوفود، وإجاباته لهم ومحاوراته معهم.

وفد بني تميم

وكان السبب في قدومهم - كما ذكر الواقدي - أنهم أغاروا على قوم من خزاعة، فبعث إليهم رسول الله ﷺ عيينة بن حصن الفزاري في خمسين رجلاً ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري، فأسر منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبيّاً، فقدم رؤسائهم وأشرفهم بسبب أسراهم في وفد عظيم منهم: عطاردين حاجب بن زارة، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وقيس بن عاصم، فدخلوا المسجد، وقد أذن بلال الظهر والناس ينتظرون رسول الله ﷺ ليخرج إليهم، فتعجل هؤلاء، فصاروا ينادون من وراء حجرات نساء النبي ﷺ: اخرج يا محمد فإنّ مدحنا زَيْن، وذمنا شين. وأكثروا من هذا النداء الجافي العاري عن الأدب في مخاطبة الرسول. فخرج رسول الله ﷺ مغضباً وقال: «ذاك الله عز وجل». فأنزل الله بسببهم هذا التأديب الإلهي، موبخاً لهم على ما فعلوا فقال عز شأنه:

= الحافظ ابن حجر (الفتح، ج ١ ص ١٤٤)، ويكون الحق مع ابن إسحاق في ذكره عام الوفود.

(١) ج ٥ ص ٤٠ - ٦١.

(٢) ج ٨ ص ٦٩.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

ولما خرج إليهم قالوا: يا محمد جئناك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، فقال: «قد أذنت لخطيبكم فليقل». فقام عطار بن حاجب فخطب خطبته ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس وكان يعرف بخطيب رسول الله ﷺ: «قم فأجب الرجل في خطبته» فقام ثابت فقال أحسن مما قال عطار، ثم قام الزبرقان بن بدر شاعرهم فقال قصيدته، فقال رسول الله ﷺ لحسان: «قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال» فقال حسان قصيدة مطلعها:

إِنَّ الذَّوَابَّ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ
قَدْ بَيْنُوا سَنَةً لِلنَّاسِ تُتْبَعُ
يَرْضَى بِهَا كُلٌّ مِنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ
تَقْوَى الْإِلَهَ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ
أَوْ حَاوَلُوا النِّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةَ تِلْكَ فِيهِمْ غَيْرَ مُحَدَّثَةٍ
إِنَّ الْخَلَائِقَ - فَاعِلَمَ - شَرُّهَا الْبِدْعُ (٢)

فلما فرغ حسان من قصيدته قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا لمؤق له - أي مؤيد مستهل له - لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا. فأسلموا وجوزهم (٣) رسول الله ﷺ، فأحسن جوائزهم، وقال قيس بن عاصم - وكان يبغيض عمرو بن الأهتم -:

(١) سورة الحجرات: الآية ٤ - ٥.

(٢) السيرة، ج ٢ ص ٢.

(٣) جوزهم: أي أعطاهم جوائزهم وهي العطايا والمنح.

يا رسول الله، إنه كان رجل منا في رحالنا وهو غلام حَدَث، وأزرى به، ولكن رسول الله أعطاه مثل ما أعطى القوم.

ومما يستطرف ما رواه البيهقي أنهم لما قدموا سأل رسول الله عمرو بن الأَهم عن الزبرقان بن بدر فقال: مطاع في أدنيه، شديد العارضة^(١)، مانع لما وراء ظهره، فقال الزبرقان: لقد علم مني أكثر مما قال، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد، فقال عمرو: أنا أحسبك؟ فوالله إنك للثيم الخال، حديث المال، أحق الوالد، مضيع في العشيرة، ولقد صدقت فيها قلت أولاً، وما كذبت فيها قلت آخراً، ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت، فقال رسول الله: «إن من البيان لسحراً»^(٢).

وفد بني عبد القيس

وكانت لهم وفادتان: الأولى قبل الفتح وهي التي قالوا فيها: بيننا وبينك كفار مُضَر (قريش)، وكان ذلك قديماً سنة خمس أو قبلها، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً وفيهم الأشج^(٣) الذي قال له النبي: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم^(٤)، والأناة»، وفيها سألوا عن الإيمان والأشربة، وعلى هذه اقتصر الإمام البخاري عن ابن عباس قال: أول جمعة جمعت - بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ - في مسجد عبد القيس بجُوائى - قرية بالبحرين - وهذا يدل على تقدّم إسلامهم.

الثانية: كانت في سنة الوفود، وكانوا أربعين رجلاً، وهي التي اقتصر عليها ابن إسحاق، وهي المرادة هنا. قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ الجارود بن عمرو في وفد عبد القيس، وكان نصرانياً، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ عرض عليه الإسلام ورغبه فيه، فقال: إني كنت على دين، وإني

(١) العارضة: القدرة على الكلام.

(٢) يعني كالسحر في قوة التأثير والاستيلاء على الألباب.

(٣) اسمه المنذر بن عائذ بالذال المعجمة العَصْرِي، وقيل غير ذلك.

(٤) العقل.

تارك ديني لدينك أفتضمن لي ديني؟ فقال رسول الله: «نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه» فأسلم وأسلم أصحابه.

فخرج الجارود راجعاً إلى قومه، وكان حسن الإسلام صلباً في دينه، وقد أدرك الردة، فلما رجع من قومه من رجع منهم قام الجارود فتشهد ودعا إلى الإسلام فقال: (أيها الناس، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأكفر من لم يشهد). وإنها لمكرمة له.

ويؤيد تعدد وفادتهم ما روي أن النبي ﷺ قال لهم: «ما لي أرى ألوانكم تغيرت؟» ففيه إشعار بأنه كان رأيهم قبل هذا^(١).

وفد بني حنيفة

وقدم وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب، فنزلوا في دار رملة بنت الحارث وكانت معدة للوفود، فجعل يقول: (إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته) فاتاهم رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال له: «لوسألتني هذه القطعة ما أعطيتها، ولن تعدوا أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت بن قيس يحبك عني»، ثم انصرف عنه.

قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ: (إنك أرى الذي أريت فيه ما رأيت) فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بيننا أنا نائم رأيت في يديّ سوارين من ذهب، فأهني شأنها، فأوحي إليّ في المنام أن انفخهما، فنفختهما فذهبا، فأولتهما كذايين يخرجان»^(٢).

والكذابان: أحدهما الأسود العنسي الذي ادعى النبوة بصنعاء وقد قتل قبل وفاة النبي بيوم وليلة، وجاء الخبر بذلك صبيحة دفن النبي. والآخر مسيلمة: ادعى النبوة في بني حنيفة حتى قتل في خلافة الصديق.

(١) فتح الباري ج ٨ ص ٦١.

(٢) رواه البخاري.

وفي رواية أخرى للبخاري أن مسيلمة قال للنبي : (إن شئت خلينا بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك) فأجابه النبي بما أجاب به .
وسياق هذه القصة في الصحيح يخالف ما ذكره ابن إسحاق وهو أن مسيلمة وفد مع قومه، وأنهم تركوه في رحالهم يحفظها لهم، وذكروه لرسول الله ﷺ، وأخذوا منه جائزته، وأنه قال لهم : «إنه ليس بشركم» وأن مسيلمة لما ادعى أنه أشرك في النبوة مع رسول الله احتج بهذه المقالة؛ وهذا مع شذوذه ضعيف السند لانتقاعه، وأمر مسيلمة كان عند قومه أكثر من ذلك، فقد كان يقال له : رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم، فالمعول عليه ما في صحيح البخاري (١).

وفد أهل نجران (٢)

وقد روي أن رسول الله ﷺ كتب لهم كتاباً يدعوهم فيه إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة العباد، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فالحرب. والظاهر أن هذا الكتاب كان سنة تسع (٣) بعد نزول قوله تعالى :

﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٤).

فكان أنهم لما جاءهم كتاب رسول الله ﷺ خرجوا إليه في أربعة عشر من أشrafهم، وقيل في ستين ركباً، منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم : العاقب، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذي يصدر عن رأيه، والسيد وهو صاحب رحلتهم، وأبو الحارث أسقفهم، وحبرهم وصاحب مدراسهم. فقدموا على

(١) فتح الباري ج ٨ ص ٧٣.

(٢) نجران بفتح النون: بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، حوله قرى كثيرة.

(٣) فتح الباري ج ٨ ص ٧٦.

(٤) سورة التوبة: الآية ٢٩.

النبي ﷺ، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحبرة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفي أيديهم خواتيم الذهب، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه» ثم أتوا النبي ﷺ، فأعرض عنهم ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان: من أجل زيَّكم هذا، فانصرفوا يومهم هذا، ثم غدَّوا عليه بزي الرهبان فسلموا عليه، فردَّ عليهم ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال النبي ﷺ: «يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً».

وكثر الجدال والحجاج بينه وبينهم، والنبي يتلو عليهم القرآن ويقرع باطلهم بالحجة، وكان مما قالوه لرسول الله: ما لك تشتم صاحبنا تقول إنه عبد الله، فقال: «أجل، إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول» فغضبوا، وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب فإن كنت صادقاً فأرنا مثله؟ فأنزل الله في الرد عليهم قوله سبحانه: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(١) فكانت حجة دامغة شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه.

فلما لم تجد معهم المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة دعاهم إلى المباهلة^(٢) امثالاً لقول الله عزَّ شأنه: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٣).

وخرج النبي ومعه علي، والحسن، والحسين، وفاطمة وقال: «وإذا أنا دَعَوْتُ فَأْمَنُوا» فائتمروا فيما بينهم، فخافوا الهلاك لعلمهم أنه نبي حقاً، وأنه

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٥٩ - ٦٠.

(٢) الدعاء باللعة، ثم شاعت في مطلق الدعاء؛ والمباهلة مشروعة حيث يتعذر عن طريق الجدال والمناظرة الوصول إلى الحق، ويأبى الخصم - كما هنا - الخضوع للحجة والبرهان.

فلم يبق إلا اللجوء إلى استئزال غضب الله ولعنته وهلاكه على القوم الكاذبين.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦١.

ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه وقالوا: احكم علينا بما أحببت، فصالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب، وألف في صفر، وعلى عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين رمحاً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين فرساً إن كان باليمن كيد، واشترط عليهم أن لا يتعاملوا بالربا، وأمنهم على أنفسهم ودينهم وأموالهم وكتب لهم كتاباً جاء فيه:

«ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم، وملتهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم وبيعهم، لا يغير أسقف على سقيف، ولا راهب عن رهبانيته، ولا واقف عن وقفانيته» وأشهد على ذلك بعض المسلمين، ثم رجعوا إلى بلادهم فلم يلبث العاقب والسيد إلا يسيراً حتى رجعا إلى النبي فأسلما، وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري وأقام أهل نجران على ذلك حتى توفى الله نبيه.

وتولى الصديق الخلافة فأحسن معاملتهم وأوصى بهم عند وفاته، وفي عهد الفاروق عمر تعاملوا بالربا، فأخرجهم من أرضهم وكتب لهم: (هذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لنجران من سار منهم أنه آمن بأمان الله، لا يضرهم أحد من المسلمين، وفاء لهم بما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبوبكر، أما بعد: فمن وقعوا به من أمراء الشام، وأمراء العراق فليوسعهم من جريب الأرض فاعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة، وعقبة لهم بمكان أرضهم لا سبيل عليهم فيه لأحد، ولا مغرم. أما بعد: فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة، وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن تقدموا، ولا يكلفوا إلا من ضيعتهم التي اعتملوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم) وأشهد على ذلك عثمان بن عفان وآخر، فوقع أناس منهم بالعراق فنزّلوا النجرانية التي بناحية الكوفة، وذهب بعضهم إلى الشام^(١).

وما حدث من النبي وخليفته هو غاية العدل والإحسان والتسامح مع النصارى، ولولا أنهم تعاملوا بالربا، وأصبحوا يكونون خطراً اجتماعياً

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٥٨.

واقتصادياً في بلاد اليمن لما أجلاهم الفاروق، ولكنهم هم الذين أساؤوا لأنفسهم بنقض العهد الذي عاهدهم عليه رسول الله ﷺ.

بعث أبي عبيدة معهم

ولما عزموا على الرجوع إلى بلادهم قالوا للنبي: ابعث معنا رجلاً أميناً ليقبض منهم مال الصلح، فقال لهم: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام قال: «هذا أمين هذه الأمة».

وفد طيء وعدي بن حاتم

قدمنا أن رسول الله ﷺ من على سفانة أخت عدي لما جيء بها في سبايا طيء، وأن عدياً كان هرب بأهله وولده لما سمع بخيل المسلمين، فذهبت أخته إليه بالشام، وأشارت عليه أن يقدم على رسول الله فيسلم. فذهب إلى المدينة حتى جاء المسجد النبوي فسلم عليه فقال: «من الرجل؟» فقلت: عدي بن حاتم فقال لي: «يا عدي أسلم تسلم» ثلاثاً، فقلت: إني على دين قال: «أنا أعلم بدينك منك!! أأنت ركوسياً، وأنت تأكل مرباع قومك^(١)؟» قلت: بلى، قال: «هذا لا يحل لك في دينك» قلت: نعم، وكان رأى من تواضع النبي مع الناس ومعه ما جعله يعتقد أنه نبي مرسل، يعلم ما يجهل، وليس بملك.

ثم قال النبي: «لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكنَّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخولك فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكنَّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بغيرها حتى تزور هذا البيت، ولعلك إنما يمنعك من دخولك فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وإيَّهم الله ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم».

(١) الركوسية: دين بين النصارى والصابئة كما في النهاية، والمرباع ربع الغنيمة.

فأسلم وحسن إسلامه، وشارك في فتح بلاد فارس، ورأى المرأة تخرج من أقاصي البلاد إلى الكعبة وهي آمنة، وكان يقول: وإيّم الله ولتكونن الثالثة.

وفد زيد الخيل

وقدم وفد من طيّء على رسول الله وفيهم زيد الخيل^(١) وهو سيدهم، فلما انتهوا إليه كلموه، فعرض عليهم الإسلام، فأسلموا وحسن إسلامهم، وقد أجاز رسول الله كل رجل خمس أواق فضة، وأجاز زيدا اثنتي عشرة أوقية ونشاً وقال: «ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ الذي فيه». ثم سمّاه زيد الخير، وقطع له قيد^(٢)، وأرضين، وكتب له بذلك كتاباً، ثم رجع مع قومه، فلما كان بالطريق مات، فعمدت امرأته إلى كل ما كان معه من الكتب فحرقتها ومنها كتاب رسول الله بما أقدمه إياه!!

وفد بني عامر

وقدم على رسول الله وفد بني عامر وفيهم عامر بن الطفيل، وأزبد بن قيس، فلما انتهوا إلى رسول الله قال عامر: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال: «لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم» قال عامر: أنجعل لي الأمر - إن أسلمت - من بعدك؟ فقال رسول الله: «ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنة الخيل» قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد، اجعل لي الوبر ولك المدر، فقال رسول الله: «لا» قال: أما والله لأملأها عليك خيلاً ورجالاً، فقال النبي ﷺ: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل».

وكان هو وأزبد قد تواطأ على اغتيال النبي فعصمه الله منها، فلما خرجا راجعين إلى بلادهم نزل عامر في بيت امرأة من بني سلول، فأصيب بغدة^(٣) في

(١) قيل: سمي زيد الخيل لخمس أفراس كانت لها أسماء أعلام.

(٢) قيد: بفتح القاف وسكون الياء: اسم قرية.

(٣) داء يصيب البعير وهو شبيه بالذبيحة التي تصيب ابن آدم.

عنقه، فصار يقول: أعدة كغدة الإبل، وموت في بيت سلولية، فوثب على فرسه، وأخذ رمحه، وصار يعدو بفرسه حتى سقط عنه ميتاً!!.

وأما أريد فقد وصل إلى أرض بني عامر فقالوا: ما وراءك يا أريد؟ قال: لا شيء، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله. فخرج بعد ذلك بيوم أو يومين معه جمل له يبيعه، فأرسل الله عليه وعلى جملة صاعقة فأحرقتهما، وفي شأن عامر وأريد أنزل الله سبحانه قوله: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وهو شديد المحال﴾^(١).

قدوم رسول ملوك حمير إلى رسول الله

وفي شهر رمضان سنة تسع مرجع رسول الله ﷺ من تبوك وفد عليه مالك بن مرارة الرهاوي رسول ملوك حمير بكتابهم وإسلامهم، فأمر بلالاً أن ينزله ويكرمه، وكتب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبدكلال، وإلى نعيم بن عبدكلال، وإلى النعمان قُيْلَ ذي رُغَيْن، ومعاقر، وهمدان: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله النبي إلى الحارث بن عبدكلال...: أما بعد ذلكم: فلإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا الله، فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم، فلقينا بالمدينة، فبلغ ما أرسلتم به، وخبرنا ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بهداه أن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبي صلى الله عليه وسلم وصفيه...».

ثم ذكر زكاة الزرع والإبل والبقر والغنم، وكذلك أرسل إلى زرعة ذي يَزَن يوصيه برسله وعماله إليهم خيراً^(٢).

(١) سورة الرعد: الآيات ٨ - ١٣.

(٢) البداية والنهاية ج ٥ ص ٧٥.

وفد أهل اليمن

وقدم على النبي ﷺ في سنة تسع وفد اليمن، وقد جاؤوا فوجدوا وفد بني تميم عند النبي، ولكنهم كانوا أوفقه منهم وأرق، روى البخاري في صحيحه أنه لما جاء بنو تميم إلى رسول الله ﷺ قال: «أبشروا بني تميم» فقالوا: أما إذ بشرتنا فأعطنا، فتغير وجه رسول الله ﷺ، فجاء ناس من أهل اليمن فقال النبي: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قد قبلنا يا رسول الله جئناك لتتفق في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر^(١) ما كان؟ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله - وفي رواية غيره - وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء»^(٢).

وفي شأن هذا الوفد روى البخاري في صحيحه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوباً. الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم».

وقد ترجم البخاري في باب الوفود «باب قدوم الأشعرين وأهل اليمن» وليس معنى هذا أن قدوم الأشعرين كان سنة تسع، فالثابت في الصحيح والسير أن قدومهم كان سنة سبع عقب خيبر، وهذا يشهد لما ذكرته في صدر فصل الوفود من عدم التقيد بالوفود التي وفدت عام تسع.

وفود أخرى

وفد وائل بن حجر

وقدم وائل بن حجر بن ربيعة أحد ملوك اليمن، وقد بشر النبي به أصحابه فقال: «يأتيكم بقية أبناء الملوك»، فلما دخل رحّب به، وأدناه من نفسه، وبسط له رداءه وقال: «اللهم بارك في وائل وولده، وولد ولده» واستعمله على الأقيال من حضرموت.

(١) يعني بدء الخلق.

(٢) فتح الباري ج ٨ ص ٩، ج ٦ ص ٢٣٠.

وفد الأزد

وقد وفد الأزد من اليمن، فأعجب الرسول ما رأى من زعيمهم وسمتهم، ثم سألهم «ما أنتم؟» فقالوا: مؤمنون، فسألهم عن حقيقة قولهم وإيمانهم، فذكروا خمس عشرة خصلة: خمس أمرتُنا بها رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتُنا أن نعمل بها، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «ما الخمس التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها؟» قلنا: أمرتُنا أن نؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، قال: «وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟» قلنا: أمرتُنا أن نقول: لا إله إلا الله، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، فقال: «وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية؟» قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق في موطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. فقال لهم الرسول: «حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»^(١).

وقدم الأشعث بن قيس في ثمانين راكباً من أشراف كندة وكان من ملوكهم، وقد رجّلوا جميعهم^(٢)، وتكحلّوا، عليهم جيب الحبرة قد كفّفوها بالحرير، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ مسجده قال لهم: «ألم تسلموا؟» قالوا: بلى، قال: «فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟» فشقّوه منها فألقوه، وأسلموا.

ثم ارتدّ الأشعث فيمن ارتد من الكنديين بعد وفاة النبي، ثم أُسر وجيء به إلى الصديق، فندم، ورجع إلى الإسلام، وزوّجه الصديق أخته أم فروة، وقد حسن حاله وشارك في الفتوحات الإسلامية، وقد اتفق الذين كتبوا في تاريخ الصحابة على عده من الصحابة.

(١) البداية ج ٥ ص ٩٤.

(٢) الجمعة: الشعر يبلغ المنكيين، ورجلوا: سرحوا.

وفد الدارين

وقدم وفد الدارين^(١) على رسول الله منصرفه من تبوك، وهم عشرة نفر فيهم تميم الداري وأخوه نعيم، وكانوا نصارى فأسلموا، وأقاموا بالمدينة حتى توفي رسول الله، وكان النبي أقطع نعيماً أرضاً بالشام، فلما تولى الخلافة الصديق أعطاه ذلك.

وفد تغلب

وقدم وفد تغلب ستة عشر رجلاً مسلمين ونصارى عليهم صُلب الذهب، فنزلوا دار رملة بنت الحارث - وكانت معدة للوفود - فصالح رسول الله ﷺ النصارى منهم على أن يقرهم على دينهم، على أن لا يصبغوا أولادهم في النصرانية^(٢)، وأجاز المسلمين منهم بجوائزهم.

* * *

وبذلك أظهر الله دينه على الأديان كلها، ودانت الجزيرة من بلاد الشام إلى بلاد حضرموت لله ولرسوله، إلا بعض بطون من قبائل العرب لم تلبث أن أسلمت وأذعنّت سنة عشر.

* * *

(١) نسبة إلى الدار بطن من لخم.

(٢) أي أن لا يعمدوهم في ماء المعمودية.

السَّنةُ العَاشِرَةُ مِنَ الْهَجْرَةِ

سرية خالد بن الوليد

في ربيع الآخر أوجمادى الأولى من سنة عشر أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم، فخرج خالد حتى قدم إليهم ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله، وسنة نبيه، ثم أرسل إلى رسول الله كتاباً يخبره خبرهم، فكتب إليه أن يبشرهم وينذرهم وأن يُقبل، ويُقبل معه وفدهم.

فأقبل خالد ومعه وفدهم، منهم قيس بن الحصين، فكلَّمهم وسألهم: «بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟» قالوا: إنا كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبداً أحداً بظلم، قال «صدقت»، ثم أمر عليهم قيس بن الحصين وعادوا إلى قومهم في شوال أو صدر ذي القعدة.

بعث عمرو بن حزم

ثم بعث إليهم رسول الله ﷺ بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حزم ليفقههم في الدين، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب له كتاباً عهد إليه فيه عهده، وأمره بأوامره، وبين له المنهج الذي يتبعه معهم في الحكم، والتربية، والتعليم، والتأديب، ثم ختمه بما يأخذه من المغانم وهو الخمس، وبين له أنصبة الزكاة في الزروع وفي الإبل والبقر والغنم. وقد ذكر الكتاب بطوله الإمام محمد بن إسحاق^(١) في سيرته، والنسائي في سننه، والبيهقي في السنن.

(١) سيرة ابن هشام، ج ٣ ص ٥٩٤.

سرية علي بن أبي طالب

وفي رمضان أرسل رسول الله ﷺ علياً في جمع إلى بني مذحج، وهي قبيلة يمانية، وعَمَّمه بيده، وقال: «سر حتى تنزل بساحتهم، فادعهم إلى قول: لا إله إلا الله، فإن قالوا: نعم فمرهم بالصلاة، ولا تبغ غير ذلك، ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك».

فلما انتهى إليهم لقي جموعهم، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل، فصفَّ علي أصحابه وأمرهم بالقتال، فقاتلوا حتى هزموا عدوهم، فكفَّ عن طلبهم قليلاً، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام، فأجابوا وبايعه رؤساؤهم، وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا، فخذ منها حق الله ففعل.

وفد بجيلة^(١)

وقدم جرير بن عبدالله البجلي في رمضان سنة عشر على النبي ومعه من قومه مائة وخمسون رجلاً، وكان رسول الله ﷺ قال: «يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذي يمن، على وجهه مسحة ملك»، فطلع جرير على راحلته ومعه قومه، فأسلموا وبايعوا.

وروي أن رسول الله بسط عليه كساء ثم التفت إلى أصحابه وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» وفي الصحيحين عن جرير قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم».

وفد أحس

وقدم قيس بن عزة الأحسي في مائتين وخمسين رجلاً من أحس - أخوة بجيلة - فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أنتم؟» فقالوا: نحن أحس الله، وكان يقال لهم ذاك في الجاهلية، فقال لهم: «وأنتم اليوم لله»، وقال لبلال: «أعط ركب بجيلة وابدأ بالأحسيين» ففعل.

(١) بجيلة على وزن حنيفة قبيلة باليمن.

ولما أسلم جرير قال له رسول الله: «ألا تريحني من ذي الخلصة؟»^(١)، فانطلق في مائة وخمسين من أحس وكانوا أصحاب خيل، فاشتكى إلى رسول الله أنه لا يثبت على الخيل، فضرب في صدره ودعا له قائلاً: «اللهم ثبته، واجعله هادياً مهدياً»، فلم يسقط بعُد عن فرس، ثم ذهب ومن معه حتى جاء إليها فخرَّبها وحرَّقها، وأرسل إلى رسول الله من يبشر بذلك، فبارك رسول الله على خيل أحس ورجالها (خمس مرات)^(٢).

* * *

(١) ذو الخلصة: بيت باليمن الخثعم كانوا بنوه يضاهثون به الكعبة وبه نُصِبُ تُعْبَد.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

بعث العمال والقضاة والأمراء إلى اليمن

بعث معاذ بن جبل إلى اليمن

بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي الإمام المقدم في علم الحلال والحرام إلى اليمن قاضياً ومفتهاً، وأميراً، ومصدّقاً^(١)، وجعله على أحد مخلافيها^(٢) وهو الأعلى، وفي طبقات ابن سعد أن النبي ﷺ كتب إلى أهل اليمن لما بعث معاذاً: «إني بعثت لكم خير أهلي».

ولما خرج معاذ متوجهاً إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يودعه ويوصيه، ومعاذ راكب، ورسول الله يمشي تحت راحلته، فأوصاه بوصايا كثيرة، منها: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن»^(٣).

وقال له - وقد وضع رجله في الغرز^(٤) -: «حسن خلقك للناس»^(٥) رواه مالك في الموطأ، وقال له أيضاً: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة، فإن هم

(١) المصنّف بتشديد الدال: أخذ الزكاة.

(٢) المخلاف بكسر الميم بلغة أهل اليمن: الإقليم والكورة والريستانق، وكانت إمارة معاذ على المخلاف الأعلى، واليمن مخلافان.

(٣) رواه أحمد والترمذي.

(٤) الغرز: هو للإبل كالسرج للفرس، وهو ما يركب عليه.

(٥) رواه مالك في الموطأ.

أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(١).

وما أجله من منهج يجب أن يسلكه المربون والمعلمون، والهداة والمصلحون.

وكذلك أراد النبي أن يعرف علمه بالقضاء حين بعثه فقال له: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟» قال: أقضي بما في كتاب الله، قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله؟» قال: أجتهد - وإني لا آلو - أي لا أقصر، قال: فضرب رسول الله صدره ثم قال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»^(٢). وهذا يدل على فقه معاذ، وعلمه بأصول القضاء.

فلما فرغ رسول الله من وصاياه قال له: «يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري» فبكى معاذ خشعاً لفراق الرسول. وكذلك وقع الأمر كما أشار الرسول، فقد أقام معاذ باليمن، ولم يقدم إلا بعد وفاة الرسول ﷺ.

بعث أبي موسى الأشعري

وكذلك بعث رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري اليمني إلى خلاف اليمن الآخر وهو الأسفل، قاضياً ومفتهاً وأميراً ومصديقاً، وأوصاه ومعاذاً فقال: «يسراً ولا تعسراً، وبشراً ولا تنفراً، وتطاوعاً ولا تختلفاً»^(٣).

وقد عملاً بوصية النبي، وانطلق كل واحد منها إلى عمله، وصارا يتزاوران ويتحابان في الله، وقد سأل أبو موسى رسول الله فقال: يا نبي الله،

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

(٣) رواه البخاري.

إن أرضنا بها شراب من الشعير - المزر - وشراب من العسل - البتع - فقال: «كل مسكر حرام».

وقد دَلَّ بَعَثُ النبي لأبي موسى على أنه كان عالماً فظناً حاذقاً، ولولا ذلك لم يؤلِّه النبي ﷺ الإمارة والقضاء، ولو كان فَوْضُ الحكم لغيره لم يحتج إلى توصيته بما وصاه به، ولذلك اعتمد عليه عمر، ثم عثمان، ثم علي.

وأما الخوارج والروافض فقطعوا فيه ونسبوه إلى الغفلة وعدم الفطنة لما صدر منه في التحكيم بصفين، قال ابن العربي وغيره: والحق أنه لم يصدر منه ما يقتضي وصفه بذلك، وغاية ما وقع منه أن اجتهداه أداه إلى أن يجعل الأمر شورى بين من بقي من أكابر الصحابة من أهل بدر ونحوهم، لما شاهد من الاختلاف الشديد بين الطائفتين بصفين، وآل الأمر إلى ما آل إليه^(١).

بعث علي بن أبي طالب

وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إلى اليمن ليقبض خمس الغنائم التي غنمها خالد بن الوليد، وهو يجاهد في اليمن وليخلفه في الجهاد، فذهب واستلمه واصطفى منه جارية لنفسه، فأثار ذلك نفس أحد الصحابة عليه وهو بريدة الأسلمي، وكان في نفسه من علي شيء، فلما قدم على النبي ذكر ذلك له فقال: «يا بريدة أتبغض علياً؟»، قال: نعم. قال: «لا تبغضه، فإن له في الخمس أكثر من ذلك»^(٢). قال بريدة: فما كان أحد من الناس أحب إلي من علي.

وفي صحيح البخاري أن علياً بعث إلى رسول الله ﷺ من الخمس بذهية لم تخلص من تبرها من الخمس، فقسمها النبي بين أربعة: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وزيد الخيل، وعلقمة بن علاثة العامري، وكذلك بعثه مصداقاً كما رواه البيهقي^(٣).

(١) فتح الباري، ج ٧ ص ٥٠.

(٢) رواه البخاري.

(٣) البداية والنهاية، ج ٥ ص ١٠٥.

وقد وكل إليه القضاء أيضاً. روى أحمد وأبو داود والترمذي عن علي قال: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن، فقلت يا رسول الله تبعني إلى قوم أسن مني وأنا حديث السن لا أبصر القضاء؟ فوضع يده على صدري وقال: «اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه»، وقال: «يا علي، إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر، فإنك إن فعلت ذلك تبين لك». قال علي: فما أشكل علي قضاء بعد^(١). ثم رجع علي رضي الله عنه إلى رسول الله فوافاه بمكة في حجة الوداع.

أمراء وعمال آخرون

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات (الزكاة) إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان. فبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء، فخرج عليه الأسود العنسي وهو بها.

وبعث زياد بن لبيد الأنصاري إلى حضرموت وعلى صدقاتها.

وبعث عدي بن حاتم على طيء وصدقاتها، وعلى بني أسد.

وبعث مالك بن نويرة اليربوعي على صدقات بني حنظلة.

وفرق صدقة بني سعد على رجلين منهم: فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية منها، وقيس بن عاصم على ناحية.

وكان قد بعث العلاء بن الحضرمي على البحرين.

وفي صحيح البخاري أن النبي استعمل ابن اللثيمة - وقد سماه ابن سعد وغيره عبدالله - على صدقات بني سليم، ومن استعملهم النبي يزيد بن أبي سفيان على صدقات بني فراس وكانوا أخواله^(٢).

(١) فتح الباري، ٨ ص ٥٣.

(٢) الإصابة، ج ٣ ص ٦٥٦.

جملة المغازي، والسرايا، والبعوث

ها نحن قد انتهينا - والله الحمد والمنة - من غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ وأصحابه، فلنذكر جملة المغازي والسرايا والبعوث، فأقول وبالله التوفيق:

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما^(١) عن أبي إسحاق السبيعي قال: كنت إلى جنب زيد بن أرقم، فقلت له: كم غزا النبي ﷺ من غزوة؟ قال: تسع عشرة، فقلت: كم غزوت أنت معه؟ قال: سبع عشرة، قلت: فأيهن كانت أول؟ قال: العشير، أو العسيرة^(٢)، فذكرت لقتادة قال: العسيرة^(٣).

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن بريدة قال: (غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة، قاتل في ثمانٍ منهن)، وعلى هذا يتفق ما رواه زيد بن أرقم، وما رواه بريدة في العدة، ويكون مرادهما الغزوات التي خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه سواء قاتل أو لم يقاتل، وأما قوله: (قاتل في ثمانٍ منهن)، فلعله لم يعدد الفتح - كما قال الإمام النووي - ويكون مذهبه أنها فتحت صلحاً، كما قال

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة العسيرة، وباب «كم غزا النبي»، وصحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب عدد غزوات النبي ﷺ.

(٢) الأولى بالشين المعجمة بلا هاء. والثانية بالسين المهملة وبالهاء على صيغة المصغر فيهما.

(٣) يعني بالشين المعجمة، وبالهاء على صيغة المصغر، وهي التي اتفق عليها أهل السير وإن كان الكل صحيحاً.

الشافعي وموافقه، أولعله اعتبر الخندق وبني قريظة غزوة واحدة، ويقول بريدة رضي الله عنه - قال موسى بن عقبة وهو من أئمة أهل المغازي^(١).

ولا يعكّر على هذا ما رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: (غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة، قال جابر: لم أشهد بديراً ولا أحداً؛ منعني أبي - وذلك ليكون مع أخواته البنات - فلما قُتل عبد الله يوم أحد لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة قط)، ومقتضى هذا أن عدد غزوات الرسول ﷺ إحدى وعشرون.

وذلك لأن زياداً فاته ذكر اثنتين منها وهما: الأبواء، وبواط، فقد كانتا قبل العُشيرة قطعاً؛ وكأن ذلك خفي عليه لصغره، ولعلهما خفيتا أيضاً على بريدة أو نسيهما، على أن ذكر الأقل لا ينفي ذكر الأكثر، والعبارة في الروایتين غير حاصرة.

والذي ذكره ابن إسحاق في سيرته أنها سبع وعشرون غزوة، قال: (وكان جميع ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، منها: غزوة ودّان، وهي غزوة الأبواء، ثم غزوة بطواط من ناحية رَضوى؛ ثم غزوة العُشيرة من بطن ينبع، ثم غزوة بدر الأولى بطلب كرز بن جابر، ثم غزوة بدر الكبرى، التي قتل فيها صناديد قريش، ثم غزوة بني سُليم حتى بلغ الكُدْر ثم غزوة بَحْران - معدن بالحجاز - ثم غزوة أحد، ثم غزوة حمراء الأسد، ثم غزوة بني النضير، ثم غزوة ذات الرقاع من نخل، ثم غزوة بدر الآخرة، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قريظة، ثم غزوة بني الحَيان من هذيل، ثم غزوة الحديبية، لا يريد قتالاً، فصدّه المشركون، ثم غزوة تبوك. قاتل منها في تسع غزوات: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، والفتح، وحنين، والطائف^(٢)).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢ ص ١٩٥؛ فتح الباري، ج ٧ ص ٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢ ص ٦٠٨، ٦٠٩.

أقول: ولم يذكر ابن إسحاق «غزوة بني قينقاع» مع أنها أولى بتسميتها غزوة من عمرة القضاء، وهذا يدل على أن المسألة اعتبارية، وهي مما تختلف فيها الأنظار، ولا أدري السبب في عدم ذكر غزوة بني قينقاع إلا أن يكون سهواً، والكمال لله والعصمة لرسوله، كذلك خالفت ابن إسحاق في ترتيبه للغزوات بناء على الدليل والبرهان، وقد بينت ذلك ثم قال ابن إسحاق: وكانت بعوثه ﷺ وسراياه ثمانى وثلاثين من بين بعث وسرية. ثم شرع - رحمه الله - في تفصيل ذلك.

* * *

وقال موسى بن عقبة في مغازيه: (قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه في ثمان: بدر، ثم أحد، ثم الأحزاب، ثم المصطلق، ثم خيبر، ثم مكة، ثم حنين، ثم الطائف)، فأهمل غزوة قريظة لأنه اعتبرها والأحزاب غزوة واحدة، بينها أفردا ابن إسحاق، وعلى هذا لا تنافي بين ما ذكره موسى بن عقبة، وما ذكره ابن إسحاق.

* * *

وكذلك عدّ ابن سعد في «الطبقات» المغازي سبعاً وعشرين، وتبع في ذلك الواقدي، وهو موافق لما ذكره ابن إسحاق كما قدمنا. قال الحافظ ابن حجر في الفتح: إلا أنه لم يفرد وادي القرى من خيبر، أشار إلى ذلك السهيلي، وكان الستة الزائدة من هذا القبيل، وعلى هذا يحمل ما أخرجه عبدالرزاق بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيّب قال: (غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعاً وعشرين غزوة) وأخرجه يعقوب بن سفيان عن سلمة بن شبيب عن عبدالرزاق، فزاد فيه: أن سعيداً قال أولاً ثمانى عشرة، ثم قال أربعاً وعشرين. قال الزهري فلا أدري أوهم - غلط - أو كان شيئاً سمعه بعد؟ قلت - أي الحافظ -: وحمله على ما ذكرته يدفع الوهم ويجمع الأقوال، والله أعلم.

* * *

وأما البعوث والسرايا فقد عدها ابن إسحاق ثمانى وثلاثين، وعدّها الواقدي ثمانى وأربعين، وعدّها ابن سعد ستاً وخمسين، وحكى ذلك

ابن الجوزي في «التلخيص»، وعدها المسعودي ستين، وبلغها الحافظ العراقي في نظم السيرة زيادة على السبعين، ووقع عند الحاكم في «الإكليل» أنها تزيد على مائة؛ فلعله أراد ضم المغازي إليها، كما قال الحافظ في الفتح.

* * *

فلا يهولنك - أيها القارئ الفطن - ما ترى من اختلاف في العدة، فالعبارات ليست حاصرة، والعدد كما يقول بعض الأصوليين لا مفهوم له؛ فذكر الأقل لا ينفي ذكر الأكثر، والمسألة كما قلت لك اعتبارية، فمن ثم اختلفت العبارات في العدة لاختلاف الاعتبارات؛ وكلُّ أخبر بما علم، وقد يكون عند الواحد من صحابة رسول الله ﷺ ما ليس عند الآخر، وقد يشهد الواحد منهم ما لا يشهد الآخر.

وهذا هو اللائق بصحابة رسول الله ﷺ والرعيّل الأول من المسلمين، الذين نشروا الإسلام وضحوا في سبيله بالنفس والنفيس، والأهل والولد، وكان الواحد منهم لأن يخر من أعلا جبل، أهون عليه من أن يكذب على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، أو يصفه بما ليس فيه، أو ينسب إليه ما لم يصدر عنه.

وكانوا من العدالة، ومن الصدق، والضبط بالمحل الأرفع، وكيف لا وقد أثنى الله عليهم بالثناء المستطاب في القرآن الكريم، وضرب بهم الأمثال في التوراة والإنجيل، وأثنى عليهم الرسول الكريم غاية الثناء؟

ولا تعجب - يا قارئ الحصيف - إذا كنت أعنى بالتوفيق بين الآيات القرآنية، والأحاديث والمرويات، لأن هذا من جلِّ مقاصدي في هذا الكتاب أن أبين أن آيات الله يصدّق بعضها بعضاً، وتعارف ولا تتناكر، وتتآلف ولا تتخالف، وأن الأحاديث الصحيحة الثابتة لا يرد بعضها بعضاً، ولا يناقض بعضها البعض الآخر، وأن لهذه وتلك مخارج صحيحة لمن أعمل الذهن، وقدر الفكر، وتناولها بالقلب المؤمن، والعقل المتشد البصير، رزقني الله وإياك إيماناً ثابتاً لا يتزعزع، وقلباً بصيراً تقياً، من الشكوك نقياً، وعلماً نافعاً، ولساناً ذاكرةً،

وبالحق قوالاً، وعن الإسلام ورجالاته منافعاً، وأتم عليّ وعليك نعمة الإسلام.
ولسان حالي يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

حجّة الوداع

ها هي الوفود قد جاءت تترى من كل ناحية، وأضحت الجزيرة العربية مؤمنة موحدة، وها هي دعائم الإسلام وشرائعه قد استقرت وبينها النبي بقوله وعمله، ولم يبق من أصول الإسلام ما هو في حاجة إلى البيان القولي والعملي من النبي ﷺ إلا الحج، وها هو الصديق قد مهّد بالحج سنة تسع للنبي أن يحج بالناس ليقفهم على مناسكه كما شرعه الله من لدن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولينفي عن الحج ما شابه من بدع ومستحدثات، وإنا لنلمس هذا المعنى جلياً في قوله ﷺ: «كونوا على مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم»^(١). وقوله في هذه الحجة وهو يرمي جمرة العقبة: «لتأخذوا مناسككم، فإنني لا أدري لعلّي لا أحج بعد حجتي هذه» رواه مسلم.

وتسمى هذه الحجة حجة الوداع، لأن النبي ﷺ ودّع المسلمين بهذا القول، وحجة الإسلام لأنه لم يحج بعد الهجرة غيرها، وأما قبل الهجرة فقد حجّ مراراً قبل النبوة وبعدها، وحجة البلاغ لأن النبي بلغّ الناس شرع الله في الحج قولاً وعملاً، وذكرهم بالمهم من شرائع الإسلام، وحقوق الإنسان، وأشهد الله والناس على ذلك.

الأذان بالحج

ولم يكد يحل شهر ذي القعدة من هذا العام حتى أخذ رسول الله في التجهز للحج، وأذن في الناس بذلك، وأمرهم بالتجهز، فصادت الدعوة هوى في

(١) رواه النسائي وأبوداود والترمذي وابن ماجه .

النفوس، فجاء الناس من كل فج وصوب، من القرى والبوادي، والسهل والجبل، والوديان والصحاري، مشاة وركباً، تحذوهم الرغبة الصادقة في حج بيت الله مهوى القلوب، ومثابة للناس، والحرص على أن يحظوا بالشرف الرفيع شرف مصاحبة الرسول، والنظر إليه، والسماع منه، وضرب حول المدينة الخيام لمائة ألف أويزدون، وحّد بينهم الإسلام، وربط قلوبهم على المحبة والإخاء، بعد أن كانوا أوزاعاً متفرقين، وأعداء متنازعين.

الخروج للحج

وفي يوم السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة خرج رسول الله ﷺ في هذه الألوف المؤلفة بعد أن صلى الظهر بالمدينة أربعاً، وقد استخلف عليها أبادجانة، وقيل: سباع بن عرفطة، حتى وصل إلى ذي الحليفة^(١)، فصلّى العصر بها ركعتين ثم بات بها، فلما أصبح اغتسل للإحرام، وتطيب ولبّد^(٢) رأسه، وصلى ركعتين.

وكان رسول الله قد ساق معه الهدّي، قيل مائة، وقيل دون ذلك، فأشعر واحدة منها وقلّدها نعلين، وتولى إشعار الباقي وتقليده غيره، ثم ركب ناقته (القصواء) وأهلّ بالحج قائلاً: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك»، ولما أشرفت ناقته على البيداء أدخل العمرة على الحج قائلاً: «لبيك بعمرة وحجة»، وأما المسلمون فمنهم من أحرم بحج، ومنهم من أحرم بعمرة، ومنهم من أحرم بعمرة وحج معاً، كما روي في الصحيحين.

وسار الرسول والمسلمون وهم يلبنون ويكبرون ويهللون، لا ينفكون عن ذلك كلما علّوا شرفاً — مكاناً عالياً — أو هبطوا وادياً، وتجاوبت الأصدا بالتحديد والتهليل، وشهدت الصحراء هذا المشهد الفريد الذي لم تشهد له مثيلاً من قبل، ولن تشهد له مثيلاً من بعد.

(١) هو موضع على ستة أميال من المدينة وهو ميقات أهلها، ويقال له الآن: أبيار علي.

(٢) التليد: دهن الرأس بشيء لزج كصمغ مثلاً، حتى لا يتشعث ولا يتولّد به هوام.

بم أحرم النبي؟

وقد اختلفت الروايات في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث والسير في صفة إحرامه ﷺ في حجة الوداع اختلافاً كثيراً، واختلف تبعاً لذلك أئمة العلم والفقه والحديث: أكان رسول الله مُفرداً، أم قارناً، أم متمتعاً^(١)؟. وليس من شأني هنا أن أعرض لذلك بالتفصيل، فذلك يحتاج إلى رسالة، ولكنني أقول:

إن الذي عليه المحققون من العلماء أن رسول الله ﷺ أهل بالحج، ثم أدخل عليه الإحرام بالعمرة فصار قارناً، واستمر على ذلك لم يتحلل من عمرته حتى قضى النسكين، لأنه كان ساق معه الهدي كما ذكرنا. ثم إنه ﷺ أمر من أحرم بالحج ولم يسق الهدي أن يجعله عمرة ويتحلل منها، ثم يهل بالحج يوم التروية، فمن ثم حصل هذا الاختلاف، فمن روى أو رأى أنه أهل بالحج فقط أراد ما أهل به أولاً، ومن قال: إنه كان قارناً أراد آخر أحواله، ومن قال إنه كان متمتعاً أراد التمتع اللغوي وهو الانتفاع بالجمع بين الحج والعمرة في أشهر الحج، أو أنه فهم من أمره بالاعتصار على العمرة والتحلل منها ثم الإحرام بالحج بعد أنه كان متمتعاً^(٢).

وأحب أن يضع القارئ الفطن في اعتباره أنه من المستبعد أن تتفق عشرات الألوف هذه كلها على رواية أورأي، إذ لم يسمع الكل من النبي أو يروا ما صنعه في وقت واحد، وبذلك لا يهوله هذا الاختلاف، ويستبعد من تفكيره أن يكون مبعثه التناقض، أو الهوى والتزيد.

وفي سرف — مكان قريب من مكة — أمر رسول الله من أحرم بالحج

(١) المفرد: المحرم بالحج فقط. القارن: أن يحرم بالحج والعمرة معاً. أو يحرم بالحج ثم يدخل عليه العمرة، أو بالعكس. المتمتع: أن يعتمر أولاً في أشهر الحج، حتى إذا فرغ منها أحرم بالحج.

(٢) راجع صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٨ ص ١٣٥؛ وفتح الباري، ج ٣ ص ٣٣٥؛ البداية والنهاية، ج ٥ ص ١٤٠.

ولم يسق الهَدْيُ أن يجعل حجه عمره، وفي (ذي طُوًى) على مشارف مكة بات الرسول وأصحابه حتى صلى بهم الصبح، ثم اغتسل لدخول مكة.

في مكة

ودخلت هذه الجموع الحاشدة مكة من الثنية العليا نهاراً جهاراً، وكان ذلك في يوم الأحد الرابع من ذي الحجة، فلما عاين الرسول البيت قال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، فحِثْنَا - ربنا - بالسلام. اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً، وتكريماً ومهابة وبراً، وزد من حجّه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً، وتعظيماً وبراً»^(١).

الطواف بالبيت

وطاف رسول الله ﷺ وهو راكب ناقته، يستلم الحجر الأسود بمحجن في يده، لأجل أن يراه الناس فيقتدوا به ويسألوه، ولأجل أن لا يصرف عنه الناس فقد غَشَوْه من كل جانب، وطاف بطوافه المسلمون، وأمرهم أن يضطبعوا ويرملوا في الأشواط الثلاثة الأولى^(٢)، ويمشوا على هَيْتِهِم في الأربعة الباقية، حتى إذا فرغ من طوافه أتى مقام إبراهيم وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فصلى وراءه ركعتين، ثم استلم الحجر مرة أخرى.

إلى الصفا والمروة

ثم خرج من باب بني مخزوم إلى الصفا وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾ الآية، وقال: «أبدأ بما بدأ الله به» فصعد عليه حتى عاين البيت فاستقبله قائلاً: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، أنجز وعده، وصدق عبده، وهزم

(١) رواه الشافعي والبيهقي.

(٢) الرمل: هو المرولة، وقد بينت معنى ذلك وحكمته في ص ٣٧٧ وما بعدها من كتابنا هذا.

(٣) هو الحجر الذي قام عليه سيدنا إبراهيم الخليل وهو بيني الكعبة، ولا يزال موجوداً إلى يومنا هذا تجاه باب الكعبة، أما المحجن: فهو عصا معقوفة في آخرها.

الأحزاب وحده» ثم نزل إلى المروة، ثم رجع إلى الصفا وهكذا حتى أتم سبعة أشواط.

فلما فرغ من السعي بينهما أمر أصحابه بأن من لم يكن معه هدي فليجعل حجه عمرة وليتحلل منها، فتباطأ بعض الصحابة في ذلك تأسفاً على عدم الاقتداء به، فطيب خاطرهم، وبين لهم السبب في عدم تحلله فقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي، ولجعلتها عمرة» فحلَّ الناس كلهم وقصروا، ولم يبق محرماً إلا النبي ومن ساق معه الهدي.

إلى الأبطح

ثم سار رسول الله والناس معه حتى نزلوا بالأبطح - مكان فسيح شرقي مكة - وأقام هناك إلى يوم الأربعاء يصلي بأصحابه، ولم يعد إلى الكعبة في تلك الأيام كلها.

قدوم علي

وقدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه من اليمن، فوافى النبي بهذا المكان، ووجد زوجته السيدة فاطمة قد أحلت كما حلَّ أزواج النبي، ولبست ثياباً مصبوغة، فقال: من أمرك بهذا؟ قالت: أبي، فأخبر الرسول بذلك فقال: «صدقت، صدقت» ثم قال له: «بم أهلت؟» قال: (بإهلال كإهلال النبي) وكان معه هدي ساقه معه، فقال له النبي: «امكث على إحرامك»، وقدم أبو موسى الأشعري أيضاً، ولم يكن ساق الهدي فأمره الرسول أن يفسخ حجه إلى العمرة ويتحلل منها^(١).

الخروج إلى منى

وفي يوم الخميس الثامن من ذي الحجة، ويقال له يوم التروية، خرج النبي وأصحابه إلى منى بعد أن أحرم بالحج الذين كانوا قد تحلَّلوا من عمرتهم من الأبطح، وساروا حتى جاؤوا منى، فصلَّى بهم النبي الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر.

(١) رواهما الشيخان.

إلى عرفات

وبعد شروق الشمس خرج النبي قاصداً عرفات، وأمر أن تضرب له قبة (بنمرة)^(١)، فسار رسول الله ولا تشك قريش إلا أنه سيقف بالمشعر الحرام^(٢) كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، ولكن النبي أخلف ظنهم، وسار حتى أتى عرفات اثتماراً بأمر الله في قوله: ﴿ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، فوجد القبة قد ضربت، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس ركب ناقته (القصواء) حتى أتى بطن الوادي (وادي عرنة)، وهنالك خطب خطبته المشهورة الجامعة.

خطبة عرفة

قال ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس: اسمعوا قولي، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع^(٣)، وربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبداً به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب.

وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبداً به دم ابن^(٤) ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب.

وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية^(٥).

والعمد قود^(٦)، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

(١) نمرة: يفتح النون وكسر الميم: موضع بجانب عرفات.

(٢) جبل بالمزدلفة يسمى قزح.

(٣) أي باطل.

(٤) اسمه إلياس، وقيل حارثة، والأول أصح، وهو ابن ابن عم النبي.

(٥) السدانة خدمة الكعبة، والسقاية سقاية الحج.

(٦) قود: قصاص.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إن النسيء^(١) زيادة في الكفر، يُضِلُّ به الذين كفروا، يجعلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متواليات: واحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس: إن لكم على نساءكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تکرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعظوهن، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح^(٢)، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عَوَان^(٣) عندكم لا يملكن لأنفسهم شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله^(٤)، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرءٍ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعنَّ بعدي كفاراً يضرب

(١) كانت العرب تدين بالأشهر الحرم التي يحرمون فيها القتال وربما كانوا يستطيّلون ثلاثة شهور متوالية لحاجتهم إلى الحرب والقتال، فيؤخرون حرمة المحرم إلى صفر ويجعلون صفر مكانه حتى صار التحريم لعدد الأشهر لا لذواتها، وقد غاب عليهم القرآن هذا لاتباعهم الهوى في التحليل والتحريم.

(٢) غير شديد ولا مؤلم.

(٣) جمع عانية وهي الأسيرة أي كالأسيرات في ضعفهن.

(٤) عقد النكاح.

بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله، وسنة نبيه.

أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، وإنه لا وصية لوارث، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث.

والولد للفراش، وللعاهر الحجر^(١)، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً^(٢). وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ويقلبها على الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد، والسلام عليكم ورحمة الله^(٣).

وكان جرير بن عبد الله البجلي يستنصت الناس، وكان ربيعة بن أمية بن خلف يبلغ عن رسول الله ﷺ.

وبعد أن فرغ رسول الله من هذه الخطبة الجامعة أذن بلال ثم أقام فصلی النبي بالناس الظهر، ثم أقام فصلی بهم العصر، جامعاً بينهما جمع تقديم، ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب ناقته حتى جاء الصخرات التي في أسفل جبل الرحمة فوقف عندها مستقبلاً القبلة، حتى غربت الشمس، وقال: «وقفت ههنا وعرفات كلها موقف».

(١) العاهر: الزاني. الحجر: الرجم. والمراد أنه لا ينسب إليه الطفل لأن الولد للفراش.

(٢) الصرف: التوبة. العادل: الفدية.

(٣) السيرة لابن هشام، ج ٢ ص ٣٠٦؛ صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٨

ص ١٨٢ - ١٨٤؛ والبدایة والنهاية، ج ٥ ص ١٧٠ - ١٧١.

وأكثر من الدعاء لأتمته في هذا اليوم العظيم يوم عرفة، وكان يوم الجمعة، هذا اليوم الذي تسكب فيه العبرات، وتستجاب الدعوات، ويتجلى الله فيه على عباده فيباهي بهم الملائكة، ويقول: «يا ملائكتي هؤلاء عبادي جاؤوني شُعْثاً غبراً»^(١)، يرجون رحمتي ويخافون عذابي ولم يروني، فكيف لورأوني، فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل لغفرتها لهم، أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولن شفعتهم فيه»^(٢).

وقد روي: «أن النبي لما أكثر من الدعاء لأتمته بالمغفرة أوحى الله إليه أنه غفر كل شيء إلا ظلم بعضهم بعضاً»^(٣).

ما نزل في يوم عرفة

وفي هذا اليوم المشهور نزل على النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾. ولما نزلت هذه الآية بكى بعض الصحابة - ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وكانهم فهموا منها الإشارة إلى قرب أجل الرسول، ولما قيل لسيدنا عمر: ما يبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا التقصان.

خطأ مشهور

وهو ما يزعمه البعض من أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن، وهو غلط لم يقل به أحد من العلماء، والحق أن آخر آية نزلت هي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

والمراد بإكمال الدين: إما إتمام حجهم على حسب ما شرع الله، وإذلال الشرك وأهله بحيث لم يشاركهم فيه أحد من المشركين، وهو تمام النعمة

(١) بضم الشين، والغين: جمع أشعث وأغبر.

(٢) رواه عبدالرزاق في مصنفه، وأصله في صحيح مسلم كتاب الحج من باب فضل يوم عرفة، وروى نحوه الإمام أحمد في مسنده.

(٣) رواه البيهقي.

عليهم، وإما إكمال الحلال والحرام، وهذا لا ينافي نزول شيء بعدها لا يتعلق بالحلال والحرام^(١).

إلى المزدلفة

ثم ركب النبي ناقته بعد الغروب، وشد زمامها حتى لتكاد رأسها تمس مقدمة الرحل، وأردف وراءه أسامة بن زيد وهو يشير إلى الناس قائلاً: «السكينة، السكينة، ليس البر بالإيضاع»^(٢) حتى أتى إلى «المزدلفة»^(٣)، فصلّى بها المغرب والعشاء جامعاً بينهما جمع تأخير بأذان وإقامتين ولم يتنفل بينهما، ثم اضطجع ﷺ حتى صُلّي الفجر، ثم ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، ودعا الله وأكثر من الدعاء وهلّل، وكبّر، وما زال واقفاً حتى أسفر الصبح جداً.

وقد روي: «أن النبي عاود الدعاء لأمته في المزدلفة، فأكثر من الدعاء، فأوحى الله إليه: إني قد غفرت لهم إلا ظلم بعضهم بعضاً، فقال: يارب إنك قادر على أن تثيب المظلوم خيراً من مظلّمته، وتغفر لهذا الظالم، فلم يجبه هذه العشية، فلما كان غداة المزدلفة أعاد الدعاء، فأوحى الله إليه أنه غفر لهم كل شيء، فجعل إبليس يدعو على نفسه بالويل والثبور، ويخثر التراب على رأسه»^(٤).

إلى منى

ثم دفع رسول الله ﷺ إلى منى قبل أن تطلع الشمس، مردفاً وراءه الفضل بن العباس، حتى أتى وادي مُحَسَّر^(٥) فأسرع بدابته، ثم قصد إلى الجمرة الكبرى «جمرة العقبة» فرماها بسبع حصيات صغار يكبر عند كل حصاة منها، حتى إذا

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم للمؤلف، ص ١٢٥.

(٢) الإيضاع: الإسراع.

(٣) مكان معروف سميت بهذا لأن الناس يزدلفون أي يقتربون فيها إلى الله بالدعاء.

(٤) رواه أبو داود الطيالسي، وروى نحوه البيهقي وابن ماجه.

(٥) محسّر: بضم الميم وفتح الحاء وكسر السين المشددة.

فرغ من الرمي انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده، وقال: «نحرت ههنا ومنى كلها منحر» ونحر سيدنا علي الباقي وهي تمام المائة، ثم أمر أن يؤخذ من كل بدنة بضعة^(١)، فجعلت في قدر فطبخت، فأكل من لحمها وشرب من مرقها.

ثم حلق ﷺ شعره والصحابة مطيفون به، ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد واحد منهم، وبذلك أحل ﷺ ولبس ثيابه وتطيب قبل أن يطوف بالبيت، والمسلمون جميعاً يقتدون به في كل ما يصنع من المناسك، ثم أمر علياً أن يتصدق بلحوم البدن وجلودها وجلالها، ففعل.

إلى الكعبة

ثم ركب ﷺ حتى جاء البيت ليطوف طواف الإفاضة، وهوركن من أركان الحج بالإجماع، فطاف وصلى بمكة الظهر، ولم يسع بين الصفا والمروة، ثم أتى بني عبدالمطلب وهم يسقون الناس على بئر زمزم وقال: «انزعوا بني عبدالمطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم» فناولوه دلواً فشرب منه حتى تضرع، وأتى السقاية^(٢) التي يقوم بها العباس فقال: «اسقوني» فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك فأت رسول الله بشراب من عندها فإن هذا يجعل الناس أيديهم فيه، فقال النبي: «لا حاجة لي فيه، اسقوني مما يشرب الناس».

وهكذا أبى النبي ﷺ أن يتميز على أمته حتى في الشراب، وهذا غاية العدل والمساواة، وهكذا فليكن الملوك والأمراء، والقادة والرؤساء. ثم عاد رسول الله ﷺ إلى منى بعد الظهر، فنزل حيث المسجد الموجود اليوم فيما يقال، وأنزل المهاجرين عن يمينه، والأنصار عن يساره، والناس حولهم من بعدهم.

(١) بضعة بفتح الباء: أي قطعة.

(٢) كانوا ينقعون التمر والزبيب في الماء ويسقون الناس، وهو من مآثر الجاهلية التي أقرها الإسلام.

خطبة يوم النحر

وفي يوم النحر خطب النبي ﷺ وهو واقف على ناقته خطبة أخرى، أكد فيها بعض ما ذكره في يوم عرفات من حقوق الإنسان في الإسلام، والوصاية بالأخوة والوحدة. روى البخاري في صحيحه عن أبي بكر قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر قال:

«أتدرون أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال: «أليس ذو الحجة» قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم، وأموالكم - وفي رواية أعراضكم - عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم قال: «اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(١).

وكان سيدنا علي يبلغ عن النبي هذه الخطبة، ثم سأل بعض الصحابة عن تقديم بعض المناسك على بعض، وتأخير بعضها عن مكانه نسياناً وسهواً، فما سألوه عن شيء من ذلك إلا وقال: «لا حرج، لا حرج».

المقام بمنى

وأقام رسول الله ﷺ بمنى يوم النحر، وأيام التشريق الثلاثة^(٢)، يرمي الجمرات^(٣) في كل يوم إذا زاغت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات يكبر على إثر كل حصاة، ويقف بعد كل من الجمرتين الأوليين مستقبلاً القبلة، ورافعاً يديه يدعو ويطيل الوقوف، فإذا رمى الثالثة انصرف ولا يقف بعدها، وأقام النبي تلك المدة بمنى يصلي بأصحابه ويقصر الرباعية، ولم يرخص إلا لعمه العباس وأعوانه بالمبيت بمكة لأجل السقاية.

(١) صحيح البخاري - كتاب الحج - باب خطبة أيام منى.

(٢) هي الثلاثة التي تلي يوم النحر. سميت بذلك لأنهم كانوا يشققون فيها اللحم ويحفظونه.

(٣) هي ثلاث: الجمرة الأولى التي تلي مسجد الخيف بمنى، والجمرة الوسطى وجمرة العقبة.

خطبة أوسط أيام التشريق

وخطب رسول الله ﷺ بمنى خطبة أخرى أوسط أيام التشريق وهو يوم النفر الأول، روى الحافظان البزار والبيهقي بسندهما عن ابن عمر قال: نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ في أوسط أيام التشريق، فعرف رسول الله أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرُحِّلَت، ثم ذكر خطبته في هذا اليوم، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة، ويوم النحر^(١).

وفي الحق أن تكرار الخطب في حجة الوداع كان أمراً لا بد منه، فهي الحجة الوحيدة التي حجَّها الرسول، وقد عزَّ فيها الإسلام والمسلمون، وأصبحت كلمتهم هي النافذة في الجزيرة العربية، كما كانت الوداع الأخير، فما أشد حاجة المسلمين في هذا المشهد العظيم الفذ إلى التذكير والنصح والتوصية، وإلى تكرار القول والتأكيد عليه حتى يعوه ويحفظوه ولا ينسوه، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، وإشهاد الله عليهم، حتى تقوم عليهم الحجة، وتنقطع المَعذرة، وقد روي أيضاً أن النبي خطبهم أيضاً بمكة في اليوم السابع، والظاهر أنها كانت لتعليمهم المناسك والمشاعر.

فائدة

كان يقال لليوم السابع من ذي الحجة يوم الزينة، لأنه يُزين فيه البدن التي تهدي بالجلال وغيرها. واليوم الثامن يقال له: يوم التروية لأنهم كانوا يروون فيه إبلهم من الماء، ويحملون منه ما يحتاجون إليه حال الوقوف وما بعده، لأن هذه الأماكن لم يكن فيها يومئذ آبار ولا عيون، أما الآن ففيها الماء الكثير والحمد لله. واليوم التاسع: يوم عرفة للوقوف فيه بها. واليوم العاشر: يوم النحر ويوم الأضحي ويوم الحج الأكبر. واليوم الحادي عشر: يوم القر لأنهم يقرون فيه، ويقال له: يوم الرؤوس لأنهم يأكلون فيه رؤوس الأضاحي، وهو أول أيام التشريق. وثاني أيام التشريق يقال له: يوم النفر الأول لجواز

(١) البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٠١، ٢٠٢.

الخروج فيه إلى مكة لمن يريد التعجل. وثالث أيام التشريق يقال له: يوم النفر الثاني. قال عزَّ شأنه:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(١)

إلى الأبطح بمكة

وفي اليوم الثالث من أيام التشريق، وكان يوم ثلاثاء ركب رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فنفر بهم من منى حتى نزل بالأبطح، وهو (المُحَصَّب). وقد كان رسول الله ﷺ نزل به في الفتح وفي حجة الوداع، وهو الخَيْف: خيف بني كنانة، وقد قدمت السبب في نزوله به: فصلٌ بهم في الأبطح الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، وهجع هجعة استراح فيها من العناء.

وكان رسول الله بعث عائشة مع أخيها عبدالرحمن لتعتمر من التنعيم، لأنها لم تتمكن عند القدوم من أداء العمرة بسبب حيضتها، فلما قضت عمرتها ورجعت، أذن النبي في المسلمين بالرحيل، فارتحل وطاف بالبيت طواف الزيارة، وصلّى بهم الصبح عند الكعبة، ثم خرجوا من البلد الحرام من (كُذَي) راجعين إلى البلد الطيب (المدينة) وهم يكبرون ويهللون ويقولون: آيِسُون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

في غدير خُم

وفي مرجعه ﷺ من مكة إلى المدينة خطب بمكان يسمى (غدير خم)^(٢) مبيناً فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبراءة عرضه مما تكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن، بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التي ظنّها

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٣.

(٢) بضم الخاء وتشديد الميم: موضع قريب من الجحفة.

بعضهم جَوْرًا وتضييقاً عليهم وبخلاً، والصواب كان معه في هذا لأنها أموال صدقات وخمس، وذكر من فضل علي وأمانته وعدله وقربه إليه ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس منه.

وكان مما قاله له النبي في هذه الخطبة ما رواه النسائي بسنده عن زيد بن أرقم قال: لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم قال: «كأني قد دُعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي: أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». ثم قال: الله مولاي وأنا مولى كل مؤمن، ثم أخذ بيد علي فقال: من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه» قال الإمام أبو عبد الله الذهبي: هذا حديث صحيح، وقد استوفى الكلام على هذا الحديث الإمام الحافظ المؤرخ ابن كثير في بدايته مبيناً الروايات الصحيحة من الحسنة من الضعيفة والموضوعة فليرجع إليه من يشاء^(١).

* * *

(١) البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٠٨ - ٢١٤.

أحداث في هذا العام

وفاة إبراهيم ابن النبي

وفي شهر ربيع الأول من هذا العام، وقيل: في رمضان، وقيل، في ذي الحجة مات إبراهيم ابن النبي ﷺ من مارية القبطية وهو ابن ستة عشر شهراً، وقيل: أكثر من ذلك، وقد كان النبي بمقتضى الفطرة البشرية قد فرح بمولده فرحاً عظيماً كما قدمنا، فلا عجب أن كان حزنه عليه شديداً، وقد دخل عليه وهو يحود بنفسه، فصارت عيناه تذرفان بالدموع، فقال عبدالرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟! فقال: «يا ابن عوف، إنها رحمة» وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

وقال أيضاً: «لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وإن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزناً أشد من هذا» ثم غُسل وكفَّن، وصُلِّي عليه النبي وأصحابه، ودفن بالبقيع^(٢) بجوار السلف الصالح: عثمان بن مظعون.

وقد وافق يوم مات إبراهيم أن كسفت الشمس، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم!! فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنها آيات من آيات الله، فإذا رأيتموها فقوموا وصلُّوا وادعوا الله»^(٣).

(١) رواه البخاري.

(٢) البقيع: مقبرة أهل المدينة.

(٣) رواه البخاري.

وإن المنصف ليقف خاشعاً أمام هذا القول الحكيم الذي يدل على أن سيدنا محمداً نبي حقاً، فلو لم يكن نبياً، وكان طالب ملك أوزعامة، أو شرف وجاه، أو مدعياً نبوة لاستغلَّ اعتقاد الناس هذا، أو على الأقل يسكت.

ولم يزل الدجالون وأدعياء النبوة والمشعوذون، من لدن مسيلمة إلى يومنا هذا يستغلون سذاجة الناس وجهلهم في مثل هذا، بل ويحاولون ما استطاعوا التمويه على الناس والتلبيس عليهم، ولكنه النبي الذي لا ينطق عن الهوى!! وأي عظمة نفسية أعظم من أن لا ينسى الرسول رسالته في أشد المواقف التي تملأ النفس غماً وحزناً وربما تذهل الشخص عما هو حق، لذلك لا تعجب إذا كان المستشرقون الذين كتبوا في سيرة النبي، وتناولوا هذه القصة وقفوا منها موقف الإجلال والإعظام، ولم يستطيعوا كتم إعجابهم وإكبارهم للنبي، وإعلان عرفانهم بصدق إنسان لم يرض في أدق المواقف إلا الصدق وإعلان الحق.

تنبؤ مسيلمة

قدمنا ما كان من قدوم مسيلمة الكذاب مع وفد بني حنيفة، وأنه عرض على النبي أن يشركه في الأمر أو يجعله له من بعده، فأبى عليه، وفي آخر سنة عشر، أرسل إلى النبي هذا الكتاب: (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلام عليك. أما بعد: فلإني قد أشركت في الأمر معك، فإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قریشاً قوم يعتدون).

وقدم بالكتاب رسولان، فقال لهما النبي: «وأنتما تقولان بمثل ما يقول؟» قالوا: نعم، فقال: «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما» ثم كتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدرسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من أتبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

وقد استغلَّ مسيلمة تعصب بني حنيفة له، وصار يخرق ويموه ويكذب،

ويأتي بكلام يضحك الشكلى، يزعم أنه قرآن نزل عليه، حتى قضى على فتنه
وقتل في عهد الصديق رضى الله عنه.

تنبؤ الأسود العنسي

وقد ظهر بصنعاء، وأدعى النبوة، واستعان على ذلك بالسحر والشعوذة،
وكان «بازان» أميراً على صنعاء من قبل النبي ﷺ، فلما مات بازان تزوج
امراته، وطرد من صنعاء المهاجر بن أبي أمية المخزومي عامل النبي على
الصدقات، فكتب النبي إلى امرأته وعماله أن يحيطوا به ويقتلوه، وقد نجحوا
في قتله بمساعدة (المرزبانية) زوجة بازان، فقد سقته الخمر حتى سكر، فدخل
عليه فيروز واحتز رأسه، وجاء الخبر بذلك في أول خلافة الصديق، صبيحة دفن
النبي ﷺ^(١).

(١) فتح الباري ج ٨ ص ٧٦.

السَّنة الحَادِيَةِ عَشْرَةَ

استهلت هذه السنة والنبي ﷺ بالمدينة بعد أن عاد من حجة الوداع موفور الكرامة، مطمئن القلب، منشرح الصدر، أنْ بُلِّغَ الرسالة، وأدى الأمانة، وأكمل الله الدين، وأتمَّ النعمة، وظهر الإسلام على الأديان كلها.

وما كان النبي لينسى ما صنع الروم بالمسلمين في مؤتة، وقتل الأبطال: زيد وجعفر وابن رواحة وغيرهم، وما هموا به من غزو المدينة حتى كانت غزوة تبوك، وإيثار الروم الانسحاب على القتال، فعزم على إرسال جيش للاقتصاص منهم، فكان بَعَثُ أسامة بن زيد.

بعث أسامة بن زيد

في آخر صفر من هذا العام ندب النبي الناس لغزو الروم، فانتدب لذلك ثلاثة آلاف من خيار المسلمين فيهم كبار المهاجرين والأنصار، منهم: أبو بكر، وعمر^(١)، وأبو عبيدة، وسعد، وسعيد، وسلمة بن أسلم.

ودعا النبي أسامة بن زيد وقال له: «سِرْ إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، وأغر صباحاً عليهم، وأسرع السير تسبق الخير، فإن ظفرك الله بهم فأقلِّ اللبث فيهم». وكان أسامة شاباً لم يبلغ العشرين من عمره، مما دعا بعض الصحابة إلى التكلم في إمارته، فلما نمت المقالة إلى رسول الله قال: «إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وإيم

(١) الصحيح أن أبا بكر وعمر لم يكونا في بعث أسامة، بدليل أنها كانا في المدينة يوم وفاة رسول الله ﷺ، في حين كان جيش أسامة خارجها. (الناشر).

الله إن كان خليقاً بالإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده»^(١).

وعقد له اللواء بيده، وخرج أسامة وعسكر «بالجرف» خارج المدينة استعداداً للمسير، وإنهم لعل ذلك بلغهم اشتداد المرض بالرسول، فلم يكن بدء من التريث والانتظار، فقد كان بالجيش كبار المهاجرين والأنصار ممن تحتم الأحوال أن يكونوا بالمدينة في هذا الظرف العصيب.

وقد كان تأمير أسامة لحكمة بالغة من الرسول؛ إذ فيه حث له على التضحية في سبيل الله، والحرص على الاقتصاص من قاتلي أبيه، كما كان فيه قضاء على العنجهية العربية، والتفاخر بالأحساب والأنساب، وتقرير عملي لمبدأ المساواة في الإسلام، وأيضاً فقد كان من التوجيهات النبوية الحكيمة إلى تهيئة الفرص للشباب الصالح، وإثارة عزائمهم، وهمهم إلى معالي الأمور، وتعويدهم الاضطلاع بالتبعات الجسام، والمهام العظام.

(١) رواه البخاري.

مَرَضُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَفَاةُهُ

التندر بقرب أجل النبي

إن الأرواح الشفافة الصافية القوية لتدرك بعض ما يكون مخبوءاً وراء حجب الغيب، والقلوب الطاهرة المطمئنة لتحثّ صاحبها بما عسى أن يحدث له فيما يستقبل من الزمان، والعقول الذكية المستنيرة بنور الإيمان لتدرك ما وراء الألفاظ والأحداث من إشارات وتلميحات، ولنبينا محمد من هذه الصفات الحظ الأوفر، وهو منها بالمحل الأرفع الذي لا يسامى ولا يطاول.

فلا تعجب إذا كان قد فهم من معارضة جبريل له بالقرآن مرتين في رمضان عام عشرة قرب انقضاء أجله، كما فهم ذلك من نزول سورة النصر، حتى روي أنه قال لجبريل: «لقد نعت إلي نفسي»^(١) فقال جبريل: (وللآخرة خير لك من الأولى) ولعلك على ذكر لمعاذ حين أرسله إلى اليمن، وما قاله في حجة الوداع مودعاً للناس، ولا تعجب أيضاً إذا كان بعض الصحابة فهم ذلك عند ما نزل قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ كما ذكرنا آنفاً، ومن سورة النصر أيضاً، وقد روي ذلك في صحيح البخاري عن عمر وابن عباس رضي الله عنهما^(٢).

ابتداء المرض

وكان ابتداء مرض رسول الله ﷺ في أواخر شهر صفر أو أول شهر

(١) اشتهر على الألسنة: «لقد نعت إلي نفسي» بفتح التاء خطاباً لجبريل. والصحيح ما ذكرناه بسكون التاء للتأنيث.

(٢) صحيح البخاري - كتاب التفسير - باب إذا جاء نصر الله.

ربيع الأول، فقد أمر أن يستغفر لأهل البقيع، فانطلق ومعه مولاه أبو مويبة فقال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهيئ لكم ما أنتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها» ثم أقبل على أبي مويبة قائلاً:

«إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة» فقال أبو مويبة: بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها، ثم الجنة، قال: «لا والله يا أبا مويبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة»، ثم استغفر لأهل البقيع وانصرف.

وقد بدأ به وجعه فدخل على عائشة فوجدتها تشتكي صداً وتقول: وارأساه. فقال: «بل أنا - والله - يا عائشة وارأساه»، ثم قال مداعباً لها: «وما عليك لومت قبلي، فقممت عليك، وكففتك، وصليت عليك، ودفتك؟» وأثارت الكلمة الغيرة في نفسها، فقالت: والله لكأنني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه بإحدى نساك، فسكت الرسول واعتبرها مداعة بمداعة.

اشتداد المرض

وكان رسول الله يطوف على نسائه، كما هو شأنه في تعهدهن، ورعاية غاية العدل بينهن، فاشتد به المرض وهو في بيت السيدة ميمونة، فدعا نساءه واستأذن أن يمرض في بيت السيدة عائشة فأذن له، فخرج بين عمه العباس وابن عمه علي فخط رجلاه الأرض، حتى أتى بيتها.

وكان يعود أهله وأزواجه، وهو بيت عائشة، وفي ذات يوم زارته ابنته فاطمة فرحب بها وأجلسها بجانبه، ثم أسر إليها شيئاً فبكت، ثم سارها ثانياً فضحكت، فسألها عائشة عن السر، فأجابت بأنه سر، ثم أخبرت فيما بعد أن النبي أعلمها بقرب انتهاء أجله، وأمرها بالتقوى والصبر فبكت. ثم أخبرها أنها أول أهله لحوقاً به، وأنها سيدة نساء أهل الجنة فضحكت^(١).

(١) صحيح البخاري - باب علامات النبوة - وباب مرض النبي ووفاته.

وقابل العباس علياً فقال له: إني لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من مرضه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبدالمطلب عند الموت. ثم أشار عليه أن يذهب إلى رسول الله يسأله: فيمن هذا الأمر؟ يعني الخلافة. إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا أوصى بنا. فقال له علي: لئن سألتها رسول الله فممنعنا لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسأله رسول الله ﷺ^(١).

وقد كان رسول الله يستشفى من ألم الحمى بالماء البارد، كما كانت ترقيه السيدة عائشة بالمعوذتين وقل هو الله أحد. وفي ذات مرة وقد غشي عليه لدوه^(٢)، فلما أفاق أمر أن يصنع بكل من في البيت، مثل ما صنعوا به إلا عمه العباس.

صلاة أبي بكر بالناس

ولما اشتد برسول الله وجعه قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل أسيف^(٣)، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد النبي فأعادته، وما حملها على قولها إلا خشية أن يتشاءم الناس بأبيها، فقال: «إنكن صواحب^(٤) يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس».

فخرج أحد الصحابة ليخبر بذلك فلم يجد أبا بكر، ووجد عمر، فقال: قم يا عمر فصل بالناس، فلما كبر سمع النبي صوته فقال: «يأبى الله ذلك والمؤمنون» وكررها، فلم يصل أحد بعد هذا إلا أبو بكر، فلام عمر الرجل على ما فعل، فقال: والله ما أمرني رسول الله، ولكن حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر الصلاة^(٥).

(١) رواه البخاري.

(٢) اللد: أن يسقى المريض الدواء كرهاً. وقد كان الدواء مرضاً آخر غير مرضه، فمن ثم كرهه. وإلا فالسنة مستفيضة بالحث على التداوي والاستشفاء.

(٣) أسيف: رقيق القلب يغلبه البكاء عند قراءة القرآن.

(٤) صواحب: جمع صاحبة والمراد به هنا واحدة، وهي امرأة العزيز حيث استدعت النساء مظهره الضيافة. وقصدها أن يرين حسنه فيعذرنها في محبته ومراودتها عن نفسه.

(٥) البداية والنهاية، ج ٥ ص ٣٣٢.

يوم الخميس

وفي يوم الخميس الذي قبيل وفاة الرسول خشي أن يموت قبل أن يعهد للناس في شأن الخلافة، فقال - وحوله رجال من أهل بيته وأصحابه -: «اثقوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً» فقال بعضهم - إشفاقاً -: «إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. واختلفوا: فمن قائل بإحضار الكتاب، ومن مانع، فلما كثر الاختلاف قال: «دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه» وأوصاهم بثلاث: قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم» وأما الثالثة فقليل الوصية بالقرآن وقيل: تجهيز جيش أسامة^(١).

وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله قال: «لقد هممت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد أن يقول القائلون، أو يتمنى المتمنون» وفي رواية الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «يأبى الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبا بكر».

تنبيه

في بعض روايات الصحيح «أهجر؟» استفهموه. والهمزة للإنكار والنفي، والهجر ما يقع من المريض من غير وعي، والمراد إنكار ونفي أن يحصل منه ذلك، أو أن يظن به ذلك، فحاشاه أن يكون منه ذلك، وفي بعضها «هجر» بغير الهمزة، وهي محمولة على الإنكار والنفي أيضاً، والعرب في أساليبها قد تحذف حرف الاستفهام ويكون المعنى عليه^(٢).

خروج النبي إلى المسجد

وفي هذا اليوم عزم النبي ﷺ على الخروج إلى الناس كي يوصيهم ويخطبهم، فقال: «أهريقوا عليّ من سبع قِرْبٍ لم تحلّ أوكيتهنَّ^(٣)»، لعليّ أعهد

(١) رواه البخاري.

(٢) فتح الباري، ج ٨ ص ١٥٨.

(٣) الوكاء: ما يربط به فم القرية.

للناس» قالت عائشة: فأجلسناه في مِخْضَب^(١) لحفصة، ثم طفقنا نصب عليه الماء حتى طفق يشير إلينا بيده «أن فعلتن».

فوجد من نفسه خفة، فخرج على الناس، وهم يصلون الظهر وهو يهَادَى بين رجلين، فلما رآه أبو بكر أراد أن يتأخر، فأومأ إليه أن مكانك، ثم جلس إلى جنب الصديق، فجعل أبو بكر يصلي بالناس قائماً، والرسول يصلي وهو قاعد، فمن قائل أن رسول الله صلى مأموماً وراء أبي بكر، ومن قائل: إن رسول الله تولى الإمامة، وصلى أبو بكر بصلاة النبي، وصلى الناس بصلاة أبي بكر، ولعل الأول أرجح لأنه أدل على منزلة الصديق وأحقيته للخلافة^(٢).

وكانت هذه آخر صلاة صلاها رسول الله مع المسلمين، ثم صعد المنبر، فكان أول ما ذكر - بعد حمد الله والثناء عليه - أصحاب أحد، فاستغفر لهم ودعا ثم قال: «يا معشر المهاجرين، إنكم أصبحتم تزيدون، والأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم عيبتي^(٣) التي أويت إليها، فأكرموا كريمهم، وتجاوزوا عن مسيئهم» ثم قال: «أيها الناس: إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله» ففهمها أبو بكر من دون الناس فبكى، وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا، فعجب الناس لبكائه، فكان المخير هو رسول الله، وكان أبو بكر أعلمهم بذلك فقال له رسول الله: «على رسلك يا أبا بكر»^(٤) ثم قال: «إن آمن الناس عليّ في صحبتته وماله أبو بكر. ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن خلة الإسلام ومودته»^(٥). لا يبقى في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر.

ثم قال: «وإن قوماً ممن قبلكم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد،

(١) مخضب: طست.

(٢) البداية والنهاية، ج ٥ ص ٢٣٤.

(٣) عيبتي: خاصتي وموضع سري.

(٤) تمهل في البكاء حتى لا يسترسل الناس في البكاء.

(٥) صداقة الإسلام ومحبته.

فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك» ثم قال: «أيها الناس أنفذوا بَعَثَ أسامة، فلعمري لئن قلت في إمارة لقد قلت في إمارة أبيه من قبله، وإنه خليق للإمارة، وإن كان أبوه خليقاً لها».

وكان مما قاله: «ألا فمن كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد^(١). ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه. ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد. ولا يقولن قائل: أخاف الشحنة من قبل رسول الله، ألا وإن الشحنة ليست من شأني ولا من خلقي، وإن أحبكم إليّ من أخذ حقاً إن كان له عليّ، أو خلّلني فلقيت الله عز وجل وليس لأحد عندي مظلمة»^(٢).

* * *

ألا فلتشهد الدنيا إلى أي حد وصل عدل الحاكم مع المحكومين، وإلى أي حد بلغت المساواة، وبلغ الاعتراف بالجميل لذويه، والإقرار بالفضل لأهله، وهل بعد هذا يدع مدع، أو يزعم زاعم أن أحداً أحق بالخلافة من أبي بكر.

إن للموت لسكرات

ثم اشتدت الحمى بعد برسول الله حتى قال له أبو سعيد الخدري: والله لا أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حماك، فيجيبه: «إنما معاشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء، كما يضاعف لنا الأجر». وفي هذه الشدة كان يقول: «اللهم أعني على سكرات الموت» وكان كلما أفاق من غشيته قال: «اللهم الرفيق الأعلى» وكان رسول الله ﷺ حدثهم قبل ذلك أن النبي لا يموت حتى يخير بين الدنيا والآخرة، قالت عائشة: (فلما سمعته يقول ذلك، وقد أدركته بحة علمت أنه اختار الآخرة على الدنيا)^(٣).

(١) فليستقد: فليقتص.

(٢) البداية والنهاية، ج ٥ ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(٣) رواه البخاري.

صحوة الموت

وفي صبيحة الاثنين والصدِّيق أبوبكر يصلي بالناس الفجر كشف النبي ستر الحجرة، فنظر إليهم وهو قائم على حالٍ حسنة، ثم تبسّم لما رأى من اجتماعهم على رجل واحد، وألفتهم وتآخيههم، فنكص أبوبكر على عقبيه ظناً أن رسول الله يريد أن يخرج للصلاة، وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة، وأرخى الستر فكان هذا آخر عهده بالمسلمين.

وفرّح الصحابة غاية الفرح، ظناً أن رسول الله ﷺ أبلّ من مرضه، وما علموا أنها الصحوة التي تسبق الموت، وانصرف بعضهم إلى عمله، ودخل أبوبكر على ابنته عائشة وقال: ما أرى رسول الله إلا قد أفلح عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة - إحدى زوجتيه - وكانت تسكن بالسُّنح^(١)، فركب على فرسه، وذهب إلى منزله.

في الرفيق الأعلى

واشتدت سكرات الموت بالنبي، ودخل عليه أسامة بن زيد وقد صمت فلا يقدر على الكلام، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة، فعرف أنه يدعوه، وأخذت السيدة عائشة رسول الله وأوسدته إلى صدرها بين سحرها^(٢) ونحرها، فدخل عبدالرحمن بن أبي بكر وبهده سواك، فجعل رسول الله ينظر إليه، فقالت عائشة: آخذه لك، فأشار برأسه أن نعم، فأخذته من أخيها ثم مضفته ولينته وناولته إياه، فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك، وكل ذلك وهو لا ينفك عن قوله: «في الرفيق الأعلى»^(٣).

(١) السنح بضم السين: مكان خارج المدينة كان للصدِّيق مال فيه وبيت.

(٢) السحر: الرثة. والنحر: الثغرة التي في أسفل العنق.

(٣) الرفيق الأعلى: هم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّاهِدَاءِ وَالصَّالِحِينَ. وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. وقيل هم الملائكة، وقيل هو الله جل جلاله، وهو من أسماء الله الحسنى وصفاته، يعني في كنفه ورحمته.

وكان آخر ما تكلم به ﷺ «لا يبقى بجزيرة العرب دينان» وقوله: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» حتى جعل يغرغر بها صدره، وما يفصح بها لسانه.

فلما اشتد الضحى، فاضت أظهر روح في الدنيا من جسدها، وصعدت إلى بارئها راضية مرضية، وخرج أكرم إنسان على الله في هذا الوجود من الدنيا كما جاء إليها، ولم يترك مالا ولا دينارا ولا درهما، ولا ولداً إلا فاطمة رضي الله عنها، وإنما ترك هداية وإيماناً، وشرعة عامة خالدة، وميراثاً روحياً عظيماً، وأمة هي خير الأمم وأوسطها.

وكان ذلك يوم الاثنين لهلal ربيع الأول، وقيل لليوم الثاني منه، وقيل لليوم الثاني عشر منه من العام الحادي عشر للهجرة. والأول هو الأرجح، ويليهِ الثاني، وأما الثالث فعليه مأخذ وإن اختاره ابن إسحاق والواقدي وابن سعد^(١).

هول الفاجعة

وشاع الخبر في المدينة، فإذا لهم ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج بالإحرام، وأذهل النبأ سيدنا عمر فصار يتوعد وينذر من يزعم أن النبي مات، ويقول: ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم، والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات.

خطبة الصديق

وأقبل أبو بكر من السُّنح على فرس له لما بلغه الخبر، فوجد عمر يكلم الناس، وينذر ويتوعد، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى في البيت ببرد جيرة^(٢)، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه يقبله، ويقول: (ما أطيبك حياً وميتاً)، وخرج أبو بكر وعمر يتكلم فقال: اجلس

(١) فتح الباري، ج ٨ ص ١٠٦؛ والروض الأنف، ج ٢ ص ٣٧٢.

(٢) نوع من ثياب اليمن.

يا عمر، وهو ماضٍ في كلامه، وفي ثورة غضبه، فقام أبو بكر في الناس خطيباً فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

(أما بعد: فإن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزى الله الشاكرين﴾).

قال عمر: فوالله ما إن سمعت أبا بكر تلاها فهويت إلى الأرض، ما تحمليني قدماي، وعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات^(١). وكذلك استفاق الناس من غشيتهم لما سمعوا أبا بكر يتلوها.

في سقيفة^(٢) بني ساعدة

في هذه الغمرة من الأسى والحزن، كاد أن يضطرب أمر المسلمين في مسألة الخلافة، فالأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، واجتمع علي والزبير وطلحة في بيت فاطمة، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، وانضم إليه أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل، فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، فانطلقا حتى أتيا السقيفة، فإذا هم مجتمعون، وإذا بين أيديهم رجل مزمل، فإذا هو سعد بن عبادة به وجع، فلما جلسوا قام خطيب الأنصار فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: (أما بعد: فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا، وقد دفت منكم دافة، تريدون أن نخزلونا من أصلنا، وتحصنونا من الأمر).

فلما سكت أراد أن يتكلم عمر وكان قد زور^(٣) في نفسه مقالة أعجبت به، ولكن الصديق منعه لما يعلم فيه من حدة قد لا تفيد في هذا الموقف، وقال له: على رسلك يا عمر، ثم قام فتكلم، قال الفاروق: فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديته وأفضل. قال:

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٢) مكان عليه ظلة.

(٣) أعد وهياً.

(يا أيها الناس، نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولادة في العرب، وأمسهم رحماً برسول الله، أسلمنا قبلكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان) فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفياء، وأنصارنا على العدو، أما ما ذُكر فيكم من خير فأنتم له أهل، فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، فمننا الأمراء ومنكم الوزراء).

فقام أحد الأنصار فقال: أنا جدي لها المحكك^(١)، وعذيقها المرجب^(٢)، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش فكثرت اللغط وارتفعت الأصوات.

بيعة الصديق

وفي هذا الموقف العاصف قام الفاروق - وكان جهوري الصوت - فقال: أبسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعه. وقال: يا معشر الأنصار، أستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر، ثم قام المهاجرون فبايعوا، ثم قام الأنصار فبايعوا، وهكذا وقى الله المسلمين شر الفرقة، وجمعهم على أفضلهم أبي بكر.

البيعة العامة

وفي اليوم الثاني غدا الصديق ومعه عمر والصحابه إلى المسجد النبوي ليبايع الناس المبايعه العامة، فصعد أبو بكر المنبر، وقام عمر خطيباً بين يديه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (أيها الناس، كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت ولا وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهداً إلي رسول الله، ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ، حتى يدبرنا - يكون آخرنا - فإن يك محمدٌ قد مات فإن الله جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به، فاعتصموا به

(١) الجذيل: تصغير جذل، وهو عود يكون في وسط مبرك الإبل تحتك به وتستريح إليه. يضرب به المثل في الرجل يستشفى برأيه وتوجد عنده الراحة.

(٢) عذيق تصغير عذق، وهي النخلة. المرجب الذي تبنى إلى جانبه دعامة تسند له لكثرة حمله ونفاسته على أهله. يضرب به المثل للرجل الشريف المعظم في قومه، والذي يكثر خيره.

تَهْتَدُوا، وَإِنْ أَبَا بَكْرٍ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَانِيَانِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، فَإِنَّهُ أَوَّلَى الْمُسْلِمِينَ بِأُمُورِكُمْ، فَقُومُوا إِلَيْهِ فَبَايَعُوهُ، فَقَامَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَبَايَعُوهُ الْبَيْعَةَ الْعَامَةَ^(١).

ونظر الصديق في وجوه القوم فلم ير الزبير، فدعا به فلما جاء قال له: ابن عمه رسول الله وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين؟! فقال: لا تشرب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه. ثم نظر فلم يجد علياً فدعا به فجاء فقال له: ابن عم رسول الله وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تشرب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه.

وهذا هو الحق في مبايعة علي للصديق، وأنه بايع في اليوم الثاني، وأما ما يقال: إن بيعته كانت بعد ستة أشهر، فإنما كان تجديداً للبيعة وتوثيقاً لها^(٢)، وهذا هو الظن بأبي الحسن والحسين، وفقى الإسلام علي رضي الله عنه.

خطبة الصديق

وخطب الصديق خطبة تعتبر من آيات الحكمة وفصل الخطاب، أوجز فيها أصول الحكم في الإسلام، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

(أيها الناس: فلاني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني؛ الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل. ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم البلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله).



(١) صحيح البخاري - كتاب الأحكام - باب الاستخلاف.

(٢) البداية والنهاية، ج ٥ ص ٢٥.

تجهيز رسول الله

وبعد هذه البيعة العامة انصرف المسلمون إلى تجهيز رسول الله، مقتدين في كل ما أشكل عليهم بالصدّيق رضي الله عنه في تغسيله، وتكفينه، ودفنه. وقد حضر غسله من آل البيت: العباس، وعلي، والفضل وقثم ابنا العباس، وأسامة بن زيد، وصالح مولى الرسول. ودخل معهم بعد الاستئذان أوس بن خولي الأنصاري، وقد أسند علي النبي إلى صدره وعليه قميصه، وتولى غسله يعاونه العباس وابناه، وكان أسامة وصالح يصبان الماء.

ولم ير علي من النبي ما يرى من الميت، فصار يقول: بأبي وأمي ما أطيبك حياً وميتاً!! وكان يغسل بالماء والسّدر^(١)، فلما فرغوا من تغسيله كفّوه في ثلاثة أثواب بيض يمانية من قطن، ولم يجعلوا في كفنه بردة جبرة كما زعم بعض كتاب السيرة المحدثين^(٢)، بل أبوا ذلك كما رواه مسلم وأبو داود^(٣).

وبعد أن كفّوه وضعوه على سريره في الحجرة، ودخل الناس عليه أرسالاً يصلون فرادى، لا يجتمعون على إمام، فلما فرغ الرجال صلى النساء ثم الصبيان.

وبعد أن فرغوا من الصلاة اختلفوا في أي مكان يدفن؟ أيدفن في مسجده، أم يدفن بالبقيع مع أصحابه، أم يدفن في بيته، وحسم الصدّيق

(١) السدر: نبت طيب الرائحة يغسل به الميت كالصابون.

(٢) حياة محمد، ص ٤٩٤.

(٣) البداية والنهاية، ج ٥ ص ٢٦٣.

الخلاف بما رواه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما قبض نبي إلا ودفن حيث قبض»، فقرر رأيهم على أن يدفن في حجرة السيدة عائشة حيث مات.

وكان أبو عبيدة بن الجراح يصرح^(١) لأهل مكة، وكان أبو طلحة الأنصاري - وهو الذي كان يحفر لأهل المدينة - يلحد^(٢). فأرسل إليهما العباس رسولين، فأما رسول أبي عبيدة فلم يجده، وأما الثاني فقد وجد أبا طلحة، فجاء به فلحد لرسول الله ﷺ كأهل المدينة، ونزل في الحفرة العباس، وعلي، وقُثم، والفضل، وشقران، ومعهم أوس بن خولي أيضاً، وأخذ شقران مولى رسول الله قطيفة كان يلبسها ففرشها للنبي في القبر، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك.

وبين الأسى والحزن والدموع، وتفطر القلب على الحبيب المغيب في اللحد، أهالوا التراب على القبر الشريف، ثم رشوا عليه الماء، وكان ذلك في ليلة الأربعاء بعد يومين من وفاته ﷺ، فلما توفي الصديق دفن بجانب صاحبه، وكان هناك موضع قبر كانت عائشة تدخره لنفسها، فلما طعن الفاروق أوصاهم أن يستأذنوا عائشة في أن يدفن بجانب صاحبيه، فلما قبض استأذنها، فأذنت وآثرته على نفسها، وتحققت رؤياها، فقد كانت رأت أن ثلاثة أقمار سَقَطْنَ في حجرتها، فكان الثلاثة هم الثلاثة أقمار الذين ملأوا الدنيا إيماناً وهدى، وعدلاً ورحمة، ونوراً وضياء، ووضعوا الأساس الصالح للحضارة الإسلامية الفذة التي أرسى قواعدها هؤلاء السادة الأخيار، وعزت عن أن يكون لها مثيل.

ولم تكن القبور الثلاثة داخل المسجد حتى كان عهد الوليد بن عبد الملك، فأمر نائبه على المدينة عمر بن عبد العزيز أن يوسع في المسجد من جميع جوانبه، فاضطروا إلى إدخال الحجر في المسجد ومنها حجرة عائشة، ومع هذا احتاطوا غاية الاحتياط، فأحاطوا القبور بحائط مرتفع كيلا تظهر في المسجد فيصلي إليها

(١) في القاموس: ضرحه كمنعه. وضرح الميت حفر له ضريحاً، والضريح البعيد، والقبر أو الشق وسطه أو بلا لحد. فاللحن يشق وسط القبر.

(٢) في القاموس: ولحد القبر كمنع وألحده عمل له لحداً: وهو الشق بجانب القبر ثم يوضع فيه الميت.

العوام، ثم بنوا جدارين من ركني الحجرة الشماليين، وحرفوهما حتى التقيا على هيئة رأس مثلث من الشمال، حتى لا يتمكن المصلي من استقبال القبور في الصلاة، عملاً بتحذير رسول الله ﷺ حيث قال في مرض موته وأكثر من القول: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» رواه الشيخان، وفي رواية لمسلم: «اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد»^(١).

إنفاذ جيش أسامة

ولم يكد المسلمون يفرغون من دفن رسول الله ﷺ حتى كان أول ما أمر به الصديق خليفة رسول الله ﷺ بإنفاذ جيش أسامة تنفيذاً لوصية النبي، ورفض الصديق أن يستمع إلى قول الذين رأوا أن لا يخرج الجيش في هذا الوقت العصيب، والذين أشاروا بتعيين قائد أسن منه، بل ولا إلى أسامة حينما رغب أن يكون بجانب الخليفة، وتم تجهيز الجيش عند الجرف، وأسامة على رأسه، وخرج الصديق مع الجيش يودعه وهو ماش وأسامة راكب، فقال: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لآتزلن، فقال: لا نزلت ولا أركب!! وما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله!!

ثم قال له وهو راجع: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل؟ فأذن له. فلما رأى المتألمون من تأمير أسامة ما فعل الخليفة سكتوا، وطابت نفوسهم.

وسار أسامة حتى وصل إلى البلقاء وحدود الشام، فأغار عليهم وانتقم للمسلمين ولأبيه الذي قتل، ثم عاد إلى المدينة بجيشه مظفراً منصوراً، بعد أن أرضى ربه، وأرضى نبيه، وأرضى خليفته.

(١) شرح المختار من صحيح مسلم للمؤلف، ج ٢ ص ٦٥.

المشكلة الكاملة

ها أنذا قد فرغت — والله الحمد والمنة — من السيرة العطرة، ولم يبق إلا أن أكتب فصولاً موجزة في صفاته ﷺ الخلقية، والخلقية، ليتجلى للقارئ أنه كان مثلاً في كل شيء، وأن الله سبحانه سيّاه على أحسن صورة، وجمله ظاهراً وباطناً، وتعهد به العناية والتربية قبل النبوة وبعدها، ثم توالى عليه فيوضات الوحي وإشراقات النبوة حتى صار مثلاً أعلى في كل شيء، واستأهل ثناء الله عليه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

* * *

ونحن لا ننكر أن في تاريخ البشرية — ولا سيما الصفوة من الخلق، وهم الأنبياء والمرسلون — أناساً فضلاء ذوي أخلاق ودين، وهداة ومصلحين، وعلماء وحكماء، ومشرعين وفقهاء، وملوكاً وخلفاء، ملأوا الدنيا عدلاً، بعد أن ملئت جوراً... ورجالاً أوفياء أمناء لا يغدرون ولا يخونون؛ وسادة قادة، وساسة عباقرة، وقواداً شجعاناً، وأبطالاً لا يرهبون الموت، وأن البشرية لا تخلو في أي عصر من أمثال هؤلاء.

ولكن الذي نلاحظه أنه لا يوجد رجل اجتمعت فيه كل هذه الصفات والمميزات مثل ما اجتمعت في نبينا محمد، ولا نكاد نعرف أحداً كمله الله بكل فضيلة، ونزّهه عن كل رذيلة، مثل ما عرفنا ذلك لرسولنا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

* * *

وليس العجب من اجتماع هذه الصفات فيه، وإنما العجب حقاً أنها فيه على سواء، فلا صفة تطفئ على أخرى حتى تكاد تطمسها، ولا خلق يربو على

آخر حتى يكاد يخفي معالمه، وإنما هي صفات وزنت بميزان عادل لا يعول، وأخلاق حسبت بحسبان دقيق لا يضل، هداية في حكمة، وعلم في فقه، ورحمة في غير ضعف، وعدل في غير عنف، وحزم في حلم، وصرامة في رحمة، وغضب لله في غير جور ولا بطش، وكرم في غير إسراف، ودقة في غير فسولة؛ ورأفة في غير تفريط، وعقل كبير في سعة قلب، وجد في غير هزل، ومزح في غير باطل، وفصاحة في بلاغة، وكلم جوامع في حكم نوابغ، ورجولة في مروءة، وفحولة في عفة.

وهكذا لا يمكن لمنصف أن يجد في أخلاقه مغمراً، أو في سلوكه مطعناً، وهذا المعنى لا نجاهه في بشر أياً كان، وهذا هو سر الإعجاز في أخلاق هذا النبي العظيم، وهذا البشر العظيم!!

الفضيلة الإنسانية في ذروة كمالها في نبينا محمد

يقول الحكماء: إن الفضيلة وسط بين رذيلتين: فالشجاعة وسط بين الجبن وبين التهور. والقصد في الإنفاق وسط بين التقدير والإسراف. والعدل وسط بين البغي والظلم، وبين هضم الحق والتفريط فيه. والعفة وسط بين انتهاك حرمت الغير وبين حرمان النفس من متعتها المشروعة. والحكمة وسط بين الإسراف في استعمال العقل وتعدي أموره وبين البلادة والغفلة، وهكذا.

والفضيلة من الأمور التي تواطأت عليها العقول السليمة، ولا تختلف باختلاف الأشخاص والعصور. فالفضيلة لا يمكن أن تكون رذيلة، ولا تكون فضيلة عند إنسان ورذيلة عند آخر، وهذا أمر لا أعلم أحداً خالف فيه، إلا ما كان من السوفسطائيين^(١) ومن على شاكلتهم كالوجوديين اليوم، فإنهم يخضعون الحق والفضيلة لأهوائهم، وشهوات أنفسهم.

(١) السوفسطائيون: قوم وجدوا في بلاد اليونان قديماً، لا يؤمنون بأن حقائق الأشياء ثابتة، فالحق في نظرهم ما يراه الواحد حقاً، ولو كان في الواقع باطلاً، والباطل ما يراه باطلاً ولو كان في الواقع حقاً. وقريب من هؤلاء الوجوديون اليوم فليس للفضيلة والحق معيار.

والناس يتفاضلون ويتمايزون بقدر ما يكون عندهم من الفضائل والأخلاق الكريمة، والفضيلة لا تختص بأناش دون أناس، ولا بجنس دون جنس، وإنما هي أمر مشاع بين البشر، يأخذ كل واحد منها بحسب فطرته واستعداده، وتربيته ونشأته، إلا أن هذه الفضيلة الإنسانية توجد أوفى ما تكون وأكمل ما تكون في أنبياء الله ورسله، فقد فطرهم الله سبحانه على أكمل الصفات، وخير الخلال، إلا أن بعض هذه الفضائل قد تكون عند نبي أوفى منها عند آخر، ومن ثم صارت هذه الصفات البالغة الكمال، عند بعض الأنبياء بمنزلة الخصائص، فالحلم والتسامح عند الخليل إبراهيم وعيسى أكثر منهما عند نوح وموسى، والشدة والأخذ بالعقوبة، عند نوح وموسى، أعظم منهما عند إبراهيم وعيسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وكذلك فضلاء البشر كصحابة الأنبياء وحواريهم، ولا سيما صحابة سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، تقوى بعض الفضائل عند بعضهم حتى تصير كأنها خصوصية، فمنهم الذي يغلب عليه الحلم والرحمة والشفقة كالصديق رضي الله عنه، ومنهم من يغلب عليه الشدة والصرامة في الحق، حتى مع أحب الناس إليه، كالفاروق عمر رضي الله عنه، ومنهم من يغلب عليه الحياء كالسيد الحيي عثمان بن عفان رضي الله عنه فيفرط في حق نفسه، ومنهم من تغلب عليه الشجاعة والمصارحة بالحق وعدم المداينة، حتى ولو كان في ذلك تثبيت أمر الخلافة كسيدنا علي رضي الله عنه، ومنهم من يغلب عليه جانب الدهاء والسياسة، ومعرفة كيف تسترق النفوس كسيدنا معاوية رضي الله عنه.

وليس معنى هذا أن ما عدا هذه الصفات التي برزوا فيها ليس لهم فيها عداها حظ، كلا وحاشا، وليس أدل على هذا من الصديق الأكبر رضي الله عنه، فقد كانت سمته الغالبة في قصة أسارى بدر وغيرها الرحمة والشفقة، ومع هذا فلما جاور الرسول الرفيق الأعلى، وارتد بعض العرب كان أشجع من الشجاعة، وأشد من الشدة في محاربتهم، وحتى قال للفاروق وقد ناقشه في قتال مانعي الزكاة: أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام!!

والفاروق عمر - وهو الشديد القوي في الحق - ما انتقم لنفسه، وكانت

تقابله المرأة فتعظه، وتذكره، وتنصحه بتقوى الله في الخلق، فإذا به يتطامن لها ويكي حتى تخضل لحيته!! وذلك كقصته مع السيدة خولة بنت ثعلبة بن حكيم، والمرأة الأعرابية التي كانت تعلل أولادها، وهم يتضاغون من الجوع حتى ناموا...

والناس طبائع، ومعادن، وفطرتهم ليست واحدة، ومرد ذلك كله إلى الله - جل جلاله - فسبحانه، سبحانه، تقدست أسمائه، وتباركت صفاته ووسع علمه كل شيء، وجلت حكمته، وعجزت العقول، مهما بلغت عن إدراك كنهه وأسراره، فله المثل الأعلى، وله الحكمة البالغة.

* * *

وقد أوحى إلى نفسي بما كتبت هذه المقارنة البديعة الصادقة التي صدع بها المثل الكامل ﷺ عقب استشارة أصحابه في أسارى غزوة بدر، فأدلى الصديق برأيه وهو أخذ الفداء وتوكلهم عسى أن يهديهم أو يخرج الله من أصلابهم من يرضي الله وينصر دينه، وكان رأي الفاروق أن يقتلوا ولا يؤخذ منهم فداء، فقال النسي: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة. وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال:

﴿فَمَنْ تَعَبَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

وكمثل عيسى قال:

﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغَفَّلْتُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾^(٣). وكمثل موسى قال: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾^(٤). أنتم اليوم عالة، فلا يفلتن

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١٨.

(٣) سورة نوح: الآية ٢٦.

(٤) سورة يونس: الآية ٨٨.

أحد إلا بفداء أو ضربة عنق» وكان هذا اختياراً لما رأى الصديق رضي الله عنه.

* * *

وقد بلغت الفضيلة الإنسانية ذروة كمالها في نبينا محمد ﷺ، ويدعوني المقام أن أقارن بين قولتي سيدنا نوح وسيدنا موسى الأنفتين، وبين موقف حدث لرسول الله ﷺ مرجعه من ثقيف بعد أن عرض عليهم الدعوة الإسلامية فأبوا، فرجاهم أن يكتموا أمره ولا يبلّغوا قريشاً، ولكن القوم كانوا لثاماً، فما إن هم بمغادرتهم حتى أغروا به الصبيان والسفهاء يقذفونه بالحجارة، وصاحبه ومولاه زيد بن حارثة يدرأ عنه ويدفع، ولكن ماذا يغني زيد في هذا السيل المنهمر من الحجارة، فأصيب جسمه ﷺ ودميت عقباه، وسال الدم الزكي على أرض الطائف ليكون شاهداً على لون من ألوان الكفاح في سبيل العقيدة، حتى ألقوه إلى بستان لابني ربيعة وبعد أن استراح قليلاً، دعا الله بدعائه المشهور الذي ختمه بقوله: «إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي». نعم، فالجراح والآلام والمصاعب، كلها تهون ما دام في ذلك رضى الله، والنجاة من غضبه.

عاد وهو جريح الجسم، مكلوم الفؤاد، حزين النفس، فتبدى له عند «قَرْن الثعالب» مَلَك الجبال، وقال له: «إني رسول من الله إليك، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»^(١) فعلت؟! ولقد كانت فرصة مواتية للنيل من هؤلاء الذين آذوه، وأسألوا دمه، وليذهبوا مع الهالكين الغابرين، وإن ذهبوا ففي الباقين من ينصر الدعوة ويقيم الإسلام.

ولكن لو جاز هذا في حق بشر آخر مهما بلغ من الكمال العقلي والخلقي؛ فلن يجوز في عقل نبينا محمد ﷺ، ولا في أخلاق نبينا محمد، ولا في منطقته ﷺ!! وهو الذي بلغت فيه الفضيلة ذروة كمالها.

وانتظر الملك الجواب، ولم يفكر النبي طويلاً، لأن الأمر بالنسبة له لا يحتاج إلى تفكير، لأنه يتفق هو وفطرته التي فطره الله عليها، وأخلاقه التي

(١) الأخشبان: جبلان بمكة.

جبل عليها، وجعلته سيد ولد آدم على الإطلاق، فقال ﷺ: «لا بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً»!!

ودهش ملك الجبال لما سمع وقال: أنت - كما سمّك ربك - رؤوف رحيم!! نعم - والله - لقد صدق من سماه الرؤوف الرحيم، ومن خاطبه هذا الخطاب الشريف الفذ: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾!!

وهذا هو سيدنا موسى عليه السلام يدخل مدينة من المدن المصرية، فوجد فيها رجلين يقتتلان ويتضاربان، أحدهما إسرائيلي من شيعة، والآخر قبطي من عدوه، فاستنصر به الإسرائيلي على القبطي، فضربه بجُمع يده، فقضى عليه فمات، وما كان موسى عليه السلام يقصد قتله، وإنما قصد دفعه، وكثيراً ما يقصد الإنسان قصداً ويحصل خلافاً، فلذلك ندم من فعلته وقاب إلى الله توبة نصوحاً، وعزم على عدم العودة لمثل ذلك، وعاهد الله على أن لا يكون معيناً لمجرم قط^(١).

ورأس الإجرام هو الكفر، ويليه المعاصي، وهذا الوكر وإن أفضى إلى الموت ليس بذنب، وإنما هو خلاف الأولى، وكان عليه أن يثبت قبل الوكر أو يفصلها عن بعضهما من غير وكر، وإنما عدّه موسى ذنباً واستغفر الله منه لمقام موسى وعلو منزلته على أن يحصل منه ذلك، وقد قيل: إن ذلك كان قبل نبوته فهو من الصغائر التي يجوز مثلها على الأنبياء، وهو الظاهر من قول موسى كما حكاه الله سبحانه في قوله:

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢).

ومهما يكن من شيء فهذا وأمثاله مما جاء به القرآن وجاءت به الأحاديث الصحيحة يدل على أن الأنبياء بشر، وأن الكمال المطلق إنما هو لله وحده، وعلى أنهم لشدة معرفتهم بالله وقربهم منه يستعظمون في حق أنفسهم ما ليس عظيماً،

(١) اقرأ الآيات من سورة القصص: الآيات ١٥ - ١٧.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١.

ويعتبرونه ذنباً يستغفرون الله تعالى منه، وإن لم يكن ذنباً في الحقيقة ونفس الأمر.

* * *

وأما نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فقد استأذنه سيدنا عمر - رضي الله تعالى عنه - أن ينزع ثنيي سهيل بن عمرو - أحد أسرى بدر - حتى يدلّع لسانه فلا يقوم خطيباً بعد ذلك ضد النبي ودعوته، فماذا كان جواب الرؤوف الرحيم؟: «لا أمثل فيمثل الله بي ولو كنت نبياً!!» بالسمو الرحمة، ويا لعظمة البشرية!! ثم يغري النبي سيدنا عمر بالعفو عنه، وعدم النيل منه فيقول: «وعسى أن يقوم مقاماً لا تدمه» وقد كان، وصدقت نبوءة الرسول الكريم فقد وقف بعد الردّة موقفاً كريماً حمده الناس له، وحفظه له التاريخ^(١).

* * *

ومثل آخر أسوقه لبيان كمال الفضيلة الإنسانية في نبينا محمد ﷺ، لقد كان عمر رضي الله عنه مشهوراً بالزهد وبلغ فيه مبلغاً صار مضرب الأمثال. عمر هذا الزاهد، الذي كان يداوم لبس المرقع، وكان ينام على الحصى والتراب، والذي كان يضرب اللين^(٢) بنفسه، وهنا إبل الصدقة بالقار بيديه^(٣) والذي كان يعيش الكفاف، ويأتمد الزيت بالعيش الجاف، عمر الذي حرم على نفسه أكل السمن عام الرمادة حتى يخصب الناس، وحتى صارت تكرر بطنه وتغير لونه، وهو لا يهتم بذلك.

عمر الزاهد هذا دخل على رسول الله ﷺ لما اعتزل نساءه بسبب تظاهر بعضهن عليه، وكان في مشربة له^(٤) يرقى إليها بدرج، وعلى الباب غلام اسمه رباح، فقال: يا رباح استأذن لي على رسول الله ﷺ، فلم يأت رباح بجواب،

(١) انظر: ص ١٥٩ من هذا الكتاب.

(٢) اللين: الطوب النيء.

(٣) يئناً: يغسل جسدها، ويطلّيه بالقار ليداويه.

(٤) المشربة: غرفة صغيرة.

فرفع رأسه وقال استأذن لي على رسول الله، فلإني أظن أن رسول الله ﷺ ظن أني جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرني رسول الله بضرب عنقها لأضربن عنقها!! فأشار إليه الغلام: أن أذن لك، فدخل على رسول الله، وما زال يلاطفه حتى تبسم، ثم نظر عمر في المشربة فوجد رسول الله ﷺ على حصير قد أثر في جنبه، وتحت رأسه وسادة من آدم، حشوها ليف، وفيها قرط مجموع وأُهب^(١) معلقة وفُرق من شعير، فبكى.

فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» فذكر عمر كسرى وقيصرو وماهما فيه من ألوان النعيم وما رأى في المشربة، أي - والله - عمر الزاهد يبكي لما رأى النبي في هذه الحالة، ولو أن البكاء كان من غير عمر لجاز، أما وهو من عمر فهذا موضع العبرة والعجب!!

ترى أيها القارئ ماذا سيكون جواب الرسول؟! وماذا سيكون حال الرسول؟ أيكي، كما بكى عمر الزاهد، أم يسكت على مضض وضجر؟! لو أن النبي فعل هذا وشارك عمر في بكائه أو سكت وتحسر، لكان قصارى أمره أنه عبقرى، أو أنه رجل مصلح، ولكنه فوق ذلك: فوق العبقرى وفوق المصلح، إنه النبي بكل ما في «أل» من كمال النبوة الذي بلغت به الذروة في الفضيلة الإنسانية، وإليك جواب النبوة الكاملة: «يا عمر، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا!!»

ويقف الزاهد المتكشف مدهوشاً أمام هذا الجواب فيزداد يقيناً إلى يقين أنه النبي حقاً، بعد أن أخذ من النبي ﷺ درساً في زهد البطولة، أو إن شئت فقل بطولة الزاهد.

* * *

(١) القرط: ما يدبغ به الجلد، أهب بضم الهمزة والهاء ويفتحها جمع إهاب: وهو الجلد.

صفاته الخلقية

وها هي صفاته ﷺ كما جاء في الأحاديث الصحيحة والحسنة والآثار المشهورة عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، يزيد بعضهم عن بعض فيها، ومن مجموعها نستخلص أن رسول الله ﷺ كان أزهر اللون^(١)، أدعج^(٢)، أنجل^(٣)، أشكل^(٤)، أهدب الأشفار^(٥)، أبلج^(٦)، أزج^(٧)، أقي^(٨)، أفلج^(٩)، مدور الوجه، واسع الجبين، ضخم الرأس، كث اللحية^(١٠) تملأ صدره.

سواء البطن والصدر، واسع الصدر، عظيم المنكين^(١١)، ضخم العظام. عجل^(١٢) العضدين والذراعين والأسافل، رَحْب^(١٣) الكفين والقدمين، سائل^(١٤)

(١) أبيض اللون مشرباً بحمرة.

(٢) شديد سواد الحدقة مع سعة فيها.

(٣) واسع العين مع حسن.

(٤) في بياض عينيه حمرة.

(٥) غزير شعر الأهداب مع طول.

(٦) مضيء الوجه مشرقه.

(٧) دقيق الحاجبين مع طول وتقوس.

(٨) مرتفع قصبه الأنف مع احديداب يسير فيها.

(٩) منفرج ما بين الشايات.

(١٠) غزير شعرها.

(١١) المنكب مجمع العضد والكتف.

(١٢) ضخم.

(١٣) طويلها طولاً معتدلاً.

(١٤) واسع.

الأطراف، أنور المتجرد^(١)، دقيق المسربة^(٢)، رُبعة القد، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، ومع ذلك فلم يكن يماشيهِ أحد ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ، رَجُل الشعر^(٣).

إذا افتر ضاحكاً افتر عن مثل سنا البرق، وعن مثل حب الغمام، إذا تكلم رثي كالنور يخرج من ثنياه، أحسن الناس عنفاً، ليس بمطهم^(٤)، ولا مكلثم^(٥)، متماسك البدن، ضرب اللحم^(٦)، إذا مشى تكفاً كأنما ينحط من صَبَب^(٧)، وإذا التفت التفت معاً.

قال البراء: ما رأيت من ذي لَمَة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ. وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلأل في الجدر. وقال جابر بن سمرة - وقال له رجل: أكان وجهه مثل السيف - فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً.

وقالت أم معبد في بعض ما وصفته به: أجمل الناس من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، وفي حديث ابن أبي هالة: يتلأل وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر!! وقال علي رضي الله عنه في آخر وصفه له: من رآه بديه هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله، ولا بعده مثله ﷺ^(٨).

* * *

(١) نير العضو المتجرد من الشعر.

(٢) الشعر الممتد من الصدر إلى السرة.

(٣) وسط بين التجعد والسيوطة.

(٤) بادن كثير اللحم.

(٥) مجتمع لحم الخدين.

(٦) ليس فيه استرخاء.

(٧) تكفاً: مشى إلى الأمام بقوة. صبب: مكان عال.

(٨) الشماثل الحمديّة للترمذي، ص ٨ - ٣٢؛ وصحيح البخاري - كتاب أحاديث

الأنبياء - باب صفة النبي، وصحيح مسلم - كتاب الفضائل - صفة شعره ﷺ.

وهذه الأوصاف تنم عن الذكاء والفطنة وكبر العقل، والقوة والبطولة والهيبة والجلال، والرزانة والوقار، وقد أملاها عليهم واقع الحال، لا مجرد الحب والخيال.

ومن ثم نرى أن رسول الله ﷺ كان يحظى بالكمال الجسماني، وسمات البطولة الجسدية الحقة، ولو أنك اطلعت على ما يشترط اليوم من الصفات لتحقيق «كمال الأجسام» لوجدتها لا تزيد عما ذكر في صفات النبي الخلقية، وهذا أمر كان لازماً، فإن نبينا بعث بخاتم الأديان والشرائع، لأمم الأرض كلها، وشرع الله له الجهاد في سبيل حماية العقيدة، ونشر هذا الدين، لا بد أن يكون متهيئاً غاية التهيؤ للجهاد، وأن يكون له من بسطة الجسم ما يهيئه للجهاد والقيادة، والشجاعة والإقدام. وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ جمع الله سبحانه له البطولة الجسمانية، إلى البطولة النفسية.

نظافة جسمه وطيب ريحه

هذا إلى نظافة جسمه، وطيب ريحه وعرقه، ونزاهته عن الأقذار، والروائح الكريهة، وقد خصه الله بذلك، ثم تممها وزادها بنظافة الشرع، وخصال الفطرة، والمداومة على التطيب والتطهر، ومجانبة الأطعمة الكريهة الرائحة.

عن أنس رضي الله عنه قال: (ما شممت عنبراً قط، ولا مسكاً، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مَسِسْتُ شيئاً قط ديباجاً ولا حريراً ألين مساً من رسول الله ﷺ) (١). وعن جابر بن سمرة: (أنه ﷺ مسح خده، قال: فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جُونة (٢) عطار).

وكانت تلك رائحته سواء مس طيباً أو لم يمس، وكان يصابح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيُعرف من بين الصبيان

(١) رواه مسلم وغيره.

(٢) الجُونة: بضم الجيم وهمزة على الواو ويدونها: الوعاء الذي يضع فيه متاعه.

بريحها، وكان إذا مرَّ في طريق يعرف أنه سلكه مما يخلفه فيه من طيبه . وثبت في صحيح مسلم أنه نام في دار أنس فعرق، فجاءت أمه بقارورة فجمعت فيها عرقه، فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك، فقالت: نجعلهُ في طيننا، وهو من أطيب الطيب. وفي رواية أخرى لمسلم: (فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا). قال: «أصبت».

كمال عقله

وأما كمال عقله، وأصالة تفكيره، وبعد نظره فيتجلَّى في كثير من تصرفاته ومواهبه السياسية قبل النبوة وبعدها، وذلك كما حدث حينما حكَّموه في قصة وضع الحجر الأسود، وفي إعداد الجيوش، ومباغتته للأعداء قبل أن يبعثوه في بلده، وموقفه في القضاء على الفتنة التي كادت تقع بين الأوس والخزرج بسبب تأليب اليهود، وبين المهاجرين والأنصار أثناء غزوة بني المصطلق، ومواهبه الفائقة في عقد المعاهدات والصلح، وفي معاملة الأصدقاء والأعداء، حتى كان سبباً في دخول الكثيرين منهم الإسلام، وفي ترضية الأنصار بعد قسمة غنائم حنين، إلى غير ذلك مما لا يحصىه العد. وقد عرضنا لذلك بالتفصيل في هذه السيرة العطرة.

فصاحة لسانه

وكان ﷺ فصيح اللسان، قوي العارضة، يفصِّل الكلام تفصيلاً، مع سلاسة طبع ونصاعة لفظ، وقلة تكلف، وجزالة معنى. وليس هذا بعجيب ممن كان في الذؤابة من قريش، واسترضع في بني سعد، ونشأ بمكة، وأنزل عليه القرآن بلسان عربي بلغ أعلى درجات الفصاحة والبلاغة.

وكان مما آتاه الله العلم بلغات العرب ولهجاتها، فكان يخاطب كل قوم بلغتهم مما كان يدهشهم ويدهش الحاضرين من الصحابة، حتى قالوا له: ما رأينا الذي هو أفصح منك!! فقال: «وما يمنعني وإنما أنزل القرآن بلسان

عربي مبین» وقال مرة أخرى: «أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد»^(١).

فجمع الله له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها، ورقة ألفاظ الحاضرة ورونقها، إلى المدد الإلهي بالوحي المتتابع، ولا سيما وحي القرآن الذي لا يحيط بعلمه وأسراره إنسي ولا جني، فلا عجب إذا قال: «أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً» رواه النسائي في سننه وأبو يعلى، ورويت الفقرة الأولى من حديث للبخاري ومسلم.

* * *

وإليك ما قاله في وصف كلام رسول الله ﷺ، أديب من أكبر أدباء العربية غير منازع وهو الجاحظ قال:

(وأنا ذاكر بعد هذا فناً آخر من كلامه صلى الله عليه وسلم، وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه! وجلّ عن الصنعة، ونَزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ - يا محمد - وما أنا من المتكلفين﴾^(٢) فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعقيب^(٣)، واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة، وشيّد بالتأييد، وسر بالتوفيق.

وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زُلّت به قدم،

(١) ذكره القاضي عياض في الشفاء، وأصحاب الغريب في كتبهم، وروى نحوه الطبراني مرفوعاً، وابن سعد مرسلاً، وأما: (أنا أفصح من نطق بالضاد) فلا أصل له.

(٢) سورة ص: ٨٦، والآية بتمامها: ﴿قُلْ ما أسألكم عليه من أجر، وما أنا من المتكلفين﴾.

(٣) التعقيب: هو التعجير، وهو أن يتكلم بأقصى قعر فمه، وهولون من التكلف في الكلام.

ولا بادت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذُّ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج^(١) إلا بالحق، ولا يستعين بالخلاية^(٢)، ولا يستعمل المواربة^(٣)، ولا يهمز، ولا يلمز^(٤)، ولا يبطيء ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر^(٥)، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى^(٦) من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً... ثم قال:

قال محمد: قال يونس بن حبيب: ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ.

وقد جمعت لك في هذا الكتاب جملاً التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار، ولعل بعض من لم يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلم، يظن أننا قد تكلفنا له في الامتداح والتشريف ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره، كلا، والذي جرم^(٧) التزيد عند العلماء وقبح التكلف عند الحكماء، وبهرج الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه.

فمن كلامه ﷺ حين ذكر الأنصار: «أما والله ما علمتم إلا لتقلون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع» وقال: «الناس سواسية كأسنان المشط»^(٨)...

(١) الفلج - بفتح الفاء وفتح اللام وسكونها - الفوز والغلب.

(٢) الخداع.

(٣) المداينة.

(٤) الهمز: العيب بالجوارح واللمز: العيب باللسان، وقيل هما بمعنى.

(٥) حصر يحصر حصراً من باب «تعب» عي في الكلام.

(٦) الفحوى: المعنى.

(٧) جرم: جعله جرمًا وإثماً.

(٨) زواه الديلمي.

وقال: «المسلمون تنكافأ دماؤهم، ويسعى ويرد عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على من سواهم»^(١) فتفهم - رحمك الله - قلة حروفه، وكثرة معانيه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»^(٢). . . وقال: «خير المال سكة مأبورة، وفرس مأمورة»^(٣). . . «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(٤). . . وقال: «الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة» «المستشار مؤمن»^(٥) «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم»^(٦) وقال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولأه الله أمركم، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»^(٧).

وقال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وإنما لك من ماله ما أكلت فأفريت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»^(٨) وقال: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا ابتغى ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»^(٩).

وقال: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون، ويؤلفون. وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني

(١) رواه أحمد وأبو داود.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) السكة: السطر المصطفى من النخل. المأبورة: الملقحة أي كثيرة النتاج والنسل.

(٤) رواه الشيخان.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه أحمد وأصحاب السنن.

(٧) رواه الديلمي والعسكري.

(٨) رواه مسلم.

(٩) رواه مسلم.

مجالس يوم القيامة الثرثارون المتشققون، المتفهبون»^(١) إلى غير ذلك مما ذكره^(٢) هذا العالم الأديب الأريب.

* * *

وقد ذكر هذا الإمام الخبير بكلام البلغاء جملة صالحة من كلام رسول الله ﷺ إلا أن منها ما ليس من كلام الرسول ﷺ، وذلك مثل قوله: «الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم» فالصحيح أنه من كلام علي، وقيل من كلام عمر، ومنها ما هو موضوع كما نصّ على ذلك أئمة النقد في الإسلام وهو «إن الأحاديث ستكثر عني كما كثرت عن الأنبياء من قبلي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو عني، قلته أو لم أقله» وهو كلام باطل لا يصدر مثله عن الرسول ﷺ، وكتاب «البيان والتبيين» ونحوه من كتب الأدب، لا يعول عليها في معرفة الأحاديث ما ثبت منها وما لم يثبت، ولذلك حرصت على تخريج الأحاديث التي ذكرها الجاحظ في الهامش.

ومما ذكره الجاحظ من كتبه ﷺ التي تدل على مخاطبته كل قوم بلسانهم ولغتهم ما رواه سعيد بن عفير عن ابن لهيعة عن أشياخه أن النبي ﷺ كتب إلى وائل بن حجر الحضرمي ولقومه: «من محمد رسول الله ﷺ إلى الأقبال العباهلة من أهل حضرموت، أمركم بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، على التبعة^(٣) شاة والتبعة لصاحبها^(٤)، وفي السبب الخمس^(٥)، لا خلط، ولا وراط^(٦)، ولا شناق،

(١) رواه البخاري، ورواه الترمذي وقال: حديث حسن. فالثرثارون: هم الذين يكثرون من الكلام من غير داع. والمتشققون: الذين يملأون فمهم بالكلام تشدقاً وتكلفاً. والمتفهبون: الذين يملأون فمهم بالكلام تكبراً وتعظماً.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١٦ - ٣٠.

(٣) التبعة بكسر التاء: الأربعون من الغنم.

(٤) التبعة: الشاة الزائدة على الأربعين.

(٥) السبب: جمع سبب: وهو المال المدفون في الجاهلية.

(٦) الخلط: أن يخلط رجل إبله بإبل غيره أو بقره، أو غنمه ليمنع حق الله فيها، والوراط: الغش.

ولا شغار^(١)، فمن أجبنني فقد أربى^(٢) وهي خصيصة عجيبة لرسول الله .

* * *

وأزيد على ما ذكره الجاحظ فأقول: ومن جوامع كلمه ﷺ قوله: «إن المال خُضْرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع» رواه البخاري ومسلم، وقوله: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» رواه البخاري، وقوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» رواه الشيخان، وقوله: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» متفق عليه، «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، فإن كان ولا بد، فثلاث لطعامه، وثلاث لشرابه، وثلاث لنفسه» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

وقوله: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» متفق عليه، وقوله: «وهل يكبُ الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم» رواه الترمذي، وقوله: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه» رواه الإمام مسلم في صحيحه، وقوله: «المسلمون عند شروطهم، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً» رواه أحمد، وأبوداود، والدارقطني، وقوله: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» رواه البخاري، وقوله: «ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل» رواه البخاري.

وقوله: «لا يلدغ المؤمن من جُحْر واحد مرتين» رواه البخاري، وقوله: «الحياء من الإيمان» رواه الشيخان، وقوله: «إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما تشاء» رواه البخاري، وقوله: «من يحفظ لي ما بين لحية، وما بين رجله^(٣)، أضمن له الجنة» متفق عليه، وقوله: «الرحم

(١) الشناق ما بين الفريضتين من الإبل والغنم وهو: الوقص، والشغار: أن يزوج الرجل أخته مثلاً على أن يزوجه الآخر أخته من غير مهر، وهو ما أبطله الإسلام.

(٢) الإجابة: بيع الزرع قبل بدو صلاحه، والإرباء من الربا.

(٣) ما بين لحية أي فكاه وهو لسانه، وما بين رجله: فرجه.

شجنة^(١) من الرحمن» رواه البخاري، وقوله: «في كل ذات كبد رطبة أجر» متفق عليه، وقوله: «من لا يرحم لا يُرحم»^(٢) رواه البخاري، وقوله: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» رواه مسلم. إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي فاضت بها كتب الأحاديث والسنن.

ومن هذه الأحاديث التي هي من جوامع كلمه ﷺ، ما اعتبر من المبتكرات التي لم يسبق إليها النبي ﷺ، وسارت مسار الأمثال في شيوعها وذيوها، وذلك مثل حديث «لا يلدغ...» السابق، وقوله: «الحرب خدعة» وقوله: «الآن حي الوطيس» وقوله: «إنَّ من البيان لسحراً» «وإن من الشعر لحكماً» أي لحكمة.

وقوله في فرس أبي طلحة: «وجدناه بحراً»^(٣) وقوله: «كما تدين تدان» ولا يفوتني أن أوصي الشباب والطلاب - ولا سيما المتأدِّين منهم - أن يكثرُوا من قراءة كتاب الله، وأحاديث رسول الله، وسيكتسبون بذلك إيماناً وعلماً وعملاً، وفصاحة وبلاغة، وجزالة ألفاظ، وقوة أسلوب، وإشراق بيان.

شرف نسبه وكرم محتده

وهذا أمر معروف غير منكور، أقرَّ به المخالف والموافق، وليس من شك في أنه نخبة بني هاشم، وسلالة قريش، وخلاصة مضر، وإليه انتهى شرفها، ومصاص البشرية كلها، وقد أفصح ﷺ عن ذلك فقال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» رواه مسلم.

(١) أي صلة قريبة منه.

(٢) الأولى بفتح الياء والحاء، والثانية بضم الياء وفتح الحاء.

(٣) أي واسع الجري، طويل النفس في العدو، وكان في أول أمره ليس كذلك فصار ببركة ركوب النبي عليه بحراً لا يجارى.

والترمذي^(١)، وقال: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت منه» رواه البخاري، وقال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إلا أن الله عز وجل خلق خلقه، فجعلني من خير خلقه، ثم فرّقهم فرقتين فجعلني من خير الفرقتين، ثم جعلهم قبائل فجعلني من خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني من خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً» رواه أحمد واللفظ له والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وليس من شك في أن النسب الزكي إذا انضم إليه الخلق الرضي كان خيراً وأزكى، والناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» رواه البخاري^(٢).

* * *

(١) من حديث في الخصائص النبوية، رواه الشيخان وقد زاد الترمذي الفقرة الأولى، واتفقا على ما بعدها.

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب من ص ١٨٢ - ١٨٥.

النبي الزوج

لقد خصَّ رسول الله ﷺ بأن أباح الله له من الزوجات ما لم يباح لغيره، فقد تزوج إحدى عشرة ودخل بهن، منهن اثنتان ماتتا في حياته وهما السيدتان: خديجة، وزينب أم المساكين، وتوفي عن تسع، وهن: عائشة بنت الصديق، وسودة بنت زمعة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، وصفية بنت حيي النضيرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية. وتسرى جارتين: مارية القبطية، وريحانة بنت زيد اليهودية، وقد ماتت في حياته.

وإذا كان الإسلام جعل للمرأة حقوقاً لم تكن تحلم بها، ورفع من شأنها، فقد حظي بالنصيب الأوفى من ذلك نساء النبي ﷺ، ولما أنكر الفاروق عمر على زوجته أن تراجع في أمر قالت له: عجباً لك يا ابن الخطاب، أما تحب أن تراجع في شيء، إن بنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان. فذهب إلى ابنته يسألها، فإذا هي تؤكد له ذلك.

وكان كثيراً ما يوصي بالنساء خيراً ويقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»^(١)، وفي حجة الوداع أوصى بهن خيراً كما أسلفنا.

وإن الإنسان ليعجب كيف وفق النبي ﷺ بين هؤلاء التسع وهن مختلفات في السن، والطبائع، والأخلاق والمشارب؟! ولكن النبي بسعة عقله، ورحابة صدره، وكرم أخلاقه أمكنه أن يحسن عشرتهن ويعدل بينهن، وأن يوفق

(١) رواه ابن ماجه.

بين رغباتهن، وأن يعشن عيشة الأخوات لا عيشة الضرائر، وإنها لبطولة حقاً أن يكون عنده هذا العدد من الزوجات، ويقوم بأعباء الرسالة، وتكوين خير أمة، وأول دولة في الإسلام على خير ما يكون!!.

والواحد منا تكون عنده الزوجة الواحدة، والعدد القليل من الأولاد، ومع هذا يكون في شغل شاغل، وفي خيرة من التوفيق بين حقوق زوجته وولده، والقيام بواجبات عمله على وجه مرضي، ولكنه النبي الذي وسع الناس جميعاً بعقله وصدره وبره.

وهن خيار نساء هذه الأمة، الحريصات على رضا الله ورسوله. ومع كونهن بهذه المنزلة فلم تخل معاشرتهن للنبي ﷺ من بعض مضايقات ومؤامرات، بسبب ما ركز في فطرة المرأة من الغيرة، وحب الاستئثار بالزوج.

فمن ذلك أنهن اجتمعن على النبي ورغبن إليه أن يوسع عليهن، وأن يكون لهن ما لنساء الملوك وأصحاب الثراء، وكان النبي قد أخذ نفسه وأهله وولده بالتقشف والتقلل من طيبات الحياة وزخارفها، وفرض على نفسه وعليهن لوناً من ألوان المعيشة لا يتميز عن معيشة عامة الأمة، إن لم يقل، وهو ﷺ قدوة المسلمين جميعاً فليكن نساؤه كذلك قدوة لنساء الأمة، لذلك تألم النبي لمطالبهن، فاعتزلهن شهراً.

ولما اعتزل النبي نساءه شاع ذلك، وعظم الأمر على الصحابة، فذهب الصديق أبو بكر إلى المشربة التي اعتزل فيها رسول الله، فإذا الناس جلوس محزونون، فاستأذن على رسول الله، فأذن له، ثم جاء الفاروق فاستأذن له، فوجدا النبي واجماً ساكتاً وحوله نساؤه، فقال أبو بكر: لأقولن شيئاً أضحك به النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لورأيت بنت خارجة - زوجته - سألتني النفقة فقممت إليها فوجأت^(١) عنقها! فضحك رسول الله وقال: «هن حولي كما ترى يسألني النفقة».

(١) طعننها في عنقها طعناً مؤلماً.

فقام أبو بكر وعمر إلى ابتيهما يزجرانهما ويقولان: لا تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فتعهدتا بذلك، وبعد مضي مدة الاعتزال أنزل الله آية التخيير، قال عز شأنه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتَهَا فَمِثْلُ الدُّنْيَا مَتًى ۚ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١).

فبدأ رسول الله بعائشة وقال: «يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك امرأة أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشير أبيك» قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآيتين. قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخير امرأة من نسائك بالذي قلت، فأبى وقال: «لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها. إن الله لم يعثني متعتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً»!! (٢)، ثم خيرهن فكلهن اخترن الله ورسوله، رضي الله عنهن.

وحادثة أخرى ذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى العصر دار على نسائه يلاطفهن ويؤانسهن بالمحادثة، وربما يطيل المكث عند بعضهن، فتأخذ الغيرة بنفوس بعضهن. فدخل ذات يوم على السيدة زينب بنت جحش، فمكث عندها وشرب عسلاً، فتواطأت عائشة وحفصة أن أيتنا دخل عليها رسول الله فلتقل له: إني أجد منك ريح مغافير (٣) - وكان النبي يكره الرائحة الخبيثة - فدخل على حفصة فقالت له ذلك، فقال: «بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود إليه، وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً» (٤).

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٢٨ - ٢٩.

(٢) فتح الباري ج ٨ ص ٤٢٢ - ٤٢٤، صحيح مسلم - كتاب الطلاق - باب أن تخير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية.

(٣) مغافير: جمع مغفور بضم الميم وهو صبغ له رائحة كريهة، وينضخه شجر يسمى العُرْقُط، بضم العين والفاء.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

ولكنها لم تعمل بما أوصاها به وأخبرت بذلك عائشة، وفي رواية عند مسلم أن التي شرب عندها العسل حفصة، وأن اللاتي تظاهرن عائشة، وسودة، وصفية، وأنه لما أخبرهن بشرب العسل عند حفصة قالت كل واحدة منهن: جَرَسَتْ نَحْلَهُ^(١) العَرُفُطُ، وأنه لما عرضت عليه حفصة أن تسقيه عسلاً مرة أخرى امتنع وقال: «لا حاجة لي به» والأول هو الأصح^(٢)، وهو الأليق بسياق الآية.

وفي الصحيحين عن عمر: أن المتظاهرتين هما عائشة وحفصة، وقد كانت هذه المؤامرة سبباً في اعتزال النبي نساءه شهراً. وفي الصحيحين أن عمر لما أخبره جاره الأنصاري أن رسول الله اعتزل نساءه قال: رغم أنف حفصة وعائشة، وذهب إلى عائشة فذكرها وحذرها؛ ثم ذهب إلى ابنته فوبّخها وعنفها، وقال لها: والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك، فبكت أشد البكاء.

ثم قصد إلى رسول الله في مشربة له يرقى إليها بدرج وعلى الباب غلام اسمه رباح، فقال: يا رباح استأذن لي على رسول الله، فلم يأت رباح بجواب، فرفع صوته وقال: استأذن لي على رسول الله فلإني أظن أن رسول الله ﷺ ظن أني جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرني رسول الله بضرب عنقها لأضربن عنقها!! فأشار إليه الغلام: أن أذن لك، فدخل على رسول الله وما زال يلاطفه حتى تبسم.

ثم نظر عمر في المشربة فوجد رسول الله على حصير قد أثر في جنبه، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف، وفيها قرظ مجموع، وأُهب^(٣) معلقة، وفُرق من شعير، فبكى فقال رسول الله: «ما يبكيك يا عمر؟» فذكر كسرى

(١) جرست: أكلت.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٧٣ - ٩٣، صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة التحريم.

(٣) القرظ: يدبغ به الجلد. أهب بضم الهمزة والهاء ويفتحها جمع إهاب: وهو الجلد.

وقيصر وماهما فيه، وما رأى في المشربة فقال له: «يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة، أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»^(١). فلما انقضى الشهر نزل رسول الله ﷺ فأنزل الله سبحانه - معاتباً نبيه، وخوفاً ومحذراً نساءه - قوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذَا أَسْرَأْتِنِي إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَأْتَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * إِنْ تُنُوبُوا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رِيتُهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكَ مِثْلَ مُؤْمِنَتٍ قَبِيْلَتٍ تَبَيَّنَتِ غِلْدَتِي لَسِيحَتِي تَبَيَّنَتِ وَأَنْكَارًا﴾^(٢).

فكفر رسول الله عن يمينه. وتاب نساؤه إلى الله ورسوله.

وكان عمر رضي الله عنه لما دخل على رسول الله فوجده مغضباً قال له: يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. وقال لنسائه: (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن) فنزلت الآية على ذلك، وعد هذا من موافقات عمر رضي الله عنه.

وذكر النسائي وابن جرير وابن مردويه وغيرهم أن نزول صدر سورة التحريم كان بسبب تحريم مارية القبطية، ذلك أن حفصة كانت استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبيها فأذن لها، فأرسل إلى جاريتها مارية وباشرها في يوم حفصة وعلى فراشها، فلما عادت وعلمت بما كان صارت تبكي وتقول: أما رأيت

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٠ ص ٨٣؛ وفتح الباري، ج ١٠ ص ٥٣٤.

(٢) سورة التحريم: الآيات ١ - ٥. سائحات: أي صائحات.

لي حرمة؟ ما كنت لتصنع هذا بامرأة من نسائك!! فقال رسول الله: «أليست هي جاريتي أحلها الله لي؟» ثم ترصاها فأخبرها بأنها حرام عليه، وبأن الصديق وأباها سيتوليان الخلافة بعده وقال: «لا تخبري بذلك أحداً».

فلما خرج رسول الله قالت حفصة لعائشة: ألا أبشرك؟ إن رسول الله قد حرم أمتة عليه، وقد أراحنا منها، وأخبرتها بما سيكون من شأن الخلافة، فلما علم رسول الله بما أفشته من سر غضب. واعتزل نساءه شهراً، ثم أنزل الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ...﴾ الآيات.

والراجع ما في الصحيح، وأن ذلك كان بسبب تحريم العسل، وإن كان سياق الآيات أليق بمسألة تحريم مارية، ويمكن أن تكون الآيات قد نزلت بسبب تحريم العسل وتحريم مارية^(١)، فقد يكون سبب النزول حادثين أو أكثر كما هو مقرر في أسباب النزول.

* * *

هذه هي أهم الأحداث التي عكرت صفو حياة النبي الزوجية، وقد كانت أسباباً لتشريعات حكيمة في قرآن يتلى إلى يوم الدين، وفيما عدا هذه فقد كنَّ مؤمنات، قانتات، ثابتات، عابدات، صوامات، وكن خير معينات له على طاعة ربه وتأدية رسالته، كما كنَّ مصابيح إشعاع وهداية وعلم في حياة النبي وبعد وفاته، فرضي الله عنهن.

* * *

وقد كان رسول الله ﷺ يلاطفهن ولا ينفك عن مؤانستهن والتبسُّط معهن. ومن رفقته بهن أنه أتى عليهن وسواق يسوق بهن يسمى أنجشة، وكان يحدو للإبل فتتشط وتسرع بالسير، فربما يؤلمهن ويتعبهن، فقال له: «ويحك يا أنجشة، رويدك، سوقك بالقوارير»^(٢).

(١) فتح الباري، ج ١٠ ص ٥٣٣.

(٢) رواه الشيخان.

وروي أن من آخر ما نطق به قبل اللحق بالرفيق الأعلى الوصية بالنساء.
وقال: «حُبَّ إِيَّيْ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجَعَلَتْ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

وحب الزوجة حب فطري، لأن فيه سكن النفس، وغذاء العاطفة،
ورضا القلب، ومبعث هذا الحب الرحمة والشفقة، والرفق بالضعيف، لا مبعثه
إرضاء الغريزة الجنسية، وإشباع الشهوة؛ وإلا فقد قضى شبابه مع زوجة واحدة
مسنة تكبره بخمسة عشر عاماً.

وسئلت عائشة عما كان يصنع النبي في بيته قالت: (كان يكون في
مَهْنَةٍ^(٢) أهله) يعني خدمتهم^(٣). فكان يساعدهم ويعاون خدمه، ويحلب شاته،
ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويذهب إلى السوق ويحضر لهم طعامهم، ولا يرى
في ذلك منقصة، ولا ما يغض من شرفه وقدره، ولم يؤثر عنه ﷺ أنه ضرب
امراً، أو عبداً، أو خادماً، أو شق عليه في شيء.

* * *

(١) رواه النسائي. وقد اشتهر هذا الحديث بلفظ: «حُبَّ إِيَّيْ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَ...» وزيادة
ثلاث غير ثابتة، ومتن الحديث يردها لأن «وجعلت قرة عيني في الصلاة» ليس من أمور
الدنيا.

(٢) مهنة: بفتح الميم وكسرهما وسكون الهاء فيها: الخدمة، وقيل الخدق فيها.

(٣) رواه البخاري.

النبي الأب

وكما كان رسول الله الزوج المثالي المتسامح المتغاضي عن الهفوات، كان الأب الحاني العطوف الشفيق، وقد قدّمنا طرفاً من حبه لبناته، وأبنائه، وحزنه لفقدن، وبكائه عليهن بكاء الرحمة والشفقة، وتعهده لابنه إبراهيم، وذهابه إليه خارج المدينة كل يوم فيحمله ويشمه ويقبله. وكذلك كان يقبل ولدي ابنته فاطمة ويشمهما ويقول: «هما ريجانتاي من الدنيا»^(١).

ولما رآه الأقرع بن حابس وهو يقبل الحسن قال: إن لي عشرة أبناء ما قبلت واحداً منهم فقال رسول الله ﷺ: «إنه من لا يرحم لا يُرحم» وقدم على النبي ﷺ أحد الأعراب فوجد النبي والصحابة يقبلون الأولاد فقال: أتقبلون أولادكم؟ فقالوا: نعم، فقال: والله ما نقبلهم، فقال الرؤوف الرحيم: «أو أملك لك أن الله نزع الرحمة من قلبك»!!.

(وقد كان يصلي بأمامة بنت بنته زينب - رضي الله عنهما - يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها)^(٢). فأى مثل أروع من هذا في بيثة كانت تحب الذكور، وتبغض الإناث بل وتتدهن؟!.

وكان النبي يخطب ذات يوم على المنبر فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويتعثران، فنزل النبي فحملهما ووضعهما بين يديه.

(١) كالشيء الطيب الريح الذي يشم، ويحب، ويقبل. والأولاد يشمون ويحبون ويقبلون، وهو من الكلام الموجز البديع الذي لم يسبق إليه ﷺ فيما أعلم.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب رحمة الولد، وتقيله، ومعانقته.

وروي عن عبدالله بن الزبير أنه رأى الحسن بن علي يحيى والنبي ساجد فيركب رقبته، أو قال ظهره، فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل، ولقد رأيت يحيى وهو رাকع فيفرج له بين رجله حتى يخرج من الجانب الآخر. وروي أن رسول الله كان إذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا أرادوا أن يمنعوها أشار إليهم: «أن دعوهما»^(١) كما كان يلاعبهما إذا فرغ لهما. فهل رأيت في باب العطف والشفقة على الأبناء، وإشباع رغباتهم في اللهو واللعب أفضل وأسمح من هذا؟!.

وكان إذا دخلت عليه ابنته فاطمة يقوم لها ويقبلها ويقول لها: «مرحباً بابنتي»^(٢) ويجلسها على يمينه. وربما بسط لها ثوبه. فأني إكرام واحترام للأولاد يداني هذا؟! وكان يقول: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها فقد أغضبني»^(٣) فأني تأكيد لأواصر الحب والقربى فوق هذا؟!.

* * *

(١) الإصابة، ج ١ ص ٣٢٩.

(٢) و(٣) رواهما البخاري، و«بضعة» بفتح الباء أي قطعة.

النبي الإنسان

لقد اتسمت حياته ﷺ بالإنسانية، وقد قدمنا الكثير من المثل لإنسانيته الفائقة حتى مع الكفار والأعداء، وذلك في معرض الحديث عن العبر في غزوة بدر، وفي غزوة خيبر غنم المسلمون فيها غنموا صحائف من التوراة، فطلبها اليهود، فأمر بإعطائها إياهم وهو يعلم ما بها من تحريف وتبديل. وهذا غاية الإنسانية في احترام الشعور الديني للأعداء.

وروى البخاري في صحيحه أنه مرَّ عليه بجنازة فقام لها، فقالوا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي!! فقال: «أليست نفساً منفوسة»^(١)؟! فأبي تكريم لبني آدم يسامي هذا؟!.

وفي إحدى الغزوات وجد امرأة مقتولة فغضب وقال: «ما كانت هذه لتقاتل!» ونهى عن قتل النساء والصبيان. وكان إذا بعث بعثاً أو جيشاً أوصاهم قائلاً: «لا تَغْلُوا، ولا تغدروا، ولا تَمْلُوا، ولا تقتلوا وليداً»^(٢).

وكان له خادم يهودي فكان إذا مرض عاده، فعاده مرة فعرض عليه الإسلام وأبوه حاضر فقال له: أطع أبا القاسم فأسلم فقال: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»^(٣) إلى غير ذلك مما تجده في ثنايا كتب الأحاديث والسيرة.

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم. والغلول: الخيانة في الغنيمة. الغدر: نقض العهد وعدم الوفاء به. ولا تَمْلُوا: المثلة: التمثيل بالعدو، وقطع الأطراف ونحوها. الوليد: الطفل.

(٣) رواه البخاري.

النبي المربي المعلم

وقد ذكرنا آنفاً قوله ﷺ: «إن الله لم يبعثني متعنتاً، وإنما بعثني معلماً ميسراً» وقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال»^(١). وقد كانت حياته ﷺ حياة تربية وتعليم، وتأديب وتهذيب، وبحسبنا شاهداً على هذا أنه بعث إلى قوم يعبدون الأصنام، ويسفكون الدماء، ويعتدون على الأعراض والأموال، ويتظالمون، ويتعاملون بالربا، ويشربون الخمر، ويغشون الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويتفاخرون بالأحساب والأنساب، فلم يزل بهم يريهم ويتعهدهم حتى صير منهم موحدين أتقياء، وحكماء علماء، وحلماء رحماء، وإخواناً متحابين أصفياء، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس في عقيدتها وعبادتها، وعلمها وعملها، وأخلاقها وسلوكها.

* * *

من كان يظن أن معادل الوثنية في الجزيرة العربية تصبح منارات للتوحيد الخالص؟ ومن كان يظن أن العرب - وهم أشد الناس اعتزازاً وتفخراً بالأحساب والأنساب - يصبحون أكثر الأمم اعترافاً بالمساواة وتطبيقاً لها؟ حتى لقد تسنى لبلال الحبشي العبد الأسود أن يكون أول مؤذن في الإسلام!! وحتى قال عمر بن الخطاب العدوي القرشي في الصديق ومولاه بلال: (هوسيدنا، وأعتق سيدنا)^(٢)، وحتى عقل بلال خالد بن الوليد المخزومي القرشي بعمامته، تنفيذاً لأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، واستسلم خالد له!! فلما أجاب عما

(١) رواه مالك وأحمد.

(٢) رواه البخاري.

طلبه سيدنا عمر أطلقه وأعاد إليه قلنسوته، ثم عممه بيده وقال: (نسمع ونطيع لولاتنا، ونفخم ونخدم موالينا)^(١) أي ساداتنا.

بل من كان يظن أن المرأة تخرج من اليمن إلى الكعبة فلا يعرض لها أحد بسوء؟ وأن الخمر التي كانت ممزجة بلحوم العرب ودمائهم^(٢) يتركونها أبداً بعد التحريم؟ وأن الربا الذي كان شائعاً بين العرب يُقضى عليه هذا القضاء؟! إن هذا سر من أسرار إعجاز الرسالة المحمدية.

لقد كان للنبي ﷺ في تربية الأمة وسائل من أهمها القدوة، فقد كان أسوة حسنة في نفسه، وفي أهله وفي بيته، وفي كل تصرفاته، فمن ثم أثمرت تربيته أيما إثمار.

وكان رسول الله يريهم تارة بالقول، وتارة بالعمل، وتارة بهما معاً، فقد قال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٣)، وقال: «خذوا عني مناسككم...»^(٤)، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه تبييناً للقول بالفعل.

ولم تكن هذه التربية قصراً على الرجال، فقد رغب إليه النساء أن يجعل لهن يوماً خاصاً يعظهن ويعلمهن فيه، ففعل، وقد تخرج في مدرسة النبوة نساء بلغن الغاية في العلم، والعمل، والحكمة.

وكذلك لم تكن قصراً على الكبار، بل استفاد منها ونشأ عليها الصبيان والفتيان والفتيات، وكان في تربيته يتدرج معهم، ويتخولهم بالموعظة والتعليم أياماً دون أيام، كراهية السامة منهم والمشقة عليهم، روى ذلك البخاري في الصحيح^(٥).

* * *

(١) أشهر مشاهير الإسلام، ج ٢ ص ٤٥١.

(٢) لقد بلغ من حبه الخمر أن قال قائلهم:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمي

ولا تدفني بالفلاة فإني أخاف إذا مات أن لا أذوقها

(٣) رواه البخاري. (٤) رواه مسلم. (٥) صحيح البخاري - كتاب العلم.

وكان من أساليب رسول الله ﷺ أن يلقي عليهم بعض الأسئلة التي تحتاج الإجابة عنها إلى علم وذكاء وفطنة، شحذاً لأذهانهم على التفكير، واختباراً لذكائهم، وتنشيطاً لهم، وذلك مثل قوله: «إنَّ من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، ولا ينقطع نفعها، وإنما مثل المسلم، حدَّثوني ما هي؟» قال ابن عمر: (فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنها النخلة) ولكنه استحيى أن يحيب احتراماً لكبار الصحابة، ولما أخبر أباه بهذا بعدُ قال له: لأن كنت قلتها أحب إليَّ من أن يكون لي حُرُّ النِّعَم.

وقد استرعى انتباه الكاتنين من فلاسفة الغرب في تاريخ الحضارات وارتقاء الشعوب، أن الأمة الإسلامية طفرت طفرة واحدة في زمن وجيز على خلاف العادة والمعروف، وعجبوا لهذا، ولو أنهم وضعوا في حسابهم أن المربي هو النبي المؤيد بالآيات، والمثل الأعلى للمربين، والهداة والمرشدين، وأن عماد هذه التربية هو القرآن معجزة المعجزات - لزال العجب، ولعلموا أن هذا من إعجاز القرآن الاجتماعي والأخلاقي، إلى جانب إعجازه العلمي والبياني، وإلا فلن يستطيعوا أن يعلموا ذلك بمقتضى النظر المادي.

لقد رفع النبي ﷺ من شأن العلم والعلماء حينما قال كما قال الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وقال: «العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(١). ورفع من شأن المربين والمصلحين حينما قال لعلي رضي الله عنه: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُرِّ النِّعَم»^(٢). وبحسب العلماء والمربين والمعلمين هذا التقدير من إمام العلماء وقدوة المربين.

(١) رواه أبو داود والترمذي.

(٢) رواه الشيخان.

النبي مع ربه

وكان ﷺ أعرف الناس بربه، وأعلمهم بجلاله وكماله وصفاته، فمن ثمَّ كان أشدهم تقوى، وأكثرهم عبادة، وقياماً لليل. عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت: يا رسول الله لم تصنع هذا وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟) فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١)! وقالت: (كان عمل رسول الله ديمة^(٢))، وأيكم يستطيع) وقالت: (كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم)^(٣).

وكان الله سبحانه أمره في مبدأ أمره أن يقوم الليل إلا قليلاً، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَرْءِلُ * فَرَأَيْتَ إِلَّا قَلِيلًا * نَصَفَهُ وَأَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْزَدَ عَلَيْهِ وَرَئِلَ الْقُرْءَانُ تَرْتِيلًا﴾^(٤).

فكان قيام الليل واجباً محتوماً، قيل عليه، وقيل: عليه وعلى أمته، ثم خُفِّفَ عنه، فنسخ الوجوب وصار مندوباً.

ولم يحدد للقيام وقت محدود، بل ترك ذلك إلى القدرة والاستطاعة، قال عز شأنه:

(١) رواه البخاري.

(٢) المراد المواظبة على الطاعة، والعبادة في جميع أوقات العام، لا أنه يواصل الليل بالنهار بدليل الحديث الذي بعده وغيره. وديمة: بكسر الدال.

(٣) رواهما البخاري.

(٤) سورة المزمل: الآيات ١ - ٤.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلَاثُ وَطَائِفَةٍ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا بَيَّسَرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ الآية (١)
وقال:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٢)

ومع هذا كان دائم العبادة والتهجد، وكان دائم التذكر لله، والتفكر في خلق الله وآلائه، لا يغيب قلبه عن الله، فإن حصل من ذلك شيء بسبب شواغل الدنيا وهمومها استغفر الله تعالى، وهذا هو المراد بقوله: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» رواه مسلم، وفي رواية البخاري: «أكثر من سبعين مرة».

* * *

ومع عبادته وتقواه كان أبعد الناس عن التشدد والمغالاة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع رسول الله ﷺ أمراً فترخص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه فكأنهم كرهوه، وتنزهوا عنه فبلغه ذلك، فقام خطيباً فقال: «ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه فكرهوه، وتنزهوا عنه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدّهم له خشية» (٣)، وفي حديث آخر له قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً، وهم المتشددون في غير موضع التشديد.

وكان دائم الدعاء لله ولا سيما إذا اشتد الكرب، وتآزمت الأمور، وقد قدمنا لك دعاءه في بدر وأحُد والأحزاب وغيرها، كما كان دائم الشكر لله، لا يطفئه النصر، ولا تبطره النعمة.

وما كانت تشغله عبادته عن دنياه، ولا دنياه عن عبادته، وهكذا راعى رسول الله الفضيلة والوسطية في العبادة، وكان الأ نموذج الكامل للمسلم السميع

(١) سورة المزمل: الآية ٢٠.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

(٣) رواه مسلم.

الكريم، وليس أدل على هذا من هذه القصة: روى الشيخان في صحيحهما بسندهما - واللفظ للبخاري - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

(جاء ثلاثة رَهْط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها^(١))، فقالوا: وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً^(٢)!! وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر!! وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً!! فجاء إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي^(٣) فليس مني»).

وفي رواية مسلم: (فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش)، وفي الصحيحين أيضاً عن سعد بن أبي وقاص قال: (رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل^(٤))، ولو أجاز له لاختصينا^(٥).

* * *

وهذا هو المنهج الوسط، الذي جاءت به الشريعة الوسط؛ للأمة الوسط التي هي خير أمة أخرجت للناس. والإسلام ليس دين رهبانية، فالرهبانية لا تليق بعمارة الكون، وليست من سنن الأنبياء، والذين اتبعوا الرهبانية من اليهود والنصارى ابتدعوها من عند أنفسهم، قال تعالى:

(١) تقالُّوها: بتشديد اللام المضمومة: أي استقلوها.

(٢) هو قيد لليل لا لأصلي.

(٣) السنة: الطريقة المشروعة، وليس المراد السنة التي تقابل الفرض.

(٤) التبتل: ترك النكاح وما يتبعه من الملاذ إلى العبادة.

(٥) الاختصاص: نزع الأنثيين حتى يفقد القدرة الجنسية.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا
حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾^(١).

فهم مع ابتداعهم لها قصدوا ابتغاء رضوانه بالمبالغة في العبادة،
فلم يقوموا بحققها ولم يلتزموا بما ألزموا به أنفسهم.

والإسلام - وهو الدين العام الخالد الصالح لكل زمان ومكان، ولإصلاح
الدنيا والآخرة - لا يتفق والرهبانية، وهي نوع من التنطع في الدين، وقد نبههم
رسول الله كما سمعت، وفي رواية الطبراني أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه
لما قال للنبي: ائذن في الخلاء، قال له: «إن الله قد أبدلنا بالرهبانية
الحنيفية السمحة» وفي رواية أخرى أرشده إلى علاج ما يعاني من مشقة العزوبة
فقال له: «لا، ولكن عليك بالصوم» وصدق الله في وصف الأمة المحمدية حيث
قال:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ
عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢).

(١) سورة الحديد: الآية ٢٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

النبي مع أصحابه

وكان ﷺ رؤوفاً رحيماً بهم، يتعهد حاضرهم، ويسأل عن غاب منهم، ويسلم عليهم، ويشمت عاطسهم، ويواسي فقيرهم، ويعين ضعيفهم، ويشاركهم في السراء والضراء، ويعود مريضهم، ويشيع ميتهم، ويكسو عاريهم، ويشيع جائعهم، ويرعى أراملهم، وأيتامهم، ويجالس فقراءهم والأعبد منهم، ويحكك أطفالهم، ويبارك عليهم، ويداعب صبيانهم ليدخل السرور على نفوسهم.

مارؤي ماداً رجله بينهم، ولا عابساً في وجه أحد منهم، ولا استأثر عليهم بشيء لنفسه ولا لأهله، ولما عرض عليه صاحبه في ركوب البعير في غزوة بدر أن يعفيه من نوبته في المشي أبى، وقال: «ما أنتا بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منك». وكان مع أصحابه في سفر، فذبحوا شاة، فقال واحد منهم: عليّ ذبحها، وقال الآخر: عليّ سلخها، وقال الثالث: عليّ طبخها، فقال رسول الله: «وعليّ جمع الخطب» فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك العمل، فقال: «علمت أنكم تكفوني، ولكني أكره أن أتميز عليكم، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه»، وفي حجة الوداع ذهب ليشرب من السقاية، فأراد عمه العباس أن يميزه بشراب خاص من البيت، فأبى وقال: «لا أشرب إلا مما يشرب منه الناس».

وكان كذلك لا يميز أهله بشيء، ففي قصة المخزومية التي سرقت، وأرادوا أن يشفعوا في عدم إقامة الحد عليها قال: «وايُّم الله: لو أن فاطمة بنت

محمد سرق لقطع محمد يدها»^(١)، ولما جاءت ابنته فاطمة تطلب منه خادماً من السبي وقد مجّلت^(٢) يداها من الرحي والعمل، أبى وعلمها وزوجها دعوات يدعوها بها عند النوم وقال: «لا أعطيكم وأدعُ أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»^(٣). وروى أصل القصة البخاري^(٤).

وكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول: «أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغي، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر» وكان لا يأخذ أحداً بذنوب أحد، ولا يصدّق أحداً على أحد، وروى عنه أنه قال: «لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

فهل رأيت في باب الحرص على الوقوف على أحوال الأمة، وإزالة شكاواها، وقطع باب السعاية والوشاية بالرعية أبلغ من هذا؟! فلا عجب وهذا بعض ما كان يعامل به أصحابه أن أحبه أكثر من حبه أنفسهم، وأن فدّوه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم، حتى شهد بذلك الأصدقاء والأعداء.

(١) رواه الشيخان.

(٢) السبي: ما يؤخذ في الحرب من رجال ونساء. مجّلت: امتلأت بشوراً من إدارة الرحي وكثرة العمل.

(٣) رواه أحمد.

(٤) صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب عمل المرأة في بيت زوجها.

النبي الرؤوف الرحيم

وأما رحمته وشفقته على جميع الخلق فحدّث عنها ولا حرج، وبحسبه شرفاً أن الله وصفه باسمين من أسمائه فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، وقد آذاه قومه وعشيرته أشد الإيذاء، فوضعوا الشوك في طريقه، والقذر على بابه، وحاولوا خنقه وقتله، ووطئوا رأسه وهو يصلي، ووضعوا سلاً الجزور على ظهره، ومع ذلك كان يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

ولما ذهب إلى ثقيف داعياً إلى الإسلام، فأبوا وأغروا به الصبيان والسفهاء حتى أدموا عقبه، أرصد الله له في الطريق وهو راجع مَلَكاً من ملائكته، وعرض عليه أن يهلكهم، فأبى وقال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً»^(١)، وفي رواية: فقال له جبريل: «صدق من سمّاك الرؤوف الرحيم».

* * *

ومن المثل الرائعة في هذا ما رواه البزار بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في شيء — قال عكرمة أراه قال في دم يعني دية — فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً، ثم قال: «أحسنْتَ إليك؟» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت!! فغضب بعض المسلمين، وهموا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله ﷺ: أن كفّوا، فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابي إلى البيت، وزاده شيئاً، وقال: «أأحسنْتَ إليك؟» فقال الأعرابي:

(١) رواه الشيخان.

نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً!! فقال له النبي ﷺ: «إنك قلت ما قلت وفي نفسي أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك» قال: نعم، فلما كان الغد أو العشية جاء، فقال ﷺ: «إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه، فزعم أنه رضي، أكَذَلِكَ» قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً!! فقال ﷺ:

«إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثّل رجل له ناقة شردت عليه، فاتّبعها الناس، فلم يزيدها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها: خلّوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه إليها وأخذ لها من قمام الأرض ودعاها، حتى جاءت واستناخت، وشدّ عليها رَحْلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال، فقتلتموه دخل النار^(١)» وسند القصة وإن كان فيه راوٍ ضعيف إلا أنه يؤخذ به في باب الفضائل.

وفي الحق أن هذا الحديث فيه نور من نور النبوة، وروعة في التمثيل لا يُقدر عليها، ولن يكون مصدرها إلا النبي صلوات الله وسلامه عليه، ومع كون المثل ليس بالأمر الغريب عن البيئة العربية، إلا أن النبي الفصيح البليغ ألبسه ثوباً قشياً حتى بدا غاية في الروعة وغاية في التأثير، هذا إلى ما بين المثل به، والممثل له من التطابق البديع، والتوافق العجيب!!

* * *

ومن رحمته بأمته تخفيفه وتسهيله عليهم وكرهته المواظبة على بعض السنن كالترأّيح مخافة أن تفرض عليهم، وكرهته كثرة سؤالهم حتى لا يكون سبباً في تحريم ما سكت الله عنه رحمة بهم، وقد شملت رحمته المؤمن والكافر، والصديق والعدو، والإنسان والحيوان والطير، ولما قالوا له: إنّ لنا في البهائم لأجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر» ونهى، بل (لعن من اتخذ الحيوان غرضاً)^(٢)، وكان من رحمته أنه يميل الإناء للهرة لتشرب منه، ومرض ديك له فقام على تمريضه،

(١) الشفاء، ج ١ ص ٩٦، تفسير ابن كثير والبيهقي ج ٤ ص ٢٧٦ ط المنار.

(٢) رواهما الشيخان.

وقال: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(١)، وكذلك شملت رحمته الإنس والجن وصدق الله حيث يقول: ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾.

* * *

ومن كل ذلك - وغيره أكثر منه - يتبين لنا شفقتة ﷺ على الأمة، وحرصه البالغ على حياتهم، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، وإلى تحصيل السعادتين الدينية والدنيوية، وإنا لنلمس هذا المعنى الجليل في قوله ﷺ: «إن مثلي ومثل أمتي، كمثلي رجل استوقد ناراً، فجعل الفراش والدواب يقعن فيها، وجعل يحجزهن، ويغلبهن، ويتقحمون فيها، فهذا مثلي ومثلكم، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقحمون فيها»^(٢) وإنها لروعة في التمثيل مع البساطة لا ينقضي منها العجب !!

* * *

(١) رواه الشيخان. وخشاش الأرض بفتح الخاء: دوابها وهوامها.

(٢) رواه الشيخان.

النبي البطل الشجاع

وأما الشجاعة والنجدة، والقوة والثبات في وجه الموت، فقد كان ﷺ منها بالمكان الذي لا يجهل، والمنزلة التي لا تدفع، وقد بلغ من قوته أنه صار ركائز ابن يزيد فصرعه، وما صرعه أحد قط، فكان هذا سبب إسلامه. وقد حضر المواقف المشهورة، وفرّ الكمأة والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، وما من شجاع إلا وقد أحصيت له فرة، وحفظت عنه جولة^(١) سواه.

ولعلك على ذكر مما ذكرناه عن ثباته في أحد، وحنين، ووقوفه في فم الموت في بدر وغيرها. عن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وكان أشجع الناس، ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت، فاستقبلهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت على فرس لأبي طلحة في عنقه السيف وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا»^(٢)).

وقال علي رضي الله عنه: (إنا كنا إذا حمي البأس، واحمرت الخدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس بأساً)^(٣) وأعظم بها من شهادة من مثل علي!!.

* * *

(١) في القاموس: وجال القوم جولة: انكشفوا ثم كروا، فالمعنى تفهقوا وانكشاف.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه أحمد.

وقد جمع رسول الله ﷺ إلى شجاعته وبطولته الجسمانية الشجاعة النفسية والبطولة الروحية، وإنا لنلمس هذا في قوله لعمه أبي طالب وقد قال له: (يا ابن أخي أبق علي وعلى نفسك) فظن أن عمه خاذله، فقال قوله المشهورة: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته» وأخذت هذه العظمة النفسية بنفس أبي طالب وبهرته، فما كان منه إلا أن قال له: (اذهب فقل ما أحببت، فوالله لن أسلمك لشيء أبداً!!) وفيما قدمناه في كتابنا من شجاعة النبي وبطولته الشيء الكثير.

* * *

ومنع هذه الشجاعة الفائقة قد كان رؤوفاً رفيقاً بالناس رحيماً بهم، رقيق القلب، تجري دموعه رقة ورحمة، فقد كان إذا رأى سيدنا مصعب بن عمير، وهو يلبس خَلَقَ الثياب، مع أنه ترعرع في أحضان النعيم، ولكن أثر الشقاء مع الإيمان، على النعيم في الكفر - بكى!!.

ولما أذن الله في زيارة قبر أمه، «بالأبواء» بكى وأبكى من حوله، ولما مات ولده إبراهيم بكى وقال: «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»، ولما قال له عبدالرحمن بن عوف، وقد رآه يبكي: (وأنت يا رسول الله؟! قال: «يا ابن عوف، إنها رحمة»!! ولما ذهب النبي وأصحابه إلى سعد بن عباد يعوده في مرضه، وقد غشي عليه، فبكى، وبكى معه أصحابه، وقال: «إن الله لا يؤاخذ بدمع العين، ولا بحزن القلب، وإنما يؤاخذ بهذا» وأشار إلى لسانه، وقال في موقف آخر: «إنها - الدمعة - رحمة، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(١).

* * *

(١) صحيح البخاري - كتاب الجنائز - باب البكاء عند المريض، وباب يعذب الميت ببكاء أهله عليه.

النبي الوفي بالعهد

وكان ﷺ أوفى الناس بالوعد، وأرعاهم للعهد، وأوصلهم للرحم قبل النبوة وبعدها، وقد عاهد اليهود والمشركون فما نقض العهد، ولا عرف منه الغدر، ولما توفيت السيدة الجليلة خديجة كان دائم الذكر لها، والثناء عليها حتى كانت عائشة تغار من ذلك، وكان يحب حبيباتها ويرهن، فكان يذبح الشاة، ويقطعها، ويقول: «أرسلوا إلى صديقات خديجة»^(١).

وكانت تستأذن عليه هالة بنت خويلد أخت خديجة فيهش لها، وترتاح نفسه، لأن صوتها يذكره بصوت الحبيبة الغائبة خديجة، وجاءته ذات يوم امرأة عجوز من صويحبات خديجة، فصار يسألها عن أحوالها، وما صارت إليه، ولما خرجت قالت له عائشة: تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال: «إنها كانت تأتينا زمان خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان»^(٢).

وكان يوصي بالوفاء ورعاية العهد حتى للحيوان، وقد قدمنا لك قصة المرأة التي ركبت ناقة فنذرت إن نجاها الله عليها لتذبحنها، فلما أخبرته قال: «بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها، ثم تنحرينها!!» فهل رأيت مثيلاً لهذا في تاريخ البشرية!؟

* * *

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان.

وكما وفى للأحباء والأصدقاء، وفى للأعداء، فقد عاهد اليهود وفى لهم، ولكنهم هم الذين نقضوا العهد، ولا سيما لما تحزَّب الأحزاب، وعاهد المشركين في الحديبية وفى لهم، ولقد جاءه أبو جندل وأبوبصير مسلمين، فردَّهما تنفيذاً لشروط العهد على كره منهما ومن المسلمين، حتى جعل الله لهما فرجاً ومخرجاً.

ولما دخل مكة عام عمرة القضاء، وقضى بها ثلاثة أيام ليس معهم إلا السيوف في الأغماد، جاء المشركون إليه كي يخرج، فأبى بعض المسلمين عليهم، ورغب إليهم الرسول أن يدَّعوه حتى يعرس بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية، فيأكل المسلمون ويأكلون معهم، فأبوا، فأمر رسول الله أصحابه بالانصراف وفاء بالعهد، ودخل بها «بَسْرَف»^(١).

بل بلغ به وفاؤه أن أمر بدفن عمرو بن الجموح وعبدالله بن حرام، والد جابر، شهيدي أحد في قبر واحد، لأنها كانا متصادقين في حياتهما الدنيا. وقد كان هذا الوفاء الذي وثَّقه الإسلام وزاده امتداداً لوفائه في الجاهلية، لقد عاهد رجلاً أن يلقاه في مكان كذا، فمكث ثلاثة أيام يذهب إلى هذا المكان ثم قال: «لقد شققت علي يا رجل، أنا أنتظرُك هنا منذ ثلاث».

وكان ﷺ أوصل الناس لرحمه وذوي قرابته، ولكن ما كان يؤثرهم على من هم أولى منهم، وكان يقول: «إِنَّ آلَ أَبِي فَلانٍ لَيْسُوا بِأُولِيائِي، إِنَّمَا وَلِيِّي اللهُ، وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، غَيْرَ أَنَّ لَهُمْ رَجِماً سَابِلُهَا بِلَالُهَا»^(٢).

* * *

(١) سرف: مكان قريب من مكة.

(٢) أي سأصلها بحقها علي، وقد شبه النبي القطيعة بالحجارة التي تحجف ما بين الناس من صلات، والصلة بالماء التي يبردها، ويطفئها، ويرطب ما جف من علاقات. وهو من المجازات النبوية البديعة التي لم يسبق إليها فيها أعلم. والحديث رواه الشيخان.

النبي العفو الحليم

وأما الحلم والاحتمال، والصبر على ما يكره، والعفو والصفح والإغضاء، فكل ذلك مما أدب الله نبيه ﷺ به، قال له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وقد فسرهما جبريل عن رب العالمين فقال: «إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». وقال سبحانه:

﴿وَحِزْؤُهُمْ أَسْنِفَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (١)

وقال عز شأنه:

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٢)

فلا عجب أن كان كالبحر العذب الذي لا يعكره ما يلقي فيه من أحجار، ولا تنزفه الدلاء، وما من حليم صبور إلا وقد عرفت عنه زلة، وحفظت عنه هفوة ما عدها ﷺ، لا يزيده كثرة الأذى إلا صبراً، ولا إسراف الجاهل إلا حليماً، «وما انتقم لنفسه قط، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله عز وجل، فينتقم لله» (٣).

وقد قدمنا في فصل رحمته طرفاً من عفوه، كما قدمنا في السيرة عفوه عن غُورث بن الحارث حتى كان سبياً في إسلامه، وعفوه عن أهل مكة الذي صار

(١) سورة الشورى: آية ٤٠.

(٢) سورة الشورى: آية ٤٣.

(٣) رواه مسلم.

مثلاً فريداً في الأولين والآخرين، وإبائه على من عرض عليه قتل ابن أبي رأس النفاق أن يقتله قائلاً: «كيف يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»، بل وإبائه على ابنه عبدالله أن يقتل أباه قائلاً له: «بل نحسن صحبته ما دام بيننا».

* * *

ومن القصص الرائعة في هذا ما روي أن زيد بن سَعْنَة جاءه قبل إسلامه يتقاضاه ديناً عليه لم يمن أجل أدائه، فجبذ ثوبه عن منكبه، وأغلظ له في القول ثم قال: إنكم يا بني عبدالمطلب مُطَّل^(١) فأنهره سيدنا عمر وشدّد له القول، وسيدنا رسول الله ﷺ يتسم، ثم قال: «أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر، تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي»، ثم قال: «لقد بقي من أجله ثلاث»، ثم أمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعاً لما رَوَّعه.

وقد أثر هذا الموقف الفريد، وهذا الحلم الفائق في نفس زيد فكان سبب إسلامه، وكان يقول: ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتُها في محمد إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله^(٢)، ولا تزیده شدة الجهل إلا حلماً، فاخبرته بهذا فوجدته كما وُصف!!.

وهذا شيء فوق العدل، لأن العدل أن يقتص منه، وأن يفعل بزيد مثل ما فعل بالرسول الكريم، والعدل - أيضاً - أن يقضيه حقه فحسب، لا أن يزيده عشرين صاعاً، وليس ترويع الفاروق عمر رضي الله عنه زيدا بأعظم من ترويع زيد النبي صلوات الله وسلامه عليه، على الفرق الشاسع ما بين مقام النبي ومقام زيد، ولكنه النبي الحليم الذي يسبق حلمه غضبه، ولا تزیده شدة الجهل عليه إلا حلماً!!.

* * *

(١) مطل: بضم الميم وسكون الطاء: جمع أمطل، والمطل بفتح الميم: التسويف في الدين والعدة.

(٢) يعني غضبه، وحاشاه ﷺ أن يجهل، فمقابلته السيئة بالسيئة ليس جهلاً.

وجاءه أعرابي ذات يوم فجذبه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية^(١) الثوب في صفحة عاتقه. ثم قال: يا محمد، احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك، ولا من مال أبيك!! فسكت النبي ﷺ ثم قال: «المال مال الله وأنا عبده»!! ثم قال: «ويُقَاد منك يا أعرابي ما فعلت بي» قال: لا، قال: «لم؟» قال: لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة، فضحك النبي ﷺ، وسر من جوابه، وأمر أن يُحمل له على بعير شعير، وعلى الآخر تمر.

* * *

(١) طرفه وجانبه من عند عاتقه.

النبي الكريم الجواد

وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة فكان ﷺ لا يوازي في هذه الصفات ولا يبارى، عن ابن عباس قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس. وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة)^(١). وما سئل شيئاً قط فقال: لا.

وكان جوده عن كرم في الطبع، وسماحة في النفس، وثقة في سعة خزائن الله، روى الإمام مسلم عن أنس (أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم غنياً بين جبلين فأعطاه إياها، فأتى قومه فقال: أي قوم أسلموا، فوالله إن محمداً ليعطي عطاء من لا يخشى فاقة الفقر).

وكان رسول الله يعلم أن بعض الناس عبيد إحسان، فكان يعطيهم يتألفهم بذلك، ثم لم يلبثوا أن يصيروا من خيار المسلمين. روي عن أنس قال: (إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها)، ويوم حنين تألف بعض حديثي العهد بالإسلام حتى أضحووا من المخلصين. وقد روي أنه (أعطى صفوان بن أمية وهو مشرك، وما زال يعطيه حتى صار رسول الله أحب الناس إليه)^(٢).

ويوم حنين أعطى النبي ﷺ الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن الفزاري، وأبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية كل واحد مائة من الإبل، ومالك بن عوف مائة، وأعطى آخرين، وأعطى العباس بن مرداس دون المائة

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواهما مسلم.

فأنشأ يقول في ذلك شعراً ذكرناه فيما سبق، فقال النبي ﷺ: «اقطعوا عني لسانه» فأكملوا له المائة.

وما كان هذا - علم الله - إسرافاً، ولكنها سياسة شرعية قصد بها النبي تأليف هؤلاء الذين لم يلبثوا أن صاروا من أخلص الخلق للإسلام، وكان لهم في نشره جهاد مشكور، وقد أراد النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يبين لهم أن المال أهون شيء عليه، فهو ليس بطالب مال، وإنما طالب إيمان، ومقيم دين، وصانع رجال، وأنه لا أرب له في اكتناز الأموال، ولو كان عنده مال بعدد رمال الصحراء لما بخل به عليهم، لأنه ليس من خلقه الشح، عسى أن يعتبروا، ويستعفوا عن مال المسلمين.

ومن قبل أعطى حكيم بن حزام فاستزاد فأعطاه، فاستزاد ثم قال له: «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع..» وقد أثر الدرس في نفس حكيم، فآلى أن لا يأخذ من أحد شيئاً بعد الرسول حتى توفاه الله، وكان أبوبكر وعمر رضي الله عنهما يعرضان عليه عطاءه، فيأبى أخذه.

وجاءه عليه الصلاة والسلام رجل فسأله فقال: «ما عندي شيء، ولكن ابتع علي^(١) فإذا جاءنا شيء قضيناه» فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبي ذلك، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تحف من ذي العرش إقلالاً، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «بهذا أمرت»^(٢).

وكذلك كان شأنه ﷺ قبل النبوة، مما يدل على أن خلق الكرم والسخاء متأصل فيه، ففي حديث عائشة في بدء الوحي أن خديجة رضي الله عنها قالت له: (ما كان الله ليفعل بك، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر)^(٣) والأخبار عن جوده أكثر من أن تحصى.

(١) ابتع علي أي اشتر واجعل الثمن ديناً علي.

(٢) رواه الترمذي في الشمائل. (٣) رواه الشيخان.

النبي الزاهد

حقيقة الزهد في الدنيا إنما هو في الترفع عن زخارفها، وعصمة النفس من التوسع فيها مع القدرة على ذلك، لا عن تعنت وتحريم لما أحل الله من الطيبات، ولكن عن تنزه أن يكون الإنسان عبد أهوائه وأسیر شهواته وملذاته، وهذا هو زهد الأنبياء والمرسلين، والصدّيقين والصالحين. أما عدم التمتع والتوسع فيها عن عجز وفاقه فلا يسمى زهداً.

وقد كان زهد رسول الله في الدنيا زهد القادر المستطيع، فقد أوتي مفاتيح خزائن الأرض، وأُحلَّت له الغنائم ولم تحل لأحد من الأنبياء قبله، وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب، وما داني ذلك من الشام والعراق، وجُلِب إليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها ما لا يحصى، وهاداه جماعة من الملوك، والأمراء، فما استأثر بشيء منه، ولا خرج عن طبيعته من التقشف والتقلل في المأكل والمشرب، والملبس، والمسكن، إلى غير ذلك مما لا يعتبر التوسع فيه فضيلة.

روي عن عائشة: (أنه ربما يمر بهم الهلال والهلالات ولا يوقد لهم نار في بيت، وليس لهم طعام إلا الأسودان: الماء، والتمر^(١)). (وخرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات)^(٢).

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه البخاري.

ومع هذا فقد كان يأكل اللحم، ويُؤثى له بالشاة المصلية - المشوية - فيجتز منها بالسكين، ويحب الحلواء والعسل، ويذهب إلى بئر عذبة لأبي طلحة فيشرب منها، بل كان يستعذب له الماء من بيوت السُّقيا على أميال من المدينة، وكان يلبس الغليظ والخشن من الثياب، ومع هذا يلبس البرود اليمنية، والجلب الشامية، وكانت له حلة حسنة يستقبل بها الوفود ويحضر بها الأعياد والجمع.

* * *

وكل ذلك من غير سرف ولا تخيلة، فقد كان الغالب من أحواله التقلل والقصد، وهذه هي الفضيلة حقاً، والنفوس الكبيرة هي التي تفرض سلطانها وإراداتها على الحياة، وتأبى أن يكون لشيء في الدنيا سلطان عليها، والتي تجد غناها من أنفسها لا من شيء خارج عنها، وفي القمة من هؤلاء أولو العزم من الرسل ولا سيما خاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ومع كثرة ما جلب إليه من الفتوح والنصر لم يتحول عن خلقه، ولم يحتجز لنفسه ولا لأهله إلا ما يقوم بالضرورة، ولم يتأثّل مალأً، بل صرفه في مصارفه، وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين، وكان يقول: «ما يسرنى أن لي أحداً ذهباً يبيت عندي منه دينار، إلا ديناراً أرصده لديني»^(١)، وأنته دنائير مرة فقسمها، وبقيت منها ستة فدفعها لبعض نسائه فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها، وقال: «الآن استرحت»، فلا تعجب إذا كان «مات ودرعه مرهونة عند يهودي نظير ثلاثين صاعاً من شعير»^(٢).

وهكذا زهد في التوسع في المآكل والمشارب، ليشبع الناس، ولبس الخشن والغليظ ليكتسي الناس، وسكن في حُجر من الطين واللبن ليجد الناس المسكن الذي يؤويهم، وبقية الحر والبرد، ولو أراد أن يكون له إيوان كإيوان كسرى، أو قصور كقصور الروم بالشام، أو التبابعة باليمن لفعل ولكن كيف؟! وهو المثل

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

الأعلى لكل من يأتي بعده من الخلفاء والملوك والأمراء، والقُدوة الحسنة لكل من يقصد العدل والفضيلة في الحكم، والرخاء للأمم والشعوب.

* * *

وإذا كان رسول الله ﷺ - وهو القدوة - مات على ما سمعت، وها هم ملوك المسلمين ورؤساؤهم وحكامهم يعيشون عيشة البذخ والإسراف، فما بالك لو أن رسول الله توسّع ولو بعض التوسع، وترك ولو بعض المال؟! لو كان لكان الحال أدهى وأعظم، والأمر أطم وأمر.

* * *

النبي الحيّ

كان رسول الله ﷺ أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء، وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها^(١))، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه)، وقالت عائشة رضي الله عنها: (لم يكن رسول الله فاحشاً ولا متفحشاً، ولا سخاباً بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح).

وكان لا يواجه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس، عن أنس قال: (دخل عليه رجل به أثر صفرة، قال: وكان رسول الله لا يكاد يواجه أحداً بشيء يكرهه، فلما قام قال للقوم: «لو قلتم له يدع هذه الصفرة»).^(٢) وكان إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان قال كذا أو فعل كذا ولكن يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا أو يفعلون كذا» وهذا لعمر الحق أسلوب جليل في التربية واستماع النصيحة، وكان يقول: «الحياء من الإيمان» و«الحياء لا يأتي إلا بخير»^(٣).

ومع هذا فقد كان يغضب ويواجه بالحق إذا انتهكت حرمت الشرع، وينتصر لدين الله، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه

(١) العذراء: البنت البكر. الخدر: ما تستتر فيه المرأة من بيت ونحوه.

(٢) رواه الترمذي في الشمائل.

(٣) رواهما الشيخان.

شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم الله تعالى^(١) وعنها قالت: (ما خَيْرُ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى) وهذا يدل على أن حيائه عن المواجهة فيما عدا ذلك مما تركه أفضل وأورع، أوفياً كان من حق نفسه تسامحاً وتغاضياً، وأما حق الله وحق العباد فلا.

* * *

(١) رواه مسلم.

النبي المتواضع

وكان رسول الله ﷺ أشد الناس تواضعاً وأبعدهم عن الكِبَر والخِلاء، وحسبك في هذا أنه خُير بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً فاختر الثاني، وخرج على أصحابه ذات يوم فقاموا له، فقال لهم: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً»، وقال: «إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبيد، وأجلس كما يجلس العبيد»^(١)، ويقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٢).

وكان يأكل مع العبد والخادم ويحمل حاجته من السوق، ولما أراد أبو هريرة أن يحمل عنه شيئاً اشتراه قال له: «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله» وكانت تقابله المرأة في سكك المدينة فتستوقفه فيقف حتى يقضي لها حاجتها. وعن أنس قال: (إن كانت الأمة - الجارية - من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنتلق به حتى يقضي حاجتها)^(٣).

وكان يركب البعير، والحمار، ويردف وراءه غيره، ولا يقبل أن يسير أحد وراءه وهو راكب، وحجَّ على رَحْلٍ رَثٍّ، وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم، وقال: «اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة»^(٤). ودخل عليه رجل فأصابته

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه الترمذي في الشمائل.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه الترمذي في الشمائل.

من هيئته رعدة فقال له: «هَوْنٌ عليك، فإنني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد» أي اللحم المشقَّق المجفف.

* * *

وقد فتحت عليه الدنيا ودانت له الجزيرة كلها فما أخرجها ذلك عن تواضعه وخلقه، ولما دخل مكة فاتحاً منتصراً طأطأ رأسه حتى لتكاد تمس مقدمة الرُّحْل تواضعاً لله تعالى، إلى غير ذلك من الأخبار الصحاح والحسان، التي زخرت بها كتب الحديث، والسير، والشمال المحمدية.

* * *

وشيء آخر لا تكاد نجد له مثيلاً في تاريخ الدنيا، وهو أدبه ﷺ مع إخوانه الأنبياء والمرسلين، فقد بلغ به التواضع، وهضم النفس، والإقرار بالفضل لذويه أن يظهر بعضهم بمنزلة فوق منزلته، مع أنه أفضلهم جميعاً بشهادة القرآن والحديث، والتاريخ الصادق، والواقع الذي لا ينكر، ففي الكتاب الكريم يقول الله تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^(١).

فقد كاد يجمع المفسرون على أن المراد بقوله: «ورفع بعضهم درجات» هونيينا محمد ﷺ قال الزمخشري في تفسيره:

(أي ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة، والظاهر أنه أراد محمداً ﷺ، لأنه هو المفضل عليهم، حيث أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى الألف آية، أو أكثر، ولولم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر، دون سائر المعجزات، وفي هذا

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

الإبهام من تفخيم فضله، وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العَلم الذي لا يشبهه، والتميز الذي لا يلتبس^(١).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة...» ورواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه بزيادة: «ولا فخر» وإذا كان سيداً في الآخرة فهو سيد في الدنيا من باب أولى.

* * *

ومن ذلك قوله ﷺ تعليقاً على قول سيدنا يوسف عليه السلام لرسول الملك:

﴿قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾^(٢).

قال: «لولبت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»^(٣)، وقوله لما أودى من بعض المنافقين، وضعفاء الإيمان: «رحم الله أخي موسى، لقد أودى بأكثر من هذا فصير»^(٤)، وفيه ما فيه من الإشادة بصبر سيدنا موسى وتحمله للأذى من سفهاء قومه، ما لم يتحمله غيره.

* * *

وكذلك كان ﷺ يحاول ما استطاع تبرئة ساحة بعض الأنبياء مما يحتمل أن ينسب إليهم مما لا يليق بحالهم، كقوله في الدفاع عن جدّه «إبراهيم» عليه الصلاة والسلام: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»، يعني في قوله:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ ثُبُورٌ وَلَٰكِن لِّتَطْمِئِنَّ قَلْبُكَ﴾^(٥).

(١) انظر تفسير الكشاف وغيره عند هذه الآية.

(٢) سورة يوسف: الآية ٥٠.

(٣) رواه الشيخان.

(٤) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

يريد نفي ما عسى أن يدل عليه السؤال من احتمال الشك، يعني أنه لم يكن شاكاً قط، لأنني وأنتم لسنا شاكين في قدرة الله على البعث، ولوجورنا على الخليل لجاز عليّ وعليكم، ونفي الشك عني وعنكم أمر مسلم، ففيه نفي للشك عن إبراهيم بطريق برهاني. وكقوله في حق أخيه «لوط» عليه السلام لما قال: ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(١) يريد عشيرة قوية تحميه: «رحم الله أخي لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»^(٢) يريد الله تبارك وتعالى.

فأين من هذه المثل الفذة الفريدة ما يفعله الملوك، والرؤساء، والأمراء، ودهاقنة السياسة، والزعماء وأمثالهم - قديماً وحديثاً - من محاولة كل واحد منهم تنقيص مَنْ قبله، والنيل منه، والارتفاع على أنقاضه، وإظهار نفسه بمظهر البطولة التي تعز عن النظر، وأنه المتفرد في كل شيء!! ثم أليس هذا من أقوى الأدلة، وأظهر البراهين على أنه النبي حقاً، وأنه العَلَمُ الفرد في سمو أخلاقه، وكبر قلبه، وعظم نفسه، وأنه ﷺ لا يبارى، ولا يسامى!!؟.

* * *

(١) سورة هود: الآية ٨٠.

(٢) صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة يوسف، وكتاب أحاديث الأنبياء؛ وصحيح مسلم كتاب الفضائل - باب فضائل الخليل إبراهيم عليه السلام.

النبي العادل

وكان رسول الله ﷺ أعدل الناس، وأبعدهم عن الظلم، ما ظلم أحداً في دم، أو عرض، أو مال، ولا جار في حكم. وكان من أخلاقه العدل في الرضا والغضب، وكان مثلاً للعدل مع نفسه وأهله، وولده، وصحابته، ولقد بلغ من عدله أنه كان ينصف الناس من نفسه.

وقد قدمنا لك في بدر ما كان من قصته مع سَوَاد بن غزية، ورضائه أن يقتص منه طعنة طعنه إياها، وهو يعدل الصفوف. وما ذكره في آخر خطبة خطبها في مرض موته: «من جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه...». ولما قال له أحد المنافقين بعد قسمة غنائم حنين: (هذه قسمة ما أريد بها وجه الله) قال له: «ويحك فمن يعدل إن لم أعدل؟! خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل» وقد سمعت أنفاً قوله: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» وامتناعه أن يعطيها خادماً مع شدة حاجتها، وإيثار مصلحة أهل الصُّفَّة على مصلحتها، وعدله البالغ مع زوجاته في القَسَم بينهن مع أن الله سبحانه وتعالى فوض إليه ذلك وخيره فيه بقوله:

﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ ابْنَعْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءِ عَنَّهُنَّ وَلَا يُخَازِنَ وَبَرَضْتَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۖ ﴾ (١)

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥١.

ولم يقف الأمر في العدل عندما هو من حق المرأة في النفقة، والكسوة والبيتوتة، بل شمل ذلك العدل في المباسطة والمؤانسة والتعهد، وكان يفعل ذلك بعد صلاة العصر غالباً، وقد يكون بعد صلاة الصبح كما في الصحيح، أما العدل والمساواة في الحب والميل القلبي فهذا لم يكلف به النبي، ولم تكلف به الأمة، لأنه أمر لا يدخل تحت الاختيار، ولا تحت الوسع، قال تعالى: ﴿لَا يَكُلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وهذا هو المراد من قوله سبحانه: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمِئْلَقَةِ﴾ وكان النبي يقول: «اللهم هذا قسَمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك».

* * *

النبي الصادق الأمين العفيف

وكذلك كان ﷺ مثلاً كاملاً للأمانة وأداء الحقوق لأربابها، والصدق في الحديث، لم تخص عنه خيانة ولا كذبة قط، ولقد اشتهر بأمانته منذ صغره حتى لقب بالأمين، ولما بلغ هرقل ملك الروم كتاب النبي داعياً له إلى الإسلام طلب ناساً من قومه يسألهم عنه، فجيء له برهط فيهم أبوسفيان بن حرب فكان مما قال له: (هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟) قال: لا، قال هرقل: (ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله!!) ولما هاجر إلى المدينة ترك علياً بمكة ليرد الودائع التي كانت عنده إلى أصحابها.

* * *

وأما عفته فكان أظهر الناس ذيلاً، وأعفهم عن الحرم، ما مسّت يده قط يد امرأة لا يملك عصمتها، ولا امتدت عينه إلى محاسن امرأة قط، وقد عاش في مجتمع كانت تتوفر فيه مسارح الهوى واللهو، فما عرفت عنه صبوة، ولا أحصيت عليه هفوة، على ما كان يتمتع به من قوة وشباب، وفتوة وجمال، ومن شرف الأسرة.

* * *

آدابه الاجتماعية

وأما آدابه الاجتماعية فقد أوفى فيها على الغاية، وكان آدب الناس وأحسنهم عشرة، وألينهم عريكة، وأرعاهم لشعور الناس وكراماتهم، فقد كان دائم البشر، لا يطوي عن أحد من أصحابه بشره ولا تبسمه، ويعطي كل جلس من جلسائه نصيبه من الترحاب والرعاية، حتى لا يظن أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه.

* * *

وكان أحسن الناس إجابة، مادعاه أحد من أصحابه إلا قال: لبيك، وإذا حدثه أحد مال إليه بأذنه، ولا ينحني رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحني رأسه، وكان يبدأ من لقيه ولو صبياً بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، وما صافح أحداً فيرسل يده حتى يرسلها الرجل الآخر، ويكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها ويكني أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكريماً لهم، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يفرغ منه وكان لا يجلس إليه أحد يصلي إلا خفف صلاته، وسأل عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته.

* * *

وكان يخدم ضيفه، ويكرم الوافد عليه، ولما قدم وفد النجاشي قام بخدمهم، فقال له أصحابه: إنا نكفيك هذا، فأبى وقال: «إنهم كانوا لإخواننا مكرمين»، وكان يقبل الهدية، ويكافيء عليها، وما صنع معه أو مع أهله

أحد معروفاً إلا كافأه عليه، ومن قوله في هذا: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه عليه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له»^(١).

* * *

وكان من أدبه في الطعام أن يغسل يديه، ويسمي الله في أوله، ويحمده في آخره ويأكل بيمينه، ويأكل من جانب القصعة، وينهى عن الأكل من وسطها أو تتبع أطيب ما فيها، وعن النفخ في الطعام، وما عاب طعاماً قط: إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه.

وكان من أدبه في الشراب أن يشرب على دفعات، ويبين فمه من الإناء عند التنفس، وكان ينهى عن التنفس في الإناء، والنفخ في الشراب، ويسمي في أول الشرب، ويحمد الله في آخره، ويشرب بعدما يشرب ضيوفه، وكان يقول: «ساقى القوم آخرهم شرباً».

وكان من أدبه في الطعام والشراب تقديم أهل اليمين على أهل اليسار، وذلك لأنه كان يحب التيامن في كل شيء، وتقديم الكبار على الصغار، لأنه الأمر الفطري الطبيعي، وكان يقول: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغارنا»، وكل ذلك ثابت بالأحاديث الصحاح والحسان، فهل رأيت في باب الآداب الاجتماعية أفضل وأجل من هذا؟!

* * *

(١) رواه أبو داود والنسائي.

عظمة الشخصية المحمدية وأثرها في الدعوة

إن الناظر في التاريخ، وسير الرسل، والأنبياء، والملوك، والأمراء، وأصحاب المذاهب والدعوات الإصلاحية يجد أنهم يتمتعون بشخصيات قوية تفرض آراءهم على من حولهم، وتجعل كلامهم مسموعاً، وأمرهم مطاعاً.

وقد يكون من أسباب هذه الشخصية القوية التجبر، والتكبر، والبطش بمن يخالفهم، أو يحاول أن يخالفهم في الآراء، أو يسامهم في المركز والسلطان، وقد يكون من أسبابها ما يكون عليه الإنسان من بسطة في الجسم، وما يمتاز به من قوة وشجاعة وبطولة، ولا سيما في مواطن الحروب وعند لقاء الأبطال.

وقد يكون مبعثها ما أسبغ الله على صاحبها من هبة ووقار، وما يمتاز به من عظمة الخلق، وما يتحلل به من الفضائل التي تفرض احترامه على الناس، وما يتمتعون به من عدل ورحمة، وبر وإحسان. وقد يكون مبعثها أنه من بيت عريق، يتوارثون المجد صاغراً عن كابر إلى غير ذلك من الأسباب والبواعث.

ورسل الله - ولا سيما أولو العزم منهم - قد أصفى الله عليهم من الهبة والوقار والكمال الخلقي، واختارهم من أوساط الناس وأشرفهم، ما جعل لهم شخصيات عظيمة مهيبة.

وفي الذروة من كمال الشخصية وعظمتها نبينا محمد ﷺ، فقد حاز ﷺ من الشرف، وكرم النسب وزكاء الأصل، والكمال الجسماني، والكمال الخلقي، ما لم يحزه أحد قط.

لقد كانت له شخصية فذة فريدة على ما كان عليه من رقة القلب، ولين الجانب، وسماحة النفس، والحياء الفائق حتى كان أشد حياء من العذراء في خدرها، وعلى ما كان عليه من بغض العجب، والتكبر، والتجبر على الناس، والتنكيل بهم، وهذا مما لا يقضي منه العجب!! ولا يسعنا إلا أن نقول: إنه فضل من الله يؤتيه من يشاء.

* * *

لقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - لا يحذون النظر إليه، ويغضون أبصارهم حياء منه، ورضي الله عن أبي الحسن علي رضي الله عنه حيث قال: (من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم).

وقد كان لهذه العظمة الشخصية، وهذه الهالة التي تحيط به، والمهابة التي تملؤه آثارها في ردّ بعض المشركين خاسئاً وهو حسير حينما يريد به شراً، بل كان في بعض الأحيان يأمر أعدى أعدائه بالشيء فلا يكون منه إلا الإذعان والخضوع، وكانوا كثيراً ما يتواعدون على النيل منه فيواجههم، فإذا بهم يخورون، وتنهار قواهم، وتضعف معنوياتهم، وكان يأتيه الرجل ويده السيف، أو تحت ثيابه الخنجر يبغى به شراً فإذا به يضطرب، ويسقط سلاحه من يده، ثم يكون التسليم والإسلام وسأذكر مثلاً من ذلك:

١ - روى ابن إسحاق في سيرته قال: قدم رجل من إراش^(١) بإبل له إلى مكة، فابتاعها - أي اشتراها - منه أبو جهل، فمطله بأثمانها، فأقبل الإراشي حتى وقف على نادي قريش، ورسول الله جالس في ناحية من المسجد، فقال يا معشر قريش من رجل يعديني^(٢) على أبي الحكم بن هشام؟ فلما غريب، وابن سبيل، وقد غلبني على حقي.

(١) إراش: بكسر الهمزة، والشين المعجمة: موضع كما قال ياقوت.

(٢) يعديني: ينصرتني ويأخذ لي حقي منه.

فقال أهل المجلس: ترى هذا؟ وأشاروا إلى رسول الله ﷺ لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة، اذهب إليه فهو يعديك عليه، يريدون الاستهزاء والسخرية منه ﷺ، فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فقام معه، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه فانظر ما يصنع؟!!

فخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال: «محمد، فاخرج» فخرج إليه وما في وجهه قطرة دم، وقد انتقع لونه! فقال: «أعط هذا الرجل حقه». قال: لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فخرج إليه بحقه، فدفعه له!! ثم انصرف رسول الله ﷺ، وقال للإراشي: «الحق لشأنك» فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيراً، فقد أخذت الذي لي!!

ولما جاء الرجل الذي أرسلوه ليرى ما يصنع أبو جهل، قالوا له: ويحك ماذا رأيت؟!! قال: عجباً من العجب!! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه، فخرج وما معه روحه!! فقال له: «أعط هذا الرجل حقه» فأعطاه!!

ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل فلاموه، وقالوا - ساخرين منه -: فوالله ما رأينا مثل الذي فعلت؟!! فقال أبو جهل: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب على بابي، وسمعت صوتاً فملت رعباً!! وإن فوق رأسه فحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته^(١) ولا أنيابه لفحل قط!! فوالله لو أبيت لأكلني!!

* * *

٢ - وإليك مثلاً آخر: اجتمع أشراف قريش في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل صبرنا على هذا الرجل قط: سَفَهُ أَحلامنا، وشم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، وصرنا منه على أمر عظيم!!

(١) قصرته: عنته. أي مثله في ضخامة الجسم وطول العنق.

فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفاً بالبيت فغمزوه ببعض القول، فعرف ذلك في وجهه فمضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها!! ثم مر بهم الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فأقبل عليهم قائلاً: «أستمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح» فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم من رجل إلا وكأنا على رأسه طائر وقع^(١) حتى إن أشدهم فيه وصاة بإيذائه ليرفؤه^(٢)، ويلاطفه، ويقول له: انصرف أبا القاسم راشداً، فما كنت بجهول^(٣).

وهكذا كان الواحد منهم يأتي إلى رسول الله ﷺ قاصداً الشر، أو أن ينال منه بالسب، أو يغمزوه ويلمزه، فإذا واجهه النبي اضطرب وتلعثم وخارت قواه وتملكه الخوف.

* * *

٣ - لما وقعت غزوة بدر الكبرى كان النصر فيها للفتنة القليلة المؤمنة، على الفتنة الكثيرة الكافرة، فقد قتل فيها الكثير من المشركين، وأسر من أسرى، وكان من الأسرى وهب بن عمير بن وهب الجمحي، وكان أبوه شيطاناً من شياطين قريش وسفهاءهم، كما كان شديد الإيذاء للرسول ﷺ وأصحابه بمكة، جلس يوماً بعد الموقعة مع صفوان بن أمية يتذاكران مصابهم في بدر، وما نزل بهم من الهزيمة الساحقة الماحقة، فقال عمير: والله لولا دَيْن علي ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد فأقتله، فإن ابني أسير عنده، فاغتنمها صفوان بن أمية، فقال له: عليّ دَيْنك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فאתم علي، قال: سأفعل.

ثم أمر عمير بن وهب بسيفه فشحذ له، وسُم، ثم انطلق حتى وصل

(١) يعني أخذهم الخوف فسكنوا واطمأنوا ونكسوا رؤوسهم.

(٢) ليهدئه ويسكنه كالمعتذر له.

(٣) السيرة لابن هشام، ج ١ ص ٢٨٩؛ والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٣ ص ٤٥، ٤٦.

المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، وما أكرمهم الله به - إذ نظر إلى عمير بن وهب، وقد أناخ بعيره على باب المسجد متوشحاً سيفه. فقال: هذا عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا لشر^(١)، وهو الذي حرّش بيننا، وحزّرنّا^(٢) للقوم يوم بدر، ثم دخل على رسول الله ﷺ فأخبره.

فقال له النبي: «أدخله علي» فأقبل إليه عمر فأخذ بحمالة سيفه في عنقه، فلبّيه بها^(٣)، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله، وعمر أخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: «أرسله يا عمر، ادنُ يا عمير»، فدنا فقال له: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: «اصدقني ما الذي جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك، فقال النبي: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القلب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك».

فإذا عمير تنهار قوته، ويضعف أمام نظرات النبي الثاقبة، وتذهله المفاجأة، فما كان منه إلا أن أقر، وأذعن وقال: أشهد أنك رسول الله!! قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق،

(١) هذا من عبقریات عمر، وإلهاماته الصائبة، فما ظنه هو ما ظهر بعد.

(٢) حزّرنّا: أي قدرنا. ذلك أنه لما تصافّ الجيشان للقتال يوم بدر قال له المشركون: احزّر لنا أصحاب محمد، فاستجال بفرسه حول المعسكر، ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، وهذا هو الواقع فقد كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وهذا يدل على حصافة العرب وحسن تقديرهم ودقة نظرهم.

(٣) الحمالة: السير الذي يشبه الغمد، لبيه أي لفّه على عنقه وشده منه.

فقال رسول الله ﷺ: «فَقَهُوا أَحْكَامَ فِي دِينِهِ، وَعَلَّمُوهُ الْقُرْآنَ، وَأَطْلَقُوا لَهُ أَسِيرَهُ» ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله: إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله ورسوله، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة.

خية أمل صفوان

وكان صفوان حين خرج عمير يعني نفسه الأمانى، ويقول: أبشروا بوقعة تأتاكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان يخرج، فيتلقى الركبان يسألهم عن عمير ليتأكد من نجاح المؤامرة، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه!! فسقط في يده، وحلف أن لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً!!.

أما عمير فلما قدم مكة أقام بها يدعو إلى الله، وإلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديداً، فأسلم على يديه ناس كثير، وهكذا نجده خرج كافراً جاهداً على قتل النبي، فإذا هو يعود مؤمناً صادق الإيمان!!.

* * *

٤ - وفي غزوة من الغزوات ذهب النبي ﷺ إلى ظل شجرة ليستريح، ولم يكن معه أحد، فتسلل إليه وهونائم رجل من شجعان المشركين، فانتبه النبي ﷺ، فإذا الرجل واقف على رأسه رافعاً سيفه، فمارعب ولا خاف، وإنما نظر إليه نظرات المؤمن بربه، الواصل من حمايته، فيقول الرجل: من يمنعك مني يا محمد؟ فقال النبي ﷺ: «الله!! فإذا الرجل يضطرب، ويرعب، ويسقط السيف من يده!!.

ويأخذ الرسول ﷺ السيف، ويعلو الرجل به قائلاً: «من يمنعك مني؟» قال: عفوك، فعفا عنه!!.

* * *

ولم يكن رسول الله ﷺ يتخذ من عظمة شخصيته، وما كان يعلوه من المهابة والهالة وسيلة إلى تخويف الناس، أو ترويعهم أو الخط من كرامتهم، وإنما كان على العكس من ذلك يهون على الناس، ويخفف من رعبهم، لقد دخل عليه ذات يوم رجل فأصابته من هيئته رعدة، وخاف واضطرب، وإذا بالتواضع الرؤوف الرحيم يقول له:

«هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»^(١)!!.

نعم - والله - ليس بملك، ولكنه أعظم وأهيب من الملوك، وليس متجبراً ولا طاغياً، وإنما هو الرحمة المهداة للخلق أجمعين.

صلوات الله وسلامه عليك - يا سيدي يا رسول الله - يوم ولدت، ويوم بعثت، ويوم هاجرت، ويوم يقوم الناس لرب العالمين.

* * *

(١) القديد: اللحم المشقَّق المجفَّف.

عالم في فرد

هذه صور موجزة تحدد - إلى جانب ما درسنا من سيرة تحليلية - بعض معالم الشخصية المحمدية، ولا أقول كل المعالم، فإن ذلك مما لا يدركه جنان، ولا يستطيعه بيان، فهو ﷺ كالوجود، وستتهي هذه الحياة ولا يزال ثم أشياء من أسرار هذا الوجود، لا يحوم حولها عقل إنسان، ولا يفصح عنها لسان. وصدق القائل:

وعلى تَقَنِّ واصفيه بحسنه يَقْنَى الزمان وفيه ما لم يوصف

ومن البدهي أن في الخلق صفوة، وصفوة هؤلاء الصفوة أنبياء الله ورسله، وفي الذروة منهم أولو العزم من الرسل، وذروة الذرى هونبينا محمد خلاصة البشر وسلالة ولد آدم، وقد يوجد الكثير من هذه الصفات والآداب أو بعضها عند الصفوة من نبي، أو رسول، أو صديق، ولكن لم نعلم أحداً جمع الله له كل ما ذكرنا من الفضائل والخصائص مثل ما عرفنا ذلك لنبينا محمد، وهو بهذا المعنى نسيجٌ وحده، وفريد في البشرية كلها، ولا غرَوْ فقد كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث هو إلى الناس عامة، فكان من الطبيعي أن يجمع الله له ما تفرق من خُلق المصطفين الأخيار.

وقصارى القول وحما داه أنه ﷺ كان «علماً» في فرد، أو إن شئت فقل: «فرداً» في عالم، بنفسه وأهله وولديه، وأبي وأمي، هو ﷺ.

وبعد

فهذا هو سيدنا محمد رسول الله صاحب أظهر سيرة عرفتها الدنيا، وناشر آخر رسالة اتسمت بالعموم والخلود، ومربي أفضل جيل في تاريخ البشرية، ومنشئ خير أمة أخرجت للناس، ومحقق أول دولة في تاريخ الإسلام.

وكان الفراغ من تأليف هذه السيرة العطرة في ليلة الجمعة المباركة، لخمس خلون من صفر لعام ١٣٨٦هـ، قربى إلى الله ورسوله.

والحمد لله في النهاية كما حمدناه في البداية، وصلى الله تبارك وتعالى وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

انتهى الجزء الثاني، وبه ينتهي الكتاب

والحمد لله أولاً وآخراً

شَبَّتَ بِأَهَمِّ مَرَاجِعِ الْكِتَابِ

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) تفاسير: ابن جرير الطبري، والزغشري، والبغوي، وابن كثير، والقرطبي، والألوسي، وأسباب النزول للسيوطي.
- (٣) الصحيحان: صحيح البخاري، وصحيح مسلم.
- (٤) سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ومسنند أحمد، والموطأ.
- (٥) المستدرك للحاكم، السنن للبيهقي، سنن الدارقطني.
- (٦) السيرة النبوية لابن إسحاق وابن هشام، ط الحلبي.
- (٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ ابن حجر طبعة البهية.
- (٨) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، للإمام القاضي عياض، ط استانبول.
- (٩) الطبقات الكبرى، للإمام ابن سعد، ط بيروت.
- (١٠) الإصابة في تاريخ الصحابة، للإمام ابن حجر، ط الأولى.
- (١١) الاستيعاب في تاريخ الأصحاب، ابن عبد البر على هامش الإصابة.
- (١٢) شرح المواهب اللدنية، للإمام الزرقاني، ط بولاق.
- (١٣) زاد المعاد في هُدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، ط أنصار السنة.
- (١٤) البداية والنهاية، للإمام الحافظ ابن كثير، ط الاستقامة.
- (١٥) الروض الأنف شرح السيرة لابن هشام، للإمام السهيلي، ط الجمالية ١٣٣٢ هـ.
- ١٩١٤ م.
- (١٦) السيرة الحلبية، للشيخ العلامة علي بن برهان الدين الحلبي.
- (١٧) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، للعلامة الشيخ محمد الخضرى.
- (١٨) حياة محمد، للدكتور محمد حسين هيكل، ط الأولى.
- (١٩) حياة محمد، لدرمنغم ترجمة الأستاذ عادل زعير.
- (٢٠) حياة محمد ورسالته، لمولانا محمد علي.

- (٢١) الدين، للدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز.
- (٢٢) التاريخ الإسلامي والحضارة العربية، للدكتور أحمد شلبي.
- (٢٣) جزيرة العرب في القرن العشرين، للشيخ حافظ وهبة.
- (٢٤) دائرة معارف القرن العشرين، للأستاذ محمد فريد وجدي.
- (٢٥) مكة والمدينة في عصر الجاهلية، للأستاذ أحمد الشريف.
- (٢٦) معجم البلدان، للشيخ العلامة ياقوت الحموي.
- (٢٧) الأصنام، لابن الكلبي.
- (٢٨) أدلة اليقين في الرد على مطاعن المبشرين، للعلامة الشيخ عبد الرحمن الجزيري.
- (٢٩) الرد على المنطقيين، للإمام أحمد بن تيمية الحراني.
- (٣٠) مدخل لدراسة القرآن الكريم، للدكتور الشيخ محمد أبو شهبة.
- (٣١) الإسراء والمعراج، للدكتور الشيخ محمد أبو شهبة.
- (٣٢) تفسير سورة الفاتحة وملحقاتها، للإمام الشيخ محمد عبده.
- (٣٣) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، لأستاذنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي، ط الحلبي.
- (٣٤) البيان والتبيين، للإمام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ط الثالثة.
- (٣٥) عبقرية محمد، للأستاذ العقاد، ط الهلال.
- (٣٦) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للأستاذ العقاد، ط الهلال.
- (٣٧) أم النبي ﷺ، للدكتورة عائشة عبد الرحمن، ط الهلال.
- (٣٨) الملل والنحل، للإمام الشيخ محمد الخضر حسين، ط خاصة بكلية أصول الدين قديماً.
- (٣٩) الملل والنحل، للأستاذ حامد عبد القادر، ط خاصة بكلية أصول الدين قديماً.
- (٤٠) التاريخ الإسلامي، للدكتور محمد مصطفى زيادة، ط خاصة بكلية أصول الدين قديماً.
- (٤١) التاريخ الإسلامي، للأستاذ محمد حبيب أحمد، ط خاصة بكلية أصول الدين قديماً.
- (٤٢) كتب العهد القديم، والعهد الجديد أو التوراة والأنجيل، ط جمعية التوراة الأميركية.
- (٤٣) كتب اللغة: القاموس المحيط، والمصباح المنير.

* * *

فَهَارُسْ

الجزء الثاني

صنع فهارسه العالمية
عبد السلام بن الشيخ

- ١ - فهرس الآيات القرآنية .
- ٢ - فهرس الأحاديث النبوية .
- ٣ - فهرس الأعلام .
- ٤ - فهرس القبائل والأمم والجماعات والدول والممالك والحضارات .
- ٥ - فهرس الأيام والغزوات والوقائع .
- ٦ - فهرس الأماكن والبلدان والبحار والأنهار والأصنام .
- ٧ - فهرس تاريخي متسلسل لأحداث السيرة والتشريعات ونحو ذلك .
- ٨ - فهرس الشعر .
- ٩ - فهرس الموضوعات .

١ - فهرس الآيات القرآنية(*)

الآية	رقمها	الصفحة
[سورة البقرة]		
﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَاكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ...﴾	(٥٨)	٣٢٧
﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ...﴾	(٨٩)	٣٩٣ ، ٤٦
﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ...﴾	(١٠١)	٣٩٣
﴿... وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى...﴾	(١٢٥)	٥٧٠
﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ...﴾	(١٤٢)	١٠٦ ، ١٠٤
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾	(١٤٣)	١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٤
		٦٣٦ ، ٥١٨
﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّينَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا...﴾	(١٤٤)	١٠٥ ، ١٠٣
﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ...﴾	(١٤٦)	٤٦
﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ...﴾	(١٤٩)	١٠٥
﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ...﴾	(١٥٠)	١٠٥
﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾	(١٥٨)	٥٧٠
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...﴾	(١٨٣)	١٠٧
﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا...﴾	(١٨٤)	١٠٨ ، ١٠٧
﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...﴾	(١٨٥)	١٠٧
﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ...﴾	(١٨٧)	١٠٨
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ...﴾	(١٩٠)	٩٥ ، ٨٨ ، ٧٥
﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ...﴾	(١٩١)	٨٨

(*) الآيات مرتبة في سورها حسب تسلسل أرقامها.

﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾	(١٩٣)	٨٨
﴿... والحرمات قصاص...﴾	(١٩٤)	٣٧٥
﴿... ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة...﴾	(١٩٥)	٨٣
﴿وأتموا الحج والعمرة لله...﴾	(١٩٦)	٣١٧
﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس...﴾	(١٩٩)	٥٧٢
﴿واذكروا الله في أيام معدودات، فمن تعجل...﴾	(٢٠٣)	٥٨٠
﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم...﴾	(٢١٦)	٨٥
﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه...﴾	(٢١٧)	١٢٠
﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا...﴾	(٢١٨)	١٢١
﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير...﴾	(٢١٩)	٣٥٣
﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً...﴾	(٢٤٥)	٣٩١
﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض...﴾	(٢٥٣)	٦٥٧
﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...﴾	(٢٥٦)	٩٦، ٩٢
﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى...﴾	(٢٦٠)	٦٥٨
﴿واتقوا يوماً تزدجون فيه إلى الله...﴾	(٢٨١)	٥٧٥
﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها...﴾	(٢٨٦)	٦٦١
[سورة آل عمران]		
﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم...﴾	(١٢)	٣٩٤
﴿قد كان لكم آية في فتنين القتلى...﴾	(١٣)	٣٩٤، ١٧٢، ١٣٦
﴿... ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾	(٣٠)	٢٢
﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب...﴾	(٥٩)	٥٤٧
﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾	(٦٠)	٥٤٧
﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل...﴾	(٦١)	٥٤٧
﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم...﴾	(٦٤)	٣٦١، ٣٥٨، ١٤
		٣٦٣
﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً...﴾	(٩٦)	٣٥
﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً...﴾	(٩٧)	٣١٧، ٣٥
﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب...﴾	(١٠٠)	٣٩٠
﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله...﴾	(١٠١)	٣٩٠
﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا...﴾	(١٠٣)	٣٩٠، ٤٢
﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف...﴾	(١١٠)	٥١٨

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنین مقاعد للقتال...﴾	(١٢١)	١٩١
﴿إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما...﴾	(١٢٢)	١٩٠
﴿ولقد نصرکم الله ببدر وأنتم أذلة...﴾	(١٢٣)	١٤٣
﴿إذ تقول للمؤمنین ألن يكفیکم أن یمدکم ربکم...﴾	(١٢٤)	١٤٤
﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبکم به...﴾	(١٢٦)	١٤٥، ١٧٣، ٤٧٢
﴿... أو یكتبهم فینقلبوا خائبین﴾	(١٢٧)	١٤٤
﴿لیس لك من الأمر شیء أو یتوب علیهم...﴾	(١٢٨)	٢٠٠
﴿قد خلعت من قبلکم سنن فسیروا فی الأرض...﴾	(١٣٧)	٢٢١
﴿ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنین﴾	(١٣٩)	٢٢١
﴿إن یمسکم قرح فقد مس القوم قرح مثله...﴾	(١٤٠)	٢٢١، ٢٢٠
﴿ولیمحص الله الذین آمنوا ویمحق الکافرین...﴾	(١٤١)	٢٢٠
﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما یعلم الله الذین جاهدوا...﴾	(١٤٢)	٢٢١
﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه...﴾	(١٤٣)	٢٢١
﴿وما محمد إلا رسول قد خلعت من قبله الرسل...﴾	(١٤٤)	١٥٩، ٢٢٢، ٥٩٥
﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله کتاباً مؤجلاً...﴾	(١٤٥)	٢٢٢
﴿وكانین من نبی قاتل معه ربیون كثير فما وهنوا...﴾	(١٤٦)	٢٢٢
﴿... والله یحب المحسنین﴾	(١٤٨)	٢٢٢، ٢٢٣
﴿ولقد صدقکم الله وعده إذ تحصونهم بإذنه...﴾	(١٥٢)	٢١٩
﴿إذ تصعدون ولا تلوون علی أحد...﴾	(١٥٣)	٢٢٣
﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم یظنون بالله غیر الحق...﴾	(١٥٤)	٢٢٣، ٢٢٤
﴿إن الذین تولوا منكم یوم التقی الجمعان إنما استزلهم الشیطان...﴾	(١٥٥)	١٩٦
﴿یا أيها الذین آمنوا لا تكونوا کالذین کفروا وقالوا لإخوانهم...﴾	(١٥٦)	٢٢٤
﴿ولئن قتلتم فی سبیل الله أو متم لمغفرة من الله...﴾	(١٥٧)	٢٢٥
﴿ولئن متم أو قتلتم لإلی الله تحشرون...﴾	(١٥٨)	٢٢٥
﴿فبیا رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً...﴾	(١٥٩)	١٣٤، ١٧٤
﴿أو لما أصابتکم مصیبة قد أصبتم مثلیها قتلتم أن هذا...﴾	(١٦٥)	٢٢٥
﴿وما أصابکم یوم التقی الجمعان فبإذن الله...﴾	(١٦٦)	١٨٩
﴿ولیعلم الذین نافقوا وقیل لهم تعالوا قاتلوا...﴾	(١٦٧)	١٨٩
﴿ولا تحسبن الذین قتلوا فی سبیل الله أمواتاً...﴾	(١٦٩)	٨٦، ٨٧، ٢١٣
﴿فرحین بما آتاهم الله من فضله ویستبشرون...﴾	(١٧٠)	٢١٦، ٢٢٥
		٨٦، ٢٢٥

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ...﴾	(١٧١)	٢٢٥
﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ...﴾	(١٧٢)	٢٢٩ ، ٢٤٤
﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ...﴾	(١٧٣)	٢٢٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤
﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ...﴾	(١٧٤)	٢٢٩ ، ٢٤٤
﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ...﴾	(١٨١)	٣٩١
﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى...﴾	(١٨٣)	٣٩٢
[سورة النساء]		
﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾	(٢٤)	٤٧٤
﴿... وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾	(٢٩)	٤٣٣
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى...﴾	(٤٣)	٣٥٣
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ...﴾	(٥١)	٢٧٦
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾	(٥٢)	٢٧٦
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتَ إِلَى أَهْلِهَا...﴾	(٥٨)	٤٤٧
﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ...﴾	(٦٩)	٥٩٣
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيْنَا...﴾	(٩٤)	٣٧٤
﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ...﴾	(٩٥)	٨٥
﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...﴾	(٩٧)	٣٩
﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ...﴾	(٩٨)	٣٩
﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ...﴾	(٩٩)	٣٩
﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ...﴾	(١٠٢)	٣٢٢
﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ...﴾	(١٢٩)	٦٦١
[سورة المائدة]		
﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾	(٣)	٥٨٧ ، ٥٧٥
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾	(١١)	١٨٤
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ...﴾	(٥١)	٣٩٦
﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ...﴾	(٥٢)	٣٩٦
﴿... أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾	(٥٤)	٣٤٨
﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾	(٥٥)	٣٩٦
﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾	(٦٧)	٧٦
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ...﴾	(٩٠)	٣٥٤

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وإنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء...﴾	(٩١)	٣٥٤
﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح...﴾	(٩٣)	٣٥٤
﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم...﴾	(١١٨)	٦٠٤، ١٥٧
[سورة الأنعام]		
﴿... وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ...﴾	(١٩)	٧٦، ١٤
﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر...﴾	(٩١)	٣٩٢
﴿... وآتوا حقه يوم حصاده...﴾	(١٤١)	١١١
[سورة الأعراف]		
﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا...﴾	(٢٨)	٥٣٨
﴿... اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم...﴾	(١٣٨)	٤٦٨
﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً...﴾	(١٥٨)	٣٥٧، ١٤
﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین...﴾	(١٩٩)	٦٤٦
[سورة الأنفال]		
﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول...﴾	(١)	١٥١
﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم...﴾	(٧)	١٢٩
﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون...﴾	(٨)	١٢٩
﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم...﴾	(٩)	١٤٤، ١٤١
﴿وما جعله الله إلا بشراً وتطمئن به قلوبكم...﴾	(١٠)	١٤٣، ١٤٤، ١٤٥
		٤٧٢، ١٧٤
﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه...﴾	(١١)	١٣٣
﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم...﴾	(١٢)	١٤٢، ١٤٥، ١٤٦
﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً...﴾	(١٥)	٨٠
﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال...﴾	(١٦)	٨٠، ٨١
﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى...﴾	(١٧)	١٤٣
﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله...﴾	(٣٩)	٩٢
﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة...﴾	(٤١)	١٥٢
﴿إذ يريكم الله في منامكم قليلاً ولو أراكم كثيراً...﴾	(٤٣)	١٣٦
﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً...﴾	(٤٤)	١٣٦
﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا...﴾	(٤٥)	٨٠

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً...﴾	(٤٧)	١٢٧
﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال...﴾	(٤٨)	١٢٧
﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء...﴾	(٥٨)	٣٩٥ ، ٨٩
﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل...﴾	(٦٠)	٤٧٢
﴿وألّف بين قلوبهم لئلا نفقت ما في الأرض جميعاً...﴾	(٦٣)	٥٣
﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً...﴾	(٦٦)	٨١
﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض...﴾	(٦٧)	١٧٧ ، ١٦٦
﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم...﴾	(٦٨)	١٦٦
﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله...﴾	(٦٩)	١٦٦
﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى...﴾	(٧٠)	١٦٥
﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم...﴾	(٧٢)	٥١
﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله...﴾	(٧٥)	٥١
[سورة التوبة]		
﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر...﴾	(٣)	٥٣٧
﴿فقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم...﴾	(١٤)	١٤٦
﴿ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء...﴾	(١٥)	١٤٦
﴿... والله خير بما تعملون﴾	(١٦)	١٤٦
﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين...﴾	(٢٥)	٤٧١
﴿ثم أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين...﴾	(٢٦)	٤٧١
﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء...﴾	(٢٧)	٤٧١
﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس...﴾	(٢٨)	٥٣٩ ، ٥٣٨
﴿فقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر...﴾	(٢٩)	٥٤٦
﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق...﴾	(٣٣)	٥١٨ ، ٥
﴿... وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة...﴾	(٣٦)	٩٢ ، ٨٩
﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا...﴾	(٣٨)	٥١٩ ، ٨٢
﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم...﴾	(٣٩)	٥١٩ ، ٨٢
﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا...﴾	(٤٠)	٥١٩
﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم...﴾	(٤١)	٥٢٠ ، ٨٣ ، ٨٢
﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قصداً لاتبعوك...﴾	(٤٢)	٥٢٠ ، ٤٩٨
﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين...﴾	(٤٣)	٥٢١ ، ٤٩٨

الآية	رقمها	الصفحة
﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر...﴾	(٤٤)	٥٢١
﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر...﴾	(٤٥)	٥٢١، ٤٩٨
﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم...﴾	(٤٦)	٥٢١
﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خيالاً...﴾	(٤٧)	٥٢١
﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور...﴾	(٤٨)	٥٢١
﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني...﴾	(٤٩)	٥٢١
﴿إن تصبك حسنة تسؤهم، وإن تصبك مصيبة يقولوا...﴾	(٥٠)	٥٢٢، ٥٢١
﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا...﴾	(٥١)	٥٢٢
﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين...﴾	(٥٢)	٥٢٢، ٢٤٢، ٨٥
﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم...﴾	(٥٣)	٥٢٢
﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين...﴾	(٦٠)	١١٣
﴿... ورضوان من الله أكبر...﴾	(٧٢)	٣٤٩
﴿... وهو بما لم ينالوا...﴾	(٧٤)	٥٠٦
﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله...﴾	(٧٥)	٥٠٧
﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم...﴾	(٨٠)	٥٣٣
﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن...﴾	(٨١)	٥٢٢، ٤٩٨
﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء...﴾	(٨٢)	٥٢٢
﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك...﴾	(٨٣)	٥٢٢
﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره...﴾	(٨٤)	٥٣٣، ٥٢٢
﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم...﴾	(٩٠)	٥٢٣، ٥٢٢
﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون...﴾	(٩١)	٥٢٠، ٤٩٦، ٨٤
		٥٢٣
﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد...﴾	(٩٢)	٥٢٣، ٤٩٧، ٤٩٦
﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء...﴾	(٩٣)	٥٢٣
﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم قل لا تعتذروا...﴾	(٩٤)	٥٢٣، ٥١١
﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم...﴾	(٩٥)	٥٢٤
﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن رضوا عنهم...﴾	(٩٦)	٥٢٤
﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا تعلموا...﴾	(٩٧)	٥٢٤
﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم...﴾	(٩٨)	٥٢٤، ٥١١
﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر...﴾	(٩٩)	٥٢٥، ٥٢٤
﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار...﴾	(١٠٠)	٥٩٦، ٥٢٥

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة...﴾	(١٠١)	٥٢٥ ، ٥١١
﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً...﴾	(١٠٢)	٥٢٥ ، ٥١١ ، ٤٠٨
﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها...﴾	(١٠٣)	٥٢٦ ، ٥٢٥ ، ٥١١
﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده...﴾	(١٠٤)	٥٢٦
﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون...﴾	(١٠٥)	٥٢٦ ، ٥١٢
﴿وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم...﴾	(١٠٦)	٥٢٦ ، ٥١٢
﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراباً وكفراً وتفرقت...﴾	(١٠٧)	٥٠٨
﴿لا تقم فيه أبداً، لمسجد أسس على التقوى...﴾	(١٠٨)	٥٠٨ ، ١٩
﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم...﴾	(١١١)	٨٤ ، ٧٥
﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين...﴾	(١١٣)	٥٣٣
﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه...﴾	(١١٧)	٥٢٧ ، ٥٢٦ ، ٥١٦
﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض...﴾	(١١٨)	٥٢٧ ، ٥١٦
﴿... وكونوا مع الصادقين﴾	(١١٩)	٥١٦
﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن...﴾	(١٢٠)	٥٢٧
﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً...﴾	(١٢١)	٥٢٧
﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة...﴾	(١٢٢)	٥٢٠ ، ٨٤ ، ٨٠
﴿... بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾	(١٢٨)	٦٣٩
[سورة يونس]		
﴿... ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم...﴾	(٨٨)	٦٠٤ ، ١٥٧
﴿... أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين...﴾	(٩٩)	٩٦
[سورة هود]		
﴿... أو آوي إلى ركن شديد﴾	(٨٠)	٦٥٩
[سورة يوسف]		
﴿... فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾	(١٨)	٢٦٧ ، ٢٦٢
﴿... وشهد شاهد من أهلها...﴾	(٢٦)	٢٧٣
﴿... قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة...﴾	(٥٠)	٦٥٨
[سورة الرعد]		
﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام...﴾	(٨)	٥٥١
﴿... وهو شديد المحال﴾	(١٣)	٥٥١

الآية	رقمها	الصفحة
﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾	(٢٤)	٢١٦
﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً...﴾	(٢٨)	٣٠٢
[سورة إبراهيم]		
﴿... فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم...﴾	(٣٦)	١٥٧ ، ٦٠٤
[سورة النحل]		
﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به...﴾	(١٢٦)	٢٠٨
﴿واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم...﴾	(١٢٧)	٧٣ ، ٢٠٨
﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾	(١٢٨)	٢٠٨
[سورة الإسراء]		
﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن...﴾	(٤)	٤٥
﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا...﴾	(٥)	٤٥
﴿... فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم...﴾	(٧)	٤٦
﴿عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا...﴾	(٨)	٤٦
﴿ومن الليل فتعجده به نافلة لك عسى أن يبعثك...﴾	(٧٩)	٦٣٤
﴿... جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً...﴾	(٨١)	٤٤٦
[سورة الكهف]		
﴿... كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾	(٥)	١٠٢
﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا﴾	(٢٣)	٣٤٨
﴿إلا أن يشاء الله...﴾	(٢٤)	٣٤٨
﴿... فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر...﴾	(٢٩)	٩٦ ، ٩٧
[سورة مريم]		
﴿... إني عبد الله...﴾	(٣٠)	٢٧٣
[سورة طه]		
﴿... وقل رب زدني علماً﴾	(١١٤)	٦٣٢
[سورة الأنبياء]		
﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض...﴾	(١٠٥)	٩٠
﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾	(١٠٧)	١٥ ، ٣٥٧ ، ٦٤١

الآية	رقمها	الصفحة
[سورة الحج]		
﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم...﴾	(١٩)	١٣٩
﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا...﴾	(٣٩)	٧٧ ، ٧٦ ، ٧٤
﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا...﴾	(٤٠)	٧٨ ، ٧٤
﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة...﴾	(٤١)	٧٩ ، ٧٤
[سورة النور]		
﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم...﴾	(١١)	٢٦٨ ، ٢٦٢
﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً...﴾	(١٢)	٢٦٨
﴿لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء، فإذ لم يأتوا...﴾	(١٣)	٢٦٩
﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة...﴾	(١٤)	٢٦٩
﴿إذ تلقونه بالسُّلُوكِ وتقولون بأفواهكم...﴾	(١٥)	٢٧٠ ، ٢٦٩
﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا...﴾	(١٦)	٢٧٠
﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين﴾	(١٧)	٢٧٠
﴿ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾	(١٨)	٢٧٠
﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا...﴾	(١٩)	٢٧٠
﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم...﴾	(٢٠)	٢٧١ ، ٢٦٢
﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا...﴾	(٢٢)	٢٦٢
﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا...﴾	(٢٣)	٢٧٢ ، ٢٧١
﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم...﴾	(٢٤)	٢٧٢ ، ٢٧١
﴿يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون...﴾	(٢٥)	٢٧٢ ، ٢٧١
﴿الحيثات للخيثين والخيثون للخيثات...﴾	(٢٦)	٢٧٢
﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن...﴾	(٣١)	٣١٣
﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات...﴾	(٥٥)	١٢
﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه...﴾	(٦٢)	٢٧٩
﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً...﴾	(٦٣)	٢٧٩
[سورة الشعراء]		
﴿ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً...﴾	(٢١)	٦٠٦
[سورة القصص]		
﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض...﴾	(٥)	٩٠

الآية	رقمها	الصفحة
﴿قالت إحداهما يا أبتِ استأجره إن خير من استأجرت...﴾	(٢٦)	٢٦٦
[سورة السجدة]		
﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين...﴾	(١٧)	٢٢٦
[سورة الأحزاب]		
﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه...﴾	(٤)	٢٩٦
﴿ادعوههم لأبائهم هو أقسط عند الله...﴾	(٥)	٢٩٦
﴿... وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض...﴾	(٦)	٥١
﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم...﴾	(٩)	٢٨٩ ، ٢٨٢
﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم...﴾	(١٠)	٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٢٨٢
﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً﴾	(١١)	٢٩٠ ، ٢٨٢
﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض...﴾	(١٢)	٢٩٠ ، ٢٨٢
﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم...﴾	(١٣)	٢٩٠
﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة...﴾	(١٤)	٢٩١ ، ٢٩٠
﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار...﴾	(١٥)	٢٩١
﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل...﴾	(١٦)	٢٩١
﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً...﴾	(١٧)	٢٩١
﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقاتلين لإخوانهم...﴾	(١٨)	٢٩١
﴿أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتم...﴾	(١٩)	٢٩٢ ، ٢٩١
﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب...﴾	(٢٠)	٢٩٢
﴿ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة...﴾	(٢١)	٢٩٢
﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله...﴾	(٢٢)	٢٩٢
﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه...﴾	(٢٣)	٢٩٢ ، ١٩٧
﴿ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين...﴾	(٢٤)	٢٩٣
﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً...﴾	(٢٥)	٢٩٣
﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم...﴾	(٢٦)	٤١٠
﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً...﴾	(٢٧)	٤١٠
﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا...﴾	(٢٨)	٦٢٢
﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة...﴾	(٢٩)	٦٢٢
﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن...﴾	(٣٢)	٣١١ ، ٣٠٥
﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى...﴾	(٣٣)	٣١١ ، ٣٠٥

الآية	رقمها	الصفحة
﴿واذكرون ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة...﴾	(٣٤)	٣٠٥
﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً...﴾	(٣٦)	٢٩٥
﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه...﴾	(٣٧)	٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٥
﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له...﴾	(٣٨)	٢٩٦
﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه...﴾	(٣٩)	٢٩٦
﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله...﴾	(٤٠)	٢٩٦
﴿ترجي من تشاء منهم وتقوي إليك من تشاء...﴾	(٥١)	٦٦٠
﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن...﴾	(٥٣)	٣١٠
﴿لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن...﴾	(٥٥)	٣١١
﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين...﴾	(٥٩)	٣١٤
﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى...﴾	(٦٩)	٢٧٣
[سورة سبأ]		
﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً...﴾	(٢٨)	٣٥٧
﴿... جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾	(٤٩)	٤٤٦
[سورة يس]		
﴿... اتبعوا المرسلين﴾	(٢٠)	٥٢٨
[سورة الصافات]		
﴿سلام على إل ياسين...﴾	(١٣٠)	٥٢٨
[سورة ص]		
﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾	(٨٦)	٦١٣
[سورة الزمر]		
﴿إنك ميت وإنهم ميتون...﴾	(٣٠)	١٥٩
[سورة الشورى]		
﴿والذين أصابهم البغي هم ينتصرون﴾	(٣٩)	٧٧
﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح...﴾	(٤٠)	٧٧ ، ٦٤٦
﴿ولن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾	(٤١)	٧٧
﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيثون...﴾	(٤٢)	٧٧
﴿ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾	(٤٣)	٧٣ ، ٦٤٦

الآية	رقمها	الصفحة
[سورة الأحقاف]		
﴿فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل...﴾	(٣٥)	٧٤
[سورة محمد]		
﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم...﴾	(٣٠)	٥٢٥
﴿... وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾	(٣٦)	١١٣
﴿إن يسألكموها فيحلفكم بخلوا ويخرج أضغانكم﴾	(٣٧)	١١٣
﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله...﴾	(٣٨)	١١٣
[سورة الفتح]		
﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾	(١)	٣٤٣ ، ٣٣٨
﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر...﴾	(٢)	٣٤٣
﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾	(٣)	٣٤٣
﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين...﴾	(٤)	٣٤٣
﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار...﴾	(٥)	٣٤٣
﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات...﴾	(٦)	٣٤٤ ، ٣٤٣
﴿والله جنود السموات والأرض...﴾	(٧)	٣٤٤
﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً...﴾	(٨)	٣٤٤
﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه...﴾	(٩)	٣٤٤
﴿إن الذين يباعدونك إنيما يباعدون الله...﴾	(١٠)	٣٤٤
﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا...﴾	(١١)	٣٤٤
﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون...﴾	(١٢)	٣٤٥
﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فلإنا اعتدنا للكافرين سعيراً﴾	(١٣)	٣٤٥
﴿والله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء...﴾	(١٤)	٣٤٥
﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم...﴾	(١٥)	٤١٥ ، ٣٤٥
﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم...﴾	(١٦)	٣٤٥
﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج...﴾	(١٧)	٣٤٥
﴿ولقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة...﴾	(١٨)	٣٤٦ ، ٣٣١
﴿ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾	(١٩)	٣٤٦
﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه...﴾	(٢٠)	٣٤٦
﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها...﴾	(٢١)	٣٤٦
﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار...﴾	(٢٢)	٣٤٦

الآية	رقمها	الصفحة
﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تتجد...﴾	(٢٣)	٣٤٦
﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم...﴾	(٢٤)	٣٤٦ ، ٣٣٢
﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام...﴾	(٢٥)	٣٤٧
﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية...﴾	(٢٦)	٣٤٧
﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام...﴾	(٢٧)	٣٧٨ ، ٣٤٨
﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق...﴾	(٢٨)	٣٤٨
﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار...﴾	(٢٩)	٣٤٩ ، ٣٤٨
[سورة الحجرات]		
﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾	(٤)	٥٤٣
﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم...﴾	(٥)	٥٤٣
﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا...﴾	(٦)	٤٩٢
﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم...﴾	(١٣)	٤٤٨
[سورة ق]		
﴿ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد﴾	(٢٩)	٢٢
[سورة الذاريات]		
﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾	(١٩)	١١٤
[سورة القمر]		
﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾	(٤٥)	١٤٣
﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾	(٤٦)	١٤٣
[سورة الرحمن]		
﴿مدهامتان﴾	(٦٤)	٤٤٢
[سورة الحديد]		
﴿... لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل...﴾	(١٠)	٤٥٧
﴿... ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم...﴾	(٢٧)	٦٣٦
[سورة المجادلة]		
﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾	(٢١)	٢٢٠
﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله...﴾	(٢٢)	١٤٨

[سورة الحشر]

٤٠٢	(١)	﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض...﴾
٤٠٢	(٢)	﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب...﴾
٤٠٢	(٣)	﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا...﴾
٤٠٢	(٤)	﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله...﴾
٤٠٢	(٥)	﴿وما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها...﴾
٤٠٢، ٤٠٣	(٦)	﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه...﴾
٤٠٣	(٧)	﴿وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى لله وللرسول...﴾
٤٠٣	(٨)	﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم...﴾
٤٠٣، ٥٥	(٩)	﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر...﴾
٤٠٤	(١٠)	﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا...﴾
٤٠٤، ٤٠٠	(١١)	﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا...﴾
٤٠٠	(١٢)	﴿ولئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم...﴾
٤٠٤، ٤٠٠	(١٣)	﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم...﴾
٤٠٤	(١٤)	﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر...﴾
٤٠٤	(١٥)	﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم...﴾
٤٠٤، ٤٠٠، ١٢٧	(١٦)	﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر...﴾
٤٠١، ١٢٧	(١٧)	﴿فكان عاقبتهم أنها في النار خالدتين فيها...﴾
٤٠٥	(٢١)	﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً...﴾
٤٠٥	(٢٢)	﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة...﴾
٤٠٥	(٢٤)	﴿... يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾

[سورة الممتحنة]

٤٣٨	(١)	﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء...﴾
٩٥	(٨)	﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين...﴾
٩٥	(٩)	﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم...﴾
٣٥١، ٣٥٠، ٣٤٩	(١٠)	﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات...﴾
٣٥١	(١١)	﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم...﴾

[سورة الصف]

١٣٥	(٤)	﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً...﴾
٥	(٩)	﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق...﴾

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم...﴾	(١٠)	٨٥
﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله...﴾	(١١)	٨٥
[سورة المنافقون]		
﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله...﴾	(٧)	٢٥٦
﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجننا الأعز منها الأذل...﴾	(٨)	٢٥٦
[سورة الطلاق]		
﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾	(٥)	٢٢
[سورة التحريم]		
﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك...﴾	(١)	٦٢٥ ، ٦٢٤
﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم...﴾	(٢)	٦٢٤
﴿وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً...﴾	(٣)	٦٢٤
﴿إن تنوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما...﴾	(٤)	٦٢٤
﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن...﴾	(٥)	٦٢٤
﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط...﴾	(١٠)	٢٦٥
[سورة الملك]		
﴿ثم ارجع البصر كرتين...﴾	(٤)	٥٢٥
[سورة القلم]		
﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾	(٤)	٣٠٠ ، ٢٦٧
		٦٠٦ ، ٦٠١
[سورة المعارج]		
﴿والذين في أمواتهم حق معلوم﴾	(٢٤)	١١٤
﴿للسائل والمحروم...﴾	(٢٥)	١١٤
[سورة نوح]		
﴿... رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾	(٢٦)	١٥٧ ، ٦٠٤
[سورة الجن]		
﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾	(١٨)	١٧

الآية	رقمها	الصفحة
-------	-------	--------

[سورة المزمل]

﴿يا أيها المزمل﴾	(١)	٦٣٣
﴿قم الليل إلا قليلاً﴾	(٢)	٦٣٣
﴿نصفه أو أنقص منه قليلاً﴾	(٣)	٦٣٣
﴿أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً﴾	(٤)	٦٣٣
﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلًا﴾	(١٠)	٧٤
﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه...﴾	(٢٠)	٦٣٤

[سورة المدثر]

﴿... وما يعلم جنود ربك إلا هو...﴾	(٣١)	١٧٣
-----------------------------------	------	-----

[سورة العلق]

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾	(١)	١٦٥ ، ٥٣٠
﴿خلق الإنسان من علق﴾	(٢)	١٦٥
﴿اقرأ وربك الأكرم﴾	(٣)	١٦٥
﴿الذي علم بالقلم﴾	(٤)	١٦٥
﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾	(٥)	١٦٥

[سورة الكافرون]

﴿قل يا أيها الكافرون﴾	(١)	٣٥٣
-----------------------	-----	-----

[سورة النصر]

﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾	(١)	٤٥٦ ، ٥٧٩
﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾	(٢)	٤٥٦
﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾	(٣)	٤٥٦

[انتهى فهرس الآيات القرآنية الكريمة]

٢ - فهرس الأحاديث النبوية(*)

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
٢٩٠	« اذهب واثنى بخبر القوم »		[همزة الوصل]
٤٤٨	« اذهبوا فأنتم الطلقاء »	٤٣٠	« اثنى ببني جعفر... »
٣٠٩	« إرفعوا طعامكم »	٥٩٠	« اثنى أكتب لكم كتاباً لن تضلوا... »
٢٠١	« أرم فذاك أبي وأمي »	٤١٣	« أبسط رجلك »
٤٤٩	« استغفر الله »		« اتخذوا قبور أنبيائهم وصلحهم »
١٢٤	« استصغرت أنا وابن عمي يوم بدر... »	٦٠٠	« مساجد »
١٣٩	« استقد يا سواد »		« اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة »
١٣٩	« استقم يا سواد »	٥٥٨	« الحسنة »
١٥٣	« استوصوا بهم خيراً »	٢٩٧	« اتق الله وأمسك عليك زوجك »
٢١٠	« استوصوا حتى أثنى على ربي عز وجل »	٦١٧	« اتقوا النار ولو بشق تمرة »
٥٧٧	« اسقوني »	٨٠	« اجتنبوا السبع الموبقات »
	« اشتد غضب الله على رجل قتله »		« اخرج بهذه الآيات من صدر سورة »
١٩٩	« رسول الله... »	٥٣٦	« براءة... »
	« اشتد غضب الله على من دمي وجه »		« اخرج في آثار القوم وانظر ماذا »
١٩٩	« رسول الله »	٢٠٩	« يصنعون... »
٧٤	« اصبروا فإنني لم أومر بقتال »	٣٦٨	« اخرج في طلب القوم حتى ألحقك... »
٣٢٤	« اصدقني ما أنت وما أقدمك؟... »	٣٢٤	« اخرجاً حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب... »
٦٦٩، ١٦٣	« اصدقني ما الذي جئت له؟ »	٤٤١	« اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا... »
١٧٨	« اضرب به »	٣٠٨	« اذهب فاذكرها علي »

(*) الأحاديث مرتبة ترتيباً ألف يائياً، وتشمل القولية والفعلية والتقريرية.

٤٥٧ «أبابعه على الإسلام والإيمان والجهاد...»
 ٥٧٠ «أبدأ بما بدأ الله به...»
 ٢٥٤ «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟»
 «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» ٥١٨، ٥١٥
 ١٤٠ «أبشريا أبا بكر فقد أتاك نصر الله...»
 ٢٨٢ «أبشروا بفتح الله ونصره»
 ٥٥٢ «أبشروا بني تميم»
 «أبلغا صاحبكما أن ربي قتل ربه في هذه الليلة» ٣٦١
 ٦٣٨ «أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغي...»
 ٥٥٢ «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة...»
 ٢٥ «أتحبيني؟»
 ٥٧٨ «أتدرون أي يوم هذا؟»
 «أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد...» ١٥٥
 «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده...» ٦٦٨
 «أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل...» ٥٠٤
 «أتعجبون من هذه؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل...» ٥٠٤
 «أتعجبون من هذه، لمناديل سعد بن معاذ...» ٣١٩
 «أجل» ١٣٠
 «أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها...» ٥٤٧
 «أجيئوه...» ٢٠٩
 «أأحسن إليك؟» ٦٣٩
 «أحسن إليك؟» ٦٣٩
 «أحلت لي ساعة من نهار» ٤٦٠
 «أخبراني عن قريش» ١٣٢
 «أخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من...» ١١٤

«اضرب عنقه، واللهم أغني المقداد من فضلك...» ١٥٥
 «اعرضها علي» ٤٣١
 «اغزوا باسم الله، قاتلوا عدو الله وعدوكم...» ٤٢٦
 «اغسلنها وتراً: ثلاثاً أو خمساً...» ٤٩٠
 «إقبلوا البشري يا أهل اليمن إذ لم...» ٥٥٦
 «اقطعوا عني لسانه» ٦٥٠، ٤٨٢
 «اكتب باسمك اللهم» ٣٣٥
 «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» ٣٣٥
 «إلحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون» ١٨١
 «إلحق خالداً فقل له: لا يقتلن وليداً...» ٤٧٢
 «إلحق لشأنك» ٦٦٧
 «القها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها» ٢١٢
 «امكث على إحرامك» ٥٧١
 «انثرها لأبي طلحة» ٢٠١
 «انزعوا بني عبد المطلب فلولاً أن يغلبكم الناس...» ٥٧٧
 «انزل في قبرها» ٥٣٢
 «انزلوا» ٣٢٧
 «انضحوا بالنبل عنا، لا تؤتين من قبلكم...» ١٩٠
 «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه...» ٥٠٨
 «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها...» ٤٣٧
 «انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتظنوا...» ٢٨١
 «انفذ إليهم ثم ادعهم إلى الإسلام...» ٤١٦
 «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ» ٣١٩
 «اهتف لي بالأنصار» ٤٥٩

[همزة القطع]

«آية الإيمان حب الأنصار...»

٤٦٥ «أصببت، أحسنت»
 «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين
 ٢٢٦ رأت...»
 ٥٥٦ «أعط ركب بجيلة وأبدا بالأحسين»
 ٦٦٧ «أعط هذا الرجل حقه»
 ١٥ «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي...»
 «أعلم به قبر أخي، وأدفن إليه من مات من
 ١٨١ أهلي»
 ١١٠ «أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم»
 ٣٣٥ «أفأخبرتك أنك تأتيه هذا العام؟»
 ٢٨ «أفرايتم إن أسلم؟»
 ٤٤٩ «أفضالة»
 ٦٣٣ «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»
 ٤٨٤ «أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن...»
 ٤١٣ «أفلحت الوجوه»
 ٢٥٤ «أقضي عنك كتابتك وأتزوجك»
 ٦٣٤ «أكثر من سبعين مرة»
 «ألا أخبرك؟ ما كلم الله أحداً إلا من وراء
 ٢١٣ حجاب...»
 «ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت
 ٥٧٢ قدمي...»
 ٤٨٣ «ألا تحببون يا معشر الأنصار؟»
 «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من
 ٤٩٧ موسى...»
 ٥٥٧ «ألا تريخني من ذي الخلصة؟»
 ٢٠١ «ألا زجل لهؤلاء؟»
 ٣٨٤ «ألا قلت: وكيف تكونان خيراً مني...»
 «ألا، لا يصلين أحد العصر إلا في بني
 ٤٠٦ قريظة»
 ٥٧٣ «ألا هل بلغت اللهم فاشهد»
 «ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل
 ٤٠٨ منكم؟»

٤٨٠ «أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت...»
 «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها
 ٤٢٩ جعفر...»
 ٥٣٣ «آخر عني يا عمر...»
 «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب...» ٥٩٠
 «أدخله علي» ٦٦٩، ١٦٣
 «أدنيا لي أخاكما» ٥٠٥
 «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» ٥٥٦
 «إذا أخبرتنا أخبرناك» ١٣١
 «إذا أنت قدمت على صاحبك فتطاوعا...» ٤٣٢
 «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا
 ١٣٢ كذباكم...»
 «إذا نظرت كتابي فامض حتى تنزل
 نخلة...» ١١٩
 «أذن يا إبراهيم وعلي البلاغ...» ٣١٧
 «أرادوا أن يزحوا رسول الله في العقبة...» ٥٠٥
 «أرايت إن وجدناه عندك أفقتك؟...» ٣٨٣
 «أرجو أن يخرج الله من أصلاهم من
 يعبد...» ٤٧٨
 «أرسله يا عمر، اذن يا عمير...» ٦٦٩، ١٦٣
 «أرسلوا إلى صديقات خديجة» ٦٤٤
 «أرواحهم في جوف طيور خضر لها
 قناديل...» ٨٧
 «أريت في المنام مرتين، إذا رجل...» ٦١
 «أسرعكن لحوقا بي أطولكن يداً» ٣٠٩
 «أسلم» ٤٤٩
 «أشبهت خلقي وخلقي» ٣٧٩
 «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله...» ٤٩٩
 «أشهد أنك شهيد...» ١٣٩
 «أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله قبل
 البيت...» ١٠٦
 «أشيروا علي أيها الناس...» ١٧٣، ١٣٠
 «أصببت» ٦١٢

«أما محمد فشبهه عنما أبي طالب، وأما...» ٤٣٠
«أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله
فيك» ٥١٣
«إمّا لا فاصبروا حتى تلقوني...» ٥٤
«أنّ تشهد أن لا إله إلا الله وأنّي
رسول الله...» ٣٢٤
«أن تضرب به العدو حتى ينحني» ١٩١
«أن دعوهما» ٦٢٨
«أن فعلتن» ٥٩١
«إن أحببت فعندي محبة مكرمة...» ٤٨٠
«إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب...» ٥٢٦
«إن تطعنوا في إمارته فقد طعتم في إمارة
أبيه...» ٥٨٥
«إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوا...» ١٦٢
«إن شئتم أن تردوا عليها فلدتها...» ٤٨٨
«إن شئتم قسمتم للمهاجرين من
أموالكم...» ٥٥
«إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ
بيد...» ٦٥٦
«إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي» ٦٠٥
«إن يكن في أحد من القوم خير فعند...» ١٣٥
«أنسا» ٣٢٤
«أنا أخوك...» ٥٢
«أنا أعلم بدينك منك، ألسنت ركوسياً...» ٥٤٩
«أنا أفصح العرب، بيد أي من قریش...» ٦١٣
«أنا أفصح من نطق بالضاد» ٦١٣
«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» ٤٦٩
«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» ٦٥٨
«أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة» ٢١٥
«أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره...» ٣٣٤
«أنا على جناح سفر، ولكن إذا رجعت...» ٥٠٨
«أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إلا أن
الله...» ٦١٩

«إلا سهيل بن بيضاء» ١٥٧
«ألقها على بلال فإنه أندى صوتاً منك» ٦٣
«ألم تسلموا؟» ٥٥٣
«أليس ذوالحجة؟» ٥٧٨
«أليس من أهل بدر؟ لعل الله...» ١٦٩
«أليست نفساً منقوسة؟» ٦٢٩
«أليست هي جاريتي أحلها الله لي؟» ٦٢٥
«إني عباد الله» ٢٢٣
«إني عباد الله، إني عباد الله» ١٩٨
«أما إنه قد صدقكم» ٤٣٨
«أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا...» ٤٥٢
«أما والذي نفس محمد بيده ما علمت...» ٤٨٨
«أما والله لولا أن الرسل لا تقتل
لضربت...» ٥٨٣
«أما والله ما علمتم إلا لتقلون عند
الطمع...» ٦١٤
«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن...» ٨٩
«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا...» ٩٨، ١١٢
«أمرنا رسول الله بصدقة الفطر قبل أن...» ١١١
«أمسك عليك بعض مالك فهو خير...» ٥١٥
«أمسك عليك زوجك واتق الله...» ٢٩٨
«أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد
عليك» ٢١٣
«أما بعد ذلكم فإني أحمد إليكم الله» ٥٥١
«أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء...» ٤٧٩
«أما بعد، يا عائشة فإنه قد بلغني عنك
كذا...» ٢٦١
«أما ظاهرك فكان علينا، والله أعلم
بإسلامك...» ١٦٠
«أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم...» ٥٢٩
«أما ما ذكرت من الغيرة فسيذهبها الله...» ٢٤٧
«أما ما كان لي ولبي عبد المطلب فهو
لكم...» ٤٧٩

- «إن الأحاديث ستكثر عني كما كثرت على الأنبياء...» ٦١٦
- «إن الإسلام يحب ما كان قبله، والهجرة تحب...» ٤٢٥
- «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد...» ٥٨٢
- «إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا...» ٥٨٢
- «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل...» ٦١٨
- «إن الله قد أبدلنا بالرهبانة الخنيفية السمحة...» ٦٣٦
- «إن الله لا يؤاخذ بدمع العين ولا بحزن القلب...» ٦٤٣
- «إن الله لم يبعثني متعتاً وإنما بعثني...» ٦٣٠
- «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون...» ٦٠٤، ١٥٧
- «إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم...» ٤٦٢
- «إن الله يأمرك أن تصل من قطعك...» ٦٤٦
- «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً...» ٦١٥
- «إن المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة...» ٦١٧
- «إن المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها...» ٣١٢
- «إن أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر...» ٥٩١
- «إن المدينة أقواماً ما قطعتم وادياً...» ٥٢٣
- «إن رسول الله ينهاكم عن لحوم الحمر الأهلية...» ٣٨١
- «إن زوج المرأة منها ليمكن...» ٢١٢
- «إن صاحبكم تغسله الملائكة فاسألوا...» ٢١٣
- «إن صيد وجّ وعضاه حرم محرم لله...» ٥٣١
- «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله...» ٥٤٤

- «أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر...» ٦٤٧
- «أنت أخونا ومولانا» ٣٧٩
- «أنت أخي في دين الله وكتابه...» ٦١
- «أنت رجل واحد، وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن...» ٢٨٥
- «أنت مني وأنا منك...» ٣٧٩
- «أنتم أخوالي وأنا بما فيكم وأنا نقيبكم» ٧٢
- «أنتم الذين قلتهم كذا وكذا؟ أما والله...» ٦٣٥
- «أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى...» ٣٩٢
- «أن النبي ﷺ صلى يوم الفطر ركعتين...» ١١٠
- «أن النبي ﷺ عاود الدعاء لأمته في المزدلفة...» ٥٧٦
- «أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى...» ٣٦٣
- «أن النبي ﷺ لما أكثر من الدعاء لأمته بالمغفرة...» ٥٧٥
- «أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنائاً بين جبلين فأعطاه...» ٦٤٩
- «أن رسول الله ﷺ أخى بينه وبين سعد...» ٥٤
- «أن رسول الله ﷺ أمره أن يتعلم كتاب يهود...» ٢٤٩
- «أن رسول الله ﷺ خرج من العريش يوم بدر...» ١٤٣
- «أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فنزل في علو المدينة...» ٣١
- «إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما...» ٦٤٥
- «إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى» ١٦٩
- «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة...» ٦١٥
- «إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم...» ٢٤١

٤٥٨ «إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة...»
 ١٦ «إنما نزل من القرآن أول ما نزل منه...»
 ٦٥١ «أنه ربما يمر بهم الهلال والهلالات...»
 «أنه مات قبل أن تحول - يعني القبله - رجال...»
 ١٠٦ «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله...»
 ٤٣٨ «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خاتنة العين...»
 ٤٥٢ «إنه ليس بشركم...»
 ٥٤٦ «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر...»
 ٦٣٤ «إنه من أهل النار...»
 ٢٠٥ «إنه من ذهب منا إليهم فابعده الله...»
 ٣٣٤ «إنه من لا يرحم لا يرحم...»
 ٦٢٧ «إنه يحضر البيت عراة مشركون...»
 ٥٣٦ «إنها ابنة أخي من الرضاعة...»
 ٣٧٩ «إنها رحمة، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء...»
 ٦٤٣ «إنما كانت تأتينا زمان خديجة، وإن...»
 ٦٤٤ «إنها لرؤيا حق...»
 ٦٥، ٦٣ «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، قم مع بلال...»
 ٦٤ «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل...»
 ١٩١ «أنهم كانوا إذا غزوا اشتدت عليهم العزبة...»
 ٣٨٢ «أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين...»
 ١٢٥ «إنهم قاتلوك...»
 ٥٢٨، ١٢٦ «إنهم كانوا لإخواننا مكومين...»
 ٦٦٣ «إني أحرم ما بين لابتي المدينة...»
 ٤١ «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم...»
 ٥٠٢ «إني أخشى عليهم أهل نجد...»
 ٢٣٩

١٩٢ «إن لكل بني حوارياً، وحواري الزبير...»
 ١٥٨ «إن له بمكة ابنًا كيسًا تاجرًا ذا مال...»
 ٤١١ «إن له لأجر شهرين...»
 «إن مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه...»
 ٥٢٨ «إن مثلي ومثل أمي كمثل رجل استوقد ناراً...»
 ٦٤١ «إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل له ناقة...»
 ٦٤٠ «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى...»
 ٦١٧ «إن من البيان لسحراً...»
 ٦١٨، ٥٤٤ «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها...»
 ٦٣٢ «إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه...»
 ٦٤٠ «إن هذا الرجل يريد غدراً، والله حائل...»
 ٣٢٤ «إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم...»
 ٤١٨ «إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى...»
 ٣٢٨ «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول...»
 ١٧ «إنما كنا إذا حمى البأس واحمرت الخدق اتقينا برسول الله...»
 ٦٤٢ «إنما لم نقض الكتاب بعد...»
 ٣٣٦ «إنما معاشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء...»
 ٥٩٢ «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا...»
 ٥٥٨ «إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك...»
 ٦٤٠ «إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر...»
 ٥٨٩ «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...»
 ٦١٧ «إنما أنا عبد، أكل كما يأكل العبد...»
 ٦٥٦ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق...»
 ٦٣٠ «إنما خيرني الله فقال: استغفر لهم...»
 ٥٣٣

١٩٨ «أوجب طلحة»
 «أوصيكم بالأنصار فإيهم كرشي
 ٥٦ وعبيتي...»
 ٥٤ «أولم ولو بشاة»
 «أي بريرة، هل رأيت من شيء
 ٢٦٠ يريبك؟»
 «أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلص
 ٤٨٩ إليك...»
 ٣٣٨ «أي والذي نفسي بيده إنه لفتح»
 ٥٧٨ «أي بلد هذا؟»
 ٢٣ «أي دور أهلنا أقرب؟»
 «أين البعيران اللذان غيبتهما في شعب
 ٥٣ كذا؟»
 ٤٢٤ «أين خالد؟»
 ٤٤٦ «أين عثمان بن طلحة؟»
 ٤١٦ «أين علي بن أبي طالب؟»
 ٥٧٢ «أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري...»
 «أيها الناس أنفذوا بعث أسامة،
 ٥٩٢ فلعمري...»
 ٥٧٣ «أيها الناس إن الشيطان قد يشس...»
 ٣٥٨ «أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة...»
 ٥٧٤ «أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث...»
 «أيها الناس إن الله وعصدي إحدى
 ١٢٩ الطائفتين...»
 ٥٧٣ «أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر...»
 «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم
 ٥٧٢ حرام...»
 «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم
 ٥٧٤ واحد...»
 ٥٩١ «أيها الناس إن عبد أخيره الله بين الدنيا...»
 ٥٧٣ «أيها الناس إن لكم على نائكم حقاً...»
 ٥٧٣ «أيها الناس إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل...»

«إني أعطي قوماً أخاف هلمهم
 ٤٨٣ وجزعهم...»
 «إني أنزل على أحوال عبد انطلب أكرمهم
 ٢٣ بذلك»
 ٥٥٨ «إني بعثت لكم خير أهلي»
 «إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم
 ٢١٦ شهيد...»
 «إني خيرت فاخترت، لو أعلم أني لو
 ٥٣٣ زدت...»
 ٤٧٧ «إني رأيت كاني أهديت لي قبة مملوءة...»
 ٦٠٥ «إني رسول من الله إليك، إن شئت أن...»
 «إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا
 ٥٨٨ والخلود...»
 «إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقرأ
 ١٨٨ تذبح...»
 «إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم
 ١٤٧ وغيرهم...»
 «إني قد نكحت منكم امرأة، فما
 ٣٧٨ يضركم...»
 ٣٧٦ «إني لا أدخل عليهم السلاح»
 ١٦٠ «إني لم أتم الليلة من أجل عمي العباس...»
 «إني والله ما أعلم إلا ما علمني الله،
 ٥٠٠ وقد...»
 «أهريقوا علي من سبع قرب لم تحل
 ٥٩٠ أوكيتهن...»
 «أو أملك لك أن الله نزع الرحمة من
 ٦٢٧ قلبك؟»
 ٤٨٤ «أو أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار...»
 ٢١١ «أو حشي أنت؟»
 ٢٤ «أو ليس يحسبكم أن تكونوا من الأخيار»
 ٢٥٥ «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟»
 «أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي
 ٦١٣ الكلام...»

«أيها الناس والله ما لي من فيثكم ولا

هذه...»

«أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟»

[المعرف بالألف واللام]

«الآن استرحت»

«الآن هي الوطيس»

«الإسلام يجب ما كان قبله»

«الأنصار لا يجهم إلا مؤمن، و...»

«الله»

«الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين...»

«الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد...»

«الله أكبر خربت خير، إنا إذا نزلنا...»

«الله أكبر قلت والذي نفسي بيده...»

«الله مولاي، وأنا مولى كل مؤمن...»

«اللهم أجبرني في مصيبتى وأخلف لي خيراً...»

«اللهم أبسط علينا من بركاتك...»

«اللهم إجله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة»

«اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحرسني...»

«اللهم أخلف جعفرأ في أهله، وبارك لعبد الله...»

«اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار...»

«اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض...»

«اللهم الرفيق الأعلى»

«اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد...»

«اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب...»

«اللهم أعني على سكرات الموت»

«اللهم اكفني عامراً»

«اللهم اكفني عامرين الطفيل»

«اللهم أمض لأصحابي هجرتهم...»

«اللهم أنت السلام ومنك السلام...»

«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك...»

«اللهم أنزل نصرك، اللهم إنك إن تشأ...»

«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»

«اللهم إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا...»

«اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا...»

«اللهم إني قد أمسيت راضياً عنه فارض عنه...»

«اللهم اهد ثقيفاً واكفنا مؤنتهم»

«اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»

«اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم»

«اللهم بارك في وائل وولده، وولد ولده»

«اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين...»

«اللهم ثبت لسانه واهد قلبه»

«اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً»

«اللهم حبيب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا...»

«اللهم حبيب إلينا المدينة كحبنا مكة...»

«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها...»

«اللهم زد هذا البيت تشريقاً وتعظيماً...»

«اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب...»

«اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك...»

«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، غضب الله...»

«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت...»

- «اللهم لولا أنت ما اهتدينا...» ٢٧٨
«اللهم مرق ملكه» ٣٦١
«اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم
الأحزاب...» ٢٨٧
«اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا
تؤاخذني...» ٦٦١
«اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها
وفخرها...» ١٣٥
- [الباء]
- «بايعت رسول الله ﷺ على إقامة
الصلاة و...» ٥٥٦
«بشما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك
بها...» ٦٤٤، ٣٦٩
«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي
رسول الله إلى المؤمنين...» ٥٣١
«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي
رسول الله لأهل جرباء...» ٥٠٣
«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله
إلى كسرى...» ٣٦٠
«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله
إلى مسيلمة...» ٥٨٣
«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله
إلى المقوقس...» ٣٦١
«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله
إلى النجاشي...» ٣٦٣
«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله
النبي إلى الحارث...» ٥٥١
«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله
ورسوله إلى هرقل...» ٣٥٨
«بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد
النبي الأمي...» ٥٧
- «بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله
ومحمد النبي...» ٥٠٣
«بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً...» ٦١٩
«بعدي يا أسامة؟» ٣٧٤
«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من...» ٦٣٩
«بل أربعة أشهر» ١٠١
«بل أنا والله يا عائشة واراها» ٥٨٨
«بل شربت عسلاً عند زينب بنت
جحش...» ٦٢٢
«بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك
إلا...» ٢٨٤
«بل عارية مضمونة» ٤٦٨
«بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في
الحجر...» ٦٦٩، ١٦٣
«بل تترفق به ونحسن صحبته ما بقي
معنا» ٢٥٧
«بل نحسن صحبته ما دام بيننا» ٦٤٧
«بل هم الكرار» ٨١
«بل هو الرأي والحرب والمكيدة» ١٣٤
«بلى» ٤٧٧، ٣٣٤
«بم أهلت؟» ٥٧١
«بم كنتم تغلبون من قاتلكم في
الجاهلية؟» ٥٥٥
«بهذا أمرت» ٦٥٠
«بيننا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من
ذهب...» ٥٤٥

[التاء]

- «تبكيه أولاً تبكيه، لم تزل الملائكة تظله...» ٢١٣
«تروون إلى أوباش قريش وأتباعهم...» ٤٥٩
«تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرج
إلا...» ٨٦
«تعال» ٥١٣

«تعال، الحمد لله الذي قد هداك، كنت أرى...»

٤٢٥

[الثاء] و [الجيم]

[الحاء]

- «حتى توافوني بالصفاء» ٤٥٩
«حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت...» ٦٢٦
«حبب إلي من دنياكم ثلاث...» ٦٢٦
«حدثني فصدقتني، ووعدني فوق لي» ١٦٢
«حسبنا الله ونعم الوكيل» ٢٢٩
«حسن خلقك للناس» ٥٥٨
«حكباء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» ٥٥٣

[المعرف بالألف واللام]

- «الحرب خدعة» ٦١٨
«الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستغفره...» ٢١
«الحمد لله الذي أنقذه من النار» ٦٢٩
«الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله» ٥٥٩
«الحياء لا يأتي إلا بخير» ٦٥٤
«الحياء من الإيمان» ٦٥٤، ٦١٧

[الخاء]

- «خذ جارية من السبي غيرها» ٣٨٣
«خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر...» ٤٣٠
«خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله...» ٢٢
«خذوا عني متاسككم» ٦٣١
«خذوا في أوعيتكم» ٤٩٩
«خذوه فإنه خبيث خبيث الدية، نحن...» ٢٨٤
«خذوها يا بني شبيهة خالدة تالدة، لا ينزعها...» ٤٤٧

«خذي من ماله ما يكفيك وبنيك

٤٥٨

«بالمعروف»

٢١٢

«خل سبيلها»

٢٣

«خلوا سبيلها فإنها مأمورة»

«خير المال سكة مأبورة، وفرس مأمورة...» ٦١٥

«خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو

٢٤

عبد الأشهل...»

«خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير

٣٦٨

رجالنا...»

«خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم

٦٢٠

لأهلي»

[المعرف بالألف واللام]

«الخالة بمنزلة الأم» ٣٧٨

«الخيل معقود في نواحيها الخير إلى يوم

٦١٥

القيامة...»

[الذال]

«دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى

٦٤١

ماتت...»

«دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع

٥٤

لهم...»

«دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما

٣٥٨

من...»

«دعه عنك فإنه جاء ثائباً مسلماً» ٤٨٦

«دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني

٥٩٠

إليه»

١٩٩

«دعوه»

«دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله

٥٠١

بكم...»

«دعوه فهذا الأعمى، أعمى القلب أعمى

٤٤

البصر»

٥٤٧

«دعوه»

- ٥٥٦ « سر حتى تنزل بساحتهم فادعهم إلى ... »
 ٢٧٧ « سلمان منا أهل البيت »
 ١٦٠ « سمعت أنين عمي العباس في وثاقه ... »
 ٥٢٩ « سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا »
 ١٣٠ « سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني ... »

[المعرف بالألف واللام]

- ٥٧٦ « السكينة السكينة ليس البر بالإيضاع ... »
 ٣٠٩ « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله ... »
 « السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهيء لكم ... »
 ٥٨٨

[السين]

- ١٤٢ « شامت الوجوه »
 ١٤٢ « شدوا »

[المعرف بالألف واللام]

- ٨٠ « الشرك بالله وقتل النفس ... »

[الصاد]

- ٦٥٦ « صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله »
 ١٠١ « صدق »
 ٦٣٩ « صدق من سماك الرؤوف الرحيم ... »
 ١٤٥ « صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة »
 ٥٧١ « صدقت، صدقت »
 ٥٥٥ « صدقتم »
 ٢٠ « صلاة في مسجد قباء كعمرة »
 ٣٤ « صلاة في مسجدي هذا خير من ... »
 ٦٣١ « صلوا كما رأيتموني أصلي ... »

[المعرف بالألف واللام]

- ٦٤، ٦٣ « الصلاة جامعة »
 ٦٥ « الصلاة خير من النوم »
 « الصلاة في مسجد قباء ركعتين أحب إلي ... »
 ٢٠ « الصلاة وما ملكت أيمانكم »
 ٥٩٤

[الذال]

- ٥٤٢ « ذاك الله عز وجل »
 ٤٥٧ « ذهب أهل الهجرة بما فيها »

[الراء]

- « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ... »
 ٨٦ « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ... »
 ٨٦ « رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد »
 ٦٥٩ « رحم الله أخي موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصير »
 ٦٥٨ « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة »
 ٣٧٧ « رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فلم »
 ٦١٥ « رحم الله موسى، قد أودى بأكثر ... »
 ٤٨٣ « رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ... »
 ٦٣٥ « ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالذي ... »
 ٤٨١

[المعرف بالألف واللام]

- ٦١٧ « الرحم شجنة من الرحمن »

[الزاي]

- « زعم أنه إذا رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز ... »
 ٢٥٥

[السين]

- ٦٦٤ « ساقى القوم آخرهم شرباً »
 « سبحان الله العظيم، سبحان مقلب القلوب ... »
 ٢٩٨ « سبقت رحمتي غضبي ... »
 ١٥٧ « سر إلى موضع مقتل أبيك فاوطئهم ... »
 ٥٨٥

[الضاد]

[الطاء]

«طراً علي حزبي فكرهت أن أجيء حتى
أتمه» ٥٣٠

[الظاء]

[العين]

«عبد الله بن أبي» ٢٥٥
«عكاشة بن محصن» ١٧٧
«علي أنا إذا شئنا أن نخرجكم
أخرجناكم» ٤٢١
«علي رسلك يا أبا بكر» ٥٩١
«علمت أنكم تكفوني، ولكن أكره أن
أتميز...» ٦٣٧
«عينان لا تمسها النار: عين بكت من خشية
الله...» ٨٦

[المعرف بالألف واللام]

«العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم
يورثوا...» ٦٣٢
«العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا
والآخرة؟...» ٤٣٠
«العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول
إلا...» ٦٤٣

[الغين]

«غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة، قاتل
في...» ٥٦٢
«غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات،
أخلفهم...» ٢٠٥
«غمسه يده في العدو حاسراً...» ١٤٢
«غبروا من شعره، ولا تقربوه سواداً...» ٤٤٩

[الفاء]

«فأجزه لي» ٣٣٧
«فاخت في أفواههن التراب» ٤٣١
«فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها فقد
أغضبني...» ٦٢٨
«فأكثرُوا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت...» ٢٢
«فأما البقر فأناس من أصحابي يقتلون...» ١٨٨
«فإن لم يكن في سنة رسول الله؟» ٥٥٩
«فإن لم يكن في كتاب الله؟» ٥٥٩
«فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك...» ٥٥٩
«فأنت وذاك» ٢٨٤
«فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام
كحرمة...» ٥٧٨
«فإن ذلك أفضل» ٣٤
«فإنك أتبه ومطوف به» ٣٣٥
«فإنك من أهلها» ١٤١
«فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» ٢٨
«فأين المال الذي دفنته أنت وأم
الفضل؟» ١٦٠
«فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان
صاعاً...» ١٠٩
«فقهاوا أحكام في دينه، وعلموه القرآن،
وأطلقوا...» ٦٧٠، ١٦٣
«فكيف لك بلا إله إلا الله؟» ٣٧٣
«فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً
يقتل أصحابه؟» ٢٥٥
«فلله الحمد» ٦٤
«فلما وجدوا طيب مأكلكم ومشرهم
ومقبلهم...» ٨٧
«فما بال سيف في عنقك؟» ١٦٣
«فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟» ٥٥٣
«فما جاء بك يا عمير؟» ٦٦٩، ١٦٣

- «قم يا عبيدة بن الحارث وقم يا حمزة وقم يا علي» ١٣٨
 «قم يا فلان فأنت خالداً فقل له يرفع» ٤٤٥
 «قولوا: الله أعلى وأجل» ٢٠٩
 «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» ٢٠٩
 «قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه...» ٣٢٧
 «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» ١٧٣، ١٤١
 «قوموا فانحروا ثم احلقوا» ٣٣٧

[المعرف بالآلف واللام]

- «القوم ما بين التسعمائة والآلف» ١٣٢

[الكاف]

- «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان...» ٥٥٢
 «كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون...» ٦٣
 «كان النبي ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار...» ٢٠٥
 «كان النبي يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه...» ٦٣٣
 «كان ذلك في الرجال لا في النساء» ٣٤٩
 «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود...» ٦٤٩
 «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وكان أشجع الناس...» ٦٤٢
 «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع...» ٢٥٨
 «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها...» ٦٥٤
 «كان رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين لا يكره أحداً...» ٩٦
 «كان رسول الله ﷺ حين قدم المدينة إنما...» ٦٤

- «فمن منهم من أشرف قريش؟» ١٣٢
 «فهل لك في خير من ذلك؟» ٢٥٤
 «فهلأ شققت عن قلبه فنظرت إليه؟» ٣٧٣
 «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك...» ٦٣٢
 «في الرفيق الأعلى» ٥٩٣
 «في كل ذات كبد رطبة أجر» ٦١٨
 «في كل كبد رطبة أجر» ٦٤٠

[المعرف بالآلف واللام]

- «الفار من الله ورسوله؟» ٤٩٣
 «الفرع، الفرع» ٣٦٨

[القاف]

- «قاتل بهذا يا عكاشة» ١٧٧
 «قاتلهم الله لقد علموا ما استقسموا بها قط» ٤٤٦
 «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ» ٤٤٥، ٤٦٠
 «قد أذنت لخطيبكم فليقل» ٥٤٣
 «قد أمتك، فاذهب حيث شئت...» ٣٢٤
 «قد رأى هذا ذعراً» ٣٤١
 «قد زوجتكها، فابعت إليها بها...» ١٧٩
 «قد سبقك بذلك الوحي» ٦٥
 «قد علمت الذي قلت...» ٤٤٩
 «قد عفوت عنك، وقد أحسن الله إليك...» ٤٥٣
 «قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين» ٤٤
 «قد نهيتك عن حب يهود» ٥٣٣
 «قل» ٣٩٧
 «قل: نعم هو بيننا وبينك موعد» ٢٠٩
 «قم فأجب الرجل في خطبته» ٥٤٣
 «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» ٥٤٩
 «قم يا بلال فناد بالصلاة» ٦٣
 «قم يا حسان فأجب الرجل فيها قال...» ٥٤٣

«كان رسول الله ﷺ يغير إذا طلع الفجر،

كان...»

٦٦

«كان عمل رسول الله ديمة...»

٦٣٣

«كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر

حتى...»

٦٣٣

«كان يكون في مهنة أهله»

٦٢٦

«كأنني قد دعيت فأجبت، إني قد تركت

فيكم...»

٥٨١

«كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله

فيه...»

٤٤٣

«كذبت لا يدخلها، إنه شهد بداراً

والحدبية...»

١٧٠

«كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله

وعرضه»

٦١٧

«كل مسكر حرام»

٥٦٠

«كل مسكر خمر، وكل خمر حرام»

٣٥٥

«كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام»

٣٥٥

«كلا إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله

وإليك...»

٤٦٢

«كم القوم؟»

١٣٢

«كم ينحرون كل يوم؟»

١٣٢

«كما أنت يا طلحة»

٢٠١

«كما تدين تدان»

٦١٨

«كن أبا خيثمة»

٥٠١

«كن أبا ذر»

٥٠١

«كونوا على مشاعركم فإنكم على إرث من

إرث...»

٥٦٧

«كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته

يوم...»

٢٥٧

«كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟»

٥٥٩

«كيف تيكم؟»

٢٦٠، ٢٥٩

«كيف يتحدث الناس أن محمداً يقتل

أصحابه؟»

٦٤٧

٢٠٠ «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم؟»

[اللام]

٥٤٩ «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين»

«لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله

عليه...»

٤١٦

«لأنهم لم يشكوا»

٣٣٧

«لا» ٥٥٠، ٤٧٧، ٥٤

«لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول...»

١٦١

«لا أشرب إلا مما يشرب منه الناس»

٦٣٧

«لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوي

بطونهم...»

٦٣٨

«لا، أكره أن تتحدث العرب أن محمداً...»

٥٠٥

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق

وعده...»

٤٤٧

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له

الملك...»

٥٧٠

«لا أمثل فيمثل الله بي وإن كنت نبياً» ١٥٩، ١٧٥

١٧٥

«لا أمثل فيمثل الله بي ولو كنت نبياً»

٦٠٧

«لا، أولئك عتقاء الله»

٤٧٦

«لا، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم

من...»

٦٠٦

«لا، بل نحسن صحبته ما دام بيننا»

٤٤

«لا تبغضه فإن له في الخمس أكثر من

ذلك...»

٥٦٠

«لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا لي...»

٤٣٠

«لا تحملوا حتى أمركم، وإن اكتنفكم

القوم...»

١٤٠

«لا تخبري بذلك أحداً»

٦٢٥

«لا تختلفا»

٤٣٢

«لا تخرجوا معي إلا رغبة في الجهاد، أما...»

٤١٤

«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا

أنفسهم...»

٥٠٢

٦٣٦ « لا، ولكن عليك بالصوم »
 ٥١٥ « لا، ولكن لا يقربك »
 « لا ولكنني أكرهه، فإني أناجي من لا
 ٢٦ تناجي »
 ٥٩٤، ٤٢١ « لا يبقى بجزيرة العرب دينان »
 « لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي
 ٦٣٨ شيئاً... »
 « لا يخرجن معنا إلا من حضر معنا
 ٢٢٨ القتال »
 « لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة
 ٢٤٧ فيسترجع... »
 ١٩٠ « لا يقتلن أحد حتى أمره بالقتال »
 « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ١٦١
 « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » ٦١٧، ٦١٨
 « لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من
 ٥٣٩ أهل بيتي... »
 « لا ينبغي لهم أن يعلنوا » ١٩٨
 « لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك
 ٥٦٨، ٣٧٦، ٣١٧ لبيك... »
 « لبيك بعمره وحجة » ٥٦٨
 « لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعل... » ٥٦٧
 « لتزخرن بها - أي المساجد - كما
 ٣٤ زخرت... »
 « لذلك غسلته الملائكة » ٢١٤
 « لعلك جئت تخطب فاطمة؟ » ١٧٩
 « لعلك يا عدي إغايبتك من دخول... » ٥٤٩
 « لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا
 ٦٠٠ قبور... »
 « لعن الله من اتخذ الحيوان غرضاً » ٦٤٠
 « لقد أشرت بالرأي » ١٣٤
 « لقد أضاء لي من الأولى قصور الحيرة ومدائن
 ٢٧٩ كسرى... »

« لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن
 ٦٢٢ الله... »
 « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد... » ٣٤
 « لا تعجلي بخروج حتى تجدي من
 ٤٩٣ قومك... »
 « لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم
 ٤٣٠ طعاماً... »
 « لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا... » ٦٢٩
 « لا تفتحها إلا بعد يومين، فإذا فتحته
 ١١٩ فامض... »
 « لا تقولوا الراهب، بل قولوا: الفاسق... » ٥٠٧
 « لا تقولوا الراهب ولكن قولوا:
 ٤١٧ الفاسق... »
 « لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم
 ٦٥٦ بعضاً »
 « لا حاجة لنا فيهم، إنا لا نستعين
 ١٨٩ بكافر... »
 « لا حاجة لي به » ٦٢٣
 « لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فبالغ
 ٤٣٩ في... »
 « لا حاجة لي فيه، اسقوني مما يشرب
 ٥٧٧ الناس »
 « لا حرج، لا حرج » ٥٧٨
 « لا نبرح حتى نناجز القوم » ٣٣١
 « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا... » ١٢١
 « لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد
 ٤٥٧، ٨٢، ٤٠ ونية... »
 « لا والله لا تذرون له درهماً » ١٦١
 « لا والله ما مست يد رسول الله يد امرأة
 ٤٥٨ قط... »
 « لا والله يا أبا موهبة لقد اخترت لقاء ربي
 ٥٨٨ والجنة »
 « لا، ولكن عليك بالصوم » ٦٣٦

- «لقد أنزلت علي الليلة سورة هي أحب ...» ٣٣٨
 «لقد بقي من أجله ثلاث» ٦٤٧
 «لقد حكمت فيهم ياسعد بحكم الله ...»
 ٤٠٩، ٣١٩
 «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول
 الله ...» ١٤٣
 «لقد سهل لكم من أمركم» ٣٣٢
 «لقد شققت علي يا رجل، أنا أنتظر
 هنا ...» ٦٤٥
 «لقد عذت بعظيم، إلحقي بأهلك» ٤٨٨
 «لقد قتلت قتيلين لأدينيها» ٣٩٩، ٢٤٠
 «لقد نعت إلي نفسي» ٥٨٧
 «لقد نعت إلي نفسي» ٥٨٧
 «لقد هممت أن أرسل إلى أبي وابنه
 فأعهد» ٥٩٠
 «لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم ...» ٥٥٠
 «للذي عرض علي أصحابك من أخذهم
 الفداء ...» ١٦٦
 «لِمَ؟» ٦٤٨
 «لم تراعوا، لم تراعوا» ٦٤٢
 «لم يكن رسول الله فاحشاً ولا متفحشاً ...» ٦٥٤
 «لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول
 الله ...» ٢٧٨
 «لما نزلت هذه الآية ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾
 كان ...» ١٠٧
 «لن أصاب بمثلك أبداً، وما وقفت قط
 موقفاً ...» ٢٠٧
 «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما ...» ٥٧١
 «لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر
 له ...» ٥٣٤
 «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت
 يدها» ٦٦٠
 «لو أنا هبطنا عسفان لرأت قريش ...» ٣٢٢
 «لو بلغني هذا قبل قتله لمنت عليه» ١٧٥، ١٥٦

«لو جاني لاستغفرت له، وإذ قد فعل

- هذا ...» ٤٠٧
 «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها
 ولن ...» ٥٤٥
 «لو سألتني قطعة من الأرض ما فعلت،
 باد ...» ٣٦٤
 «لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة ...» ٢٠١
 «لو قلم له يدع هذه الصفرة» ٦٥٤
 «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى
 ثالثاً ...» ٦١٥
 «لو كان لي يا عثمان عشرة لزوجتك ...» ٢٣١
 «لو كنت أمرت بالسير لما استشرت» ٥٠٤
 «لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت
 الداعي» ٦٥٨
 «لوم يبرز إليه أحد لبرزت أنا إليه» ١٩٢
 «لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وإن
 آخرنا ...» ٥٨٢
 «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ...» ٥٥
 «لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك
 أهل» ٤٨٧
 «ليس بأحق بي منكم، له ولأصحابه
 هجرة ...» ٣٧٢
 «ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك ...» ٥٥٠
 «ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم
 صغارنا» ٦٦٤
 «ليس منكم ولكنه منا للحلف ...» ١٧٧
 «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء
 الله» ٤٢٩
 «ليشربن أناس من أمتي الخمر، يسمونها بغير
 اسمها» ٣٥٥

[الميم]

- «ما أدري بأبيها أنا أسر: بفتح خير ...» ٣٧١

«ما زالت أكلة خبير تعاودني حتى قطعت
 ٤١٨ أبهري»
 ٦٥٤ «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده...»
 ١٣٢ «ما عدتهم؟»
 ٤٩٦ «ما على عثمان ما عمل بعد اليوم»
 ٢٦٤ «ما علمت عليه إلا خيراً»
 ٢١٣ «ما عليكم أن لا تمنعوه، لعل الله...»
 «ما عندي شيء، ولكن ابتع علي،
 ٦٥٠ فإذا...»
 ٥١٣ «ما فعل كعب؟»
 ١٧٩ «ما فعلت درع سلحتكها؟»
 «ما قام رسول الله ﷺ في مقام قط ففارقه
 ٢٠٨ حتى...»
 ٥٩٩ «ما قبض نبي إلا ودفن حيث قبض»
 ٤٨٠ «ما كان لي ولبي عبد المطلب فهو لكم»
 «ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو
 ٦١٧ باطل»
 ٦٢٩، ٤٧٢ «ما كانت هذه لتقاتل»
 ٣٨٥ «مألك يا أبا أيوب؟»
 ٥٤٥ «ما لي أرى ألوانكم تغيرت؟»
 ١٠٨ «ما لي أراك قد جهدت جهداً شديداً؟...»
 ٢١٣ «ما لي أراك مهتماً؟»
 «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه،
 ٦١٧ فإن...»
 ١٩ «ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟»
 ٦٢٣، ٦٠٨ «ما يبكيك يا عمر؟»
 ١٤١ «ما يحملك على قول: بخ، بخ؟»
 ٦٥٢ «ما يسرني أن لي أحداً ذهباً يبيت عندي...»
 «ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن
 ١٨٩ يضعها»
 ٦٥٢ «مات ﷺ ودعه مرهونة عند يهودي...»
 ١٤٨ «متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك...»

٣٥٥ «ما أسكر الفرق منه، فملء الكف منه حرام»
 «ما التفت يوم أحد يميناً وشمالاً إلا
 ٢٠٣ وأراها...»
 «ما الخمس التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا
 ٥٥٣ بها؟»
 ٥١١ «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً»
 ١٢٠ «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»
 ٥٥٣ «ما أنتم؟»
 «ما أنتم بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر
 ٦٣٧، ١٢٤ منكما»
 ١٨ «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا»
 «ما بال أقوام يقولون كذا، أو يفعلون
 ٦٥٤ كذا...»
 «ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت
 ٦٣٤ فيه...»
 «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض
 ٣٤ الجنة»
 ٣٤ «ما بين قبري...»
 ١٥٦ «ما ترى يا ابن الخطاب؟»
 ١٧٩ «ما جاء بك، ألك حاجة؟»
 ٤٨٣ «ما حديث بلغني عنكم؟»
 «ما حملك على الامتناع من النزول
 ٣٨٤ أولاً؟»
 ٣٩١ «ما حملك على ما صنعت؟»
 ٤١٨ «ما حملك على هذا؟»
 ٣٢٧ «ما خلأت القصواء، وما هو بخلق لها»
 ٥١٣ «ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهراً؟»
 «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا
 ٦٥٥ اختار...»
 ٤٤٩ «ماذا كنت تحدث به نفسك؟»
 «ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم
 ٥٥٠ جاني...»
 ٤٧٧ «ما رأيك في المقام عليهم...»

- «من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة» ٢٧٠
- «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها...» ٦١٨
- «من قعدت منكن في بيتها فإنها تدرك...» ٣١٢
- «من كان ظهره حاضراً فليركب معنا» ١٢٣
- «من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه...» ٥٨١
- «من لا يرحم لا يرحم» ٦١٨
- «من لكعب بن الأشرف فإنه أذى الله ورسوله؟» ٣٩٧
- «من محمد رسول الله إلى الأقبال العباهلة...» ٦١٦
- «من مس دمي دمه لم تصبه النار» ٢٠٠
- «من هؤلاء؟» ٥١١
- «من يأخذ هذا السيف بحقه؟» ١٩١
- «من يحفظ لي ما بين لحييه وما بين رجليه...» ٦١٧
- «من يمنعك مني؟» ١٨٤، ٦٧٠
- «منا خير فارس في العرب» ١٧٧
- «منزلنا غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة...» ٤٤٤
- [المعرف بالألف واللام]**
- «المال مال الله وأنا عبده» ٦٤٨
- «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً...» ٦١٧، ٦٣١
- «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» ٤١
- «المراء مع رحله» ٢٣
- «المستشار مؤتمن» ٦١٥
- «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله» ٨٢
- «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده...» ٦١٧

- «مثله جهل الإسلام؟ ولو جعل نكايته...» ٤٢٤
- «محمد، فأخرج» ٦٦٧
- «مخيريق خير يهود» ٤٧
- «مرحباً بابنتي» ٦٢٨
- «مرحباً بمن جاءنا مسلماً مهاجراً» ٤٥٣
- «مروا أبا بكر فليصل بالناس» ٥٨٩
- «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي...» ٤٨٣
- «من أحب أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى هذا» ٤٣
- «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» ٦١٧
- «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه عليه» ٢٧، ٦٦٤
- «من أفضل المسلمين» ١٧٠
- «من الرجل؟» ٥٤٩
- «من أم قوماً فليخفف فإن فيهم الضعيف» ٥٣٠
- «من أنتم؟» ٥٥٦
- «من بنى لله مسجداً بنى الله له مثله في الجنة» ٣٣
- «من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى...» ٢٠
- «من تغامركن بها، والله إنها لصادقة...» ٣٨٤
- «من جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه» ٦٦٠
- «من جهز جيش العسرة فله الجنة» ٤٩٥
- «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...» ٤٤٢، ٤٦٠
- «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى...» ٤٦٠
- «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم...» ٣٢٧
- «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم...» ٢٨٧
- «من رجل ينظر لي سعد بن الربيع...» ٢١٢

- ٦١٥ «الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة»
«الناس معادن خيارهم في الجاهلية»
٦١٩ «خيارهم...»

[الهاء]

- «هؤلاء المنافقون يوم القيامة، وهل تدرون ما
٥٠٥ أرادوا؟»
٣٢٩ «هذا ابن أبي قحافة»
٣٣٠ «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة»
٢٥٦ «هذا الذي أوفى الله بأذنه»
٥٤٩ «هذا أمين هذه الأمة»
٣٢٨ «هذا رجل غادر»
«هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً
٢٤٠ متخوفاً»
٥٧ «هذا كتاب من محمد النبي الأمي...»
٥٤٩ «هذا لا يحل لك في دينك»
«هذا ما صالح عليه محمد رسول الله
٣٣٥ سهيل بن عمرو»
«هذا مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر
٤٤٦ ووفاء»
١٢٣ «هذه غير قریش فاخرجوا إليها لعل...»
١٣٢ «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»
٤٩٦ «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟»
٥٠٥ «هل عرفتم القوم؟»
٥٣٢ «هل منكم أحد لم يقارف الليلة؟»
«هلاً تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا
٤٤٨ آتية»
«هلك المنتطمعون»
٦٣٤ «هما ربحانتي من الدنيا»
٦٢٧، ٢٤٥ «هن حولي كما ترى يسألني النفقة»
٦٢١ «هو مسجدكم هذا»
١٩ «هو هذا»
١٩ «هوَن عليك فإني لست بملك، إنما أنا...»
٦٧١، ٦٥٧

- «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسمى ويرد
٦١٥ عليهم...»
«المسلمون عند شروطهم، والصلح جائز
٦١٧ بين المسلمين...»

[النون]

- ٥٧٧ «نحرت ههنا ومنى كلها منحرة»
١٠٧ «نحن أولى بموسى منكم»
١٣١ «نحن من ماء»
«نزلت هذه السورة ﴿إذا جاء نصر الله...﴾»
٥٧٩ «في أوسط...»
«نساؤكم وأبنائكم أحب إليكم أم
٤٧٩ أموالكم؟...»
«نصرت يا عمرو بن سالم...»
٤٣٦ «نعم...»
١٦٠، ١٥٥، ١٤١، ١٣١
٤٩٩، ٤٨٦، ٤٥٢، ٤٠٦
«نعم أصيبوا هذا اليوم»
٤٣٠ «نعم، اللهم استر عوراتنا وآمن
٢٨٧ روعاتنا»
«نعم، أنا ضامن أن قد هدك الله إلى...»
٥٤٥ «نعم، حبسهم العذر»
٥٢٣ «نعت إلي نفسي»
٤٥٦ «نفركم على ذلك ما شئنا»
٤١٧ «نفركم ما شئنا»
٤٢١ «نهي النبي عن لحوم الحمر الأهلية يوم
٣٨١ خيبر»
«نهي رسول الله ﷺ عن المتعة عام خيبر...»
٣٨٢ «نهي رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من
٣٨١ السباع...»

[المعرف بالألف واللام]

- ١٥٥ «النار»
٦١٦ «الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم»
٦١٤ «الناس سواسية كأسنان المشط»

«هي خير بناتي، أصيبت في»

٤٩٠

[الواو]

«وآخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر

وعمر...»

٥٢

«واتقوا الله في عاجل أمركم وأجله، في

السرى...»

٢٢

«وإذا أنا دعوت فأتوا»

٥٤٧

«واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان...»

٥٧٣

«والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا

والحجر...»

٥٧٢

«والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل

الله...»

٢١٥

«والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم

اليوم...»

١٤١

«والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في

سبيل الله...»

٨٦

«والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على

المسلمين...»

٨٦

«والله إنها للحطة التي عرضت على بني

إسرائيل...»

٣٢٧

«والله إني لرسول الله حقاً وإن

كذبتموني...»

٣٣٥

«والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت

الله...»

٣٣٦

«والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم...»

٤٨٤

«والله ليؤمن هذا الأمر حتى يسير...»

١٢، ٥

«والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني

والمقصرين...»

٦٤٣

«والولد للفراش وللعاهر الحجر، ومن

ادعى...»

٥٧٤

«وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما

داموا...»

٥٨

«وأن على اليهود نفقتهم، وعلى

المسلمين...»

٥٩

«وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله

به...»

١٣٨

«وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم...»

٥٧

«وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم...»

٥٧٢

«وإن قوماً من قبلكم اتخذوا قبور...»

٥٩١

«وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة

والسقاية...»

٥٧٢

«وإن من الشعر لحكمة»

٦١٨

«وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم...»

٥١١

«وأنا لا أرى ذلك»

٤٧٧

«وأنا والله أحبكم»

٢٥

«وأنت آمن»

٣٢٤

«وأنتم اليوم لله»

٥٥٦

«وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟»

٥٧٤

«وأنتم تقولان بمثل ما يقول؟»

٥٨٣

«وإنك لهند بنت عتبة؟»

٤٥٨

«وأنه لا يجير مشرك مألأً لفريش...»

٥٨

«وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه

الصحيفة...»

٥٨

«وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من

حدث...»

٥٩

«وأنه من تبعنا من يهود فإن له...»

٥٨

«وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى

به...»

٢٢

«وأيُّ الله لو أن فاطمة بنت محمد

سرق...»

٦٣٧

«وبعثت إلى الخلق كافة»

١٥

«وبعثت إلى كل أحر وأمود»

١٥

«وجدناه بحراً»

٦١٨

«وأخرج الناس حين قدما المدينة...»

٢٥

«وخرج ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير...» ٦٥١
«وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمه» ٦٥٧
«وعلي جمع الخطب» ٦٣٧
«وقفت ههنا وعرفات كلها موقف» ٥٧٤
«ولا يسلمه» ٨٢
«ولئن أظهرني الله على قریش في موطن...» ٢٠٧
«ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم» ٤٩٠
«ولقد رفعوا إلي في الجنة فيما يرى النائم...» ٤٢٩
«ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي...» ٥٤٨
«وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟» ٥٥٣
«وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية؟» ٥٥٣
«وما انتقم لنفسه قط إلا أن ينتهك شيء...» ٦٤٦
«وما حلك على هذا يا سواد؟» ١٣٩
«وما عليك لومت قبلي، فقتت عليك...» ٥٨٨
«وما يغني عنه قميصي، إني لأرجو أن...» ٥٣٤
«وما يمنعي وإنما أنزل القرآن بلسان...» ٦١٢
«ومن وافدك؟» ٤٩٣
«وهذه لعثمان» ٣٣١
«وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟» ٤٤٤
«وهل عندك من شيء تستحلها به؟» ١٧٩
«وهل يكب الناس في النار إلا حصائد...» ٦١٧
«ويجبر على المسلمين أديانهم» ٤٣٧
«ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟...» ٤٤١
«ويحك أو هبلت، أو جنة واحدة هي؟» ١٦٩
«ويحك غيب وجهك عني فلا أرينك...» ٢١١
«ويحك فمن يعدل إن لم أعدل؟!...» ٦٦٠

«ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم...» ٤٤١
«ويحك يا أنجشة رويدك سروقك بالقوارير» ٦٢٥
«ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي» ٦٤٨
«ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد» ٣٤١
«ويلك ومن يعدل إن لم أعدل؟! لقد...» ٤٨٣
«يا أبا أمية أعرنا سلاحك نلق به عدونا...» ٤٦٨
«يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم عهداً...» ٣٤٠
«يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل...» ٣٣٧
«يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟» ١٥٠
«يا أبا حفص أضر ب وجه عم رسول الله بالسيف؟» ١٤٧
«يا ابن سلام اخرج عليهم» ٢٨
«يا ابن عوف إنها رحمة» ٥٨٢، ٦٤٣
«يا أسامة فكيف لك بلا إله إلا الله؟» ٣٧٣
«يا أسماء إن المرأة إذا بلغت الحيض...» ٣١٣
«يا أهل البلد صلوا أربعاً فلنا سفر» ٤٦٣
«يا أيها الناس إن الله قد حرم مكة يوم خلق...» ٤٥٥
«يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا...» ٣١٧
«يا بريدة أتبغض علياً؟» ٥٦٠
«يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا» ٣٢
«يا جد هبل لك العام في جلاد بني الأصفر؟» ٤٩٨
«يا حاطب ما هذا؟» ٤٣٨
«يا حذيفة، اذهب فادخل القوم فانظر...» ٢٨٧
«يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن...» ٤٨١، ٦٥٠

- «يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة...» ٤٤٧
- «يا معشر قريش ما ترون أي فاعل بكم؟» ٤٤٨
- «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه...» ٢٧٠
- «يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش...» ٣٩٤
- «يا ملائكتي هؤلاء عبادي جاؤوني شعثاً...» ٥٧٥
- «يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو...» ٣٢٦
- «يا بئس الله ذلك والمؤمنون» ٥٨٩
- «يا بئس الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبا بكر» ٥٩٠
- «يأتي زمان على امتي يتباهون بالمساجد...» ٣٤
- «يأتاكم بقية أبناء الملوك» ٥٥٢
- «يجزيك الثلث» ٤٠٨
- «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده...» ٥٠١
- «يرحم الله المحلقين» ٣٣٧
- «يسرا ولا تعسرا، ويشرا ولا تنفرا...» ٥٥٩
- «يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذي يمن...» ٥٥٦
- «يقول ابن آدم: مالي مالي، وإنما لك...» ٦١٥
- «يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه...» ٤٠
- «يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب...» ٥٤٧

[المعرف بالألف واللام]

- «اليد العليا خير من اليد السفلى...» ٦١٥

- «يا رب إنك قادر على أن تثيب المظلوم...» ٥٧٦
- «يا زيد تعلم لي كتاب يهود، فإني والله...» ٢٤٩
- «يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟» ٢٦٣
- «يا سلمة ملكت فأسجح، إنهم الآن...» ٣٦٨
- «يا سودة أعل الله ورسوله تحرضين؟...» ١٥٤
- «يا عائشة أما الله عز وجل فقد برك» ٢٦٢
- «يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً...» ٦٢٢
- «يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا...» ٢٦٧
- «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند...» ٤٤٢
- «يا عدي أسلم تسلم» ٥٤٩
- «يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم...» ٤٦٥
- «يا علي إذا جلس إليك الخصمان...» ٥٦١
- «يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا...» ٦٢٤، ٦٠٨
- «يا عمر تراني رضية وتأبى؟» ٣٤٢
- «يا عمرو وصلت بأصحابك وأنت جنب؟» ٤٣٣
- «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا...» ٥٥٩
- «يا معشر الأنصار ألم أتكم ضللاً فهداكم الله...» ٤٨٣
- «يا معشر المسلمين أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم...» ٣٩٠
- «يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل...» ٢٦٠
- «يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون...» ٥٩١
- «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله، فوالله...» ٢٨
- «يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل...» ٤٥٥

[انتهى فهرس الأحاديث]

٣ - فهرس الأعلام (*)

(أ)

آدم عليه السلام: ٢٩٤، ٤٤٧، ٥٧٤.

الآلوسي: ٣١٢.

آمنة بنت وهب: ١٨٧.

أبان بن سعيد بن العاصي: ٣٣١.

أبرام = إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم عليه السلام: ٣٥، ١٠٣، ١٥٧، ١٧٦،

٣٠١، ٣١٧، ٣١٨، ٤٤٦، ٤٦٦، ٤٩٠،

٥٦٧، ٥٧٠، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦١٨، ٦٥٨،

٦٥٩.

إبراهيم بن محمد رسول الله: ١٨١، ٣٦٢، ٤٩٠،

٤٩١، ٥٨٢، ٦٢٧، ٦٤٣.

إبليس: ١٢٧، ١٣٣.

إبن أبي = عبد الله بن أبي.

إبي بن خلف: ١٩٩.

أبي بن كعب: ٥٠، ١٨٧.

إبن الأثير = محمد بن محمد بن عبد الكريم.

أحمد بن الحسين = البيهقي: ١٧٩، ٢٠١، ٢١٣،

٢١٧، ٢٥٢، ٣٧٧، ٤٢٣، ٥٠٥، ٥٤٤،

٥٥٥، ٥٦٠، ٥٧٩.

أحمد بن حنبل: ٢٥، ٣٤، ٥٠، ٨٧، ١٠٨،

١١١، ١٤٣، ١٦٤، ٢٤٧، ٢٤٩، ٣٠٨،

٣٣٨، ٣٥٤، ٤٣٠، ٤٥٩، ٤٨٩، ٥٠٢،

٥٠٦، ٥٢٩، ٥٣١، ٥٣٩، ٥٦١، ٥٩٠،

٦١٧، ٦١٩، ٦٥٨.

أحمد بن عبد الحليم = ابن تيمية: ٥٠.

أحمد بن عبد الله = أبو نعيم: ١٨.

أحمد بن علي بن حجر = ابن حجر العسقلاني: ٢٥،

٥٠، ٥٢، ٦٥، ١١١، ٢٤٨، ٢٦٤، ٢٩٧،

٢٩٨، ٣٥٢، ٣٦٧، ٤٥١، ٤٥٣، ٤٦٩،

٤٩٦، ٥٠٧، ٥٣٣، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٦٤،

٥٦٥.

أحمد بن علي بن شعيب = النسائي: ٢٧، ١١١،

٣٣٨، ٥٣٤، ٥٣٧، ٥٥٥، ٥٨١، ٦١٣،

٦٢٤.

أحمد بن علي بن المثنى = أبو يعلى: ٦١٣.

أحمد بن عمرو = البزار: ٣١٢، ٣٤٢، ٥٧٩،

٦٣٩.

أحمد بن محمد = الثعلبي: ٢٩٨.

أحمد بن موسى = ابن مردويه: ٦٢٤.

أحمد بن يحيى = البلاذري: ٩٨.

الأحق المطاع = عينة بن حصن.

(*) استقطت في هذا الفهرس: أبو، أم، ابن، ابن أبي، ابن أم، أخت، بنت.

الأخنس بن شريق = أبو ثعلبة: ١٢٨.

أربد بن قيس: ٥٥٠، ٥٥١.

أسامة بن زيد: ٣٦، ١٩٠، ٢٦٠، ٣٧٣، ٣٧٤.

٤٤٤، ٤٧٠، ٥٣٢، ٥٧٦، ٥٨٥، ٥٨٦.

٥٩٠، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٨، ٦٠٠.

أبو الأسباط = يعقوب عليه السلام.

ابن إسحاق = محمد بن إسحاق.

إسحاق بن إبراهيم عليها السلام: ٣٩٢.

أبو إسحاق السبيعي: ٥٦٢.

أسد بن سعة: ٢٨١.

أسد قريش = نوفل بن خويلد.

أسد الله = حمزة بن عبد المطلب.

إسرائيل ولفنسون: ٢٧٦.

أسعد بن زرارة = أبو أمامة: ٢١، ٢٣، ٣٠، ٧١.

أسماء بنت أبي بكر = ذات النطاقين: ٣٦، ٦١.

٣١٣، ٧١.

أسماء بنت عميس: ٣٧١، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٧.

٤٣٠، ٤٣١، ٥٣٢.

إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام: ٣١٧، ٣٩٢.

٤٤٦، ٦١٨.

إسماعيل بن عمر بن كثير = ابن كثير: ٦٥، ٦٨.

١٥٢، ١٦٩، ٢١٦، ٢٩٨، ٣١٥، ٣٢١.

٣٦٧، ٤٨٧، ٥٣٨، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٨١.

الأسود بن عبد الأسد المخزومي: ١٣٨.

الأسود بن عبد يغوث: ١٣٠.

الأسود العنسي: ٥٤٥، ٥٦١، ٥٨٤.

الأسود بن مسعود الثقفي: ٥٣١.

الأسود بن المطلب بن أسد: ١٥٨.

أسيد (والد عتاب): ٤٤٩.

أسيد بن حضير: ١٨٩، ١٩٧، ٢٥٥، ٢٦١.

٣٢٤، ٤٦٨، ٤٩٩، ٥٩٥.

أبو أسيد الساعدي: ٢٤.

أسيد بن سعة: ٢٨١.

أسيد بن ظهير: ٢٠.

الأشج = المنذر بن عائد.

الأشعث بن قيس: ٥٥٣.

أصحمة بن أبجر (وانظر النجاشي): ٥٣٢.

أفلح (مولى أبي أيوب الأنصاري): ٢٧.

الأقرع بن حابس: ٤٨٠، ٤٨٢، ٥٤٢، ٥٤٣.

٥٦٠، ٦٢٧، ٦٤٩.

أكيدر دومة: ٥٠٣، ٥٠٤.

إلياس: ٥٢٨.

أبو أمامة = أسعد بن زرارة.

أمامة بنت أبي العاص بن الربيع: ٤٩٠، ٦٢٧.

امراة العزيز: ٥٨٩.

امراة لوط: ٢٦٥.

امراة نوح: ٢٦٥.

امراة هلال بن أمية: ٥١٥.

أمير بصرى = حاكم بصرى.

إميل درمنغم = درمنغم.

أميمة بنت عبد المطلب: ٢١٢، ٢٩٤، ٢٩٧.

ابنة أبي أمية = هند بنت أبي أمية.

أمية بن خلف: ١١٧، ١٢٦، ١٣٢، ١٤٩.

١٥٠.

أنجشة: ٦٢٥.

أنس بن فضالة: ١٨٧.

أنس بن مالك: ٢٤، ٢٥، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٤.

٥٤، ٥٥، ٦٦، ١٦٠، ١٦٨، ١٦٩، ١٩٦.

٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١٢، ٢٣٩، ٢٩٧.

٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٢، ٣٣٨، ٣٦٣.

٣٨١، ٥٢٣، ٥٣٩، ٦١١، ٦١٢، ٦٣٥.

٦٤٢، ٦٤٩، ٦٥٤، ٦٥٦.

أنس بن النضر: ١٩٦، ١٩٧، ٢١٢.

أنسة (مولى النبي) = أبو مسروح: ١٢٤.

ابن أم أثمار = سباع بن عبد العزى.

أوس بن خولي الأنصاري: ٥٩٨، ٥٩٩.

أوس بن قيطي: ٤٤، ٢٩٠.

إياس بن ربيعة بن الحارث = حارثة: ٥٧٢.
أم أيمن = بركة الحبشية.

أيمن بن أم أيمن = أيمن بن عبيد.

أيمن بن أم عبيد (= ابن أم أيمن): ٤٧٠، ٤٧٣.
أبو أيوب الأنصاري = خالد بن زيد.

أم أيوب (زوج أبي أيوب الأنصاري): ٢٦، ٢٦٩.

(ب)

بإذان: ٣٦١، ٥٨٤.

بجير بن زهير بن أبي سلمى: ٤٨٦.
البخاري = محمد بن إسماعيل.

أبو البخري = العاص بن هشام.
بختنصر البابلي: ٤٥.

بديل بن ورقاء الخزاعي: ٣٢٨، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢.

أبو براء = عامر بن مالك.

البراء بن عازب: ١٢٤، ١٢٥، ١٩٠، ٢٧٨، ٣٣٨، ٦١٠.

أبو بردة بن قيس الأشعري (أخو أبي موسى): ٣٧١.

أبو بردة بن أبي موسى الأشعري: ٣٠٤.

أبو برزة الأسلمي: ٤٥٢.

بركة بنت ثعلبة بن حصن = بركة الحبشية أم أيمن: ٤٧٣، ٣٦.

بركة الحبشية = بركة بنت ثعلبة.

برة بنت عبد المطلب: ٢٤٥.

بريدة بن الحصيب الأسلمي: ٥٦٠، ٥٦٢، ٥٦٣.
بريرة: ٢٦٠.

البيزار = أحمد بن عمرو.

بشر بن البراء بن معرور: ٤١٨.

أم بشر بن البراء بن معرور: ١٠٤.

بشر بن سفيان الكعبي: ٣٢٦.

بشير بن سعد الأنصاري: ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٦.

أبو بصير = عروة بن أسيد.

البغوي = الحسين بن مسعود.

أبو بكر الصديق = عبد الله بن عثمان.

بكر بن العلاء القشيري: ٢٩٧.

أبو بكرة = نفيح بن مسروح.

البلاذري = أحمد بن يحيى.

بلال الحبشي: ٣٦، ٣٧، ٤٩، ٥٢، ٦٣، ٦٤.

٦٥، ١١٠، ١٤٩، ٤٤٦، ٤٤٩، ٥٤٢.

٥٥١، ٥٥٦، ٥٧٤، ٦٣٠.

البيهقي = أحمد بن الحسين.

(ت)

الترمذي = محمد بن عيسى.

تميم: ٥٦٦.

تميم الداري: ٥٥٤.

توماس كارليل = كارليل: ٩١، ٩٢.

ابن تيمية = أحمد بن عبد الحلیم.

(ث)

ثابت بن أقرم: ٤٢٨.

ثابت بن قيس بن شماس = خطيب رسول الله:

٢٥٣، ٥٤٣، ٥٤٥.

ثعلب: ٢٨٥.

أبو ثعلبة = الأخنس بن شريق.

ثعلبة بن حاطب (منافق) = ثعلبة بن أبي حاطب:

٥٠٧.

ثعلبة بن حاطب الأنصاري: ٥٠٧.

ثعلبة بن سعة: ٢٨١.

الثعلبي = أحمد بن محمد.

ثمامة بن أثال: ٩٩، ١٠٠، ٣٢١.

ثوية الأسلمية (جارية أبي لهب): ٢٤٥.

(ج)

- أبو جابر = عبد الله بن عمرو بن حرام.
جابر بن سمرة: ٦١٠، ٦١١.
جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام: ١٧٠، ١٨٩،
٢٠١، ٢١٣، ٢١٧، ٢٢٨، ٤١٨، ٥٦٣،
٦٤٥.
الجاحظ = عمرو بن بحر.
أبو الجارود = زياد بن المنذر.
الجارود بن عمرو: ٥٤٤، ٥٤٥.
جبار بن صخر: ٤١٩.
جبريل عليه السلام: ٢٠، ٦١، ١٠٣، ١٠٤،
١٤١، ١٤٦، ١٧٠، ٢٧٩، ٢٩٥، ٣٢٢،
٤٠٦، ٤٧٧، ٥٠٨، ٥٣٩، ٥٨٧، ٦٢٤،
٦٣٩، ٦٤٦، ٦٤٩.
جبلة بن الأيهم: ٣٦٤.
جبير بن مطعم: ١٨٧، ١٩٤.
جحدر (من جذية): ٤٦٤.
الجد بن قيس: ٤٤، ٣٣١، ٤٩٨، ٥٢١، ٥٢٢.
جدامة = الشياء بنت الحارث.
جدعون (أحد الأنبياء عند اليهود): ٣٠١.
جروة بن مازن: ١٩٦.
ابن جريج: ٦٥.
جرير بن عبد الله البجلي: ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٧٤.
ابن جعفر = عبد الله بن جعفر.
جعفر بن أبي طالب: ٥٠، ٣٧١، ٣٧٨، ٣٧٩،
٣٨٦، ٣٨٧، ٤١٨، ٤٢٣، ٤٢٦، ٤٢٧،
٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٥٨٥.
جلاس بن سويد بن الصامت: ٤٣.
جميع بن عمير: ٥٢.
جميلة بنت عبد الله بن أبي: ٢١٤.
جندب بن جنادة = أبو ذر الغفاري: ٢٥٢، ٣٧٠،
٥٠١.
أبو جندل بن سهيل بن عمرو: ٣٣٦، ٣٣٧.

٣٤١، ٣٥٠، ٦٤٥.

- جهجاه بن مسعود الغفاري: ٢٥٤.
أبو جهل = عمرو بن هشام.
أبو جهم بن حذافة: ٣٥٠.
ابن الجوزي = عبد الرحمن بن علي.
جويرة بنت الحارث (أم المؤمنين): ٢٥٣، ٢٥٤،
٣٠٣، ٣٠٧، ٦٢٠.
جيفر بن الجلندي: ٣٦٤.

(ح)

- حابس (والد الأقرع): ٤٨٢.
ابن أبي حاتم = عبد الرحمن بن محمد.
أبو الحارث (أسقف أهل نجران): ٥٤٦.
الحارث بن أوس الأنصاري: ٣٩٧.
الحارث بن حاطب: ١٥٢.
الحارث بن زمعة بن الأسود: ١٥٨.
الحارث بن أبي شمر الغساني: ٣٦٤.
الحارث بن الصمة: ١٢٥، ١٥٢، ١٩٧، ١٩٩،
٢٣٩، ٤٠١.
الحارث بن أبي ضرار: ٢٥٢، ٢٥٣.
الحارث بن طلائع: ٤٥١.
الحارث بن عبد العزى السعدي = أبو ذؤيب = أبو
كبشة: ٣٦٠.
الحارث بن عبد كلال الحميري: ٣٦٤، ٥٥١.
الحارث بن عمير الأزدي: ٣٦٤، ٤٢٦.
الحارث بن عوف المري: ٢٧٦، ٢٨٤.
الحارث بن كلدة: ٤٧٥، ٤٨٢.
الحارث بن هشام: ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٨١.
حارثة بن ربيعة = إلياس بن ربيعة بن الحارث.
حارثة بن سراقبة النجاري: ١٦٩.
حاطب بن أمية بن رافع: ٤٤.
حاطب بن أبي بلتعة: ٤٩، ١٦٩، ١٧٠، ٣٦١،
٣٦٢، ٤٣٧، ٤٣٨.
الحاكم = محمد بن عبد الله.

حاكم بصري: ٣٥٨، ٤٢٦.
 حامد عبد القادر: ٤٥.
 الحباب بن المنذر الخزرجي: ١٣٤، ١٧٤، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٧، ٤٦٨، ٤٩٩.
 حبيب بن زيد بن عاصم: ٢٠٣.
 حبيب بن مري = صاحب ياسين: ٥٢٨.
 أم حبيبة = رملة بنت أبي سفيان.
 حبيبة بنت أم حبيبة بن أبي سفيان: ٣١٥.
 ابن حجر = أحمد بن علي بن حجر.
 حذامة = الشفاء بنت الحارث.
 أبو حذيفة بنت عتبة بن ربيعة: ٤٩، ١١٩، ١٣٧، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٧٣.
 حذيفة بن المغيرة بن عبد الله = زاد الراكب = سهيل: ٢٤٧.
 حذيفة بن اليمان: ٥٠، ١٩٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٥٠٥، ٥٢٥.
 حرام بن ملحان: ٢٣٩.
 حسان (أخو أكيدر دومة): ٥٠٤.
 حسان بن ثابت: ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣٦٢، ٥٤٣.
 الحسن البصري: ٣٦.
 الحسن بن علي بن أبي طالب: ١٧٩، ٢٣٢، ٢٤٥، ٤٣٦، ٥٣١، ٥٤٧، ٥٩٧، ٦٢٧، ٦٢٨.
 الحسن بن يوسف = ابن المطهر الرافضي: ٥٠.
 حسيل بن جابر = اليمان: ١٩٦.
 الحسين بن علي بن أبي طالب: ١٧٩، ٢٣٢، ٢٤٥، ٢٤٨، ٥٣١، ٥٤٧، ٥٩٧، ٦٢٧، ٦٢٨.
 أبو الحسين بن عيدوس: ٤٦٩.
 الحسين بن مسعود = البغوي: ٥٥، ١٩٧.
 حصن (والد عينة): ٤٨٢.
 حفصة بنت عمر (أم المؤمنين): ٢٣١، ٣٠٦.

٣٨٤، ٥٩١، ٦٠٨، ٦٢٠، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥.
 أبو الحكم = عمرو بن هشام.
 الحكم بن كيسان: ١٢١.
 أم حكيم بنت الحارث: ٤٥٣.
 حكيم بن حزام: ١٣٧، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٨١، ٦٥٠.
 الحليس بن زيان (أو ابن علقمة): ٢٠٧، ٣٢٨، ٣٢٩.
 الحليس بن علقمة = الحليس بن زيان.
 حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية: ٤٦٧.
 حاس بن قيس: ٤٤٤، ٤٤٥.
 حد بن محمد الخطابي: ٣٨٢.
 حمزة بن عبد المطلب: ٤٩، ٥٠، ٦٧، ١١٧، ١١٨، ١٢٤، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٨، ١٥٢، ١٥٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٦، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٦، ٣٨٧، ٤٥٣، ٤٥٤.
 حنة بنت جحش: ٢١٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٦٩.
 أبو حميد الساعدي: ٢٤.
 حيد الطويل: ١٦٨.
 حيد بن عبد الرحمن بن عوف: ٥٣٧.
 أبو حنظلة = صخر بن حرب.
 حنظلة بن أبي سفيان: ١٤٩، ١٥٩.
 حنظلة بن أبي عامر = حنظلة الغسيل: ٤٣، ١٩٦، ٢١٣، ٢١٤.
 حنظلة الغسيل = حنظلة بن أبي عامر.
 ابن الحنظلية = عمرو بن هشام.
 أبو حنيفة = النعمان بن ثابت.
 الحويرث بن نقيد: ٤٥١، ٤٥٢.
 حويطب بن عبد العزى: ٣٣٦، ٣٧٨، ٣٨٦.
 حيدر = علي بن أبي طالب.

الحيسمان بن عبد الله الخزاعي: ١٥٧.
حبي بن أخطب: ٤٧، ٤٨، ٢٧٥، ٢٨١.
٣٨٣، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٦، ٤٠٩.
(خ)
بنت خارجة (زوج الصديق): ٥٩٣، ٦٢١.
خارجة بن زيد بن ثابت: ٢٤٩.
خارجة بن زيد بن أبي زهير: ٤٩.
خالد بن البكير: ١١٩.

(د)

الدارقطني = علي بن عمر.
داود عليه السلام: ٢٩٦، ٣٠١، ٤٨٧.
أبو داود = سليمان بن الأشعث.
أبو دجانة = سماك بن خرشة.
دحية بن خليفة الكلبي: ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦٤، ٣٨٣.
درمنغم: ٩١، ٩٢، ٢٩٩.
دريد بن الصمة: ٤٦٧، ٤٧٠.
أبو دسمة = وحشي بن حرب.
دعثر: ١٨٤.
الدمياطي = عبد المؤمن بن خلف.

(ذ)

ذات النطاقين = أسماء بنت أبي بكر.
أبو ذر الغفاري = جندب بن جنادة.
الذهبي = محمد بن أحمد بن عثمان.
ذو البجادين = عبد الله ذو البجادين.
ذو الجناحين = جعفر بن أبي طالب.
ذو الخويصرة: ٤٨٣.
ذو رعين (النعمان): ٥٥١.
ذو النورين = عثمان بن عفان.
أبو ذؤيب = الحارث بن عبد العزى.
ابنة أبي ذؤيب = حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية.

خالد بن زيد = أبو أيوب الأنصاري: ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٤٩، ٨٣، ٢٦٩، ٣٨٥، ٥٢٠، ٥٤٨.
خالد بن سعيد بن العاص: ٣١٥، ٣٧١، ٥٢٩، ٥٣١.
خالد بن الوليد: ٨١، ١٦١، ١٩١، ١٩٥، ١٩٨، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٤٧، ٣٨٧، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٧٠، ٤٧٢، ٤٩١، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٥٥، ٥٦٠، ٦٣٠.

خالدة بنت الحارث: ٢٩.
خبيب بن عدي: ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤١.
خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين): ٣٦، ١٦٢، ١٧٦، ٣٠١، ٣٠٦، ٤٨٨، ٦٢٠، ٦٤٤، ٦٥٠.

خذام بن خالد: ٥٠٧.
خدامة = الشياخ بنت الحارث.
خراش بن أمية الخزاعي: ٣٣٠.
خزاعي بن أسود: ٤١٢.
خزيمة بن كعب = المصطلق: ٢٥٢.
الخطاب (والد عمر): ٤٤١.
الخطابي = حمد بن محمد.
ابن خطل = عبد الله بن خطل.

(ر)

أبو راشد : ٨٤ .

رافدة الأسلمية : ٣١٩ .

أبو رابع (مولى خزاعة) : ٤٣٥ .

أبو رافع (مولى النبي) : ٣٦ ، ٣٧٨ ، ٤٩٠ .

أبو رافع الأعور = سلام بن أبي الحقيق .

رافع بن حرملة : ٤٤ .

رافع بن خديج : ١٩٠ .

رافع بن وديعة : ٤٤ .

الراهب = أبو عامر الراهب .

رباح : ٦٠٧ ، ٦٢٣ .

الربيع بن أبي الحقيق : ٤١٢ .

الربيع بن الربيع بن أبي الحقيق : ٤٧ .

الربيع بنت النضر : ١٦٩ .

ابنا ربيعة = شبية وعتبة .

ربيعة بن أمية بن خلف : ٥٧٤ .

ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب : ٤٧٠ .

ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب = إياس .

ربيعة بن عامر بن مالك : ٢٤٠ .

الرحمن = مسيلمة الكذاب .

رحمن اليمامة = مسيلمة الكذاب .

رفاعة بن زيد بن التابوت : ٤٤ .

رقية بنت محمد رسول الله : ٣٦ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٥١ ، ١٥٣ ، ١٨١ ، ٢٣١ ، ٢٤٥ ، ٤٩٠ ،

٥٣٢ .

رقية بنت أبي سلمة : ٢٤٧ .

ركانة بن يزيد : ٦٤٢ .

رملة بنت الحارث : ٥٤٥ ، ٥٥٤ .

رملة بنت أبي سفيان = أم حبيبة (أم المؤمنين) :

٣٠٧ ، ٣١٥ ، ٣٧١ ، ٤٢٣ ، ٤٣٦ ، ٦٢٠ .

أبو رهم الغفاري = كلثوم بن حصين .

أبو رهم بن عبد العزى : ٣٨٦ .

أبو رهم بن قيس الأشمري : ٣٧١ .

أبو رهم بن المطلب بن عبد مناف : ٢٥٩ .

أم رومان (زوج الصديق) : ٣٦ .

أبو رويحة = عبد الله بن عبد الرحمن .

ريحانة القرظية = ريحانة بنت زيد بن عمرو : ٣٠٣ ،

٤١٠ ، ٦٢٠ .

(ز)

زاد الراكب = حذيفة بن المغيرة بن عبد الله .

الزبرقان بن بدر : ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٦١ .

الزبير بن بكار : ٢١٢ ، ٤٩٠ .

الزبير بن العوام : ٣٦ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ١١٠ ، ١٢٤ ،

١٣١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢١١ ،

٢١٢ ، ٢٨٣ ، ٤١٧ ، ٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ،

٤٩٩ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ .

زرعة ذو وزن : ٥٥١ .

زفر : ٣٨٢ .

الزخشي = محمود بن عمر .

زمنة بن الأسود بن المطلب : ١٥٨ .

زمنة بن قيس (والد سودة) : ١٥٤ .

الزهري = محمد بن مسلم .

زهير بن أبي أمية المخزومي : ٤٤٥ .

زهير بن صرد : ٤٧٩ .

زياد بن السكن : ٢٠٢ .

زياد بن ليلى الأنصاري : ٥٦١ .

زياد بن المنذر (أبو الجارود) : ٦٥ .

ابن زيد = عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

زيد بن أرقم : ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٨١ .

زيد بن أسلم : ٩٦ .

زيد بن ثابت : ١٩٠ ، ٢٤٩ .

زيد بن حارثة : ٣٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ١١٨ ، ١٢٤ ،

١٥٠ ، ١٨٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،

٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٨ ، ٣٧٨ ،

٣٧٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٥٨٥ ،

٦٠٥.

زيد بن الدثنة: ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١.

زيد الخير = زيد الخيل: ٥٥٠، ٥٦٠.

زيد بن رفاعه: ٢٦٨.

زيد بن زمعة بن الأسود: ٤٧٣.

زيد بن سعة: ٦٤٧.

زيد بن سهل = أبو طلحة الأنصاري: ٤٩، ٨٣،

١٩٤، ٢٠١، ٢١٧، ٥٣٢، ٦١٨، ٦٤٢،

٦٥٢.

زيد بن عاصم: ٢٠٣.

زيد بن عمرو: ٤٤.

زيد بن اللصيت: ٤٤.

زيد بن محمد = زيد بن حارثة.

زيد بن نصيب = زيد بن نصيب (وانظر زيد بن

اللصيت): ٥٠٠.

زيد بن يثيع: ٥٣٧.

زين العابدين = علي بن الحسين.

زينب بنت جحش (أم المؤمنين): ٢٦٣، ٢٩٤،

٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠،

٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٨٤، ٤٧٥، ٦٢٠،

٦٢٢.

زينب بنت الحارث اليهودية: ٤١٧.

زينب بنت خزيمة (أم المؤمنين) = أم المساكين:

٢٤٦، ٣٠٦، ٦٢٠.

زينب بنت محمد رسول الله: ٣٦، ١٦٢، ١٧٦،

٣٥٠، ٤٥٢، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٦٢٧.

زينب بنت أبي سلمة: ٢٤٧.

زينب بنت علي بن أبي طالب: ١٧٩.

زينب بنت عمرو بن أمية: ٤٨٥.

زينب اليهودية = زينب بنت الحارث.

(س)

سارة (مولاة بني عبد المطلب): ٤٣٧، ٤٥١.

سباع بن عبد العزى: ١٩٣.

سباع بن عرفطة الغفاري: ٢٥١، ٤١٤، ٤٩٧،

٥٦٨.

السدي: ٢٩٧.

سراقة بن الحارث النجاري: ١٦٩.

سراقة بن الحباب الأنصاري: ٤٧٣.

سراقة بن مالك بن جعشم: ١٢٦، ١٢٧.

سعاد (زوج كعب بن زهير): ٤٨٦.

ابن سعد = محمد بن سعد.

سعد بن حنيف (يهودي منافق): ٤٤.

سعد بن خولة: ٤٠.

سعد بن خيثمة: ٧١، ١٨١.

سعد بن الربيع: ٤٩، ٥٤، ٢١٢، ٢١٥.

أم سعد بن الربيع: ٢٠٢.

سعد بن زيد: ٣٦٨.

سعد بن زيد الأشهلي: ٤٤، ٤٦٦.

سعد بن سلامة بن وقش = سلكان بن سلامة بن

وقش.

أبو سعد بن أبي طلحة: ١٩٣.

سعد بن عبادة: ٢٤، ١١٧، ١٩٨، ٢٥٢، ٢٦١،

٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٣٧٨، ٤٤٢،

٤٤٣، ٥٩٥، ٦٤٣.

سعد بن مالك = أبو سعيد الخدري: ١٩، ٢٠٠،

٢١٦، ٢٨٧، ٥٩٢، ٦٥٤.

سعد بن معاذ: ٥٠، ١١٧، ١٢٤، ١٢٦، ١٣٠،

١٣٤، ١٣٥، ١٤٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٩٧،

٢٦١، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ٣١٩، ٤٠٨،

٤٠٩، ٤١٠، ٥٠٤.

سعد بن النعمان: ١٥٩، ١٦٠.

سعد بن أبي وقاص: ٤١، ٦٨، ١١٧، ١١٩،

١٢٠، ١٢١، ١٣١، ١٨١، ١٩٤، ١٩٧،

١٩٩، ٢٠١، ٢١٦، ٣٣٦، ٥٨٥، ٦٣٥.

السعدان = سعد بن عبادة وسعد بن معاذ.

سلمة بن أبي سلمة: ٢٤٨، ٢٤٧.
 سلمة بن سلامة بن وقش: ٤٩.
 سلمة بن شبيب: ٥٦٤.
 سلمة بن عمرو بن الأكوع: ١٠٧، ٣٦٧، ٣٦٨.
 سلمة بن هشام بن المغيرة: ٤٣٠.
 أم سليط: ٢٠٤.
 سليط بن عمرو العامري: ٣٦٤.
 سليم = أبو كبشة (مولى النبي).
 أم سليم (أم أنس): ٢٠٤، ٢٠٥، ٣٨٤.
 سليمان عليه السلام: ٢٩٦، ٣٠٢.
 سليمان بن أحمد = الطبراني: ١٩، ٣٣٨، ٥٣٩، ٦٣٦.
 سليمان بن الأشعث = أبو داود: ١٩، ٢٧، ٣٤، ٦٥، ١٠٨، ١٦٤، ٢٧١، ٣١٣، ٣٣٨، ٣٥٥، ٤٨٩، ٥٣١، ٥٦١، ٥٩٨، ٦١٧.
 سماك بن خرشة = أبو دجاجة: ١٩١، ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٢، ٢١٧، ٤٠١، ٥٦٨.
 سمرة بن جندب: ١٩٠، ٢٠٨.
 أبو سنان بن محسن: ٤١١.
 سنان بن وبر الجهني: ٢٥٤.
 سهل بن حنيف: ٢٠، ١٩٧، ٣٤١، ٣٤٨، ٤٠١.
 سهل بن عمرو (صاحب المريد): ٣٠.
 سهيل بن بيضاء: ١١٩، ١٥٧.
 سهيل بن عمرو (صاحب المريد): ٣٠.
 سهيل بن عمرو بن عبد شمس = أبو يزيد: ١٣٢، ١٥٤، ١٥٩، ١٧٤، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٧٨، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٦٨، ٤٧١، ٤٨٢، ٦٠٧.
 سهيل بن المغيرة = حذيفة بن المغيرة.
 السهيلي = عبد الرحمن بن عبد الله.
 سواد بن غزوة: ١٣٩، ١٤٠، ٦٦٠.

سعيد بن جبير: ٣٨٢.
 سعيد بن حريش: ٤٥٢.
 أبو سعيد الخدري = سعد بن مالك.
 سعيد بن عفير: ٦١٦.
 سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: ٥٠، ١٢٣، ١٥٢، ٤١٠، ٥٨٥.
 سعيد بن المسيب: ٦٣، ٨٣، ٨٤، ٥٢٠، ٥٦٤.
 سفانة بنت حاتم الطائي: ٤٩٣، ٥٤٩.
 أبو سفيان = صخر بن حرب.
 أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب: ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٦٩.
 سفيان بن خالد بن نبیح: ٢٣٤، ٢٣٥.
 سفيان الضمري: ١٣١.
 أبو سفيان بن محسن = وهب بن محسن.
 سلافة بنت سعد: ٢٣٧.
 سلكان بن سلامة بن وقش (أبونائلة): ٣٩٧، ٣٩٨.
 سلام بن أبي الحقيق (= أبو رافع، عبد الله بن أبي الحقيق): ٤٧، ٢٧٥، ٤٠١، ٤١٢، ٤١٣.
 سلام بن مشكم: ٤٧، ٣٨٣، ٤١٦، ٤١٧.
 سلمى: ٣١٨.
 سلمى (مولاة النبي): ٤٩٠.
 سلمى بنت عمرو التجارية: ١٦١.
 سلمى بنت عميس: ٣٧٨، ٣٨٧.
 سلمان الفارسي: ٢٧٧، ٢٧٩، ٤٧٦.
 أبو سلمة = عبد الله بن عبد الأسد.
 أم سلمة = هند بنت أبي أمية.
 سلمة بن أسلم: ٥٨٥.
 سلمة بن أسلم بن حريش: ٣٢٤.
 سلمة بن الأكوع = سلمة بن عمرو بن الأكوع.
 سلمة بن حريش: ١٧٨.
 سلمة بن خويلد الأسدي: ٢٣٣.

سودة بنت زمعة: ٣٦، ١٥٤، ٣٠٦، ٦٢٠، ٦٢٣.

سويلم اليهودي: ٤٩٨.

السيد: ٥٤٦، ٥٤٨.

سير موير = وليم موير.

أم سيف (زوج قين بالمدينة): ٤٩١.

سيف الله المسلول = خالد بن الوليد.

(ش)

شاس بن قيس: ٤٧، ٣٨٩.

شجاع بن وهب بن ربيعة الأسدي: ٣٦٤.

شداد بن الأسود = ابن شعوب: ٢١٣.

شرحبيل بن عمرو الغساني: ٣٦٤.

ابن شعوب = شداد بن الأسود.

شعيب عليه السلام: ٢٦٦.

شقران (مولى النبي): ٥٩٩.

الشيء = الشيء بنت الحارث.

شبية = شبية الحمد = عبد المطلب بن هاشم.

شبية بن ربيعة: ١٣٢، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٩، ٦٠٥.

شبية بن عثمان بن أبي طلحة: ٤٤٧.

أبو الشيخ: ٥٣٤.

شبرويه بن كسرى: ٣٦١.

الشيء بنت الحارث السعدية (= جدامة، حدامة،

خدامة، الشيء): ٤٨٠.

(ص)

صاحب إلياس = اليسع.

صاحب أيلة = يحنة بن رؤبة.

صاحب ياسين = حبيب بن مري.

صالح (مولى النبي): ٥٩٨.

صخر بن حرب = أبو سفيان: ٦٨، ١١٨، ١٢٣،

١٢٥، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٣، ١٥٩، ١٦٠،

١٧١، ١٨٥، ١٨٦، ١٩١، ٢٠٧، ٢٠٩.

٢١٣، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٤٤،

٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨،

٢٨٩، ٣١٥، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٣١، ٣٥٩،

٣٦٠، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢،

٤٤٣، ٤٤٩، ٤٥٣، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠،

٤٧١، ٤٧٧، ٤٨١، ٥٣٠، ٦٤٩، ٦٦٢.

صخر بن عامر: ٢٥٩.

الصديقة بنت الصديق = عائشة بنت أبي بكر.

صرمة بن قيس: ١٠٨.

صفوان بن أمية: ١٠٠، ١٠١، ١٦٣، ١٦٤،

١٧٨، ١٨٥، ١٨٧، ١٩١، ٢٣٦، ٢٣٧،

٢٤٤، ٤٢٤، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٦٨، ٤٧١،

٤٨٢، ٦٤٩، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠.

صفوان بن المعطل السلمي: ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٦٦،

٢٦٨.

صفية بنت حيي النضرية: ٤٧، ٣٠٣، ٣٠٧،

٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٤١٢، ٦٢٠، ٦٢٣.

صفية بنت أبي العاص بن أمية: ٣١٥.

صفية بنت عبد المطلب: ٢١١، ٥٣٢.

صلاح الدين الأيوبي: ٩٣، ١٦٧.

(ض)

ضرار بن الأزور: ١٧٧.

ضرار بن الخطاب بن مرداس: ٢٨٣.

ضمام بن ثعلبة: ٥٤١.

ضمام بن عمرو الغفاري: ١٢٥.

(ط)

ابن طاب: ١٧٨.

طارق بن يياضة: ١٩٢.

طالب بن أبي طالب: ١٢٨.

أبو طالب (عم الرسول) = عبد مناف بن

عبد المطلب.

طالوت: ١٢٥.
الطاهرة = خديجة بنت خويلد.

الطبراني = سليمان بن أحمد.

الطبري = محمد بن جرير.

طعيمة بن عدي: ١٨٧، ١٩٤.

الطفيل بن الحارث بن المطلب: ٢٤٦.

أبو طلحة = زيد بن سهل.

طلحة بن أبي طلحة العبدري: ١٩٢.

طلحة بن عبيد الله: ٤٩، ٥٢، ١٢٣، ١٥٢،

١٩٤، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١،

٢١٧، ٤٩٦، ٤٩٨، ٥١٥، ٥١٨، ٥٩٥،

٥٩٩.

طلحة بن عثمان العبدري: ١٩١.

طليحة بن خويلد الأسدي: ١٧٧، ٢٣٣،

٢٧٦، ٢٨٧.

طيطوس الروماني: ٤٥.

(ظ)

.....

(ع)

عاتكة بنت خالد الخزاعية = أم معبد: ٦١٠.

أبو العاص بن الربيع: ٣٦، ١٦٢، ٣٥٠،

٤٥٢، ٤٥٣، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠.

العاص بن هشام بن الحارث = أبو البخثري:

١٤٧، ١٤٩.

العاص بن هشام بن المغيرة: ١٢٦، ١٤٨،

١٧٣، ١٤٩.

عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح: ١٥٦، ١٩٧،

٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٣٢٢.

عاصم بن عدي: ١٢٤، ١٥٢، ٤٩٦، ٥٠٨.

عاصم بن عمر بن قتادة: ٢٠٥، ٢١٧.

العاقب: ٥٤٦، ٥٤٨.

أبو العالية: ٧٥.

أبو عامر الأشعري = عبيد بن سليم.

عامر بن الجراح (أبو عبيدة) = عامر بن عبد الله بن الجراح.

عامر بن الحضرمي: ١٣٧، ١٣٨.

أبو عامر الراهب = القاسق: ٤٣، ١٨٦، ١٩٢،

١٩٩، ٢١٤، ٥٠٧.

عامر بن ربيعة: ١١٩.

عامر بن الطفيل: ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٥٥٠،

٥٥١.

عامر بن عبد الله بن الجراح = أبو عبيدة: ٤٩،

٥٠، ٥٢، ١٤٨، ١٤٩، ١٧٣، ١٩٧،

١٩٩، ٢٠٠، ٤٣٢، ٤٤٤، ٥٤٩، ٥٨٥،

٥٩٩.

عامر بن فهيرة: ٣٦، ٣٧، ٢٣٩.

عامر بن مالك (= أبو براء، ملاعب الأستنة):

٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢.

عائشة بنت أبي بكر (أم المؤمنين): ١٥، ٣٣،

٣٦، ٣٧، ٦١، ٦٢، ١٠٧، ٢٠٤، ٢٣١،

٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤،

٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠،

٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٩،

٣١٠، ٣١٣، ٣٨٤، ٤٣١، ٤٥٨، ٤٨٨،

٥٨٠، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣،

٥٩٩، ٦٢٠، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٥، ٦٢٦،

٦٣٣، ٦٣٤، ٦٤٤، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٤.

عباد بن بشر: ٤٩، ٣٦٨، ٣٩٧.

عباد بن حنيف: ٤٣.

عبادة بن الصامت: ٣٩٥، ٣٩٦.

العباس بن عبد المطلب: ٥٥، ١٤٧، ١٦٠،

١٦١، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٧،

٣٠٧، ٣٨٦، ٣٨٧، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١،

٤٤٢، ٤٤٣، ٤٥٢، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٩٦،

٤٩٧، ٥٣٤، ٥٧٢، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٨٨،

٥٨٩، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٣٧.

العباس بن مرداس: ٤٣٣، ٤٨٠، ٤٨٢، ٦٤٩.

ابن أم عبد = عبد الله بن مسعود.

ابن عبد البر = يوسف بن عبد الله.

عبد بن الجلندي: ٣٦٤.

عبد رب الكعبة: عبد الله بن عثمان (أبو بكر).

عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق: ١٤٨، ١٧٣، ٥٩٣، ٥٨٠.

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت: ٣٦٢.

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ٢٩٨.

عبد الرحمن بن صخر = أبو هزيمة: ١١٢، ٥٣٧، ٢١٦، ٢٨٠، ٣٢٢، ٣٧٢، ٤٥٩، ٥٣٧.

٥٤٥، ٦١٠، ٦٣٩، ٦٥٦.

عبد الرحمن بن عبد الله = السهيلي: ٦٥، ١٩٢، ٣٧٥، ٥٢٨، ٥٣١، ٥٦٤.

عبد الرحمن بن علي = ابن الجوزي: ٥٦٥.

عبد الرحمن بن عمرو = الأوزاعي: ٩٨.

عبد الرحمن بن عوف: ٤٩، ٥٢، ٥٤، ١٢٤، ١٤٩، ١٩٧، ٢١٧، ٣٣٦، ٣٥٣، ٣٦٧.

٤٦٤، ٤٩٦، ٥٨٢، ٦٤٣.

عبد الرحمن بن عيينة بن حصن: ٣٦٧، ٣٦٨.

عبد الرحمن بن محمد = ابن أبي حاتم: ٢٩٧، ٢٩٨.

عبد الرحيم بن الحسين = العراقي: ٢٥، ٥٦٥.

عبد الرزاق الصنعاني: ٧٥، ٥٦٤.

أبو عبد شمس = الوليد بن المغيرة.

عبد العزى بن خطل = عبد الله بن خطل.

عبد العزى بن عبد المطلب = أبو لهب (أبو عتبة، أبو عتبة): ١٢٦، ١٥٧، ١٧١، ٢٤٥.

عبد الكعبة = عبد الله بن عثمان (أبو بكر).

أم عبد الله = عائشة بنت أبي بكر.

عبد الله بن أبي بن سلول: ٤٣، ٤٤، ١٨٨.

١٨٩، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦.

٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٨.

٢٦٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٠٠.

٤٠٩، ٤٩٧، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٣٢، ٥٣٣.

٦٤٧.

عبد الله بن أحمد = النسفي المفسر: ٢٩٨.

عبد الله بن الأريقط: ٣٦.

عبد الله بن أبي أمية: ٤٣٩.

عبد الله بن أنيس: ٢٣٤، ٢٣٥، ٤١٢.

عبد الله بن أبي بكر: ٣٦.

عبد الله بن جبير بن النعمان: ١٩٠، ١٩٥، ٢١٤.

عبد الله بن جحش: ١١٩، ٢١٢، ٢١٥.

٢٩٤، ٢٤٦.

عبد الله بن الجراح (والد أبي عبيدة): ١٤٨، ١٤٩.

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: ٤٢٧، ٤٣٠.

عبد الله بن حذافة السهمي: ٣٦٠، ٤٦٥.

عبد الله بن أبي الحقيق = سلام بن أبي الحقيق.

عبد الله بن خطل = عبد العزى بن خطل: ٤٥١.

عبد الله ذو البجادين: ٥٠٥.

عبد الله بن رواحة: ٣٢، ١٣٨، ١٥٠، ١٥٦.

١٥٧، ٢٧٨، ٢٨١، ٣٧٦، ٤١٨، ٤٢٦.

٤٢٧، ٤٢٩، ٤٣١، ٥٨٥.

عبد الله بن الزبير: ٣٦، ٦١، ٧١، ٦٢٨.

عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه: ٦٣، ٦٤.

عبد الله بن زيد بن عاصم: ٢٠٣، ٢١١.

عبد الله بن سعد بن أبي سرح: ٤٥١، ٤٥٢.

عبد الله بن سلام: ٢٨، ٤٧.

عبد الله بن سهيل بن عمرو: ٣٣٦.

عبد الله بن شهاب الزهري : ١٩٩ .

عبد الله بن طارق : ٢٣٦ .

عبد الله بن عباس : ١٩ ، ٢٧ ، ٥٥ ، ٧٥ ، ٨٤ ،

١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ،

١٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٣٥٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،

٣٨٦ ، ٣٩١ ، ٤٨٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٨٧ ،

٦٤٩ .

عبد الله بن عبد الأسد = أبو سلمة : ١١٨ ،

٢١٧ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٣٠٦ ،

٣٠٧ .

عبد الله بن عبد الرحمن = أبو ربيعة الخثعمي :

٤٩ ، ٥٢ .

عبد الله بن عبد الله بن أبي : ٢٤٣ ، ٢٥٦ ،

٥٣٣ ، ٦٤٧ .

عبد الله بن عتيك : ٤١٢ ، ٤١٣ .

عبد الله بن عثمان = أبو بكر الصديق : ٢٤ ،

٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٥ ،

٦١ ، ٨٣ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ،

١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ،

١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،

١٧٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ،

٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،

٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٠٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،

٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ،

٤٢٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٨ ،

٤٤٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٧ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥ ، ٤٩٦ ،

٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٥ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٩ ،

٥٣٠ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤٥ ،

٥٤٨ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٦٧ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ،

٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ،

٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ،

٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٤ ،

٦٢٥ ، ٦٣٠ ، ٦٥٠ .

عبد الله بن عثمان بن عفان : ٢٤٥ .

عبد الله بن عمرو بن الخطاب : ٥٢ ، ٦٣ ، ١٠٩ ،

١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٩٠ ، ٢١٦ ، ٣٥٤ ، ٣٨١ ،

٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٦٤ ، ٥٠٢ ، ٥٧٩ ، ٦٣٢ ،

عبد الله بن عمرو بن حرام (والد جابر) : ١٨٩ ،

١٩٦ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٥٦٣ ، ٦٤٥ ،

عبد الله بن قيس = أبو موسى الأشعري : ١١ ،

٦٢ ، ٣٠٤ ، ٣٧١ ، ٤٧٣ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ،

٥٧١ .

عبد الله بن اللثبية : ٥٦١ .

عبد الله بن لهيعة : ٦١٦ .

عبد الله بن مسعود : ٤٩ ، ٨٧ ، ١٣٦ ، ١٤٩ ،

١٥٧ ، ٣١٢ ، ٣٨٢ ، ٥٠١ .

عبد الله بن أم مكتوم = عمرو بن أم مكتوم :

١٢٤ ، ١٨٩ ، ٢٨٠ ، ٣٢٢ ، ٤٠٠ .

عبد المطلب بن هاشم = شيبه = شيبه الحمد :

٢٣ ، ١٦١ ، ٤٦٩ .

أم عبد المطلب بن هاشم = سلمى بنت عمرو
النجارية .

عبد الملك بن هشام : ٥٧ ، ٦٥ ، ١٥٦ ، ٣٧٦ ،

٤٧٦ ، ٤٨٧ ، ٥٣٥ ، ٥٤١ .

عبد مناف بن عبد المطلب = أبو طالب : ١٣٩ ،

٤٣٠ ، ٦٤٣ .

عبد المؤمن بن خلف الدمياطي : ٣٥٢ .

عبد ياليل بن عمرو الثقفي : ٥٢٨ .

أبو عبيد = القاسم بن سلام .

عبيد بن سليم الأشعري = أبو عامر : ٤٧٣ .

عبيد بن عمير (أخو مصعب) : ١٤٨ .

أبو عبيد بن مسعود الثقفي : ١٧٨ .

عبيد الله بن جحش : ٣٠٧ ، ٣١٥ .

أبو عبيدة (شيخ ابن هشام) : ٥٤١ .

عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب : ١٣٨ .

عبيدة بن الحارث بن المطلب : ٦٨ ، ١٣٨ ،

ابو عزيز بن عمير (أخو مصعب): ١٥٣، ١٥٤.
 ابن عساكر = علي بن الحسن بن هبة الله.
 عطارد بن حاجب بن زرارة: ٥٤٢، ٥٤٣.
 أم عطية الأنصارية: ٢٠٥، ٥٣٢.
 عظيم البحرين: ٣٦٠.
 عفراء بنت عبيد النجارية (أم معاذ ومعوذ):
 ١٤٩، ١٤٢.
 عقبة بن الحارث: ٢٣٧.
 عقبة بن عمرو البدرى (أبو مسعود): ٣٧٣.
 عقبة بن أبي معيط: ١٢٦، ١٥٤، ١٥٥.
 عقيل بن الأسود بن المطلب: ١٥٨.
 عقيل بن أبي طالب: ١٥٦، ١٦٠، ٤٤٤.
 عقيلة بنت أبي الحقيق: ٣٩٧.
 عكاشة بن حصن: ١١٩، ١٢٠، ١٧٧، ٣٣١،
 ٣٦٨.
 عكرمة: ٦٣٩.
 عكرمة بن أبي جهل: ١٨٧، ١٩١، ٢٨٣،
 ٢٨٦، ٤٢٤، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٥١، ٤٥٣،
 ٤٧١.
 العلاء بن الحضرمي: ١٠٠، ٣٦٣، ٥٦١.
 علقمة بن علاثة العامري: ٥٦٠.
 علي بن الحسن = ابن عساكر: ٤٣٢.
 علي بن الحسين بن علي: ٢٩٧، ٢٩٨.
 علي بن الحسين بن علي = المسعودي: ٥٦٥.
 علي بن أبي طالب: ٢٧، ٣١، ٤٩، ٥٠،
 ٥٢، ٨٣، ١١٨، ١٢٤، ١٣١، ١٣٢،
 ١٣٨، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٨، ١٥٢،
 ١٥٥، ١٥٦، ١٧٠، ١٧٩، ١٩٣، ١٩٤،
 ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٩، ٢١٠،
 ٢٢٨، ٢٦٠، ٢٨٣، ٢٣٥، ٣٣٦، ٣٧٨،
 ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٩٩، ٤٠٦، ٤١٦، ٤١٧،
 ٤٣١، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٤٦،
 ٤٥٢، ٤٦٠، ٤٦٥، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٩٠.

١٣٩، ١٥٣، ١٨١، ٢٤٦.
 عتاب بن أسيد: ٤٤٩، ٤٦٨، ٤٨٥.
 عتيان بن مالك: ٤٩.
 أبو عتبة = عبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب).
 عتبة بن ربيعة: ١٣٢، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨،
 ١٣٩، ١٤٩، ١٥٠، ١٧٣، ٦٠٥.
 عتبة بن عمرو الفهري: ١٦٠.
 عتبة بن غزوان: ٦٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١.
 عتبة بن أبي وقاص: ١٩٩.
 أبو عتبة = عبد العزى بن عبد المطلب
 (أبو لهب).
 العتيق = عبد الله بن عثمان (أبو بكر).
 عثمان بن أوفى: ٤٤.
 عثمان بن طلحة بن أبي طلحة: ٢٧٦، ٣٤٧،
 ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٤٦، ٤٤٧.
 عثمان بن أبي العاص الثقفي: ٥٢٨، ٥٣٠.
 عثمان بن عبد الله بن المغيرة: ١٢١.
 عثمان بن عفان: ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٥٢، ١٢٤،
 ١٢٥، ١٥١، ١٥٣، ١٨٤، ٢١٦، ٢٣١،
 ٢٤٥، ٢٤٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٧٠، ٤٥٢،
 ٤٦١، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٥٠١، ٥٢٥،
 ٥٣٢، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٦٠، ٦٠٣.
 عثمان بن مظعون: ١٨١، ٥٨٢، ٦٣٥، ٦٣٦.
 عدي بن حاتم الطائي: ٤٩٣، ٤٩٤، ٥٤٩،
 ٥٦١.
 عرابة بن أوس: ١٩٠.
 العراقي = عبد الرحيم بن الحسين.
 ابن العربي = محمد بن عبد الله.
 عروة بن أسيد الثقفي = أبو بصير: ٣٤٠،
 ٣٤١، ٣٥٠، ٦٤٥.
 عروة بن مسعود الثقفي: ٣٢٩، ٣٣٠، ٥٢٨،
 ٥٣١.
 أبو عزة الشاعر = عمرو بن عبد الله بن عثمان.

عمر بن أبي سلمة : ٢٤٧ .
 عمر بن شيبه : ٤٢٢ .
 عمر بن عبد العزيز : ٣٣ ، ١١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٥٩٩ .
 عمرة بنت علقمة الحارثية : ١٩٤ .
 عمرو بن أمية الضمري : ٢٤٠ ، ٣٢٤ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٩٩ ، ٤٢٣ .
 عمرو بن الأهم : ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ .
 عمرو بن بحر = الجاحظ : ٦١٣ ، ٦١٦ ، ٦١٧ .
 عمرو بن جحاش : ٤٧ ، ٣٩٩ .
 عمرو بن الجموح : ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٦٤٥ .
 عمرو بن حزم : ٥٥٥ .
 عمرو بن الحضرمي : ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .
 عمرو بن سالم الخزاعي : ٤٣٥ ، ٤٣٦ .
 عمرو بن سعدى القرظي : ٢٨١ .
 عمرو بن سعيد بن العاص : ٣٧١ .
 عمرو بن أبي سفيان بن حرب : ١٥٩ ، ١٦٠ .
 عمرو بن سلمة : ٥٤١ .
 عمرو بن العاص : ١٨٧ ، ٣١٥ ، ٣٤٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٦٦ .
 أم عمرو بن العاص : ٤٣٢ .
 عمرو بن عبد الله بن عثمان = أبو عزة الشاعر : ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٨٦ .
 عمرو بن عبدود : ٢٨٣ .
 أبو عمرو بن العلاء : ٥٢٣ .
 عمرو بن قيس : ٤٤ .
 عمرو بن أم مكتوم = عبد الله بن أم مكتوم .
 عمرو بن هشام (= أبو جهل ، أبو الحكم) : ٦٧ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤٩ ، ٦٦٦ .
 ٦٦٧ .
 عمير بن الحمام : ١٤١ ، ١٧٣ ، ١٨١ .
 عمير بن أبي وقاص : ١٨١ .
 عمير بن وهب الجمحي : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٣٧ .

٤٩٣ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥١٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤٧ ، ٥٥٦ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٧١ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٣ ، ٦١٠ ، ٦١٦ ، ٦٣٢ ، ٦٤٢ ، ٦٦٦ ، ٦٦٢ .
 علي بن أبي العاص بن الربيع : ٤٩٠ .
 علي بن عمر = الدارقطني : ٢١٧ ، ٦١٧ .
 علي بن محمد الماوردي : ٢٦٤ ، ٤٦١ .
 عمار بن ياسر : ٥٠ ، ٣٧٦ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ .
 أبو عمارة = حمزة بن عبد المطلب .
 أم عمارة = نسيبة بنت كعب .
 عمارة بن عقبة بن أبي معيط : ٣٤٩ .
 عمارة بن يزيد بن السكن : ٢٠٢ .
 عمر بن الخطاب : ١١ ، ٣٢ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٣ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤ ، ٣٩٩ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٣٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤١ ، ٤٥٢ ، ٤٦١ ، ٤٧٠ ، ٤٧٧ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٩ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٦٠ ، ٥٧٥ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦١٦ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٣٠ ، ٦٦٩ ، ٦٥٠ ، ٦٤٧ ، ٦٣١ .

١٦٣، ١٦٤، ١٧٨، ٥٠١، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠.

عوف بن الحارث بن رفاعه = عوف بن عفراء: ١٣٨، ١٤٢، ١٥٤، ١٨١.

عوف بن عفراء = عوف بن الحارث بن رفاعه.

عوف بن الأضبط: ٣٧٥.

عويم بن ساعدة: ١٩، ٤٩.

عياض بن موسى (القاضي عياض): ٢٩٨، ٦١٣.

عيسى عليه السلام: ٩١، ٩٢، ٩٣، ١٥٧.

١٧٦، ٣٥٨، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٥، ٦٠٣.

٦٠٤، ٦٥٦.

عينه بن حصن = الأحق المطاع: ٢٥٢، ٢٧٦.

٢٨٤، ٢٨٩، ٤٣٣، ٤٨١، ٤٨٢، ٥٤٢.

٥٦٠، ٦٤٩.

(غ)

غالب بن عبد الله الكلبي: ٣٧٣.

غسيل الملائكة = حنظلة بن أبي عامر.

غورث بن الحارث: ١٨٤، ٦٤٦.

غورو: ٩٣.

غوستاف لوبون: ١٦٨.

(ف)

الفاروق = عمر بن الخطاب.

الفاسق = أبو عامر الراهب.

فاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب: ٣٧٨، ٣٧٩.

فاطمة بنت صفوان: ٣٣١.

فاطمة بنت الضحاك الكلاية (زوج النبي):

٤٨٨.

فاطمة بنت محمد رسول الله: ٣٦، ١٥٥، ١٧٩.

٢٠٠، ٢١٦، ٢٣٢، ٢٤٥، ٣٧٨، ٤٣٦.

٤٣٧، ٤٥٢، ٤٩٠، ٥٣٢، ٥٤٧، ٥٧١.

٥٨٨، ٥٩٤، ٥٩٥، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٣٧.

٦٦٠، ٦٣٨.

الفاكه بن المغيرة: ٤٦٤.

الفاكهى = محمد بن إسحاق الفاكهى.

فرات بن خيان: ١٨٥.

فرتنى (قينة ابن خطل): ٤٥١.

فرعون: ٢٢٧.

أم فروة (أخت الصديق): ٥٥٣.

فروة بن نفثة: ٤٦٩.

فضالة بن عمير: ٤٤٩.

أم الفضل (زوج العباس) = لبابة بنت الحارث.

الفضل بن العباس بن عبد المطلب: ١٦٠، ٤٧٠.

٥٣٢، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٩٨، ٥٩٩.

فنحاص بن عازوراء: ٣٩١.

فندر (قسيس): ٢٩٩.

فيروز: ٥٨٤.

(ق)

القارء = مصعب بن عمير.

قارب بن الأسود: ٥٣١.

قارون: ٤٢٩.

القاسم بن سلام = أبو عبيد: ١٥١، ٥٣١.

قتادة: ٢٩٨، ٥٣٤، ٥٦٢.

أبو قتادة الأنصاري: ٣٢٦، ٣٦٨، ٤١٢، ٤٧٠.

٥١٤.

قتادة بن النعمان الأنصاري: ١٩٦، ٢١٧.

قتيلة بنت الحارث: ١٥٦، ١٧٥.

قثم بن العباس بن عبد المطلب: ١٦٠، ٤٧٠.

٥٩٨، ٥٩٩.

أبو قحافة: ٤٤٨، ٤٤٩.

ابن أبي قحافة = عبد الله بن عثمان (أبو بكر).

القرطبي المفسر = محمد بن أحمد.

قرية (قينة ابن خطل): ٤٥١.

قزمان: ٢٠٥.

أبو القصم = علي بن أبي طالب.

ابن قمئة: ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٢، ٢١٢.
قيس: ٥٦٦.

قيس بن أبي حازم: ٢٠١.

قيس بن الحصين: ٥٥٥.

قيس بن سعد بن عبادة: ١١١، ٤٤٣.

قيس بن عاصم التميمي: ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٦١.

قيس بن عزة الأحسي: ٥٥٦.

قيس بن عمرو: ٤٤.

قيس بن عيلان: ١٢٤.

قيصر الروم: ٢٥١، ٢٨٢، ٢٩٠، ٣٣٠، ٣٥٨.

٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٤، ٤٤١، ٦٠٨، ٦٢٤.

ابن القيم = محمد بن أبي بكر.

(ك)

كارليل = توماس كارليل.

أبو كبشة = الحارث بن عبد العزى.

أبو كبشة (مولى النبي) = سليم: ١٢٤.

ابن كثير = إسماعيل بن عمر بن كثير.

كرز بن جابر الفهري: ١١٨، ٣٢٣، ٥٦٣.

كسرى: ٢٨٢، ٢٩٠، ٣٣٠، ٣٥٨، ٣٦٠.

٣٦١، ٣٦٣، ٤١٤، ٤٤١، ٦٠٨، ٦٢٣.

٦٥٢.

كسرى بن برويز بن هرمز: ٣٦٠.

كعب بن أسد: ٤٧، ٢٨١، ٤٠٧.

كعب بن الأشرف: ٤٧، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤١٢.

كعب بن زهير بن أبي سلمى: ٤٥١، ٤٥٤.

٤٨٦.

كعب بن زيد: ٢٤٠.

كعب بن عجرة: ٣٧٣.

كعب بن مالك: ٥٠، ١٩٦، ١٩٨، ٥١٢.

٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨.

ابن الكلبي = هشام بن محمد بن السائب.

كلثوم بن حصين الغفاري = أبو رهم: ٣٧٥،
٤٣٩.

أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: ١٧٩، ٢٠٤.

أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط: ٣٤٩.

أم كلثوم بنت محمد رسول الله: ٣٦، ٢٣١، ٤٥٢.

٤٩٠، ٥٣٢.

كلثوم بن الهذم: ٧١.

كلدة بن الحنبل: ٤٧١.

كناز بن حصن = كزاز بن حصين (أبو مرثد

الغنوي): ٦٧، ١٢٤.

كنانة بن أبي الحقيق: (انظر كنانة بن الربيع بن

أبي الحقيق).

كنانة بن الربيع (أخو أبي العاص): ٤٥٣.

كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق: ٤٧، ٢٧٥.

٣٨٣، ٤٠١، ٤١٢.

كنانة بن عدي بن ربيعة: ٤٥٣.

الكندي (والد أكيدر): ٥٠٤.

(ل)

كيسان (مولى عتاب بن أسيد): ٤٨٥.

لامنس: ٢٩٩.

لاوي بن يعقوب: ٣٨٣.

لبابة بنت الحارث الهلالية = لبابة الصغرى

(أم خالد): ٣٨٧.

لبابة بنت الحارث الهلالية = لبابة الكبرى

(أم الفضل): ١٦٠، ١٧٨، ٣٠٧، ٣٨٦.

٣٨٧.

لبابة الصغرى = لبابة بنت الحارث (أم خالد).

أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري: ١٢٤، ١٢٥.

١٥٢، ٤٠٧، ٤٠٨، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢.

٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧.

لبابة الكبرى = لبابة بنت الحارث الهلالية

(أم الفضل).

ابن اللبية = عبد الله بن اللبية.

أبو لهب = عبد العزى بن عبد المطلب.

ابن لهيعة = عبد الله بن لهيعة.
اللورد اللبني: ٩٣.
لوط عليه السلام: ٢٦٥، ٦٥٩.
لؤي بن غالب: ٢٦٣.

(م)

مابور: ٣٦٢.
مارية القبطية: ٣٠٣، ٣٦٢، ٤٩٠، ٤٩١.
٥٨٢، ٦٢٠، ٦٢٤، ٦٢٥.
مالك بن أنس (الإمام): ٣٥، ٩٨، ٢١٧، ٤٥٩، ٥٥٨.
مالك بن الدخشم: ٥٠٨.
مالك بن سنان (والد أبي سعيد): ٢٠٠.
مالك بن صيف: ٤٧، ٣٩٢.
مالك بن عوف النصري: ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٣.
٤٧٥، ٤٨٠، ٦٤٩.
مالك بن مرارة الرهاوي: ٥٥١.
مالك بن نويرة: ٥٦١.
الماوردي = علي بن محمد.
المنثي بن حارثة: ١٧٨.
مجاهد بن مسعود: ٤٥٧.
مجالد بن مسعود: ٤٥٧.
مجاهد: ٥٢٣.
المجدع في الله = عبد الله بن جحش.
مجدي بن عمرو الجهني: ٦٧، ١٣٢.
مجمع بن جارية: ٥٠٨.
مجمع بن حارثة: ٣٣٨.
أبو محجن الثقفي: ٣٥٢.
محرز بن فضلة: ٣٦٨.
محسن بن علي بن أبي طالب: ١٧٩.
محمد: ٦١٤.
محمد بن إبراهيم بن المنذر = ابن المنذر: ٧٥.
محمد بن أحمد = القرطبي المفسر: ٣١٢.
محمد بن أحمد بن عثمان = الذهبي: ٢٤٨، ٥٨١.

محمد بن إدريس الشافعي: ٣١٧، ٤٥٩، ٤٦٠، ٥٣١، ٥٦٣.

محمد بن إسحاق بن خزيمة: ٦٥، ١١١.
محمد بن إسحاق الفاكهي = الفاكهي: ٣٨٢.
محمد بن إسحاق بن يسار: ٤٣، ٤٧، ٥٠، ٦٤.
٦٨، ٧٤، ١٤٥، ١٥١، ١٥٢، ١٦٠، ١٧٧.
١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٦، ٢١٧.
٢٣٥، ٢٥٢، ٢٦٤، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٦.
٣٣١، ٣٥٢، ٣٧٧، ٣٩١، ٣٩٧، ٤١٢.
٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٤٣.
٤٥٣، ٤٧٣، ٤٨٩، ٥٠٠، ٥٠٢، ٥٠٧.
٥٢٣، ٥٣٥، ٥٣٧، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٤.
٥٤٦، ٥٥٥، ٥٦١، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٩٤.
٦٦٦.

محمد بن إسماعيل البخاري: ١٢، ١٥، ١٦.
١٨، ٢٠، ٢٥، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٧.
٤٠، ٤١، ٥٤، ٥٦، ٦١، ٦٣، ٦٦، ٨٠.
٨٢، ٨٦، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠.
١١٢، ١٢٤، ١٣٠، ١٤٣، ١٥٢، ١٥٥.
١٦٠، ١٦٢، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٩.
٢٠١، ٢٠٤، ٢١٦، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٤١.
٢٤٩، ٢٥٨، ٢٧٨، ٢٩٧، ٣٠٩، ٣١٠.
٣٢١، ٣٢٣، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٥٤.
٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٨١، ٣٨٢، ٤١٨.
٤٣١، ٤٤٤، ٤٩٧، ٥٠٢، ٥١٢، ٥٣١.
٥٣٤، ٥٣٧، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٤، ٥٤٦.
٥٥٢، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٧٨، ٥٨٧، ٦١٣.
٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٩، ٦٣١، ٦٣٤.
٦٣٥، ٦٣٨.

محمد بن أبي بكر = ابن القيم: ٢٥، ٢٦٤.
محمد بن أبي بكر الصديق: ٤٣١.
محمد بن جرير الطبري: ٢٢، ٧١، ٧٥، ٨٤.
١٢٥، ١٥٢، ٢٥٢، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٥٠.
٦٢٤.

محمد بن جعفر بن أبي طالب: ٤٣٠.
 محمد حسين هيكل: ٦٩، ٧٠، ١٩٧، ٢٩٩، ٣٩٥، ٣٢٦.
 محمد الحضري: ١٣٨، ١٨١، ٢٤٦، ٣٣٣، ٣٧٧، ٣٨٦، ٤٢٥.
 محمد بن سعد = ابن سعد: ٥٠، ٦٣، ٦٤، ١٢٥، ١٩٧، ٣٨٣، ٣٨٦، ٣٩٨، ٤١٣، ٤٣٢، ٤٦٩، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٥٨، ٥٦١، ٥٦٤، ٥٩٤.
 محمد بن عبد الله = الحاكم: ٥٢، ٧٥، ١٠٤، ١٠٨، ١١١، ١٦٠، ٢٥٢، ٢٦٤، ٢٨٩، ٣٣٨، ٤٥١، ٤٦١، ٥٦٥.
 محمد بن عبد الله = ابن العربي: ٢٩٧، ٥٦٠، ١٧٩، ١٧٨، ٦٨، ٣٩٨، ٣٨٣، ٢٤٤، ٢١٦، ٢٠٣، ١٩٧، ٤٧٥، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٦٤، ٥٩٤.
 محمد بن عيسى = الترمذي: ١٩، ٢٠، ٦٥، ٨٦، ٣١٢، ٣٣٨، ٣٨١، ٣٨٤، ٤٨٩، ٥٣٧، ٥٣٩، ٥٦١، ٦١٧، ٦١٩، ٦٥٨.
 محمد بن محمد بن عبد الكريم = ابن الأثير: ٤٣٢.
 محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب = الزهري: ٧٥، ٨٤، ٩٦، ٢٩٧، ٣٣٩، ٥٦٤.
 محمد بن مسلمة الأنصاري: ١٩٨، ٢٥١، ٣٢١، ٣٣٢، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٨٣، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤١٧، ٤٩٧، ٥١٠.
 محمد بن يزيد = ابن ماجه: ١٩، ٢٠، ٦٥، ١١١، ٤٨٩، ٥٣٠، ٥٣٤، ٦٥٨.
 محمود بن عمر = الزمخشري: ٢٧٢، ٢٩٨، ٦٥٧، ٦٥٨، ٣٨٣، ٣٣٦، ٤١٧.
 مخزومة بن نوفل: ١٢٨.
 مخشي بن عمرو الضمري: ١١٧.
 مخيريق: ٤٧.
 مذكور: ٢٥١.
 مرارة بن الربيع العمري: ٥١٢، ٥١٣.
 أبو مرثد الغنوي = كنان بن حصن.
 مرثد بن أبي مرثد الغنوي: ١٢٤، ٢٣٥.
 مرحب اليهودي: ٤١٦، ٤١٧.
 مرداس (والد العباس): ٤٨٢.
 مرداس بن نهيك: ٣٧٣.
 ابن مردويه = أحمد بن موسى.
 المرزبانة (زوجة باذان): ٥٨٤.
 مريم (أم المسيح عليه السلام): ٢٧٥، ٢٧٣، ٥٤٧.
 أم المساكين = زينب بنت خزيمة.
 أبو مسروح = أنسة (مولى النبي).
 مسروق بن الأجدع: ٦٢، ٣٠٤.
 أم مسطح: ٢٥٩.
 مسطح بن أثاثه: ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٨.
 أبو مسعود البصري = عقبة بن عمرو.
 مسعود بن سنان الأسلمي: ٤١٢.
 مسعود بن عمرو الغفاري: ٤٧٢.
 المسعودي = علي بن الحسين.
 مسلم بن الحجاج: ١٥، ١٩، ٢٠، ٢٥، ٣١، ٣٤، ٤٠، ٤١، ٥٠، ٦٦، ٨٠، ٨٢، ٨٦، ٨٧، ٩٧، ٩٨، ١٠٥، ١٠٧، ١١٢، ١٤٥، ١٥٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٠، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١٦، ٢٥٨، ٢٧٠، ٢٧٨، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٥٥، ٣٦٣، ٣٨١، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٩، ٤٩٧، ٥١٢، ٥٣٤، ٥٣٧، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٧، ٥٩٨، ٦٠٠، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٧، ٦١٨، ٦٢٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٤٩، ٦٥٨.
 مسلمة بن أسلم: ٢٨٢.
 المسيح = عيسى عليه السلام.
 مسلمة الكذاب: ١٠٠، ٢٠٣، ٢١١، ٥٤٥، ٥٨٣، ٥٤٦.

مصعب بن عمير: ٤٩، ١٢٤، ١٤٨، ١٥٣،
١٥٤، ١٥٥، ١٧٣، ١٨٩، ١٩٦، ٢٠٢،
٢١٢، ٢١٥، ٢٤٣.

المصطلق = خزيمه بن كعب.

المطلب بن حنطب المخزومي: ١٦٤.

المطلب بن أبي وداعة السهمي: ١٥٨.

ابن المطهر الرافضي = الحسن بن يوسف.

معاذ بن الحارث بن رفاعه = معاذ بن عفراء: ١٤٩.

معاذ بن جبل: ٤٩، ٥٠، ١٠٨، ١١٤، ٤٨٥،

٥١٣، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٨٧.

معاذ بن عفراء = معاذ بن الحارث.

معاذ بن عمرو بن الجموح: ١٤٩.

معاوية بن أبي سفيان: ٨٣، ٢١٧، ٢٦٥، ٣٥٠،

٣٨٥، ٤٨١، ٦٠٣.

أم معبد = عاتكة بنت خالد.

معبد بن أبي معبد الخزاعي: ٢٢٨.

معتب بن قشير: ٤٨٣، ٥٠٧.

أبو معشر: ٢٥٢، ٤٥١.

معن بن عدي بن الجلد بن عجلان: ٥٠٨.

معوذ بن الحارث بن رفاعه = معوذ بن عفراء:

١٣٨، ١٤٩، ١٥٤، ١٨١.

معوذ بن عفراء = معوذ بن الحارث.

المغيرة بن شعبة: ٣٢٩، ٣٣٠، ٤٧٧، ٥٢٩،

٥٣٠، ٥٣١.

المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: ٢٧.

المغيرة بن نوفل بن الحارث: ٤٩٠.

المقداد بن عمرو: ٦٨، ٨٣، ٨٤، ١٢٤، ١٣٠،

١٥٥، ١٧٣، ١٩٨، ٣٦٨، ٣٧٤، ٤٣٧،

٥٢٠.

المقرئ = مصعب بن عمير.

المقوقس: ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٢، ٤٦٩، ٤٩٠.

مقيس بن صبابه: ٢٥٧، ٤٥١، ٤٥٢.

ابن أم مكتوم = عبد الله بن أم مكتوم.

مكحول (غلام الشيباء): ٤٨٠.

مكرز بن حفص: ١٥٩، ٣٢٨، ٣٣٢، ٣٣٦،

٣٧٦.

ملاعب الأسنة = عامر بن مالك.

ملك أيلة = ميحة بن رؤبة.

ملك بني الأصفر = قيصر.

ملك غسان: ٥١٤، ٥١٧.

المنبث: ٤٧٦.

ابن المنذر = محمد بن إبراهيم بن المنذر.

المنذر بن ساوى: ٣٦٣.

المنذر بن عائذ = الأشج: ٥٤٤.

المنذر بن عمرو: ٢٣٩، ٢٤٠.

منذر بن محمد بن عقبة: ٢٤٠.

المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة: ٥٦١، ٥٨٤.

موسى عليه السلام: ١٠٦، ١٠٧، ١٣٠، ١٣١،

١٥٧، ١٧٥، ١٧٦، ٢٢٧، ٢٦٦، ٢٧٣،

٣٢٧، ٣٤٩، ٣٨٤، ٣٩٢، ٤٦٨، ٤٨٣،

٤٩٧، ٥٩٤، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦،

٦٥٨.

أبو موسى الأشعري = عبد الله بن قيس.

موسى بن عقبة: ٣٠، ٢٥٢، ٣٧٧، ٥٣٠،

٥٦٣، ٥٦٤.

مؤمن آل فرعون: ١٤٤.

مؤنس بن فضالة: ١٨٧.

أبو مويهبة (مولى النبي): ٥٨٨.

موير = وليم موير.

ميكايل: ٦٢٤.

ميمونة بنت الحارث الهلالية: ٣٠٧، ٣٧٨، ٣٨٦،

٣٨٧، ٤٤٤، ٥٨٨، ٦٢٠، ٦٤٥.

(ن)

أبو نائلة = سلكان بن سلامة بن وقش.

نبتل بن الحارث: ٤٣، ٥٠٨.

النجاشي (وانظر أصحمة): ١٠٩، ١١٠، ٣١٥،

٣١٦ ، ٣٣٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٤٢٣ ، ٦٦٣ .

النسائي = أحمد بن علي .

نسطاس : ٢٣٧ .

النسفي المفسر = عبد الله بن أحمد .

نسبية بنت كعب = أم عمارة : ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ .

النضر بن الحارث : ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٧٥ .

النعمان (قيل ذي رعين) = ذو رعين .

نعمان بن أوفى : ٤٤ .

النعمان بن بشير : ٧١ .

النعمان بن ثابت = أبو حنيفة : ٤٥٩ .

أبو نعيم = أحمد بن عبد الله .

نعيم الداري (أخو تميم) : ٥٥٤ .

نعيم بن عبد كلال : ٥٥١ .

نعيم بن مسعود الأشجعي : ١٨٥ ، ٢٤٣ ، ٢٨٥ .

٢٨٦ .

نقيس = نبش بن إسماعيل .

نقيع بن الحارث = نقيع بن مسروح .

نقيع بن مسروح (= أبو بكره ، نقيع بن الحارث) :

٤٧٥ ، ٥٧٨ .

نخيلة بن عبد الله الليثي : ٣٢٦ ، ٤٥٢ .

نوح عليه السلام : ١٥٧ ، ١٧٦ ، ٢٦٥ ، ٦٠٣ .

٦٠٤ ، ٦٠٥ .

نوفل بن الحارث بن عبد المطلب : ١٦٠ .

نوفل بن خويلد بن العدوية = أسد قريش : ١٤٩ .

نوفل بن عبد الله بن المغيرة : ٢٨٣ .

نوفل بن معاوية الدثلي : ٤٧٧ .

النووي = يحيى بن شرف .

(ه)

هارون عليه السلام : ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٤٩٧ .

ابن أبي هالة = هند بن أبي هالة .

هالة بنت خويلد : ٦٤٤ .

أم هانئ بنت أبي طالب : ٤٤٥ ، ٤٦٠ .

هبار بن الأسود : ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٨٨ .

هيرة بن أبي وهب المخزومي : ٤٤٥ .

هرقل (وانظر قيصر) : ٩٨ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ .

٤١٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٥٠٧ ، ٦٦٢ .

أبو هريرة = عبد الرحمن بن صخر .

ابن هشام = عبد الملك بن هشام .

هشام بن صبابه : ٢٥٣ ، ٢٥٧ .

هشام بن عروة بن الزبير : ٣٠٤ .

هشام بن محمد بن السائب = ابن الكلبي : ٤٥ ،

٥٠٧ .

هشام بن الوليد بن المغيرة : ١٦١ .

هلال بن أمية الواقفي : ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٥ .

هلال بن عامر بن صعصعة : ٢٤٦ .

أبو هند (خالق إبراهيم ابن النبي) : ٤٩١ .

هند بنت أبي أمية = أم سلمة (أم المؤمنين) : ٣٦ ،

٢١٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ .

٣٠٧ ، ٣٣٧ ، ٤١٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ .

٤٧٥ ، ٦٢٠ .

هند بنت أبي سفيان = رملة بنت أبي سفيان .

هند بنت طارق بن بياضة : ١٩٢ .

هند بنت عتبة : ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ .

١٩٥ ، ٢٠٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٨ .

هند بن أبي هالة : ٦١٠ .

هوذة بن علي (ملك اليمامة) : ٣٦٤ .

هيكل = محمد حسين هيكل .

(و)

واشنطن لإرفنج : ٢٩٩ .

واقد بن عبد الله بن عبد مناف التميمي : ١١٩ ،

١٢٠ .

الواقدي = محمد بن عمر .

واثل بن حجر بن ربيعة : ٥٥٢ ، ٦١٦ .

وحشي بن حرب = أبو رسة : ١٨٧ ، ١٩٤ .

٢٠٣، ٢٠٧، ٢١١، ٤٥١، ٤٥٣، ٤٥٤.

وحيد قریش = الوليد بن المغيرة.

أبو وداعة بن ضبيرة السهمي: ١٥٨.

وردان: ٤٧٦.

أبو الوليد = عتبة بن ربيعة.

الوليد بن عبد الملك: ٣٣، ٥٩٩.

الوليد بن عتبة بن ربيعة: ١٣٨، ١٣٩، ١٤٩.

الوليد بن عقبة بن أبي معيط: ٣٤٩، ٤٩١.

الوليد بن الوليد بن المغيرة: ١٦١، ٤٢٤.

وليم موير: ٢٩٩.

وهب بن محصن = أبو سفيان بن محصن (أخو

عكاشة): ٣٣١.

وهب بن عمير بن وهب الجمحي: ١٦٣، ٦٦٨.

وهب بن يهودا: ٤٧.

(ي)

أبو ياسر بن أخطب (أخو حيي): ٤٧.

ياسر اليهودي (أخو مرحب): ٤١٧.

ياسين = إلياس.

يامين بن عمرو: ٤٩٧.

يحنس: ٤٧٦.

يحنة بن رؤبة (= صاحب أيلة، ملك أيلة): ٤٦٩.

٥٠٣، ٥٠٢.

يحيى بن شرف النووي: ٤٦٠، ٥٦٢.

يحيى بن المغيرة بن نوفل: ٤٩٠.

أبو يزيد = سهيل بن عمرو.

يزيد بن حاطب بن أمية: ٤٤.

يزيد بن أبي سفيان: ٤٨١، ٥٦١.

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: ٨٣، ٢٤٨.

يسار بن مالك الثقفي: ٤٧٥.

اليسع: ٥٢٨.

يسوع = عيسى عليه السلام.

يعقوب عليه السلام: ٢٦٢، ٢٦٧.

يعقوب: ٥٢٣.

يعقوب بن سفيان: ٥٦٤.

أبو يعلى = أحمد بن علي.

أبو اليقطان = عمار بن ياسر.

اليمان (والد حذيفة) = حسيل بن جابر.

يوسف عليه السلام: ٢٧٣، ٥٨٩، ٦٥٨.

أبو يوسف (قنن بالمدينة): ٤٩١.

يوسف بن عبد الله = ابن عبد البر: ٥٢، ١٠٣.

٢٠٣، ٢٤٦، ٣٨٧، ٤٥٣، ٤٨٨، ٥٠٧.

يونس بن حبيب: ٦١٤.

[انتهى فهرس الأعلام]

٤ - فهرس القبائل والأمم والجماعات والدول والممالك والحضارات (*)

الأحزاب: ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤٤٧ ،
٥٧١ ، ٥٨٠ ، ٦٤٥ .
أحمس (إخوة بجيلة): ٥٥٦ ، ٥٥٧ .
إرم: ٤١ ، ٣٩٣ .
الإريسيون: ٣٥٨ .
الأزد: ٥٥٣ .
أسد (بنو): ٢٧٦ ، ٥٦١ .
إسرائيل (بنو): ٤٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٧٥ ، ٢٢٧ ،
٢٦٥ ، ٣٢٧ ، ٣٩١ .
أسلم (قبيلة): ٣٢٧ ، ٥١٥ .
إسماعيل عليه السلام (بنو، أولاد): ٦١٨ .
أشجع (بنو): ٢٧٦ ، ٤٣٣ .
الأشعريون: ٣٧١ ، ٥٥٢ .
أصحاب أحد: ٥٩١ .
أصحاب (أهل) الإفلك: ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ،
٢٧٢ .
أصحاب بئر معونة: ٢٣٩ .
أصحاب بيعة الرضوان: ٣٤٥ ، ٣٤٦ .
أصحاب سرية الرجيع: ٢٨٢ ، ٣٢٢ .

(أ)
آدم (بنو): ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٤٣٨ ، ٦٠٦ ،
٦١٩ ، ٦٢٩ ، ٦٥٨ ، ٦٧٢ .
آل أبي بكر: ٣٦ ، ٢٦٧ .
آل البيت (= آل بيت النبي ، آل رسول الله):
١٨٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ،
٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٤٧٠ ، ٤٩٩ ، ٥٣٤ ، ٥٣٩ ،
٥٨١ ، ٥٩٠ ، ٥٩٨ .
آل جعفر: ٤٣٠ ، ٤٣١ .
آل سعود: ٣٤ .
آل عفراء: ١٥٤ .
آل فرعون: ١٤٤ .
آل يسار بن مالك: ٤٧٥ .
إبراهيم عليه السلام (بنو): ٦١٨ .
الأنباء (من فارس): ٣٦١ .
الأخوات المؤمنات: ٣٨٧ .
أخوال عبد المطلب: ٢٣ .
الأحاييش: ٨٨ ، ١٨٦ ، ٢٠٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
٣٣٠ .
أخبار اليهود = الأخبار: ٢٨ ، ٢٩ .

(*) أسقطت في هذا الفهرس: بنو، قبيلة، دولة، مملكة، حضارة، قوم، ووضعتها على اليسار بين قوسين () لتسهيل الكشف عن المراد.

أصحاب سورة البقرة: ٤٧٠.

أصحاب الشجرة: ٤٧٠.

أصحاب القلب: ١٦٣، ٦٦٩.

أصحاب مؤتة: ٤٢٩.

الأصفر (بنو) = الروم.

الأقيال: ٥٥٢، ٦١٦.

الأكاسرة: ٣٥.

أمهات المؤمنين (= زوجات النبي، نساء النبي):

٢٤٨، ٢٤٩، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٩٦، ٣٠٣.

٣٠٤، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٦.

٣٨٤، ٤٨٨، ٦٢٠، ٦٣٥.

أمية بن زيد (بنو): ٥٠٧.

أنباط أهل الشام: ٥١٤.

الأنصار = أنصار الله: ١٣، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧.

٣٠، ٣٢، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٦، ٤٩.

٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧.

٥٩، ٧١، ٧٤، ٨٩، ٩٦، ١٠٦، ١٠٨.

١١٧، ١٢٤، ١٣٠، ١٣٨، ١٤٣، ١٤٥.

١٤٧، ١٤٩، ١٥٣، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣.

١٦٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٨١، ١٨٨.

١٩٢، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٥.

٢١١، ٢١٢، ٢٣٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤.

٢٥٥، ٢٦١، ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٥، ٣٢٦.

٣٧٣، ٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤١٢، ٤٢٦.

٤٣٩، ٤٤٢، ٤٥٢، ٤٥٩، ٤٦٢، ٤٧٠.

٤٨٠، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧.

٤٩١، ٤٩٦، ٥٧٧، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٩١.

٥٩٥، ٥٩٦، ٦١٢، ٦١٤، ٦٥٠، ٦٦٩.

أهل بدر: ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ٢٣٢.

٥٠٧، ٥٦٠.

أهل الثلث = النصارى.

أهل (أعراب) غمامة: ١٨٦.

أهل السفينة: ٣٧٢، ٤١٨.

أهل الصفة: ١٨، ٢٣٩، ٦٣٨، ٦٦٠.

أهل التفاق (وانظر: المنافقون): ١٨٩، ٤٠٠.

الأوس: ٤١، ٤٤، ٤٦، ٦٠، ٨٩، ١١٧.

١٨٩، ١٩٢، ٢٦١، ٢٨١، ٣١٩، ٣٨٩.

٣٩٠، ٣٩٣، ٣٩٨، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩.

٤١٢، ٤٦٨، ٤٩٩، ٦١٢.

إياد (قبيلة): ١٩٢.

(ب)

البابوات: ٩٣.

بجيلة (قبيلة): ٣٢٣، ٥٥٦.

البروتستانت: ١٦٧.

البكاؤون: ٤٩٦، ٥١٠، ٥٢٣.

بكر (بنو، قبيلة): ١٨٧، ٣٢٣، ٤٣٥، ٤٤٤.

بكر بن عبد مناة (بنو): ١٢٦.

بكر بن كلاب (بنو): ٣٢١.

بكر بن وائل (بنو): ١٨٥.

بلي: ٤٢٦، ٤٣٢.

بهاء (قبيلة): ٤٢٦.

(ت)

التبابعة: ٦٥٢.

التتار: ١٠١.

تغلب (قبيلة): ٥٥٤.

تميم (بنو، قبيلة): ٤٨٣، ٥٤٢، ٥٥٢.

تيم الرباب: ٣٢٣.

(ث)

ثعلبة (بنو): ١٨٤، ٣٧٠.

ثقيف (قبيلة): ٨٨، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧٣.

٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٨٠، ٥٠٥، ٥٢٨.

٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٤١، ٦٠٥، ٦٣٩.

ثمود (قبيلة، قوم): ٥٠٢.

(ج)

- الجارودية (فرقة): ٦٥.
جذام (قبيلة): ٨١، ٤٢٦.
جذيمة (بنو): ٤٦٥، ٤٦٤.
جشم (بنو): ٥٧، ٤٦٧.
جهينة (قبيلة): ١١٧، ١٢٣، ٤٨٦.

(ح)

- الحارث بن الخزرج (بنو): ٢٤، ١٦٤.
الحارث بن عبد مناف بن كنانة (بنو): ٣٢٩.
الحارث بن عمرو (بنو): ٢٣٦.
الحارث بن فهر (بنو): ١٦٠.
الحارث بن كعب (بنو): ١٦٠.
الحارث بن كعب (بنو): ٥٥٥.
حارثة (بنو): ١٠٤، ١٠٦، ١٨٩، ٢٩٠، ٢٩١.
الحجاج (بنو): ١٣٢.
الحجبة (حجبة الكعبة) = الشيبون.
الحقيق (بنو أبي): ٣٨٣.
الحلفاء: ٩٣.
الخميس = قريش.
جَمِير: ٥٥١.
حنظلة (بنو): ٥٦١.
حنيفة (بنو، قبيلة): ٩٩، ٣٢١، ٣٤٥، ٥٤٥.
٥٨٣.
الحواريون: ٣٥٨.

(خ)

- خثعم: ٥٥٧.
خزاعة (بنو): ١٨٧، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٥٢، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٣، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٤٠، ٤٥٥.
٥٤٢، ٤٦٦.
الخزرج: ٤١، ٤٤، ٤٦، ٦٠، ٧١، ٨٩، ١١٧، ١٨٩، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٨١، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٣، ٤٠٨، ٤١٢، ٤٦٨، ٤٩٩، ٥٣٤، ٦١٢.

الحوارج: ٨٣، ٥٦٠.

(د)

- الدار (بطن من لحم): ٥٥٤.
الداريون: ٥٥٤.
دينار (بنو): ٢٠٤.

(ذ)

- ذبيان (بنو): ٤٣٣.
ذكوان بن ثعلبة (بطن من شكيم): ٢٣٩، ٢٤١، ٢٦٤.

(ر)

- الرافضة = الروافض: ٥٤٠، ٥٦٠.
رِغْل (من سُلَيْم): ٢٣٩، ٢٤١.
الركوسية: ٥٤٩.
الروم (= الرومان، بنو الأصفر): ٨١، ٩٠، ٩٣، ٩٨، ٣٤٥، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦١، ٤١٩، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٦٩، ٤٩٥، ٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٧، ٥٨٥، ٦٥٢، ٦٦٢.
الروم (دولة): ١٢، ٩٠، ٣٥٧.

(ز)

- الزنادقة: ٢٩٩.
زوجات النبي = أمهات المؤمنين.
زهرة (بنو): ١٢٨.

(س)

- ساعدة (بنو): ٢٤، ٥٧، ٥٩٥.
سالم بن عوف (بنو): ٢١، ٢٣، ٩٦.
سعد (بنو): ٢٧٦.
سعد بن بكر (بنو): ٤٦٧، ٦١٢، ٦١٣.
سعد بن زيد (بنو): ٥٦١.
سعنة (بنو): ٢٨١.
سَلِمة (بنو): ١٠٤، ١٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٥١٣.

سلول (بنو): ٢٤٠، ٥٥٠.

سليم بن منصور (بنو): ١٨٣، ١٨٥، ٢٣٩،

٢٤٢، ٢٦٤، ٢٧٦، ٤٣٣، ٤٣٩، ٥٦١.

السوفسطائيون: ٦٠٢.

السويق (جيش): ٢٤٣.

(ش)

شبية (بنو): ٤٤٧.

الشيبيون = الحجة: ٤٤٧.

الشيعة: ٣٨٢.

الشيوعية: ١١٥.

(ص)

الصابئة: ٥٤٩.

الصليبيون: ١٠١.

(ض)

ضمرة (بنو): ١١٧، ١١٨.

(ط)

طيء: ٣٩٧، ٤٩٣، ٥٤٩، ٥٥١، ٥٦١.

(ظ)

.....

(ع)

عاد (قبائل، قوم): ٤١، ٣٩٣.

العاص بن سعيد (بنو): ١٣٢.

عامر (بنو) (قوم أبي براء): ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢،

٣٩٩، ٥٥٠، ٥٥١.

عامر (بنو): ٨٨.

عامر بن لؤي (بنو): ٤٠.

عبد الأشهل (بنو): ٢٤، ٥٠، ١٧٨، ٥٩٥.

عبد الدار (بنو): ١٩١، ١٩٤.

عبد شمس (بنو): ١٧٧، ٤٦٨.

عبد القيس (بنو، قبيلة): ٢٢٩، ٥٤٢، ٥٤٤.

عبد المطلب (بنو): ٤٣٧، ٤٥١، ٤٧٩، ٤٨٠،

٥٧٧، ٥٨٩، ٦٤٧.

عبد مناف بن قصي (بنو): ٤٤١.

عيس (بنو): ٤٣٣.

عدي بن كعب (بنو): ١٢٦، ١٢٨، ٣٣٠، ٤٤١.

عدي بن النجار (بنو): ١٦٩.

عرينة: ٣٢٣.

عصية: ٢٣٩، ٢٤١.

عضل (بطن): ٢٣٥، ٢٨٢.

عكل: ٣٢٣.

عمرو بن عوف (بنو): ١٨، ٣١، ٤٧، ٥٧، ٧١،

١٥٢، ٤٠٧.

عوف (بنو): ٥٧.

عوف بن الخزرج (بنو): ٢٥٤.

(غ)

غطفان (بنو، قبيلة): ٨٨، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥،

٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦،

٢٨٨، ٢٨٩، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٠، ٤٠٩،

٤٣٩.

غفار (بنو): ١٨٧، ٢٥٤، ٣٦٧، ٤٤٢، ٥٢٣.

غيرة (بنو): ٤٧٣.

(ف)

فارس (دولة): ١٢، ٩٠، ٣٥٧.

فراس (بنو): ٥٦١.

الفرس = فارس: ١٧٨، ١٩٢، ٢٩٩، ٣٤٥.

٣٦١، ٣٦١.

فرعون (قوم): ٢٢٧.

فزارة (بنو): ٢٧٦، ٤٣٣.

فهر: ٥٤٣.

(ق)

القارة (قبيلة): ٢٣٥، ٢٨٢.

القطب: ٣٦١، ٣٦٢.

القراء: ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢.

كعب (بنو) (من هوازن): ٤٦٧.
 كلاب (بنو) (من هوازن): ٤٦٧.
 كلب (قبيلة): ٤٦٦.
 كنانة (أعراب): ١٨٦.
 كنانة (بنو، قبائل): ١٢٧، ١٨٦، ٢٠٧، ٤٣٧، ٤٦٥، ٥٨٠، ٦١٨.
 كندة (بنو، قبيلة) = الكنديون: ٥٥٣.
 الكنديون = كندة.

(ل)

لحيان (بنو): ٢٣٤، ٢٣٥، ٣٢٢.
 لحم (قبيلة): ٨١، ٤٢٦، ٥٥٤.

(م)

مالك بن النجار (بنو): ٢٤.
 المبشرون: ٩، ٩١، ٩٢، ٩٣، ١٠١، ١٠٢.
 ١٦٧، ١٦٨، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٨، ٥٠٨.
 المجوس: ٣٦١.
 محارب (بنو): ١٨٤، ٣٧٠، ٥٤٢.
 مخزوم (بنو): ٥٧٠.
 مذحج (قبيلة): ٥٥٦.
 المرتدون: ١٠٠، ٢٢٢، ٣٤٥.
 مرة (بنو): ٢٧٦، ٣٧٣، ٤٣٣.
 مزينة: ٤٣٩، ٥٤٢.
 المستشرقون: ٩، ٦٩، ٧٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ١٠١، ١٠٢، ١٦٧، ١٦٨، ٢٤١، ٢٩٩.
 ٣٠١، ٣٠٨، ٥٨٣.
 المسيحية: ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ١٦٧.
 المسيحية (الدول): ١٦٨.
 المسيحيون: ٩٣، ١٦٧.
 المصطلق (بنو): ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٣٠٧، ٤٩١، ٣٢٩.
 مضر (قبائل): ٢٤٠، ٤٦٥، ٥٤٤، ٦١٨.
 المطلب (بنو): ١٣٨، ١٧٥.

قریش (قبيلة): ٤٠، ٥٢، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٨٨، ١٠٠، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٧، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٣، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٩١، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٥٢، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٠٠، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٩، ٣٥٧، ٣٧٦، ٣٧٩، ٣٩٤، ٤٠٩، ٤١٤، ٤١٥، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٥٣، ٤٥٦، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٥، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧١، ٤٨٣، ٤٨٧، ٤٨٨، ٥٠٧، ٥١٢، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٤٤، ٥٦٣، ٥٧٢، ٥٨٣، ٥٩٦، ٦٠٥، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٨، ٦٥٧، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧١.
 قريظة (بنو): ٤٥، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣١٩، ٣٢١، ٣٩٣، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٤.
 قضاة: ٤٣٢.
 القياصرة: ٣٥.
 قيلة (بنو): ٣٩٠.
 القين (قبيلة): ٤٢٦.
 قينقاع (بنو): ٤٥، ٢٧٥، ٢٨٥، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٠٠، ٤٠٤، ٤٠٨، ٤١٠.

(ك)

الكاثوليك: ١٦٧.

معافر: ٥٥١.

المنافقون: ١٦، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ١٠٥، ١١٩،
١٢٠، ١٥١، ١٥٩، ١٧١، ١٨٨، ٢٢٠،
٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٦، ٢٥٧،
٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٨، ٢٨٢،
٢٨٣، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢، ٣٤٣، ٤٠٤،
٤٠٩، ٤٨٣، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠،
٥٠٥، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥١٠، ٥١١، ٥٢١،
٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٣٣، ٦٥٨،
٦٦٠.

مهاجرو الحبشة: ٣١٥، ٣٦٣، ٣٧١.

المهاجرون: ٢٧، ٣٠، ٣٢، ٣٩، ٤٠، ٤٢،
٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٥٩،
٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٨٩، ١١٧،
١١٩، ١٢٤، ١٤٣، ١٤٥، ١٥٣، ١٧٥،
١٨١، ١٨٨، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠،
٢١١، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٧٧، ٢٨٠، ٣٢٦،
٣٧٩، ٣٩٠، ٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٢٦،
٤٣٢، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٢، ٤٦٨، ٤٧٠،
٤٨٠، ٤٨٥، ٤٩٩، ٥١٥، ٥٧٧، ٥٨٥،
٥٨٦، ٥٩١، ٥٩٥، ٥٩٦، ٦١٢.

موسى (قوم): ٤٦٨.

(ن)

نبهان (بنو): ٣٩٧.

النبيت (بنو): ٥٧.

التجار (بنو): ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣١، ٣٢، ٥٧،
٧١، ٧٢، ١٣٩، ١٦١، ٢٤٩.

نجد (قبائل): ٨٨.

نساء النبي = أمهات المؤمنين.

النصارى: ٣٣، ٣٤، ٦٣، ٦٤، ٧٤، ٩٦، ٩٨،
٣٦٣، ٤١٩، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٤، ٦٠٠،
٦٥٦، ٦٣٥.

نصر (قبيلة): ٤٦٧.

النصرانية: ٥٥٤.

النضير (بنو): ٤٥، ٢٧٥، ٢٨٥، ٣٨٣، ٣٩٣،
٣٩٧، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣،
٤٠٤، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤١٠، ٤١٤.

(هـ)

هاشم (بنو): ١٢٨، ١٣٨، ١٤٧، ١٥٩، ١٧٥،
٣٧٩، ٤٤٤، ٦١٨.

هجر: ٤٨٥.

هذيل: ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٤٥٥،
٤٦٦، ٥٦٣.

هلال (بنو): ٣٨٧، ٤٦٧.

همدان: ٥٥١.

هوازن (بنو، قبيلة): ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١،
٤٧٣، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٥٠٧، ٥٤١.

الهون بن خزيمه (بنو): ٢٣٥، ٣٢٩.

(و)

واثل (قبيلة): ٢٧٥.

الوثنية: ٢٧٥، ٢٧٦، ٣١٧، ٦٣٠.

الوجوديون: ٦٠٢.

وفد أحس: ٥٥٦.

وفد الأزد: ٥٥٣.

وفد أهل نجران: ٥٤٦.

وفد أهل اليمن: ٥٥٢.

وفد بجيلة: ٥٥٦.

وفد بني تميم: ٥٤٢، ٥٥٢.

وفد بني حنيفة: ٥٤٥، ٥٨٣.

وفد بني عامر: ٥٥٠.

وفد تغلب: ٥٥٤.

وفد ثقيف: ٥٣٠.

وفد الدارين: ٥٥٤.

وفد رسول ملوك حمير: ٥٥١.

وفد زيد الخيل: ٥٥٠.

٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ،
٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ،
٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،
٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٥٣٣ ، ٦٠٠ ، ٦١٢ ، ٦٢٩ ،
٦٤٥ ، ٦٤٤ ، ٦٣٥ .

يهود بني الأوس : ٥٨ .

يهود بني ثعلبة : ٥٨ .

يهود بني جشم : ٥٨ .

يهود بني الحارث : ٥٨ .

يهود بني ساعدة : ٥٨ .

يهود بني الشطبية : ٥٨ .

يهود بني عوف : ٥٨ .

يهود بني النجار : ٥٨ .

يهود تيماء : ٤٢٠ .

يهود جفنة : ٥٨ .

يهود خيبر : ٣٨٣ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢١ .

يهود فلك : ٤٢٠ .

يهود المدينة : ١١٧ .

يهود وادي القرى : ٤٢٠ .

وفد ضمام بن ثعلبة : ٥٤١ .

وفد طيبي : ٥٤٩ .

وفد عبد القيس : ٥٤٢ ، ٥٤٤ .

وفد محارب : ٥٤٢ .

وفد مزينة : ٥٤٢ .

وفد النجاشي : ٦٦٣ .

وفد هوازن : ٤٧٩ ، ٤٨٠ .

وفد وائل بن حجر : ٥٥٢ .

(ي)

اليمن (ملوك) : ٥٥٢ .

اليهود : ١٦ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤١ ،

٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،

٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧١ ، ٧٤ ،

٧٥ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣١ ، ١٥١ ، ١٧١ ، ١٨٩ ،

٢٢٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،

٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،

٣٢١ ، ٣٢٧ ، ٣٤٦ ، ٣٦٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ،

[انتهى فهرس القبائل]

٥ - فهرس الأيام والغزوات والوقائع (*)

(أ)

الأبواء (غزوة) = ودان : ١١٧ ، ٥٦٣ .

أحد (غزوة) : ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ١٦١ ،
١٧١ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ،
٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٧٦ ،
٢٨٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٦ ، ٣٧٨ ،
٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ،
٦٤٥ ، ٦٤٢ ، ٦٣٤ .

الأحزاب (غزوة) = الخندق .

أرمينية (غزوة) : ٢٦٤ .

أسامة (بعث، جيش) : ٥٨٥ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ،
٦٠٠ .

الإسلام (حجة) = الوداع .

الإفك (حادثة، قصة) : ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ،
٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٣٠٩ .

أوطاس (سرية) : ٤٧٣ .

(ب)

بحران (غزوة) : ٥٦٣ .

بدر الآخرة (غزوة) : ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٧٥ ، ٥٦٣ .

بدر الأولى (غزوة) : ٨٨ ، ١١٨ ، ٥٦٣ .

بدر الكبرى (غزوة، يوم) : ١٢ ، ٣٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ،

٧١ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٨ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،

١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ،

٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ،

٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٦٠ ،

٢٨٣ ، ٢٩٣ ، ٣٤٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٣٨ ،

٤٥٢ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٥١٢ ، ٥٣٤ ، ٥٦٣ ،

٥٦٤ ، ٦٠٤ ، ٦٠٧ ، ٦٢٩ ، ٦٣٤ ، ٦٣٧ ،

٦٤٢ ، ٦٦٠ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ .

بشير بن سعد (سرية) : ٣٧٣ .

بعث (وقعة، يوم) : ٤١ ، ٣٩٠ .

البلاغ (حجة) : الوداع .

بواط (غزوة) : ١١٧ ، ٥٦٣ .

بئر معونة (سرية، يوم) = القراء (سرية) : ٨٨ ،

١٢١ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٣٩٩ .

(*) أسقطت هنا : غزوة، يوم، صلح، بيعة، ووضعيتها كذلك على اليسار بين قوسين () .

٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٤٢٣ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٦٣٤

الخندمة (يوم): ٤٤٥ .

خير (عام، فتح، يوم): ٣١٦ ، ٣٠٧ ، ٥٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٤ ، ٦٢٩ .

(د)

دومة الجندل (غزوة): ٢٥١ ، ٥٦٣ .

(ذ)

ذات الرقاع (غزوة): ٣٢٣ ، ٣٧٠ ، ٥٦٣ .
ذات السلاسل (غزوة): ٤٣٢ ، ٤٣٣ .
ذو أمر (غزوة) = غطفان: ١٨٤ .
ذو قرد (غزوة): ٣٦٧ .

(ر)

الرجال (بيعة - في فتح مكة): ٤٥٧ ، ٤٥٨ .
الرجيع (سرية): ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٨٢ ، ٣٢٢ .
الردة (حروب): ١٧٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٥٤٥ ، ٦٠٧ .
الرضوان (بيعة): ٢٠٣ ، ٣٣١ ، ٣٣٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ .
الرمادة (عام): ٦٠٧ .
الروم (فتوح): ٣٤٦ .

(ز)

زيد بن حارثة (سرية) = القردة: ١٨٥ .

(س)

سان بارتلمي (عجزة): ١٦٧ .
سعد بن أبي وقاص (سرية): ٦٨ .
أبو سلمة بن عبد الأسد (سرية): ٢٣٣ .
بنو سليم (غزوة): ٥٦٣ .

(ت)

تبوك (غزوة): ٢٥ ، ٤٤ ، ٣٤٣ ، ٤٦٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣٦ ، ٥٤١ ، ٥٥١ ، ٥٥٤ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٨٥ .

(ث)

الثورة الفرنسية: ١٦٧ .

(ج)

جسر أبي عبيد (يوم): ١٧٨ .
الجعرانة (همرة): ٤٨٤ .
أبي جندل (يوم) = الحديبية (صلح) .

(ح)

الحديبية (بيعة) = الرضوان .
الحديبية (صلح، عام، غزوة): ٩٠ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤٢٣ ، ٤٣٥ ، ٤٤٤ ، ٥٦٣ ، ٦٤٥ .
الحديبية (عمرة): ٣٧٥ .
هراء الأسد (غزوة): ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٤٤ ، ٥٦٣ .

هزة بن عبد المطلب (سرية): ٦٧ .

حنين (غزوة، يوم): ١٦٩ ، ٢٠٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٥٠٧ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٦١٢ ، ٦٤٢ ، ٦٤٩ ، ٦٦٠ .

خالد بن الوليد (سرية): ٥٥٥ .

الخنلق (غزوة) = الأحزاب: ٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٤٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ .

السويق (غزوة): ١٧١.

(ش)

الشام (فتوح): ١٥٩.

(ص)

الصادق (حجة): ٥٢٠.

صفين (يوم): ٣٧٦، ٥٦٠.

الصلبية (الحروب): ٩٣.

(ض)

.....

(ط)

الطائف (حصار، غزوة): ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧.

٤٨٥، ٤٨٦، ٥٦٣، ٥٦٤.

طيء (سرية): ٤٩٣.

(ظ)

.....

(ع)

العالميتان (الحربان): ٤٤٨.

العالمية الأولى (الحرب): ٩٣، ١٦٨.

العالمية الثانية (الحرب): ١٦٨.

عبد الله بن أنيس (سرية): ٢٣٤.

عبد الله بن جحش (سرية): ١١٩.

عبدة بن الحارث (سرية): ٦٨.

علي بن أبي طالب (سرية): ٥٥٦.

عمرو بن أمية الضمري (سرية): ٣٢٣.

العسيرة (غزوة) = العسيرة.

العشير (غزوة) = العشيرة.

العشيرة (غزوة) = (العسيرة، العشير): ١١٨.

١٢٣، ٥٦٢، ٥٦٣.

العقبة الأولى (بيعة): ٤١.

العقبة الثانية (بيعة، ليلة): ٢١، ٢٣، ٤١، ٧٠.

١٤٧، ١٣٠، ٧١.

(غ)

غالب بن عبد الله الكلبي (سرية): ٣٧٣.

غطفان (غزوة) = ذو أمر.

(ف)

فارس (فتوح): ٣٤٦.

الفتح = فتح مكة (عام، غزوة، ليلة): ١٢، ٣٩.

٤٠، ٨٢، ٩٠، ١٠٠، ١٦٩، ٢٥٧، ٢٨٨.

٣٢٤، ٣٢٨، ٣٣٩، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٦٤.

٣٨٢، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٤٨.

٤٤٩، ٤٥١، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧.

٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٧، ٤٨٥، ٤٨٨.

٥٤١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٨٠.

فتح الفتوح = الفتح (غزوة).

الفتنة (بين علي ومعاوية): ٨٣.

الفرقان (يوم) = بدر (غزوة).

الفيل (حادثة، قصة): ١١، ٥٣٧.

(ق)

القادسية (معركة): ١٠١.

القراء (سرية) = بشر معونة.

القردة (سرية) = زيد بن حارثة (سرية).

بنو قريظة (غزوة، يوم): ٤٨، ٤٠٦، ٤١١.

٥٦٣، ٥٦٤.

القصاص (عمرة) = القضاء.

القضاء (عمرة) = (القصاص، القضية): ١٦٢.

٣٠٧، ٣٧٥، ٤٢٤، ٥٦٤، ٦٤٥.

القضية (عمرة) = القضاء.

بنو قينقاع (غزوة): ٣٩٥، ٥٦٤.

(ك)

الكبرى الأولى (الحرب) = العالمية الأولى.

الكدر (غزوة): ١٨٣.

كرز بن جابر الفهري (سرية): ٣٢٣.

٧٤ ، ٧٥ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٢٦ ، ١٦٢ ،

١٨٣ ، ١٩٧ ، ٢٣٣ ، ٢٥١ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ،

٣٠٩ ، ٣٢١ ، ٣٤٧ ، ٣٦١ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ،

٣٩٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥٧ ، ٤٧٧ ،

٤٨٤ ، ٤٩٣ ، ٥٥٥ ، ٥٦٧ ، ٥٩٤ .

هجرة الحبشة الأولى : ٩٤ .

هجرة الحبشة الثانية : ٩٤ ، ٣٠٦ .

(و)

وادي القرى (غزوة) : ٥٦٤ .

الوداع حجة = (حجة الإسلام ، حجة البلاغ) :

٤٠ ، ٤١ ، ٣٧٧ ، ٤١١ ، ٤٥٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ،

٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٦١ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٩ ،

٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٦٢٠ ، ٦٣٧ .

ودان (غزوة) = الأبواء .

وفاة الرسول ﷺ : ٩٠ ، ١٥٩ ، ٥٤٥ ، ٥٥٩ ،

٥٩٠ .

(ي)

اليرموك (واقعة ، يوم) : ٩٨ ، ١٠١ .

اليمامة (معركة ، يوم) : ١٤٨ ، ٢٠٣ .

(ل)

بنو لحيان (غزوة) : ٣٢٢ ، ٥٦٣ .

(م)

محمد بن مسلمة (سرية) : ٣٢١ .

المريسيغ (غزوة) = بنو المصطلق .

بنو المصطلق (سرية) : ٤٩١ .

بنو المصطلق (غزوة) = المريسيغ : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،

٢٦٤ ، ٥٣٣ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٦١٢ .

مؤتة (غزوة ، يوم) : ٨١ ، ٤١٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ ،

٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٥٨٥ .

(ن)

النساء (بيعة - في فتح مكة) : ٤٥٨ .

بنو النضير (غزوة) : ٥٥ ، ٣٥٢ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ،

٥٦٣ .

(هـ)

الهجرتان (وانظر الهجرة للحبشة وللمدينة) : ١٨١ ،

٣٧٢ .

الهجرة : ١١ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،

٤٩ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٣ .

[انتهى فهرس الأيام والغزوات]

٦ - فهرس الأماكن والبلدان والبحار والأنهار والأصنام(*)

(أ)

آسيا: ٢٥٢.
الأبطح = المحصب: ٥٧١، ٥٨٠.
الأبواء: ١١٧، ١٨٧، ٦٤٣.
أبيار علي = ذو الخليفة.
الأخشبان: ٦٠٥.
أذرح: ٥٠٢، ٥٠٣.
أذرعات: ٣٩٦، ٤٠١.
إراش: ٦٦٦.
أرض بابل: ٥٤٩.
أرض بني عامر: ٥٥١.
أرض جذام: ٤٣٢.
أرض الروم: ٥٥١.
الإسكندرية: ٣٦٢.
إفريقيا: ١٠٢، ٢٥٢، ٥٠٩.
أميركا: ٩٣، ١٠٢.
إنجلترا: ٩٣.
الأندلس: ١٦٧، ٤١٩.
أندونيسيا: ١٠٢.
أنصاب الحرم: ٣٧٦.
أوروبا: ٩٣، ١٠٢، ١٦٧.

أورشليم: ٤٥، ٤١٩.
أوطاس: ٤٧٣.
إيطاليا: ٩٣.
أيلة: ٥٠٢، ٥٠٣.
أيوان كسرى: ٦٥٢.

(ب)

باب أبي بكر: ٥٩١.
باب بني مخزوم: ٥٧٠.
باريس: ١٦٧.
البحر الأحمر: ١٢٣.
بحران: ١٢٠.
البحرين: ٥٤، ٣٦٠، ٣٦٣، ٥٤٤، ٥٦١.
بدر: ١١٨، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣.
١٥٠، ٢٠٩، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٧٧.
برك الغماد: ١٣٠.
بصرى: ٣٥٨، ٣٦٤، ٤٢٦.
البصرة: ٢٧، ٢٧٣.
بطن ياجج: ٣٧٦.
البييع: ٣٠٩، ٥٨٢، ٥٨٨، ٥٩٨.
بكة (انظر: مكة): ٣٥.

(*) في هذا الفهرس لم أسقط شيئاً سهلاً للبحث.

بلاد بلي: ٤٣٢.

بلاد الحجر = (حجر ثمود، ديار ثمود): ٥٠٠، ٥٠٢.

بلاد الروم: ٢٦٥، ٢٧٩.

بلاد الشام = الشام.

بلاد عذرة: ٤٣٢.

بلاد غطفان: ٣٦٧، ٣٦٨.

بلاد فارس: ٥٥٠.

بلاد المغرب = المغرب.

بلاد هذيل: ٢٣٥، ٢٣٩.

بلاد اليمامة = اليمامة.

بلاد اليمن = اليمن.

بلاد اليونان: ٦٠٢.

البلقاء: ٤٢٠، ٤٢٦، ٤٢٧، ٥٠٢، ٦٠٠.

البنية = الكعبة.

البيت الحرام = البيت العتيق (انظر الكعبة): ١٠٦،

١٣٩، ٣١٧، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨،

٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٤٠، ٣٤٨،

٣٧٥، ٣٧٧، ٤٤٧، ٤٤٩، ٥٣٦، ٥٣٧،

٥٣٨، ٥٤٩، ٥٥٣، ٥٦٨، ٥٧٠، ٥٧٧،

٥٨٠، ٦٦٨.

بيت سويلم اليهودي: ٤٩٨.

بيت المقدس = المسجد الأقصى.

بئر أبي طلحة: ٦٥٢.

بئر معونة: ٢٣٩.

البيضاء (بقعة رسول الله): ٤٤٠، ٤٤١، ٤٦٩،

٥٠٣.

بيوت السقيا (خارج المدينة): ١٢٤.

(ت)

تبوك: ٤٩٥، ٤٩٩، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٤، ٥٠٨،

٥١٣.

التعيم: ١٩٩، ٢٣٦، ٥٨٠.

تهامة: ١٨٦.

تياء: ٤٥، ٤٢٠.

(ث)

الثنية العليا (بكة): ٥٧٠.

ثنية المرار: ٣٢٧.

ثنية الوداع: ٢٥، ٤٩٧، ٥١٠.

(ج)

جبل أحد: ٤٣، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠،

١٩٧، ١٩٨، ٢٠١، ٢١٧، ٢٢٧، ٢٨٠،

٦٥٢.

جبل بواط: ١١٧.

جبل الحبشي: ٣٢٩.

جبل الرحمة: ٥٧٤.

جبل سلع: ٢٨٠، ٢٨٣، ٥١٥.

الجحفة: ٣٧، ٦٨، ٣٣٨، ٤٣٩، ٥٨٠.

جرباء: ٥٠٢، ٥٠٣.

الجرف: ٥٩، ٥٨٦، ٦٠٠.

جزيرة العرب = شبه الجزيرة: ١٢، ١٤، ٤٨،

٧٧، ٨٩، ٩٠، ٣٠٤، ٣٢٥، ٣٤٠، ٣٦٩،

٣٨٩، ٣٩٣، ٤٠٢، ٤١٥، ٤١٦، ٤٢١،

٤٥٦، ٤٩٥، ٥٠٥، ٥١٨، ٥٥٤، ٥٦٧،

٥٧٩، ٥٩٠، ٥٩٤، ٦٣٠، ٦٥١، ٦٥٧.

جسر أبي عبيد: ١٧٨.

الجعرانة: ٤٥٣، ٤٧٢، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨٤.

الجمرة الأولى: ٥٧٨.

جمرة العقبة = الجمرة الكبرى.

الجمرة الكبرى: ٥٧٦، ٥٧٨.

الجمرة الوسطى: ٥٧٨.

جوائى: ٥٤٤.

(ح)

الحبشة: ٥٠، ٩٤، ٢٤٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣١٥،

٣٦٣، ٣٧١، ٣٧٢، ٤١٨، ٤٢٣، ٥٣٢،

الحجاز: ٤٥، ٤٧، ١٢٣، ١٢٥، ٢٥١، ٣٦١،

حيزوم (فرس أحد الملائكة): ١٤٥.

(خ)

خراب المدينة: ٢٥.

الحرار: ٦٨.

خليج العقبة: ٥٠٢.

الخنندق: ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٤.

٤١٠.

الخدمة: ٣٧٦، ٤٤٥.

خير: ٣٠، ٤٥، ٣٧٢، ٣٨٣، ٣٩٣، ٤٠١.

٤٠٢، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٨.

٤٢٠، ٤٢١، ٥١٥.

الخيف = خيف بني كنانة.

خيف بني كنانة: ٤٤٤، ٥٨٠.

خيمة رافدة (في المسجد النبوي): ٣١٩، ٤٠٨.

٤٠٩.

(د)

دار أبي أيوب الأنصاري: ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٢٨.

٣٠، ٥٤٨.

دار أبي سفيان: ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٦٠.

دار أنس: ٦١٢.

دار بديل بن ورقاء: ٤٣٥.

دار بني الحارث بن عامر: ٢٣٦.

دار بني ظفر: ٢٠٥.

دار بني مالك بن النجار: ٢٤.

دار حكيم بن حزام: ٤٤٢.

دار رملة بنت الحارث: ٥٤٥، ٥٥٤.

دار قصي بن كلاب = دار الندوة.

دار الندوة = دار قصي: ١٨٦.

دار الهجرة = المدينة المنورة.

دلذل (بغلة النبي): ٣٦٢، ٤٦٩.

دمشق: ٩٣، ٢٥١، ٣٦٤، ٤٩٥، ٥٠٤.

دور الأنصار: ٢٣، ٢٤.

٤١٢، ٤٢٠، ٤٢٢، ٥٠٢، ٥٦٣، ٦٥١.

الحجر = حجر الكعبة: ١٦٣، ٦٦٧، ٦٦٩.

حجر أزواج النبي: ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٠٩.

٥٤٢، ٥٩٩، ٦٣٥.

الحجر الأسود = الركن الأسود: ١٠٣، ٣١٨.

٣٧٧، ٤٤٦، ٥٧٠، ٦١٢، ٦٦٨.

حجر ثمود = بلاد الحجر.

حجر الكعبة = الحجر.

حجرة عائشة: ٣٣، ٣٠٩، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠.

الحجون: ٤٤٤.

الحديبية: ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٣٨، ٣٤٧، ٣٤٨.

حرثا المدينة = لابتا المدينة: ٤١، ٢٧٩.

الحرم: ١٢٠، ١٥١، ٣٤٧، ٤٣٥، ٥٣٩.

الحرة (بالمدينة): ٣٢٣، ٣٩٠.

حصن أبي: ٤١٦.

حصن البري: ٤١٦.

حصن بني أبي الحقيق = حصن القموص.

حصن السلام: ٤١٦.

حصن الشق: ٤١٦.

حصن الصعب: ٤١٦.

حصن القموص = حصن بني أبي الحقيق: ٣٨٣.

٤١٦.

حصن الكتيبة: ٤١٦.

حصن ناعم: ٤١٦، ٤١٧.

حصن النظاة: ٤١٦.

حصن الوطيح: ٤١٦.

حصون خير: ٤١٥، ٤١٦.

حضر موت: ٥، ١٢، ١٣٠، ٥٥٢، ٥٥٤.

٥٦١، ٦١٦.

الخطيم = الحجر.

حمراء الأسد: ٢٢٨، ٢٢٩.

حصن: ٨٤، ٩٨، ٢١١، ٣٦٠.

الخوراء: ١٢٣.

دور المدينة: ٢٣.

دومة = دومة الجندل.

دومة الجندل: ٢٥١، ٥٠٤.

ديار ثمود = بلاد الحجر.

ديار هوازن: ٤٧٣.

(ذ)

ذات أنواط: ٤٦٨.

ذات الصلح: ٤٢٦.

ذفران = وادي ذفران.

ذو أمر (ماء): ١٨٤.

ذو الخليفة = أبيار علي: ٣٤١، ٥٣٦، ٥٦٨.

ذو الخليفة: ٥٥٧.

ذو طوى: ٣٢٦، ٤٤٣، ٥٧٠.

ذو قرد (ماء): ٣٦٨.

(ر)

رابغ: ٣٧، ٦٨، ٤٣٩.

الريذة: ٥٠١.

الرجيع: ٢٣٥.

رضوى: ٥٦٣.

الركن الأسود = الحجر الأسود.

الركن اليماني: ١٠٣، ٣٧٧.

الروحاء: ١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٥٢، ١٥٣.

٢٢٨.

روضة خاخ: ٤٣٧.

الروضة الشريفة: ٣٣، ٣٤.

رومانيا: ٩٣.

(ز)

زمرم: ١٦٥، ٣٧٧، ٥٧٧.

(س)

ساحل البحر (الأحمر): ٦٧، ١٣٣، ١٨٣، ٣٤١.

٤٦٦.

سرف: ١٩٩، ٣٧٨، ٣٨٦، ٥٦٩، ٦٤٥.

سفوان = وادي سفوان.

سقيفة بني ساعدة: ٥٩٥.

السلسل (ماء): ٤٣٢.

السنح: ٥٩٣، ٥٩٤.

سواد العراق: ٥١٤.

سواري المسجد (النوي): ٥١٠، ٥١١.

سواع (الصنم): ٤٦٦.

سوق بني قينقاع: ٣٩٤.

سوق عكاظ: ٢٢٩.

سوق المدينة: ٥١٤.

(ش)

الشام = بلاد الشام: ٢٥، ٣٧، ٤١، ٤٣، ٤٥.

٤٩، ٦٧، ٦٩، ١٠١، ١١٧، ١١٨، ١٢٣.

١٨٣، ١٨٥، ٢١١، ٢٥١، ٣٢٢، ٣٤١.

٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٩٦، ٤٠١، ٤٠٢.

٤١٤، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٦، ٤٣٣، ٤٦٩.

٤٨٨، ٤٩٤، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥.

٥١٤، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٤، ٦٠٠، ٦٥١.

٦٥٢.

شامة (جبل): ٣٧.

شبه جزيرة العرب = جزيرة العرب.

الشعب (بأحد): ١٩٠، ١٩٨.

شعب بني هاشم: ١٤٧، ٤٤٤.

شمال أفريقيا: ١٠١.

الشوط: ١٨٩.

(ص)

الصفاء: ٣١٧، ٣٧٧، ٤٥٧، ٤٥٩، ٤٦٢.

٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٧.

الصفراء (قرية): ١٥٣، ١٥٤.

صنعاء: ٥، ١٢، ٥٤٥، ٥٦١، ٥٨٤.

الصفة: ١٨، ٣١.

الصهباء: ٣٨٤.

الصين: ١٢، ١٠٢.

(ض)

ضجنان: ٣٣٨.

(ط)

طابة (انظر المدينة): ٢٩٠.

الطاغية = اللات (الصنم).

الطائف: ٩٠، ١١٩، ٢١١، ٤٦٧، ٤٧٣،

٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٩، ٤٨٠، ٥٢٨،

٥٣١، ٦٠٥.

طفيل (جبل): ٣٧.

طيبة (وانظر المدينة): ٢٩٠.

(ظ)

ظفار: ٢٥٨.

الظهيران: ٢٣٦.

(ع)

العالية: ١٢٤، ١٥٠، ١٥٢، ٤٩٠.

عدوة بدر الدنيا: ١٣٣.

عدوة بدر القصوى: ١٢٨، ١٣٢، ١٣٣.

العراق: ١٠١، ١٣١، ١٨٣، ٥٠١، ٥٤٨،

٦٥١.

عرفات = عرفة: ٢٣٤، ٤٤٠، ٤٦٧، ٥٧٢،

٥٧٤.

عرق الظبية: ١٥٥.

عرنة = وادي عرنة.

العريش (عريش النبي في بدر): ١٣٤، ١٣٥،

١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٧٤.

العزى (الصنم): ٢٠٩، ٤٦٥.

عسفان: ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤٣، ٣٢٢، ٣٢٦،

٤٢٣.

العشيرة: ١١٨.

العضباء (ناقة النبي): ٣٦٨، ٥٣٦.

عفير = يعفور.

علو المدينة: ٣١.

عمان: ٢٠٣، ٣٦٤، ٥٠٢.

العون (سيف عكاشة): ١٧٧.

العيص: ٦٨، ٣٤١.

العين (في أحد): ٢١٧.

(غ)

الغابة: ٣٦٧.

غار ثور: ٣١.

غار حراء: ١٤٣.

غدير خم: ٥٨٠، ٥٨١.

غطفان = بلاد غطفان.

(ف)

فارس = بلاد فارس.

فدك: ٣٧٣، ٤٢٠.

فرنسا: ٩٣، ١٦٧.

فضة (بغلة النبي): ٤٦٩.

الفلس (صنم طيء): ٤٩٣.

فلسطين: ١٦٧، ٤٢٢.

(ق)

القادسية: ٥٤٩.

قباء: ٢١، ٣١، ٤٧، ٧١، ١٠٤، ١٢٤، ١٥٠،

١٥٢.

القبر الشريف (قبر النبي): ٣٣، ٥٥٩، ٥٩٩.

قديد: ٤٦٦.

القردة (ماء): ١٨٥.

قرقرة الكدر (ماء): ١٨٣.

قرن الثعالب: ٤٧٧، ٦٠٥.

قزح (جبل): ٥٧٢.

القسطنطينية: ٨٣.

القصواء (ناقة النبي): ٢٣، ٢٤، ٣٠، ٣٢٧،

مخلاف اليمن الأسفل : ٥٥٩ .

مخلاف اليمن الأعلى : ٥٥٨ .

المدائن (مدائن كسرى) : ٢٧٩ .

المدراس : ٣٩١ .

مدرج عثمان = عسفان .

المدينة المنورة : ١١ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٣ ،

٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ ،

٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ،

٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ،

٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٤ ،

٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١١ ،

١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ،

١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ،

١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ،

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ،

٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،

٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،

٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ،

٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ،

٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ،

٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ،

٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٣ ،

٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ،

٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ،

٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ،

٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ،

٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٥٠١ ،

٥٠٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٤ ، ٥٢٣ ،

٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣١ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ .

٣٧٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٤ ، ٥٧٦ ،

٥٧٨ ، ٥٧٩ .

القصور البيض : ٥٤٩ .

القصور الحمر : ٢٧٩ .

قصور الحيرة : ٢٧٩ .

قصور الروم : ٦٥٢ .

قصور صنعاء : ٢٧٩ .

قليب بدر : ١٥٠ ، ١٦٣ ، ٦٦٩ .

قيد : ٥٥٠ .

(ك)

كدى : ٤٤٣ ، ٤٤٤ .

كداء : ٤٤٤ .

الكدر : ٥٦٣ .

كُدِّي : ٥٨٠ .

الكديد : ٤٣٩ .

كراع الغميم : ٣٣٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٢ .

كربلاء : ١٧٩ .

الكمة المشرفة (انظر: البيت الحرام) : ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٢٦ ، ١٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣١٧ ،

٣١٨ ، ٣٢٥ ، ٣٩٢ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ،

٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٥٣٨ ،

٥٥٠ ، ٥٥٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٧ ،

٥٨٠ ، ٦٣١ .

الكوفة : ٥٠١ ، ٥٤٨ .

(ل)

لابتا المدينة = حرثا المدينة .

اللات (الصنم) : ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ .

(م)

مآب : ٤٢٦ .

ماء (بالعراق) : ١٣١ .

محنة : ٣٧ ، ٢٤٣ .

المحصب = الأبطح .

٥٥٤ ، ٥٦٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ،
 ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٢٧ ، ٦٤٢ ،
 ٦٥٢ ، ٦٥٦ ، ٦٦٢ ، ٦٦٩ .
 مر الظهران : ٣٧٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٦٠ .
 المروة : ٣١٧ ، ٣٧٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٧ .
 المريسيع (ماء) : ٢٥٢ .
 المزدلفة : ٥٧٦ ، ٥٧٢ .
 المسجد = المسجد الحرام .
 المسجد الأقصى = بيت المقدس : ٢٠ ، ٣٤ ، ٩٣ ،
 ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ٣٩٢ .
 مسجد بني حارثة : ١٠٤ .
 مسجد بني سلمة = المسجد ذو القبلتين : ١٠٤ .
 مسجد بيت المقدس = المسجد الأقصى .
 مسجد الجمعة : ٢١ .
 المسجد الحرام = (المسجد ، مسجد الكعبة) : ١٩ ،
 ٣٤ ، ٣٥ ، ٦٩ ، ١٢١ ، ١٥٥ ، ٣٢٥ ، ٣٣٥ ،
 ٣٤٦ ، ٣٧٧ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٦٢ ،
 ٥٣٩ ، ٦٦٦ .
 مسجد الخيف : ٥٧٨ .
 مسجد دمشق : ٣٣ .
 المسجد ذو القبلتين = مسجد بني سلمة .
 مسجد الضرار : ١٩ ، ٤٣ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ،
 ٥٢٧ .
 مسجد الطائف : ٤٧٥ .
 مسجد عبد القيس : ٥٤٤ .
 مسجد قباء : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٥٢٧ .
 مسجد الكعبة = المسجد الحرام .
 مسجد المدينة = المسجد النبوي .
 المسجد النبوي = (مسجد الرسول ، مسجد
 المدينة) : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٧ ،
 ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٧١ ،
 ٧٥ ، ١٠٤ ، ١٨٨ ، ٣٤١ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ،
 ٤٠٩ ، ٥١٥ ، ٥٢٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ .

٥٤٩ ، ٥٥٣ ، ٥٥٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٦ ،
 ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٦٩ .
 مشارف : ٤٢٧ .
 مشربة إبراهيم : ٤٩٠ .
 مشربة رسول الله : ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٢١ ، ٦٢٣ ،
 ٦٢٤ .
 المشعر الحرام : ٥٧٢ ، ٥٧٦ .
 المشلل : ٤٦٦ .
 مصر : ٣٧ ، ٣٦١ ، ٤٩٠ .
 معان : ٤٢٦ ، ٤٦٩ .
 المغرب : ١٢ ، ١٠٣ .
 مقام إبراهيم : ١٠٦ ، ١٥٥ ، ٣٧٧ ، ٥٧٠ .
 مكة المكرمة : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٥ ،
 ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٢ ،
 ٦٣ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ١٠٠ ،
 ١٠٣ ، ١١١ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٥ ،
 ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
 ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
 ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
 ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٧ ، ٢٨٩ ، ٣١٥ ،
 ٣١٧ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
 ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ،
 ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ،
 ٣٨٦ ، ٣٩٧ ، ٤٢٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ،
 ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ،
 ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ،
 ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ،
 ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٤ ،
 ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٥ ، ٥٣١ ،
 ٥٤٢ ، ٥٤٦ ، ٥٦١ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ،
 ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٩٩ ، ٦٠٥ ،
 ٦١٢ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٥٧ ، ٦٦٢ ، ٦٦٦ .

وادي حنين: ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩.

وادي ذفران: ١٢٩، ١٣١.

وادي رانوناء: ٢١.

وادي سفوان: ١١٨.

وادي الصفراء: ١٢٩.

وادي الظهران: ٤٤٠.

وادي عرنة: ٢٣٤، ٥٧٢.

وادي العقيق: ٢٥٣.

وادي فاطمة = مر الظهران: ٤٤٠.

وادي القرى: ٤٥، ٤٣٢.

وادي محسر: ٥٧٦.

وادي نخلة: ١١٩، ١٢٠، ٤٦٥، ٤٧٣.

الوتير (ماء): ٤٣٥، ٤٣٦.

وَج: ٥٣١.

ودان: ١١٧.

الولايات المتحدة: ٣٥٤.

(ي)

يثر (انظر المدينة): ٤٥، ٥٧، ٥٩، ١٣٣.

١٣٧، ١٨٧، ٢٩٠، ٣٧٧، ٤٣٦.

يعفور = عفير (حار النبي): ٣٦٢.

اليمامة: ١٠٠، ٢٠٣، ٣٦٤.

اليمن: ١١٤، ١٣٠، ١٩٦، ٢١١، ٢٥٨.

٣٦١، ٣٦٤، ٣٧١، ٤٥٣، ٥٠٣، ٥٤٦.

٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٦، ٥٥٧.

٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٧١، ٥٨٠.

٥٨٧، ٥٩٤، ٦٣١، ٦٥١، ٦٥٢.

ينبع: ١١٧، ١١٨، ٥٦٣.

٦٦٨، ٦٧٠.

منى: ٥٧١، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠.

المناصع: ٢٥٩.

مناة (صنم كلب وخزاعة): ٤٦٦.

منبر النبي = المنبر: ٣٣، ٥٦، ٢١٦، ٢٦٠.

٢٦١، ٤٢٩، ٥٩١، ٦٢٧.

منزل سعد بن خيثمة: ٧١.

مؤتة: ٤٢٦، ٤٢٧.

الميفعة: ٣٧٣.

(ن)

الناقاة (ناقاة صالح عليه السلام): ٥٠٢.

نجد: ٩٠، ١٨٣، ٢٣٩، ٢٨٠، ٣٢١، ٣٧٠.

٣٧٣، ٤١٠، ٥٥٠.

نجران: ٥٤٦، ٥٤٨، ٥٥٥.

النجرانية: ٥٤٨.

نخل: ٣٧٠، ٥٦٣.

نمرة: ٥٧٢.

نهر الفرات: ١٧٨.

نيق العقاب: ٤٣٩.

(هـ)

هبل (الصنم): ٢٠٩.

الهند: ٣٢.

الهيكل: ٤٥.

هذيل = بلاد هذيل.

(و)

وادي بدر: ١٢٨.

[انتهى فهرس الأماكن]

٧ - فهرس تاريخي متسلسل لأحداث السيرة والتشريعات ونحو ذلك

الحدث	التاريخ	الصفحة
نزوح اليهود إلى الحجاز	٥٨٦ قبل الميلاد	٤٥
هجرة اليهود إلى بلاد الحجاز	٧٠ ميلادية	٤٥
قدوم النبي ﷺ المدينة	ربيع الأول - ١هـ	١٠٦
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار	بعد الهجرة بـ (٥ أو ٩) أشهر	٤٩
سرية حمزة بن عبد المطلب	رمضان - ١هـ	٦٧
بناء النبي ﷺ بعائشة أم المؤمنين	شوال - ١هـ	٦١
سرية عبيدة بن الحارث	شوال - ١هـ	٦٨
سرية سعد بن أبي وقاص	آخر شوال - ١هـ	٦٨
ابتداء مشروعية الجهاد	أوائل سنة - ٢هـ	٧٥، ٦٩
غزة الأبواء (ودان)	صفر - ٢هـ	١١٧
غزوة بواط	ربيع الأول - ٢هـ	١١٧
غزوة العشيرة	جمادى الأولى أو الآخرة - ٢هـ	١١٨
غزو بدر الأولى	بعد بضع ليال من العشيرة - ٢هـ	١١٨
سرية عبد الله بن جحش	رجب - ٢هـ	١١٩
تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة	منتصف رجب - ٢هـ	١٠٦، ١٠٤
تشريع فريضة الصيام	شعبان - ٢هـ	١٠٦
تشريع زكاة الفطر	رمضان - ٢هـ	١٠٩
خروج رسول الله ﷺ لغزوة بدر الكبرى	لثلاث ليالٍ (أو ثمان) خلون من رمضان - ٢هـ	١٢٤
نصر الله في يوم بدر	الجمعة ١٧ رمضان - ٢هـ	١٤٣
صلاة العيد (أول صلاة يصلّيها النبي ﷺ)	٢هـ	١٠٩

الحدث	التاريخ	الصفحة
تشريع الزكاة	بعد رمضان - ٥٢	١١١
إجلاء يهود بني قينقاع عن المدينة	أوائل سنة ٥٣ - [وقيل : في شوال ٥٢]	٣٩٦
غزوة ذي أمر (غزوة غطفان)	ربيع الأول - ٥٣	١٨٤
قتل كعب بن الأشرف	ربيع الأول - ٥٣	٣٩٨
سرية زيد بن حارثة (سرية القردة)	مستهل جمادى الأولى - ٥٣	١٨٥
غزوة أحد	السبت ١٥ شوال - ٥٣	٢٢٨ ، ١٩٠
خروج النبي ﷺ إلى حمراء الأسد	الأحد ١٦ شوال - ٥٣	٢٢٨
غزوة الكدر	٥٣	١٨٣
تزوج النبي ﷺ بالسيدة حفصة بنت عمر (أم المؤمنين) ٥٣		٢٣١
سرية أبي سلمة بن عبد الأسد	المحرم - ٥٤	٢٣٣
سرية عبد الله بن أنيس	المحرم - ٥٤	٢٣٤
سرية الرجيع	صفر - ٥٤	٢٣٥
سرية القراء	صفر - ٥٤	٢٣٩
غزوة بني النضير	ربيع الأول - ٥٤	٤٠٠
غزوة بدر الآخرة	شعبان - ٥٤	٢٤٣
تزوج النبي ﷺ بزينب بنت خزيمة (أم المساكين) رمضان - ٥٤		٢٤٦
تزوج النبي ﷺ بأم سلمة	شوال - ٥٤	٢٤٦
غزوة ذات الرقاع	سنة ٥٤ عند ابن إسحاق ويرى البخاري أنها بعد خيبر	٣٢٣
تحريم الخمر	سنة ٥٤ عند ابن إسحاق ، و ٥٦ عند الدمياطي و ٥٨	
	عند ابن حجر	٣٥٢
غزوة دومة الجندل	ربيع الأول - ٥٥	٢٥١
قدوم وفد مزينة	رجب - ٥٥	٥٤٢
قدوم وفد ضمام بن ثعلبة	رجب - ٥٥ (أوسنة ٥٩)	٥٤١
غزوة بني المصطلق (المريسيه)	شعبان - ٥٥ (أوفي شعبان ٥٦)	
	على رأي ابن إسحاق والطبري	٢٥٢
غزوة الخندق (الأحزاب)	شوال - ٥٥	٢٧٧
تزوج النبي ﷺ بزينب بنت جحش	٥٥	٢٩٤
تزوج النبي ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان	٥٥ (وقيل ٥٦ أو ٥٧)	٣١٥
تشريع فريضة الحج	٥٥ (وقيل ٥٦ ، وقيل ٥٩)	٣١٧
قدوم وفد عبد القيس (الوفادة الأولى)	٥٥ (أوقبلها)	٥٤٤ ، ٥٤٢
سرية محمد بن مسلمة قبل نجد	المحرم - ٥٦ (ويرى ابن كثير أنها بعد خيبر)	٣٢١

الحدث	التاريخ	الصفحة
غزوة بني لحيان	جمادى الأولى - ٥٦	٣٢٢
تشريع صلاة الخوف	في غزوة بني لحيان ٥٦ (وقيل سنة ٥٤ في ذات الرقاع)	٣٥٢، ٣٢٣
قتل سلام بن أبي الحقيق	رمضان ٥٦ (وقيل في ذي الحجة ٥٥)	٤١٣
سرية كرز بن جابر الفهري	شوال ٥٦	٣٢٣
غزوة ذي قرد	٥٦ قبل الحديبية (وجزم البخاري أنها قبل خيبر بثلاث ليال)	٣٦٧
عمرة الحديبية	ذو القعدة - ٥٦	٣٢٥
غزوة الحديبية	٥٦	٣٢٥
تحريم النساء المسلمات على أزواجهن المشركين، وتحريم الشركات على أزواجهن المسلمين	٥٦	٣٥٢
بدء إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء	أواخر ٥٦ (أو أوائل ٥٧)	٣٥٨
تحريم المسلمات على المشركين	٥٦	٤٨٩
خروج النبي ﷺ لغزوة خيبر	مطلع ٥٧	٤١٥
غزوة خيبر	٥٧	٣٦٩
تحريم لحوم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ومغلب من الطير	في غزوة خيبر ٥٧	٣٨١
تحريم نكاح المتعة	في خيبر أيضاً ٥٧	٣٨١
قدوم مهاجري الحبشة إلى المدينة	بعد فتح خيبر ٥٧	٣٧١، ٣١٥
دخوله ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان	بعد خيبر ٥٧	٣١٦، ٣١٥، ٣٠٧
قدوم الأشعرين	عقب خيبر ٥٧	٥٥٢
غزوة ذات الرقاع	٥٧ بعد خيبر عند البخاري (وأصحاب السير قالوا هي قبل خيبر سنة ٥٤ أو ٥٥ أو ٣٧٠ أوائل ٥٦)	
سرية غالب بن عبد الله الكلبي	رمضان - ٥٧	٣٧٣
سرية بشير بن سعد	٥٧	٣٧٣
عمرة القضاء (القضية، القصاص)	ذو القعدة - ٥٧	٣٧٥
تزوج النبي ﷺ بميمونة بنت الحارث	ذو القعدة - ٥٧	٣٨٦
إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة	أول صفر - ٥٨	٤٢٥، ٤٢٣
غزوة مؤتة	جمادى الأولى - ٥٨	٤٢٦
غزوة ذات السلاسل	جمادى الآخرة - ٥٨	٤٣٢
خروجه ﷺ لغزوة الفتح	١٠ رمضان - ٥٨	٤٣٩

الحدث	التاريخ	الصفحة
فتح مكة	٢٠ رمضان - ٨هـ	٤٤٥
هدم العزى	خمس بقين من رمضان - ٨هـ	٤٦٥
خروج النبي ﷺ لغزوة حنين	٥ أو ٦ شوال - ٨هـ	٤٦٧
مسير النبي ﷺ لغزو الطائف	شوال - ٨هـ	٤٧٥
تزوج النبي ﷺ بفاطمة بنت الضحاك الكلابية ذو القعدة - ٨هـ		٤٨٨
عمرة الجعرانة	في أواخر ذي القعدة - ٨هـ	٤٨٤
تحريم المتعة تحريماً باتاً	٨هـ	٤٨٨
إسلام أبي العاص بن الربيع	٨هـ	٤٨٩
سرية علي إلى طيء لهدم صنمها (القلس)	ربيع الأول - ٩هـ	٤٩٣
غزوة تبوك	رجب - ٩هـ	٤٩٥
قدوم ثقيف مسلمين	رمضان - ٩هـ	٥٢٨ ، ٤٧٨
قدوم وفد رسول ملوك حمير	رمضان - ٩هـ	٥٥١
بعث الصديق أميراً على الحج	ذو الحجة - ٩هـ	٥٣٦ ، ٥٢٠
توارد الوفود (عام الوفود)	٩هـ	٥٤١
قدوم وفد عبد القيس (الوفادة الثانية)	٩هـ	٥٤٤
كتاب النبي ﷺ لأهل نجران	٩هـ	٥٤٦
قدوم وفد أهل اليمن	٩هـ	٥٥٢
سرية خالد إلى بني الحارث بن كعب بنجران ربيع الآخر (أوجادى الأولى) - ١٠هـ		٥٥٥
سرية علي إلى بني مذحج	رمضان - ١٠هـ	٥٥٦
قدوم وفد بجيلة	رمضان - ١٠هـ	٥٥٦
خروج النبي ﷺ من المدينة لحجة الوداع	السبت ٢٥ ذو القعدة - ١٠هـ	٥٦٨
دخول النبي ﷺ مكة لحجة الوداع	الأحد ٤ ذو الحجة - ١٠هـ	٥٧٠
قدوم وفد محارب	في حجة الوداع - ١٠هـ	٥٤٢
كتاب مسيلمة الكذاب للنبي ﷺ ، ورد النبي عليه	آخر سنة ١٠هـ	
بعث أسامة لغزو الروم	آخر صفر - ١١هـ	٥٨٥
ابتداء مرض رسول الله ﷺ	أواخر صفر (أو أول ربيع الأول) - ١١هـ	٥٨٧
وفاة رسول الله ﷺ	الإثنين ١ ربيع الأول (أو ٢ أو ١٢ منه) - ١١هـ	٥٩٤

[انتهى الفهرس التاريخي]

٨ - فهرس الشعر

صدر البيت	قائمه	الشاعر	الصفحة
فإن أبي	وقاء	(أ) حسان بن ثابت	٢٦٤
أنا الذي	مجرّب	(ب) مرحب اليهودي	٤١٧
أطعن	تحرّب	مرحب اليهودي	٤١٧
يا حبذا	شراها	جعفر بن أبي طالب	٤٢٧
والروم	أنسابها	جعفر بن أبي طالب	٤٢٧
يا نفس	صليت	(ت) عبد الله بن رواحة	٤٢٨
وما تمنيت	هديت	عبد الله بن رواحة	٤٢٨
لا يستوي	وقاعدا	(د) علي بن أبي طالب	٣١
ركضاً	المعاد	عمير بن الحمام الأنصاري	١٤١
والصبر	النقاد	عمير بن الحمام الأنصاري	١٤١
أنا ابن	الردّ	عاصم بن عمر بن قتادة	٢١٨
فعادت	خذّ	عاصم بن عمر بن قتادة	٢١٨
نحن الذين	أبدا	أهل الخندق	٢٧٨
يا رب	الأتلدا	عمرو بن سالم الخزاعي	٤٣٥
فانصر	مدداً	عمرو بن سالم الخزاعي	٤٣٥
في فيلق	الموعدا	عمرو بن سالم الخزاعي	٤٣٥

صدر البيت	قافيته	الشاعر	الصفحة
وزعموا	عددا	عمرو بن سالم الخزاعي	٤٣٦
هم	وسجدا	عمرو بن سالم الخزاعي	٤٣٦
		(ر)	
نحن	جار	جواني بني النجار	٢٥
هذي	وأطهر	—	٣٠
اللهم	والمهاجرة	—	٣٠
اللهم	والمهاجرة	—	٣٢
رأيت	النظير	—	١٩٠
ويها	الأديار	هند بنت عتبة في نساء من قريش	١٩١
اللهم	والمهاجرة	—	٢٧٧
أمر	الجدارا	—	٣١٨
وما حب	الديارا	—	٣١٨
أنا الذي	المنظره	علي بن أبي طالب	٤١٧
فأليت	أغبرا	أسماء بنت عميس	٤٣١
قله	وأصبرا	أسماء بنت عميس	٤٣١
من سره	الأنصار	كعب بن زهير بن أبي سلمى	٤٨٧
ورثوا	الأخيار	كعب بن زهير بن أبي سلمى	٤٨٧
والبائعين	وكرار	كعب بن زهير بن أبي سلمى	٤٨٧
		(ع)	
طلع البدر	الوداع	الأنصار	٢٥
وجب	راع	الأنصار	٢٥
أيها	المطاع	الأنصار	٢٥
ولست	مصرعي	خبيب بن عدي	٢٣٧
وذلك	مزع	خبيب بن عدي	٢٣٧
خذها	الرضع	سلمة بن الأكوع	٣٦٧
أتجعل	والأقرع	العباس بن مرداس	٤٨٢
فما كان	مجمع	العباس بن مرداس	٤٨٢
وما كنت	لا يرفع	العباس بن مرداس	٤٨٢
إن الذوائب	تتبع	حسان بن ثابت	٥٤٣
يرضى	شرعوا	حسان بن ثابت	٥٤٣
قوم	نفعوا	حسان بن ثابت	٥٤٣

صدر البيت	قافيته	الشاعر	الصفحة
سجية	البدعُ	حسان بن ثابت	٥٤٣
		(ف)	
وعلى تفنن	يوصف	-	٦٧٢
		(ق)	
قد وجدت	فوقه	عامر بن فهيرة	٣٧
كل امرئ	بروقه	عامر بن فهيرة	٣٧
أحمد	معرق	قتيلة بنت الحارث	١٥٦
ما كان	المحنق	قتيلة بنت الحارث	١٥٦
والنضر	يعتق	قتيلة بنت الحارث	١٥٦
نحن	النمارق	نساء من قريش	١٩٢
مشي	المفارق	نساء من قريش	١٩٢
إن تقبلوا	النمارق	نساء من قريش	١٩٢
أو تدبروا	وامق	نساء من قريش	١٩٢
إذا مت	عروقها	أبو محجن الثقفي	٦٣١، ٣٥٢
ولا تدفي	أذوقها	أبو محجن الثقفي	٦٣١، ٣٥٣
		(ك)	
يا عُرَّ	أهانك	خالد بن الوليد	٤٦٥
		(ل)	
لئن	المُضَلَّل	-	٣١
كل	نعله	أبو بكر الصديق	٣٦
ألا ليت	وجليل	بلال بن رباح الحبشي	٣٧
وهل	وطفيل	بلال بن رباح الحبشي	٣٧
ونسلمه	والخلائل	أبو طالب بن عبد المطلب	١٣٩
كدبتم	ونناضل	أبو طالب بن عبد المطلب	١٣٩
أنا الذي	التخيل	أبودجانة	١٩٣
أن لا أقوم	والرسول	أبودجانة	١٩٣
تلك	أبو الـ	عمر بن عبد العزيز (متمثلاً)	٢١٨
حصان	الغوافل	حسان بن ثابت	٢٦٣
عقيلة	زائل	حسان بن ثابت	٢٦٣
مهذبة	وباطل	حسان بن ثابت	٢٦٣
حليلة	الفواضل	حسان بن ثابت	٢٦٤

صدر البيت	قافيته	الشاعر	الصفحة
رايتك	الغوائل	حسان بن ثابت	٢٦٤
خلوا	رسوله	عبد الله بن رواحة	٢٧٦
يا رب	قبوله	عبد الله بن رواحة	٢٧٦
نحن	تنزيله	عبد الله بن رواحة	٢٧٦
ضربا	خليله	عبد الله بن رواحة	٢٧٦
بانت	مكبول	كعب بن زهير بن أبي سلمى	٤٨٦
وما سعاد	مكحول	كعب بن زهير بن أبي سلمى	٤٨٦
إن الرسول	مسلول	كعب بن زهير بن أبي سلمى	٤٨٦
في عصبة	زولوا	كعب بن زهير بن أبي سلمى	٤٨٧
شم	سرايل	كعب بن زهير بن أبي سلمى	٤٨٧
اليوم	أحله	(م)	٥٣٨
إنك	عكرمة	حماس بن قيس	٤٤٥
وأبو يزيد	المسلمة	حماس بن قيس	٤٤٥
يقطعن	غمغمه	حماس بن قيس	٤٤٥
لم	كلمه	حماس بن قيس	٤٤٥
قالت	والاسلام	فضالة بن عمير	٤٤٩
لو ما رأيت	الأصنام	فضالة بن عمير	٤٤٩
لرأيت	الإظلام	فضالة بن عمير	٤٥٠
أبي	أو تخيم	—	٥٦٦
إذا ما راية	باليمين	(ن)	١٩٠
اللهم	ولا صليتنا	—	٢٧٨
فأنزلن	لاقينا	عبد الله بن رواحة	٢٧٨
إن الآلى	أبيننا	عبد الله بن رواحة	٢٧٨
أقسمت	لتكرهته	عبد الله بن رواحة	٤٢٧
إن أجلب	الحنة	عبد الله بن رواحة	٤٢٨
قد طال	شنة	عبد الله بن رواحة	٤٢٨
وعين	المساويا	(ي)	٢٤٢

[تمت الفهارس]
[والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات]

فهرس الموضوعات - الجزء الثاني

٩	مقدمة الطبعة الثانية
١١	مقدمة الطبعة الأولى
١٣	بين عهدين: العهد المكي والعهد المدني
	منزلة المساجد في الإسلام ١٧، بناء مسجد قباء ١٨.
	وصول النبي إلى المدينة وبنائه المسجد ٢١، إلى المدينة ٢١، توسل الأنصار إلى الرسول لينزل عندهم ٢٣، اليوم المشهود ٢٤، في دار أبي أيوب الأنصاري ٢٦، جميل بجميل ٢٧، إسلام عبد الله بن سلام وبعض أهله ٢٨، بناء المسجد النبوي ٣٠، الأطوار التي مر بها بناء المسجد النبوي ٣١، فضل المسجد النبوي ٣٤، بناء حجر أمهات المؤمنين ٣٥، حمى المدينة ٣٦.
	حالة المدينة السياسية والاجتماعية بعد الهجرة ٣٩، المهاجرين ٣٩، الأنصار ٤١، المناققين ٤٢، اليهود ٤٥، الإخاء بين المهاجرين والأنصار ٤٩، المؤاخاة بين المسلمين بمكة ٥٢، مآثر الأنصار الخالدة ٥٣، موادعة النبي اليهود ٥٧، بناء النبي بعائشة ٦١، مشروعية الأذان ٦٣.
	السنة الأولى من الهجرة ٦٧، السرايا في السنة الأولى ٦٧، سرية حمزة بن عبد المطلب ٦٧، سرية عبيدة بن الحارث ٦٨، سرية سعد بن أبي وقاص ٦٨، رأينا في هذه السرايا ٦٩، مزاعم المستشرقين في هذه السرايا ٦٩، أحداث هذا العام ٧١، مواليذ ٧١، وفيات ٧١.
٧٣	السنة الثانية من الهجرة

تشريع الجهاد في الإسلام ٧٣، أول مانزل في القتال ٧٤، متى شرع الجهاد ٧٥، لم شرع الجهاد في الإسلام ٧٦، حكم الجهاد في الإسلام ٧٩، من يرى أن الجهاد فرض عين ٨٢، مثل عليا للمحرص على الجهاد ٨٣، الترغيب في

الجهاد والاستشهاد ٨٤، الاستشهاد في سبيل الله ٨٦، الأطوار التي مر بها
 الجهاد ٨٧، رد الضربة الكبرى ٩٠.
 أحداث وتشريعات ١٠٣، تحويل القبلة إلى الكعبة ١٠٣، تشريع فريضة الصيام
 ١٠٦، زكاة الفطر ١٠٩، صلاة العيد ١٠٩، الصوم والفطر والعيد من روافد
 العدالة الاجتماعية في الإسلام ١١٠، تشريع الزكاة في الإسلام ١١١، الزكاة
 أساس العدالة الاجتماعية في الإسلام ١١٤.
 الغزوات والسرايا في السنة الثانية ١١٧، غزوة الأبواء أو ودان ١١٧، غزوة بواط
 ١١٧، غزوة العشيرة ١١٨، غزوة بدر الأولى ١١٨، سرية عبد الله بن جحش
 ١١٩، وقفة عند ما نزل من القرآن ١٢١.
 غزوة بدر الكبرى ١٢٣، ترقب وانتظار ١٢٣، الخروج إلى العير ١٢٣، أبو سفيان
 واستنفار قريش ١٢٥، تخوف قريش من بني بكر ١٢٦، فرار أبي سفيان بالعير
 واختلاف المشركين في الخروج ١٢٨، مسير المسلمين إلى بدر ١٢٨، استشارة
 النبي أصحابه في القتال ١٢٩، تسنط أخبار قريش ١٣١، تعرف أخبار العير
 ١٣٢، جيش المسلمين في بدر ١٣٣، آية من السماء ١٣٣، مشورات حكيمة
 ١٣٤، تصاف المسلمين ١٣٥، رؤيا الرسول ١٣٥، تحاذل في صفوف المشركين
 ١٣٧، فشل المساعي لعدم الحرب ١٣٧، ابتداء الحرب بالمبارزة ١٣٨، تعديل
 الرسول صفوف الجيش ١٣٩، وصاة النبي للمسلمين ١٤٠، إشفاق ودعاء
 ١٤٠، التحريض على القتال ١٤١، القوى الروحية تفوق القوى المادية ١٤٢،
 الصديق والقتال ١٤٤، إمداد الله المسلمين بالملائكة يوم بدر ١٤٤، وصاة
 النبي ببعض القرشيين ١٤٧، مثل عليا للإيمان ١٤٨، قتل المشركين ١٤٩،
 موقف إنساني للرسول ١٥٠، البشرى بالنصر ١٥٠، الاختلاف على غنائم بدر
 وقسمتها ١٥١، الأبوة إلى المدينة ١٥٣، وصاة النبي بالأسرى ١٥٣، قتل
 أسيرين ١٥٤، أسارى بدر ١٥٦، وصول النذير بالهزيمة إلى قريش ١٥٧،
 افتداء الأسرى ١٥٨، قيمة الفداء ١٦٤، وعد الله الأسارى بالخير إن أسلموا
 ١٦٥، العتاب في الفداء ١٦٦، طنين المستشرقين ١٦٧، فضائل أهل بدر
 ١٦٨، نتائج غزوة بدر ١٧٠، مواطن العبرة في بدر ١٧٢.
 أحداث في السنة الثانية ١٧٩، زواج علي بفاطمة ١٧٩، وفيات ١٨١.
 السنة الثالثة للهجرة ١٨٣، تمهيد ١٨٣، غزوة الكدر ١٨٣، غزوة غطفان أو ذي أمر

١٨٤، سرية زيد بن حارثة أو القردة ١٨٥.

غزوة أحد ١٨٥، تجهز قريش لأحد ١٨٥، وصول الخبر إلى الرسول ١٨٧، مشاورة النبي أصحابه ١٨٧، استعراض الجيش ورد بعض الصبيان ١٩٠، نزول المسلمين بالشعب في أحد والتعبئة للقتال ١٩٠، الرسول يحمس أصحابه ١٩١، جيش قريش ١٩١، محاولة فاشلة ١٩٢، بدء القتال بالمبارزة ١٩٢، التحام الجيشين ١٩٣، مخالفة الرماة أمر الرسول ١٩٥، شائعة قتل الرسول ١٩٦، الذين ثبتوا مع الرسول ١٩٧، ثبات الرسول ١٩٨، ما نزل بالرسول من جراح ١٩٩، علي وفاطمة يضمندان جراح النبي ٢٠٠، مثل في البطولات في الدفاع عن الرسول ٢٠٠، بطولة امرأة ٢٠٢، مثل آخر من إيمان النساء ٢٠٤، ومن جهاد النساء في أحد ٢٠٤، المقاتلون حمية ٢٠٥، الشركات يمثلن بشهداء أحد ٢٠٧، حزن الرسول على عمه ٢٠٧، أمر الله بالعدل في القصاص ٢٠٨، بعد الواقعة ٢٠٩، صلاة النبي بالمسلمين قاعداً ٢١٠، دعاء وابتهاال ٢١٠، من استشهد في أحد ٢١١، دفن شهداء أحد ٢١٥، منزلة شهداء أحد ٢١٦، من أصيب بالجراح يوم أحد ٢١٧، معجزة نبوية ٢١٧، سبب الهزيمة في أحد ٢١٩، عبرة وعظة ٢١٩، ما نزل من القرآن في أحد ٢٢٠، آثار غزوة أحد ٢٢٧.

غزوة حمراء الأسد

٢٢٨

حوادث هذا العام ٢٣١، تزوج عثمان بأبى كلثوم ٢٣١، تزوج النبي بحفصة ٢٣١ السنة الرابعة للهجرة ٢٣٣، سرية أبي سلمة بن عبد الأسد ٢٣٣، سرية عبد الله بن أنيس ٢٣٤، سرية الرجيع ٢٣٥، أصحاب بئر معونة أو سرية القراء ٢٣٩، وقفة عند سرية الرجيع وبئر معونة ٢٤١، غزوة بدر الآخرة ٢٤٣.

حوادث في هذا العام ٢٤٥، وفاة أبي سلمة ٢٤٥، وفاة عبد الله بن عثمان ٢٤٥، مولد الحسين ٢٤٥، تزوج رسول الله بزينب بنت خزيمة ٢٤٦، تزوج النبي بأبى سلمة ٢٤٦، الحكمة في زواجها ٢٤٨، تعلم زيد بن ثابت كتابة اليهود ولغتهم ٢٤٩.

السنة الخامسة للهجرة ٢٥١، غزوة دومة الجندل ٢٥١، مصالحة عيينة بن حصن ٢٥٢.

غزوة بني المصطلق أو المريسيع ٢٥٢، تصرف نبوي حكيم ٢٥٣، حدثان عظيمان

في هذه الغزوة ٢٥٤، الحدث الأول ٢٥٤، اعتذار ابن أبي ٢٥٥، سير النبي بالجيش ليشغلهم عن الفتنة ٢٥٥، نزول سورة المنافقون ٢٥٦، مثل أعلى للإيمان ٢٥٦، آثار هذه السياسة النبوية الحكيمة ٢٥٧، احتيال وغدر ٢٥٧. حادثة الإفك ٢٥٨، إقامة الحد على من قذف عائشة ٢٦٤، صفوان بن المعطل السلمي ٢٦٤، وقفات عند قصة الإفك ٢٦٥، تفسير آيات الإفك ٢٦٨. غزوة الخندق أو الأحزاب ٢٧٥، تأليب اليهود على النبي ٢٧٥، تفضيل اليهود الوثنية على الإسلام ٢٧٥، استمرار اليهود في تأليب القبائل ٢٧٦، خروج الأحزاب ٢٧٦، استشارة الرسول أصحابه ٢٧٧، حفر الخندق ٢٧٧، تحاذل المنافقين ٢٧٨، نبوءات صادقة ٢٧٩، جيش المسلمين ٢٨٠، دهشة المشركين من الخندق ٢٨٠، نقض بني قريظة العهد ٢٨١، استجلاء الرسول الخبر ٢٨١، اشتداد البلاء والخوف ٢٨٢، اقتحام بعض المشركين الخندق ٢٨٣، قتل عمرو بن عبدود ٢٨٣، محاولة لتفريق الأحزاب ٢٨٤، الحرب خدعة ٢٨٥، نجاح التدبير ٢٨٦، دعاء وابتهاال ٢٨٧، هزيمة الأحزاب ٢٨٧، تعرف أخبار القوم ٢٨٧، الأوبة إلى المدينة ٢٨٨، منازل من الآيات في غزوة الأحزاب ٢٨٩.

زواجه ﷺ بزَيْنَب بنت جحش ٢٩٤، الروايات الصحيحة تؤيد ما ذكرناه ٢٩٧، روايات واهية مذبذبة ٢٩٨، أباطيل المبشرين والمستشرقين ٢٩٩، تهافت كلامهم ٢٩٩، تعدد الزوجات سنة من سنن الأنبياء ٣٠١، الحكمة في تعدد زوجاته عليه الصلاة والسلام ٣٠٣، الحكم العامة ٣٠٣، الحكم الخاصة ٣٠٦، خطبة النبي لزَيْنَب وفضلها ٣٠٨، نزول آية الحجاب صبيحة عرسها ٣٠٩، تشريع الحجاب في الإسلام ٣١١.

٣١٥ تزوج النبي بأم حبيبة بنت أبي سفيان
٣١٧ فرض الحج
٣١٩ وفاة سعد بن معاذ

السنة السادسة للهجرة ٣٢١، سرية محمد بن مسلمة قبل نجد ٣٢١، غزوة بني لحيان ٣٢٢، سرية كرز بن جابر الفهري ٣٢٣، سرية عمرو بن أمية الضمري ٣٢٣.

غزوة الحديبية ٣٢٥، خروج النبي معتمراً ٣٢٥، وصول النبا إلى قريش ٣٢٦.

رسل قريش ٣٢٧، بديل بن ورقاء ٣٢٨، مكرز بن حفص ٣٢٨، حليس بن
علقمة ٣٢٨، عروة بن مسعود الثقفي ٣٢٩، مثل أعلى للحب وللإيمان ٣٢٩،
رسل رسول الله ٣٣٠، سفارة عثمان بن عفان ٣٣٠، بيعة الرضوان ٣٣١،
مناوشات قريش ٣٣٢، بشائر الصلح ٣٣٢، شروط صلح الحديبية ٣٣٣،
رأي المسلمين في الشروط ٣٣٤، رؤيا رسول الله ٣٣٥، كتابة «كتاب الصلح»
٣٣٥، وقفة عند هذا الصلح ٣٣٦، أبوجندل بن سهيل بن عمرو ٣٣٦،
نحر النبي هديه ٣٣٧، الأوبة إلى المدينة ونزول سورة الفتح ٣٣٧، صلح
الحديبية فتح مبين ٣٣٨، مكاسب المسلمين من صلح الحديبية ٣٤٠، تفسير
سورة الفتح ٣٤٣، المهاجرات المؤمنات ٣٤٩، تفسير الآيتين الواردتين في هذه
الحادثة ٣٥٠.

أحداث وتشريعات في هذا العام ٣٥٢، تحريم الخمر ٣٥٢، ماهي الخمر ٣٥٤،
حكمة تحريم الخمر ٣٥٥.

تبليغ الإسلام في العالم ٣٥٧، مكاتبة الملوك والأمراء ٣٥٧، كتاب رسول الله إلى
القيصر (هرقل) ٣٥٨، موقف هرقل من الكتاب ٣٥٩، كتاب كسرى ٣٦٠،
كتاب المقوقس عظيم مصر ٣٦١، كتاب النجاشي ٣٦٣، بقية الكتب ٣٦٣،
كتاب المنذر بن ساوى ٣٦٣، كتاب أمير بصرى ٣٦٤، كتاب أمير دمشق
٣٦٤، كتاب ملك اليمامة ٣٦٤، كتب أخرى ٣٦٤.

السنة السابعة للهجرة ٣٦٧، غزوة ذي قرد ٣٦٧، لا نذر في معصية ٣٦٨، الوفاء
حتى للحيوان ٣٦٩، غزوة خيبر ٣٦٩، غزوة ذات الرقاع ٣٧٠، قدوم
مهاجري الحبشة ٣٧١، سرية بشير بن سعد ٣٧٣، سرية غالب بن عبد الله
٣٧٣.

عمرة القضاء والقضية والقصاص ٣٧٥، إقامة النبي بمكة ٣٧٧، حادثة وقضية
٣٧٨.

تشريعات وحوادث في هذا العام ٣٨١، تحريم لحوم الحمر الأهلية وغيرها ٣٨١،
تحريم نكاح المتعة ٣٨١، زواج النبي بصفية بنت حيي النضرية ٣٨٣،
حكمة زواجه بها ٣٨٥، حراسة أبي أيوب للنبي ٣٨٥، زواج النبي بميمونة
بنت الحارث ٣٨٦، الحكمة في زواجها ٣٨٧.

موقف النبي من اليهود وموقفهم منه ٣٨٩، محاولتهم الوقعة بين الأوس والخزرج

٣٨٩، الجدل بين اليهود والمسلمين ٣٩١، من مخازي بني إسرائيل وأكاذيبهم
٣٩١، اليهود بالجزيرة العربية ٣٩٣.

يهود بني قينقاع ٣٩٤، غزوة بني قينقاع ٣٩٥، قتل كعب بن الأشرف ٣٩٧.
غزوة بني النضير ٣٩٩، حصار بني النضير ٤٠٠، ما نزل في غزوة بني النضير ٤٠٢.
غزوة بني قريظة ٤٠٦، استشارتهم أبا لبابة ٤٠٧، توبة أبي لبابة ٤٠٧، نزول بني
قريظة على حكم رسول الله ٤٠٨، دم بني قريظة في عنق حبي ٤٠٩، قسمة
أموال قريظة ٤١٠، ريحانة ٤١٠، من استشهد ٤١١، قتل سلام بن
أبي الحقيق ٤١٢.

غزوة خيبر ٤١٤، الخروج إلى خيبر ٤١٥، ضخامة القوتين ٤١٥، قصة الشاة
المسمومة ٤١٧، تقسيم غنائم خيبر ٤١٨، مثل أعلى للتسامح ٤١٩، يهود
فدك وتيلاء ووادي القرى ٤٢٠، إجلاء الفاروق عمر لهم عن جزيرة العرب
٤٢١.

السنة الثامنة من الهجرة ٤٢٣، إسلام خالد وعمرو وعثمان بن طلحة ٤٢٣.
غزوة مؤتة ٤٢٦، التقاء الجيشين ٤٢٧، بلاء المسلمين ٤٢٨، نعي رسول الله الأمراء
٤٢٩، لقاء الجيش ٤٢٩، مثل أعلى للاستحياء ٤٢٩، إكرام النبي لآل جعفر
٤٣٠، نبي آل جعفر عن النياحة ٤٣١، رثاء أسماء بنت عيسى زوجها ٤٣١.

٤٣٢ غزوة ذات السلاسل

فتح الفتوح في الإسلام (فتح مكة) ٤٣٥، تمهيد ٤٣٥، سفارة
أبي سفيان بن حرب ٤٣٦، تجهز النبي للخروج ٤٣٧، كتاب حاطب إلى
قريش ٤٣٧، العظيم من يرحم الضعفاء ٤٣٨، مسيرة الجيش إلى مكة ٤٣٩،
إسلام العباس وبعض القرشيين ٤٣٩، تخوف العباس على قريش ٤٤٠،
أبوسفيان يستطلع الأخبار لقريش ٤٤٠، إسلام أبي سفيان ٤٤١، حبس
أبي سفيان بمضيق الوادي ٤٤٢، الكتيبة الخضراء ٤٤٢، رجوع أبي سفيان
إلى مكة ٤٤٣، دخول مكة ٤٤٣، إجارة أم هانئ رجلين ٤٤٥، إلى الكعبة
٤٤٦، في جوف الكعبة ٤٤٦، أذان بلال في الكعبة ٤٤٦، اليوم يوم بر ووفاء
٤٤٦، خطبة يوم الفتح ٤٤٧، العفو عند المقدرة ٤٤٨، إسلام أبي قحافة
٤٤٨، إسلام الحارث وعتاب ٤٤٩، إسلام فضالة بن عمير ٤٤٩، إهدار
النبي بعض الدماء ٤٥١، خطبة النبي غداة الفتح وإسلام أهل مكة ٤٥٥،

إسلام قريش رجالاً ونساءً ٤٥٦، بيعة الرجال ٤٥٧، بيعة النساء ٤٥٨، أكان
 فتح مكة عنوة أم صلحاً ٤٥٩، مخاوف الأنصار وتبديدها ٤٦٢، مدة إقامة
 النبي بمكة ٤٦٣، بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة وهدم بعض الأصنام
 ٤٦٤، تعويض النبي بني جذيمة عن الدماء والأموال ٤٦٥، هدم العزى
 ٤٦٥، هدم سواع ٤٦٦، هدم مناة ٤٦٦.
 غزوة حنين ٤٦٧، خروج رسول الله ٤٦٧، استعارة دروع صفوان ٤٦٨، مسيرة
 الجيش ٤٦٨، التقاء الجيشين ٤٦٩، ثبات الرسول ٤٦٩، استجابة المسلمين
 ٤٧٠، الآن حمي الوطيس ٤٧٠، تشفي بعض الأعراب وضعفاء الإيمان ٤٧١،
 موقف إنساني للرسول ٤٧٢، حنين درس في التربية النفسية ٤٧٢، غنائم حنين
 ٤٧٢، من استشهد من المسلمين ٤٧٣.
 سرية أوطاس ٤٧٣، سبایا أوطاس ٤٧٣.
 غزوة الطائف ٤٧٥، إسلام بعض العبيد ٤٧٥، الرمي بالمنجنيق واستعمال الدبابات
 ٤٧٦، تقطيع الأغاب والزروع ٤٧٦، مشورة نوفل بن معاوية الدثلي ٤٧٧،
 وفد هوازن واسترداد السبایا ٤٧٩، قسمة الغنائم ٤٨١، اعتراض بعض
 المنافقين ٤٨٣، معتبة الأنصار ٤٨٣، عمرة الجعرانة ٤٨٤، عتاب بن أسيد
 ٤٨٥، الحج هذا العام ٤٨٥، إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى ٤٨٦.
 تشريعات وأحداث في هذا العام ٤٨٨، إسلام أبي العاص بن الربيع ٤٨٨، وفاة
 السيدة زينب ٤٩٠، مولد إبراهيم ابن النبي ٤٩٠، سرية بني المصطلق ٤٩١.
 السنة التاسعة من الهجرة ٤٩٣، سرية طيء ٤٩٣.
 غزوة تبوك ٤٩٥، الحث على تجهيز الجيش ٤٩٥، البكاؤون ٤٩٦، خروج الجيش
 ٤٩٧، تحلف المنافقين وتخذيّلهم عن الرسول ٤٩٧، تحريق بيت سويلم ٤٩٨،
 المتخلفون من غير نفاق ٤٩٩، مسيرة الجيش إلى تبوك ٤٩٩، كن أباخيثة
 ٥٠٠، كن أباذر ٥٠١، النزول بالحجر ٥٠٢، انسحاب الروم ٥٠٢، وفود
 صاحب أيلة وأهل جرباء وأذرح ٥٠٢، كتاب رسول الله ليحنة ٥٠٣، كتاب
 أهل جرباء وأذرح ٥٠٣، بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر ٥٠٣، الأوية إلى
 المدينة ٥٠٤، موت ذي الجادين ٥٠٥، مكيدة بعض المنافقين ٥٠٥، هدم
 مسجد الضرار وتحريقه ٥٠٧، الوصول إلى المدينة واعتذار من تحلف عن
 الخروج إلى رسول الله ٥١٠، طوائف المتخلفين ٥١٠، المنافقون ٥١٠،

أبولبابة وأصحابه ٥١١، الثلاثة الذين خلفوا ٥١٢، وقفات عند هذه القصة ٥١٦، تفسير ما نزل من الآيات في تبوك ٥١٩.

قدوم ثقيف على رسول الله ٥٢٨، كتاب رسول الله لهم ٥٣١.

بعض من مات في هذا العام ٥٣٢

حج الصديق أبي بكر بالناس ٥٣٦، شبهة والجواب عنها ٥٣٩.

عام الوفود ٥٤١، وفد بني تميم ٥٤٢، وفد بني القيس ٥٤٤، وفد بني حنيفة ٥٤٥،

وفد أهل نجران ٥٤٦، بعث أبي عبيدة معهم ٥٤٩، وفد طييء وعدي بن

حاتم ٥٤٩، وفد زيد الخيل ٥٥٠، وفد بني عامر ٥٥٠، قدوم رسول ملوك

حمير إلى رسول الله ٥٥١، وفد أهل اليمن ٥٥٢، وفود أخرى ٥٥٢، وفد

وائل بن حجر ٥٥٢، وفد الأزد ٥٥٣، وفد الدارين ٥٥٤، وفد تغلب ٥٥٤.

السنة العاشرة من الهجرة ٥٥٥، سرية خالد بن الوليد ٥٥٥، بعث عمرو بن حزم

٥٥٥، سرية علي بن أبي طالب ٥٥٦، وفد بجيلة ٥٥٦، وفد أحس ٥٥٦.

بعث العمال والقضاة والأمراء إلى اليمن ٥٥٨، بعث معاذ بن جبل إلى اليمن ٥٥٨،

بعث أبي موسى الأشعري ٥٥٩، بعث علي بن أبي طالب ٥٦٠، أمراء

وعمال آخرون ٥٦١.

جملة المغازي والسرايا والبعوث ٥٦٢

حجة الوداع ٥٦٧، الأذان بالحج ٥٦٧، الخروج للحج ٥٦٨، بم أحرم

النبي ٥٦٩، في مكة ٥٧٠، الطواف بالبيت ٥٧٠، إلى الصفا والمروة ٥٧٠،

إلى الأبطح ٥٧١، قدوم علي ٥٧١، الخروج إلى منى ٥٧١، إلى عرفات

٥٧٢، خطبة عرفة ٥٧٢، ما نزل في يوم عرفة ٥٧٥، خطأ مشهور ٥٧٥، إلى

المزدلفة ٥٧٦، إلى منى ٥٧٦، إلى الكعبة ٥٧٧، خطبة يوم النحر ٥٧٨، المقام

بمنى ٥٧٨، خطبة أوسط أيام التشريق ٥٧٩، فائدة ٥٧٩، إلى الأبطح بمكة

٥٨٠، في غدير خم ٥٨٠.

أحداث في هذا العام ٥٨٢، وفاة إبراهيم ابن النبي ٥٨٢، تنبؤ مسيلمة ٥٨٣، تنبؤ

الأسود العنسي ٥٨٤.

السنة الحادية عشرة ٥٨٥، بعث أسامة بن زيد ٥٨٥.

مرض النبي ووفاته ٥٨٧، النذر بقرب أجل النبي ٥٨٧، ابتداء المرض ٥٨٧،

اشتداد المرض ٥٨٨، صلاة أبي بكر بالناس ٥٨٩، يوم الخميس ٥٩٠، تنبيه

٥٩٠، خروج النبي إلى المسجد ٥٩٠، إن للموت لسكرات ٥٩٢، صحوة الموت ٥٩٣، في الرفيق الأعلى ٥٩٣، هول الفاجعة ٥٩٤، خطبة الصديق ٥٩٤، في سقيفة بني ساعدة ٥٩٥، بيعة الصديق ٥٩٦، البيعة العامة ٥٩٦، خطبة الصديق ٥٩٧، تجهيز رسول الله ٥٩٨، إنفاذ جيش أسامة ٦٠٠، المثل الكامل ٦٠١، الفضيلة الإنسانية في ذروة كمالها في نبينا محمد ٦٠٢، صفاته الخلقية ٦٠٩، نظافة جسمه وطيب ريحه ٦١١، كمال عقله ٦١٢، فصاحة لسانه ٦١٢، شرف نسبه وكرم محتده ٦١٨، النبي الزوج ٦٢٠، النبي الأب ٦٢٧، النبي الإنسان ٦٢٩، النبي المربي المعلم ٦٣٠، النبي مع ربه ٦٣٣، النبي مع أصحابه ٦٣٧، النبي الرؤوف الرحيم ٦٣٩، النبي البطل الشجاع ٦٤٢، النبي الوفي بالمعهد ٦٤٤، النبي العفو الحليم ٦٤٦، النبي الكريم الجواد ٦٤٩، النبي الزاهد ٦٥١، النبي الحبيي ٦٥٤، النبي المتواضع ٦٥٦، النبي العادل ٦٦٠، النبي الصادق الأمين العفيف ٦٦٢، آدابه الاجتماعية ٦٦٣، عظمة الشخصية المحمدية وأثرها في الدعوة ٦٦٥، عالم في فرد ٦٧٢، مراجع الكتاب ٦٧٣

* * *

الفهارس العامة

٦٧٧	١ - فهرس الآيات القرآنية
٦٩٥	٢ - فهرس الأحاديث النبوية
٧١٧	٣ - فهرس الأعلام
٧٣٩	٤ - فهرس القبائل والأمم والجماعات والدول والممالك والحضارات
٧٤٧	٥ - فهرس الأيام والغزوات والوقائع
٧٥١	٦ - فهرس الأماكن والبلدان والبحار والأنهار والأصنام
٧٥٩	٧ - فهرس تاريخي متصل للاحداث السيرة والتشريعات ونحو ذلك
٧٦٣	٨ - فهرس الشعر
٧٦٧	٩ - فهرس الموضوعات

* * *